القوى الاجتماعية
فى الثورة العرابية

د. لطيفة محمد سالم





الهيئة المصرية العامة للكتاب

القوى الاجتماعية في الثورة العرابية

د. لطيفة محمد سالم

جامعة الزقازيق - فرع بنها



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨١

تمهيد

مصر والتسلط الأجنبى
١٨٤٨ – ١٨٨١

مصر والتسلط الأجنبي
١٨٤٨ — ١٨٨١

جاءت معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وفرمان الباب العالى عام ١٨٤١ لكى يقضيا على تلك الانتصارات التى حققها محمد على ولتعود مصر الى حدودها بعد انتصار السياسة الأوربية ولتبدأ فترة جديدة من تاريخها اصبحت فيها تحت الوصاية الدولية والرأسمالية الأوربية ، وساعد على تحقيق ذلك خلفاء محمد على وما هم الا غرباء عن مصر اجتهدوا فى أن يحققوا مصالحهم الخاصة دون مصلحتها .

من المعروف ان المصالح الأوربية وجدت منذ القرن التاسع عشر على وجه الخصوص بسبب الثورة الصناعية ، فالدول الغربية تسعى للحصول على المواد الخام وعلى الأسواق وعلى توظيف رؤوس الأموال، ومصر كانت المجال المناسب لذلك .

وجدت المصالح الأوربية فى مصر منذ فترة مبكرة ، ومع محمد على بذل الرأسماليون الأجانب المساعى ، لكن محاولاتهم كانت محدودة ما لبث أن قضى عليها مع عباس الذى كان يكره النفوذ الأجنبى ، وبالرغم من ذلك تمكنت انجلترا بدهائها أن تعالج تلك الشخصية القاسية وأن تتوغل فى أعماقها فتظفر فى النهاية بالحصول على مشروع السكة الحديدية بين الاسكندرية والسويس وتفوز بالقرب منه ، ومن هنا وضعت الرأسمالية الانجليزية بصماتها على مالية مصر واقتصادها وأصبحت تتفوق على بقية الدول الأوربية بفضل الامتيازات التى حصلت عليها .

ومع سعيد انقلب الميزان لصالح الوجود الفرنسى خاصة والأوربى عامة ، وتوسع الرأسماليون الأجانب فى تصدير الأموال للسوق المصرية

على شكل قروض لتنفيذ المشروعات ، واقتضى الأمر اقامة أول بنك على ارض مصر عام ١٨٥٦ واستتبع ذلك انشاء الشركات ومنح امتيازاتهـا للأجانب ، وفازت فرنسا بامتياز قناة السويس ، وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية ، وتربعت على عرش الاقتصاد المصرى .

ووفد الأجانب على مصر على اختلاف جنسياتهم وتجمع أغلبهم صفات المغامرة والاحتيال وفتحت مصر أبوابها على مصراعيها أمام سيلهم المتدفق ونشأ ما سمى بالمصالح الأجنبية وألقى على مصر حماية هذه المصالح فى اطار نظام الامتيازات الأجنبية الذى عانت منه الأمرين ، والذى أعطى الأجانب بسخاء على حساب المصريين .

نجم عن الامتيازات وجود سلطات متعددة لعدد كبير من القناصل قدر بسبعة عشر قنصلا كل منهم الحاكم الفعلى لجاليته ، طبقوا قوانين مختلفة دائما وأبدا تنصر رعاياهم وترعى مصـالحهم . وشـاع الفساد وانتشر على أرض مصر بفضل تلك المحاكم القنصلية وانقلبت الأوضاع فبعد أن كانت الامتيازات تعتبر منحة من حكام مصر لحمـاية التجـار الأوربيين أصبحت سـلاحا قويا فى أيدى هـؤلاء يسـتخدمونه لاذلال المصريين والسيطرة عليهم حتى هدموا أركان السلطة .

صاحب النشاط الاقتصادى الأجنبى فى مصر نشاط ثقافى ، ففتحت الجاليات الأجنبية المدارس ، وقام التعليم الأجنبى فى مصر مسـتظلا بالامتيازات الأجنبيه غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطان ولا ملتفت الى حاجة الشعب ولا معنى الا بنشر ثقافة البلاد التى جاء منها .

كان محظورا على الأجانب أن يمتلكوا الأراضى ، لكن مؤسس الأسرة الحاكمة أنعم عليهم بالأبعاديات ، وسمح سعيد لهم بشراء ما يريدونه من الأراضى ، ورخص لهم بانشاء وابورات لحليج الأقطان فى تلك الأراضى . وهكذا امتلك الأجانب كل شيء وتمتعوا بتلك الأوضاع التى أعطتهم المزيد من السيطرة تلك السيطرة التى كللت بالقروض والتى رحب بها حكام مصر بل وسعوا اليها .

عقد سعيد أول قرض دولى فى تاريخ مصر ، فهـو مبـذر حتى فيما لا يمتلكه ، وأمام ذلك كان لابد من القروض وهى وسيلة حيوية للمال الأوربى فى الربح السريع . هذه القروض كان من ورائها أهداف سياسية اذ ان أصحاب تلك البيوتات بايعاز من حكوماتهم كانوا يطلبون ويلحون للسماح لهم بالاشراف على مالية البلاد ضمانا لقروضهم . ومضى سعيد فى هذا الطريق مؤيدا ومشجعا من فرنسا ، وارتفعت الفوائد وأعطيت الضمانات ودائما كانت ايرادات أراضى المديريات .

ويستلم اسماعيل الأمر ، ومصر محاطة بالديون ليستمر هو الآخر ، وكان من الأسس التى اعتمد عليها فى برنامجه اللجـــوء والاستعانة بل والاعتماد الكامل على الرأسمالية الأجنبية التى راحت تتسابق خاصة بعد افتتاح قناة السويس رأس المصالح الاقتصادية والسياسية ، وبعد ذلك التغلغل لمظاهر الحياة الأوربية فى مصر ، وشهد اســماعيل قمـــة النفوذ الرأسمالى الذى ظهر واضحا فى تلك الشركات الزراعية والتجارية من ناحية وفى القروض من ناحية أخرى ٠

كانت مهمة البيوتات المالية فى مصر تزويد أوربا بالخامات المصرية بل والتحكم فى زراعة المحاصيل وفقا لحاجة اســواقها ، ووضـــح ذلك بالنسبة للقطن كمادة نقدية ، وكثرت الشركات الانجـــليزية ومنحت الامتيازات الواسعة ، وتعانقت المصالح الانجليزية والفرنسية ، وكان للنجاح السريع الذى أحرزه بنك « دى ايجبت » مشجعا للدول عـــلى انشاء الكثير من البنوك الأجنبية ، كما أقيمت بنوك فردية ذات صلات وثيقة ببنوك لندن وباريس ، وراح التسلط البريطانى يطغى على مصر ودخل معه النفـــوذ الفرنسى ليشاركه بعـــد أن ثبت اقدامه بامتيـــاز قناة السويس ، وبتلك المشروعات التجارية ، ولا ننسى أن اســـماعيل نشأته باريسية ويميل الى كل ما هو فرنسى ، وهذا ما دعاه أن يجعـــل لفرنسا المكانة الأولى فلغتها هى المستعملة ، وقانونها هو المرعى الاجراء ، وبذلك أصبح الجزء الأكبر من مصر واقعا بين الأيدى الانجليزية والفرنسية ،

أما باقى الأجزاء فكان لبقية الدول بعد أن سيطر الأجانب عـــلى المجتمع المصرى سواء فى المدن أو الريف ٠

وازداد التمتع بالامتيازات الأجنبية مع اسماعيل ، ولم تكن للأوربيين فقط فهناك شرقيون من شوام ويهود ، واستمر استغلال القناصل فى الحصول على المزيد من الطلبات ، وأغدق اسماعيل العطاء عليهم ، فمنحهم الأراضى والهبات، وامتلأت صحافة الفترة بالاكراميات التى قدرت بآلاف الفدادين لهؤلاء الأجانب الذين لم يحمدوا تلك النعم ، وتمت على أيدى معظمهم حوادث الشغب التى كان لها الأثر السىء على المجتمع بكل قواه ، فقد خالفوا شريعة مصر وقوانينها ، بل وهددوا أمنها ٠ وأمام كل ذلك كانت السلطات المصرية تقف مكتوفة الأيدى أمام سلطات القناصل ٠ كل هذا على مسمع من اسماعيل وهو لا يتحرك ، وعندما اراد التحرك كانت النتيجة المحاكم المختلطة التى ضاعفت الأعباء على شعب مصر .

فقدت مصر كيانها بذلك النظام الدولى الذى انشأه اســماعيل ،

والذى حد من سيادة مصر فى التشريع والقضاء ، وأعطى الحقوق للاجانب وأجبر المصريين على الخضوع لتشريع وقضاء أجنبيين عنهم فى حقيقتهما ومظهرهما ولغتهما. وبذلك راح التسلل الى السلطة القضائية ، وفرضت المحاكم المختلطة على مصر تلك التى كانت لها سلطة أقوى من سلطة الحكومة بل وعليها •

لقد أراد اسماعيل أن يصلح الحال ويقضى على جبروت المحاكم القنصلية ، فرأى انشاء هذه للفصل فى الدعاوى المدنية والتجارية والجنائية ، وأعطى امتيازها لخمسة عشر دولة أوربية ، وحصلت على حقوق لم تكن فى معاهدات الامتيازات نفسها ، وكان من أسوأ نتائج وجودها تشريع رهن الأراضى لضمان القروض ونزع ملكيتها فى حالة عدم الدفع •

وبذلك خضعت العدالة فى مصر لأوربيين من مختلفى الجنسيات ، وكانت أحكام المحاكم من أشد الضربات ، فقد أسرفت فيها ، حكمت لصالح الأجانب من المقاولين والموردين والأفاقين المختلفى الملل ممن كانوا يطالبون بما ليس لهم حق فيه أو باضعاف ما يستحقون • وهذا بطبيعة الحال أدى الى تضخم الديون التى زادت من المتاعب ، وبهذه المحاكم اصبح المصريون أجانب فى بلدهم وعلى ارضهم ، والأجانب هم أصحاب المصالح الحقيقية فيها •

مضى اسماعيل فى مسألة القروض ، فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات فى عقدها ، فهى تعطيه الراحة النفسية التى تتفق مع أهوائه ، وكان من أدوات عظمته تلك المظاهر وذلك الاسراف الذى سهل له طريق البنوك ، واغترفت يداه من الخزانة لا ليرضى نزعاته الشخصية فحسب بل ليشبع نهم الطامعين الملتفين حوله • فهو يعتقد انه حاكم لبلد لم يعد جزءا من افريقيا بل هو قطعة من أوربا ، وبالاضافة الى اسرافه الذى كشفته لجنة التحقيق عام ١٨٧٨ ، فهناك حبه للتوسع فى أملاكه الخاصة من الأراضى ، كما جاءت رغبته فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ليبذل الكثير والمزيد من الأموال فداخليته كانت تتوق الى ذلك ، فأعطى الذهب حتى يشترى الفرمانات التى تهىء له ما يريد ، وكان آخرها الفرمان الشامل لعام ١٨٧٣ الذى أطلق يده فى شئون مصر . هذا وقد تأثرت السوق المصرية بالتغيير الفجائى لأسعار القطن ، فانخفضت أسعاره عقب نهاية الحرب الأمريكية • فكان كل ذلك فرصة لأصحاب رؤوس الأموال الأجنبية لتمويل الخزينة المصرية • وارتمى اسماعيل فى أحضان القروض ، وكان على تلك البيوتات المالية التى صار لها الكلمة الأولى فى

سياسات الحكومات أن تقدم القروض أمثـــال « أوبنهايم ، ارلانجر ، فرهلن ، جوشن » وتستحوذ على أعلى الفوائد ، وكانت جميع عملياتهـــم وأرباحهم التى يحصلون عليها مؤيدة من دولهم ، وأصبح لانجلترا النصيب الوافر من تلك القروض ·

وبذلك نمت سياسة التوسع فى القروض ، وازدهرت تبعا لذلك سياسة الاستثمار المالى المصرفى فى شكل الرهونات على الأراضى التى شكلت خطرا كبيرا على مصر، واصبحت الاسكندرية مأوى للمرابين الذين تنافسوا على أن يقدموا عروضا سخية يحققون من ورائها الثروات الضخمة وازدادت الديون ، وأخذت البنوك الانجليزية والفرنسية تزين لاسماعيل طريق الاستدانة ، واستمر هو يمد يده ويأخذ وبشروط عجيبة لم تحدث فى تاريخ أية دولة ، واشتملت القروض على تسعة وكان أولها فى نهـاية ١٨٦٤ وآخرها فى عام ١٨٧٨ وارتفعت أسعار فوائدها فعجزت مصر عن السداد حتى بعد ان باعت نصيبها فى اسهم قناة السويس والذى التهمته انجلترا بأزهد الأسعار ·

وامام ذلك فلابد للمزيد من التدخل الأجنبى، وهنا كان الاشراف الأوربى وهو بداية الخطوات للزحف السياسى والتدخل السافر خاصـــة بعد الارتباك المالى واهتزاز ثقة البيوتات المالية فى مقدرة مصر على سداد الديون · ورغبة فى بث الطمأنينة طلب اسماعيل من انجلترا أن ترسل اليه موظفا ماليا كفئا لدراسة حالة مصر المالية واصلاح ما بها من خلل ، وجاءت « لجنة كيف » الانجليزية واقترحت الاصلاح بأن تخضع مصر للمشورة الأوربية ، هذا فى الوقت الذى أرسلت فيه فرنسا احد موظفيها ليعاون اسماعيل فى تنظيم ماليته هادفة ألا تنفرد انجلترا بمصر ·

استمر اسماعيل فى سياسة التهدئة ، فوحد الديون وقرر انشاء ادارة خاصة للدين ـ صندوق الدين ـ عين فيها موظفون أجانب لانقاذ ما يمكن انقاذه ، كان لهم السلطة الكاملة فى التصرف ، ولم تكن انجلترا راضية عن هذا الوضع الذى أشرك غيرها معها فى مسائل تريد الانفراد بها ، فرغبتها ألا ترى سلطة الا سلطتها ، فراحت تمارس ضغطها الذى كان من نتيجته « لجنة جوشن وجوبير » وذلك لاجراء دراسة دقيقـــة عن الحالة ، وفرضت المراقبة الانجليزية الفرنسية على المالية المصرية ، وغدت مصر وكأنها تحت الحكم الثنائى الذى طرق باب الممارسة السياسية ، واسست لجنة تحقيق أوربية لصالح حملة السندات ، وعلى يدها كان لابد من ممارسة الضغط الكامل على شعب مصر · وفيها سعى العضو الانجليزى لاحلال نظام يكون بديلا عن المراقبة ويحد من سلطة اسماعيل

بل ينهيها الا وهو تأليف وزارة مسئولة يكون لانجلترا وفرنسا نصيب الاشتراك فيها ، وتم له ما أراد ، وخضعت مصر لوزارة أوربية رأسها توبار الأرمني وتحكم فيها وزير المالية الانجليزى والأشغال العمومية الفرنسي .

وبذلك أنزل اسماعيل من على عرشه فعليا ولكنه بقي اسميا ، فلا بد له من أن ينقذ موقفه ويعيد السلطة التى سلبت منه خاصة وأن قوى الشعب كانت تعـانى تحت حـكم تلك الوزارة ، وتم التعاون بينه وبين الحركة الوطنية وسقطت الوزارة لكن تكونت غيرها بنفس الوضع بنـاء على اصرار انجلترا وفرنسا وعارضت الجبهة الوطنية ، ومضى الزحف الثورى واشتعل مجلس النواب وقدمت « اللائحة » تلك التى قبلها اسماعيل على الفور وأقصى الوزارة ، وسقط الوزيران الأجنبيان وكلف شريف بتشكيل وزارة وطنية ، وراح يعد الدستور الجديد . وكان لابد لانجلترا وفرنسا من الوقوف أمام ذلك الخطر الذى يهـدد مصالحهما ، فتم الاتفاق مع الدول وتحقيق رغبتهما بعزل اسماعيل وتعيين توفيق الممثل الشرعى لسياستهما والذى أدرك منذ اللحظة الأولى انه مدين بعرشه اليهما .

واستقالت وزارة شريف بعد أن رفض توفيق الدستور ، وتم اسناد الوزارة الى رياض ، وعادت سلطة المراقبين مرة أخرى ليكونا مع رياض ثلاثيـا أوتقراطيا له النفوذ المطلق عـلى أرض مصر جميعهـا ، فمضـت اجراءتهم غير المحدودة وملكوا السـلطة فاستولوا عـلى كل شيء حتى حصة مصر فى الأرباح السنويةلشركة قناة السويس بيعت وانتهى ما كان يربط مصر بها ، وصدر قانون التصفية بناء على توصية لجنة التصفية التى تكونت من أعضاء أوربيين لاعادة تنظيم الديون ، وتبعا لذلك القانون وضعت مصـالح الدائنين فى المرتبة الأولى ، وعانت مصر وزادت الأعبـاء المالية على الشعب الذى تحول الى حطام بعد أن التف حول عنقه حبـل الديون .

وبعد ذلك الانتصار المالى والسياسى الذى أحرزته انجلترا وفرنسا مضى المزيد من استغلال الأجانب ، فازدادت الاستثمارات المالية ، وصدرت أوامر توفيق المتلاحقة بالموافقة على تكوين شركات أجنبية ، وتابع النفوذ الأجنبى سيطرته فى شكل بنوك لم تعد قاصرة على القاهرة والاسكندرية بل زحفت الى عواصم المديريات ، وانتشر المستوردون للعمـلات المزوره والمرابون والمستغلون من السماسرة الأجانب ، وصدرت أحكام المختلطة لصالحهم . وأمام كل ذلك كانت مصر ضعيفة فاقدة لكل شيء ، سلبت منها السلطات جميعها ليتولاها الأجانب بأنواعهم وما عليها الا أن تتحمل

المزيد من الأثقال لتئن قواها بتلك الأعباء ، وليزداد سخطها بتلك التبعات ليتجمع ذلك كله في بؤرة واحدة هي الثورة .

اشتركت قوى مصر الاجتماعية في الثورة ، ومن خـــلال ذلك كان الحكم على العمل الثوري من حيث تأثيره على القوى الأساسية في المجتمع والذي أعطاها دفعة للمطالبة بالرغبة في ايجاد حياة أفضل تسودها العداله التي لا تتحقق الا بتغيير جذري يشمل الشكل السياسي والاقتصـــادي والاجتماعي وذلك بالاستقلال والحرية والدستور ، ورفع المعاناة عن الفئات الكادحة واقصاء الظروف المادية القاسية والاطاحة بعلاقات الانتاج القديمة . فالفلاحون قاسوا طوال عهد أسرة محمد علي، سخروا وفرضت عليهم الضرائب التي دمرتهم ، واستعملت معهم كل وسائل التعذيب ، وعانوا من الأجانب وتسلطهم وأصبحوا يئنون تحت أعباء الديون بعد أن سلبوا كل شيء ، والتجار والحرفيون لم يكونوا بأحسن حالا منهم فخضعوا لنفس تلك الظروف الصعبة، وايضا المثقفون بجناحيهما المدني والعسكري تعرضوا لمساوىء المجتمع ، وصبوا مجهودهم في تلك المؤسسات الثقافية التي اعطتهم الفرصة للتعبير عن فكرهم سـواء عن طريق الصحافة أو الجمعيات التي كانت بمثـــابة تنظيمات بلورت الرأى العام ، وغبن العسكريون في ظل النظام القائم اذ وقع عليهم الجور والعسف فخلق منهم رغبة أكيدة للاطاحة به ، وأخيرا ملاك الأراضي وعلى رأسهم كبارهم سواء كانوا من المصريين أو الأتراك المستنيرين انضموا للسخط السائد بعد أن نبتت مبادىء جديدة على الأرض المصرية تضمنت ضرورة تطبيق وممارسة الحياة النيابية والقضاء على النفوذ الأجنبي الذي بلغ مداه . وكان ذلك نواة لتكوين الحزب الوطني الذي حوى العناصر المناوئة للحكم وفتح أبوابه ليضم مؤيدي الحرية ، وتلتحم قوى الشعب ليعلن الجميع ضرورة الثورة على الأوضاع السائدة .

ومن هنـــا كانت الثورة العرابية بمثـــابة الضرورة الاجتماعية أو الأمر الطبيعي الذي فرضته الظروف التي مر بها المجتمع من الانحـراف والظلم واستغلال الأقلية المحدودة للأكثرية الساحقة وتداخـــل الأجانب تداخلا شل معاني القومية ، وقضى على القيم ، واحتكر الاقتصاد وتدخـل في السياسة ، فكان لابد من دفع هذا الجور الذي لا حدود لسلطانه ، ففرضت الثورة على مصر لتكون حركة شاملة تهدف تغييرا أساسيا في كيان وتركيب وأيديولوجية المجتمع ، فهي شاملة ، عميقة، عامة ، لا تحفل بالأشياء السطحية بقـــدر ما ركزت جهـــودها على أساسيات المجتمع وركائزه .

الباب الأول

القوى الاجتماعية
فى مرحلة التكوين الثورى

الفصل الأول : الفلاحون .

الفصل الثانى : التجار والحرفيون .

الفصل الثالث : المثقفون :

(أ) الجناح المدنى .

(ب) الجناح العسكرى .

الفصل الرابع : ملاك الأراضى .

الفصل الأول

الفلاحون

مصر الأرض الطيبة التى عاش عليها ابناؤها منذ آلاف السنين، جرى فيها النيل ليطبعها بذلك الطابع الذى تميزت به فى التاريخ ، وليجعلها خضراء بفضل تلك الأيادى الطاهرة التى تعمل فى صمت من أجل مصر .

والفلاحون هم سكان مصر حيث أنهم اذا قيسوا بالطوائف الاخرى كانت لهم الغلبة ، فعدد زراع مصر فى عام ١٨٨٢ كان ٤ر١١٩ر٦٧١ مليون نفس من عدد السكان البالغ ٦ر٨١٢ر٩١٩ نفسا (*) فمصر بلد زراعى ايرادها أرضها وهذه نتيجة طبيعية لما تتمتع به من خصب تربة واعتدال مناخ وليونة سطح ، من هنا نصل الى امكانية اطلاق لفظ الأهالى على هؤلاء الفلاحين .

والحياة المصرية تعتمد أساساً على الأرض والفلاح ، ذلك الفلاح الذى غرس نفسه فى تربة وطنه فزاد من خصوبتها حتى ليصح أن يقال ان مصر هبة الفلاح كما أنها هبة النيل . والفلاح رجل قوى البناء ، شديد الأواصر صلب العود ، يتحمل الصبر ويعمل ليلاً ونهارا يقاسى لهيب حر الصيف تحت وهج الشمس وزمهرير البرد فى الشتاء ، وهو يمثل البيئة المصرية الحقيقية التى تشخص الأمة المصرية من حيث العادات والتقاليد والصفات الاجتماعية والعنصرية أليس أبناؤه هم الضباط والعلماء والقضاة ، هذه الفئات النابعة من الريف والتى شكلت عناصر الأمة .

(*) يوسف نحاس : الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف والمقطم ، ١٩٢٦ ، ص ص ٦٩ ، ١٠٤ .

الفلاحون وعميد الأسرة :

بمجيء محمد على الى مصر ، وتوليه الحكم رأى أن يملك أرض مصر وما عليها ، فقد اعتبر أن الأراضى ملك للحكومة مدعيا التسلط عليهما لأنه الحاكم النائب عن أمير المؤمنين ، فقام بانتزاع الأراضى من الملاك فتحولت مصر تقريبا الى مزرعة حكومية كبيرة · ووزع منفعتها على الفلاحين كاطيان مؤجرة وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة او اربعة او خمسة افدنة ، وذلك بعد أن الغى نظام الالتزام الذى كان سائدا قبله ، فآلت حقوق الملتزمين وسلطتهم الى الحكومة التى صارت علاقتها مباشرة مع الفلاحين الذين أصبحوا ينتفعون بالأرض ماداموا يدفعون ضريبتها (١) ، وأخضع الفلاحين لنظام أصبحوا بموجبه تحت رحمته ، وأصبح هو سيدهم الأعلى هدفه الوحيد تنمية الثروة وتوسيعها على حسابهم وهنا تحول الفلاح الى وضع شبيه بوضع القن وذلك فى ظل نظام الاحتكار فقد كان يبذر ما يؤمر به فى الوقت الذى يحدد له ثم يقدم ما يحصده الى الحكومة ولم يكن فى استطاعته أن يبيع محصوله ولكنه كان يجبر على تقديمه للدولة وبالأسعار التى تقرر وغالبا لا تغطى ما يفرض عليه من ضرائب · (٢)

ولم يكن من الممكن بيع الأرض أو رهنها أو وراثتها شرعيا ، وكان للدولة الحق الذى كثيرا ما كانت تمارسه فى نزع الأرض دون تعويض ، وبذلك ساءت حالة الفلاح ، فلم يكن له الحق فى تلك الأرض التى يزرعها انما هى ملك للحاكم والباشوات الأتراك ·

أما عن الضرائب فقد وصلت الى أقصى حد حتى أنه أصبح من العسير على الفلاحين أن يمدوا أنفسهم بضروريات الوجود ، واذا تأخروا عن آداء الضريبة نزعت الأرض من تحت أيديهم واعطيت لفلاحين آخرين ، واذا استطاع الفلاح عن طريق التحايل أو المهارة أو القوة الانسانية الخارقة فى الاقتصاد أو اى شىء آخر أن ينجح فى تسليم كميات زائدة كانوا لا يدفعون له نقدا ولكن بالآجل مقابل الضرائب المستقبلة ، وقد طبق محمد على المسئولية الجماعية فى مسألة الضرائب وكانت هذه الطريقة منافية للمبادىء الاقتصادية ، وقد تحملت القرى أثقالا باهظة وتعذر على أخصب الجهات تسديد الأموال المتراكمة عليها · وبالرغم من مشروعات محمد على

---

(١) احمد زكى بدوى : تاريخ مصر الاجتماعى ، القاهره ، مطبعة صلاح الدين ، ١٩٣٤ ، ص ٢٢٣ ·

(٢) لاندز ، دافيد : بنوك وباشوات ، ترجمة د· عبد العظيم أنيس ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ص ٧١ ·

الخاصة بالرى الا ان استفادة الفلاح منها لم تعوض تلك الضرائب التى ارتفعت بسببها .

أضف الى ذلك تلك السياسة العسكرية التى انتهجها الحاكم ، وقد كان الفلاح يجبر على التجنيد ويترك أرضه ويرحل ، وأمام تلك الظروف القاسية التى تعانقت حول الفلاح كان عليه ان يترجم ذلك الضيق بطريقة عملية فقد ترك الأرض ورحل بعيدا فى هدوء ، وعندما كان يضيق به الأمر كانت النتيجة احراق وتخريب المحاصيل ، وهذا مما أدى الى صدور لائحة الفلاحين التى تضع أقصى العقوبة لذلك ، ثم تلك الانتفاضات التى قام بها الفلاحون وتمكن محمد على من اخمادها . وكثيرا ما كان يهمل الفلاحون زراعة الأرض احساسا منهم بأن ما تغله ليس لهم انما هو لغيرهم .

الفلاحون وحتى بداية حكم اسماعيل :

رغم أن فترة حكم ابراهيم كانت أشهرا قليلة الا أنها تركت بصماتها السيئة على الفلاحين الذين أساء معاملتهم ونكل بهم . أما عباس فقد استطاع أن يخفف العبء المالى على الفلاحين وان يعيد عشرات الألوف من الرجال الى الأرض كما سمح للفلاحين بالتصرف بالبيع فى منتجات الأرض ــ خاصة الأرز ــ كما يشاءون على شرط ان يتعهدوا بتسديد الأموال المطلوبة منهم نقدا ، وفى بعض الأحيان كانت الضرائب تسدد عينا « بقبول القطن للميرى » (١) .

وفى عهده استمرت السخرة وكثيرا ما كان الفلاحون يتركون أراضيهم وزراعتهم للعمل فى مناطق بعيدة عنها فتأخرت عليهم الضرائب لذا رأت الحكومة أن تجعلهم يستغلون الأرض بينما ترسل الى تلك الأعمال من « لا يملكون أطيانا » (٢) ليقع العبء على المعدمين الفقراء كما هو المعتاد دائما .

وجاء سعيد ليكون له الفضل فى تحويل الزراعة من الشكل الحكومى الى الزراعة الحرة نسبيا ، ومن نظام السوق المقفلة الى نظام السوق المفتوحة للقطن ، حيث كان فى ذلك الوقت قد ازداد الطلب على القطن المصرى من أسواق أوربا فكان لابد من التوسع فى زراعته ، وفى الحقيقة فان ولاية

---

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، الفلاح ، دفتر ٤٦٦ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٦٩ ، ٢٧٢ .

(٢) نفس المصدر ، رقم ٢٠٩ .

سعيد تعتبر نقطة هامة فى تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى اذ أنها أعطت التكوين الكامل والموقف المحدد للفلاحين ، فقد كان نظامه الذى وضعه للأراضى ثورة أجتماعية .

كانت باكورة أعماله الغاء الاحتكار نهائيا ، فأصبح الفلاح غير مرغم على زراعة الأصناف التى تعينها الحكومة ، وبالرغم مما قدمه فى اللوائح التى اصدرها بشأن الملكية الزراعية الا انه صرح فى عام ١٨٥٥ أن لمن يشاء من الفلاحين أن يترك أطيانه الخراجية اذا كان غير قادر على زراعتها ودفع أموالها ، فترك الكثيرون أراضيهم للحكومة ، وقد بلغ ما ترك فى مديريتى الشرقية والدقهليه وحدهما ٤٦٫٨٦٦ فدانا وهى الأطيان التى عرفت باسم « متروك » وكان نتيجة ذلك انتقال جزء كبير من أراضى الفلاحين الى كبار الملاك (١) .

وفى عام ١٨٥٦ رفع سعيد الضريبة على الأراضى الخراجية المتوسطة والقليلة الجودة من الربع الى الثلث وهذا أيضا دفع الفلاحين لترك أراضيهم (٢) واستمرت السخرة مع سعيد .

أما عن العلاقة بين سعيد والضرائب ، فقد أصبحت تجبى نقدا لا عينا ولكن أعطيت التسهيلات بأنه من الممكن فى بعض الحالات وعند الضرورة اذا تعذر النقد تقبل العينية وخاصة القطن ، كذلك رأى أن توزع الضرائب على الأفراد لا على القرى وأن يقوم بتحصيلها الصيارفة المخصصون لها لا مشايخ البلاد ، وتنازل عن جميع متأخرات الأموال المطلوبة من الفلاحين كذلك عدلت أوقات جمع الضرائب فأصبحت تتناسب مع موسم حصاد المحاصيل ، كما حددت قيمة الضرائب نفسها وقيدت فى سجلات خاصة (٣) .

ويعتبر عصر سعيد هو عصر التعاطف مع الفلاح حيث أنه قد أغلظ مع كبار الملاك الذين فرض على أراضيهم ضريبة العشر بعد أن كانت معفاة من الضرائب ، كما حرم على مشايخ القرى ارغام الفلاحين على العمل بدون أجر أو تعويض ، وفى عام ١٨٦١ أمر بشنق أحد المشايخ فى منوف بسبب ممارسة الظلم والطغيان على الفلاحين (٤) .

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٣٠ ، تراجم عباس وسعيد واسماعيل .

Baer : A history of Landownership in modern Egypt 1880-1950 London 1962, p. 30.

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٦ ، رقم ١٤٧ .

(٤) بير ، ج : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة د. عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال ، القاهرة ، مكتبة الحرية ١٩٧٦ ، ص ١٢٣ .

وكانت الخدمة العسكرية لا تتجاوز طبقة الفلاحين ، فجعلها سعيد اجبارية فى كل الطبقات وسن لها نظاما للاقتراع يدعى بموجبه جميع المصريين بلا فارق بينهم الى حمل السلاح •

ومنذ أن وجدت الملكية الفردية مع سعيد أصبح هناك فلاحون من متوسطى الملاك يعيشون من ريع اطيانهم ويزرعونها بأنفسهم ، وكانوا أكثر حظا من صغار الملاك بالنسبة للمكانة الاجتماعية ، وقد استطاعوا أن يوسعوا فى بعض الأحيان من املاكهم عن طريق مشتروات الأراضى من الميرى(١) ، وهناك أصحاب الملكيات الصغيرة ـ صغار الملاك ـ يزرعونها نأحيانا لا تكفيهم ويعملون لدى كبار الملاك ، وأخيرا من لا يمتلكون شيئا وكانوا السواد الأعظم ، وهما قسمان يقومون على الدوام فى أراضى الملاك ليزرعوها يكدون كدهم اليومى بأجور تختلف باختلاف الجهات وضرورة العمال وكثرة عددهم أو قلته •

والنوع الأول هو العمل لقاء الربع أو الخمس أو السدس من جميع حاصلات الأرض وفقا لخصوبتها ، ومتوسط هذه الحصة يرجع الى نحو ثمانية جنيهات فيما عدا القطن الذى يستولى عليه صاحب الأرض ليبيعه بالأثمان التى يراها ، ويكون الفلاح فى حالة سلف مستمرة من صاحب الأرض فيخصم نصيبه من ريع القطن ، وحتى ما يأخذه من أصناف عينية كان صاحب الأرض هو الذى يقدر ثمنها كما يشاء ، ويتحمل الفلاح ما ينفق على الأفراد الذين يستخدمون لمساعدته خصوصا عند جنى القطن. ويشبه هذا النظام الى حد كبير نظام الأقنان الذين هم مسخرون لصاحب الضيعة ، لا يملكون من أنفسهم شيئا بل هم وأزواجهم وأولادهم خدم عند صاحب الأرض •

اما النوع الثانى فهو العمل باليومية ، فالمقيمون بأراضى كبار الملاك والذين تستأجر كل عائلة منهم عددا من الأفدنة عليها أن تضع تحت تصرف صاحب الأرض عددا معينا من العمال الزراعيين يستخدمهم فى أرضه ولهم أجر يومى يتراوح بين قرشين أو ثلاثة قروش تخصم من الايجار المطلوب للمالك ومن الديون التى تكون على العائلة ، وكثيرا ما كان الملاك يتحكمون فيهم وذلك عن طريق الخصم من يومياتهم ، وهذا يعطى احساسا للمالك بذل العامل وانه لا يشاركه فى محصولات أرضه فيصبح الآمر الناهى عليه •

---

(١) د• على بركات : تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ ـ ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية ـ القاهرة دار الثقافة الجديدة ، ١٩٧٧ • ص ١٤٦ •

واخيرا يأتى عمال التراحيل المعذبون فى الأرض ، الذين يعانون الجوع والفقر ، هم أتعس الفئات دائرون للبحث عن عمل ، أجورهم زهيدة جداً وفى الوقت نفسه ملزمون باحضار طعامهم معهم ، ويكثر هذا النوع في الوجه القبلى حيث تقل زراعة القطن وأيضا المساحة الزراعيه وحالتهم هي أسوأ الحالات يتألمون طوال مدة العطلة ، وهذا يجلب عليهم المضار فتنخفض أجورهم ، كما كانوا يتعرضون للضرائب التى تبلغ قيمتها من « عشرة أيام الى خمسة وعشرون يوما كل عام (١) » .

السياسة الضريبية ودمار الفلاحين حتى قيام الثورة :

بديهى جداً انه عندما يذكر اسم اسماعيل يقترن فورا بالاموال ، تلك التى كان على شعب مصر أن يقدمها بمختلف الطرق والتى تمثلت فى الضرائب ، وقد أجتمع أكثر من سبب ليؤدى الى هذا الوضع الضريبى الذى قاست منه مصر أثناء هذه الفتره ، بشخصية اسماعيل والمحيطين به والتغلغل الأوربى الذى نخر فى مصر .

كان أساس الدخل فى مصر هو الضريبةالعقارية ، فالأراضى تنقسم الى خراجية وهى التى يدفع عنها ضريبة الميرى كاملة ، وأراضى عشورية ويدفع عنها ضريبة مخفضة الى الثلث ، وفى خلال عهد اسماعيل كان هناك ٤ر٨ مليون فدان من الأراضى الخراجية ، ٢٥ر١ مليون من الاراضى العشورية ، وقد زاد الميرى المفروض على كلا النوعين من الأراضى فى بداية عهد اسماعيل بنسبة ٢٥٪ ، وكان متوسط الضريبة فى نهاية عهده يبلغ ٢٠ر١ جنيها انجليزيا على الصنف الاول ، ٣٧ر جنيها انجليزيا على الثانى وكان الدخل الذى يدره الميرى سنويا يقدر ب ٥ر٤ مليون جنيها مصريا (٢) ولم يكن هذا كافيا لسد متطلبات الحاكم حتى بعد أن كان يجمع لمدة اعوام قادمة ، لذا فلابد من زيادة الايرادات عن طريق رفع ضريبة الأرض ، واستعمال كافة الضغوط لتحصيلها ، بل وخلق ضرائب جديدة ، كل هذا من اجل مصلحة الحاكم لخدمة الديون وفوائدها ، وبذلك لم تكن هناك قاعدة معينة تسير عليها الضرائب .

وجاء المفتش الوزير المالى لاسماعيل لكى يساهم مساهمة فعالة فى

---

(١) يوسف نحاس : المرجع السابق ، ص ص ١٠٨ ، ١١٤ ، ٢١١ « فارمان : مصر وكيف غدر بها ترجمة عبد الفتاح عنايت ، القاهرة ، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٤ ، ص ٣٣ .

(٢) مارلو ، جون : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ١٧٩٨ — ١٨٨٢ ترجمة د. عبد العظيم رمضان ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٢٣٩ .

تحطيم الفلاحين ، فهو صاحب تلك السياسة الضريبية الفادحة التى صنعها لتعذيب أهل مصر من أجل مصلحة سيده ومصلحته هو الآخر .

بدأ بواكير أعماله بزيادة الضرائب على الأراضى الخراجية والعشورية بنسبة السدس وتحصيلها لمدة أربع سنوات متوالية ، كما فرض ضريبة على الرى بلغت قيمتها ١٠٪ من الميرى المفروض ، ثم ضريبة دمغة مقابل الورد الذى تعطيه الحكومة كل سنة ، وضريبة دفاع فرضت أيضا على كل فدان ، ولم يكن هنـــاك عدالة فى التـوزيع بين الأراضى الخراجيـة والعشورية ومعروف أن الاولى خاصة بالكثير والثانية خاصة بالقليل ، ففى عام ١٨٧٧ بلغ مجموع الضرائب الخراجية ٣٫١٤٣٫٠٠٠ جنيها أى تسعة أضعاف المتحصلة من العشورية بالرغم من أن مساحة الخراجية لا تزيد على العشورية الا ٢٫٦ مرة ، ومضى الارتفاع حتى وصلت الضريبة الخراجية الى ٢٠٠ قرش بينما كان متوسط العشورية ٣٠ قرشا (١) .

وجاء قانون المقابلة على يديه ليكون شكلى المظهر واقعى الفعل ، بل أصبح اجباريا ، فمالك الأرض اذا دفع الضريبة السنوية مضافا اليها ستة أمثالها دفعة واحدة أو على ستة أقســاط على الأكثر له فوائد ٨٪ عـلى المبالغ التى يدفعها متقدما ، وبذلك يخفض له نصف الضريبة السنوية الى الأبد ، وقد ثبت ذلك حقوق الملكية الفردية ، وفيما بعد اعتبر قرضـا من الأهالى وصار توقيف خصم الامتياز (٢) .

وكانت ضريبة الملح عبئا جسيما وعانت منها الأمة اذ احتسبت كمية الملح التى تستهلكها كل قرية على حسب تعداد سكانها وتحصل ضرائبها فأصبحت الزامية ونتج عن ذلك « تسحب وتشتت الأهالى من بلاد الى بلاد للتخلص من هذه الورطات التى منها تكاثرت البقايا عليهم واضـــمحلت أحوالهم » (٣) .

وزاد على ذلك ضريبة الرأس تلك التى أجبر الفلاحون على دفعها حتى من لا حرفة ولا مهنة له ، مورس الضغط عليه حتى دفعها ، كما فرضـت الضريبة الشخصية عام ١٨٧٥ وهى من أشد الضرائب ظلما وأقلها عدلا ، وفرضت لمدة أربع سنوات مؤخرا ودافعها يدفع أيضا ضريبة الويركو ــ الفرده ــ « وهى لا يطالب بها فقط كل ذى حرفة من دافعى العوائد بل تلقى

---

(1) Cromer, The earl of : Modern Egypt, Vol I London, 1908, pp. 144, 145.

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ٢٦ محرم ١٢٩٦ (٢ فبراير ١٨٧٩) ، ص ٥٧ .

(٣) نفس المصدر ، محضر ١١ صفر ١٢٩٦ (٢٣ فبراير ١٨٧٩) ، ص‌ص ٦٣ ــ ٦٦ .

على كل من لا يستطيع أن يبرهن على دخل عقارى بأن يبدى حجة ملك، وتراوحت بين ٥٠ ، ٧٥ قرشا (١) · أما ضريبة الدخولية فكانت تقام على حدود كل مدينة · وكل ما دخل في هذه الحدود ، تؤخذ عنه رسوم ، وبالرغم من دفعها فلم يكن يسلم الامر من الاستمرار فى الدفع لنفس السلعة « فاذا بيع الخروف فى البندر بمائة قرش دارجة يؤخذ عليها أولا خمسة قروش صاغ ، ثم عشرة رسم دخولية ، ثم خمسة عوايد ذبيح ، ثم قرش ونصف رسم قبالة ، وثمن علم ، جملة ذلك واحد وعشرون قرشا ونصف قرش صاغ تساوى ثلاثة وأربعون دارجه وهى تقارب ثمن الخروف هذا فضلا عما يدفعه صاحب الخروف لخدمه الملتزم بدعوى سمسرة (٢) · كذلك أوجدت ضرائب من لاشيء لمجرد الظلم والعدوان ، وخضع النخيل للضريبه أيضا ، فكل نخلة عليها عشرة قروش سنوى وحتى ذلك النخيل الذى لا يطرح فمقررة عليه الرسوم كما تؤخذ ضرائب على السعف والأفرع والليف والخوص ، أى أنه كان يفرض « ست ضرائب على النخلة خلاف التى تؤخذ على نتاجها » (٣) وفرضت على الفلاحين ضرائب الطرق ، كما اختلفت ضريبة الوطن وضرائب أخرى ليس لها اسم ولكن لمجرد الحاجة للمال ، وباقرار الجميع من الذين أرخوا لتلك الفترة وخاصة من الانجليز انه لا يوجد شعب على الأرض تحمل ما تحمله شعب مصر فى ظل ذلك الاسراف من الظلم على يد اسماعيل ·

ولم تكن يد اسماعيل فقط ، بل كانت أيضا المراقبة التى قامت بالتزاماتها خير قيام نحو دفع الكوبانات حتى كانت تدفع قبل أن تحل أجالها ، وفى فترة بسيطة تمكنت من تحصيل ضرائب قدرت حصيلتها ١٠ر٦٠٠ر٠٠٠ جنيها (٤) ورأت الادارة الأوربية أن تقرب ميعاد استحقاق فوائد الدين الموحد من فوائد الدين المتماز ، فبدلا من تأخيرها الى ما بعد مواسم الحصاد وجعلتها فى أول مايو وأول نوفمبر ، وبذلك أصبحت أوقات دفع الكوبون لا تتفق مع أوقات الحصاد وكان لذلك أبلغ الآثار السيئة . وجاءت الوزارة الأوربية الأولى لتمضى رحلة العذاب الطويلة للفلاحين وعلى كل محطة القسوة والبؤس والفقر والظلم تجمع ذلك كله فى اطار موحد كانت منه الضرائب فقد فرضت جديدة وزادت من القديمة ، وكان هناك ادراك عام حيث ظهر الاستياء بين الجميع بعد ذلك الاحساس الذى سيطر عليهم من ان مصر مدارة بالأجانب ، وهذه المعاناة التى عاشها فلاحو مصر كانت

---

(١) الوقت ، عدد ٧٧٩ فى ٢١ يناير ١٨٨٠ ·

(٢) التجارة ، عدد ١٣٩ فى ٣٠ نوفمبر ١٨٧٨ ·

(٣) الوطن ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ ·

(٤) Hansard's Parliamentary Debates : Commons, Vol. CCLIII, August 4, 1882, p. 1691.

لها الأصداء خارج أرض مصر ، فنرى صحيفة السلام التركية تقول « ان العرب من فلاحى مصر المنكود حظهم قد سلب منهم كل شىء حتى لم يبق عليهم سوى جلودهم » (١) .

وعندما ذهبت الوزارة الأوربية وجاءت وزارة شريف استمر الأمر ولم ينقطع ، فشاهين باشا وعمر لطفى باشا من أصحاب السمعة الواسعة فى ابتزاز أموال الفلاحين ومشهوران بتلك القسوة الزائدة ، فذهب الأول الى البحيرة والثانى متنقلا فى المديريات وذلك لتعجيل تحصيل الضرائب لأجل استحقاق مايو ، وكان المبلغ المطلوب مليون ونصف مليون جنيها . ففرض على كل بقعة بأن تؤدى فى الحال المبلغ المطلوب منها (٢) .

القائمون على الضرائب والفلاحون :

كان الجهاز الادارى الذى أخذ على عاتقة تكثيف قواه من أجل المزيد من الأموال جهازا فاسدا يعمل ليفيد ويستفيد ، يفيد الحاكم ومن حوله ومدينوه ، ويستفيد لصالحه على حساب ذلك والذى يدفع ويتحمل ذلك الفلاح المطحون والمحاط بأسوأ الظروف .

وبيعت الوظائف فى ذلك الجهاز على أساس أن من يتولاها سوف يعوض ويرتفع الى أعلى درجات الثراء . فمدير المديرية يدفع ألف جنيه ، ووكيلها من أربعمائة الى خمسمائة جنيه ، ومحصل الضرائب الرئيسى اربعمائة جنيه ، وناظر القسم من مائة جنيه الى مائة وخمسين جنيه ومحصل الحى مائة جنيه (٣) .

وكان يكفى أن يحتاج الخديو أو الحكومة الى مبلغ معين فتصدر الأوامر وهنا تتحرك السلسلة المعهودة لتصل الى الفريسه فى النهاية لتبدأ المأساة مع الفلاحين « فالمأمور دائر فى البلاد بالعدة ورجال السوء المستعدة لضرب النساء والرجال والخدم والعيال لا يعرف من العربى الا ارم الأرض، فالضرب عندهم هو الغرض ، والرحيم هو من يقول اضرب على رأسه واكتم على انفاسه ولا تسمع من كل متعوس الا هات الفلوس » (٤) .

وكان هؤلاء يطبقون أبشع طرق الاستغلال وجاء فى التقرير التمهيدى الذى وضعه بارنج وكرامر فى ٦ أغسطس ١٨٧٨ ما يفيد

---

(١) السلام ، عدد ١ فى ٢٤ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) صدى الأهرام ، عددى ٦٠٤ ، ٦٠٥ فى ١٢ ، ١٥ إبريل ١٨٧٩ .

(٣) Blue Hookes : Egypt No. 1, (1880), Inclosure I, No. 31, April 1979, p. 22.

(٤) عبد الله النديم : مذكرات جمعها د. محمد خلف الله أحمد تحت عنوان عبد الله النديم ومذكراته السياسية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ ، ص ١٥ .

« ينفــذ الشيخ أوامر المدير ، والمدير أوامر المفتش العــام والمفتش العام أمر من له السلطة العليا وأمره هو القانون يمتثل له رجال الحكومة ولو كان شفويا ولا يخطر على بال ممول أن ينازع من وجوده أو يحتج على مضمونة ، وأما من جهة الضرائب فالفلاح لا يجســرؤ أن يشكو لعلمه أن الأمــر صــــادر من فــوق ، واذا كان الطالب هــو ولى الأمر فالى من يذهب المشتكى ؟ » (١) ٠

وقد لعب المأمورون دورهم فى مضـــاعفة الضرائب المقررة ، وكان المديرون ينحــازون الى جانب السـلطة القوية لكبار الملاك على حســاب الفلاحين ، فعندما كان يلجأ الى أحدهم فى تداعيات « فيستبيح العدول عن نهج الحق فى التحقيق رعاية وميلا لجانب البك وتكون النتيجة اضاعة حقوق الأهالى » ٠ (٢)

كان المدير يؤدى الى وزير المالية المبلغ المطلوب منه ، فلا يصل كله الى الخزينــة بل يقتطع الخديو جــزءا منه سريا ثم يليه الوزير ، والمدير لايفوته قبل ذلك أن يستقبض لنفسه نصيبا مما جباه ، ومأمورو المراكز يسبقون المدير الى هذه الوسيلة « وقد تجبى الحكومة أكثر مما هو مطلوب اذ أنها لا تعطى ايصالات » (٣) ، وكثيرا ما لجأ الفلاحون للقروض حتى ترفع عنهم أعباء القســـوة ليدفعوا الرشوة ويؤجل المطلوب منهم ، وقد وضع لذلك قائمة بالأسعار ٠ اما الصيارفة ـ مأمورو التحصيل ـ فدائما ما كان الفلاحون يتعرضون لنياتهم الخبيثة فى المغالطة فى الحساب(٤) ، فلم يكن لهم أجور ثابتة بل كانوا يتقاضون نسبة معينة من جملة الأموال التى يحصلون عليها ٠ ومن هنا لعب الطمع والجشع دورا كبيرا ، هــذا بالاضافة الى احتياجات الحياة التى جعلتهم يمدون أيديهم بل وتفننوا فى أساليب الاختلاس حتى لقد وصل الأمر ان بعضهم « قد الزموا الفلاحين على بيع أطيانهم بغيا وطغيانا » (٥) وكان لمشـــــايخ البلد دورهم ، فكل شيخ سعى فى أن يعين ابنه فى جهاز التحصيل ، ليتمتع بذلك النفوذ والثراء الذى يتمتعون به ؛ وضغطوا على الفلاحين ، ففى شكوى من فلاحى واهايا بناحية سندبسط مركز ٥فتى غربية من شيخ بلدهم يصفونه بأنه

---

(١) يوسف نحاس : المرجع السابق ، ص ٤ ٠

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر رقم ١٩٠ ، أوامر عربى ، صورة الأمر الكريم رقم ٥ فى ١٢ جماد الثانى ١٢٨٠ (٣٠ نوفمبر ١٨٦٣) ٠

(٣) Bemaln, Van : L'Egypte et L'Europe, London, 1981, p. 60.

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ٨٣٨ فى ٧ ديسمبر ١٨٧٩ ٠

(٥) الوطن ، عدد ٦٠ فى ٤ يناير ١٨٧٩ ٠

« رجل جبار ويسلب أموال الناس بالباطل ويتداخل فى الحقوق الميرية بقصد خراب الفلاحين » (١) .

وسائل التعذيب ونتائجها :

اختلف التحصيل وطرقه من قرية الى أخرى ، ومن مسئول الى آخر ، فكل على شاكلته ، وكل وله طريقته لكن الاطار العام كان الاستمرار فى التحصيل الجبرى وفقا لقانون محمد عـلى « القانون المنتجب لعام ١٢٦١ » (١٨٤٥) القائم على العقاب بالضرب والكرباج الذى سرى على الفلاحين وتمتعت به ظهورهم .

فكان المدير له السلطة المطلقة ، يقول النديم : « يمر فى البلاد ومعه الجزار والخازوق والسياف والمشنقـة ، فلا يمر عليه صباح الا يقبض الأرواح وربما لف الرجل بالقماش والزيت الحـار واحرقه بالنار ، أو يلبس رأسه طاسة محماة أو يدفنه بالحياه حجته عند الوالى انه متأخر فى المال أو عاصى عن الأشغال » (٢) .

ومن أجل دفع الكوبونات ومع السيطرة للأوربية من مراقبة وغيرهـا كان لابد من المزيد من الأموال وبالتالى المزيد من التعذيب فازداد استعمال الكرباج على أجسام الفلاحين ، ومع الوزارة الأوربية الأولى أصدر ولسون منشورا للمديرين والمأمورين مفاده أن يحصل من الفلاحين الأموال المتأخرة عليهم لسنوات ٧٦ ، ٧٧ ، ١٩٧٨ ، واذا كان هناك تمنع فيكون الالزام « ببيع الأرزاق والمحصولات ثم بيع المواشي والأطيان بل زاد على ذلك بأن أمر بالاستعانة بالقساوة القديمة »، كما انه استدعى مأمورى التحصيل وقدر لكل منهم قدرا من المال وحتمية احضاره(٣) ، وكثيرا ما كان الفلاحون يعذبون من أجل ضرائب لم يؤمر بها فقد ذكر « أن ناظر المساحة وصل فجأة الى قرية فوجد العدة اى الفلقة والكرابيج ملطخة بالدماء وعرف بأن المسبب ضرب ستة رجال لدفع ضرائب لم يأمر بها ناظر المالية ، بل كان المقصـود من جمعها اغراض غير جائزة » (٤) وكلما شـدد الدائنـون الأوروبيون فى المطالبة كلما ازداد الكرباج من أجـل تحصـيل الضرائب مضاعفة وكما قال أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى « ان صوت الكرباج يسمع على ظهر الفـلاحين المرهقين المثقلين بالضرائب والأعباء ، من أجـل

---

(١) محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، غاية جمادى الأولى الى ٢٩ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩)

(٢) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) التجارة ، عدد ١٦٦ فى ١٤ يناير ١٨٧٩ .

(٤) الوطن ، عدد ٣٧ فى ٥ ابريل ١٨٧٩ .

الحصـــول على الذهب لامداد البيوتات المالية لجوشن ومماثلين » (١) ، وكان ذلك هو الصدق بعينه • أما عن السجون فقد كانت دائمـا مرحبة بروادها ، فقد زج بالفلاحين فيها مكبلين بالحديد ليلا ونهارا متحملين أشد أنواع العذاب والقسوة ، يتركون ثلاثة أيام بدون طعام ويعملون بالأعمال المضنية الشاقة بل ويضربون أثناء القيام بهـا وتصف النجارة حالة الفلاحين في السجون فتقول : « فمن صارخ من ضيق القيد الحديد ومن متوجع من أحكام التخشيب ومن متضجر من ثقل الخشبة » (٢) •

كذلك كانت هناك طرق أخرى لتعذيب الفلاحين التعســاء ، فكان المدير يأتى بقطعة من القماش بعد أن يغمسها فى الكحول ويشعلها نارا ويقربها من فم الفلاح فى الوقت الذى يلكم فى صدره وبهـذه الطـريقه يستنشق اللهب المشتعل ، كما كانوا يحضرون قطعة من ناب فرس البحر لها جزء مدبب ويوخذ بها جسم الفلاح ، وأحيانا كان العاجزون عن الدفع يؤخذون الى مراكز المديريات للعمل كخدم ويسمون « طوافة السائرة بكل مركز سبعون وهم من مستضعفى الفلاحين عليهم للميرى أموال ، وهم ذوو عيال وبعضهم يجوب البلاد بالجوابات ساترا الانات وبعضهـم فى خدمة عمال المراكز كل الأوقات وبعضهم فى خدمة الكتاب وبعضهم فى خـدمة الأصـحاب ، فما كان هؤلاء المسـاكين الضـعفاء المظلومين الا غنيمـة لهؤلاء (٣) .

أما عن القواسين وهم من أدوات العذاب ، فكم قاسى الفلاحون منهم فقد كانوا لايرحمون أبدا ، وتشير صحيفة الطائف الى ذلك القواس الذى اعترض احدى الجنازات وأمر بانزال النعش من فوق أكتاف المشيعين حتى تدفع الضريبة التى كانت مستحقة على الميت (٤) .

وبذلك مارس القواسون سلطتهم الى أبعد الحـدود وكانوا من بين البلاء الذى حل بالفلاحين وكان بجوارهم عساكر « الباشبوزق » وهم خليط من الأجناس يوجدون فى سناجق المديريات يعيثون فى الأرض فسادا وكانوا يحصلون أيضا الضرائب بطريقتهم الخاصة ، وكان سعيد قد أعطاهم الكثير من السلطات بعد أن حلهم محل عساكر الضبطيه ، فمارسوا جميع الوسائل المتناهية فى القسوة مع الفلاحين •

وقد بلغ الأمر أنه عندما يكون هنـاك أحد المراكز عليـه ضرائب ، كان مأمور الضبطيه يصاحبه مأمور التحصيلات مصطحبين ببكباشى ومعهم بلك جهاديه ، لاستخدام الطرق الموصلة للحصول عليها •

---

(١) Commons, Vol CCXXIII, August 12, p. 18898.

(٢) التجارة ، عدد ٩١ فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٨ •

(٣) الوطن ، عدد ٦٢ فى ١٨ يناير ١٨٧٩ • Cromer : op. cit., Vol II, pp. 389, 397.

(٤) الطائف ، عدد ٦ مايو ١٨٨٢ •

وساءت حالة الفلاحين الى أقصى درجة ، فتقول التيمز : « دعتهم الضرورة أن يستعملوا الأطعمة الخشنة والملابس الغليظة الرثة وذلك لما يعانونه من أثقال الضرائب التى أدت بهم الى بيع زراعتهم قبل نموها أو بيع محصولاتهم مقدما قبل أوانها بأبخس الأثمان»(١)، وازداد الأمر قسوة حينما طولبوا بالضرائب مقدما وضغط عليهم في ذلك ، فكان التحصيل اما لتسعة أشهر مقدما أو لسنه لدفع الكوبونات وهذا كان سببا فى دمار الفلاحين ، هذا بالاضافة الى أن الضرائب كانت تطلب فى غير زمن الحصاد ، وقد ناقش ذلك مجلس شورى النواب « فالتحصيل جار فى هذا الوقت الذى لم يكن فيه محصولات أقطان بالجهة البحرية ولا محصولات شتوية بالجهة القبلية فمن أين يكون التحصيل الا أن يبيع مواشى بأثمان دون القيمة وقل أن يوجد مشتر وأما بيع المحصول أخضر بما لا يوازى قيمة النصف فى زمن المحصول (٢) ٠

وبناء على ذلك انخفضت أسواق العملة لكثرة ما بيع من « فضه أو نحاس » ، وسرى هذا الانخفاض على الأسعار جميعها ، وقد كان لذلك أثره على الاقتصاد المصرى الذى أصبح فى قمة الانهيار ، وفى اطار ذلك وصل الفلاحون لأقصى درجة من الفقر وكفاف العيش ، هؤلاء البؤساء الذين عملوا من أجل ملء جيوب المغامرين ، وهم من شجعوا على صرف الأموال فى التبذير ، وعرضوها فى كل وقت فى ظل الفوائد العالية والتى كانت ترتفع تدريجيا ٠ كل ذلك كان على أكتاف الذين تحملوا الظلم والغبن والعذاب ، فقد قدموا كل ما يمكن لهم أن يقدموه ، وكثيرا ما كانوا يتركون الأراضى بدون زراعة فليس لديهم ما يمكنهم من زراعتها ، باعوا كل شيء حتى الحلى الغالية على الفلاحات ضحى بها ، فقد كان جانب من الضرائب المدفوعة عبارة عن قطع مربوطة معا على شكل قلائد وعقود وكان ذلك دليلا مؤلما على مقدار الضغط والشدة اللذين استعملا فى تحصيل الضرائب ، ويشاء القدر بأن يلقى عليهم مزيدا من الأعباء ومن الصعوبات ومن الآلام ، وفى وسط تلك الأجواء يزداد الظلم باضطهاد الطبيعة لهم ، ذلك الاضطهاد الذى قضى على البقية الباقية من كيانهم ٠

كوارث الطبيعة :

وكان مرض الطاعون البقرى أحداها ، فقد انتشر أكثر من سنتين ، وعم مصر كلها حتى النوبة وقدرت الخسارة بخمسة ملايين من الجنيهات

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٥ فى ١٢ يونيو ١٨٧٩ ٠

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١٤ صفر ١٢٩٦ (٢ مارس ١٨٧٩) ، ص ص ٧٦ ، ٧٧ ٠

بعد أن فقد الفلاحون مواشيهم وساءت حالتهم ، « اذ بلغت نسبة الوفاة ١٠٠٪ وامتلأت فروع النيــل البطيئة الجريان بآلاف الرمم المتعفنــة ، وتوقفت آلاف السواقى التى تديرها تاركة فدادين من الأرض الخصبة للصحراء (١) » ٠

بعد ذلك تأتي كوارث النيل سواء بنقصانه أو بزيادته ، وكل منهما كانت نتيجته المجاعة التى كان لها أبلغ الأثر السيىء على الفلاحين ٠ ازدادت المعاناة عندما انخفض منسوب المياه ، فقل الانتاج ، ووفقا لقوانين الاقتصاد أنه اذا قل العرض كثر الطلب وبالتــالى ارتفعت الأســعار ولكن جــاءت الضرائب الاجبارية الملحة لتقضى على ذلك ، وقد بلغ عدد الأفدنه التى لم ترو ثمانمائه ألف فدان وتبــع ذلك رداءة محصــــول القطن « وكان النســاء والأطفال يتنقلون من قرية الى أخرى يأكلون بقايا الفضلات من الشوارع ، ومات حوالى عشرة آلاف نفس من الجوع وتبع ذلك ظهور الأمراض » (٢) ٠

أما عن الفيضان فقــد كان أكثر ســـــوءا اذ ثار النيــل وخرجت ثورته قبل ثورة المصرين ليعبر عن السخط والآلام لكنه فى الحقيقة أساء من الوضع الى أقصى درجة ٠

غمرت الأراضى بالميــاه أثنــاء سيطرة نوبار وعمت المجــاعة وعانى الكثيرون ولم تتخذ الحكومة أية اجراءات وقائية ، وكان الوجه القبلى فى هذه المرة فى مهب الفيضــان ، فأثر ذلك على الزراعة فقلت المحاصــيل ، وتبع ذلك أن قل الانتــاج ، وقد أعطت لنــا صحافة تلك الفترة وصــفا شاملا لمأساة الفلاحين فتقول التجارة « رأيت أهل البلاد المبتلعة يسيرون فى الطرق زرافات حفاة عراه رفعت عنهم ستور الصيانة وزالت عن وجوههم آثار الحياة فحسبت أن يومنا يوم النشور » وتمضى « ان بعض أهل القرى التى ابتعلها الماء هاجروا الى المحلة وهم على أسوأ حال لايملكون ما يقيهم من التضرر جوعا فلقيهم فيها السجاعى وأعوانه وطلبوا العوائد مع العلم انهم لا يملكون شروى نقير ، وترتب على ذلك تعذيبهم واهانتهم » (٣) ، من هنا يتضح تلك الفظاظة والقسوة لمعاونى الحكومة والحاكم ، وافنرى ملتزمو الدخولية أمام تلك الحشود المهاجرة ٠

لكن ماذا عن دور الحكومة وما قامت به ؟ أصـــــدرت الأوامر بزيادة الضرائب وتحصيلها فورا دون اعتبار بما حل بالبلاد الذى كان السبب

---

(١) لاندز : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠

(٢) Sammarco, No. 241, 1817-1886, Chap. VI.

(٣) التجارة ، عدد ١١٣ فى ٢٣ اكتوبر ١٨٧٨ ٠

فيه اهمال الحكومة حيث أن نظـام الرى لم يتم على أسس علمية سليمة ، هذا بالاضافة الى اهمال بعض المأمورين وعدم يقظتهم وانتباههم ، فقد كانت همتهم الأنانية والجشع وما على الحكومة الا التهام الأموال وجمعها بمختلف الطرق دون النظر الى تقديم الخدمات لهؤلاء الذين أفنوا فى سبيلها .

وتجمعت هذه الظروف امام الفلاحين لتسجل أسوأ صفحات المعاناة ، فقد ادلى احد السائحين الانجليز بمشاهداته فى مصر لصحيفة الدالى فرى برس فكان وصفه أدق تعبير لهذه القوة المعذبة يقول « رأيت الناس يموتون فعلا من الجوع ، غير أن حالة الأولاد كانت تفتت الأكباد ، وفى محل رأينا ولدا يلتقم قشر القصب ، وكنا نسـمع أنين الأهالى فى كل قرية مررنا عليها ، ان الناس الذين يجتمعون حولنا كل يوم عندما نأكل فى الطريق فانهم كانوا يتخاطفون فتات خبزنا وزيت السـاردين الذى كان معنـا ، وفى حالة مرورنا الى قنا رأينـا وابور الخديوى تأثرنا من حسن منظـره وحالته المباينة لحالة الأهالى وقيل لنا بأن بداخله اثنين من الانجليز وبلغنا ان حضرة الخديو اتخذ مأدبة فاخرة للاورباويين فى القاهرة » (١) وفقد الفلاحون كل شىء ، وأصبح من المتعذر وأمام تلك الظـروف ان يجـدوا العدالة أو حتى الأمان سواء على شخصهم أو على ممتلكاتهم .

العدالة والضرائب :

وأمام كل ذلك هل كانت هناك عدالة فى توزيع الضرائب ؟

كان معظم الأغنياء ــ ان لم يكن جميعهم ــ يعاملون فى هذه المسألة بكل رفق ووفقا لأهوائهم ، ولم تستعمل معهم اطلاقا أية وسائل القسوة أو الشدة التى اتبعت مـع الفلاحين ، وحتى تلك الضرائب غـير العـادية ما كانت تفرض الا على صغار الملاك ، وأحيـانا قليلة كان بعض من هؤلاء الأغنياء يدفعون الثلث أو النصف من تلك الضرائب التى كان من المفروض أن يدفعوها وهذا كان بسبب التحايل والتهرب من جهة ولأنهم يملكون الأراضى العشورية التى تتمتع بالامتيازات الكثيرة من ناحيـــة أخـرى ، أما الضرائب الأخرى والتى كان عليهم أن يدفعوها أيضا مع الفقراء تمنعوا عن آدائها ، اذن فالأثقال جميعها وقعت على الفلاحين بينما الذوات كانت الأرض مفروشة أمامهـــم بالزهور ، يكتنزون الأموال ويوسعون الأملاك ولا يدفعون حتى ولو كان هناك دفع .

كما تمتع بالاعفاءات الأجانب وذلك على حساب أهل مصر ، فعدم المسـاواة أصبح واضحا مما جعل لورد دوفرين يذكر ويعبر عن شعوره

---

(١) الوطن ، عدد ٧٢ فى ٢٩ ماس ١٨٧٩ .

الوطني « يرى عددا من المسيحيين يتقاطرون الى بلاده لينتفعوا من منافع تربتها وهوائهـا ، ويشاهد نفسه مثقلا فى تحصـيل معاشه بسبب دفعه عوائد عفى عنها مناقضوه الأوربيون » (١) ، فبينما نرى الفلاح يدفع عن كوخه المبنى من اللبن الضرائب ، ينعم الأجنبى فى قصر لايدفع عليـه شيئا ، كذلك أعفى كبار ملاك الأراضى الأجانب من أية أعباء مالية ، هذا فى الوقت الذى أثقل فيه الفلاحون بها ، وحتى انه عندما تقرر اعادة المقابلة وضرورة التحصيل على أراضى مصر جميعها ، كان الأجـانب يمتنعون عن الدفع وقد أقر بذلك نائب قنصل انجلترا اذ يقول « تأكدت من عدة مصادر أن الأوربيين ملاك الأراضى لا يدفعون المقابلة » وفى موضع آخر يقر بأن ذلك « ليس من العدالة بشىء » (٢) ٠

وبالرغم من ذلك الا أنه لم تتخذ أية خطوة من جانب السـلطات المصرية حتى مع القناصل وذلك بسبب رفض رعاياهم لدفع الضرائب ٠

هذا ويجب ان نذكر بطبيعة الحال تلك الاعفاءات التى تمتع بهـ الحاكم وأسرته بالرغم من تلك الأملاك الشاسعة لكن لم يكن من المعقول أن يدفعوا شـيئا فكل ما يمتلكونه العمـل على امتصاص دم الفلاحين ٠ كما أن أخطـاء المساحة كانت دائما ضـد الفلاحين ، فقد أظهرت جميع التحقيقات ذلك الاختلال فى جميع الأعمال التأربعية ، فنظام الارض المعمول عليه بالأوراد غير مضبوط لأنه مبنى على مساحة تمت فى عهد محمد على عام ١٨١٣ ،ولأمر جلى ان الموظفين راعوا خواطر الأغنياء الذين رشوهم ، هذا بالاضافة الى أن النيل قد ابتلع أقساما من الأراضى ، وبعضـها أخذ لأجل الترع والجسور والسكك الحديدية دون دفع تعويض لأصـحابها ولا اسقاط أصل زمامها ٠

وكانت هذه هى العدالة التى قدمها اسـماعيل والأوربيون لشعب مصر ٠

وباعتلاء توفيق العرش لم تتغير حالة الفلاحين واستمر الوضع على ما هو عليه بل ازداد ، وقد أوضح لاسلز بأن السبب كالعادة أنه أصبح يطلب من الفلاح أن يدفع تلك المبالغ الاضافية زيادة على ما ربط عليه(٣)، وجاء رياض بمساوئه ففوضـه توفيق الأمر للتصرف فى كل شىء حتى

---

(١) دوفرين ، تقرير ، مطبعة الأهرام ، الاسكندرية ١٨٨٣ ، ص ٤٧ ٠

(٢) Egypt No. 1 (1880), Inclosure I in no 31, p. 79.

(٣) Ibid, p. 67.

مع الفلاحين ، فوصل النظام التعسفي الى أقصاه ، لدرجة أن شيوخ بعض القرى ساقوا الفلاحين للسوق مع قطعانهـم من أجل بيعها ، وتشدد فى جمع الضرائب والمقابلة حتى أصبح الجميع فى أسوأ حالات الفقر ٠

ومضى نظام التحصيل سواء من ناحية المقدار أو الطريقة على نفس المسيرة حتى لقد اعترفت لجنة التحقيق منذ البداية أن كثيرا من المظـــالم وقعت بسبب هذا النظام ، وأمام ذلك من ناحية ، وأصداء ما وصل اليه حال الفلاحين خارجيـــا كان لابد لرياض والمراقبـة من التحرك لتهدئة الموقف حتى ولو كانت تهدئه وقتية وعلى الورق فقط فأعد رياض مشروع أخذ الموافقة عليه بالغاء بعض الضرائب ٠

أعقب ذلك التجاوز عن جميع متأخـــرات الميرى حتى عــام ١٨٧٥ ما عدا دين الفلاحين الذى توزع دفعه على سنين عديدة ، لكن الى أى مدى تنفيذ ذلك ؟

منذ البداية كانت انعكاسات ذلك على الفلاحين لاشىء ، فلم تبد عليهم علامات الارتياح ولا الرضا والسرور ، فقد كانت تلك الاجراءات تضليل أكثر منهاحقيقة ، مجرد ذر الرماد فىالعيون حتى لانرىالحقيقةالواقعه، فقد كثرت الاستثناءات التى جعلت الالغاء ساريا، فمثلا لم تلغالدخولية من كل البنادر انما اختصت بمناطق دون أخرى ، فنرى أن مدينة دسوق تطلب رفع الدخولية عنها « أن البلدة صغيرة وغالبية أهاليها فقهاء وعلماء ومجاورين بجامع سيدى ابراهيم الدسوقى ، والباقون فلاحون وان الايراد الجارى تحصيله مأخوذ على الحطب والبرسيم والتبن الوارد من غيطان لوازم مواشيهم (١) » ، وارتفعت بعض الضرائب كتعويض ، فتقرر على فدان الدخان ستة جنيهات بخلاف المقرر على الأرض وذلك بدلا من الدخولية وحرمت زراعته الا باذن الحكومة ، وأعطت الأوامر لكل مأمور بأن يطوف بالجهة ويفتش الأرض بكل دقة واعتناء (٢) ٠

وألغى الأمر العالى الصادر فى ٦ يناير ١٨٨٠ العامل بقانون المقابلة وجاء قانون التصفية فى ١٧ يوليو ١٨٨٠ ليقضى بأن ما دفع منها يخصم منه ما كان مطلوبا للحكومة ويرد الباقى الى أصحابه موزعا على خمسين عاما ، وخصص لهذه الأقساط مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه سـنويا ٠ وكل ما يهمنا هنا أن هذا الالغاء قد أثر أيضا على الفلاحين الذين جمع بينهم وبين كبار الملاك تحت هذا البند ، اذ قدرت خســـارة الفلاحين على حسب

---

(١) الوقت ، عدد ٧٧٩ فى ٢١ يناير ١٨٨٠ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٤٦ فى ٢٣ يناير ١٨٨٠ ٠

نينيه بعشرين مليون استرليني كانت النسبة الكبرى فيها تمت بالقروض من المرابين ، وهذا أشعرهم بالغبن والحرمان من العدالة ، وانتشر هذا الشعور في كل قرية (١) • وكان من المفروض أن ترد الحكومة ما أخذته ظلما وجبرا وعدوانا لأصحابه بحيث أنها لا تلغى قانونا الا بعد أن يسترد أصحاب الحق حقوقهم •

واستمر أيضا المحصلون يتحايلون على الفلاحين فيستولون على سندات ملكيتهم بدون القيمة ، وأيضا تقرر تحصيل الضرائب نقدا وعدم فتح الشون بالمديريات وخاصة في الوجه القبلي •

وكانت الأوامر قد صدرت في ٢٥ فبراير ١٨٨٠ بالتحصيل على تقاسيط وفي ميعاد الحصاد بأوقات محددة في السنة وتكونت لجنة مخصوصة واقترح وضع لائحة توضع فيها شهريا مقادير الأموال المقتضى تحصيلها من كل مديرية ، الا أن المديريات المخصصة لخدمة الدين وهي البحيرة والمنوفية والغربية وأسيوط زيدت فيها المقررات عن باقي المديريات قيراطين (٢) •

واستتبع ذلك وقوع الحجوزات على من لا يدفع في المواعيد المقررة ، وكان توقيعها على الثمار والمحصولات والموجودات والمواشي وفي حالة عدم الكفاية يكون الحجز على العقار ويشرع في بيعه بمزاد بمعرفة العمد والمساحين بعد مضى شهر واحد •

ورغم ما قرره رياض من تحسين وسائل التحصيل وابطال الكرباج لكن أوامره في ذلك لم تنفذ تنفيذا تاما ، فبقى الكرباج حيث كان الاعتقاد بأن الفلاحين لايدفعون الا به •

الفلاحون والديون :

كانت الديون هي احدي نتائج السياسة الضريبية ، لجأ اليها الفلاحون اعتقادا منهم أنها ستخفف من أحمالهم لكن العكس هو الصحيح اذ أنهـا أصبحت عبئا ثقلا ، أدانتهم أمام المحاكم وأخيرا أخرجتهم من أراضيهم •

ولم يكونوا مخيرين في بداية الأمر فكثيرا ما كان يتم ارتهان أراضيهم باكراههم تحت الكرباج ، وكان سائدا أمر الاقتراض على المحاصيل قبل حصدها بأعلى الفوائد •

---

(١) Ninet : Origin of the National Party in Egypt, London, 1882, p. 132.

(٢) محافظ الداخلية ، تركى ، محفظة ٦٧ . تقرير رياض باشا في ٢٤ فبراير ١٨٨٠ •

لكن من سيقدم لهم تلك القروض ، وبذلك الربا الفاحش ؟ ومن سيدخل رهن الأراضى فى حيازته ؟ إنهم الأجانب بجميع نوعياتهم وأشكالهم، منهم الأوربيون وساكنوا البحر المتوسط والمشمولون بالحمايات، وتربع اليونانيون على عرش الربا وتبعهم الأرمن والمالطيون ثم السوريون واليهود ، وأصبحت مصر مسرحا لعمليات ربوية على أوسع نطاق ، وأصبح عصر اسماعيل هو العصر الذهبى للمرابين بعد أن تخصصوا فى المناطق باقتسامها بينهم من أجل استنزاف الفلاحين .

وقد رأينا كيف كان الفلاحون مجبرين على الدفع ، ومن هنا كان الالتجاء الى المرابين وهم كما يصفهم محمد عبده : « تجار وأرباب بنوكه ، هم أعظم أعوان الظلم وأشد أنصاره فاذا رأوا حاجة الأهالى اليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم أن الكرباج رزءهم فلا قدرة لهم على الصبر ولا سبيل الى التخلص من ألم العذاب ولو مؤقتا الا بالرضا بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة ، فكان التاجر لايؤدى نعوده سلما ولو قبل الحصاد بعشرين يوما الا ستين فيما يساوى مائة وقت الحصاد فتكون الغاية أربعين أو أزيد فى الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطى بفائدة فى المائة عشرة بل أزيد فى كل شهر ، ومن الناس من يأخذ المائة بمائتين فى أربعة أشهر ، وكان سعدا وربيعا للتجار وأرباب البنوكه الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الاغنام فأثقلت كواهل الفلاحين بالديون الهائلة واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ عنها بالكلية فأحاط بهم الفقر وصاروا فى أسوأ الأحوال » (١) ، وكان هذا الوصف أصدق تعبير على هذا السيل المتدفق من الأجانب المستغلين الذين وجدوا من حسن رعاية الحكومة لهم الشىء الكثير والذين يعتمدون على الامتيازات ويحتمون فى القناصل وهؤلاء كانوا بدورهم شركاء معهم فى هذه العمليات .

أما عن طريقة التسليف فقد كانت تتم عن طريق مشترى المحاصيل وهم دائما يفضلون القطن ويكتبون سندات على الفلاحين قبل نضج المحصول وعندما يقترب جنى المحصول يرسل المرابى وكيله ليقيم فى الأرض المرهون محصولها ويشرف على جمع المحصول ويعين المقدار الذى يراه سدادا لما دفعه المرابى ، وكثيرا ما كان يترك الفلاح غارقا فى الديون بعد أن يدفع مبلغا من المال لتجديد الدين أكثر مما يكفى لسداد الدين الأصلى وغالبا كان المرابى يكتب سندات بمبالغ كبيرة تعلو المبلغ المسلم على أنها قروض فى مقابل فائدة باهظة للغاية حيث أنها تتضاعف فى نفس الوقت الذى يتضاعف فيه الدين المستحق ، وان لم يسدد الفلاح يحرر عليه سند آخر بملغ يزيد عن السابق ويستحق الدفع فى نفس الميعاد ليصل ٢٥٦٪ عن المبلغ الذى اقترضه الفلاح . وقد يصل الى ٤٠٠٪ مما يتسبب فى النهاية

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

الى بيع أراضيه بسعر منخفض أو وضعها تحت تصرف هؤلاء اللصوص ودائما يجعل المرابى ميعاد استحقاق جميع السندات شهر أكتوبر أى الشهر الذى يبيع فيه الفلاح قطنه والفائدة تحسب على السنة كاملة أيا كان الوقت الذى تقع القروض فيه ، وكم من خيبة وكم من منهبة يخبئها للفلاح المسكين شهر أكتوبر الذى يسميه الفلاحون شهر المرابين ، فاذا حل أجل السلفه وقد لا يشعر الفلاح بحلوله لجهله السنة العربية ولأنه غير متعود على الدفع فى المواعيد ، وبالنظر الى أن الفلاح لم يستعد للدفع فانه يبيع على المرابى قطنه بثمن بخس سببه الاضطرار من جهة وجهله الأسعار من جهة ثانية ومعلوم أن للقطن تقلبات فى الأسعار فقد يرتفع دون أن يعلم الفلاح ، ويكره « بيع قطنه بأدنى سعر ويسرق فى الوزن بلا استحياء » (١) •

وقد كان للفوائد التى وصلت الى ٢٠٠٪ من المعدل أثرها على النقود السائلة من ملايين الجنيهات الاسترلينية التى ظهرت فى الاسكندرية والقاهرة ، مما مكن هؤلاء المرابون من التوسع فى البيوتات التجارية وانشاء البنوك بالاسكندرية •

واذا رجعنا لأصول هؤلاء المرابين ، نجد أن اليونانى منهم يحضر الى الاسكندرية وهو غالبا ما يكون خادما وبمعاونة من هم من جنسه وقد ازدحمت الاسكندرية بأمثالهم ممن سبقوه الى هذا الحقل ، وبتتبعه لخطواتهم يبدأ من التجوال ليبيع للفلاح حاملا حقيبة على كتفه متنقلا من بلد الى آخر مكللا بالسجاح مستعملا اللغة العربية باليونانية ، وأخيرا يستقر به المقام فى احدى القرى ليفتح حانوتا يبيع فيه الأصناف المغشوشة ويجمع بين أن يكون بقالا وصيدليا وصاحب مقهى ، ويبيع البضاعة بعشرة أمثال أثمانها وفى الوقت نفسه يرابى المراباه الجزئية فيعطى العشرة قروش ليأخذ خمسة عشر فى نهاية الأسبوع أى فى يوم السوق ، فاذا حال الحول يكون قد ربح ما يمكنه من توسيع تجارته ومنها القروض ويلقب « بالصيرفى » وندريجيا يصبح هذا اليونانى من أكبر الماليين والتجاريين بسوق القطن بالاسكندرية حتى وصل الأمر الى أنه بعد أن كان يسلف الفلاح الفقير أصبح يسلف الخديو اسماعيل ، ووصل الى ذلك بعد أن حطم القرية ومن عليها فقد قال طعمت حرب « كم أثرى كثيرون بما أفقروا من أهل البلاد (٢) •

---

(١) Bemlan : op. cit., pp, 131, 135, 136 ، يوسف نحاس : المرجع السابق • ص ص ٩٢ — ٩٥ •

(٢) Wallace, D. M. : Egypte and the Egyptian Question, London, 1883, p. 288.

« هنرى عيروط : الفلاحون ، ترجمة محيى الدين الليان ووليم داوود مرقص ، القاهرة ، مؤسسة الحلبى ، ١٩٦٨ ، ص ٢٠٩ •

وكان منظرا مألوفا أن يرى مأمورو التحصيل – ومعظمهم أتراك – مصحوبين بالقواسين ومعهم الفلقة والكرابيج وأيضا بالمرابين أثناء آدائهم لأعمالهم المعهوده وهنا يهرول الفلاحون وراء المرابين وهم بائسين راجين طالبين الأموال موافقين على الفوائد مهما كانت للتخلص من العذاب ويحسب عليهم الجنيه الاسترليني ب ١٥٠ قرشا رغم أن الجنيه الاسترليني كان أقل من الجنيه المصرى ويصبح على الفور قنطار القطن بسعر جنيهين فى حين أن ثمنه ثلاثة ونصف (١) ، ولم يكن الربا من أجل الضرائب فقط بل أيضا من أجل الرشوة التى فرضت على ذلك الفلاح المسكين من سلسلة الموظفين الذين يتعامل معهم فيحاول أن ينشل نفسه من عذاب السوط المعرض له فى الوقت الذى يضطر فيه الى اطفاء لهب ذلك الطمع والجشع المطلوب سده فيضطر للالتجاء للربا الفاحش ، كما انه كانت هناك علاقة مؤكدة بين المرابين وهؤلاء الموظفين فمأمور التحصيل كان يرافق المرابى الذى يدفع له جزءا من أرباحه الدنسة ، واذا فشل الكرباج مع الفلاح يقول له المدير «كل هذا الضرب ولا تقر بما عندك من نقود يجيبه بالنفى فيقول له اقترض ، فيرد من يقرضنى فيقول المدير ، الأمر يتدبر ، وبعد فتره وجيزه يظهر المرابى اليونانى المدعو ديمترى الذى كان منتظرا فى خلفية المكان ، وقبل حضوره يكون قد درس حالة الفلاح وما عنده فيقرضه دون سؤال ، ويقبل الفلاح الأمر الواقع ، وديمترى هذا يعطى الحصة المقررة للمدير ، حيث أن تلك عملية مرتبه بينهما » (٢) .

وكان للمرابين طرقا كثيرة للاحتيال على الفلاح الساذج ذلك الذى وقع فريسه لهم ، فعلى سبيل المثال فقد « قصد أحد الفلاحين تاجرا يهوديا من تجار البلدة بشبين القناطر ليستدين منه مبلغ عشرين جنيها وبعد أن اتفقا على الفائده وعيناها وكتب السند بقيمة تسعة وعشرين جنيها أخذ التاجر السند من الفلاح مختوما وقال له انتظرنى لأجيئك بالنقود وذهب ولم يعد وطال على الفلاح الانتظار واشتد به القلق وحار فى أمره الى أن مضت بضع ساعات ، فرأى التاجر خارجا من منزله فأدركه وطلب منه النقود فأجابه التاجر أن لى عند رفاقك مقدار هذا المبلغ فاستخصله منهم، فاضطرب الفلاح وقصد بعض الناس يطلب انصافه فلم يجد من يعينه»(٣) .

وبجوار الضرائب والرشوة التى أجبرت الفلاحين على الالتجاء للربا كان هناك مضار الاعتماد على محصول نقدى كالقطن ، فبعد أن صار الفلاح حرا فى اختيار زراعاته وبيع محصولاته ، وبعد أن أصبح مجبرا على دفع

(١) Egypt No. 1 (1880), Inclosure 2 in no 31, p. 23

(٢) Wallace : op. cit., p. 284.

(٣) التجارة ، عدد ١٢٨ فى ١٤ نوفمبر ١٨٧٨ .

الضرائب نقدا ، وبعد أن أنقصت الدوله ضريبة الجمرك على الصادرات من القطن ذلك جميعه جعل انتاجه يعطى ربحا وأصبح السلعة الأساسية لانتاج نفلاحين .

وجاءت الحرب الاهلية الامريكية ليكون من نتيجتها مجاعة قطنية فى أسواق أوربا فبرهن القطن المصرى على وجوده لطول شعرته وقوة تيلنه وجمال لونه ورقة ملمسه وراح اسماعيل يشجع زراعة القطن فى أراضيه وقلده كبار الملاك ومن ثم الفلاحون ، وأصبح الذهب الأبيض وبعد أن كان يصدر منه ٧٢٣,٠٠٠ قنطار وصل الى ٢,٠٠٠,٠٠٠ قنطار فى السنة(١)، وارتفعت الأسعار لدرجة انها كانت فى الاسكندرية أعلى منها فى ليفربول ، وبعد أن كان ثمن القنطار ١٢ ريالا فى عام ١٨٦١ أصبح ٤٥ ريالا عام ١٨٦٥ (٢) ، وعم الرخاء حتى على الفلاحين البؤساء ، فتلك الحالة الفجائية التى رفعت الفلاحين فجأة مرة واحدة من الفقر الى الغنى والثروة ولكن كالعادة لم يتعود هؤلاء على الادخار ولم يعملوا حسابا لأية طوارىء مع أيام الازدهار وبالرغم من ذلك فقد لجأوا للمرابين للتوسع فى زراعة القطن لمزيد من المكاسب ولبى اليونانيون الطلبات ، وعرضوا النذور وكل الأموال المطلوبة ، فارتفعت أسعار الأراضى وارتفع الايجار بالتالى نتيجة لهذه الظروف وكان ذلك على حساب المحاصيل الأخرى .

وانتهت الحرب الأمريكية ، وعاد القطن الأمريكى الى أسواق أوربا ليؤثر ذلك على القطن المصرى، فتنخفض الأسعار وتكون الصدمة القاسية ليتحول الفلاح الى الأستمرار فيما بدأ فيه بأن يلجأ الى القروض التى كانت سببا فى بيعه كل شىء حتى أصبح معدما ومتسولا يمد يده ، وانخفضت أسعار الأراضى وبيعت بأثمان بخسه حيث أن القروض الاخيره لم تكن كالسابقة على المحصول وانما على الأراضى ، وبأمر الحكومة بيعت الأملاك والأطيان لسداد الميرى المطلوب وتقسيم الباقى على الدائنين الذين سبق أن أقرضوا الفلاحين بالربا وتعذر سداده ، وعندما استفحل الأمر فى عام ١٨٦٥ تدخلت وتحملت ديون الفلاحين وأصبحت أراضيهم البالغ مساحتها ٤٠٠ ألف فدان مرهونة للدولة وتسلم الدائنون ما عرف باسم سندات القرى فائدتها ٧٪ ، وتولت الخزانة تحصيل هذه المبالغ من الفلاحين خلال سبع سنوات (٣) .

(١) Wallace : op. cit., pp. 316-320.

(٢) د. أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٢ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١٠٢ ، دفتر رقم ١٩١٥ ، صورة الأمر الكريم رقم ٤٩ فى ٢٢ جماد آخر ١٢٨٢ (١٨٦٥) ، Bear : op. cit., p. 35.

وهكذا كان من الأخطاء وضع النقل الاقتصادى فى سلعة واحدة لأن أسعار الأسواق غير مضمونة وعادة تكون الخسارة بانخفاض الأثمان ، كذلك كان لبعض من كبار ملاك الأراضى نشاط فى مسألة القروض وإغراق الفلاحين بها ، فقد كانوا يحصلون على قروض كبيرة من البنك العقارى بفائدة ٩٪ ثم يجزئون تلك القروض الى مبالغ صغيرة يقدمونها للفلاحين من مزارعيهم ومستأجرى أراضيهم لقاء فائدة كانت تتراوح فى معظم الحالات بين ٢٥٪ ، ٤٠٪ (١) ، وبناء على ذلك ارتفعت ديون الفلاحين فبعد أن كانت ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيها ، وصلت مع نهاية عام ١٨٨٢ الى ١٥ مليون جنيها ساهم فيها البنك العقارى بثلاثة ملايين ، والاثنى عشر مليونا كانوا من المرابين الأجانب المحليين ، (٢) ، هؤلاء المرابون الذين لعبوا دورا كبيرا فى عملية الانهيار التام للفلاحين .

الفلاحون والمحاكم :

جاءت المحاكم المختلطة فى عام ١٨٧٦ لكى تزيد الأمر قسوة وأسى ولتشارك فى عملية الربا ، ولتمارس الرهونات ، وكان ضررها كبيرا على مصر وخاصة على الفلاحين حيث لم يكن حكمها فوق الاعتبارات السياسية والشخصية مما زاد من بلواها ، وقبل انشائها كان الأجانب السلابون يستطيعون عن طريق امتيازاتهم وقناصلهم أن يبسطوا اراداتهم ورغباتهم على الفلاحين ، الذين لا يستطيعون أن يقاضوهم واذا تم فقد كان الانتصار للقناصل ورعاياهم ، وبعد انشائها كانت هيئة هذه المحاكم تستدعى أى فلاح أمضى أية ورقة بقرض أمام قضاة أجانب ، وبعد اجراءات أجنبية لم يتعودها ، بلغة أجنبية لا يفهمها ، وبغير أن تسمح له فرصة الدفاع عن نفسه ان كان فقيرا واقامة الحجة على أن الأرقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة تحكم عليه بما قد لا يقل عن تجريده من كل ما يمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف بأى شىء ، هو فى الحقيقة مطالب (٣) ، ووفقا للشريعة الاسلامية لم يكن هناك حق بيع أملاك المديون بالحكم الغيابى ، لكن جاء القانون المختلط لكى يعطى حق رهن الأراضى وحق المرتهنين فى بيعها وليطبق نظام الرهونات فقد سمح بالبيع الوفائى وللدائن حق الاستيلاء على أرض المدين وتجريده منها اذا عجز المدين عن الدفع ويوضح دوفرين ذلك

(١) د. رءوف عباس : النظام الاجتماعى فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة ١٨٣٧ – ١٩١٤ القاهرة ، دار الفكر الحديثة ، ١٩٧١ ، ص ١٤٥ .

(٢) Malortie, B. D. : Egypt, Native Rulers and Foreign Interference, p. 296.

(٣) Blunt, W. S. : Secret History of the Egnlish Occupation of Egypt, London, 1907, p. 46.

فيقول « بناء على السجلات التي حفظتها المجالس المختلطة منذ انشائها فى عام ١٨٧٦ أى فى مدة سته سنين فد ارتفع المبلغ المسجل فى قلم الرهـــونات من ٥٠٠ ألف جنيه الى سبعة ملايين جنيه والمبالغ المرهونة باسم الفلاحين قدرها خمسة ملايين جنيه ، على ان المجالس المختلطه تراعى بغير حق مصالح المرتهنين الذين يغدرون فى الغالب أن يجبـــروا الفلاحين على بيع الأراضى ليأخذوها بنصف قيمتها، وبلغت الاطيان المرهونة ٠٠٠ر٤٠ فدان »(١) وقد منل جميع الفلاحين أمام هذه المحاكم حتى أولئك الذين تعرضوا للفيضان وساءت حالتهم ، وكان احساس الفلاح نفسه أنه يحاكم أمام محكمة غـير عادلة لا تحقق له دسـتور الاسـلام جعله محطما ، وبالرغم من ذلك فانه عندما يمثل أمامها ومعه المرابى اليونانى فانه يقول الحقيقة حتى ان الأمر لم يعد يحتاج الى استدعاء شهود اثبات فهو وافف وحيد فى وســط أجانب من القاضى الى كاتب الجلسة ، وحتى الحكم الذى يصدر عليه باللغة الأجنبية اللهم الا ملخصا بسـيطا بالعربيـة يرفق مع الصـورة الأصلية (٢) .

وكانت لتلك المحاكم السـلطة القوية المجحفـة بالأهالى والمتحيزة للأجانب ، وقد كان لها التأثير السـياسى ، فهى أسست من أجل استغلال مصر وأدت الى الاستعمار ، وشـجعت المرابين ، وباع قضاتها ضـمائرهم ، وأصدروا أحكامهم التى لم يكن من نتائجها بيع الأراضى فحسب بل وامتلاك المرابين لها والزج بالفلاحين فى السجون .

وصرحت الحكومة بممارسة المحاماة للدفاع عن الفلاحين فأزادت من الظلم الواقع عليهم ، فقد كان المحامون أيضا أجانب « وهيهات اذا وقفوا عـلى المعنى المراد واذا عرفوا المراد ، وهيهات اذا سلكوا فى طرق الرشاد فانهـم لا يعتنون بالفلاح بسبب فقره ولا يرثون لعجزه وكسره (٣) » .

ومن بين ما اشتهرت به من الأحكام العادلة أنها توقع مبايعة العقارات بدون حجج شرعية ، ولربما تكرر بيع العقار ثلاث مرات ، وذلك لتجـديد القضايا وتكثير الايرادات ، ولا غرو فى ذلك فان مرتبات مستخدميها باهظة هذا فضلا عما يظهرونه نحو المصريين من الاحتقار والازدراء .

واذا انتقلنا الى دور المحضرين ، فكم قاسى الفلاحون من هذه الطائفة، يتكلمون الفرنسية أو الايطالية ويطوفون في القرى ليعلنوا الفلاحين «ويقفان الاثنان ــ المحضر والفلاح ــ بازاء بعضهما وقوفا مضحكا اذ يرطن كل منهما للآخر بكلام أعجمى وينفصلان غير فاهمين بعضهما (٤) » .

---

(١) دوفرين : نفس المصدر ، ص ٢٧ .

(٢) Bemlan : op. cit., pp. 56, 63.

(٣) الوطن ، عدد ٥١ فى ٢ نوفمبر ١٨٧٨ .

(٤) مصر ، عدد ١٣ فى ١٩ سبتمبر ١٨٧٩ .

وكان كثيرون من الأجانب ينتحلون صفة المحضرين ويحتالون على الفلاحين ، ومعهم اعلانات كاذبة تنضمن الالزام بدفع المبالغ والحجز على الموجودات « وأصابوا الضرر بهذه التصرفات » (١) ٠

ومما كان يزيد الأمر سوءا انه كان على الفلاح أن يترك قريته ليذهب لمقر الحكم وهو القروى الساذج فكثيرا ما كان يتعرض لعمليات من السرقه والنصب، التى تخصص فيها حساله الأجانب « حضر الى الثغر أحد فلاحى مديرية البحيرة لكونه مطلوبا فى المجلس المختلط بناء على طلب رجل يهودى له دين عليه فسطا عليه شخصان من الأروام وسلباه (٢) » ٠

وكان هناك شكل آخر للاحتيال ، وهو افهام الفلاح بامكانية تخفيف الحكم عليه عن طريق العلاقة والمداخلة بين هؤلاء الاجانب المحتالين وبين أعضاء المحكمة وتكون النتيجة اختلاس ما مع الفلاح والهروب ٠

هكذا قست المحاكم المختلطة على الفلاحين ولم تكن بمفردها بل شاركتها المحاكم المحليه التى أخضعته هى الأخرى للظلم اذا احتاج اليها ، فلم يكن ىمكنه عن طريقها أن يأخذ حقه أيا كان ، فهو لا يستطيع أن يشكو لأن الشكوى ستجر عليه العذاب ، وكيف يجد العدل والقائمين عليه اتراك ظالمون ، فضاعت الحقوق بسبب الرشوة ، وتأخرت القضايا لأنه غالبا ما يكون المطالبون بالعدل هم الفقراء والمطلوب منهم الاغنياء « فبعد أن يفرغ صبر الفقير مما يتكبده من التذلل للكتبة والرؤساء ، ويصرف ما هو فى جهده من النقود والدموع وتتعطل أشغاله التى يحصل منها على قوته يرجع بخفى حنين لا يحصل من حقه على شىء ، وربما لا يعود الا وهو محكوم عليه بجزاء » (٣) ٠

أما القضاة فمنهم ضباط أتراك متقاعدون يجهلون اللغة العربية ، ويعينون قضاة لضرورة ايجاد مناصب لهم فى الحكومة بدون فقه القانون ٠ وكثيرا ما كانت تقوم المنازعات وينتصر القوى ويستحوز على أرض الضعيف مستندا على عامل الزمن وطوله ، فحتى لو رفع الضعيف القضية فالحكم يأتى بعد وقت طويل ويكون القوى قد استحوز على محصولات الأراضى ، هذا ان كان الحكم سيكون فى صالح الضعيف ولم يحدث ذلك الا نادرا.

وبلغت الفوضى الى أقصى درجة لعدم الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة القضائية ، فالمدير له حق تعديل الأحكام ، وحتى فى القضايا الجنائية يسيطر عليها الخلل ، وتتم فى كثير من الأحيان فى مكاتب البوليس يتولى ايضاحها أحد الكتبة والأمر موكول الى الشاكى والمشكو فى حقه ،

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٤٥ فى ١٩ مارس ١٨٨٠ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٤٤ فى ٢٢ فبراير ١٨٨١ ٠

(٣) الكوكب المصرى ، عدد ٢٣ فى ١٧ اكتوبر ١٨٧٩ ٠

وهنا توجه القضية وفقا للمصلحة الشخصية لرجال البوليس ، ويصبح البوليس بل ومعه المحاكم فى أيدى الأغنياء لسلب الفقراء (١) ، وأصبح القاتل والسارق وقاطع الطريق يجدون طريق الخلاص من القانون على يد القائمين عليه عن طريق الرشوة وفى وسط ذلك ضاعت الحقوق ٠

وكانت مسألة بيع الأراضى قاصرة على محاكم المديريات ، فاذا « أراد فلاح ان يبيع فدانا واحدا وهو ببلده بجوار رشيد عليه أن يذهب الى محكمة طنطا ، وقد تلجئه الفاقة الى ذلك السفر راجلا ويصلى نار العذاب ويصرف الكثير من اجل هذا الفدان » (٢) ٠

وبناء على ذلك نرى أن الكثيرين قد تجنبوا هذا القضاء خوفا من ضياع حقوقهم باختلال القوانين أو بخداع خصومهم أو بقوة سطوتهم ويفضلون التراضى حتى ولو فقدوا جانبا من حقوقهم بل ربما فضلوا فقدها برمتها ، لكن كانت هناك أمور الحث فى ضرورة الالتجاء الى تلك المحاكم وبذلك تضاعفت الأعباء ولجأ الكثير الى الربا للصرف على القضايا والانتقال والرشوة وطول التحقيقات ٠

كان الأثر الكبير الذى أوجدته المحاكم المختلطة هو « نظام الرهونات» ولم تختص بالأراضى فقط بل خضع لها كل ما له قيمه واذا فات أجل السداد يتم الاستيلاء على ما هو مرهون ٠

وتأسست شركات لذلك منها « شركة لاند اندمور نكيج كومبانى ، البنك العقارى » وقد لجأ اليها الفلاحون لوضع رهوناتهم ولو أن البنك العقارى قد حد من الالتجاء اليه لوضعه شروطا كثيرا ما كانت لا تنطبق على الفلاحين عامة ، الذين التجأوا الى المرابين ليقرضوهم بفوائد عالية وانتشرت البنوك التى زعموا أنها جاءت لانقاذ الفلاح لكن فى الحقيقة كان غرضها الحصول على العظام التى سبق لليونانيين أن أكلوا لحومها ولهذا استمر الوضع السيىء للفلاح ولم يتحسن أبدا ٠ وهكذا وصل الفلاحون الى درجة الغليان لكنهم كانوا متحملين لكل هذه الأثقال حتى تتجمع فى النهاية ٠

السخرة :

كانت الضريبة الجسمانية التى يؤديها الفلاحون بالاكراه ، طبقت على الفقراء دون غيرهم ، فأصبحت منبعا لعدم العدالة ، وهى أنواع فمنها ماهو

---

(١) جمعية اتحاد مصر الفتاه : لائحة اصلاح مرفوعة الى الأمير توفيق الأول خديو مصر الاسكندرية ١٨٧٩ ، ص ١٠ ٠

(٢) الكوكب المصرى ، عدد ٢٤ فى ٢٤ اكتوبر ١٨٧٩ ٠

خاص بالاعمال العامة من حفر قنوات ومد طرق واقامة قناطر ، فعند الفيضان وقت أن تنذر الحالة بالخطر يجمع لها مئات الألوف من الفلاحين يعملون ليل نهار لتقوية الجسور واصلاحها والمحافظة على السدود ، ومنها ما كان بسبب حشرات تهدد الثروة العامة مثل دودة القطن فيساق الرجال والنساء وحتى الأطفال لتنقية الدودة أو غزو جراد فيخرجون الانفار لمقاومته ، أما سخرة الأعمال الخاصة فهي تخص الفلاحين بالعمل لدى الحاكم وأراضيه وكبار الملاك والعمدة وشيخ البلد وأيضا الأجانب الذين يمتلكون الأراضي .

وخضع المصريون دون غيرهم للقيام بهذا العمل ، وقد استثنى قانون يناير ١٨٨٠ بعض الفئات من السخرة مثل العلماء والفقهاء وطلبة العلم والمأذونون وخدمة المساجد والقسس والرهبان والحاخامات وأرباب الصنائع والحرفيين (١) فمن غير هؤلاء ؟ طبيعى أنهم الفلاحون يخرجون من ديارهم وقراهم ليعملوا فى جهات نائية تحت أحلك الظروف تاركين أرضهم وماشيتهم وأهلهم .

وتمتد السخرة من ثلاثة الى أربعة أشهر بدون أجر وبدون طعام وحتى اذا قدم كان من أردأ الأنواع ودون الكفاف ، فهذا مع العمل المضنى أودى بالفلاح الى التهلكة وسبب له سوء التغذية حتى أن البعض منهم كان يموت من شدة الجوع .

ويصف مستر Stuart الانجليزى وقد زار مصر ويدلى بمارآه « يجمع مئات الرجال من زراعاتهم فى أحرج الفصول ويساقون كالماشية ويعاملون بقسوة بالعصا والكرباج للعمل لدى الباشوات والرؤساء الرسميين أو للدولة وفى الأخيرة كان طعامهم يقوم على فتات الخبز ومن الجوع وسوء المعاملة كان المساكين يتساقطون كالذباب » (٢) .

كانت الحكومة تعين العدد الواجب تقديمه على كل مديرية ، وشيخ البلد هو الذى يجمع العمال تبعا لهواه ، فيعفى الذين يرشوه فاذا طلب منه أربعون نفرا « فينادى بطلب خمسين وينشر الأمر فيشرع فى انتخاب خمسين نفرا من الأغنياء فيتعهدون له باحضار البدلية فيأخذ العشرة الزيادة غير العطايا التى يأخذها من الأربعين نفرا » ، بالاضافة الى ذلك فقد كانوا يستبدلون أبناءهم وأقاربهم وأصدقاءهم ومحاسيبهم بالفقراء ، وقد سلك شيوخ البلد هذا المسلك حيث كان عليهم هم الآخرون أن يدفعوا لرؤسائهم (٣) .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٨٤٥ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .

(٢) Commons, Vol. CCXXIII, August 16, 1882, p. 1953.

(٣) Egypt No. 1 (1880), Inclosure 1 in no 31, p. 22, Inclosure 7, p. 29.

وقد منح المسخرون حق تقديم بدل عنهم، وبالرغم من أن الكثير قد دفع البدل للتخلص من السخرة لكنهم أكرهوا عليها حيث أنه لم تبح الحكومة أداء البدل النقدى لغير العاملين بالأطيان والأباعد العشوزية والتفاتيش ولم يعمم على جميع الفلاحين (١) .

وكان العاملون بالسخره سواء لدى الحكومة أو كبار الملاك يخضعون لألوان من العذاب وكأن الفلاح ليس له وجود فى تلك الحياة التى قست عليه وكثيرا ما كان يتم ذلك لمجرد اللذة فى عذاب الفلاحين . وبتعدد الأعمال العامة ازدادت السخرة .

ويصف Dicey كشاهد عيان حفر احد الطرق « كانت الحرارة مرتفعة والعمال فى غاية الارهاق والسوط فوق الظهور للاستمرار فى العمل بدون توقف ، هذا الفصل من تلك المسرحية لم يكن يسر أى منفرج عليه ولكنه كان يبين كيف تحكم مصر ، هذا فى الوقت الذى رأينا فيه العظمة والاسراف للحاكم وتلك الموائد الممدودة والتى لا تنقطع أبدا»(٢).

وكانت السخرة فى أراضى اسماعيل غاية فى القسوة وخاصة فى مزارع قصب السكر ، فقد أنشأ لها خصيصا خطا حديديا امتد من القاهرة الى أسيوط واستعمل مائة ألف فلاح فى شق قناة لها هى ترعة الابراهيمية التى استخدم فيها حتى الأطفال ، فكأنه اشترى هؤلاء وأصبحوا عبيدا عنده وكان حريصا كل الحرص على الا يتوقف العمل أبدا لذا أخضعهم لنظام صارم للمراقبة والملاحظة اثناء العمل وصفه النديم « يخرج القواس على حصانه يعلن المديرين والمأمورين بأن المفتش سيمر ، فلا تسل عن اتباع المديرين فيقطعون الاغصان الغليظة من الأشجار وينزلون بها على أجسام الفلاحين العرايا فلا تسمع الا بكاء أو نحيبا وصراخا (٣) ».

وكان المسخرون يجبرون على العمل بأيديهم ليملأوا تلك المقاطف الصغيرة التى ينقلون بها الأتربة ، ومعهم ماشيتهم التى يرغمون على احضارها ويعملون من الشروق الى الغروب بدون انقطاع فى ظل ذلك التعذيب ، وأثناء الحفريات التى قام بها الأثرى كارتر عثر على من خضع لذلك النظام وعليه الآثار « رقبته منحرفة الى الجنب وذقنه على كتفه وأرجله قرفصاء مفتوحة الى الخلف ويداه منطبقتا على معصميه على قطع خشنة من الخشب فوق بعضهما بمسمارين من حديد نافذين من المعصمين ومربوطين

---

(١) Ibid, No. 3 (1880) Inclosure 3, p. 3.

(٢) Dicey, E. : The Story of the Khedivate, London, 1902, p. 78.

(٣) الطائف ، عدد ٦ مايو ١٨٨٢ .

في الرقبة ، مع وجود آثار تسلخات في الظهر ، وكان واضحا تورم اليدين من شدة ضرب العصى » (١) .

بالاضافة الى ذلك ، فقد كانوا مطالبين بفلاحة أطيانهم وآداء ما عليها . لذا نرى أنه كثيرا ما لجأ الفلاحون للعمل عند كبار الملاك من الذوات والأجانب متنازلين عن ملكياتهم فى مقابل خلاصهم ، وهنا لجأ كبار الملاك الى استنفاذ كل امكانيات الفلاحين ، فسخروهم في أراضيهم وأخضعوهم لقسوة الظروف فى تطهير وتعميق المصارف لمصلحتهم ، وفي تقرير لأحد المسئولين البريطانيين فى الزقازيق بأنه رأى بعينه ثمانية آلاف رجل جمعوا لحفر قناة الزقازيق يجمعون الأحجار والطين وينقلونها لأرض أمين بك الشمسى ليحولوا مستنقع الى مبانى تفيد زراعاته ، وأقاموا قمينة كبيرة كان يحرق فيها ٣٠ الف طوبة ، ولم يجرؤ أحد على سؤاله (٢) .

وسرت السخرة على الدواب ، فهى مطلوبة وتوزع على القرى أيضا بنسب معينة ، وهى الاخرى لايعطونها حقها فى العلف فتأخذ فى الضعف تدريجيا حتى اذا تم العمل تمت آجالها ، وكان أخذها ضريبة باهظة على الفلاحين « يحسبونها من مصائب الحكومة وبلاياها ، ويتضجرون منها كما يتضجرون من نفس السخرة » (٣) .

وقد طبق مبدأ التضمين فى المسئولية بالنسبة للسخرة وذلك بسبب عمليات الهروب التى كانت تتم ، بمعنى أنه اذا هرب أحدهم فيلزم شيخه باحضاره أو بدلا منه لأداء العمل المخصص عليه ، بحيث أن البدل يكون من عائلة الهارب ، واذا كان التسحب عائلة فيكون البدل على باقى الأنفار ، وعندما تسلم رياض مقاليد الحكم كتب أوامره بابطال السخرة وما يصحبها من استعمال الكرباج ، لكن الأوامر والقرارات شىء والتنفيذ شىء آخر ، فمضت السخرة واستمرت بما يصاحبها من آلام وعذاب .

وارتبط نظام السخرة بنظام الجهادية الذى لم يقل ضغطا بل ازداد عنفا فى كثير من الأحيان ذلك النظام الذى أخضع الفلاحين لأسوأ ظروف أحاطت بهم ، فقد استمر قانون الخدمة العسكرية يطبق بغير عدالة حيث تحكم شيوخ البلد فى تلك المسألة ، فكان يحدد لهم عدد معين ، فمن دفع له رشوة أو دفع لطبيب الجيش يصبح غير لائق ، أما من لايدفع فيساق ، وغالبا كان المساقون هم الضعفاء المساكين « كابن يعول أمه وأخواته البنات

---

(١) Cromer : op. cit., Vol. I, p. 50.

(٢) Egypt, op. cit., May 19, 1880.

(٣) الطائف ، نفس العدد .

فيترك الأرض والزرع مصدر رزقهم ويذهب للجندية » (١) ، كما كان المديرون المكلفون بأمر الخدمة العسكرية يجرون التجنيد بكيفيات وحشية لاسيما فى الصعيد ، وكثيرا ما يأخذون من المطلوبين نقود البدلية التى كان قد صرح بها ثم يجندونهم بالرغم من ذلك ، واستمرت مسألة الهروب وكانت تقام الحملات للبحث عن الهاربين ، ومضت عملية اتلاف الأعضاء لوضع حائل بينهم وبين الجندية «فشيخ ناحية كفر هلال بمركز الجعفرية وضع اجزاء سمية فى اعين سبعة انفار، وحث أغلب الأهالى على فعل ذلك»(٢) كل ذلك من أجل التخلص من أعباء التجنيد ، وذلك بعد أن قاسوا الأهوال فى تلك الحروب التى خاضتها مصر .

الفلاحون والميـاه :

تحتاج أعمال الفلاحة للمياه خصوصا اذا كانت الأراضى تبعد عن الترع والفنوات ، لذا كانت أعمال الرى من أساسيات نظام الزراعة فى مصر .

وقد تعودنا أن تكون جميع الخدمات لصالح الخديو وأسرته أولا ثم كبار ملاك الأراضى من أتراك ومصريين وأجانب ، أما الفلاحون فكان آخر شيء ممكن أن ينظر الى مصالحهم ، وفى اطار العذاب وقعت مسألة الرى ، فحرموا من المياه لتروى بها أراضى الأسياد .

ومسألة توزيع المياه هى مسألة حيوية وجوهرية حيث أن غالبية المحاصيل تتوقف على رى الأراضى فى وقتها اللازم وكانت جميع أشغال الرى قد وجدت من اجل أراضى الخديو وجفا لك الأسرة واذا ابتسم الحظ للفلاحين أحيانا وزادت الميـاه رويت أراضيهم أما اذا كان الرى قليلا فيستخدم جميعه لأراضى السيد ويحرم الباقى ، وأصبح من المألوف أن تنقطع المياه عن أراضى الفلاحين ، مما كان يلجئهم الى بيع أراضيهم دون السعر الحقيقى هؤلاء الذين وقعت عليهم كل تلك الأعباء ، فكان أقل مايجب أن يعطوا حقهم فى المياه ، لكن كان مهندسو الرى الذين يتولون أعمال السدود والبرابخ ووابورات الرى يفرضون المزيد من الطلبات عليهم حتى يسمح لهم برى أراضيهم فى النهاية ، تلك المياه التى تزيد عن حاجة الأغنياء الذين كان منهم مهندسو ومفتشو الرى ، فأراضيهم تروى فى المرتبة الأولى حتى أن مشروعات الرى كانت أيضا تنفذ وفقا لأهوائهم ولمصلحتهم بالرغم من

---

(١) Egypt, op. cit., pp. 24, 79.

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦١ فى ١٠ نوفمبر ١٨٨٠ .

أن الفلاحين هم المنفذين لتلك الأعمال ، فكان ما يحدث أنه بعد أن تخدم الأراضى المعهودة يوقف المهندسون العمل « فكانت أراضى الأغنيـاء تفيض بالمياه بينما تبقى أراضى الفقراء متعطشة الى قطرة واحدة » (١) ٠

وكانت مسألة رفع المياه لرى الأراضى تخضع لضرائب ثقيلة وقعت أيضا على عاتق الفلاحين اذا أرادوا مياها وحتى الترع المشتركة بين الجفالك والأباعد وبين أراضى الفلاحين ، فقـد كان مفتشـو الجفالك ونظار الأباعد يضعون أيديهم على هدد الترع ، فيديرون الوابورات ويمنعون الفلاحين من أخذ المياه بدعوى أنها غير كافية لمزروعاتهم مع انها واردة من النيل الذى لم يخصص فئة معينة ليعطيها ماءه ، فيضطر الفلاحون لدفع الثمن «فيروون الفدان الواحد ببنتو أو جنيه دفعة واحدة ، وهيهات ان سمحوا لهم بذلك قبل تلف مزروعاتهم ، فترعة سنديس تنتفع بها ست جهات غير ان الترعة مشغولة بوابور التغتيش فيحجر على المياه الواردة اليها فلا يسع الأهالى الا مواسـاة للخولى ومن فوقه طلبا لأخذ المياه بالثمن وقل أن يتحصـلوا عليه » (٢) وبذلك اشترع الاختصـاص الذى اعتمد عـلى النفوذ والقـوة واحتقار الفقير والأنفه من مشـاركة الفلاح للأمراء فى نعم الله الذى خلق الاثنين بلا امتياز بينهما ٠

وأكثر من ذلك فان القائمين على التفاتيش قد أقاموا السـدود لمنع المياه منعا باتا من الوصول الى أراضى الفلاحين ، وكثرت المطالبـة ببعض المياه من الفلاحين ومشايخهم ولكن من يسمع ومن ينصف ؟ وتحكم الباشوات تمام التحكم ، فقد حدث أن أقام عمر لطفى باشا مصرفا بأراضى الفلاحين بكفر سعفانه ــ مركز فرسكور دقهلية ــ لصرف المياه من أراضيه وبذلك أتلف جميع مزروعاتهم وهاجر الفلاحون بعد أن أصبحوا عاجزين عن دفع الضرائب على المحصول التالف وبعد أن أفقدهم كل شيء (٣) ٠

وأخذت الرشوة مكانها مع المياه ، فمن يأخذ يدفع ومن امتنع حرم ، فأين للفقير من أموال لدفعها الى جميع تلك المجالات ؟ كما تمكنت العلاقات أن يكون لها أثرها ، فاذا تضاغن مهندسو الرى مع مدير المديرية عاقبـه بقطع المياه عن المديرية كلها خلال وقت الرى وبهذا العمـل أضر بالفلاحين جميعهم ٠

وخضع الرى لتحكمات الأجانب بعد أن سمح لهم بممارسة كل شيء

---

(١) Egypt : op. cit., pp. 20, 24.

(٢) المحروسة ، عدد ٢٥ فى ١٤ فبراير ١٨٨٠ ٠

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة رقم ٣٩ ، محرم ــ صفر ١٢٩٩ (١٨٨٢) ٠

على الأرض المصرية ، كان على رأس المتحكمين في الريف المصرى « باولينو باشا » اذ كانت له أراضى كثيرة فى البحيرة فاستغل ترعة (السعرانيه) لمنفعته الخاصة ومنع الاستقاء منها مدعيا بأنها أنشئت خصيصا له مع أنها قديمة الانشاء ، وتظلم الفلاحون ولكن دون جدوى واستطاع أحدهم أن يقيم بربخا لتوصيل المياه الى أراضيه « فما كان من الخواجة الا أن أرسل ثلاثة خواجات لمنع اقامته بل أن ما أقيم منه قد هدم أمام الباشا والعساكر التى أحضرها » (١) · كذلك امتلك هؤلاء الأجانب ومن دخلوا تحت الحمايات وابورات الرى ، وكان من بين شروط عقود الامتلاك أن ينتفع الأهالى لكن الى أى حد طبق ذلك ؟

« الخواجة بشارة صليبه مالك الأراضى بدمنهور أذن له بوضع وابور على الترعة لرى أراضيه على شرط أن يكون له الخمس فى الانتفاع ، فيكون استعماله لها يوما وللأهالى أربعة أيام ، فلما تمكن من وضع الوابور منع الأهالى بالمرة من الرى واستأثر بالترعة ، ولما ارتفعت مياه النيل وطلب الأهالى اجراها الى أراضيهم سد عليهم مجراها وأقام على ذلك السد محافظين من تبعته أجروا فيهم الضرب ورفعوا عليهم الطبنجات وهددوهم بالقتل اذا تقدم أحد منهم لقطع السد » (٢) وأصبحت آلات الرى تجارة رابحة على أيدى الأجانب ، فكم استفادوا من بيع الماء للفلاحين حتى فى أيام الفيضان الذى يكون الماء فيه وفيرا وبغير ثمن وذلك بعد أن منعوا الفلاحين من الاستحواز على قطرة الماء والنتيجة المعاناة التى تؤثر على الانتاج فقد كان واضحا أن ما تغله أراضى الفلاحين أقل مما تغله أراضى كبار الملاك الذين وجدوا كل شىء ممهدا لهم وبدون أدنى مجهود بينما وقعت الأعباء كها على فلاحى مصر ·

الفلاحون ودوائر الظلم :

مورس الظلم بكافة أنواعه على أيدى كبار الملاك وخاصة الأتراك الذين كرههم الفلاحون وثاروا بسببهم فقد كان قدوم الباشا التركى الى أراضيه ، يوما ترتعد له أبدان الفلاحين ، فكأن وحشا كاسرا قد حل بالأرض فهو مصاحب بمجموعة مسلحة من جيشه ، وهنا يرتعد حتى العمد والمشايخ ويقدموا له فروض الطاعة والولاء ، ويمارس سلطته وجبروته فيحضر من الفلاحين من أصاب أرضه بشىء أو تمرد عن العمل المكلف به ليشنقه فى أعلى

---

(١) المحروســة ، عدد ٦١ فى ٩ ابريل ١٨٨٠ ، عدد ٦٧ فى ١٧ ابريل ١٨٨٠ ·

(٢) التجارة ، عدد ٥٥ فى ٢ أغسطس ١٨٧٩ ·

مكان بالبلد كتحزير لباقى الفلاحين (١) • ووقع الفلاحون لظلم التجار الذين سلبوهم كل شىء ، فعندما يريد الفلاح أن يبيع قطنه ، فانه يوزنه عند ملتزمى القبان فى بلدته ويتكرر الميزان فى كل بلده يمر عليها ولا يعلم أيهما أصح، وفى كل مرة ينقص الوزن بدعوى البلل، فهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا صفة الموازين وحساب القناطير ، وأصبحت حلقة الأوزان هى مقر اغتيال فقراء الفلاحين من السماسره ورؤسائهم وشيخ القبانية وناظر الحلقة •

وقد برهن العمد والمشايخ على ممارسة الظلم فى أوسع مجالاته ، فادارة القرية منوطة بالعمدة وله الحق فى أن يصدر فى الشئون المدنية أحكاما وله مساعد أو أكثر من رجال الشرطة « الغفراء » ، والحياة فى القرية تعتمد على العمدة الذى يستخدم الفلاحين فى زراعة أرضه الخاصة باعتباره من أصحاب الأراضى ، وبذلك يصبح ذا سلطتين سلطة الامتلاك وسلطة الحكم ، وكم تكاتف العمد مع مديرى المديريات على حقوق الفلاحين الضعفاء، فكانوا يتدخلون فى متحصلات أراضيهم بمبالغ كبيرة ، ويمضى العمد فى تسلطهم ، وكان للعمدة فى بعض الأحيان أن يجمع مشيخة من المشايخ بالقرية ويستحوز على الأراضى التابعة لبقية المشايخ لدرجة لا تمكنهم من القيام بالمطلوب منهم من ضرائب وسخرة وحينما يشتكى أحدهم العمدة يكون جزاؤه السجن (٢) ، وفرض العمد على الفلاحين مبالغ على كل فدان كانوا يقومون بتحصيلها لأنفسهم ، كما استحوزوا عى الكثير من الأموال عن طريق اعفاءات السخرة ، وبلغ بهم الأمر أن استولوا على الأراضى جبرا . وتداخلوا فى الاستحواز على الملح والتحكم فيه بصرفه بزيادة عن المقرز بل رأخذ الأموال من صراف الناحية عن طريق السلفة لهم وأعطائهم أقل من المستحوز عليه ، ووصل بهم الأمر الى ضرب الفلاحين حتى الموت لذا لانعجب عندما نرى أن كثيرا منهم يتركون أملاكهم ويرحلون بعيدا ليخلصوا من هذا العذاب •

أما عن مشايخ القرى فقد كانوا أسوأ حالا وأعظم وبالا على الفلاحين ، فسلطتهم اخراج الفلاحين للسخرة وتحصيل أموال الضرائب وتجميع عساكر الجهادية وترتيب الغفر وملاحظة الضبط والربط ومن هنا مارسوا الجور ومالوا عن الحق واستنفذوا كل طاقات الفلاحين وسلبوا الكثير ، وكتب

---

(١) Wallace : op. cit., pp. 260, 261.

(٢) التجارة ، عدد ٩١ فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٨ •

نائب القنصل الانجليزى يقول « سلطة المشايخ غير محدودة ، فقد زج احدهم أربعة فلاحين بالبحيرة فى السجن بدلا من أربعة أشخاص آخرين » (١) والسبب واضح فاما ان يكون قد ارتشى أو على علاقة معهم .

وتعددت طرق احتيالهم ، فبعد انسحاب الفلاحين من أراضيهم كانوا يستولون على هذه الأراضى ويسجلونها باسماء لأقاربهم ويستخرجون الحجج بعد احضار من ينتحل الأسماء ، وكان منهم أيضا من يتحد مع المرابين الأجانب من أجل الاستحواز على الأراضى الخاصة بالفلاحين « وأربابها ينظرون اليه ولا يقدرون على خلاصها » (٢) .

وكان من نتيجة دلك أيضا أن ترك الفلاحون أراضيهم ليعملوا لدى كبار الملاك كما فعل الهاربون من السخرة فعل هؤلاء أملا فى حمايتهم من ظلم المشايخ ، وبذلك جنى الفلاح البؤس والهوان وحرم من مقومات الحياة وأصبح فقيرا مذلولا ، وقعت عليه الأعباء جميعها ، فهو الممول لأرباب الديون وفوائد السلف التى لم يكن له صوت فى اقتراضها ، ولم تعد عليه بفائدة بل هو خاضع لشرذمة من الأتراك وضعته تحت أرجلها مدة قرون ، ووقع عليه جبروت الأجانب من ربويين ومالكين ، ثم ذلك النظام الادارى الفاسد الذى خضع له وبذلك عاش الفلاح سنين طويلة تحت أثقال المصائب ، وتحمل كل أصناف العذاب والآلام ، ومات غير آسف على ما فات ، فقد أصبح مجردا من كل شيء « فكان من الأمور النادرة فى تلك الأيام أن يرى الانسان شخصا فى الحقول وعلى رأسه عمامة أو على ظهره شيء من قميص » (٣) .

الأملاك الشاسعة على حساب الفلاحين :

عندما تولى اسماعيل الحكم كان يمتلك ٣٠٫٠٠٠ فدان وانتهى به الأمر أن أصبح مالكا لخمس أرض مصر ، وكلما ازداد شراهة فى اقتناء الأراضى كلما كان ذلك على حساب الملكيات الصغيرة للفلاحين ، فقد اعتبر اسماعيل نفسه القوة المطلقة على مصر والمصريين وانه المالك الوحيد لتلك الأرض وله الحق فى استغلال ممتلكاته كيفما يشاء ، وكانت طريقته فى الاستحواز على الأراضى تتم جبرا واغتصابا ، فيتخير له أعوانه خير البقاع وأخصبها ، ويلزم الفلاحون بالبيع طوعا مكرهين عليه وتتم المبايعة بالشهادة الزور ويسجل فى المحكمة على انهم قبضوا الثمن ، وحول الأراضى الى زراعة القطن

---

(١) Egypt : op. cit., p. 118.

(٢) الوطن ، عدد ٦٢ فى ١٨ يناير ١٨٧٩ .

(٣) Blunt : op. cit., p. 11.

وجعل اصحابها عبيدا فيها . وبذلك آل اليه أكثر من مليـون فدان من اجود الأراضي وأخصبها (١) .

وجاءت الحرب الأمريكية لتزيد شغفه فى حب الأراضي فكانت أراضيه على قمة الأراضي التى استفادت من ارتفاع الأسعار وبنهاية الحرب اتجه الى السكر فانشأ ١٨ معملا على أحدث طراز ، وبالتـالى اسـتحوز على تلك الاراضي للسكك الحديدية والفنوات التى تخـدم هذه المصـانع مستعملا اعنف الوسائل المذلك حتى تمكن فى النهاية من امتلاك ٥٠٥٫٠٠٠ أفدنة لنفسه ، ٤٢٥٫٧٢٩ لعائلته (٢) ، فكانت تلك الأراضي عبـارة عن وزارة للزراعة قائمة بذاتها . أما عن اغتصاب الباشوات فقد ساروا فى طريقه ، لتكتمل الدائرة التى يخرج منها الفلاحون معدمين يعملون فى مزارع السادة كعبيد للأرض .

فعندما أراد حسين باشا ضم خمسمائة فدان من أراضي أعالى صفت الملوك الى أراضيه تم له ذلك لا لغرض الا لتكون أراضـيه وحدة واحدة لها طابعها المتكامل ، واسـتولى حليم باشـا على ثلاثمائة فدان من فلاحي ناحية الرويسـية ، واسـتحوز داوود باشـا على أراضي بعض فلاحي مديريتي المنوفية والقليوبية ، وقد اتضح أن هذه الأراضي تبلغ ١٠١٧٧ فدانا منها ١٧٦٢ بالقليوبية ، ٨٤١٥ بالمنوفية « وقد اجبر الأهالى على التنازل عنها » . واستولى ابراهيم باشا الألفى على أراضي فلاحي ناحية بشلة بالدقهلية (٣) .

وقد خضع الفلاحون لأعنف اجراءات الاغتصاب ، فمثلا أحـد فلاحي « أبيا الحمره بحيرة » اشترى نحو العشرين فدانا بحجة وتقسيط وصرف على اصلاحها وبنى بها ساقيه ، وكان بجوارها أرض لسفرجي باشا الخديو اسماعيل مشـتراه من أرض على بك الميهى وضم اليها من الأرض الميرية بطريق التلبيس حتى بلغ مقدار ما يمتلكه ثلاثمائة فدان واستخدم الأنفار بالسخرة فيها وتراءى ببصره ناحيـة العشرين فدانا المملوكة لهذا الفلاح فكتب الى مديرية البحيرة بان زمامه عاجز ولا يكمل الا باضـافة العشرين فدانا ، وعلى الفور عينت له المديرية مندوبين ومساحين وبتداخل بين الباشا ومدير البحيرة أحضر الفلاح ووضع فى السجن وأحيلت المسألة على مجلس دمنهور وأدخلت فى حيازة سفرجي باشا أربعون فدانا لا عشرون الخاصة

---

(١) الوطن ، عدد ٧٢ فى ٢٩ مارس ١٨٧٩ .

(٢) Affaires etrangeres, Egypt, LXXX, p. 128.

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر رقم ١٩١١ ، امر رقم ١٠٢ فى ٦ رمضان ١٢٨١ (١٨٦٥) ، محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار . دوسيه ١٠ ، محضر ٦مارس ١٨٨٢ ، محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، ٢٢ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

بالفلاح وبعض أهال آخرين وأخرجوا الفلاح من السجن وخيروه بين « قبول الحكم أو الضرب بالتيله » (١) ، فكان ذلك أبشع صور الاستغلال والاستحواز حتى على الأقوات وليس الأراضي فقط .

أما بالنسبة لاستحواز الأجانب على الأراضي عنوة فقد استمرت أيضا فقد كان « للخواجة يعقوب، منشة قطعة أرض فدانا ونصف خراجي بناحية طلخا وبحسب لزومها أخذت منه على ذمة الدائرة على أن يعوض عنها ، فاشترت له الدائرة قطعة خراجي بالمنصورة ، ولكن الخواجة اشترط أن تعطى له أيضا الأرض المرفقة وكانت ملكا للأهالي وعليها ثلاث سواقي ، وتم له ما أراد » (٢) .

وكثيرا ما كانوا يغتصبون الأراضي الجيدة الخصوبة بما عليها من سواقي من الفلاحين ويعطونهم بدلا منها أراضي قاحلة لاتصلح للزراعة لكثرة ما بها من خلجان وعلوها عن المياه ويحولون تلك الأراضي التي استولوا عليها الى عشورية .

أما عن الجفالك وما قدمته لفلاحيها ، فقد ذاقوا الأمرين منها ، زيدت ايجاراتها فتشتت أهلها في أرجاء البلاد ، وقسى مفتشوها فكانوا « يكبون على الفلاحين وطوقوهم بالايجار طاقتين وعمدوا الى المواشي فسلبوها ، وأضافوا اليهم عجز محصولات الجفالك عن السنين الماضية ، وكذا اضافات لم تقرر الا على أصحاب الأراضي منها زيادة العشور ، فاضافوها على أصل مربوط الايجار ومنها فرق الفرز وحفظ النيل ومصاريف الري وعوايد الحرب ومعامل الدجاج مع العلم بأنهم مؤاجرين عليهم دفع الايجار الأصلي فقط ، وبذلك كان الفدان يصل الى أضعاف مضاعفة عن الايجار الأصلي (٣) » .

كما كان هنالك اغتصاب لأراضي الفلاحين باسم المنافع العامة دون أن يعوضوا عنها ، ولم تكن تلك المشروعات المقامة على هذه الأراضي الا لخدمة الطبقة العليا دون سواها .

وهكذا تفتتت ملكيات الفلاحين وكثيرا ما تحملوا تلك الاثقال حتى أنهكوا وخارت قواهم الا أنهم استطاعوا أن يصمدوا الى أن قامت الثورة من أجلهم فلبوا النداء .

---

(١) الكوكب المصري ، عدد ٩ في ١١ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، دفتر رقم ٩٠٨ ، أمر ١٦٨ في ٣ ذي الحجة ١٢٨٠ (١٨٦٤) .

(٣) الاسكندرية ، عدد ٣٤ في ٢٧ فبراير ١٨٧٩ .

الحركات الايجابية للفلاحين أمام قوى القهر :

كان طبيعيا أن تثور هذه الجموع وأن تنطق وتعارض ، فقد فاضت نفسيتها بذلك الكبت ، وكان عليها أن تتخذ أي أسلوب يعبر عن ضيقها وتبرمها وتشعر انه سيكون ضربة موجهة لمستغليها .

وكانت أولى الخطوات ومنذ البداية الهروب ، حقيقة ان ذلك أسلوب سلبي لكنه كان ناجحا حيث عاني أصحاب الاراضي جميعهم من ذلك ، وكانت أولى أسباب ذلك عجزهم عن سداد الضرائب ، وعندما مكنت قوانين سعيد من أن تخرج الأرض كلية من أيديهم عن طريق الارتهـــان كان التسحب واضحا ، وقد كثر في الوجه القبلي أكثر منه في البحرى ، فيصف نائب القنصل البريطاني حالتهم فيقول : « استمرت هجرة الفلاحين وعددا كبيرا من سكان أرمنت تركوا منازلهم بسبب ذلك الضغط المتزايد عليهم وعلى وجوههم مسحات الغم والفقر والعذاب » (١) وقد سمي هؤلاء « المتسحبين » وكثر عددهم بدرجة أقلقت بال الحكومة ومجلس شورى النواب ، خرجوا من أراضيهم بعد أن تركوا كل شيء منازلهم القديمة ، أهلهم ، أراضـيهم التي ورثوها أملا في أن يجدوا حياة أخرى تكون أحسن مما هم عليه ، وكونت فرقا خاصة للبحث عن الفارين وارجاعهـم وكان ذلك ضروريا ، فمن الذي سيدفع كونتات الديون .

اذن فكان لابد من ترك تلك الاعباء جانباً والهروب منها ، وبالرغم من أن طبيعة الفلاح المصرى هي الاستقرار وحبه لأرضه والصعوبة البالغة اذا طلب منه أن يتركها لكنه أمام تلك الظروف تركها ليبرهن على أنه رافض وانضم الرافضون ليكونوا ثورة صامتة ضد الظلم والطغيان وانسحبوا من الميدان .

أما عن باقي الخطوات التي اتخذها الفلاحون ازاء ذلك فكانت ترجمة عملية وصادقة لما يلاقونه ، كانوا يتحركون تجاه الثورة « فقد كان حتما وضروريا أن يثوروا ضد الحكام الطغاة وضد الأتـراك المغتصبين المتتركين الظالمين بل وضد الأجانب المسيحيين ، وبدأت الحوادث تتدرج لتعبر عن الارادة لضرب السلطة الموجودة وايذائها .

شهدت السنوات الأولى من حكم اسـماعيل قدرا كبيرا من الشغب والاضطرابات بين فلاحي مصر العليا بوجه عام ، وكانت أسباب ذلك ترجع الى السخرة ، وقاد التمرد رجـل يدعى « أحمـــد » ادعى أنه من أحفـاد الرسول (ص) واعتبره الفلاحون وليا ، ونادى بأنه سيكون حاكم مصر ،

---

(١) Egypt : op. cit., p. 40.

وما لبث الأمر أن تحول الى ثورة مسلحة في الصعيد وأرسل الخديو الجنود المسلحة ، وذهب بنفسه وقتل الثائر ، ودمرت القرى لتكون أراضي زراعية ، ووزعت أهاليها (١) .

وازدادت أعمال الشغب والاضطرابات ضد السلطة الحاكمة بين سنتي ١٨٧٧ ــ ١٨٧٩ بين سوهاج وجرجا وكان ذلك بسبب قلة ميـــاه الري والضغط في الضرائب ، فتعصب الفلاحون في مديرية جرجا على مأموري التحصيلات (٢) .

وفى عام ١٨٨٠ انتقلت الاضطرابات الى المنطقة التي تزرع الأرز بشمال الدلتا ، والسبب أن أصحاب هذه الزراعة قد جرت العـــادة على اعفائهم من السخرة علاوة على ارسال مساعدين لهم ولكن طلبات الحكومة كانت فوق كل اعتبار « فعصوا الأمر ورضخت لهم الحكومة » (٣) فالامتناع عن تنفيذ الأوامر انتصار في حد ذاته .

وحدث في كفر الشيخ أن « هجم جماعة من الفلاحين على معـــاون ادارة المركز وكان معه أربعة خفراء لرغبتهم في تعداد الأغنـــام التي كانت معهم ، فضربوهم بالنبابيت وشجوا رؤوس الخفـــراء ، وأصيب المعـــاون بضربتين في رأسه ، وعند علم أهالي القرية حضروا جميعهم بنبابيتهـــم للاشتراك في المعركة » (٤) .

وكان الفلاحون الذين يعملون في أراضي كبار الملاك ــ خاصة الأتراك ــ يسعون بكل الطرق لعـــدم انجاح تلك الزراعات ، وبعضهم كان يذهب ليلا سرا الى حقول القطن وقت بذر البذور لينزعوا تلك البذور التي يزرعها في النهار ليضروا أصحاب الأراضي وكان يكتشف أمرهـــم وتنزل عليهم العقوبات القاسية (٥) .

واستتبع ذلك الهجوم على العزب للانتقـــام من أصحابها ، ففي ٣ يوليه ١٨٧٩ تم السطو على عزبة في كفر بالقليوبية ليـــلا ، واستحوز المهاجمون الفلاحون على عدة آلات وملابس وأواني نحاسية ، وفي ٢٠ يوليو تكرر ذلك على عزبة محمود أبو صبيح في سليمانية ثم عـــزبة محمـــود

---

(١) بير : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ ، قليني فهمي : مذكرات قليني فهمي باشا الطبعة الثالثة ، المنيا ، ١٩٤٧ ، ص ٢٢ .

(٢) الوقائع المصرية عدد ٨٠٢ في ١٦ مارس ١٨٧٦ .

(٣) بير : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(٤) الوقت ، عدد ٩٦٧ في ٢ نوفمبر ١٨٨٠ .

(٥) Wallace : op. cit., p. 264.

الشواربى ، وفى ٢٤ يوليو هوجمت أيضا عزبة محمود الشرقاوى وضربه الفلاحون حتى انه مات فى اليوم التالى ، وفى ٢٦ يوليو اعتدى على عزبة عبد الرحمن أحمد وأخذ منها كردان ذهب وزوج أساور فضة وأوانى نحاسية ، وقد استعمل البوليس القسوة والشدة ولكنها كانت تأتى بنتيجة عكسية (١) .

هذا فى الوقت الذى بدأ فيه الوعى العام فتلك الظروف الصعبة التى مر بها الفلاحون خلقت منهم أشخاصا يفهمون ويتدبرون ويحيدون عن الطاعة التى اتصفوا بها ، وقد لازم الوعى تلك المساوىء التى ازدادت مع عصر اسماعيل حتى أن مصر فى نهاية عهده أصبحت أمة تعانى ، فقد أخرج بتصرفاته الفلاحين الصامتين عن صمتهم وأفاقهم من غفلتهم .

وكان الرأى قد تبلور فعلا والتحرك قد بدأ فقد كتب مراسل التيمز فى ٢٣ يناير ١٨٧٩ يقول « لست مبالغا اذا قلت أن فى القاهرة الآن مئات المشايخ يمثل كل منهم قرية من القرى ، لقد جاءوا بمعروضات يسألون فيها تخفيف الضرائب ، وكلهم يعلن أنه لا يمكن بقاؤها على ما هى عليه . جموع محتشدة أمام النظارات حيث يعترضون النظار فى غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقلام المصالح » (٢) معنى هذا أن الفلاحين قد تنفسوا وختموا على العرائض وجاهروا علنا بالشكوى غير راضين على أوضاع أوجدتها الحكومة وبالتالى فهم غير راغبين فيها .

وتابع ذلك أنهم لم يعودوا يكتفون بارسال من ينوب عنهم بل جاءوا بأنفسهم ، فتقول صحيفة التجارة : « وفدا من أهالى الفيوم وفدوا بالأمس على حضرة ناظر المالية حفاة عراة يئنون مما لاقوه من ضرب وسجن وتغرير من المأمورين المنوطين بتحصيل الاموال وحالهم يشهد بصدق مقالهم »(٣) وأرادت الحكومة بكل الطرق أن تقضى على هذا الوعى الذى ظهر وذلك التزمر الذى انتشر ، فمضت فى سياسة القمع لا الاصلاح لتزيد من الأوضاع سوءا فكانت تقضى على حركات المعارضة اما بالنفى خارج مصر أو بالوضع فى السجون وقد طبقت مسألة السجون على الفلاحين أكثر من النفى . وأبان لنا وكيل القنصل الانجليزى ذلك « ان الفلاحين الأربعة الذين اشتكوا مازالوا موجودين بسجن قنا ، هؤلاء الأشخاص الذين وضعوا فى السجن لا من أجل جريمة اقترفوها ولكن لانهم التمسوا العدل والانصاف » (٤) .

---

(١) Egypt ; op. cit., p. 49.

(٢) The Times, January 23, 1879.

(٣) التجارة ، عدد ١٧٩ فى ١ فبراير ١٨٧٩ .

(٤) Egypt, op. cit., October 16, 1879.

ومما لاشك فيه أنه كان لمجلس شورى النواب الأثر أيضا فى تحريك الرأى العام الفلاحى ، فالنواب هم من طينة الفلاحين ، تلك الطينة التى تكـره الباشوات الأتراك . أليس هم العمـد ملوك القرى ؟ أليس هـم الذين يعارضون فى مناقشاتهم الضرائب ؟ اذن فقد كانوا عاملا مشجعا على أن ينطلق الفلاحون ٠

وتأتى الثورة ليكون الفلاحون هم الدعامة الأساسية فيها ، فهى ثورة صادقة عبرت عما يجيش بصدور هؤلاء المعذبين ٠ لقد استغرق ماشرحت فيه الظروف التى مر بها الفلاحون صفحات كثيرة وحصل على مجهود كبير لكنى لم أرد أن أفرط فى شىء خصوصا تلك الأعباء التى وقعت على كاهلهم والتى كانت الأساس المتين الذى شكلهم وجعل منهم عنصرا أسـاسيا فى الثورة التى اشـتركوا فيها بكل طاقتهم بماديتهم ومعنوياتهم قبلها بل وبايمانهم الصادق فى الرغبة الأكيدة للتخلص مما حاق بهم لفترات طويلة لذا رأيت أنه من الواجب بل من الضرورى أن أدعم تلك الخلفية لفـلاحى مصر حتى نفهم الدور الذى لعبوه فى الثورة ٠

الفصل الثانى

التجار والحرفيون

تركزت الرأسمالية فى مصر على أصول زراعية ، وذلك بتطور الملكية من عامة الى خاصة ، وبانفتاح الاقتصاد المصرى على الغرب عن طريق المحاصيل النقدية وخاصة القطن ، فأصبح هناك مجال واسع للتجارة صحبه ورود التجار الأوربيين الى مصر وتحكمهم فى هذا الميدان بعد أن انسحب منه المصريون بناء على نظام الاحتكار الذى أوجده محمد على والذى كان له الأثر السيىء فى القضاء على طبقة التجار المحليين .

وبنهاية هذا النظام بناء على توقيع الاتفاق الانجليزى العثمانى فى عام ١٨٣٨ الذى سمح لرعايا بريطانيا بالاتجار فى المنتجات الزراعية والصناعية فى جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية بما فى ذلك مصر دون قيد ولا شرط ، كما أنه ألغى الحظر المفروض على تصدير بعض السلع ، تحررت التجارة من الاحتكار وبدأت سياسة الباب المفتوح .

ومع سعيد انتقلت التجارة الى أيدى الوطنيين لفترة قصيرة استطاعوا أن يحلوا محل التجار الأجانب الذين كانوا قد بدأوا التوغل فى داخلية البلاد ، كما أنه أصلح من شأن الجمارك فجعلها مصلحة أميرية مستقلة ، وأصبح التجار أحرارا فى اختيار الوسائل التى ينقلون بها محصولاتهم .

ازدادت الحركة التجارية على أيدى اسماعيل ، فاعتماد مصر على الزراعة أعطى الفرصة الكبيرة لرواج التجارة الأجنبية ، فالحاجة أصبحت ملحة فى استيراد الوقود والآلات حتى المواد الغذائية جلبت الى مصر بمقادير وافرة ، وكان لزيادة عدد السكان ، وتدفق الهجرة الأوربية التى بدأت مع سعيد طمعا فى الثراء ، فقد جاءت من أجل المشروعات وفقا لسياسة الانفتاح ، وتعلق المصريين بالمدنية الأوربية ، والتوسع فى زراعة

القطن على حساب المحصولات الأخرى ، فقد ارتفع الصادر منه فى المدة من ١٨٥٠ ـ ١٨٨٠ الى ما يقرب من عشرة أضعاف (١) ، وقناة السويس التى جعلت لمصر مركزا تجاريا بين الشرق والغرب وتقدم وســائل العمران والمواصلات والاهتمام بالموانى والملاحة ، كل هذا أدى الى انتعاش التجارة التى أنشئت لها وزارة خاصة بها وازدادت أهميتها وأصبح الميزان التجارى دائما فى صالح مصر، فقد وصلت صادرات مصر عام ١٨٧٤ الى ١٢ر٧٣٠ر٠٠٠ جنيها مصريا بينما كانت الواردات ٥ر٦٩٤ر٠٠٠ جنيها مصريا ، لكن كانت هناك العوائق التى حدت من استفادة مصر ، فالالتزامات المـالية الملحــة والرقابة الأجنبية التى جندت ما تمتلكه مصر من أجل تسـديد الديون ، فنراها منذ عام ١٨٧٧ تضاعف الرسوم الجمركية ، ومظـاهر اســماعيل وتلك الحروب التى خاضتها مصر واضطراب النيل فى بعـض الأحيان ، وأخيرا تحكم تركيا فى التجارة المصرية وخاصة انها تصدر منتجاتها الى مصر أكثر مما تستورد منها وتستخلص الرسوم قبل التصدير ٠

أما النهضة الصناعية التى أقامها محمد على بتلك الأعداد من الورش والمصانع الحربية ومصانع الغزل والنسيج والسكر والنيلة ثم انشــائه لترسانه الاسكندرية ، لم تكن وفقا لأسس وقواعد تنظيمية ، كما أن أخذ الدولة بنظام الأحتكار قضى على أى تقدم وأيضا على طبقة الحرفيين ، تلك الطبقة التى كان فى امكانها فى ظروف نمو طبيعى أن تتحول الى بورجوازية تجارية وصناعية كما حدث فى أوربا (٢) ٠

وكان عمر تجربة محمد على عشر سنوات ولم تترك أثرا ذا بال على الحياة الاقتصادية أو على شكل الانتاج لأن هذه المصانع أقميت لخدمــة الأهداف التى رمى اليها الباشا ، وهى توفير العتاد والعدة للجيش ، وجاء عباس ليبطل فى يوم وليلة على ما تبقى من معامل القطن والكنان والأقمشة والأجواخ والحرير والمقصبات التى أنشأها محمد على وشرد من كان بها من الصناع والعمال ، ولم يحدث فى فترة حكمه أى تطور الا عندما قامت حرب القرم فانتعشت قليلا الصناعات المتصلة بالجيش والأسـطول ، كمـا أن السياسة الانجليزية وتقدم صناعة المنسوجات السريعة استدعى أن يعمل الانجليز على تهيئة الظروف لايجاد سوق لتصريف المنســوجات واستيراد القطن المصرى ٠

أما سعيد فقد صب اهتمامه على الزراعة ولم يبذل جهدا فى الصناعة،

---

(١) د٠ أحمد أحمد الحتة : المرجع السابق ، ص ٣٢٧ ٠

(٢) د٠ محمد أنيس : التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث « القــاهرة ، مطبعة الجبلاوى ، ١٩٧٧ ، ص ١١٢ ٠

وقد شهد عهده التدفق الأجنبى للسيطرة على الاقتصاد المصرى وتوافدت الواردات الأجنبية لتقف أمام أى انتاج صناعى محلى يمكن له أن يقوم ·

وكان من جراء تهاون سعيد أن ارتبط الانتاج المصرى بسياسة أوروبا نحو مصر ، وصارت مصر سوقا للمصنوعات ورؤوس الأموال الأجنبية ومصدرا للمواد الأولية ، وتركزت العناية بمطالب الطبقات العليا واهمال ما عداها ، وهكذا لم تجد الرأسمالية الأجنبية وهى تتسرب الى مصر قوة فى مواجهتها من البورجوازية أو طبقة الحرفيين بل وجدت السوق المصرى خاليا تماما لها ·

حاول اسماعيل العمل على ايجاد صناعة وخصوصا بعد تلك الفرمانات التى حصل عليها والتى كان من نتائجها السماح بزيادة الجيش وبناء السفن ، ولكن محاولته هذه ذهبت لصالح الأجانب ، كما أن اتجاهه كان أيضا للصناعات المرتبطة بالاقتصاد الزراعى كصناعة السكر وحلج القطن وعصر الزيوت والجلود وطحن الحبوب والورق وبعض الأنواع من الأقمشة القطنية والطرابيش ، وازدهرت صناعة حلج القطن تبعا لاتساع زراعته أثناء الحرب الأمريكية ، فزاد عدد المحالج من ٢٤ محلجا فى يونية ١٨٦٢ الى نحو ٥٠ محلجا فى نوفمبر من نفس السنة (*) لكن تلك الصناعة انتكست عقب نهاية الحرب ، فأزاد اسماعيل من صناعة السكر حتى بلغ عدد المصانع ١٧ مصنعا لكن لم يكن العمال يعنون بأمر تلك الصناعة فقد سخروا فيها والنتيجة استمرار هروبهم فساء الانتاج تبعا لذلك ، هذا وقد تدهورت تلك المصانع بناء على الظروف المالية فاستولت عليها شركة فرنسية فى اطار التسلط الأجنبى الذى استولى فيه الأوروبيون على الحياة الاقتصادية فى مصر ، بعد أن مهد اسماعيل وسهل طرق السيطرة لهم ·

وأصبح الاعتماد على أوروبا فى كثير من لوازم المعيشة والترف وتغيرت الأذواق وتطورت حياة الطبقتين العليا والوسطى بينما بقيت حياة الطبقة العامة على حالها فكانت النتيجة أن قل الطلب على المصنوعات المحلية ، تلك المصنوعات التى لم تستطع أن تواجه ذلك المستوى والاتقان الوارد من الخارج · وهكذا قضت الصناعات الأجنبية على الصناعات الوطنية وقننت الابتكار والتفنن لدى الصناع الذين لم يستمروا فى أعمالهم نتيجة بوار مصنوعاتهم ،أضف الى ذلك جمود نظام الطوائف والذى كان عاملا فى تدهور الصناعة الوطنية ، فكل صناعة أو حرفة كان يقال لها طائفة ، ولكل منها شيخ ينتخب وتصدق الحكومة على تعيينه مقابل رسم وهو يحدد

(*) د· محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى من العصور الحديثة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، لجنة التاليف والترجمة والنشر » ١٩٤٤ ، ص ١٩٦ ·

أثمان العمل ويرتب درجات الأجور ويستقبل الأعضاء الجدد وهو المسئول عن دفع أعضاء الحرفة للضرائب ، ولذلك اعتبر نظام الطوائف الوسيط بين فئات الشعب من ناحية والحكومة من ناحية أخرى .

وكافحت طبقة العمال من الصناع والحرفيين من أجل البقاء ، ففى القرية كان النساجون والصباغون وصانعوا الحصير أحسن حالا اذا قيسوا بالفلاحين ، أما في المدينة فقد زاولوا نشاطهم في اطار محدود ، فكان منهم صانع الأسلحة ، الحداد ، صانع الطوب ، النجار ، الحصرى ؛ صانع الملابس ، النحاس ، الصائغ ، المطرز ، الحفار ؛ صانع الاحذية ؛ الخياط ؛ الجوهرجى ؛ حارق جير ؛ البناء ، الحجار ، الدباغ ، القصديرى ، السمكرى ، المنجد ، المطبعجى ، النساج ، صائد السمك : النوتى ، صانع الورق ، صانع الزجاج ، القلفاطى ، مركب المزاريب ، القمراتى ؛ السروجى ، المغربل ، المرحماتى ، الفحام ، النقاش ، عامل الشباك ، الحيال ، الطوابى ، الفخرانى ، وقد وصلت أعدادهم ٩٧٢٧٧ فى عام ١٨٧٧ (*) .

وعلى الرغم من امتلاكهم لوسائل بسيطة للانتاج ، وممارستهم نوعا من الانتاج الحر ، فانهم كثيرا ما اضطروا الى بيع جزء من قوة عملهم ، وشعروا دائما بوطأة الفقر وخطر البطالة ، وقد تحول كثير منهم الى عمال أجراء فى تلك المشروعات التى أقيمت فى عصر اسماعيل ولكنهم ايضا وجدوا فيها المنافسين من الأجانب فقراء البحر المتوسط .

وكانت الحكومة متراخية فى ميدان الصناعة المحلية ، فهى لم تقدم المساعدات المالية ولم تعف الآلات والأدوات اللازمة لها من ضريبة الوارد وتحصيلها أجور غير مخفضة على النقل للمصنوعات الأهلية ، وعدم التشجيع بصرف أية مكافآت وصعوبة التسليف من المصارف المالية وعدم افتتاح مدارس صناعية ، واخيرا انها لم تفكر فى انشاء نقابات للعمال تمنحها امتيازات تكفل الوقاية لتلك الطبقة بل زادت أعباؤها بتلك الضرائب التى فرضتها عليها .

الصعوبات التى واجهت التجار واصحاب الحرف :

(أ) الضرائب :

عرقلت الحكومة التجارة الوطنية عن طريق تلك الضرائب التى فرضتها عليها ، فالدخولية حصلت على البضائع والسلع فى جميع مديريات مصر ، وكان ذلك عائقا للتجارة الداخلية وسببا فى ارتفاع

(*) نفس المرجع ، ص ٣٣٤ .

الأسعار ، وفرضت ضريبة على الوزن ، فتقول المحروسة « اذا اشترى التاجر البضاعة ويأتى بها موزونة وعليهـا رسم القـدار فيلزم باعادة وزنها لدفع العـوائد ، فاذا اراد بيع طرد بوزنه باعادة الوزن ثالثـة ، وهـكذا كلمـا تكرر البيع تكرر الوزن حتى يدفع الطـرد قيمة ثمنه . فتعطلت بذلك تجارة الوطنيين وراجت تجارة الأجانب لكونها معفاة من ذلك (١) » . أيضا كانت هناك عوائد الحملة على كل ما يباع فى الأسواق وكانت تحصل بطريقة الالتزام ، واخذت من التجار ضريبة «الويركو» ويختلف مقـدارها بنسـبة ما يكسـبه التـاجر ، وفرضت الضرائب الشخصية على بيع المواشى والدلالة وبيع المجوهرات والسمسرة ومقالى الحمص وكانت تخص التجارة الوطنية دون الأجنبيـة ، كذلك دفعت الرسوم على المراكب الشراعية والتجارية التى تنقل البضائع، واصبحت تجارة السلعة تخضع لأكثر من ضريبة وخاصة اذا كانت مستوردة .

وسادت الضرائب على جميع أوباب التجارة حتى افقرتهم ، فلم يعف متجر وان قل من اتاوة يؤديهـا ، وقد زاد الأمر سـوءا تصرفات مشايخ الطوائف مع صغار التجار ، وقد عرضت هـذه المسـألة على مجلس شورى النواب حيث كان بعضهم « يكون معينا فى الويركو على طائفته فيتهافت على طائفة الاخـر فيرميها بمصـائب طائفته ، فترى عطارا مثلا بتناوب مطالبة ثلاثة او اربعة من مختارة الطوائف كل يطلب منه ويركو لطائفته ، هذا كونه عطارا وذاك على كونه خضريا لبيعه الأرز والآخر على كونه سكريا لأنه يبيع السكر وخلافه على كونه بنـانا لأنه يبيع بنا حال كون ما فى دكانه لا تبلغ قيمة عشر ليرات فاضطرت هـذه الأحوال التاجر الى الافلاس والعـامل الى السـؤال (٢) » ، وزيادة عن ذلك ، فقد اثقل ذلك التاجر بتلك الرشوة التى كانت مقررة عليه لتلك الطائفة .

هذا وقد عانى التجار من تداول العملة بزيادة عن قيمتها الميرية ، بالاضافة الى الرسوم الجمركية سـواء على الوارد أو الصـادر وعلى جميع السلع حتى الملح فقد قررت الحكومة « أخذ عشرة ق . ش . على كل تونيلاطة يصير تصديرها » (٣) ، أما الوارد فقد ذاق التجار فيـه العذاب « فان تخليص رزمة واحـدة من البضـاعة يكلف التاجر أن

---

(١) المحروسة ، عدد ٨ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١١ صفر ١٢٩٦ (٢٣ فبراير ١٨٧٩) .

(٣) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/حـ ، محضر ٥ يونيو ١٨٨٠ .

يصرف فى الجمرك نهارا كاملا أو نهارين يدور فيهـا على نحـو عشرين مأمورا ، وما يتبع ذلك من مثمنين ومراجعين وكشـافين وباشـكتبة ونيشانجيه ويتكلف نفقات الترجمة حيث ان هؤلاء جميعا أجانب (١) » ، وشكلت مسالة تهريب الدخان مشكلة أسـاسية للتجـار ، وكانت قد تكونت جمعية من التجار لانقاذ التجارة من الانهيار ورفعت العرائض الى الحكومة لتعديل نظـام الدخان البلدى بحيث تؤخذ رسـومه على حسب مساحة ارضه فى كل مديرية وطالبت بمنع تهريبه ، لكن الرشوة والمحسوبية سادت فازدادت الأعباء على التجار فى الوقت الذى انخفض فيه البيع .

اضف الى ذلك تلك الظروف الطبيعية التى تعرض لها التجار على اثر حالة النيل وما تبع ذلك من كسـاد السـوق ، كما كانت الظروف المالية القاسية على الجميع قد اثرت عليهم وحتى مطلوباتهم على المالية قد اغفلت ، فسـاءت حالتهم الى أقصى درجة .

وبالنسـبة للضرائب التى فرضت على الحـرفيين ، فقد ظلت الصلة بين الحكومة ومشايخ الطوائف قائمة ، فهى التى تعينهم وتطلب منهم المعلومات عن أفراد الطائفـة ، فيسترشـد بهم فى فرض ضرائب الحرف التى كانت تجبى بوسائل الاكراه .

فرضت الضرائب عـلى أقـل المهن وزنا ، وحتى الذى ليس له مهنة ، فعندما سئل أحد كبار الموظفين أمام لجنة الدين عن سبب ذلك أبدى الدهشـة وقال « هل هى غلطة الحكومة ان ذلك الرجل لا يمارس اى مهنة ، انه يستطيع ان يشغل نفسه بأية مهنة يختارها وان الحكومة لا تمنعه من أن يفعل ذلك ولكن اذا لم يختر أية مهنة فيجب على الأقـل أن يدفع الضريبـة ، والا فيقع الظلم على المشـتغلين بالمهن والحـرف المختلفة (٢) » .

تلك كانت القاعدة التى فرضت الحكومة على أساسها الضرائب فلم تترك أحدا الا وألزمته بالدفع ولم تفلت من يدها أية ثغرة ممـكن ان يأتى منها بالمال .

وتعددت الضرائب : التمغة المضروبة على الأصناف المصنوعة ، ومعاصر الزيت ، ضرائب القـبانية والصيارفة ، والطبالين والزمارية والشيالين والحمارين ، والفخارين ، كما خضعت مصنوعات المنسوجات

---

(١) التجارة عدد ١٧٦ فى ٢٨ يناير ١٨٧٩ .

(٢) Cromer : op. cit., p. 49.

والمحيك والقماش الخام للضرائب، هذا بالاضافة الى الدخولية والويركو التى خضع الجميع لدفعها مهما كانت حالتهم المالية ، وقد ابان نائب القنصل الانجليزى كم كانت الضريبة الأخيرة مجحفة بطائفة الفحامين(١)

هكذا كانت القاعدة الضريبية مبنية على غير أسس ولم تكن الحكومة فقط لتفرض وتزيد ، بل ان القائمين على الأمر كان لهم مجهودهم الوفير فى المزيد لصالحهم ، « فقزازية الحرير كان المربوط عليهم كل الف درهم عوائد مقدارها ٢٠ قرشا ثم تزايدت بطرق غير رسمية ، وقد اتفق الملتزمون مع شيخ الطائفة على ان يغض النظر عن ذلك ، وهم يدفعون له أقمشته بدون أجره أو رسم » (٢) .

اذن فشيوخ الطوائف وقفوا حاجزا دون النهوض بالحرف ، فقد بالغوا فى الاساءة للطوائف بملزومهم وزيادة اعبائهم بالضرائب ، وكثيرا ما غبنوا الفقراء ، وبذلك فقد ضاعف الشيوخ الأعباء وحملوا الحرفيين اثقالا فوق طاقتهم من أجل مصالحهم الخاصة ، وأصبح وجودهم مقترنا بالضرائب وساءت الحالة ، وبالرغم من آن حكومة رياض قد ألغت بعضا من الضرائب لكن الواقع انه عند التنفيذ كانت هناك الاستثناءات التى اصبحت قاعدة فى المسألة الضريبية .

(ب) الأجانب :

مع سياسة الانفتاح والترحيب بالأجانب خضعت مصر ومن عليها لسلطانهم ، ولم يكن الأجانب باوربيين فقط وجدت عناصر أخرى من شعوب المتوسط وكون الجميع مزيجا من الاستغلال والاستعباد للمصريين فسيطروا على الموارد الاقتصادية ، فالأرمن برعوا فى التجارة واحتكروا الدخان والسوريون عملوا ايضا بالتجارة سواء فى الأقطان أو فى الأموال فكانت لهم البنوك الخاصة بهم التى مارسوا الربا فيها ، كذلك التجار المغاربة زاحموا المصريين فى أرزاقهم ولكن الاوربيين حدوا من نشاطهم الكبير ، واليهود الذين اشتهروا بالسمسرة وتجارة الاموال والربا وانشأوا المحال التجارية للبضائع الاوروبية ، اما اليونانيون ، فاحتكروا تجارة التجزئة وخاصة البقالة والمشروبات الروحية كانت من نصيبهم، ويبدأ اليونانى بسيطا جدا فى حانوت حقير ينام ليلا فيه وعن طريق رفعه للاسعار والربا يصل الى اعلى المراكز ويصبح رأسماليا كبيرا يعمل بتجارة القطن ، أما الانجليز فقد سيطروا على فروع كثيرة فى التجارة ،

---

(١) Egypt No. 3 (1880), Inclosure 13, p. 11.

(٢) التجارة ، عدد ١٣٩ فى ٣٠ نوفمبر ١٨٧٨ .

فاحتكروا المنسوجات الصوفية والبياضات والفحم الانجليزى ، وكان للفرنسيين مركز خاص لدى اسماعيل فى المشروعات التجارية ، وخصوصا اذا كان مدير الجمارك فرنسيا ومن هنا أصبحت البضائع الفرنسية تفيض بها الأسواق وخاصة المنسوجات الحريرية والدانتيلات .

وكانت الاسكندرية الأساس التجارى لنشاطهم حيث كان عدد الأجانب مرتفعا ، ففيها سوق القطن المصرى وفيها البيوتات التجارية والمالية ، فسيطروا على التصدير والاستيراد لدرجة انه عندما كانت الحكومة تريد شراء غلال أهالى مكة والمدينة كان الشراء يتم من « الخواجات » (١) ، الذين تحكموا فى الأسواق .

وقد شجع الموظفون الأجانب العاملون بالدولة ترويج تجارة بلادهم رغم وجود ما يحتاجون اليه فى مصر الا أنهم عملوا على احضاره من الخارج « فالجنرال ماريوت المسيطر على السكة الحديد يشترى جميع الأشياء اللازمة لها من بلاده لترويج الذى كان لا يشترى ولا يباع ، وان كان يوجد منها فى هذه البلاد بأبخس الأثمان ، وهذا من جهة ترويج تجارة أبناء جنسهم » (٢) ، وكانت الجمارك تحت تصرفهم فأساءوا للتجارة الوطنية كما تغيرت سياسة الجمارك بتغير الموظفين الأجانب .

هكذا كان وضع التجار المصريين ومآلهم نتيجة التحكم الأجنبى سواء بالسيطرة على التجارة عن طريق عملهم فيها أو على الجمارك ، وبالاضافة الى ذلك فقد خضعت مصر لعمليات تهريب كبيرة أضرت بالتجارة ضررا بليغا ،وكان القائمون عليها الأجانب ، فلا يمكن اقامة مراقبة أو خفر فعال على مراكب تجارية تحت علم أجنبى ولا يمكن الصعود الى السفن المشتبه فيها والراسية فى الميناء لأجل تفتيشها فأصبحت « واجهة مصر البحرية ميدانا تجرى فيه جماعة المهربين السلب والنهب بكل وقاحة (٣) » .

وتزعم عمليات التهريب اليونانيون الذين عاثوا فى مصر فسادا ، وكان حينما يضيق عليهم الحرس الخناق يجردون خناجرهم ويطلقون على الحراس الرصاص ، وأثناء عمليات التهريب كان المواطنون أيضا يتعرضون الى الاصابات وليس الحراس فقط « فالخواجة انطونيوينى أثناء مروره بطريق المطرية وهو محملا أطلق الرصاص وأصاب خمسة أنفار من الأهالى » (٤) .

---

(١) معية سنية عربى ، دفتر القيد غير الرسمى ، رقم ٣٤ ، سجل ١٢ ، ٩ رمضان ١٢٩٦ (١٨٧٩) .

(٢) الوطن ، عدد ٤٨ فى ١٢ اكتوبر ١٨٧٨ .

(٣) دوفرين : نفس المصدر ، ص ٤٦ .

(٤) التجارة ، عدد ٥ فى ٢٠ مايو ١٨٧٨ .

وقد عمل كذلك فى هذا المجال الأروام ، وأمام تحقيق أهدافهم سلكوا مسلك القتل لمعارضيهم وقد ترتب على ذلك اضطرابات كانت تذهب بضحايا كثيرة من المصريين ، وسرى أمر التهريب على السلع الداخلية ، فحينما حظرت الحكومة من التعامل بالملح الذى كان حكرا عليها كان البقالون اليونانيون يقومون بتهريبه على أوسع نطاق ٠

تم ذلك فى ظل نظام الامتيازات ، فبالرغم من أن الأجانب كانت لهم الأعمال التجارية والمالية الواسعة الا أنهم بالاضافة لأعمالهم التى أضرت بالتجارة المصرية قد أعفوا من الضرائب بينما ألقى عبؤها على التجار المصريين الذين كانوا يجدون فوق ذلك منافسة الاوربيين لهم ، فسرى الحكومة على سبيل المثال ترفع عن الاجانب الرسوم والعوائد الخاصة بسفنهم بينما لم ترفع عن المواطنين ، ومن هنا باعوا بضاعتهم أقل سعرا من الوطنيين فراجت تجارتهم بالتالى وزادت ثروتهم ، أما المصريون « فاضمحلت أحوالهم واختلفت أشغالهم وضاق بهم الضيق والعسر والضنك والضر فالتزم كثير منهم على قفل دكاكينهم » (١) ، وبذلك خلقت روح الكراهية بين الأجانب المستغلين وأصحاب البلاد الأصليين ، فان عدم المساواة وجدت عند المصرى، فهو يصادفها فى كل لحظة اذ يرى عددا من المسيحيين يتقاطرون الى بلاده لينتفعوا من منافع تربها وهوائها ولا يستطيع أن يزاحمهم فى الميدان ، وبذلك كانوا يعودون الى بلادهم وهم أصحاب ثروة وعظمة ، بعد أن كانوا لا يجدون لقمة عيش حينما حضروا لمصر ، وفوق ذلك فقد كانوا يمارسون الاعيب التجارة ، وكان منهم من يسيىء الى التجار المصريين الذين تعرضوا لشغبهم ، فكثيرا ما فقدوا مافى خزائنهم عن طريق سرقات الأجانب لها ، وفى بعض الأحيان كان يحدث اتفاق بين التجار الأجانب وهؤلاء اللصوص ضد التجار المصريين ، فتذكر الوطن « حضر صباحا الحاج محمد سليمان الدخاخنى من أعيان تجار المدينة وفتح دكانه الكائنة بشارع الميدان فوجد ما بها من البضائع على غير ما تعهده قبل أيام فتأمل فى خزانة النقود فاذا بها فارغة » ، وقد اتضح أن السارق أجنبى ودخل بمعاونة جاره التاجر الأجنبى (٢) ٠

اما عن الصناع والحرفيين ، فقد تعرضوا لمزاحمة الأجانب ، فقد عمل الايطاليون فى المهن الفنية وفى الحرف كبنائين ونجارين ، ومنهم من كان « سائق عربات » وكثيرا ما ارتكبوا الحوادث ووقع تحت العربات التى يقودها اجساد الأهالى ويمضون بدون عقاب(٣) ، وبينما فرضت الضرائب

---

(١) الوطن ، عدد ٦٢ فى ١٨ يناير ١٨٧٩ ٠
(٢) نفس المصدر ، عدد ٧ فى ٢٩ ديسمبر ١٨٧٧ ٠
(٣) التجارة ، عدد ١٨ فى ٨ يونيو ١٨٧٨ ٠

على المصريين فتحمل عبؤها السقا وماســـح الأحذية والعربجي فقد تمتع الأجانب بالاعفاء الضريبي، بالاضافة الى تحمل هؤلاء الحرفيين لظلم الأجانب والاساءة على أيديهم « حدثت مجادلة شديدة بين أحد التليانيين والعربجية فالأول ضرب الثاني بموس جمله ضربات ، فكانت جروحات العربجي خطرة جدا (١) » وكان العاملون منهم لدى الأجانب يتعرضون للامتهان والذل ، فنرى أحد الخواجات يصلب شيالا يعمل فى مكبسه وذلك بعد أن جرده من الملابس وتركه على هذه الحالة من الغروب الى صحوة النهار بلا ســـتر ولا غطاء والبرد يلعب به والأمطار تجلله بملابسها الثلجية ، فضج الشيالون الى شيخهم فى استنقاذ أخيهم لكن الخواجة أقسم لا ينزله الا بعد ثمانية أيام (٢) » ، وتصف الوطن حالة الحرفى وما وصل اليه من بؤس وشقاء فى صورة « عربجى الحجر » الذى « يدأب نهاره عملا يقطع الصخر ويحمله فيغلى نافوخه كالمرجل ليبنى القصور وأجرته ثلاثة قروش ونصف وأسبوعه خمسة ايام لتعطيل يوم الجمعـة ويوم آخر فى مقابلـة لبحثـه عن عمل فيرجع يومه الى قرشين ونصف فلو أكل النخال وائتدم الملح وشرب البحر وستر سوءته بالخيش وسـكن القفر ما أقامت تلك الأجرة أوده وهو ذو عيال عاجزين ، هذا وان لم يسـجن على الفردة والتذكرة الشخصـية يوما أو يومين فى الأسبوع » (٣) .

ووفقا لتلك الحالة ، فقد امتلأت الشـــوارع بالشحاذين ، وضاقت الأرزاق وكثرت المظالم على الحرفيين وأصبح الغذاء الحيوانى هو غذاؤهم والكساء المتبطن بالأقذار هو ملبسهم ، بل وفى بعض الأحيان كان عليهم لزاما أن يقبضوا عملهم « سندات » أعطاها لهم الأهالى نظير خدماتهم اليها كطائفة السقايين (٤) .

هكذا كانت حالة التجار والحرفيين ، فقد وصلوا الى درجة من الضنك والاذلال وانعكس ذلك على المجتمع بعد ذلك الكساد الذى تمتع به التجار المصريون وذلك الأعسار الذى مر بالحرفيين فالتجار أفلس معظمهم واعلنت تفاليسـيهم بالصحف بعد أن فشـلوا فى التصدى لتلك التيارات الجارفة التى أطاحت بهم ، فأصبحوا مثقلين بالديون الفاحشة التى ضاعف منها خضوعها للربا الذى فرضه الأجانب عليهم ، والحـــرفيون حطموا وأغلقت الأبواب أمام أرزاقهم وباتوا فى أسوأ حال ، وأصبحوا على أهبـة الاستعداد للتمرد بكل الطرق على تلك الأوضاع .

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٢٠ فى ٢٦ سبتمبر ١٨٧٦ .

(٢) المحروسة ، عدد ٨ فى ١٩ يناير ١٨٨٠ .

(٣) الوطن ، عدد ٦٤ فى أول فبراير ١٨٧٩ .

(٤) الوقت ، عدد ٩١٣ فى ١ اغسطس ١٨٨٠ .

وكان للصحافة دورها في اذكاء تلك الروح فساندت التجار وأبانت لهم أدوات الظلم الواقع عليهم فشنت الحرب على التجارة الأجنبية والقائمين عليها وامتيازاتهم ، كما راح مثقفو مصر يسجلون تلك المقالات عن الاهتمام بالصناعة ، وكان محمد عبده على رأسهم منذ أن كان يكتب في صحيفة مصر فكثرت كتاباته عن الحدادة والنجارة والارتفاع بالصناعة الوطنية ، وتمضي الصحافة لتعطي الوصف الدقيق لحالة « الحمار والجمال والبويجي والبواب والاسكافي والزبال والعربجي وانعقال انها لا تكسب صاحبها ما يسد به الرمق ، أما الحدادة والنجارة والنحت والبناية والخياطة والصبغ والنقش فمكاسبها حقيرة ، ولا يخلو واحد من أربابها عن دين ثقيل لا يمكنه سداده (١) ، وراحت أيضا الدعوة الى ايقاظ المصريين بأنهم أهملوا التجارة والصناعة وبيان تقدم أوربا واستيلائها على القطن المصرى واستغلالها له ، وان مستلزمات الحياة جميعها وارد الخارج مع امكانية صنعها في مصر وصلاحية صناع مصر لذلك ، وطالبت الصحف الحكومة بتخفيف الضرائب حيث انها العائق في احياء الصناعة ورواج التجارة ٠

وقد كانت لتلك الكتابات صداها وأثرها العميق في نفوس المصريين، ففي الخمس السنوات الأخيرة من حكم اسماعيل كان من الصعب أن يكون هناك حمار في القاهرة أو مدن المديريات المحتلفه لم يسمع عن يعقوب بن صنوع ويقرأ له وحتى الذى لم يكن يعرف القراءة من الحرفيين كان ينصت الى من يقرأون ، فقد كان قريبا منهم ومن مشاكلهم يصورها ويدعوهم للثورة على الأوضاع ويقول عقب حركة الضباط في فبراير ١٨٧٩ « يارب العالمين احفظنا واخواننا وبلادنا من شر شيخ الحارة اللعين ومن شر وكلاه المفسدين وانصر اللهم اخواننا الجهاديه وأولادنا تلامذة الحربية والصنايعية والورشجية وكل من كان محب للحرية (٢) » ، ويمضى ليبين لهم الظلم الواقع عليهم وضربات القواسة وانه من الضرورى أن يجدوا حلا لذلك لرفع الظلم عنهم ٠

وبناء على ذلك أصبح الوعى قويا والرأى العام واضحا وصريحا لتأتى الثورة وتضم بين جناحيها هذه القوى التى طحنت وسحقت لتطالب بحقوقها وتشترك بكل طاقاتها مع الثورة ٠

وأخيرا ، هل حاول التجار الرأسماليون المصريون علاج ذلك الموقف والتخفيف من هذه الظروف الصعبة ؟ ٠

كانت الرأسمالية في أيديهم تتحول الى امتلاك الأرض خاصة بعد أن

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ٥ في ١٢ يونيو ١٨٧٩ ٠

(٢) أبو نظارة زرقا ، عدد ٢ في ٢٨ مارس ١٨٧٩ ٠

استغلوها فى المحصـــول النقدى ـ القطن ـ فولوا شطرهم تجـــاه ذلك ، وبالرغم من صيحات الصحافة ومحاولات اثارة الحمية لانقاذ مصر بالمساهمة فى انشاء المصانع واحضار الآلات وتشغيل الصناع ، الا أن النتيجه لم تكن مشجعة ، وظهرت فكرة انشـــاء بنك وطنى لتمويل المشروعات ، لكن كانت المخاطرة فى مجال السوق صعبة للغاية وبذلك قلت المضاربات التجاريه ، فقد ساد الاعتقاد ان هذه المضاربات ترتبط بالربا وخصــــوصا اذا كان المكسب هو رائدها ، لكن هذا لم يمنع فان هناك بعضـــا من هؤلاء قد امتلكوا الأراضى ومارسوا التجـــارة ، فالعقاد كان يملك ١٢٤٩ فدانا ، فى الوقت الذى كان يستثمر فيه الأموال فى الأسواق سواء فى تجـــــارة الجملة أو التجزئة (١) • حقيقة لقد أثر هذا الوضع فى نفسيتهم وأصبح من الصعب أن يسكتوا وهـــم يرون الشـــوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزاليين وخياطين وصانعى أحذية وصناعة تختفى وتقوم على أطلالها دكاكين مملوءة بالبضائع الأجنبية ، لكنهم لم يبذلوا المال من أجل الاصلاح •

وكان لبعض التجار نشاط داخل مجلس شورى النواب ، وعن طريقه أمكنهم عرض الموقف الذى تعرضت له تلك الفئات ، فنرى عبد الســـلام المويلحى ومحمود العطار يطالبان بأبطال الويركو عن المدن التى بها عوائد دخولية وأن تنظم مسألة التذكرة الشخصية وأن يشترك الأجانب فى دفع تلك الضرائب ، كما كان من بين هؤلاء التجار من كان على اتصالات وثيقة بالمثقفين ، ومنهم من تزعم لواء المعارضة كالعقاد الذى جهر بفساد الحكومة فى مسألة الضرائب فندد بذلك ورأى ضرورة مساواة المصريين بالأجانب فى هذه المسألة ،ولمعارضته نفاه رياض الى السودان الذى امتدت سلطته على المعارضين لسيادته ، فنراه يضطهد أمين الشمسى ويعزله من منصبة ، حيث كان مناوئا لنظامه وسيكون لذلك أكبر الأثر فى اشتراكهما بعد ذلك فى الثورة •

وهكذا وصلت الحالة الى ذروتها من الضياع ، وكان لابد من قارعة لتنظيم الصفوف وتوحيدها لتقف أمام الأوتقراطية الحاكمة والوصـــاية الدولية المفروضة وتطالب بحقها فى الحياة •

---

(١) د• على بركات : المرجع الســـابق ، ص ٢١٩ ، د• محمود متولى : الأصـــول التاريخة للرأسمالية المصرية وتطورها ، القاهره ، الهيئة العـــامة للكتاب « ١٩٧٤ ، ص ٦٨ •

(٢) محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، ٩ سبتمبر ١٨٧٩ •

(ب) الجناح العسكرى

مر على مصر وقت لم تملك فيه جيشا من أبنائها وذلك بسبب خضوعها لأجانب عن أرضها ، كونوا بمعرفتهم الجيش الذى يدافعون به عن أنفسهم سواء من الغزو الخارجى أو من أية حركة داخلية يمكنها تقويض حكمهم .

وبتولى محمد على شئون مصر ، دخلت فى عهد جديد تشوبه القومية المصرية ، التى كان من أهم وجودها اشراك المصريين فى جيش مصر وخروجهم للحرب بعيدا عن أرض الوطن . فقد اراد محمد على أن يكون جيشا عصريا وفى بداية الأمر رأى أن يجند السودانيين لكنه فشل ، فلجأ الى فلاحى مصر .

واستعمل أساليب العنف فى تجميع جيشه هذا مما أدى فى النهاية الى اقتران الجندية بالسخرة ، وخصوصا بعد أن أيقن الفلاح أنه يذهب ليحارب ليس دفاعا عن وطنه انما لأطماع شخصية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كانت الظروف التى يحارب فيها غاية فى القسوة سواء أكانت حربه فى الفيافى والصحارى أو من نقص المؤونة ، فقد أثبت الفلاحون كفاءة فى ميادين الحرب ، لكنه لم يثق فيهم كقادة ولا كضباط حيث خاف على سلطته منهم ، كما كان من سياسته القضاء على أية قوة وطنية يستشف منها أنها ممكن أن تناوئه ، لذا كان القادة والضباط من مماليكه .

ولم يذكر الجيش شيئا لابراهيم الا أنه قام بتخفيض عدده ، وجاء عباس ليكون مغرما بالحربية لدرجة انه عندما اغلق المدارس ترك ما يختص بها ، وبالرغم من انه أنقص عدد الجيش الا أنه أدمج فيه نحو ستة آلاف

من الأرناءوط فجعلهم خاصة جنده ، وكانت لهم السطوة « وعاثوا فى الأرض فسادا بما اشتهر عنهم من الظلم والعسف والارهاق » (١)

وأستطاع سعيد أن يقدم على خطوة تعد من أهم الخطوات التى جعلت الجيش المصرى يتصدر الحركة الوطنية ألا وهى ادخال البورجوازية الصغيرة بانتظام أولاد العمد والمشايخ فى المجال العسكرى ، فيقول عرابى : « ولما تولى المرحوم محمد سعيد باشا ولاية مصر فى ٢٤ شوال سنة ١٢٧٠ أصدر أمره بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية (٢) » وكانوا قبل ذلك يعفون من الخدمة العسكرية وعندما احتج المشايخ وأبناؤهم على هذا القرار نجده يحذرهم من أنه سيجند ألبانيين محل أبناء الشيوخ وبعدئذ ستدبر مساكن الألبانيين فى القرى على نفقة المقيمين بالقرية ٠

وقدم سعيد ما يحبب الى العسكرية ، فانقص مدة التجنيد وجعلها سنة واحدة ، وسمح للفلاحين بالترقى كضباط ، ولم تكن العناية بالترقية فقط وانما أيضا بالغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة ، وشجع شعراء عصره على التغنى بالجندية ، فبدأت تظهر لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كلمة الوطن والوطنية ٠ وبذلك دخل العنصر المصرى الصميم الذى شمل معظم فلاحى الميدان العسكرى وأصبح منتميا اليه ، وتكون الجناح العسكرى المثقف بعد ان وضعت النواة الاولى لخلق طبقة الضباط المصريين الذين سيتولون قيادة الثورة ، وبعد أن كان الجيش قاصرا على الطبقة الفقيرة دخل فى زمرته طبقات أخرى فارتفع مستواه ، وربط الحب بين سعيد وطبقة الفلاحين العسكرية فلم يبخل عليهم بشىء فحصلوا على المراكز المرموقة فى الجيش والتى كانت قاصرة قبل ذلك على الأتراك والشراكسة ٠

وبناء على أمر سعيد بتجنيد أبناء العمد والمشايخ ، طلب أحمد عرابى للجندية وهو أحد أبناء شيوخ قرية هرية وزنة بالشرقية كان والده قد اقطع فى عهد محمد على ستة أفدنة لاستغلال محصولاتها ، ويبدو انه كانت له بعض المؤهلات حتى انه كان يعلم أبناء القرية مبادىء القراءة والكتابة والدين بمسجدها بعد العصر والعشاء وكان منهم أحمد عرابى الذى عهد به بعد ذلك الى صراف الناحية فلازمه خمس سنوات ثم أمضى أربع سنوات

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ص ١٧ ، ١٨ ٠

(٢) أحمد عرابى : مذكرات مخطوطة ، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، جـ ١ ، ص ٤ ٠

بالأزهر كبقية أبناء قريته ، وعاد اليها لينخرط تحت لواء العسكرية وهو فى الرابعة عشرة من عمره .

وســاعده الحظ فى عملية الترقى التى اضفاها سعيد على الفلاحين اذ يقول « دخلت العســكرية نفرا بسيطا فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ وترقيت فى درجات العلا بسرعة غريبة وهمة عالية لا تعرف الملل حتى نلت رتبــة قائمقام الآلاى فى ٢٤ صفر الخير سنة ١٢٧٧ ، وهى الرتبــة التى لم يصل اليها أحد قبلى من العنصر المصرى (١) » .

وقد كان ذلك راجعا أيضا الى ذكائه الطبيعى ونباهته الغــريزية ومعرفته القراءه والكتابة والحساب وما خصه الله من تلك المواهب العقلية والطبيعية التى صعدت به الى أوج التقــدم رغما عما كان يراه أمثــاله الوطنيون . لذلك فقد حظى عرابى برضاء سعيد « كنت عزيزا مقربا من حضرة المرحوم سعيد باشا وكثيرا ما كان يشركنى معه فى ترتيب المناورات الحربية ينيبنى عنه فى تلقينها الى أكابر الضباط بمعرفته وعلى مسمع منه رحمه الله تعالى ولشدة اعجابه بى أهدانى تاريخ نابليون بونابرت » (٢) ووصل الأمر الى أن اتخذ سعيد عرابى أركان حربه ، وراح يرافقه فى رحلاته .

هكذا نرى الأصول الفلاحية تتبلور فى الجيش ليس فقط عرابى ، وانما جميع رجال الثورة الذين خرجوا من تحت السلاح مع قرارات سعيد فعلى الروبى هو ابن أحد مزارعى قرية دفنو بمديرية الفيوم ، وعلى فهمى وعبد العال حلمى هما أبناء الفلاحين وأيضا طلبة عصمت ابن أحد فلاحى كفر حرزه بمديرية الجيزة .

وبالتدريج أصبح الضباط الفلاحون يشعرون بالقوة داخلهم ، ويؤمنون ان من حقهم المضى فى ذلك الطريق الذى فتحه لهم سعيد للوصول بمصر الى أعلى درجات الكمال ، ومن هنا بدأ يدب الحقد بينهم وبين الضباط الأتراك والشراكسة الذين كانوا مسيطرين كلية على الجيش قبل ســعيد ، فامتلأ كل منهما غيرة وحقدا على الآخر .

كان لسعيد أمام تلك السياسة التى اتبعها اتجاهاته الخاصة ، فمنذ البداية أراد خلق قوة تقف بجواره ويستند اليها اذا دخل فى صراع مع الدولة العثمانية ، واذا رغب ان ينــاوىء العنصر التركى الشركسى فى الجيش الذى كان يكرهه ، ولهذا نراه بكل همه ونشاط يمضى فى تلك

---

(١) نفس المصدر ، ص ص ٤ ، ٧ .
(٢) نفس المصدر .

السياسة ويطبق أقصى العقوبات على الفارين من الجندية تلك العقوبات التى امتدت الى « عيال وأقارب من يفر هاربا من العسكرية بضبط أطيانهم ونخيلهم ومزارعهم وتهدم أماكنهم ومبيع ذلك مع ساير موجوداتهم وورود الثمن للميرى ، وكان حصـــول هذا الأمر باعثا على الخراب وعــدم عمارية الأهالى وتشتينهم بعد سلب ما كانوا عليه من التوطن وأساســــــيات المعاش » (١) ، وكشوف المديريات منبت فيها ما صودر وما بيع من أطيان ومحصولات ونخيل وأشجار وثمار وعقارات ومواشى وآلات زراعة • كذلك أصدر قراراته القاسية على من يفسدون الأعضاء لعدم ادماجهم فى الجندية •

وكعادة سعيد لم يستمر على وتيرة واحدة فهو ضعيف الارادة متردد في الرأى ، وقد طبق ذلك على الجيش فكان كل يوم فى تغيير وتبديل وانشاء ونقض وابرام والغاء وساعده على هذا الوضع المالى الذى وصل اليه وديونه التى تراكمت عليه فخفض عدد الجيش الى ٦٠٠٠ ثم الى ٢٥٠٠ وسرح الباقى، وباع بالمزاد أكواما من مهمات الجيش ، وتخلص من مئات الخيول والجمال والهجن ، وألغى المدارس الحربية ومارس أوتقراطيته التى أوصلته الى انه منع الضباط المنرقين من تحت السلاح ، « بعدم تمكينهم من نسائهم حتى ولا بالنظر اليهن » (٢) •

وجاء اسماعيل ولم يكن نصيرا للضباط الفلاحين ، فلم يترق أحد منهم طيلة سنوات ، فقد ظل عرابى قائمقاما تسعة عشر ســـنة ، ولم يكتف بالوقوف أمام ترقى الضباط المصريين ولكن شنت الحرب ضدهم ، فكان يكفى أن تلصق بأى منهم تهمة ، ولو لم نكن صــحيحة ليكون جزاؤه أن تنتزع منه درجته ، أو يقصى عن منصبه ، أو ينفى الى أقاصى الســــودان وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهن الأسباب •

أراد اسماعيل أن يخضعهم لنفوذه وذلك بتزويجهم بزوجات شركسيات من حريم قصره ليسهل التأثير عليهم ولكنه لم ينجح فى ذلك التأثير اذ كان يكره من كل قلبه المصريين ويحب كل الحب المنتمين لجنسه من الأتراك والشراكسة الذين حظوا بحنانه وأمواله ومن هنا تأصل الصراع العنيف بين الطرفين والذى دخلت فيه الثورة حربا من أجله قبل حربها على التدخل الأجنبى •

وأصبح الجيش معسكرين ، معسكر القيـــادة يمثله هؤلاء الأتراك والشركس والألبان الأرناءوط والأناضوليون والجورجيون منذ أن وضـــع

---

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر ١٩٠٢ ، صورة الأمر الكريم رقم ٢٦ ، ٩ شوال ١٢٧٩ (١٨٦٢) •

(٢) احمد عرابى : نفس المصدر ، ص ٣٣ •

أساسهم محمد علي ، ومعسكر الفلاحين من الجنود الى صف الضباط الى الضباط حتى رتبة القائمقام ، الأول : كانت معيشته رغدا وملذة وفسادا وثراء وله من الكبرياء والعظمة على الفلاحين والثاني متشبع بالروح الدينية ، متقشف بعيدا عن الترف ، صلب في التكوين وله أخلاق القرية المصرية •

وتمشيا مع سياسة اسماعيل في التوسع أولا ثم في الاستقلال ثانيا ، كان عليه أن يزيد عدد الجيش وأن يخوض تلك الحروب والمعارك التي كانت اما ارضاء للسلطان وذلك للحصول على مزيد من الامتيازات أو ارضاء لغروره ، فوقع عبء ذلك كله على المصريين ، وتعددت تلك الحروب التي بدأت بحرب اخماد ثورة عسير (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥) حارب فيها المصريون لمدة عامين وحققوا ما ذهبوا من أجله ، وحرب الجبل الأسود (١٨٦٢) وحرب كريت (١٨٦٦ ـ ١٨٦٧) ، كما اشتركوا في حرب الصرب (١٨٧٦) وفيها أظهروا بسالة نادرة في القتال ، وجاءت الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) ليواصلوا مجهودهم الحربي • وأما عن الحروب التي خاضوها من أجل غرور اسماعيل ومصلحته وارضاء نزواته فقد كانت حملات السودان وفتح دارفور والتوسع في السودان الشرقي وأخيرا حرب الحبشة (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦) •

من أجل ذلك كله ، كان العمل على تكوين الجيش بتلك الأعداد التي اعتمد فيها على الفلاحين الذين كان معظمهم يذهبون ولا يعودون لذا فهم دائما وأبدا كارهون للجندية يعملون كل ما في وسعهم من أجل التخلص منها •

ودعم اسماعيل الحقد الذي نشأ بين عنصري الجيش أصحاب البلاد الأصليين والوافدين عليها هؤلاء الأتراك والشراكسة الذين مارسوا أساليب الاضطهاد على المصريين ، وتذكر لنا المصادر على سبيل المثال ما حدث بين خسرو وعرابي ، يقول النديم « فاشتعلت في السيد عرابي نار الحمية وغضب لسب الآباء والجنسية وقال له ، ان الفلاح اسم قبيح عندك ولولاه لما رأيت سعدك فانه سيدك الذي رباك بنعمته ومولاك الذي أعتقك بمنحته ، فهو الحر وأنت الرقيق وهو السيد وأنت العتيق » (*)

فكانت النتيجة أن أوقف خسرو تسليم الأراضي المنعم بها على عرابي بل وحاكمه أمام مجلس عسكري من الشراكسة ويحلل عرابي ذلك بأن السبب هو رغبة خسرو في ترقية أحد بمباشة الآلاي لكونه من أبناء

(*) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ٣٣ •

الشراكسة وتم حبس عرابى بعد تلفيق تهمة له مدة واحد وعشرين يوما ، فاتهم المجلس الذى حاكمه بمروقة عن العدل ولم يقبل الحكم فأمر اسماعيل بابعاده عن الخدمة العسكرية (١) ، وقد كان هناك من يطالب بنفيه لكن اكتفى برفته ثم أرجع بفضل الساعين بعد أن دخل فى خـــدمة دائرة الهامى باشا وتزوج من ابنة مرضعة الأمير الهامى وهى أخت زوجة توفيق بالرضاعة وعاد للخدمة العسكرية ليبدأ من جديد ·

وجاءت حملة الحبشة لتضع حتمية الثورة للعسكريين ، فقد وضحت لهم المفاسد التى كانت تعيشها مصر ، فعادوا من تلك الحرب ليبدأوا نشاطا ملحوظا كانت نتيجته الثورة التى حمل لواءها العسكريون وانضمت اليها باقى القوى الاجتماعية ·

كونت تلك الحملة فى أحلك الفترات للأزمة المالية التى عرض اسماعيل مصر لها للدرجة التى أفقدتها نصيبها فى أسهم قناة السويس لتغطية نفقات الحملة ، والهدف لاشىء سوى ارضاء حاكم ميال للظهور والعناد ·

كان القائد العام هو راتب باشا سردار العساكر المصرية ، وعرابى مأمور مهمات للذخيرة والميرة فيها « وكان فى عهدتى عشرة آلاف حيوان من الجمـال والخيل والبغـال ، وأغلبها أخذ من المصريين قسرا من غير ثمن وكذلك العلف من الشعير والذرة والتبن » (٢) ·

وقدة الحملة كانوا جميعهم شراكسة ومنهم عثمان رفقى ، ومارسوا القسوة والجبروت على الضباط المصريين « يؤاخذونهم بالعنف والشـدة ويلقونهم فى أضيق المحبوس عند أقل حادثة ، فكانوا يشكون الجوع لعدم اعطائهم القوت الكافى ، وتفشت الأمراض فى الجيش ، وكانت قنابل المدافع تكنس الأجسام من العسكريين ، وقد امتلأ الوادى بالجثث والجرحى وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره ، كما وقع فى الأسر كثير فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب » (٣) · وخسرت مصر الكثير بابادة هؤلاء وهم من خيرة شبابها ·

أما عن العقدة الشركسية فقد ازدادت تعقيدا فى تلك الحرب حيث فاض الكيل بالعسكريين من تصرفات السادة الشراكســة ، كما ان هـذه الحرب أثبتت جهلَ الشراكسة بأصول وفنون القتال ، فكانوا من أسباب

---

(١) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٠٠ ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨ ·

(٢) أحمد عرابى : نفس المصدر ، ص ٣١ ·

(٣) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ص ١٥٢ ، ١٥٣ ·

الهزيمة ، وبالرغم من ذلك فلم يعاقبوا بل كرموا ، ومن الأوراق التى ضبطت بمنزل عرابى عقب الثورة ما يثبت هذا الكرم « كانت حربا مشؤومة عادت بالخيبة والعار لسوء تدبير المماليك وعدم معرفتهم بمكايد الحرب ، ومع ذلك كافأهم الخديو المطرود بوضع نياشين الافتخار بيده الخائنة على صدورهم الفارغة » (١) ٠

كانت نتيجة هذا كله المزيد من الكبت والانهيار والسخط للعسكريين جمعهم ذلك فى اطار تعاون مشترك بالاضافة إلى الوضع العام الذى وصلت اليه مصر ، والتدهور المالى الذى جعل دفع المرتبات أمرا عسيرا ، وتلك الأعباء التى أثقلتهم ماديا ومعنويا ، فقرروا اتخاذ الخطوات العملية للوقوف أمام هذا الظلم وخاصة تلك التفرقة والقسوة التى كانت تتم على أيدى هؤلاء الشراكسة ٠

هذا من ناحية وارادوا أن يكون لهم التعاون الذى يمكنهم من توحيد افكارهم ، ووضع برنامج لعملهم للوقوف أمام طغيان حاكمهم الذى لا يصلح لحكم مصر بعد ذلك الوضع الذى أوصل مصر اليه من ناحية أخرى ٠ لقد علمهم نظام العسكرية وحمل السلاح الذى كانوا يشهرونه فى الحرب أمام الأعداء خارجيا أنه ممكن أن يشهروه أمام الأعداء داخليا ، ضد الظلم والطغيان وأن ينالوا حقوقهم وأيضا يعطوا مصر حقوقها ، فتقوى قلبهم وثبتت عزيمتهم وخصوصا أن مصر كلها كانت تنظر اليهم بامكانية أن يخلصوها مما هى فيه من فساد وانهيار ٠

نتج عن ذلك أن نشأت تلك الجمعية السرية التى تعد كتنظيم لعمل موحد جمعهم ، أسسها على الروبى فى عام ١٨٧٦ ، وما لبث أن ضمت جميع الضباط المصريين وعلى رأسهم عرابى فكان له نشاطه الهجومى الملحوظ حيث أثقل اللعنات على اسماعيل وجنسه ، واصبح عضوا بارزا فى تلك الجمعية يعاونه ويشاركه بحرارة على فهمى وعبد العال حلمى ، ولم تكن قاصرة على العسكريين المترقيين من تحت السلاح ولكنها ضمت أيضا خريجى المدرسة الحربية (٢) ٠

وتدريجيا أصبح عرابى رئيسا لها ، وتولى عملية الخطابة فيها التى اتسمت بالروح الحماسية الوطنية والتى كان لها أهمية كبيرة فى طرح الأفكار وجذب السامعين ، ومن خلال رئاسته هذه أراد أن يضم عناصر أخرى غير العسكريين لهذا التنظيم ، فكان يتوجه الى الأزهر ويلقى على

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢/د/٥ ٠

(٢) Dicey : op. cit., p. 254

مسامع الطلبة والأساتذة « الخطب الدينية المؤثرة مما يهيج منهم العواطف ويجعله بينهم مسيطرا محبوبا » (١) ، كانت تلك الخطب صورة حقيفية تشرح الأوضاع التى ترزخ مصر تحتها ، فنجده يطرق حالة الموظفين السيئة ويهاجم الأجانب وتقدمهم فى مصالح الحكومة ، وانتفاعهم من جانبها بالمنافع الجمة والمرتبات الجزيلة التى يتقاضونها •

وبذلك لم تعد انجمعية خاصة بالعسكريين بل زاد روادها من بقية الفئات وخاصة المثقفين ، وكانت تجتمع مرة أسبوعيا وترسل بيـان اجتماعاتها ليعقوب بن صنوع فى باريس ، ولم لا وأثره كان واضحا فى ثورية هؤلاء الضباط الشبان،فقد مروا من بين أصابعه وقت ان كان يدرس بالقاهرة وقبل نفيه فاليه يرجع الفضل أيضا فى جعل العسكريين يتشبعون ويعتنقون مبادىء الحرية من خلال صبه للأفكار فى عقولهم بحذر شديد فى وقت كان التكلم فيه بالسياسة يشكل أمرا خطيرا ، وكثيرا ما نطقت صحيفته الثورية بأسمهم وأظهرت حالتهم وشرحت أوضاعهم وما يقاسون منه ، فقد كانت تدخل مصر وتتسرب بين صفوف الجيش رغم القيود التى فرضت عليها •

وبعد أن علمت الجمعية بأن هناك أخرى مماثلة لها فى الأهداف ، رئى أن تتوحد الجهود بينها وبين جمعية حلوان للوصول الى اصلاح مصر ، ومن هنا خرج الحزب الوطنى الى حيز الوجود كتنظيم سياسى كان له أكبر الأثر فى تاريخ الحركة الوطنية ، وازداد النشاط لجميع القوى وأصبح للعسكريين مكانا أيضا فى محفل الأفغانى •

علم اسماعيل عن طريق على مبارك الذى كان فى بداية الأمر فى نظر العسكريين فلاحا من طينتهم صاحب ثقافة عالية يمكن أن يقدم لهم المساعدة والمساندة ، لكن كان موقفه غير ما كان متوقعا منه اذ أحاط اسماعيل بتلك الاتجاهات الوطنية السائدة بين جنده ، والتى تريد التخلص من حكمه ، فما كان منه الا أن استدعى ثلاثة من الضباط أصحاب النشاطات هم عرابى والروبى وطلبه « ووبخهم توبيخا لطيفا مقبولا ، فأظهروا ضياع حقوقهم الوطنية بعدم ترقينهم الى المناصب العليا ، فأنعم على سبعين ضابطا وطنيا برتبة قائمقام وفى مقدمتهم عرابى » (٢) •

فعل اسماعيل ذلك من ناحية ومضى فى سياسة الاضطهاد من ناحية

---

(١) الياس زاخوره : مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال بمصر ، القاهرة ، المطبعة العمومية ، ١٨٩٧ ، ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ •

(٢) نفس المرجع •

أخرى لبقية العسكريين الذين قاسوا من السخرة فى حفر الترع ومــد السكك الحديدية ، وكان وقت الفيضان بالنسبة اليهم هو الحرب التى يخرجون اليها لعمــل الاحتيــاطات اللازمة لوقاية المديريات من الغرق أو لبناء القناطر كقنطرة فم الاسماعيلية والقنطرة البولاقية وقنطرة فم رياح ترعة الاسماعيلية ، وتشهيل قطع الأحجار بجهات العباسـية والبساتين وطره والمعصرة وبناء الكبارى ، ولم يقتصر الأمر على الجنود فقط بل تعداه الى ضباط الجهادية الذين وكل اليهم حفظ هذه الجسور •

ومع التغلغل الأجنبى بدأ التدخل فى شئون الجيش ، فقد رأت لجنة التحقيق ضرورة تخفيض عدده الى ٣٦٢٤٧ ضابط صف وجندى، ٩٣٣ ضابطا وأن يستمر تدريجيا فى انقاص هذا العدد حتى لا يكون فى مصر ســوى نصفه ، وترتب على ذلك الغاء مدارس المدفعية والمشاة والخيالة وأركان الحرب والطب البيطرى (١) •

وبناء على ترتيبات الماليين الأجانب وحتمية دفع الكوبونات بعــد ن رهنت مصر لحملة السندات ساءت حالة العسكريين ، فنقصت ميزانيــة الجيش فاذا نظرنا لعام ١٨٧٧ الذى بلغ ايراده ٩٫٤٣٠٫٠٠٠ جك دفع منه ٧٫٤٧٣٫٩٠٩ فوائد لحملة السندات ، وحوالى مليون من الجنيهات لانجلترا فائدة على نصيبها من أسهم قناة السويس ، بالاضافة الى سداد الجزية لم يتبق سوى مليون من الجنيهات لكل المصروفات الخاصـــة بالحكومة بما فى ذلك الجيش وكبار الموظفين الأجانب ، ونفس القول ينطبق على عام ١٨٧٨ (٢) •

وبناء على ذلك حرم الجيش من مرتباته وضاق الحال بأفراده ، فساءت أحوالهم وانعكس الأمر على حياتهم حتى انهم لم يجدوا ضروريات الحياة ليتعيشوا •

وساءت الحالة بعد أن امتنعت الحكومة عن الدفع بينما فرضت عليهم الدفع ، وكان العسكريون قد تدربوا على الخدمة العسكرية دون غــيرها فلم يكونوا على دراية بأية وسيلة أخرى من وسائل العيش ، فأصبحوا هم وعائلاتهم فى حالة من الفقر يرثى لها لدرجة ان بعض الضباط اضطر الى تأجير أراضى كفلاحين بل ان بعضهم قد اقتات بالشعير « ذلك الغذاء الذى يقدم للخيول » (٣) ، وحتى من كان منهم يعرف الفرنسية والتمس التعيين

---

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة رقم ٤٢ ، معيه تركى ، ص ص ١٥ ، ٢٠ •

(٢) فارمان : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ •

(*) Bréhier. L. : l'Egypte 1798-1900, Paris, 1900, p. 199.

فى المصالح الحكومية لم ينظر اليه فقد كان المسيطر على تلك المصـــالح الموظفون الأجانب ٠

وبدأت الخطوات العملية للتعبير عما يجيش بهم من سوء الحالة ، ففى ٣٠ يناير ١٨٧٩ ، وفى رشيد حيث عرابى قومندانا لآلاياتها ، اجتمع العسكريون وتوجهوا متقلدين سيوفهم الى قائدهم عرابى عارضين حالتهم مطالبين رسميا « بالعدل والمساواة وصرف المستحقات لأربابها فى مواعيدها المقررة خصوصا أرزاق الجند الذين لا يتعاطون شـــيئا من أنواع الكسب الا أرزاقهم المقررة ، وانه ليس من العدل ان يستولى الأورباويون مقـدما مع ما فيهم من الثروة والرفاهية رواتبهم ونحن معشر العسكرية نتكبد المشاق ليلا ونهارا فى سبيل حفظ الوطن يتأخر صرف استحقاقاتنا مدة ثمانية عشر شهرا فضلا عن قطع مرتباتنا التى لا تستقيم معيشة الانسان الا بها أجبرنا على تحمل الديون بالفوائد الفاحشة وأخيرا لما انتهت مواعيد الاستقراض وما أمكن لنا السداد انعدمت معاملتنا مع التجار لعدم الأمينة فاكرهنا هنا على بيع أثاث بيوتنا بأقل قيمة حتى نفد جميعها وصار أولادنا يتضورون جوعا على مرأى منا ، قد عيل صبرنا وصرنا محقرين بين الجمبع » وأخيرا طالبوا « صرف مستحقاتنا وكامل مرتباتنا اتباعا للعدل والمساواة » وعلى الفـور تلك المطالب بلغهـــا قدمندان آلايات رشـــيد جفريا لناظر الجهادية (*) ٠

وجاءت الخطوة التالية لتكون ترجمة صادقة لثورة حقيقية على تلك الأوضاع القائمة التى كللت بمجهودات الوزارة الأوربية ســواء عن طريق سيطرة الأجانب على السياســـة العليا لمصر أو من ناحية الاجراءات التى اتخذتها بتسريح تلك الأعداد التى وصلت الى ٢٥٠٠ ضابط ، وتسليم أسلحتهم وذلك بعد أن أمضوا عامين بدون مرتبات ، وقد علل ذلك بسبب اجراءات الحكومة الاقتصادية من أجل ديون مصر ٠

لكن فى واقع الأمر فقد كان أمر تحديد الجيش بل وتصفيته مهمـا بالنسبة لانجلترا وفرنسا وذلك حتى لا تزداد قوته وسلطته ، فبالعـدد الصغير يمكن حصر تلك القوة والقضاء على أية سلطة ، وشـــمل قرار التخفيض جميع وحدات الجيش ، لكن لم يكن هناك ما يمس أى شركسى فى اطار ما تم ٠ وشنت الصحافة حملة واسعة على ذلك فهى تهاجم تصرف الوزارة الأوروبية وتعرض تفرقة المعاملة بين المصريين والأجانب وتستلهب حماسة أعضاء المجلس للذب عن حقوق مصر ٠

(*) التجارة ، عدد ١٧٩ فى أول فبراير ١٨٧٩ ٠

وبلغ التأزم أشده وكان نتيجته ذلك الائتلاف والالتحام بين المثقفين بجناحيهما المدنى والعسكرى وكبار ملاك الأراضى من أجل العمل المشترك لوضع حد لما وصلت اليه مصر •

كان الحل والربط بيد كل من ولسون ودى بلنيير يبعدان من يريدان ويدخلان الأحباء والأقارب والأصحاب ـ وهم أجانب بطبيعة الحال ـ فى خدمات الحكومة ، واشتكى العسكريون واعترضوا على ما وصلت اليه حالتهم لكن ما من شكوى قد أتت بأكلها ، فقرروا العمل •

وفى يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ توجه الضباط الى مجلس شورى النواب الذى اعتبروه الهيئة النيابية والذى كان من أعضائه ما هم أعضاء فى الحزب الوطنى وفى محفل الأفغانى ، واختاروا منهم خمسة ، لطيف سليم وكان مديرا لمدرسة الحربية ومشهورا بخطبه الحماسية التى تحمل بين طياتها التعاون والشجاعة والمطالبة بالحقوق ، وسعيد بك نصر مدرس الحربية ، وثلاثة آخرين وذلك للتكلم باسمهم والجهر بشكواهم لدى المجلس والتى كانت تتضمن الرغبة فى صرف استحقاقاتهم المتأخرة وتشرح ما يقاسونه من أعباء الدين مع الرفت الذى تم والفقر الذى وصـــلوا اليه وبتلك التضحيات التى قدموها سواء فى كريت أو الحبشة وان الكثيرين منهم قد استشهدوا وتيتمت أولادهم،وان غيرهم من الأجانب فى رغد من العيش وهم أكفاء فى حين ان بالجهادية من هم أكفأ لتولى تلك الوظائف اذا ما تم الاستغناء العسكرى ، وان الحكومة من الضرورى أن تطبق عليهم قانون معاش الجهادية ، ووقف الضباط بباب مجلس شـــورى النواب ودخـل الخمسة المختارون بعد أن استأذنوا وتكلم لطيف سليم وأبان لأعضـــاء المجلس بأنهم نواب الأمة ووكلاؤها وان عليهم أن ينظروا فى شـــئون الجهادية وهم أولى الناس بالنظر بعد أن شرح الحالة التى وصلوا اليها ، وقد أراد الضباط عقد المجلس فى الحـال للنظر فى أمرهم ولكن اللائحة كانت لا تجيز ذلك فاستصحبوا معهم بعض الأعضـــاء الذين بلغ عددهم اثنى عشر عضوا لعرض الأمر على رئيس الوزراء الذى التقوا به فى الطريق « فأرادوا أن يستوقفوه ليسمعهم فأبى ولم يلتفت اليهم ، فهاجوا وماجوا وتعلقوا بالعربة التى كانت تقله ، فأغلظ لهم فى القول وهددهم ، وضربهم سائقه بسوطه فأصابه بعضهم بقراب سيف فى جبينه فشجه وأراد البعض أن يقصد نوبار بمكروه » وصـــاحوا فى وجهه « لا يحل لك يا ظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا » كما جهروا بالقـــول بأن نوبار وولسون يعملان سويا من أجل تسليم مصر لانجلترا ، ولم يكن الهجـــوم منصبا على نوبار بل وأيضا على ولسون الذى كان بعربته وراء نوبار ، وكان عدد الضباط المسلحين ٤٠٠ منهم طلبة بالمدرسة الحربية ومعهم الفان

من الجنود ، ودخلوا المالية وحاصروها ومنع الخارج من الخروج والداخل من الدخول وسجن الوزراء فى المالية وذلك حتى يقطع الضباط فيهم أمرا ثم قامت فى الحال مظاهرة شعبية (١) وفى الحال حضر اسماعيل الى مقر المالية ومعه قناصل الدول والحراس وبطانته ورجال ديوانه وعبد القادر باشا محافظ القاهرة ، وحاول تهدئة الموقف فلم ينصرفوا فتقدم اليهم نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فمانعوا ، ثم اجتهد الخديو بعد ساعتين بالذهاب ففاوموه حتى أمر العساكر بأن يطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء « حتى خيف من انقلاب الأمر الى ثورة صحيحة وخشى الأوروبيون على أنفسهم من ذلك الجمع الغفير (٢) ، وقد حاول بعض المتظاهرين أن يقضى فى هذه اللحظة على اسماعيل ويحقق رغبة ثورة الجياع لكن الحظ لم يساعده فتقول صحيفة الاسكندرية « الذين خسروا عقولهم أن يضرب الحضرة الخديوية فلم يصيبه غرضه ، وذلك ان سعادة افندم عبد القادر باشا تعرض لذلك الباغى » (٣) فكانت النتيجة أن أصيبت يده وتعرض لبندقية أحد العساكر ، وتصف صحيفة مصر هذا العمل بأنه جرأة من ذلك الضابط بل وشجاعة انه اخترق التحصينات التى كان محاطا بها الخديو ، ولا ريب فى ان حياة اسماعيل فى هذه اللحظة كانت فى خطر عظيم ، فقد كانت الرغبة تسرى على الانتقام منه هو الآخر ، وانتهى الأمر باصابة عدد من الأشخاص من كلا الجانبين جانب الضباط الثوريين وجانب حرس الخديوى اعقب ذلك أن أمر عبد القادر باشا باحضار مجموعة من الجنود السودانيين الكائنة بقصر النيل لحماية سراى عابدين ، وبعد حضورها وزع عليها خرطوش ، فلم تقبله قائلة « لا يليق بنا مقاتلة اخواننا » (٤) وكان هذا دليلا على ان الحركة كانت موجهة ضد اسماعيل وليس ضد الوزارة الأوروبية فقط .

وكان قد تم القبض على كثير من الضباط الموجودين بالحركة ثم ان الضبطية أرسلت بعض معاونيها مع ثلاثين من العساكر لاحضار لطيف سليم ومعه اثنان من مشاهير الضباط وصار سجنهم وأرسل الى معاونى الأثمان بالتنبيه على جميع الضباط الكائنين بأثمانهم أن يبكروا فى مراكزهم

---

(١) F.O, Political, No. 60, February 19, 1879، مصر « عددى ٣٤ ، ٣٥ فى ٢٠ ، ٢٨ فبراير ١٨٧٩ ، الاسكندرية عدد ٣٤ فى ٢٧ فبراير ١٨٧٩ ، الوطن - عدد ٦٥ فى ٨ مارس ١٨٧٩ .

(٢) مصر ، عدد ٣٤ فى ٢٠ فبراير ١٨٧٩ .

(٣) الاسكندرية عدد ٣٤ فى ٢٠ فبراير ١٨٧٩ .

(٤) نفس المصدر

بالعباسية ، وقبض على كثيرين من المارين فى تلك الليلة ، وقد تولى ناظر الداخلية وناظر الخارجية مساءلة كل من المسجونين على حدة ، ولما انقضت الليلة صار ابعاث المسجونين جميعهم من سجن الضبطية الى الطوبخانة وصار ايداعهم بسجنها • وكان من بين المستدعين الى الضابطية عبد السلام المويلحى هو ومن شاركه من النواب فى موافقة الضباط (١) •

كان من بين المتهمين عرابى على اعتبار ان له يدا فى تدبير ذلك وبالرغم من انه كان فى رشيد الا ان نشاطه كان واضحا فى بث بذور الثورة على الأوضاع ، وجمع بعض الضباط ومعهم عرابى ومثلوا أمام مأمور الضبطية لكى يلحقوا بمن سبقوهم للعقاب ، ومن حظ الثوار أن يكون المأمور هو البارودى ، فيقول عرابى عن تلك اللحظة « وآنست فيه تأففا من الظلم والاستعداد وميلا الى العدل والدستور (٢) ، ومن هنا نشأت تلك العلاقة التى بدأت سرية وانتهت علنية •

وانعقد مجلس عسكرى فوق العادة برئاسة استون وحكم على عرابى وعلى الروبى ومحمد النادى بالتوبيخ وفصل كل منهم عن آلايه ، فصار ابعاد الروبى الى المنصورة ، وعرابى والنادى الى الاسكندرية ، وفيها مضى عرابى نحو طريقه حيث كانت هناك الأرض خصبة للثورة •

وينفى عرابى عن نفسه الاشتراك فيما حدث ولو انه يعود ويقول أمام المجلس العسكرى على انه لو فرض وكان موجودا فيها ضباط آلايه فهو غير ملوم لأن « نساء الضباط وأولادهم بلا مأوى فى العباسية ولا دراهم بأيديهم ينفقون منها على عائلاتهم ، ولا خبز ولا تعيين يصرف لهم » ويمضى ليذكر « انه بعد أن انصرف المتجمهرون ورجعوا الى محلاتهم وكلهم متأففون هاج الضباط فى جميع الآلايات وتشاوروا فيما بينهم وصرحوا بوجوب عزل الخديو واعتلاء ولى عهده توفيق باشا فوق مسند الخـــديويه المصرية ، فلما علم الخديو بذلك ذهب الى مركز كل آلاى على حدته وطيب خواطر الضباط ووعدهم بصرف استحقاقاتهم المتأخرة وعزل الوزارة المذكورة(٣) » فواضح انه كان يؤيد كل خطوة ، ويذكر بلنت ان عرابى اشترك فى مشروع لم ينجح كان مؤداه خلع الخديو ، والراجح ان هذا الخلع كاد يتم لو لم تتداخل أوربا (٤) ، وهذا هو هدف جمعية الضباط والتى كان عرابى رئيسا لها ، اذن فلا يستبعد اطلاقا ان عرابى من المحركين الاساسيين •

---

(١) مصر ، عدد ٣٥ فى ٢٨ فبراير ١٨٧٩ •

(٢) أحمد عرابى : نفس المصدر ، ص ٣١ •

(٣) نفس المصدر •

(٤) Blunt : op. cit., p. 133.

اتفق الكثيرون من كتاب معاصرين لتلك الفتـــرة ومحدثين من ان اسماعيل كان وراء حركة العسكريين هذه لكي يتخلص من انسيطرة لتلك الوزارة الأوروبية التي أفقدته كل السلطة ، حيث ان لطيف سليم صــهر شاهين باشا أحد موظفي البلاط ومن أحب المقربين لدى اسماعيل (١) ٠

لكن معروف ان لطيف سليم قد أودع في السجن ، وأخرج منه بتدخل نائب القنصل الانجليزى بناء على طلب جماعة الماسون التي كان يديرها الأفغاني والتي كان عضـــوا فيها وليس بناء على أمر الخديو ، كما ان اسماعيل قد تعرض للهجوم في تلك الثورة ٠

ويكتب القنصل الانجليزى لحكومته ليبين بأن هذه الحركة ليست فقط للضباط بل هي نتيجة لاستياء عام وعدم رضا ساد بين الأهالي الذين بدأوا يرفضون دفع الضرائب ، وازدادت شكواهم لتعيين وزيادة عـــدد الأوروبيين في الوظائف واستحواذهم على أعلى الدرجات والمرتبات ، وقــد شـــاركهم العسكريون في ذلك ، وأكد فيفيان بأن ما فعله الضباط كان ايضا ضد الخديو الذى اعتبروه سببا للحالة التي وصلت اليها مصر والذين أرادوا عزله (٢) ٠

كذلك نرى ان لاسلز بعد شهرين يكتب لحكومته ليوضح لها بأن هناك شعورا عدائيا من الضباط في الجيش ضد الخديو ، ووصل هذا الشعور الى حرسه الخاص ، فهم يمثلون ذلك الشعب المعذب ، وانهم ينظرون اليه على أنه المسئول عن التدخـــل الأوروبى وعن تلك المصـــائب التي أحلت بالبلد (٣) ٠

اذن فمن المستبعد أن يكون اسماعيل مكونها ، ومن المحتمل أنه اتهم بذلك لدى الدوائر الأوروبية بواســطة أعضاء من الوزارة الأوروبيـــة نفسها ، لكن مهما كان الأمر ، ربما حدث قد اتفق وهوى اسماعيل في نقطة واحدة فقط وهو انه يمكنه الوصـــول على أكتاف تلك الثورة للتخلص مما كان يشل يده في مصر ، فدعى القناصل واخبرهم ان وضعه الحالي كمسئول دون سلطة يجب أن يتغير وان نوبار ملوم لما حدث ، وطالب باعادة السلطة اليه ، وتألفت الوزارة الأوروبية الثانية وفرضت الشروط القاسية على اسماعيل ، وأعطت حق الاعتـــراض للوزيرين الأوربيين ٠

---

(١) محمود فهمى : البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الاوائل والاواخر القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٨٩٤ ، جـ ١ ، ص ٣٨ ٠

(٢) F.O. political No. 65, February 22, 1879, Political No. 273, May 10, 1879.

(٣) Cromer : op. cit., Vol. II, pp. 133, 134.

أما بالنسبة للعسكريين ، فان هذه الحركة قد هزت وبعنف تلك الطاعة التى رثها المصريون ، وايقنوا للمرة الأولى انهم أقوياء بل وأصبحوا سادة للموقف وكانت البشيرة النذيرة للثورة العرابية ٠

فقد كانت أول حركة بعث من نوعها فى حياة الجيش فى مصر الحديثة كما كانت أول تآزر بين العسكريين وبين الوطنيين المدنيين ، وأثبتت ان مصر لم تعد صامتة بل يعمها تيار وطنى جارف ، وأطلقت العنان فقد حدث ان هدد الضباط الذين لم يشتركوا فى الحركة الوطنية عثمان رفقى وذلك لاطلاق سراح اخوانهم الذين سجنوا بسببها « والا فاننا نقوم ، فقد شاهدنا المعارك وسفكنا الدماء ، وصادفنا الكلل والرصاص وعاينا الموت ، فلاريب اننا نجعل لتراب وطننا من كؤوس دمائنا ان لم تطلقوا لنا اخواننا » (١) ٠

وأعلن علماء الدين تأييدهم للحركة وأفتوا بشرعيتها « انهم لم يتعدوا الحقوق بما فعلوا وان تخفيض العسكر وقفل المكاتب الحربية داعيان الى الاخلال بالجندية » ، وكان الأعيان من المؤيدين لدرجة ان أحدهم « قدم من أطيانه ألف فدان ليمين ناتجها لخدمة العسكر (٢) » ٠

ومضت الشكاوى تاتى من كل مكان لتشرح الظروف القاسية للعسكريين ، حتى من العريش نرى تأزمهم من الحالة « عساكر جهادية هجانة وطوبجية العريش يتظلمون فيها من قلة قيمة تعييناتهم وماهياتهم فى هذه الجهة البعيدة والغالية فى أثمانها والصعبة فى ظروفها من جدب شديد وعدم نزول المطر (٣) » اذن فكل أرض مصر ومن عليها ثائر وغير راض ٠

وخضع ضباط البحرية لنفس الظروف التى تعرض لها ضباط الجيش ولم تفرج الحالة بعد استقالة الوزارة واستمر تأخير الرواتب ، ففى الاسكندرية توجه ثلاثون ضابطا من البحرية نيابة عن زملائهم ، وبعثوا ببرقية الى الوزارة يطلبون رواتبهم المستحقة ، ويصرحون بأنهم مستعدون لترك وظائفهم اذا لم يرد الجواب ايجابيا (٤) ٠

وبما ان العسكريين البحريين كان معظمهم بالاسكندرية التى كان

---

(١) مصر ، عدد ٣٥ فى ٢٨ فبراير ١٨٧٩ ٠

(٢) صدى الأهرام ، عدد ٥٩١ فى ٢٥ مارس ١٨٧٩ ٠

(٣) محافظ الداخلية ، محفظة ٥٤ ، من غاية جماد الأول الى ٢٩ شوال ١٢٩٦ (١٨٧٩) ٠

(٤) صدى الأهرام ، نفس العدد ٠

مسيطرا عليها العنصر الأجنبي من أصحاب البنوك الى الصيادين كانوا يكنون للأجانب كل البغض والكراهية ·

ويأتي دور ضباط البوليس – المستحفظين – ليطالبوا بحقوقهم ، « فقد بعث ضباط محافظة الاسكندرية الى الجهادية ببرقية يطلبون برفع رواتبهم المستحقة عاجلا » (١)

واستمر العسكريون في كفاحهم ، بعد أن خلقوا حالة من الرعب للحكومة « فتجمعوا في العباسية وأرسلوا برقية لناظر الجهادية يطلبون صرف متأخر استحقاقاتهم ومراعاة حقوقهم ، فصدرت لهم أوامر اقامة في وظائفهم وأرسلت اليهم رواتبهم من آكل وخلافه لأنه خشي من حصول حركة كالسابقة ، وأشيع جملة اشاعات فقيل أن الضباط تجمعوا مع العرب وقصدوا حصر المالية فاستولى الجزع على قلوب البعض » (٢) كذلك ارسلوا الى الحكومة بتلك الاقتراحات التى تمكنهم من الالتحاق بالوظائف الحكومية بمرتباتهم الأصلية وبأن يفصل الأجانب ويعوضوا بالوطنيين ، وخاصة أولئك الذين يعملون في العسكرية كأطباء وصيادلة بدون عمل (٣) ·

وجاء توفيق الى الحكم ، والأمل فيه كبير من أنه سيصلح من الامور وكان البارودى أول من واجه توفيق بجرأة متزعما التيار القومى الموجود مطالبا إياه بسياسة الحزم والنصفة والعدل حيث جعل تهنئته له بولاية العرش ضرورة اقامة الحكم على أساس الشورى وتقوية الجيش فيقول :

امران ما اجتمعا لقائد أمة
الا جنى بهما ثمار السؤدد

جمع يكون الأمر فيما بينهم
شورى وجند للعدو بمرصد

ولكن توفيق مع وزرائه ومراقبيه أساءوا الى قوى مصر جميعها · وبالنسبة للعسكريين ، فقد أنزل الجيش الى أقل مما حدده الفرمان ، واستتبع هذا النقص احالة كثير من الضباط الى الاستيداع واستمرار خضوعهم للضيق المالى مما كان له أسوا الاثر ·

كان عدد المسرحين حوالى عشرة آلاف ، فاستمرت الشكوى فرفع الضباط عريضة الى الخديو في يوليو ١٨٧٩ ولكنها هذه المرة تطلب

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٤ فى ٣٠ مارس ١٨٧٩ ·
(٢) الوطن ، عدد ٧١ فى ٢٢ مارس ١٨٧٩ ·
(٣) الوقائع المصرية ، عدد ٨٢١ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ ·

اسقاط الوزير واستبداله بغير وذلك بعد أن خفض الجيش وأمر ببيع كمية وافرة من المهمات الحربية (١) . هذا عن الاسباب العامة أما عن الخاصة لعدم صرف المعينات اليومية نقودا حيث ان ما يعطى لهم من الأقوات ناقصا عن المقدار المعين وفاسدا لا يصلح للطعام وعدم النظر فى أمور المستودعين الذين قطعت عنهم المعينات فساءت حالتهم وضاقت أبواب رزقهم. وسقطت الوزارة ووعدوا بالاصلاح فى الوقت الذى تدهورت فيه حياتهم وازدادت عليهم الأعباء وخاصة تلك الضرائب التى قاسى منها شعب مصر عامة ، فبسبب ضريبة الدخولية كان مفتشها لا يتورع عن ضرب الرجل العسكرى لحملة « مقطفين من الحمص أتى بها من السيد البدوى الى دمنهور » (٢) .

وبالنظر الى ميزانية الجيش لعام ١٨٨٠ نرى أنها أنقصت من مليون جنيه الى ٤٣٠ر٠٠٠ جنيه بعد أن اعتبر المراقبان أن هذا المبلغ يكفى فانهارت حالة العسكريين حتى ان يعقوب بن صنوع يصور فى صحيفته جهادى ومعه ابنه الطفل يمد يده « من عدم دفع الماهيات صبح الجهادى المسكين بيقول احسان يا مسلمين حق رغيف عيش يا أسيادى أعيش به عيال الجهادى الى شاف الهلاك فى بلاد الحبش والأتراك » (٣) .

وبنقله عثمان رفقى أمر العسكريين ازدادت سطوة الشراكسة ، وقد اقترنت شخصية رفقى برياض الذى اقترن هو الآخر بلجنة التصفية تلك التى وقفت موقفا عدائيا من أهل مصر باتحادها مع رياض ووزرائه ، وقد كان لما قامت به ازاء المعارضين مثل « حسن موسى العقاد » أثر عميق ليحمل تلك الكراهية لها ، حيث كانت هناك علاقة تربطهم بالعسكريين خاصة عرابى والعقاد .

ومضت الحركات التهديدية من العسكريين لمن لا يرغبون فيه اذا كان على غير ارادتهم أو اذا أساء اليهم فقد أمضوا مذكرة وقدموها للداخلية بالطعن فى باشكاتب الجهادية « عياد بك » وكتبوا أنه اذا لم يتم مرغوبهم بعزله من وظيفته تعرضوا لسفك دمه ، وكان هذا الباشكاتب شركسى بطبيعة الحال ، وقد تكونت لجنة لتحقيق ذلك وضايقها « التجاوز على الوزارة السنيه بما يهيج الافكار ويثير الاضطراب (٤) وواضح أن ما

---

(١) الوطن ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٢) التجارة ، عدد ٥٥ فى ٢ أغسطس ١٨٧٩ .

(٣) أبو نظاره زرقا ، عدد ٢٧ فى ١١ نوفمبر ١٨٧٩ .

(٤) الكوكب المصرى ، عدد ٤٩ فى ١٦ ابريل ١٨٨٠ .

قدم لم يكن تهديدا فقط باهدار دم هذا الشركسى بل أيضا فيه هجوم على الوزارة ٠

ويمضى العسكريون فى اتجاه تقديم العرائض التى تعتبر فى حد ذاتها تعبيرا عن السخط وعدم الرضا بالامر الواقع ولم تكن هذه المرة تهديدا بل للمطالبة بالاصلاح ففى ٢٠ مايو ٨٠ يتقدمون بمذكرة لوزيرهم الشركسى تضم مطانب عادلة ، وكان عرابى أحد المقرين عليها ، وهى لا تختلف عما سبقها فى الاحتجاج على حبس المرتبات وتسخير الجنود والغبن والمحسوبية اللذين كان يشمل عليهما نظام الترقية ، وقد اتضح أنه كانت هناك علاقة أيضا بين العسكريين وبين قنصل فرنسا « دى رنج » الذى رجدوا منه التأييد والتعضيد الى الحد انه عند تأليف لجنة للتحقيق فى تلك المطالب نشأ بينه وبين رياض خلاف بشأن ذلك (١) ٠

وكان رفقى قاسيا ويريد ان يقضى على أى قوة أو سلطة للعسكرين بل وأن يديقهم الدل ، ولم يكن هناك أقصى من تسليم السلاح للعمل بالسخرة فى حفر الرياح التوفيقى ، وهنا رفض عرابى وعارض العسكريون واحتجوا وكانت هذه أول معارضة صريحة لتنفيذ اوامر رفقى ٠

وأخذت اجتماعات القوى المعارضة للنظام التائم تتوالى ، وكان للعسكريين دورهم الواضح أمام تصرفات رياض ووزيره ، فتوفيق كان مشلول الحركة والأمر كله لرياض والمراقبين حيث كانوا يجهضون كل حركة مناوئه من سجن ونفى الكثير وأقاموا مذبحة للصحافة ، وكان رفقى أغلظ قلبا منهم على من تحت يده من العسكريين ، لذا كثرت الاجتماعات وكان بعضها يتم فى دار « محمد افندى فنى » رئيس المترجمين بديوان المالية ، وفيها يتشاورون فى أمرهم ويبحثون أحوالهم التى وصلت الى أقصى درجات الشدة والفاقة ، وتطرقت موضوعاتهم الى الوضع السياسى واستئثار رياض بالسلطة ، وظلمه وحكمه الحديدى ، وكثرة المعتقلات والسجون وملؤها بالوطنيين وفى أثناء أحد تلك الاجتماعات ، حرر محمد افندى فنى عريضة تضمنت الطعن والتنديد بالحكومة والادارة المالية ، ولم يكن رياض بغافل عما يفعلون ، فله جواسيسه فى كل مكان ، وتم القبض على أعضاء هذا الاجتماع وشكل مجلس عسكرى لمحاكمتهم ، « فأصدر حكمه على محمد افندى هذا بالطرد من الخدمات الميرية والسجن بالطوبخانة سنتين وأيضا الحكم بحبس سعيد بك ناظر قلم الترجمة المستخدم بسواحل البحر الأحمر لسماعة تلاوة العريضة على الضباط

(١) Sabry : op. cit., p. 186.

وحبس محمد افنـــدى اليـوزباشى لحضـــوره وقت تلاوتهـا ، وخفض عبد الحميـــد اليوزباشى الذى كان من المشتركين فى كتابتها خفض رتبته الى ملازم أول ، وتنزيل اسماعيل نظيم اليوزباشى عن رتبته الى ملازم اول لأنه أخذ الصورة من محررها لاعادة نسخها ، وعلى حسن صفوت ملازم ثانى الذى نقـــل تلك الصورة وأعطاها الى أحمد أمين المهندس بالأوقاف بتنزيله الى رتبة صولقول أغاس ، وعامر رشدى ملازم أول الذى نقلهـا الى ملازم ثانى وكذا عبد السلام زكى ملازم ثانى بتنزيله الى رتبة صولقول أغاس ، وذلك خلاف المدة التى يلبثها أغلبهم فى السجن (١) » .

وبالرغم من تلك الأحكام وهذا التشدد الا أنه لم يستطع رياض أو أحد من وزرائه أن يقضى على التحام قوى الأمة والتصاقها ولم يقدر عـلى اسكات أصوات المعارضة .

وأصبح العسكريون الخطر الذى يهدد السلطة الدكتاتورية لرياض وأتباعه ، حتى أن كرومر وهو فى طريقه الى الهند فى ديسمبر ١٨٨٠ قد حذر رياض من الجيش فيقول « وألححت عليه لكى يعالج أية مظالم يكون الجيش محقا فى شكواه منها ، وألايتردد فى معاملته بأقصى الشدة عند أية بادرة من بوادر العصيان » (٢) .

وبالرغم من هذا التنبيه الا أن اجراءات القمع مضت وبكل شـدة دون النظر الى اية حقوق ممكن ان تراعى لصالح العسكريين بل بالغ فى التضييق عليهم باصدار قانون العسكرية الجديد الذى خرج من تحت يد رفقى ليكون فاتحة ثورة سافرة اشتركت فيها قوى مصر جميعها بزعامة العسكريين الذين نظر اليهم كممثلين للأمة جمعتهم العســكرية وربطت بينهم ، ويتم التآلف بين القوى الاجتماعية من أجل انقاذ مصر من ذلك الانهيار الذى كانت تهوى اليه .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٩٥٩ فى ٨ نوفمبر ١٨٨٠ .

(٢) Cromer : op. cit., Vol I, p. 174.

الفصـــل الرابع

ملاك الأراضي

عندما تسلم محمد علي مقاليد الأمور في مصر ، ألغى نظام الالتزام حيث أيقن أن الملتزمين يمثلون سـلطة داخـل سلطته ، كما أراد ألا تفقد الدولة جزءا من دخلها الزراعى الذى يؤول الى هؤلاء الوسـطاء نصـف الاقطاعيين . وأصبحت ملكية الأراضى الزراعية من حق الحكومة ، ولم يكن هناك حد فاصل بين ملكية الحكومة وملكية الحاكم الذى أنعم على المقربين من رجاله وكبار موظفيه وبعض زعمـاء قبائل البدو وهـؤلاء الأجانب الذين كانوا محيطين به بمنح من الأراضى عرفت باسم « الأبعاديات » وهى تشمل الأراضى الزائدة عن زمام القرى والأراضى البور التى كانت فى حاجة الى اصلاح ، وعرف قسم من تلك الأراضى «بالجفالك» ، وهى التى استولى عليها الباشـا لنفسه ولأفراد أسرته ، وكانت معفاة من الضرائب ، وقد توسع عباس وسمح بها للذوات وأعطى حق توريثها .

وفى الواقع انه منذ عام ١٨٤٢ وعقب انهيار نظام الاحتكار ، وتشجيعا لحركة استصلاح الأراضى واستثمارها،أعطى أصحاب الأبعاديات والجفالك من أصحاب الثروة والوجاهة بموجب تقاسيط من الروزنامة حق ملكيتها المطلقة والتصرف فيها كيفما شاءوا بعد أن كانت تقتصر على حق الانتفاع فقـط .

وبمجيء سعيد وفى عام ١٨٥٤ فرض ضريبة العشر عـلى الجميع ، فقـد الزم بتـوريد عشور المحصـولات صـنفا ، بجـوار الجفالك والأبعاديات أطيان المتروك وأطيـان الانتفاع الدائم وهـذه كانت خاصة بالأتراك والشراكسة والأجانب ، وحصل المصريون تدريجيا على الحق فيها عندما سمح لأصحاب المعاشات بالحصول على أراضى الأبعاديات ، ومنـح

موظفو الحكومة المفصولون من الخدمة مساحات من الاطيان المتروكة للانتفاع بها بصفه دائمه ٠

من هنا تكونت الملكيات الكبيرة ، التى كان من حق الحاكم استردادها لذا فقد كانت تلك الطبقة الأرستقراطية دائما على وفاق بل وخضوع لهؤلاء الحـــكام ٠

أما اراضى الأوسية ، فهى التى منحت للملتزمين السابقين تعويضـا لهم عن الغاء الالتزام للانتفاع بها طوال حياتهم ، وخضعت لضريبة العشور ، وأصدر سعيد أمرا بتوريثها ٠

وكانت هناك أراضى المشايخ والتى أطلق عليها « مســموح المشايخ والمصاطب » منحت للمشايخ بواقع ٤٪ من مساحة زمام كل قرية فى مقابل الخدمات التى يقومون بها للحكومة ، وكانت معفاة من الضرائب وباللائحة السعيدية أصبح لهم فيها حق المنفعة ، وصارت فى حكم الاطيان الخراجية، وأضحت تلك الأراضى نواة لقيام ملكيات شــيوخ القرى والأعيان الذين استمدوا مراكزهم فى المجتمع من أملاكهم الزراعية ٠

ووجدت أيضا أطيان الرزقة وهى الأراضى المعفاة من الضرائب والتى منحت للمعلمين والمهندسين لانشاء الحدائق ٠

أما بالنسبة للأراضى التى وزعت على الفلاحين فكانت تتراوح بــين ٣ ــ ٥ فدانا ، واعتبرت أراضى خراجية (أثرية) وهى ملك للدولة كأراضى أميرية مثبتة باسم أشخاص ما ولهم فيها أثر وهو حق منفعة الزراعة ، ولم يكن لأصحابها حق الرقبة بل حق الانتفاع يزرعونها مقابل دفع الضرائب عنهــا ٠

وفى عامى ١٨٥٤ ، ١٨٥٥ أصدر سعيد أوامر عالية قضت بأن على من يرغب من الفلاحين العاجزين عن زراعة الأراضى الخراجية وأداء ميرها ان يتركها ، فترك الفلاحون مساحات عرفت باسم « المتروك » فاستولى عليها وقيدها باسمه وأنعم منها على بعض أفراد الأسرة وكبار الموظفين ، ثم بعد ذلك حولت الى أراضى عشورية ٠

وأخيرا كان هناك أطيان العهدة ، فبعض القرى لم تتمكن من دفـــع جميع ضرائب أطيانها فيتبقى جزء منها يضاف الى ضرائب السنة التالية وهكذا ، مما اضطر محمد على لانشاء نظام العهدة وذلك بأن يلتزم المتعهد للحكومة بدفع ما على القـــرية من الضرائب ، ويزرع هو الأطيان لحسابه الخاص بواسطة الفلاحين ، وكان المتعهدون هـــم محمد على وأفراد أسرته والوجهاء وكبار الموظفين والأعيان ومشايخ القـــرى وبعض الأجـــانب

والبدو • هؤلاء كونوا ملكياتهم وتوسعوا فيهـــا منتهزين تلك الظروف للمزيد من الضغط على الفلاحين ، وقد تحولت تلك الأراضى الى ملكية خاصة بعد صدور اللائحة السعيدية ، وســـاهم نظام العهد فى خلق قطاع من الملكيات الكبيرة فى الأراضى الخراجية وضاعف من أثر نظام العهد على نمو الملكيات الـكبيرة ان معظم المتعهدين كانوا من العناصر التى حصـلت على الأبعاديات والجفالك ، وقد أبطل ذلك النظام بناء على طلب مجلس شورى النواب ولكن بعد ان دعم الملكية الفردية •

كانت اللائحة التى صدرت فى نوفمبر ١٨٤٧ قد أعطت حق رهن الأرض أو التنازل عنها للغير بموجب حجة شرعية أو أمام الشهود ، كمـــا نصت على أنه لا يمكن انتزاع الأرض من واضع اليد عليها الا اذا كان قادرا على زراعتها وأداء خراجها وأباحت له استرداد الأرض متى دفع ما عليه من متأخر ، وأضافت لائحة ١٨٥٤ أحقية الورثة فى وضع اليد على الأرض التى تركها مورثهم ، وأن يكون التصرف فى هذه الأرض بحجة تكتب فى المديرية ، وأن تكون المدة القانونية للقضـــايا المختصة بالحقوق العقارية ١٥ سنة •

وجاءت اللائحة السعيدية عام ١٨٥٨ لتتيح الملكية العقارية للأراضى الزراعية وأن يستقر أمرها وقررت أن لمستغل الأرض الحـــق فى تأجيرها لمدة لا تزيد على ثلاث سنوات وأن يرهنها أو أن يبيع حقـــه فى استغلالها للغير ، وأكدت حق توريث الانتفاع بالأرض وفقا للشريعة الاسلامية وحق التعويض لمن انتزعت منه أرضه •

ومضت سياسة الانعام من الحكام بالأبعاديات فتوسعت طبقة الملاك الزراعيين واستطاعت أن تجعل لنفسها وضعا متميزا ، وكان اســـماعيل معطاء للمحيطين به ، فقد منح آلاف الأفدنة لأسرته ولأتباعه ولكبار موظفيه، وكان كل هذا الاغداق على حساب الانهيار لملكية الفـــلاحين ، بل وقد كان الانتزاع يتم لأجود الأراضى ، كما أن عملية استبدال أراضى الأبعاديات التى بدأت منذ عهد سعيد وتوسعت فى عهد اسماعيل كان لها أثر فى قيـــام ملكيات كبيرة لأراضى موحدة وخصبة (*) • تلى الأسرة الحاكمة فى امتلاك الأراضى كبار رجال الدولة من الاتراك إذ اعتبروا اكبر ملاك للأراضى فى القرن التاسع عشر فى مصر وذلك بناء على تلك المنح التى منحت للوزراء والمحافظين وسكرتارى الخديوى ومديرى الجفالك والعاملين فى الدوائر ومديرى المديريات وكبار الضباط وهؤلاء كونوا أرستقراطية خاصة بهـــم

(*) محافظ الأبحاث ، محفظة ٩١٧ ، دفتر ١٣ ، صورة الأمر الكريم رقم ٨ ، ٥ شوال ١٢٨٢ (١٨٦٥) •

كانت خليطا من نوعيات الأتراك والشراكسة والأكراد وعناصر آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل والجزائر وتونس جمعتهم العادات والتقاليد واللغة التركية كدليل على رقيهم ومركزهم المرموق (١) ، واحتفظوا باحتكارهم للمناصب القيادية ، وبذلك جمعوا بين السيطرة الادارية والسيطرة الاقتصادية على المصريين ، فيقول كرومر « انه عندما احتل الانجليز مصر وجدوا مجموعة من الأتراك المصريين يحتلون المراكز الأساسية فى الحكومة وهم من كبار ملاك الأراضى (٢) » ، وترافعوا على المصريين ومارسوا سلطاتهم وسلطانهم عليهم ، وآمنوا بأن حقهم الطبيعى هو شغلهم لتلك المناصب وامتلاك الأراضى الشاسعة ، ولكن مقدرتهم لم تكن مساوية لطموحهم ، وقد استفادوا من وضعهم حتى أنهم أصبحوا يمتلكون مصادر الثروة من أرض ورأسمال وفلاحين ٠

هذا وقد قامت أملاك الكثيرين وتوسعت على عمليات الاغتصاب الدائم لأراضى الفلاحين ، وكان شاهين باشا يمثل هذا الاتجاه ، وقد تأكد ذلك بتلك الشكوى المقدمة من ورثة محمد أبو حمزة بأن « شاهين باشا منذ أن كان مفتشا لجهة بحرى داخله الطمع وأخذ أطيانهم وهى ١٠٠ فدان عشورية من أطيان كفر الدوار بحيرة مقامة على زمام ناحية البرنجات من أعظم أطيان تلك الجهة بمهماتها ومفروشة بكافة دوايرها أشجارا من سنط وجميز وساقيتين وآلات وعزبة قائمة بنفسها بطاحونة » ، كما انه اغتصب من فلاحى ناحية بتوفر ــ غربية ــ مائتى فدان (٣) ٠

وسرت روح الاغتصاب هذه على تلك العناصر وخصوصا الذين كان لهم مراكز ادارية رئيسية حتى مديرى المديريات كانوا مبتزين للأموال حاصلين على الرشاوى سلكوا تلك الطرق وأصبحوا من كبار ملاك الأراضى ٠

أما عن كبار ملاك الأراضى من المصريين ، فقد وصلوا بتلك الانعامات التى استحوزوا عليها الى مكانة مرموقة فى المجتمع ، فرفاعة الطهطاوى وهو من عائلة فقيرة جمع ممتلكاته من منح منحها له محمد على وسعيد واسماعيل، وتوسع هو أيضا فى الشراء حتى وصلت أراضيه الى ٢٥٠٠ فدان عام ١٨٨٠ وعلى البدراوى وهو تاجر منح عهدة فى عهد محمد على ومنحه سعيد أطيانا وأضاف هو بشرائه فوصلت أملاكه الى ٤٠٠٠ فدان ، وحميد

---

(١) Milner, S. A. : England in Egypt, Seventh edition, London, 1899, p. 319.

(٢) Cromer : op. cit., Vol. II, p. 171.

(٣) محفوظات الداخلية ، تركى ، محفظة ٦٤ ، ٨ ذى الحجة ١٢٩٧ (١٨٧٩) ، الوقت ، عدد ٨٩٣ فى ١٢ يوليو ١٨٨٠ ٠

أبو ستيت وهو فلاح عادى تمكن من أن يصل الى أن يكون حاكم جرجا وكانت ممتلكاته تربو على ٥٠٠٠ فدان (١) ، أما سلطان وعلى مبارك وأباظة والشريعى وسليمان عبد العال والمنشاوى والهجين والعقاد فقد جمعوا أيضا ملكيات كبيرة من الأراضى وأصبحوا من كبار الملاك (٢) .

وازدادت تلك الملكيات وتثبتت فى أيدى أصحابها بما أصدره اسماعيل من قرارات ، ففى عام ١٨٦٥ تقرر بيع أطيان الأبعادية القابلة للزراعة وكذلك الناتجة من زيادة المساحة بصفة أطيان خراجية وبيع أطيان الأبعادية التالفة التى لم تحرث بعد بصفة أطيان عشورية .

وصدرت أحكام تنظيم كيفية التصرف فى أطيان المتسحبين واعطاء الأراضى البور لمن يرغب فى استصلاحها ، فقدم عليها الأثرياء ، وأيضا أبيحت الوصية فى الأراضى الخراجية .

وجاءت لائحة المقابلة فى ٣٠ أغسطس ١٨٧١ تلك التى خفضت الضرائب الى النصف مقابل الدفع مقدما ست سنوات وأعطت حق الملكية لنوعين من الأراضى ، الأولى أطيان الأواسى التى كانت فى أيدى الملتزمين من عهد محمد على وكانت معفاة من الضرائب فى عهده ثم أصبح يدفع عنها عشر محصولاتها بناء على أمر سعيد وبذلك دخلت فى عداد الأراضى العشورية ، والثانى الأراضى العشورية التى أعطيت لبعض موظفى الحكومة ليتعيشوا منها ولم يعط لهم تقاسيط ديوانية ولا رخصة بالتصرف فيها ، فهذه الأراضى متى رغب واضعو اليد عليها دفع المقابلة عنها يجابون الى ذلك ، وبعد دفع ما يستحق عليها من المقابلة بالكامل يتحرر بها التقاسيط الديوانية لتصير ملكا لهم ويتصرفوا فيها بكامل الأنواع ــ البيع ، الهبة ، التوارث ، الوصاية ، الوقف ــ المصرح بها لأرباب الأبعاديات (٣) .

واصبحت المقابلة اجبارية وأعطيت تلك الأراضى التى دفعتها كلية أو جزئية حقوق الملكية ، ووافقت الحكومة على اعطاء حجج لها مجانا تثبت ملكيتهم بسبب دواعى الرهن فى البنك العقارى الذى كان يقدم القروض بشرط هذه الحجج (٤) .

وصدر قانون فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٠ بتسجيل الأراضى البور للأفراد

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٩ ، ١٢ محرم ١٢٩٩ (١٨٨١) .

(٢) د. على بركات : المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٣) د. محمد كامل مرسى : الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن ، مصر ، ١٩٣٦ ، ص ص ٨٠ ، ٩٠ .

(٤) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/جـ ، محضر ٢٥ مايو ١٨٨٠ .

الذين يدفعون عنها ضريبة الخراج ، وبذلك دعمت الرأسماليه الزراعية وساعدها على صب نشاطها فى المجال الزراعى مسألة الرى واهتمام الدولة به من أجل مصلحة الأسرة الحاكمة وقد استفادكبار الملاك من وراء ذلك مما ترتب عليه زيادة مساحة الأراضى ، وكانت الحرية الاقتصادية وسمة التخصص وتلك المحاصيل النقدية والسلع الرأسمالية وربط ذلك بالسوق الأجنبية أهمية لزيادة الأراضى وخصوصا مع قدوم الحرب الأمريكية وارتفاع أسعار القطن المصرى ازداد الاقبال على طلب شراء الأراضى لتلك المكاسب التى اصطحبت رواج القطن ، فقد وصل تصديره من ٢ الى ٣½ مليون قنطارا سنويا وارتفع سعر القنطار عام ١٨٦٧ الى ٥٢ ريالا بعد أن كان متوسط السعر ١٠ ـ ١٢ ريال ، فازداد كبار الملاك ثراء ، وقد ساعدهم على ذلك التربة والمناخ والرى ووسائل النقل والآلات الحديثة ، وحتى بعد انتهاء الحرب ورغم تأثر السوق القطنية الا أن انجلترا كانت تسعى فى الحد من كل زراعة أخرى بجواره لتكفى حاجة مصانعها منه (١) ، هذا فى الوقت الذى تغلغلت فيه الرأسمالية الأوربية بمشروعاتها المالية والاقتصادية داخل مصر والتى اعتمد عليها ملاك الأراضى للحصول على القروض التى مولوا بها زراعاتهم الواسعة ومضارباتهم بالأرض ، وكان نتيجة ذلك الاهتمام بالأرض دون سواها وتركيز الرأسمالية عليها ٠

أما عن حياة أصحاب تلك الأراضى ، فقد كان معظمهم غائبين عن أراضيهم يعيشون فى القاهرة والمدن الكبرى والبنادر وهم لا يتحملون تجاه فلاحيهم أية مسئوليات اجتماعية أو اقتصادية ، يستمدون دخلهم من تأجير أراضيهم ومن الأرباح التى يحصلون عليها من بيع وشراء الأراضى ، ومارسوا ضغطهم على الفلاحين الذين تحملوا كل شيء حتى ولو تصادف وجرى تحقيقات بناء على تظلمات هؤلاء الفلاحين ، نرى مديرى المديريات يصبحون فى صف الملاك ضدهم ليساهموا فى الظلم الواقع عليهم واضاعة حقوقهم (٢) ٠

مجلس شورى النواب والقيادة البورجوازية المصرية :

ان العامل الرئيسى لظهور مجلس شورى النواب هو شخصية اسماعيل ، الذى كان يميل الى تقليد الحكام الغربيين ـ ظاهريا ـ فى أساليب الحكم ، فهداه تفكيره الى انشاء هذا المجلس لكى يزيد من أبهة

---

(١) راشد البراوى : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٤٤ ، ص ٦٩ ٠

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٧ ، دفتر ١٩١٠ ، صورة الأمر الكريم رقم ٥ فى ١٢ جمادى الثانى ١٢٨٠ (١٨٦٤)

حكمه ويظهر أمام الدول بأنه حاكم دستورى ، ويرد الاتهامات التى وصفته بالاستبداد .

كما كان اسماعيل فى حاجة الى ذلك المجلس لكى يتستر وراءه اما للاقتراض بما يشاء وذلك بكسب ثقة البيوت المالية أو ليتمكن من فرض الضرائب عن طريقه ، وليستطيع أيضا أن يقف بنواب الأمة أمام أى سلطة أجنبية يمكن أن تحد من سلطته .

ورأى اسماعيل فى طبقة الملاك المعين والواقى له ، فأراد أن يقربها ويشعرها بحاجته اليها ، ووقع نظره على زعماء الريف دون غيرهم ، وحرص على أن يكونوا مصريين ، وأبعد الطبقة التركية الأرستقراطية ، فقد رغب فى أن يخلق طبقة من المصريين تسانده ويعتمد عليها حتى اذا اقتضى الأمر أمام المصريين أنفسهم . فأعلن أن المصريين محكومين بشىء من الضغط والتباعد بينهم وبين الحكومة ظاهر الأثر ، ورأى أن يجنى ثمار هذا التقرب بين حكومته والملاك .

ولم يكن المجلس ليمثل المصريين عامة بل طبقة منهم هم كبار ملاك الأراضى وكان منهم عدد كبير من العمد والمشايخ ، فقد كانت وزارة شريف تتدخل لترشيح العناصر الثرية من العائلات ذوى النفوذ فى مناطقهم ، ومثل المدن فى المجلس التجار والأعيان وكان عدد الأعضاء ٧٥ عضوا منتخبين لمدة ثلاث سنوات ، يتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها والأعيان فى المحافظات ومدة اجتماعه شهرا فى السنة وجلساته ليست علنية وللخديو الحق فى جمع المجلس أو تأخيره أو مد مدته أو تبديل أعضائه (*) .

وبذلك ظهرت طبقة الملاك المصريين على المسرح السياسى لتثبت وجودها ولتحقق مسعاها تدريجيا للحد من نفوذ طبقة الأتراك ومن أوتوقراطية اسماعيل مما جعلهم يكونون ركنا أساسيا فى الثورة .

وفى البداية رأى اسماعيل جعل المجلس ذا سلطة استشارية فقط فى المسائل التى ترى الحكومة أن تعرضها عليه على أن تكون قراراته بمثابة رغبات ترفع للخديو ، وكان اسماعيل يرسل عند المداولة من يخبر الأعضاء بارادته ، فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، وتؤكد الوطن أنه عند افتتاح المجلس حضر عضو من أعضاء مجلس د بارلمنتو انجلترا لكى يعرف

(*) محمد خليل صبحى : تاريخ الحياة النيابية فى مصر ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٤٧ ، جـ ٤ ، ص ١٦ ، د. عبد العزيز رفاعى : فجر الحياة النيابية ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر ، ١٩٦٣ ، ص ص ٢٨ ، ٣٢ .

شيئا عما يجريه مجلس مصر فتحصل على مترجم ودخل على أحـــد العمد وسأله عن نوع العمل الذى يشتغل به المجلس ، فأسر العمدة للترجمان بأن عنده صاحب فى المحل الآخر ويجب عليه ان يراه واختفى فى الحال (١) » أما مسألة المعارضة ومقاعد اليمين التى انحاز لها الأعضاء جميعهم فيذكرها جميع المؤرخين ، لكن مهما يكن من أمر فقد كانت البداية صعبة ومفتعلة لكن مع الأيام والاحداث ومع تبلور الرأى العام فى مصر أصبح هناك نضج فى المجلس ، وان ما تم كان خطوة أولى ما لبثت أن مارست السلطة التى راحت تتسع لتفرض نفسها على الحاكم نفسه ٠

كان للانهيار المالى أثره على مصر جميعها ، وأحس الملاك بفساد الحكم وبتغلغل الأجانب وبدأت الروح النيابية تسرى فى المجلس وخصوصا بعد أن تعرضوا لبعض الأزمات مثل انخفاض أسعار القطن وذلك بعد أن جنحوا الى الاسراف كعادة المصريين عموما ، وكان نتيجة ذلك أن التجأوا الى المرابين فرهنوا اليهم الأراضى التى انخفضت أسعارها ٠

وقد أدرك المجلس هذه المعاناة التى يعانى منها المصريون فأصبحت أهم المسائل المعروضة على المجلس ، وتمكن الأعضاء من الغـــاء ضريبة المواشى والفردة وطالبوا التخفيف من السخرة بشراء الآلات كالكراكات ، واتسع النطاق لأكثر من ذلك بمساءله المالية عن مبالغ منصرفة بدون بيان ، وبزيادة مصروفات الميزانية عن العام السابق ، والسؤال عن أصول المعاشات وطلب بيانات من الحكومة ، ونجح المجلس فى الغاء العهد التى كان أثرها بالـــغ السوء على الفلاحين وكثرت مناقشاته حول قانون المقابلة وضرورة استمرار العمل به بعد أن تردد فى امكانية الغائه ، وقد كان الأعضـــاء أصـــحاب المصلحة يرون استمراره ، لذا عملوا بكل طاقاتهم من أجـــل ذلك (٢) ، وتعمقت الكراهية للمراقبة الثنائية صاحبة رأى الالغاء ٠ هذا فى الوقت الذى ازداد فيه تفتح الأذهان من خلال وجود الأفغانى وازدهار الصحافة وفاعلية الجمعيات ، فقد كان الكثيرون من الأعضاء من رواد المحفل الماسونى الأفغـــانى ٠

وكان لذلك نتيجته ، فقد طالب المجلس بحقه فى أن ينظر فى الميزانية ليقف على الايرادات والمصروفات وليعلم حجم الديون ومدى اســـتهلاكها ، وشكلت لجنة من ثلاثه أعضـــاء توجهت الى المالية للاطلاع على الميزانيـــة وللحصول على البيانات المطلوبة ٠

ومثلما حدث بالنسبة للصحافة حدث للمجلس فمما لا شك فيه أن

---

(١) الوطن ، عدد ٦٣ فى ٢٥ يناير ١٨٧٩ ٠

(٢) دفتر قيد محاضر مجلس شورى النواب ، محضر ١٧ رجب ١٢٩٣ (١٨٧٩) ٠

المجلس كان يلقى تشجيعا من اسماعيل بعد أن طبقت على روحه السيطرة الأجنبية ، فأراد متنفسا عن طريق المجلس لكن لم يكن ذلك أكثر من عامل مساعد فقط اذ أن المجلس قد سيطرت عليه الروح القومية وراحت خيوط المعارضة تنتشر بفضل تلك الظروف التى أحاطت بمصر ٠

ووقفت الصحافة بجوار المجلس تعضـــــده وتؤيده وتوجهه وتقويه وتلهبه فانتهى الأمر الى تكوين طليعة تقدمية داخل المجلس حاولت العمل على انقاذ مصر ، فيقول روثستين « قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين للانقياد لاسماعيل ومساعدته فى رفع النير الأوربى عن بلادهم ولكن مع ذلك كانوا يمقتونه لأنه علة علل شقائهم وبلائهم ، وقد بلغ بهم الأمــــر بعد الانقلاب السياسى أن فكروا فى عزله (١) » ٠

وقد كانت مصر تموج بالسخط جميعها وشارك النواب شعب مصر فى ذلك ، ومثل اسماعيل صورة لهذا السخط ، كما مثلته الوزارة الأوربية بسياستها الضريبية سواء فى الفرض أو التحصيل فكان لابد من التحرك ولابد من المعارضة التى تصدى لها مثقفو الأعضاء من تلامذة الأفغانى ٠

وعندما دعى المجلس فى دورة يناير ١٨٧٩ ، كان اجتماعه ثورة على مسألة الضرائب ومدى ما أحدثته من شلل فى التجارة وطالبوا بانفعال رفع ضرائب الويركو والدخولية وعوائد الذبيح والسدس والرى والتخفيف من ضرائب النخيل والملح ، وراحوا يبينون الحالة السيئة التى وصــــل اليها الفلاحون ، وطرقوا باب الهجوم على الأجانب فنددوا بمزاحمة البضـــائع الأجنبية كالزيوت التى أوقفت معاصر الزيوت المصرية فى أســوان وجرجا واسنا وقنا ، وبدأت المعارك بين المجلس والادارة الأوربية ، فقد أرســـل وزير المالية الى المجلس يلتمس من أعضائه أن تتفضل عليه جماعة منهـــم بالحضور لديه ليسترشد منهم عن بعض مســـائل تتعلق بميزانية المالية « فاستنكر المجلس هذا الالتماس من رجل أورباوى يعلم يقينا ما هــو البارلمانتو ويقدر حق قدره ولا يجهل مقامه ولا ينكر حقوقه (٢) » ٠

واستمرت مناقشات المجلس فيما أصاب مصر وأدى لانهيار أوضاعها ، وعرضت رغبات النواب على صفحات الصـــحافة بالمطالبة بمنح مجلسهم الحقوق المقررة للمجالس النيابية فى الحكومات الشــورية أو أن يفض مجلسهم فترفع عنهم التبعة ، وبذلك أصبح ذلك التصميم القوى للتحدى واضـــحا ٠

---

(١) روثستين ، ت : تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ — ١٩١٠ ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٢٣ ، ص ٨١ ٠

(٢) التجارة ، عدد ١٦٤ فى ١١ يناير ١٨٧٩ ٠

وتسارعت الأحداث لتسقط الوزارة الأوربية الأولى وليتفجر السخط في كل مكان ، وهنا راى رياض ومساعدوه الحـــد من تيارات المعارضه ، فهداهم التفكير في فض مجلس شورى النواب لاسكات تلك الأصوات .

وتظهر الحرية على أحسن وجه في ذلك الموقف بعد أن سيطرت روح القومية ، وبعد ان أراد المجلس أن يتبت وجوده ويظهر أمام الجميع ذلك الوعى التام المحياة البرلمانية ، فقد رفض الاعضـــاء اجابة طلب الوزير في انفضاض المجلس ، وجرت مشادة بينه وبين بعضهم بناء على طريقة رياض التي تركزت على التحقير بالمصريين والاستهزاء بهـــم ، فكان عبد السلام المويلحى على رأس من صفعوه حتى لقد أجمع الكتاب الاوربيون على تسميته « بميرابو مصر » ، فقد كان تحديه لرياض سافرا فأنزل من مكانته ووبخه بكلامه واتهمه بالجهل وضيق الأفق والخضوع للأجانب وأبان له أنهم نواب عن الأمـــة ولن يبرحوا أماكنهم الا بعد آداء واجباتهم ، وتبعه ثان وثالث ورابع على نفس المنوال ، جميعهم رافضون مصرحـــون بالامتناع عن فض المجلس ، وعلى الفور قاموا بتحرير مذكرة برفضهم قرار الوزير وختموها باقامة الحجة على منع حرية المطبوعات وبأنهم ليسوا اقل من امارة البلغار التي أصلح مجلسها من أمورها ، وأن مصر أوفر منها ثروة وأعظم منها شأنا وأكثرها ســـكانا وأحسنها نظـــاما وأحكاما وأكثرهـــا في العـــلوم والمعارف (١) .

ولم ينفض المجلس وواصـــل اجتماعاته وكثرت مطالبه في شـــأن مسئولية الوزارة أمام المجلس ، وأبعاد أمـــور الدين والضرائب من أيدي النواب وتكليفهم ببحثها واتخاذ ما يرونه بشأنها من قرارات تتفق مـــع مصلحة البلاد وبدأت عملية الالتحام بـــين القوى ، فنرى الشيخ البكرى « نقيب الأشراف وزعيم سبعين ألفا من الدراويش » يحضر الى مجلس شورى النواب ويثنى على الأعضاء لما قاموا به في سعيهم لخدمة الوطن ويسألهم أن يثبتوا أقدامهم بل لقد ذهب به الأمر الى أن يجمع الأعضاء في منزله ، وفي تلك الاجتماعات كان المويلحى يقـــوم خطيبا ليبين فوائد مجالس الشورى فأسهب وأظهر التأسف في تشبث الوزارة بمعارضة المجلس واهمال شئونه ثم انتقل الى الاســـتدلال على ارتباط المجلس بالوزارة وبيان ثمـــار ذلك الارتباط ، كذلك حضر البكرى رسميا بالاصـــالة عن نفسه وبالنيابة عن بطريارك الأقباط وعلماء الاسلام كافة اجتماعا للمجلس أبلغ فيه أعضاءه بأنهم معضدون ومؤيدون ، كما طلب أن يكتب كل منهم لأهـــل ناحيته لتسكين خاطرهم واخماد جاشـــهم عند بلوغهم مســـألة طلب انفضاض المجلس (٢) .

---

(١) مصر ، عدد ٤٠ في ٤ ابريل ١٨٧٩ .

(٢) الوطن ، عدد ٧٢ في ٥ ابريل ١٨٧٩ .

وبذلك أصبحت مصر قوة ، الارادة تفرض نفسها ، المطالبة بالحقوق تبلغ مداها، تشق عصا الطاعة ويسود الموج الثورى فى ظل الشعور القومى الذى وصل الى ذروته للاعداد للثورة ٠

اللائحة الوطنية وتلاحم القوى :

عقد ولسون عزمه على الغاء المقابلة وكان سهلا عليه أن يمسح بجرة قلم ما دفعه ملاك الأراضى وأظهر ذلك فى تلك اللائحـــة التى أعدها والتى رأى فيها أن يزيد الضرائب العشورية ، وأنزل من فوائد الديون القريبة الآجال ٢٪ وأطال مواعيدها والموحد والديون المتفرقه أوصلها الى ٥٪ ، وهذا بالاضافة الى اعلانه عدم قدرة مصر على دفع التزاماتها وتأجيل كوبون ابريل عقب اعلان الافلاس الذى تضمنه تقرير لجنة التحقيق وراح يتخـــذ الاجراءات التى أثارت عليه سخط ملاك الأراضى فوضع مشروعا فرض فيه السخرة على أراضيهم والتى كانت معفاة منها كضريبة عينية لا يعفى منها أحد الا مقابل جعل مالى يدفع ٠

وأمام ذلك بدأت الخطوات الفعلية للرفض ، ففى أول يناير ١٨٧٩ عقدت جمعية وطنية بمنزل راغب باشا حضرها الذوات والعلماء واستدعى اليها المويلحى بصفته نائبا واثنان آخـــران من النواب فكان من الذوات شريف باشا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وخيرى باشا ومن العلمـــاء الشيخ البكرى والشيخ الخلفاوى والشيخ العدوى ، وبطريق الأقبـــاط وحاخام الاسرائيليين وبعض الضباط والتجار والموظفين ، ودارت بينهم المفاوضات لما وصلت اليه حالة مصر ، وقد كان المصريون جميعهم تموج بهم الرغبة فى التخلص من الكابوس الأوربى ، وكان ذلك أيضا ما يتفق فيه الأتراك الدستوريون مع شعب مصر ، وانتهى الأمر بهذا الاجتماع الى وضع لائحة وطنية لترد على لائحة ولسون تتلخص فى أن يكون مجلس الوزراء وطنيا وأن ينتخب الخديو رئيس الوزراء وهو ينتخب باقى الوزراء ، وتكون الحكومة دستورية على النمط الأوربى ، ويحكم الاقتصاد فينقص على الموازنة نحو نصف مليون جنيه ، ويعطى مجلس النواب حقوقه مع الحرية التامة ، واعطاء الأهالى حقا فى انتخابه ، وتكون الوزارة مسئولة أمامه وهو مسئول أمام الأمة ، وجعل مفتشين من الأوربيين لتأمين الدائنين على ديونهم أحدهم على الايرادات والثانى على المصروفات ، والتعهد بالقيـــام بتسديد الديون بتمامها وقت استحقاقها بضمان أموال وأملاك المجتمعين ، مع تأدية ٥٪ فائدة واستهلاك ١٪ من الاصل وتسديد الناقص عن المستحق وقدره مليون جنيه ، وبحفظ دين الروزنامة بنـــاء على القانون المختص به ويدفع عندما تسمح ايرادات الحكومة ، وأن تبقى المقابلة مع امتيازاتها على حالها ورفض أية ضرائب جديدة ٠

ووقع على تلك اللائحة ستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الأعيان وسبعون من الموظفين وعدد عظيم من ضباط الجيش قدر بما لا يقل عن تسعين ، بالاضافة الى العلماء والتجار والموظفين وعرضت على اسماعيل فاستصوبها وأمر بترجمتها وأرسلت الى قناصل الدول (١) .

وبعث بصورة الى السلطان لتدعيم موقفهم وامكانية حصولهم على صبغة الشرعية لمطالبهم بضم صوت السلطان اليهم .

وأرسل لاسلز تقريرا الى حكومته ينسب ما تم الى الاثارة الدينية ضد الوزارة الأوربية ، وانه أعلن في المساجد أن رياض باشا صديق للمسيحيين وانه حذر من البوليس بأن حياته مهددة ، وكان من أثر ذلك سفر رياض لأوربا وتركه لمصر ، ويصور فيفيان العداء الظاهر للأوربيين فيقول لوزير خارجيته « ان الصلوات تقام في كل مساجد مصر وتدعو بالتخلص من الأوربيين الطغاة » (٢) .

ومما لا شك فيه أن اسماعيل كان راضيا كل الرضا عن هذا الوضع الجديد ، فقد صرح في ٧ ابريل ١٨٧٩ باجتماع له بعابدين ضم القناصل والأتراك الدستوريين والمويلحي وبعض أعضاء آخرين للمجلس والشيخ البكري بأن للأمة حقا في تولية وعزل حكامها وان الواجب هو قبول اللائحة الوطنية التي أجمع عليها ، وأعلن عزمه على تأليف وزارة وطنية وسن قانون مالي جديد .

واستقالت الوزارة الأوربية الثانية وتالفت وزارة شريف الوطنية ، وأيقنت الأمة أن لديها القوة التي لم تمارسها من قبل .

ولم يكن ما تم وقفا على طبقة معينة دون الأخرى بل هي طلبات الأمة جميعها ، فالالتحام كان واضحا وقد أبان القنصل الانجليزي عقب مقابلة له مع شريف أن الاستياء وعدم الرضا ليس قاصرا على فئة معينة بل انه يعم جميع الطبقات التي ربط بينها ذلك القسم على التعاون للوقوف امام التدخل الأوربي (٣) .

وكان ذلك نقطة انطلاق وانتصار للحركة الوطنية للوقوف أمام القوى المضادة ، وتناست الاختلافات من أجل الدستور ، وأقرت وزارة شريف

---

(١) Affaires etrangeres, LXXX, 5 Mai, 1879, pp. 170-172.
الوقائع المصرية ، عدد ٨٠٦ في ١٣ ابريل ١٨٧٩ .

(٢) F.O., 78-3000, Political, no. 176, 273, May 10, 1879.

(٣) Commons, Vol. CCLXXII, p. 1704.

استمرار مجلس شـــورى النواب ، وفى ١٠ أبريل ١٨٧٩ اجتمع المجلس ليناقش مواد الدستور الجديد وذلك بعد أن قدم شريف للمجلس نصوص الدستور ولائحة الانتخابات للمناقشة فيها وتعديلها أو اقرارها ، وجاءت التشريعات مماثلة لما هو جار لدى الدول الراقية ، وبناء على ذلك أحـــق للمجلس الاقرار التشريعي فصـــار مناصفة بينه وبين الخديو وأصبح له الاقتراع على الثقة بالوزارة ، ورفع عدد النواب الى ١٢٠ نائبا وجعـــل الانتخاب على درجتين فوسعت دائرته ومنح النواب حق الحصانة البرلمانيه ، وكان ذلك نتيجة لأول وثبة حـــركة وطنية مصرية ، وأصبح المجلس على أســـاس أكثر ديمقراطية ، فله الاشراف على المصروفات وفرض الضرائب وتقرير الميزانية كما أن فصل السلطات بدا واضـــحا فلا تجتمع وظيفة النظارة والنيابة فى شخص واحد ، وعـــدم قبول موظفى الحكومة ضمن أعضاء المجلس •

أفقد هذا انجلترا رشـــدها ، وراح قنصلها يطالب بضرورة وجـود الوزيرين الأوروبيين ، ويرفض الخديو ويبين « ان هذا أمر نزعت اليه الأمة بجملتها ورأت فيه صلاحها » ويرد عليه البكرى باصرار وثقة بل وتحد فى أحقية مصر بالشورى « وان ليس لأى أجنبى أن يتحكم فيها » (١) •

ومضت التعبئة للشعور العام ، فعقدت الاجتماعات تلك التى ترددت فيها الخطب عن الحرية والديمقراطية • وبذلك ســـيطر الوعى والادراك والأبعاد السياسية على تلك العقول ، وقد ساعدت الصحافة على هذا الايقاظ « فجميع الذوات والأعيان علموا ما لهذه الجرائد من الاهمية وأدركوا أن المطالعة أفيد الأشياء ، فنزعوا الى الاشتراك فيهـــا واهتموا بمطالعتها أو ينتظرون ورودها بفروغ الصبر ، ويجتهدون فى رواج سوقها غير آسفين على أربعة أو خمسة جنيهات قيمة الاشتراك فيها » (٢) •

لكن لم يكتمل الانتصار ، وكان واضحا أنه لابد وأن تقف انجلترا وفرنسا أمامه ، وانتصرا ، وخلع اسماعيل وتولى توفيق لتكون النتيجـــة الطبيعية رفض الدستور الوطنى ، واستقالت الوزارة الوطنية عقب الرفض ، وتعطلت الحياة النيابية واضطهدت الصحافة ليستمر الكفاح •

الحزب الوطنى والعمل السياسى :

تبلور الرأى العام ونضج الوعى السياسى فى عهد اسماعيل وأســفر عن تعدد النشاطات التى كان من بينها الجمعيات بأنواعها التى استطاعت

---

(١) مرآة الشرق ، عدد ٢٤ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ •

(٢) صدى الأهرام ، عدد ٦٠١ فى ٨ ابريل ١٨٧٩ •

فى النهاية أن تنصب فى قالب واحد عرف باسم الحزب الوطنى ولم يكن حزبا سياسيا بالمعنى المفهوم ، فقد كان الحزب الوحيد بينما الأحزاب السياسية تعنى الاختلاف على طرق الحكم ووسائله وأشكاله فى الدولة الواحدة ، انما هنا فى مصر فى ذلك الوقت كان هيئة شملت ملتقى الاتجاهات والمصالح المختلفة لكنها فى النهاية حافظت على شكل الوحدة الوطنية ، وتعددت قوى ذلك الحزب ·

شملت قوة الأتراك الدستوريين أعداء المصريين لكنهم انضموا اليهم فى حركتهم الوطنية للوقوف أمام عدو مشترك هو الاوربيون · هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد طالبوا بالدستور للحصول على مزيد من السلطات حرموا منها بسيطرة اسماعيل عليها ، أضف الى ذلك نفسيتهم التى امتلأت حقدا من الاسرة المالكة حينما نظروا الى أملاكها الشاسعة من الجفالك التى هى من أجود أنواع الأراضى بينما تتمثل أراضيهم فى الأبعاديات ·

وعبرت هذه القوة عن نفسها فى شكل جمعية سرية فى حلوان ضمت شريف باشا وهو من أصل تركى ولكنه تمصر ويتميز بذلك الطابع الفرنسى الذى تدعم بزواجه بفرنسية ، وشخصيته محبوبة وسياسته وكفاءته خلقت له تلك الشعبية التى غمر بها ، فأثناء وزارته للحقانية والخارجية كان الوحيد الذى قاطع لجنة التحقيق الأوربية ورفض الحضور أمامها بل ورفض أيضا الاشتراك فى الوزارة حينما عرضها عليه نوبار ، ومن هنا اعتبر ممثلا للوطنية المصرية امام المصريين (١) ، هذا بالاضافة الى أفكاره التقدمية الحرة ونشاطه واتصالاته مع الوطنيين ·

وكان شاهين باشا من ضمن أعضاء الجمعية وهو من رجال اسماعيل ، وكان له دور الوساطة بينه وبين أعضاء الحركة الوطنية ويكره النفوذ الأوربى ، وكانت له صلاته مع العسكريين ، واحتضن كل ما هو يناوىء الأجانب (٢) . وضمت الجمعية عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية وراغب باشا الذى فتح منزله للزعماء الوطنيين حيث اجتمعوا ووضعوا اللائحة الوطنية ·

أما عن زعماء الريف فقد كانوا غير راضين على التدخل الأجنبى والسلطة المطلقة لاسماعيل ، وقد رأينا كيف مثلهم مجلس شورى النواب أصدق تمثيل ، وكان الحرمان من العدالة خصوصا بعد ذلك التمتع الذى

---

(١) Biovès, A. : Francais et Anglais en Egypt 1881-1882, Paris, 1910, p. 29.

(٢) الكوكب المصرى ، عدد ٦٢ فى ١٦ يوليو ١٨٨٠ ·

تمتع به ملاك الأراضي من الأجانب ، فهم لا يدفعون ضرائب ، معتمدين على الامتيازات والمحاكم المختلطه التي كانت في جانبهم ، وهم المالكون لوابورات حليج القطن ، ورؤوس أموالهم تتدفق على الريف المصرى للاستثمار فى الزراعه على حساب مصالح كبار الملاك المصريين جعلهم يسعون الى التغيير لهذه الأوضاع ٠

وكانوا ينظرون أيضا الى أملاك الأسرة والأتراك التى تتوسع أكثر من ممتلكاتهم وليس فقط في المساحات ولكن أيضا نوعية الأراضي وخصوبتها ، وما أصابهم من جنون اسماعيل فى امتلاكه للأراضى التى راح ينتزعها من أصحابها الملاك ، وكان ولسون قاسيا عليهم فأزاد من الضريبه على الأراضي بأنواعها ، كما أن عمليه حصر الزمام لتوزيع الضرائب قد ضايقتهم ، حيث كانت هناك أراض غير مدرجة ولا يدفع عنها ضرائب ، وبالحصر أصبح لزاما عليها الدفع ، ذلك في الوقت الذى فقدت فيه الارض كثيرا من قيمتها ، فقد وصل سعر الفدان ٢٨ جنيها بعد أن كان سعره ٦٠ جنيها (١) ٠

كان على رأس تلك القوة سلطان باشا ، وهو أول طبقة الملاك صعودا الى أسمى مراتب الادارة ، وكانت نفسه تمزقها شهوة الجاه والعظمة ، ازاد من أملاكه حتى أوصلها ١٣ ألف فدان تارة بالانعامات وأخرى بالشراء (٢) ٠ وهو من أصل بدوى وصل الى وظيفة عمدة زاوية الأموات ثم عين ناظرا لقسم قلوصنا ثم وكيلا لمديرية بنى سويف ثم مديرا للغربية وأعقبها مديرا لأسيوط ، ثم مفتشا على جفالك المنيا وتوابعها ٠

وصل سلطان الى تلك المراكز لكفايته الادارية ولولائه للسلطة ، ولمكانته بين الفلاحين التى خلقت له سمعة طيبة ، فكان أثناء مروره على التفاتيش يشتكى له أهاليها مما اصابهم من الظلم فيعد بالاصلاح ويريح من خواطرهم ويكفي الراحة النفسية بأن يجد الشاكى من يستمع اليه ، وأحيانا كان يقوم ببعض اجراءات المعاونة ولو انها بسيطة الا أنها أعطته ذلك الحب من الفلاحين ، وذاع صيته وغدا يلقب بملك الصعيد ، وأساءه الطغيان الاسماعيلي والسيطرة التركية والتسلط الأوروبى وأشفق على فلاحي مصر ، وحمل له الأتراك الكراهية وهذا أمر طبيعي فهو مصرى راح يزحف على المناصب التى يحتلونها ، وسرت تلك العدوى الى اسماعيل الذى كان يستاء من أى نفوذ لغيره ، فأصدر أمرا بنفيه الى السودان ، ولكن تدخل توفيق في الوقت المناسب فعاد سلطان ليتنقل فى الوظائف بعد أن حنق على الخديو وازدادت رغبته فى المزيد من السلطة ومن هنا راح يعمل ٠

---

(١) Malet, S.E. : Egypt 1879-1882, London, 1909, p. 301.

(٢) Bear : op. cit., p. 24.

والتقى الجناحان الممثلان لكبـــار ملاك الاراضى ، الاتراك والمصريين الأول يمثله شريف والثاني ويمثله سلطان فكان لهما تأثيرهما في حـــركة المعارضة القوية التى انتابت مجلس شورى النواب وانضـــم العسكريون بجمعيتهم السرية وسلاحهم ، والمثقفون بفكرهم ليلتقوا جميعا على حقـــل العمل السياسي ويتطابق الشكلان المدنى والعسكرى في الحزب الوطنى ، وأصبحت الصحافة وخاصة « مصر والتجارة » لسان حاله ٠

وازداد نشاط العنصر المصرى كل يعمل فى منطقته فهناك ســـلطان وسليمان أباظة وحسن الشريعي وعبد الله فكرى وعرابى الذى أصـــبح له اسما وشعبية سواء فى الجيش أو فى الشرقية وزاع صيته كوطنى حر ، وكثرت اللقاءات وتكثفت الاتصالات في السنوات الاخيرة من حكم اسماعيل في وقت لم تكن أوروبا تحلم فيه بوجود تلك الحركة الوطنية فى مصر ٠

وأمام تلك القوة ، رأى اسماعيل كعادته الاستفادة منها أمام توسع السلطة الأوروبية فيقول نينيه : انه دخل معهم سرا في مفاوضات بأن يعترف بهم كحزب وأن يضع نفسه على رأس الحركة على ان توجه ضـــد التدخل الاجنبى وان يتم الاتحاد على تصفية الديون (١) ٠

كان اسماعيل فى نفس الوقت يخشى الحزب وخصوصا بعد أن اتسع مداه وبعد أن ضم جمع القوى الثائرة على الأوضاع وبعد أن أصبح له ذلك التأثير القوي والعنيف فيالمجتمع ، وكان يكفى وضع شعاره «مصر للمصريين» ليدخل تحت لوائه شعب مصر أجمعه ، لذا رأى اسماعيل أن يحابيه ويدخل في حلف معه ، وقد أكد القنصل الانجليزى لحكومته بان لاسماعيل نصيبا في تلك الحركة الوطنية (٢) لكن يجب أن يؤخذ ذلك الرأى بشيء من الحذر وخصوصا ان الحزب لم يكن ليميل لاسماعيل اطلاقا بل كان من اساسيات وجوده اسقاط سلطة اسماعيل ، وعندما عزل اسماعيل على أيدى أوروبا سعد الحزب بذلك العمل حيث وافق هواه ٠ وبذلك يتضح ان الاتجـــاه الوطنى الذى تزعمه الحرب الوطنى كان يرمى الى خلع اسماعيل لكن الخارج سبق الداخل وأتمت أوروبا الأمر على يدها ، وهذا مما أساء الحزب الذى كان يريد أن يقوم هو بتلك المهمة منفردا ٠

واستقبل الحزب الوطنى تولية توفيق بشيء من الأمـــل فى أن يتم الاصلاح على يديه ومعروف موقفه أثناء ولاية العهد ، ويحاول الحـــزب أن يكسبه بجواره ببيان مقاصده « ان الحـــزب الوطني لم يقم الا بالحق ولم يصدر الا عن الحزم ولم يأخذ الا بالحكمة ولم يقصد الا اخراج هذا الوطن

---

(١) Ninet : Origin of the National Party in Egypt p. 128.

(٢) F.O. 78-3011, political, No. 273, May 10, 1879.

من مهاوى الذل والفاقه والعناء » ويشير الحـــزب الى مجهوداته واتجاهاته لابعاد اسماعيل « فاجتمع روساوه فى العاصمه وتفاوضوا فى امرهم ثم تحالفوا على السعى والاستماته فى تأييد مبدا الحق ، فبثوا رسلهم فى انحاء القطر يستطلعون الاخبار ويستجلبون الافكار ويحلمون القلوب لرايهم غير مباليين بالاخطار المحدقه بهم ، وكانت جرائدهم وهى مصر والمرآة والتجارة تمهد بين أيديهم السبل وتبث فى الأنفس أنوار مبادئهم ليعلم اهل الوطن ألا سبيل الى انتعاش وطنهم من عثرة الشقاء ونجاته من ربقة العناء ووصوله الى غايه الراحه والهناء الا بتنازل الخديو وتوليه ولى العهد (١) » اذن ففى هذا أيضا دليل على موقف الحزب من اسماعيل ٠

لقد كان نشــاط الحزب متعددا وضــاعف أعضاؤه من مجهوداتهم وخصوصا الذين كانوا على صله مباشرة بالشعب ، وسرى فيهم تيار الافغانى الذى تأصل فى كيانهم وأصبح الجميع وحدة متكاملة الأهداف ، وكان من المنتظر أن يتعاون توفيق معهم لكنه تراجع عن جميع مواقفه السابقة وخضع للمراقبين خضوعا تاما،وأصبح رياض موكلا من الدولتين لتنفيذ سياستهما فى مصر وكسر الحركة الوطنيه وراح يطبق تلك السياسة ٠

وهنا بدأ عمل الحزب فى الخفاء ، وكل يعمل ويجد من أجل أغراضه ، لكن كانت الرابطه قوية بينهم ، وكثيرا ما كانت الاجتماعات تتم فى منزل سلطان ، وأوعز شريف وراغب وسلطان الى أديب اسحق ـ الذى نفاه رياض ـ أن يصدر صحيفة « مصر القاهرة » لتكون لسان الحزب الذى تعارض به رياض ، وقد كان يتم توزيعها بفضل مجهودات الحزب وبالرغم من سلطان رياض وأعوانه ٠

وفى ٤ نوفمبر ١٨٧٩ صدر أول منشور عن الحزب الوطنى طبع منه عشرون ألف نسخة ولم يعثر على ناشره أو كاتبه لكنه موقع بكلمة Aali والواقع أنه كان باتحاد بعض العسكريين كالبارودى وبعض الملاك كشريف وسلطان ، وهو أول بيان سياسى يصدر من حزب مصرى ٠

وفى هذا البيان تتحدد طلبات الحزب ، فهو يندد بالحكم القائم ويهدد بأن الشعب لم يعد يقبل الاستبداد ، ويرفض أى تدخل أجنبى أو وجـــود وزراء يمثلون نفوذا أجنبيا ، ويرى انقاذ مصر من أيديهم حيث أن أكثر من ٦٠ مليون جنيه من ديون مصر ضاعت مع الوسطاء ، وأن تشرف مصر على ماليتها وتتعهد بسداد الديون التى تحول الى دين موحد بفائدة ٤٪ ، وأن تكون هناك رقابة دولية مؤقتة للاشراف على أرباح الدين ولا يكون لها سلطة

---

(١) مصر » عدد ٥٢ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ ٠

التدخل ، ورد أملاك الخديو الى الدولة ، والنهـــوض بالشعب عن طريق التعليم ، ومعرفة حقوقه وواجباته (١) .

وقد أراح ذلك البيان الأمة التى كانت تموج بالاستياء ، وأشعر أن بمصر قوة ستعيد نفسها بنفسها وستحررها من كل القيود التى فرضت عليها ، وراح رياض يبحث ويهدد لدرجة أن البعض من أعضاء الحزب احتمى بالحماية الأجنبية .

كان هذا الشكل السياسى الذى اتخـــذته البورجوازية المصريه ، اما الشكل الاقتصادى فلم يتعد أكثر من غيره وطنية لاسترداد المصـــالح الاقتصادية من أيدى الدائنين الأجانب .

عقب تقديم اللائحـــة الوطنية تحمست النفوس لاستغلال الرأسمال الوطنى فى تخليص ديون مصر وذلك بمساهمة أعيان الأمة بالاكتتاب بمبالغ وافرة ، وفتح المجال لمن يريد من المواطنين أثناء تلك الاجتماعات التى كانت تقام فى منزل راغب باشا (٢) .

وكان أمين شميل قد حث أغنياء مصر وقدم مشروعا خاصا بانشاء بنك أهلى رأســـماله ١٤ مليون جنيه تدفع من البلاد دون اكراه فى مدة ثلاث سنوات على ستة تقاسيط ، ويكون أحكامه أن يشترى بنصف رأســـماله وأرباحه قراطيس حكومة أما النصـــف الثانى فيستخدم للأشـــغال التى تستلزمها البنوك وتكون فوائد المشروع جعل الدين وطنيا وانتظام تجارة البلاد وتعديل الفوائد وانهاء دين مصر فى ٢٨ سنة (٣) ، وقد نوقش ذلك حيث كان التفكير منصرفا الى التخلص من الديون بأية وسيلة ، وشجعت الصحافة هذا الاتجاه وفى تلك الأثناء حدثت محـــاولات من الرأسمالية الزراعية بزعامة سلطان وعمر لطفى فعقدت الاجتماعات لدراسة فكرة انشاء بنك وطنى ودعى الوجهاء والأعيان للاشتراك فيه ونشر بيان « انماء المال » بصحيفة التجارة أوضح فيه بأن المصريين يخافـــون من استثمار أموالهم معتمدين على التراث القديم بنماذجه وبين فضل الشركات فى الغرب وخاصة المالية وهى البنوك « ففيها تستثمر الأموال المدخرة ، وفيها يقترض صاحب الحاجة لأن المال أساس الأعمال » وهاجم الأجانب وتحكمهم فى الاقتصـــاد المصرى وضرورة العمل على انقاذ الأراضى المرهونة من أيديهم (٤) .

---

(١) Ninet : op. cit., p. 131. ، سليم نقاش : مصر للمصريين ، الاسكندرية ، ١٨٨٤ ، جـ ٤ ص ٧٩ .

(٢) الوقت ، عدد ٦١٩ فى ١٧ مايو ١٨٧٩ .

(٣) صدى الأهرام ، عدد ٦٠٠ فى ٧ ابريل ١٨٧٩ .

(٤) التجارة ، عدد ٢١٩ فى ١٥ ابريل ١٨٧٩ .

اذن فقد كان هناك ادراك لضرورة تحرر مصر من السيطرة الاقتصادية الأجنبية وبناء الاقتصاد المصرى على أيدى المصريين ، حقيقة لم يتم ذلك فى هذا الوقت لكن كاتجاه واحساس بما تعانى منه مصر كان خطوة وطنية ٠

مواصلة سياسة الضغط على ملاك الأراضى :

كانت أكبر ضربة قاســـمة استطاع رياض أن يوجهها لملاك الأراضى والتى أكدها قانون التصفية فى ١٧ يوليو ١٨٨٠ هى الغاء المقابلة ، وقد ظهر طوال جلسات مجلس شورى النواب ذلك العزم القوى وتلك المعارضة على الغاء المقابلة حتى لا تضيع تلك الانتصارات التى حققوها عن طريقه ، وكانوا جميعا قد دفعوها عن أراضيهم منذ عام ١٨٧١ سواء بالاختيار أم بالاجبار ، وذهبت كما ذهب غيرها من الأموال فى مهاوى المصارف ولعبت بها أيدى الاسراف ٠

ففى ٦ يناير ١٨٨٠ صدر الأمر العالى بالغاء لائحة المقابلة ، واعادة أموال الأطيان الخراجية والعشورية الى قيمتها التى كانت عليها قبل الحصم الناشىء من دفع المقابلة ، فعمل ذلك على اشتعال ملاك الأراضى وجاء قانون التصفية ليظهر التحيز لأصـــحاب حملة السندات على حساب المصريين ، وبمقتضى المادة ٨٩ قرر دفع مبلغ ١٥٠٫٠٠٠ جنيه ســـنويا لتوزيعه بين الملاك على نسبة ما لكل منهم ، وقرر قيده فى الأوراد ليخصم من الضريبة العقارية وذلك فى مدة خمسين عاما (١) ٠

أثار ذلك ثائرة الملاك ليس فقط ضد رياض ولكن أيضا ضد المراقبة الأوربية التى تسعى منذ وقت لتحقيق ذلك ، وأخيرا كانت لها اليد الطولى فى الغائها ، هذا فى الوقت الذى كانت ترى فيه خدمة مصالحها على حساب المصريين ، فقد عينت الموظفين الأجانب بأعلى المرتبات وهى تعلم اذن أن ذلك سيكون له نتائج وخيمة ، فقد وضع ولسون فى كتاب له لوزير الخارجية « بأن ما دفعه الملاك الذين هم دائنون للحكومة سيسبب حركة تسيطر عليها الكراهية ضـد التصفية وان هذا سيترتب عليه ارتباك (٢) » وانهالت الشكاوى تعترض على ذلك الالغاء ، وتزعم لواء المعارضة حسن موسى العقاد وهو من كبار ملاك الأراضى الذى تقدم بتقرير الى لجنة التصفية معترضا فيه على ابطال ذلك الامتياز مستندا الى تلك الحجج التى أعطيت لأصحاب الأراضى والتى تعتبر بمثابة عقد لا يجوز فسخه الا برضا المتعاقدين معا ، وان الأهالى فى ســـبيل دفع المقابلة قد تحملوا بالديون الثقيلة وباعـــوا من أملاكهم

---

(١) جرجس حنين : الأطيان والضرائب من القطر المصرى ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ١٩٠٤ ، ص ص ١٠١ ، ٥٣١ ٠

(٢) Egypt No. 1, (1881). p. 9.

ومصوغات نسائهم أملا بالامتياز ، وكيف يسوغ للحكومة ارتكاب مثل هذا الخطا ، وهل من منصف يحكم بأن اى الحكومين أشد استبدادا ، ثم طلب من اللجنه ان تحصر ما على الاهالى من الديون وما ذهب من املاكهم فى تلك السنين الاخيرة ، حتى تعلم انهم وصلوا الى حالة سيئة جدا ولا سبب لهـــا سوى كثرة الضرائب وثقل المقابله ، وان عليها أن تقيم حدا فاصـــلا بين الحكومة والاهالى يمنعها عن استعمال الاستبداد فيهم حفظا لأموال الدائنين ، وان لم يبق الامتياز فيجب ان ترد الحكومة جميع المدفوع الى أربابه بحيث لا يسرى قانون الالغاء الا بعد أن تصل الأموال اليهم ٠

ونشرت نسخة من هذا التقرير في جريدة «لارفورم» ورفضت لجنة التصفيه قبوله وبعثت به الى الداخليه ولم يكتف العقاد بذلك بل عدد مثل ذلك التقرير ووقع الكثير عليه وشاع ذلك واشتهر وبعث برسائله الى جميع الجهات لدعوتهم الى هذا الأمر بكل حرارة «و كان منزله يغص بالمعارضين، جاءوا جميعهم لكى يدلوا بأصواتهم ضد تصرفات رياض ومراقبيه » وتشهد عليه جماعه بأن الذين ختموا فى بيته كانوا من المجاورين بالازهر وأبناء البلد وعمد النواحى والفلاحين ، وانه رغب من ليس لهم أطيان بأنه سيعطيهم من ملكه فى المستقبل ٠ اذن حركته هذه لم تكن من أجل مســـأله المقابلة فقط بل كانت لها أبعادها الاجتماعية الأخرى ، وبذلك أمكن له أن يوحد الجهود ويضم القوى ويعمل ضد الحكومة والمسيطرين عليها ٠ فحكم عليه مجلس ابتدائى مصر بسنتين ولكنه استأنف الدعوى وقال « كون الحكومة مستبدة فهذا أمر ليس خفيا يوجب المعاقبة ، فان حقيقة الاستبداد ان تكون الأحـــكام بدون اســـتشارة النواب وهـــذا محقق » فتقـــرر نفيـــه الى فيزوغلى (١) » ٠

كان تقرير العقاد أول بيان ثورى أمضته فئات الشعب ، وجـــاء فى مناقشـــات مجلس الوزراء بأنه متداول بين الناس جميعها ، وعثرت عليه عيون الحكومة بين أيدى العسكريين ، ولم يكن بيانا مفردا ، فقد اعترف دى بلنيير ان هناك غيره ومماثل له قد قدم للتصفية بل لقد وصل بعضها الى التهديد باستعمال السلاح ، وأعلن بارنج ان العقاد ليس المذنب بمفرده بل كثيرون مماثلون له فى الذنب ، وان هناك جملة ذوات متداخلين فى هذه الحـــركة ، وكان شريف قد قدم للجنة التصـــفية تقريرا يطلب فيه تأمينات دستورية (٢) ، وواضح أيضا ان المعارضين هم الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى ٠

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٩٧٠ فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٠ ٠

(٢) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/ج ، محضر ٢٢ مايو ١٨٨٠ ٠

وصدر المزيد من الأوامر لمأمورى الضبطية ولمفتشى البوليس « لملاحظة أرباب الحركات مع النيفط» وكثرت الاعتقالات وامتلأت السجون ، وتركزت سياسة رياض على المركزية الاقليمية المطلقة تلك التى أعطاها للمديرين الأتراك ٠

لم يغبن ملاك الأراضى فى المقابلة فقط بل أيضا فى دين الروزنامة والذى دفعوا فيه ما يقرب من أربعة ملايين من الجنيهات على شكل سندات بفائدة ٩٪ وقد أجبروا على دفعها مثلما حدث مع المقابلة ، وقد أهمل قانون التصفية تلك الأموال وأصبحت لا قيمة لها « فلا غرو أن قوبل صدور قانون التصفية بالسخط والاستياء وكان من أهم أسباب قيام الثورة العرابية (١) » ٠

وصاحب تلك السياسة ضغوط أخرى مالية ، فقد مضت السياسة الضريبية للمزيد من الأموال ، فأجبر الباشوات على دفع الضرائب بعد أن كانوا يسوقون فيها فقد كانت أراضيهم عشورية لم تفرض عليها الضرائب العالية رغم خصوبتها ، لكن كانت الامتيازات التى حصلوا عليها أن يدفع البعض ضريبة رمزية والبعض ضريبة ضئيلة ، وعندما فرضت عليها حكومة رياض والمراقبة الضرائب كانت النتيجة الغضب الذى سرى بين الملاك ٠

وشكلت لجان مخصوصة تناط بتحقيق وجود العقارات الكائنة بكل جهة ، ومعرفة الأطيان المنزرعة والتى بدون زراعة والمؤجر منها وغير المؤجر ومقدار ايجاره ، وجمع كافة الأوامر واللوائح المتعلقة بتقدير ضرائب الأطيان ، وذلك من أجل ضبطها وحتى لا يتهرب أحد من آدائها ٠

وبعد الغاء المقابلة زيد مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيها ضريبة على الأراضى العشورية ووزعت على جميع تلك الأراضى ، وانبث أصحاب الجباية يعيثون فى البلاد لجمعها ٠

وكانت الأراضى العشورية وحتى عام ١٨٨٠ غير مدرجة فى حسابات الصيارف ، وكان أصحابها يدفعون العشور ــ ان دفعوا ــ لخزانة المديرية أو المالية ، ولكن رياض قرر « الحاق حسابات الضرائب العشورية بأعمال صيارف البلاد ودرجها بحساباتهم وبأوراد الممولين والزام اعلان الذوات وأرباب الأباعد وما يماثلهم بذلك (٢) » ، ومثل ذلك تحديا من رياض لملاك الأراضى ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، مطبعة النهضة ١٩٣٧ ، ص ٥٤ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٥٧ فى ٢٤ فبراير ١٨٨٠ ٠

وكانت قد صدرت أوامر المالية لتحصيل المتأخرات من الأموال المطلوبه من جميع أرباب الأطيان عن سنوات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٨٧٩ ، وفرضت العقوبات على من يتوانى فى ذلك « ومن يتأخر يعامل بحجز وتحصيل ايجار أطيانه ان كانت مؤجرة أو حجز وبيع محصولاتها ان كانت منزرعة ويجرى بيعها بالمزاد (١) » وتم فعلا تنفيـذ ذلك فقد استحوذ على أراضى بعض كبار الملاك نظير تأخرات عليها ، وجرى بيعها لمن يسدد عليها ديون الميرى ، وشدد على زراعة الدخان التى كان يميل اليها الملاك للمكاسب التى يتحصلون عليها منها فحرمت الا باذن من الحكومة وجعلت ضريبة الفدان ٦٠٠ قرش بخلاف المقرر على الأرض وصدرت الأوامر بتفتيش الأراضى (٢) ٠ وأصبح الباشوات يتحسرون وبحرارة على وقت هنائهم الذى مضى ، والذى كونوا فيه تلك الثـــروات وقت أن كانوا متمتعين بالامتيـــازات ومحميين من العقـــوبات ٠

وجاء ابطال رياض للسخرة ـ وان كان ظاهريا ـ ليزيد ملاك الأراضى ثارة عليه ، فقد كانوا يطبقون هذا النظام بكل قوة وجبروت على الفلاحين فى الوقت الذى كانوا لا يدفعـــون فيه البدلية للعمـــال الذين يعملون فى أراضيهم ٠

وكان من نتائج ذلك كله تأزم الأوضاع لملاك الأراضى وســـوء حالتهم المالية فالتجأوا لرهن أراضيهم وتصف الوقائع ذلك بقولها « بعض أعيـــان بلادنا رهن أرضه الزراعية الخصبة على ٢٥ ألف جنيه يدفعها فى خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور ، وهذا ذل الدين وأثقاله اذ رسم على الذوات أن تكون فى قبضة الدين » (٣) وأصبحت الأراضى الزراعية مثقلة بالديون والرهونات ، ومن هنا أصبح كثير من الملاك يئنون تحت هذه الظروف بعد أن وجدوا أنفسهم مثقلين بالديون التى ألجأتهم للبيع ، وفى أحد التقارير يبين طلبة عصمت بأن « ملاك الأراضى المصريين قد باعوا أراضيهم » ويؤكد فيـــه على فهمى بأن « الفقر ســـاد حتى على المالكين ولم يبق شىء فى يد مصر (٤) » ٠

من أجـــل ذلك كله اشترك ملاك الأراضى فى الثورة بعد أن وصلت حالتهم الى أقصى درجة من التبرم والاستياء ، ورغـــم ضغوط رياض التى لمسناها الا أن النشاطات مضت فى ممارسة العمل السياسى الذى وضـــع

---

(١) نفس المصدر ، عدد ٨٣٢ فى ١٩ اكتوبر ١٨٧٩ ٠

(٢) نفس المصدر ، عدد ٨٤٦ فى ٢٣ يناير ١٨٨٠ ٠

(٣) نفس المصدر ، عدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ ٠

(٤) مجلس الوزراء ، محفظة ٣٨ ، مجموعة ٤٧ حربية ، تقرير ٠

اطارا اجتماعيا على ما كان يقوم به ، فقد انضم الملاك الى الجمعيات القائمه ، كما شكلت لجنة من سلطان باشا وأحمد بك حمدى ومحمد بك مقبل والسيد أحمد أفندى بسيونى وأعضاء الشيخ على الليثى وابراهيم اللقانى والشيخ على نايل وعبد الفتاح بك رحمى ومحمد أمين بك ومحمد بك الشواربى ويعقوب بك ، ووصل أعضاؤها من كبار الملاك الى أربعين عضوا ، وانضم اليها البارودى وزير الاوقاف وعلى الروبى رئيس مجلس المنصورة وأيضا معاونين وعمد ، وكان الهدف العلنى أمام الجميع منها هو النهوض بالتعليم ورعاية الحقوق الانسانية (١) وواضح من الأسماء أنهم المشتركون فى الثورة .

العمد والمشايخ :

يمثل مشايخ القرى حلقة اتصال بين الحكومة والفلاحين لما لهم من مركز اجتماعى تكون على مر الأيام فى القرى ، وقد تمتعوا بمكانة ادارية منذ عصر محمد على وخصوصا بعد منحهم أراضى « مسموح المشايخ والمصاطب » ، وامتدت سلطاتهم على الفلاحين ، فأثروا على حسابهم ، وكانوا كلما ضغطت الدولة عليهم ضغطوا بدورهم على الفلاحين ، وقد ألقى عباس عليهم مسئولية جمع الضرائب واعادة الفلاحين الهاربين واعداد المطلوب للسخرة والجهادية ، وأشرفوا على الزراعة ، وكان عليهم دفع التعويض لما يتلف للميرى «فقد ألزموا بدفع أموال وتقاوى البرسيم من أجل المواشى الأميرية أكله الدود (٢) » ، وكان سعيد قاسيا على المشايخ فحد من سلطتهم وجعلها تحت سيطرة الحكومة ، وفرض عليهم تقديم أبنائهم للجهادية بعد أن كانت قاصرة على الفلاحين ، ووحد بين المسلمين والأقباط فى هذه المسألة ،كما منع عنهم تحصيل الضرائب التى أوكلها الصيارفة ، وأصدر القوانين التى حدت من ثروتهم ، وفرض الضرائب على أراضيهم .

جعل سعيد بجانب المشايخ فئة جديدة من كبار الملاك وهم العمد ، ولم يكونوا متميزين عنهم الا فى انتخابهم وتخيرهم لأقوى العناصر الريفية نفوذا وثراء مع قصر وظيفة الشياخة على من يلى هؤلاء فى المركز الاجتماعى ، وأصبح أغنى من فى القرية هو شيخها ، وأغنى الشيوخ يكون عمدتها الذى كان يعرف القراءة والكتابة .

وأعطى اسماعيل العمد كافة السلطات التى أوصلتهم الى أعلى قمة

---

(١) الوقت ، عدد ٩٤٣ فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨٠ ، عدد ٩٤٩ فى ٨ اكتوبر ١٨٨٠ .

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ٤٢ ، دفتر وارد معية تركى ، ترجمة الوثيقة رقم ٧٦٨ فى ٢٠ ربيع أول ١٢٦٥ . (١٨٤٩) .

النفوذ فى الريف ، فأنيط بهم تصنيف الارض وتقيمها ، وبناء على رأيهم يتقرر نزع الاراضى للمنافع العـــامة ، ويقدرون الضرائب على اطيان الميرى المباعه للافراد ، وعليهم تقديم الفلاحين للتجنيد والسخرة (١) •

وبذلك أصبح العمد الحكام الطغاة للقرى ولكن طغيانهم كان اقـــل درجه من طغيان الباشـــوات ، وبحكم ذلك ازدادت املاكهم على حســاب الفلاحين ، فامتدت اطماعهم الى الاراضى التى ليس لهـــا ورثه والتى كان القانون يجعلها للدوله ، والى اراضى المتسحبين وذلك بعد الضغط عليهـــم الذى يجعلهم فى النهايه يتركون اراضيهم ، فقد مارســـوا مسألة اقراض الفلاحين ، وعند العجز يكون الاستيلاء على الأراضى ، هذا بالاضـــافه الى شرائهم اطيان الميرى ، وكان منهم من نال حظوة الانعام عليه بالاطيان ، كما ازدادت ثروة البعض عن طريق الاشتغال بتوريد البضائع لجهات الحكومة ، وعندما جاءت الحرب الأمريكية وكانت لها انعكاسات على الاقتصاد المصرى أكثروا من اقتناء الاراضى وقد أعطتهم اللوائح والقوانين الخاصـــة بتثبيت الملكية الفرصة للمداومة على ذلك •

وكان للعمده امتيازاته ، فهو يعفى من ضريبة خمســـة أفدنة من ممتلكاته ومن السخرة والجهادية عن نفسه وعن أبنائه ، وأمام الفلاح فقد كان العمدة قاموس القانون والسياسة ، فيمد مأمور المركز بالمعـــلومات ، ومعه من ٢٠ الى ٢٥ من الخفراء والحراس وذلك لحفظ أمن القرية ، وسلطته القضائية غير محـــدودة ويقول كرومر « عندما يعتلون الأرائك فى غرفة الديوان لاصدار الحكم كان الفلاحـــون يطيعون أوامرهم على الفور (١) » فحكمهم لا مرد فيه ، وفوق ذلك فهم يتمتعون بنفوذ دينى كبير بل ويتحكمون فى كل مظاهر الحياة فى الريف المصرى •

أما عن خضوع العمد والمشايخ للسلطات العليا ، فقد كان يتلخص فى الانقياد التام والطاعة لأوامر المديرين فى كافة المسائل فكانوا يعاقبونهم بالغرامة والسجن اذا تأخروا فى تنفيذ الأوامـــر ، واذا تكررت مخالفاتهم أوقفوا من وظائفهم ، ووصل الأمر أيضـــا الى فصلهم نهائيا وكان ذلك يتم دائما بسبب عـــدم استكمال الأنفـــار المقررة للجهادية ولعـــدم موافقة التعـــداد •

وكان أول مرة يظهر فيها النفوذ السياسى لهذه الفئة داخل مجلس شـــورى النواب ، فقد كان يتم اختيار هذا المجلس بمعرفة عمد ومشايخ القرى بالدرجة الأولى ، ومن بين أعضاء المجالس البالغ عددهم ٧٥ عضوا

---

(١) Cromer : op. cit., Bear : op. cit., p. 190.

(٢) Cromer : op. cit., p. 187.

كان هناك من ٥٨ ـ ٦٤ من العمد ، وذلك نتيجة للائحة المجلس التى قصرت حق الانتخاب والترشيح عليهم •

فقد أدرك اسماعيل أن مشاركة هؤلاء الريفيين فى حصة من الحكم وسيلة لا غنى عنها لتوطيد سلطانه ، وزاد من أهميتهم سماح اسماعيل لهم بتوليهم « منصب مدير » فبلغها البعض بالاضافة الى عدد من الوظائف الادارية الأخرى (١) ، وكان منهم من يجمع بين وظيفته الأساسية وبين « أمر جفالك ونظار زراعة » ، ومنهم من يجرى وراء مصالحه التجارية ويترك القرية وفلاحيها من أجل أن يحقق المكاسب •

أما عن التعيين فى مناصب العمد والمشايخ ، فقد كان أحيانا يستمر فى عائلة واحدة بالتعاقب الارثى وفى القرية الواحده كثيرا ما يكون هناك أكثر من عائلة تتنازع ذلك المنصب ، وكانت بداية التعيين ترشيحا من الحكومة ونهايته انتخابا يجرى تحت اشراف مأمورى الأقسام والمراكز ، وفى ابريل ١٨٨٠ صدرت الأوامر بانتخاب مشايخ القرى والبلدان بمعرفة الأهالى ، وأن يكون الانتخاب باكثرية الأصوات مع مراعاة أمرين الأول أن يكون الناخب عارفا بالقراءة والكتابة والثانى أن يكون مطلعا على القوانين والنظام (٢) •

ومن خلال السلطات الممنوحة لهم مارسوا الظلم على أوسع نطاق على الفلاحين ، مما جعلهم يلجأون للعمل لدى الذوات والأوروبيين أملا فى حمايتهم من شيوخ البلد ، فهم مصائب الفلاح الضعيف ولهم القوة والسطوة عليه وقد وصفتهم لائحة مصر الفتاة بأنهم « ظلموا الفلاح بما لم تسمع بمثله اذن ولم تره عين حتى ألف أكثرهم الظلم والجور وخلوا من الذمة والرحمة والأدب (٣) » •

كان عليهم تعداد النفوس لتعيين الضرائب التى ضغطوا فى تحصيلها مما اضطر الفلاحين لبيع أراضيهم وماشيتهم لهم للتخلص من عبء الضرائب ، وكان يحق للعمدة أن يسرق ويضطهد ويظلم بدون أن يحاسب ، بل أن المصاريف المتطلبة من القرية كانت تقع على عاتق الفلاحين ويعفى منها تلك الفئة التى وقفت بجوار الباشوات وساعدتهم ضد زارعى أراضيهم •

وبالنسبة لمسألة السخرة فقد كان العمد مسئولين عن تقديم

(١) بير : المرجع السابق ، ص ١٢٥ •
(٢) المحروسة ، عدد ٦١ فى ٩ ابريل ١٨٨٠ •
(٣) جمعية اتحاد مصر الفتاة : نفس المصدر ص ٧ •

العدد المطلوب من الفلاحين ، واستغلوا ذلك أحسن استغلال حيث فرضوا سخرة أخرى على الفلاحين للعمل فى أراضيهم فى الوقت الذى استحوزوا فيه على الرشوة لمن يرغب التخلص من السخرة العامه وقد ثقلت أكفهم من مادة الرشـــوة التى يستدرونها من الفلاحين الذين يرومون التخلص من السخرة .

وكان العمد والمشايخ ينجحون دائما فى استبعاد أهاليهم وأصدقائهم من سلك الجهادية ، وكثيرا ما كانوا يخفون أنفار سن القرعة وعدم درجهم بالكشوف المطلوبة وذلك فى نظير مصالحهم الخاصة .

أما عن دخول تلك الفئة فى فلك الحركة الوطنية ومساهمتها بكل ما تمتلك وتخليها عن طبيعتها السابقة ، وانخراطها فى تيار الثورة ، فقد أرجع ذلك الى ما عانته كشريحة من شرائح المجتمع الذى تعرض لقوى الظلم والاضطهاد هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الآمال والتطلعات التى سيطرت للمزيد من السلطة مع هذا التغير الجديد .

بدأ التذمر مع التحكم الأجنبى بنوعيه التركى والأوروبى ، فكثيرا ما كان يستولى على أراض يملكونها بسبب وقوفهم أى موقف معـاكس للسـلطة ، وفى الحـال يحكم عليهم « انهم مرتبكـون للأغلاط وتنتزع أراضيهم (١) » وكانت سلطة المديرين ووكلائهم - أتراك - تفوق سلطة الوزير على أعيان الريف من العمد والمشايخ ، فعندما شرع وكيل مديرية الغربية فى تحصـيل متأخرات ضرائب عام ١٨٧٨ ، أرسـل فى طلب المشايخ والعمد لدفع المال ، فجاءوا وشـكوا سـوء الحال وضيق اليد فاتخذ بعض الوسائل القاسية ، فضرب بعضهم وسجن الآخرين ، ووصل الأمر الى أن بعض العمد تحت حراسـة رجـال البوليس راحوا يشتغلون بتنظيف الشوارع (٢) .

وشرع أيضا نظار الأقسام ومأمورو المـالية فى اسـتعمال الضرب والاهانة للعمد والمشايخ .

وارتفعت اصواتهم للمعارضة عن طريق الشكاوى وخصوصا أمام تلك الظروف والاعبـاء المالية الصعبه فبدأت الترجمة الفعلية للكبت تظهر تباعا ، فنرى أنه عندما علم عمد ومشايخ مديرية الغربية بقدوم ولسون ذهبوا اليه على المحطة وتجمعوا فاضطر لتهدئتهم « وخطب فيهم على لسان الترجمان ما مفاده انه سيبذل جهده بتعديل الرسـوم ورفع

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤١ ، جماد أول ١٢٩٩ (١٨٨٢) .

(٢) التجارة ، عدد ١١٩ فى ٣ نوفمبر ١٨٧٨ .

المظالم ، ثم قال ومن وقعت عليه ظلامة فليرفعها الى بعرض ، فرفع اليه على الفور ٢٠٠ عرض تظلم » ، وتبعهم فى ذلك عمـد ومشايخ من مديرية المنيا وبنى مزار ، وتقول التجارة « قدموا إلى نظارة الاشـغال عرضا يدل على اتجاه أفكار الفلاحين الى الحرية ، وانهم قد اشتد أزرهم وتقوى عضدهم » (١) ٠

وانصبت المعارضـة فى التمرد على الأوضـاع وعـدم الرضا عن السياسة المالية وخاصة الضرائب ، فقد تعرضوا للضغط والاجبار على دفع المقابلة مع تجمع الظروف من رداءة المحصول ونفوق الماشية وتكدس الديون ، ويرفعون اصواتهم بأنهم لن يدفعوا حيث ان المال المعين فوق الاحتمال ٠ وأصبح لمجلس شورى النواب من الأهمية بالنسبة للأمة فقـد ابلغوا اعضاءه بضروره تخفيف الظلم الواقع عليهم وبذلك نرى المطالبة بالعدالة والنفور من عدمها والاحسـاس بوجود مندوبين يتكلمون وان كلامهم يجب أن يسمع ٠

ويستاء عمد ومشـايخ مديرية أسـيوط عـلى اعفـاء الأوروبيين وذوى الحمايات والذوات من الضرائب وخاصة المقابلة بل ويهددون ، بأنهم « اذا فرض عليهم ولم يفرض على المتمتعين بالامتيازات واذا صدرت الأوامر التى تقضى ببيع أطيانهم ومواشيهم اذا تقاعدوا عن الأداء ، فانهم لن ينقادوا لها ولا يسلمون فى بيع شىء من ذلك » (٢) ٠

فبعد ان كان العمد والمشايخ يسيرون فى ركب التعاون مع الحكومة فى سياسة الضغط لتحصيل الضرائب ما لبث الأمر أن فرضت عليهم وتزعموا المعارضة وهددوا بعدم تنفيذ أوامر الحكومة من ناحية وأيضـا باعضائهم فى المجلس الذين حذروهم من تقرير شىء يكون خارجا عن حد المساواة ٠

وأضحى لتلك الفئة الادراك الكامل والوعى التام فيقول عمـد ومشايخ بنى سويف « من المعلوم ان الدول لا تقوم الا برجالها ولا يستقيم شئون رجالها الا بالعدل ، ولقد علمنا من مطالعه الجرائد أحوال البـلاد البعيدة فلم نر فى أحوال الأمم أسوأ مما نحن فيه من حيث كثرة الضرائب التى لا تعرف لها أول ولا آخـر ، مع اضمحلال حالنا وتعطل أرضـنا واحتمالنا ما لا يطاق من العسف والجور » (٣) ، ويعنى القول بالافصاح عن عدم المقدرة لتنفيذ أوامر الحكومة ٠

---

(١) نفس المصدر ، عدد ١٥٣ فى ٢٣ ديسمبر ١٨٧٨ ، عدد ١٥٩ فى ٢ يناير ١٨٧٩ ٠
(٢) نفس المصدر ، عدد ١٦١ فى ٧ يناير ١٨٧٩ ٠
(٣) نفس المصدر ، عدد ١٧٠ فى ٢٠ يناير ١٨٧٩ ٠

وتبع ذلك انهم لم يكتفوا بهذا السلاح بل انهم زحفوا الى القاهرة وخاصة عمد الوجه القبلي ليعلنوا رفضهم لما وقع عليهم . وللاحتجاج على استعمال الضغط في تحصيل الضرائب ، وقد وصف ذلك مراسل التيمس في ٢٣ يناير ١٨٧٩ « لست مبالغا اذا قلت ان في القـــاهرة الآن مئات المشايخ يمثلون كل منهم قرية من القرى ، لقد جاءوا بمعوضات يســـألون فيها تخفيف الضرائب وكلهم يعلن انه لا يمكن بقاؤها على ما هي عليه . جموع محتشدة أمام أبواب النظارات حيث يعترضـــون النظار في غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقلام المصالح » (١) .

وبسؤال وفد عمد مشايخ ناحية دفنو بالفيوم والذى حضر للداخليه عن سبب حضوره كان الجواب للتشكى من مأمور تحصـــيلات المديرية « الذى أرسل حملة من الخفر نحو الخمسين نفرا وأذن لهم بالهجوم عـلى المنازل وجمع مواشيها والحريمات » (٢) هذا بالرغم من انهم جميعا مؤدون للضرائب لكنه كان يريد المزيد ، وعن سوء تلك المعاملة أرسل العديد من التراجي لرياض لكى يوقفها .

لكن ماذا قدمت حكومة رياض أمام ذلك كله ؟ لم تقدم شيئا بل زادت الأمر وبالا ، فامتلأت النفوس التى كانت على استعداد للانضـمام لركب مسيرة الثورة لو تفجرت في ذلك الوقت ، وكانت أحيانا ما تقوم بعض الحركات التى تنم عن تفريج بعض الكبت الذى بلغ مداه ، فبينما كان مأمور التحصيلات في مديرية جرجا يمر بجهات المديرية ، امتنع المشايخ عن دفع الضرائب له فقبض عليهم وأرسلهم مع عساكر المديرية لينالوا جزاءهم على يد أحد القواسين « وأوقف الأهالى المسيرة قسرا وخلصـــوا المشايخ وحبسوا من معهم » (٣) ، لكن ذلك لم يكن أكثر من اجـــراءات وقتية سرعان ما تنتهى أمام جبروت المسئولين ، كذلك ضاق العمد بضغط نظار الأقسام عليهم « عبد اللطيف افندى ناظر قسم برديس بمديرية جرجا يمتلك نحو ألف فدان وله وابور ثابت يزرع عليه قصبا وسواه ، وان ما يستلزمه من أنفار ومواشى لتحضير الأطيان ووقود للوابور ورأسمال للقصب طالب به العمد ، فضاق صدرهم وضجروا ولم يجدوا ســـبيلا للتخلص » واستمرت مسألة الاهانة والضرب مع رياض ، وأصـــبح كل شيخ يعاقب بالنيابة عن أهالى مشيخته « فالشيخ عطية رئيس مشيخة برج مغيزل ليس عليه شيء للحكومة بل على الأهلين في مشيخته بواق قدرها

---

(١) روتستين : المرجع السابق ، ص ٨ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٨٣٠ فى ٤ اكتوبر ١٨٧٩ .

(٣) الوقت ، عدد ٧٥٢ فى ٦ ديسمبر ١٨٧٩ .

٤٠ جنيها ، فطلب منه أن يدفع هـــذا المبلغ دون توقف ، ولم يكن فى استطاعته ذلك ، وألقى على الأرض وأخذوا يجلدونه حتى أغمى عليه فرفعوا الضراب وريثما أفاق أعادوه وجلدوه ووقع هذا بين محل المحافظة وحمر السواحل ولقاء المحكمة وشهد بذلك كثيرون من أهل رشيد » (١) ٠

وكان مأمورو المراكز يجبرون المشايخ بأعباء مالية اضافية لم تقررها الحكومة ، « فمأمور مركز منوف أجبر المشايخ على دفع ثمن أخشاب لزوم شبابيك للمحلات المقيم بها هو وخدمة المركز بدرك البحر ودفـــع أجرة النجار » (٢) ٠

كذلك أجبروا على استخراج أنفار فوق العـــدد المطلوب ، فقد اشتكى المشايخ لنائب القنصل البريطانى فى الزقازيق بأنهم أرسلوا ست شكاوى بشأن ذلك حيث أن مأمورى المراكز يستغلون الأعداد الزائدة لصالحهم(٣)٠

وتعرض العمد والمشايخ للاضطهاد على أيدى الباشوات الأتراك من كبار ملاك الأراضى ، الذين أذاقوهم الذل ، فتأصلت فى نفوســـهم تلك الكراهية لذلك العنصر ، فالباشا يعزل من يشاء منهم وخصوصا عنـــدما يكتشف ان العمدة يعمل لمصلحته على حسابه ، فتصدر اليه الأوامر بمغادرة القرية وعدم العوده اليها ٠ وعند حضور هذا الباشا الى القرية كان المشايخ يرتعدرن من وجوده ، فكم كان الأتراك يقسون عليهم ويستغلونهم لصالحهم وتعددت مسائل الغبن عليهم « أخذ مراد باشا حلمى ٨٠٠ فدان وكسور متروك الميرى لم يســـق لها زراعة ولما وجدها بهذه الصفة أحضر شـــيخ الناحيه (الكوم الأحمر بمركز سبك منوفية) وألزمه بايجار الأطيان مدة ثلاث سنوات عن كل ســـنة ٨٠٠ قرش للفـــدان وذلك بنوع المجبورية ولما أعرض عنها سجن ولده » (٤) ٠

وزاد من المشكلات وعقدها أن فرض عليهم بعد أن يسددوا ما عليهم من الضرائب أن يساهموا فى دفع ما هو مقرر عـــلى أطيان الذوات واضطهدوا من أجل ذلك بل وهددوا بالانتقام من أبنائهم ٠

وجاء قانون المقابلة وزيادة الضرائب العشورية ليضيف المزيد من الكراهية للحكومة والقائمين عليها ويسود السخط على التصفية ، وقـــد ساهم بعض العمد فى تقارير الرفض الموجهة ضد قانونها ٠

---

(١) نفس المصدر ، عدد ٩٤٩ فى ٨ اكتوبر ١٨٨٠ ، عدد ٩٣٣ فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٠٠

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٨ ، ٢٥ ذى القعدة ١٢٩٨ (١٨٨١) ٠

(٣) Egypt, No. 3 (1880), Inclosure 6, April 16, 1880.

(٤) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٧ صفر ١٢٩٩ (١٨٨٢) ٠

وازداد الحنق على رياض ، حتى أنه عندما ارتفع فيضان ١٨٨٠ وأخذ العمد يعملون على تقوية الجسور يذكر لنا الهلباوى فى مذكراته « ولما جاء المهندسون وعمال الادارة لحماية أرض رياض باشا أشار العمدة عبد اللطيف بك بترك الجسر القديم وعمل جسر جديد ، وبهذا العمل الذى قام على سوء النية غرقت ثلاثون فدانا من أرض رياض باشا وابتلعها ماء النيل » ويتابع عما أصاب العمدة « فانتهى الأمر بحبسه بناء على شكاوى كاذبة لفقها ضده » (١) .

وعانت أيضا هذه الفئة مثلما عانت بقية فئات الشعب من الأجانب وتسلطهم ، وكثرت بينهما المشاحنات والمنازعات التى دائما ينتصر فيها جبروت الأجانب وخاصة ملاك الأراضى الذين كانوا دائما هم المعتدين ، فعلى لسان أحد المشايخ بأنه كان جالسا أمام منزله لتحصيل أموال الميرى فى ١٣ ذى الحجة ١٢٩٧ (ديسمبر ١٨٨٠) الا ووجد أمامه الخواجة ينى كفدورى ومعه اثنان أحدهم يحمل بلطة والآخر بندقية « ولحد وصوله عندنا وهو راكب حصانه وبيده الكرباج أمر خدامينه انهم يحضرونى وبوصولى اليه ضربنى بالكف على وجهى بعد أن مسكنى من دقنى وصار يشتم ، وعندما قلت له يا خواجه نزل على ضرب بالكرباج » (٢) ولم يفعل هذا الشيخ شىء يستحق ذلك سوى ان ذلك اليونانى كان مالكا لأراضى فى نفس المنطقة ومستحوزا على مياه الرى لها وأراد أيضا أن يمتلك الأرض ومن عليها فمضى فى جبروته وتسلطه دون أن يجد رادعا لأفعاله .

ومارس الأجانب الاقراض بالربا الفاحش ليس فقط على الفلاحين بل وعلى العمد والمشايخ ، وكم من الأطيان المرتهنة فقدت عن هذا الطريق وكان السبب فى ذلك الأجانب الذين أوجدوا الفساد فى الريف المصرى كفتح الحانات التى جذبوا اليها تلك الفئة وأخضعوها لعملية استنزاف كاملة ماديا ومعنويا .

وهكذا أحيط العمد والمشايخ بجميع الظروف الصعبة التى خلقت منهم فئة مضطهدة تعانى من كل ما يحيط بها ، وتنتظر بفارغ الصبر الوثبة التى تقفز اليها لترتمى فى أحضان « مصر للمصريين » .

البـــدو :

رأى محمد على فى البدو قوة يمكنه أن يستغلها لتحقيق البرنامج الذى وضعه ، فأراد لهم الاستقرار ، فمنحهم الأراضى وحولهم الى حالة الفلاحة

---

(١) ابراهيم الهلباوى : مذكرات ، ص ص ٩ ، ١٠ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٧ ، ١٢ يونيو ١٨٨١ .

وهذا ضمن له اتقاء شر هجماتهم المستمرة ، واستخدمهم كحصن واق لحدود مصر ، فبرز الكثيرون منهم وأصبحوا من أصحاب الأبعاديات ، هذا فى الوقت الذى كانوا فيه يتمتعون بالاعفاء من الخدمة العسكرية ومن أعمال السخرة لذلك فقد اعتبروا أنفسهم على مستوى أعلى من الفلاحين الذين كانوا فى نظرهم مخلوقات أدنى منهم فلهم وحدهم تحمل تلك الأعباء .

وقد تمتع شيوخهم بنفوذ قوى فى تلك المناطق التى أصبحت لهم فيها ملكيات ، حيث كانت الأراضى التى تمنح لهم بأسمائهم وحدهم فى حين يبقى أفراد القبيلة مستأجرين أو أجراء لهم ، واستطاع بعضهم أن يتحصل على وظائف كمفتشين ومديرين مكنتهم من أن يزدادوا نفوذا ، وكان محمد على صاحب فكرة ادماج البدو مع الفلاحين وكسر ترابط البدو لتدعيم أهدافه ، وقد سار بعض من خلفائه على سياسته ، فابراهيم يعطيهم وعباس يكرمهم . أما سعيد فقد قرب الفلاحين اليه وكره البدو حتى لقد استثناهم من كل ما منحه لغيرهم ، بل وأراد ادخالهم فى الخدمة العسكرية .

كان نتيجة ذلك قيامهم بالثورة فى الفيوم ، فما كان من سعيد الا أن أصدر أوامره بابادتهم فى تلك المنطقة ، وقضى على تلك الثورة « بعد أن قتل من العرب ناس كثيرون بالمدافع والبنادق وأخضعهم وجلب كثيرا من رؤسائهم فى ليمان القلعة السعيدية » (١) .

وكثيرا ما كان البدو يثيرون الاضطرابات ، فقد شهد عصر اسماعيل بعضها فى جهات بالصعيد اعتدوا فيها على الفلاحين مما اضطر الحكومة الى « انتزاع ما كان بحوزة شيوخ قبيلة الحوازى من أطيان المنيا » (٢) .

وتعرضوا كما تعرضت باقى القوى لأسوأ الظروف التى مرت بها مصر مع اسماعيل وكانوا ناقمين على سياسة الدولة وغير راضين على التغلغل الأجنبى ، هذا وقد حملتهم الدولة بعض الأعباء ، فكان عليهم أن يقدموا لحرب الحبشة الخيل والبغال لكن لم تصرف لهم استحقاقاتهم هذا فى الوقت الذى كانت مصر فيه تحت نيران الوزارة الأوربية التى أرادت أن تصرف البدو المطالبين بحقوقهم « فأبى بعضهم وحاول اثارة الشغب فألقى القبض عليهم وسلموا للضابطة » (٣) وكانوا مشهورين بالشغب والقلاقل وكان يخشى من غضبهم الذى أصبح واضحا ، ويأتى الغاء قانون المقابلة الذى استفاد منه ملاك الأراضى منهم لارتباطه بحجج الملكية ليثيرهم الى أقصى درجة وخاصة شيوخهم أصحاب الملكيات الواسعة ، فيزداد حنقهم على الحكومة ، وبذلك تتجمع لديهم الأسباب للاشتراك فى الثورة .

---

(١) محمود فهمى : المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

(٢) د. رؤوف عباس : المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٣) صدى الأهرام ، عدد ٥٩١ فى ٢٥ مارس ١٨٧٩ .

الباب الثانى

العسكريون والتضامن الثورى والقوى المضادة

الفصل الخامس : بداية انطلاق العسكريين والوحدة مع كبار ملاك الأراضى .

الفصل السادس : انتصار الثورة وممارسة العسكريين للسلطة .

الفصل السابع : القوى المضادة ومجابهة الثورة لها .

الفصل الثامن : موقف الدولة العثمانية .

الفصل الخامس

بداية انطلاق العسكريين والوحدة مع كبار ملاك الأراضي

العسكريون والزعامة الثورية :

كان الجيش هو القلعة الحصينة فى نظر المصريين جميعا ، فهو القوة التى تحمل السلاح فى وقت كتب عليهم فيه الذل والمسكنة ، فأعطوه الثقة وأعطوه النيابة وأعطوه العمل وأعطوه الوعود بالوقوف بجواره ومشاركته فى كفاحه ، ولم لا وهو يمثل وبحق الاحساس الكامل لهم جميعا . فالارتباط قوى ومتين ، فتقول صحيفة الثورة « أن عساكرنا المصرية هم من أهل البلاد ، وعلى الأقل موجود فيهم من كل بلدة ثلاثة أنفار الواحد منهم لا يخلو من أن يكون بينه وبين سكان بلده صلة الأبوة والبنوه والعمومة والاخوة ونحو ذلك من روابط القرابة أو المجاورة ، فأية علاقة أقوى من هذه » (*) .

أضف الى ذلك طبيعة تكوين هذا الجيش كانت تعتمد على عنصر الفلاحين ، فالقوات المصرية لم تكن الا فلاحين تحولوا الى جنود ، فلاحون قاسوا قبل أن يجندوا وأيضا أثناء تجنيدهم من أجل أهلهم وضغط الحكومة عليهم وضرائبها ومحصليها ومن الأجانب ورباهم وسيادتهم التى تربعت على عرش مصر .

وقدر لمصر أن يتولى زعامتها عسكريون لم يتخرجوا من المدارس الحربية بل رقوا من تحت السلاح لكى يتقدموا الصفوف ويصبحوا قادة الطليعة الثورية أمثال عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى الذين كانوا يتبعون أسماءهم بلفظ المصرى ، بل ودائما كان كل منهم يردد ويؤكد

(*) المفيد ، عدد ٥٣ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

مصريته ولم يكن هؤلاء بمفردهم فى هذا الميدان ، فقد وجد غيرهم من المنتمين الى فلاحى مصر أمثال طلبة ومحمود فهمى وعلى الروبى وغيرهم .

ومع بداية حكم توفيق يتولى الوزارة رياض ليكون فيها عثمان رفقى وزيرا للحربيـة ، وهو رسـول الشراكسة وأمامهم ، وكأن الله قد أوجده على أرض مصر من أجل الانتقام والغدر بالعسكريين المصريين فقد كان عدوهم الأكبر ، ومن هنا راح يطبق تعليماته غير العادلة عليهم .

كان بطبيعته ميـالا الى جنسـه ومتعصبا الى أقصى حد ، هذا الجنس الذى قاست منـه مصر مرارا ، فآثر الشراكسة عـلى المصريين فى كل شىء ولم يكن الحرمان هو فقط الذى تعرض له العسـكريون المصريون ، انما الاحتقار والزراية والحقـد الذى صـوب اتجاههـم ، بالرغـم من أنه كان جاهلا قليل الادراك والذكاء عديم المواهب قليل النظر فى العواقب اذ حرص كل الحرص على أن يبقى المصريين مقيدين مدى العمر وأبد الدهر بسلاسل السلطة الشركسية .

أرادت وزارة رياض ان تقص جذور النضـال بطرقهـا المتعـددة وكأنها كانت تدرك وتحس بما يمكن له أن يكون على يد العسـكريين الفلاحين فوجهت أولى ضرباتها لهم ، فأعطى رفقى سلطة التصرف . فما كان منه الا أن أوقف حركة الترقية لمن هم من تحت السـلاح ، وتقرر أن تبقى الخدمة العسكرية مدة أربع سنوات ليس الا وهى غير كافية للحصـول على الترقى ، ثم يذهب الى بلده امداديا ويستمر هكذا مدة خمس سنوات مـع تردده عـلى مركز المديرية شهرين فى كل سـنة لمباشرة التعليمات العسكرية ، وبعد مضى السنوات الخمس يقيم فى بلده بغير عمل ويسمى حينئذ احتياطيا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمسح اسمه من دفاتر الجهادية » (*) .

كان معنى ذلك هو حرمان العسكريين المصريين من الوصول الى أى رتبة بل جعلهـم أنفـارا تحت التسلط الشركسى ، وبدأ رفقى فى تنفيـذ خطته وهى فصل الضـباط المصريين بدون تحقيق قانونى ، وشرع فى تصفيتهم على حسـاب الشراكسة ، فأمر باحالة عبد العال حلمى الى ديوان الجهادية معاونا ، وكان يبلغ من العمـر أربعين سـنة وعـين مكانه خورشيد بك نعمان وهو من أصـل شركسى ويبلغ من العمر خمسا وستين سنة ، وليست لديه القدرة على تحمل الأعباء العسكرية ، وفصل أحمد عبد الغفار قائمقام السوارى ، وكان فى الأربعين من عمره وأقام بدلا منه ضابطا شركسـيا « شـاكر بك طبوزاده » ، والسبب فى اختيارهما أن

(*) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .

رفقي كان يملأ قلبه الكراهية منهما فقد كانا « ينبذان أوامره ولا يعملان بها » (١) ٠

في ذلك الوقت كانت الخلية العسكرية كاملة التكوين ، وانخراطها في التدخل بالأمور السياسية كان متوافرا في تلك الاجتماعات التى أحيانا سيطرت عليها صفة السرية ، كما كان للعسكريين دور في المساهمة في الاجتماعات التى تعقدها القوى الأخرى غير العسكرية ، حتى أثناء مقابلات المجاملات والتهنئة كانت المناقشات في الحالة التى وصلت اليها مصر ٠

كان عرابى يكره من كل قلبه العنصر التركي ، وينظر الى رؤسائه من الشراكسة « نظرة العدو الى عدوه ويحتقرهم في نفسه لاعتقاده انهم دونه في المعرفة ، ويرى انه أحق منهم بالرتب العالية التى كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وكان أجرأ اخوانه على القول وأقدرهم على اقامة الحجج » (٢) وبمثل هذه الروح التى كان عرابى يصبها فى أعماق الضباط أمكنه أن يكون جبهة متعاونة ، ويقول عرابى عن ذلك « بينما أنا أتجرع غصص الظلم وأنقم على الاستبداد ، وأفكر فى أهل بلادى وأرجو الوصول الى انقاذهم من جب الاستعباد واستخراجهم منه الى متسع الحرية وأطيل النظر فى أعمال الحكام واستبدادهم ، واجتمعت مع اخوتى وهم حضرات على بك فهمى وعبد العال بك حلمى أمراء الآلايات واحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى ومحمد أفندى عبيد وخضر افندى خضر البكباشية وتشاورنا فيما بيننا وتعاهدنا على جمع الكلمة واتحدنا على المطالبة بحقوق الأمة وسن القوانين العادلة » (٣) ٠

وفى هذه الاجتماعات كثيرا ما كانت تعرض وتبسط سياسة رياض المستبدة وما جرى للعقاد على يديه ، ومنذ البداية كان بيت عرابى له من الصدارة فى اللقاءات وسيصبح أول بيت للأمة توافدت عليه وتواكبت عناصر شعب مصر كلها ٠ وقد وضع فى هذا البيت أول تخطيط عملى للرد على تصرفات رفقي وعدم اخراجها الى حيز الوجود ٠ وسيطر الغضب وعم السخط ، فمن سمات الانسانية كره الظلم والقائمين عليه ، وقد ألهب الموقف ايقاظ عرابى ونشجيعه لهم ، وتمضى القوة لتصبح علاجا لبتر الظلم والجور ٠

---

(١) محمود فهمى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ٠

(٢) محمود عبده : نفس المصدر ، ص ص ١١٢ ، ١١٣ ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ ٠

رأى العسكريون أن يطالب رؤساء الآلايات الثلاثة « عرابى وفهمى وحلمى » باسقاط رفقي والمدافعة عن حقوهم وخاصة أولئك الذين لم يتخرجوا من المدارس الحربية ، وأقسموا جميعا على انفاذ ما يأمر به عرابى بعد أن احتازوه قائدا لهم « فقالوا له أنت الرئيس علينا ، فقال لهم انظروا غيرى وأنا أسمع وأطيع وأنصح له جهدى فقالوا ليس نبغى غيرك ولا نثق الا بك ونحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا » (١) ومنذ البداية كان واضحا ان عرابى سيكون القائد ليس فقط للعسكريين بل لجميع قوى مصر لما تمثل فيه من الأصالة والذكاء وقوة الشخصية ٠

وبدأ طريق الثورة بعد ذلك الميثاق الذى أخذه العسكريون على أنفسهم بأن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا أمامهم أهداف يجب أن يحققوها جمعت الضباط وصف الضباط الذين تعهدوا بالمحافظة على ما أقسموا عليه ، وأعد التقرير الذى قدمه الضباط الثلاثة الى رئاسة مجلس النظار فى ١٥ يناير ١٨٨١ ، وجاء صريح العبارة له قوة يخشى منها على الحكومة ، ممزوجا بالجرأة المتناهية والكبرياء الشامخ لحاملى السلاح الذين اذا أتيحت لهم الفرصة هددوا به ٠ وقد ختم على ذلك التقرير حوالى الخمسين يوزباشيا بالاضافة الى الضباط الثلاثة ٠ وفيه يتضح الهجوم القوى على الشراكسة ومعارضة النظام القائم المستبد وبيان انهم مازالوا هادئين وهذا يعنى أنهم على استعداد للثورة اذا ما استمر الظلم (٢) ٠

وبوصول هذا التقرير الى ايدى المسئولين استهزأوا بأقوال هؤلاء الفلاحين ، وبناء على ذلك أجل النظر فى الامر ، وأبان رياض ان ما طلب خارجا على حدود القانون فازدادوا حنقا عليه ، وحاول اقناعهم بسحب التقرير لكنه لم يفلح أمام اصرارهم ، فقد كانوا مصممين على نيل العدالة وعلى يد المصريين ، فأثناء حديث رياض مع عرابى أراد ان يعرف منه من يريده العسكريون ليدير الحكومة فأجابه هل مصر امرأة لم تنجب الا ثمانية أبناء ثم ابتليت بالعقم ، وكان يعنيه مع وزرائه (٣) ٠ وكان ذلك تحديا سافرا من ضابط من تحت السلاح الى رئيس وزراء شمل عهده التنكيل بالوطنيين ، فأدار الدفة على العسكريين « فتجرد الى المقاومة وعمد الى التهديد ، فبث العيون وشدد فى النكير والضباط لا ينفكون

---

(١) أحمد عرابى : نفس المصدر ، ص ١٠٢ ٠

(٢) Broadly : The Trial and pardon of Arabi Pasha, Vol. II.

(٣) Blunt : op. cit., p. 136.

عن التحزب والتألب وضـــم كل بعيـــد عنهم ممن مسه الضر بفعـــل الرئيس (١) » ٠

لقد كان هنـــاك تصميم وقســم فلابد من مقابلة القوة بالقوة ، هذا فى الوقت الذى رأى رياض اجراء حركة تنقلات بين ضباط الجيش الناقمين لكن كان رأى الوزراء جميعهم حيث سرت فيهـم الروح الشركسية ضرورة محاكمة هؤلاء الثوار امام مجلس عسكرى ، وتعهد رفقى بتحمل المسئولية ودبر الحيلة لتحقيق الرغبة ، وقرر المجلس تشـــكيل محكمـــة وذلك « لمحاكمة من اضم البهم من الأهلين » (٢) معنى هذا انه كانت هناك عناصر اخرى مؤيدة لاتجاهات العسكريين ، وعلى يد الضباط الشراكسة تكونت المحكمة ، وصدر الحـــــكم على أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى بتجريدهم من رتبهم ووظائفهـم العسكرية وابعادهم عن مصر وتسـليم مناصبهم لضباط شراكسة (٣) وتم اعتقالهـم بقصر النيل فى أول فبراير ١٨٨١ . وكان الضباط قد اتموا للأمر عدته عندما شعروا بسوء النيـــة التى كانت دائمـا سـمة العلاقة بين الحكومة والرعية ٠ وبدىء فى تنفيذ الخطة وجاءت الانطلاقة العســـكرية التى انتهت بالانتصـــار ، وحضر البكباشى محمد عبيد وتحت امرته الفوة اللازمة جميعهم تحت الســـلاح مستعدين للحرب والاطاحة بالظلم ، وأحاطوا بالشراكسة وسجنوا بعضهم وكانوا من أعلى الرتب ولم يستطع أحد أن ينطق أمام هـذا الزحف من الجنود الثائرين ، واختفى المجلس العسكرى فى الحال وراح كل منهم يبحث عن نجاته (٤) وخـرج القائمون بالحركة من الســجن معهـم هذا الانتصار مصحوبين بالآلايات الى عابدين وكلهم اعتزاز ونشوة بما تم على أيديهم وعبر عن نفسيتهم بعد هـــذا الكبت الذى عانوا منه سـنوات وسنوات ٠

لم يكن العسكريون فقط هم الزاحفين الى عابدين بل تبعهم العامة فى ضجة عميقة فرحين مستبشرين بذلك الانتصار الذى أحرزه المصريون على الذين سلبوهم كل شىء ، وفى عابدين التى ازدحمت عن آخرها واصبحت منذ ذلك الوقت ساحة للنضال الوطنى ، فقد أتى الناس جميعهم من كل فج عميق ٠

ويقول أحد شهود العيان عن هذا اللقاء « كانت ساحة عابدين اذ ذاك

---

(١) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ٠

(٢) نفس المرجع

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٣ ٠

(٤) Haus Hol — u — Staat, Sarchiv wien, Polit. A-ch, No. 15, 3. Fevrier. 1881, p. I.

مزدحمة بالجماهير ازدحاما عظيما كأنه كان يوما معـــدودا وكان ذلك فى القاهرة يوما مشهودا (١) » ٠

اذن لم تكن المسألة خاصة بالعسكريين بل هى بشعب مصر جميعه الذى جاء ليدلى بصوته ويسـلم أمره الى هذا الجيش المنتصر ، وفى وسط هذا الزحام قام عرابى ليمارس منذ اللحظة الأولى قيادته الشعبية وتكلم بأعلى صوته وشكر وأثنى على ذلك الموقف البطولى الذى قام به العسكريون وزادهم هذا اطمئنانا وساعدهم الانتصار على المضى للمزيد من القوة وتقدم عرابى ليخاطب حاكم مصر توفيق ويملى عليه ارادة العسكريين بل ويتحداه مهددا بضرورة « خلع رفقى واستبداله بغيره ، فانهم لا يبرحون الا بنوال بغيتهم (٢) » ، وان كان قد طلب منه العفو عما حدث فانه كان تمويهـــا للموقف وتغطيته باطار خفيف من الحنكة السياسية ٠

كانت مظاهرة حقيقية فرضت نفسها بقوة السلاح وبقـــوة الارادة وبقوة العزيمة وفوق ذلك كله السيف والمصـحف ، وهنا ظهر عرابى على حقيقته ، وفجر كبته ومشاعره ، وتقدم الصفوف وعرض المطالب ، وبدأ يصول ويجول ولا يخاف أحـدا ، ويعد فبراير هذا هو بداية ميلاد عرابى بل ميلاد الثورة ٠

كان من الصعب الوقوف فى وجه طلبـــات العسـكريين ، بعد أن أصبحت الحكومة غير قادرة على حماية وزرائها أمام قوتهم وأيضا عاجزة على الحد من أوامرهم الثائرة وذهب الأمر الى أن فوض العسكريون فى شأن من يريدونه ناظرا عليهم يقول عرابى : « فقال خـــيرى باشا ان الخديوى فوض لكم اختيار الناظر حتى لا تشكون منه فيما بعد ، فقلنا له انا نرضى بتعيين محمود سـامى باشا ناظرا للجهادية (٣) » ٠ وانحنى الجميع أمام ذلك العرض العسـكرى ورضخوا للأمر ، وسقط رفقى ليتولى البارودى زمام العسكريين وقد جاء بحد السيف لتهدأ الاحوال ويعم النظام وتعود القوات الى معسكراتها آمنة مطمئنة ٠

كان البارودى هو الذى أفشى للعسكريين سر اعتقالهم فى قصر النيل ونقل لهم تلك المؤامرة التى تحاك ضدهم حيث كان وزيرا للأوقاف مجتمعا مع بقية الوزراء أثناء التخطيط للقضاء على المعارضة العسكرية (٤) ٠

---

(١) الياس زاخورة : المرجع السابق ، ص ص ، ١٠٥ ، ١٠٦ ٠
(٢) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٨٦ ٠
(٣) أحمد عرابى : نفس المصدر ، ص ١٠٧ ٠
(٤) محافظ الثورة العرابية ، نفس المصدر « محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٤١/أ ٠

لم يكن مصريا بل هو حفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف في عهد محمد على فهو بدمائه بعيد عن دماء الفلاحين لكنه بروحه معهم ، فنشاطه ملحوظ مع الحزب الوطنى ، وهواه مع الأحرار واضح ، فقد آمن بعدالة مطالبهم لذا فقد انضم اليهم ، وبالرغم من أصله الا انه ضاق بهؤلاء الشراكسة وطباعهم المستعلية على المصريين ، وحكمه صادق عليهم ، اذ كان فى مكانه رسمية أمكنه منها ان يعيش الواقع الذى يجرى فى ميدان الحكم ، وكان نزاعا للديمقراطية ويؤمن بأهمية دور المثقفين الذين هو منهم اذ تشبع بأفكار الطهطاوى والمرصفى والافغانى وقدم الكثير من ثروته ولم يبخل على الثورة ٠

انزعجت السياسة البريطانية امام ذلك وأرسل ماليت الى وزير خارجيته ليترجم الخوف مما تم وأنه يمكن بمثل هذه الاجراءات ، وعن طريق القوة العسكرية اقالة الوزارة جميعها بل والمراقبة ايضا وبذلك يتمكن العسكريون من السيطرة على شئون مصر جميعها (١) ، وقد كانت مخاوفه كما تصورها اذ تم ذلك بعد حين ٠

لكن ماذا عن دور قنصل فرنسا فى ذلك ؟ منذ البداية رأى العسكريون ضرورة اضفاء الشرعية على مطالبهم ، فى الوقت الذى كانوا يلتمسون فيه مساعدة قوة خارجية يمكن لها أن تقف بجوارهم لتحقيق تلك المطالب ٠ لذا نرى أنه عقب كتابة تقريرهم وتقديمه للحكومة يرسلون نسخة منه الى البارون دى رنج قنصل فرنسا فى مصر وذلك لابلاغه للوكلاء السياسيين وبيان أن مطالبهم تنحصر فى العدالة والخلاص من سلطة المماليك الشراكسة الاستبدادية الظالمة ٠

وجاء الرد من دى رنج لعرابى يمدحه على ثبات عزيمته ويشجعه على سلوك هذا المنهج مع عدم المبالاة بالحكومة (٢) ٠

كان ذلك ثورية متناهية من القنصل ، وقد شعر العسكريون بها قبل انطلاقهم ، فوضعوا الأمل فيه لاسقاط رفقى وتعيين آخر ، فقد أحس دى رنج بما فى قلب الامة المصرية من جراح ، وأيقن أن عرابى هو رأس تلك الأمة واعتبر توفيق نكرة ولا وزن له ، بينما مثل رياض أمامه المصالح الانجليزية ، وقد كان كذلك فالارتباط قوى بين الطرفين ، وهنا اجتمع الصديقان على العدو المشترك ، وأجمع المؤرخون على تلك الصلة الوثيقة التى تأصلت بين الثوار وذلك الفرنسى بعد أن لمسوا أنه سيكون حاميا لهم أمام أعدائهم ، وكان دى رنج يعمل على توطيد النفوذ الفرنسى فرأى

(١) Malet : op. cit., p. 101,

(٢) Broadly : op. cit..

أن يدعم الجبهة التحررية من أجل الوصول الى ما ترضـــاه ، وقد كتب دى رنج لحكومته لكنه طمس بعض الحقائق ، فقد قال ان العسكريين طلبوا منه ان يتقدم باحتجاج بالطريقة الدبلوماسية للتخلص من رفقى وأتباعه وأنه رفض وان كل ما فعله باتحـــاده مـــع ماليت أن قدم النصـــح لتوفيق باقالة رفقى ، كما أنه أضــاف بأن هذه الحركة كانت موجهة ضد الأوربيين وأنها تزعزعت مركز رياض الذى أصبح مهددا بالانهيار (١) • ولكن كانت جميع الاحداث تشير بموقفه المؤيد للثوار ، وقد ارسل توفيق أحد مندوبيه لوزارة الخارجية الفرنسية فأدهشه ما ســـمعه من الموظفين عن أســـباب مساعدة دى رنج للحركة فقد اعتقدوا أن عرابى وزملاءه يسعون فى تحرير مصر وايجاد حكومة أساسها الحرية والاخـــاء والمساواة ، كذلك لم يخف مسيو جبريل شارم المحرر بصحيفة الديبا اتصال دى رنج بالزعماء قبـــل وبعد قيامهم ضد الحكومة « فكان يستقبلهم أحســـن اســـتقبال وكانوا يستشيرونه فيما يجب أن يـكون عليه نظام الحكومة المصرية فى المستقبل ولم يضن عليهم بآرائه لأنه كان يعتبرهم من الوطنيين الحقيقيين » (٢)

من هذا يتبين ان المسألة لم تكن ثورة عسكرية فحسب بل هى بداية للتعبير عن شكل الحكم الجديد الذى يريدونه ، وفرنسا امام الجميع هى قبلة الحرية ومنها خرجت الثورة الفرنسية التى وصـــلت اشعاعاتها الى الغرب والشرق ، وتتبع النظام الجمهورى الذى كانت تتوق اليه مصر •

ومضى دى رنج يستقبل المترددين عليه من الثوار ، وكان البارودى على وفاق معه ينقل اليه جميع تحـــــركاتهم وأخبارهم وعندما طلب من دى رنج الادلاء بمعلومات عن تلك الاجتماعات رفض حتى ذكر الاســـماء واستمر فى مساعدة وتأييد الثوار بكل قواه ، فشكل ذلك خطورة كبيرة على الهيئة الحاكمة وكان لابد من وقف ذلك ، وخصوصا أن رياض كان يهمه القضاء نهائيا على تلك الصلات ، فسعى فى الامر وكانت له اليـــد الطولى فى جعل توفيق يكتب الى رئيس جمهورية فرنسا فى ١٤ فبراير ١٨٨١ ليشـــكو دى رنج ويتهمه بأنه يخلق الصعوبات أمام حكمه لمصر وضرورة وجوب سحبه منها (٣) •

ولما كانت فرنسا حريصة على استمرار العلاقات الفرنسية الانجليزية كانت التعليمات تصل من فرنسا الى قنصلها فى مصر تطالب بالمساواة

---

(١) Documents Diplomatique Francais, Tom III, No. 351 fere F. V. 1881.

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ص ١١٥ ، ١١٦ •

(٣) Doc. Sip. No. 374, 14 Fev. 1881.

التامة للمصالح الخاصة بهما وأيضا بضرورة تأكيد الوحدة بينهما من أجل العمل المشترك ، وانجلترا قد أساءها موقف دى رنج ، لذا رأت فرنسا اتماماً لسياسة التعاون استدعاءه على أول باخرة ، هذا فى الوقت الذى كانت تميل فيه مع انجلترا على ضرورة المحافظة على عرش توفيق الذى كان طوع بنانهما . وهى تعلم كيف يمكن أن تصل ثورات الشعوب للقضاء على مصالح الدول المستغلة ، وفرنسا لها سياستها الاستعمارية التى وضحت فى الجزائر وتونس .

ورحل دى رنج عن مصر لكى توقف الثورة ولكنها ازدادت فقد بلغ عرابى فى ذلك الوقت من الشهرة والصيت ليس فقط بين العسكريين أو فى الشرقية بل أصبح على لسان مصر كلها ، فكانت الوفود تأتى اليه لتطلعه على شكاياها ، وقد ساعده على ذلك تلك الشخصية القوية التى أثرت فى الجميع .

وهكذا انفتح طريق الثورة بسلام وبتحقيق الرغبات وبدون اراقة دماء كعادة جميع الثورات لكن كان من الضرورى المزيد من المجهودات حتى يتم الحصول على ما تريده مصر جميعها لا بأن يكون البارودى وزيرا فقط ، لذا كانت الفتره ما بين قصر النيل وعابدين متعددة النشاطات والاتجاهات التى تمركزت فى النهاية على اعطاء العسكريين القيادة فى فرض مطالب الأمة وتحقيقها .

وبتولى البارودى أمر العسكرية ، أعد برنامجا شاملا ومتكاملا لاصلاح حال العسكريين فهو المثقف صاحب العقلية المستنيرة والنشاط والطموح ولم يكن يقل ثورية عن باقى العسكريين وكانت أولى خطواته الحد من سلطة رياض وتوفيق على العسكريين ، وضمن لهم الترقية بدون تفرقة بين الذين تخرجوا من المدارس الحربية أو من تحت السلاح .

وتم تشكيل لجنة فى ٢٠ أبريل ١٨٨١ للبحث فى الأنظمة والقوانين العسكرية ، واجراء ما يلزم من التعديلات ، وترتيب المدارس الحربية ، والقبول فى سلك الضباط وترقيتهم واستيداعهم وفصلهم ، وأن تكون قرارات تلك اللجنة بأغلبية الأصوات ، وكان البارودى رئيسها وعرابى عضوا فيها .

وفى نفس ذلك التاريخ رفعت مرتبات العسكريين بناء على عرائض كتب صورها عرابى وأرسلها الى جميع الآلايات ليوقعوا عليها .

وضعفت سلطة المراقبين أمام اصرار البارودى على تنفيذ قوانينه العسكرية ، فقد اعتبر دى بلنير ان السبب فى ذلك الاصرار هو « أن

يتحصلوا على رضاهم » بينما رأى كولفن « ان الحكومة قد سلمت لغاية «الآن بزيادة عن اللزوم فى طلبات الضباط ولا يمكن كذا التسليم فى كل طلب بدون التأمل » ولكن البارودى أخافهم وأفهمهم بأن « الهيجان موجود فى الأفكار بين الضباط » (١) ٠

وبذلك انصفت الوزارة ووزيرها العسكريين الذين كانوا موفقين فى اختيارهم للبارودى فقد أعطاهم كل ما كانوا يتوقون اليه قبل ذلك ، وهذا جعلهم مدفوعين بالعمل من أجل مصر بعد أن شعروا بلذة الانتصار ونوال الحقوق ، وأصبح هناك شبه جهاز سرى بينهم لنقل المراسلات السرية التى كانوا يتبادلونها ، وكثرت الاجتماعات بينهم وكان أغلبها فى بيت عرابى ٠

وبدأت الأمور تتقدم وبسرعة وراح البارودى يحادث رياض فى مسألة زيادة أعداد الجيش وابطال الأشغال العامة التى أثقلت كاهله ، وراحت سحب الحياة النيابية تتكثف فوق سماء العسكريين التى تناولوها فى اجتماعاتهم بعد أن أصبحوا وحدة متكاملة ٠

كان لمعاهدة الحماية التى وقعت بين فرنسا وبين تونس أكبر الأثر السيء فى الشعور المصرى ، وزادت الصحافة من نيران ذلك الموقف لكى تجنى سخط الشعب وثورته ضد السيادة الأوروبية ، وساد الاعتقاد انه لا محال من سقوط مصر فى أيدى انجلترا لكى يصبح الميزان عادلا ٠

رأى العسكريون دفعا لذلك ضرورة الاستعداد للدفاع عن طريق زيادة الجيش الى ١٨ ألف وفقا لفرمان تولية توفيق ، وبناء الحصون الجديدة على حدود مصر ، وتحصين المدن ٠ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ضرورة تغيير سياسة الحكومة وذلك بايجاد مجلس نواب تكون الوزارة مسئولة أمامه ، وله الحق فى التصويت على الميزانية ٠ ولم يكن ذلك اتجاه العسكريين فقط بل أقرتهم فيها عناصر الأمة ، ويؤكد ذلك القنصل الفرنسى لوزير خارجيته بقوله « ان هذه الأفكار بدأت تكبر حتى بين العناصر المدنية وتشكل خطورة كبيرة » (٢) ٠

وضاق توفيق بنشاط العسكريين ، ويأتى التعاون بينه وبين رياض من أجل اسقاط السلطة العسكرية ، وذلك عن طريق خلق مناوئين من

---

(١) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار ، محفظة ٥/و ، محضر ١٢ ، ١٣ ابريل ١٨٨١ ٠

(٢) Doc. Dip. Tom IV, No. 28, 30 Mai, 1881.

الرتب الصغرى للثورة على القـادة ، وقد أحصى عرابى تلك الدسـائس فأوصلها الى ثلاثة عشر دسيسة ، لكنها فشلت جميعها وتم اكتشـافها والقضاء على مسببيها (١) .

ومضت السياسة المعاكسة للعسكريين ، فيتم الرفض للعمـل في الأشغال العامه ، ويهدد عرابي بتنفيذ بقيه القوانين العسكريه التي لم تصدر بعد ، ويبلغ بالجنود الجرأة في مواجهتهم لتوفيق عقب حادثة مقتل أحدهم تحت عجلات عربة يقودها سائق أجنبى وتجمعت سحب التبرم لدى توفيق فأصدر حكمه على الذين تجرءوا وحملوا جثة زميلهم الى قصره ، فاعترض قائدهم وكان عبد العال حلمي وانتقـد الحكم وطلب اعـادة النظر فيه ورفع البارودى طلبه الى توفيق (٢) .

أراد رياض أن يرغم البارودى على ابعـاد عرابى وعبـد العال حلمي وفرقتيهما من القاهرة ، الأول الى الاسكندرية والثاني الى دمياط حتى يضع حدا لهذا التكتل، وكان ذلك بموافقة توفيق الذى امتلأ غيرة من شهرة عرابى وشعبيته التى نمت سريعا وانتشرت ، ورفض البارودى وأصر على امتلاء السلطات وعدم السماح لرياض أو لغيره بالتدخل فيها بل وألح فى زياده عدد الجيش (٣) ، وبذلك تجمعت العـوامل التى أدت اسقاط توفيق للبارودى وخصوصا بعد أن أيقن الجميع ذلك النشاط الواسع للعسكريين فى مسـألة الدستور ، ويقر رياض فى شهادة له بأنه « لما ضاق الحـال بالحضرة الخديوية وصمم على عزله ، وقال علنا أمامنا جميعا ما بقى عندى أدنى أمنية فيه ولا صبر على بقـائه فى النظـارة ، فقلت لسعادة الخديوى الأعظم هذا هو الحق » (٤) .

وأحيل منصب البارودى على داود يـكن الشركسى وهو صهر توفيق وعزل أحمد الدرة ملي من ضبطية القاهرة وكان من الثوريين وعين بدلا منه عبد القادر باشا ليكونا ثنائيا من أجل بتر العسكريين وشل حركتهم ، وأمر البارودى بألا يبرح قريته بعـد أن حددت اقامته فيها بهدف ابعاده عن العناصر الثورية وقطع الصلة بينهم ولكن ذلك أدى الى نتيجة عكسية .

وانتشرت الجاسوسية وأطلقت شباكها على العسكريين ، فتعقبتهم ، وصدرت القرارات والنشرات التى تنهى عن الاجتماعات وعدم ترك الآلايات

---

(١) Archives de maison, de cour, et d'Etat, Vienre, Inclosure 2 in no. 2, Sept. 9, 1881.

(٢) Doc. Dip. Tom IV, No. 94, 13 Août, 1881.

(٣) The Times, August 12, 1881.

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ٢٠٩ .

ليلا أو نهارا ، وطبق قانون التجمهر وأعلنت الأحكام العرفية وحذر تناول السياسة ومن تجرأ واقترف ما يخالف كان مصيره السجن ، وقد وصل الأمر ان داود يكن كان يذهب بنفســه ليلا الى مراكز الآلايات ليتحقق من تنفيذ أوامره ٠

وكره العسكريون الوزير الجديد ، وقد كان ذلك أمرا طبيعيا فهو شركسى أصيل ، ومنذ البداية والحرب قائمة ضد الشراكسة ، ثم انه كان يتمتع بجهل كبير خصوصا انه أتى بعد ذلك المثقف المستنير هذا بالاضافة الى كبريائه وكرهه للمصريين ٠

مضى الوزير فى التخطيط والتنفيذ لتفريق الفرق الموالية للقـادة العسكريين من العاصمة واستبدالها بفرق أخرى موالية للخديوى ، فأصدر أمره بنقل الآلاى الثالث من المشاة آلاى القلعة الذى كان يرأسه ابراهيم حيدر الى الاسكندرية بدلا من آلاى الاسكندرية الآلاى الخامس الذى يحل محله ، ورفض الضباط الثوريون تنفيذ الأمر (١) ، فكان ذلك تحــديا صارخا ٠

وعلى الفور جمع عرابى ضباط الجند بالقاهرة وطره والعباســية فى معسكر الحرس الخديوى وقام فيهم خطيبا وأراد أن يعبىء الشعور القومى فشكى من أعمال الوزير وركز على الاتحاد والتعاون واستحلفهم على السيف والمصحف بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء (٢) ٠

وعقب ذلك تأكدت الأمور بأنه لابد من الاطاحة بالنظام القائم جميعه المتمثل فى حكومة رياض الجائرة ، وذلك باسقاط رياض والمتحكمين معه فى مصائر الأمة ، وأيضــا ضمانا لسلامتهم حيث رأوا انهم اذا أبعدوا عن مصر وتفرقوا ســهل على رياض أن يضربهــم فرادى كعــادته فى البطش بالوطنيين بعد الصاق تهمة العصيان بهم ، لذا رأوا ألا يتفرقوا وليس ذلك فقط بل أن يقضوا على من يريد ذلك ، ويؤسسوا لمصر حياة جديدة قائمة على العدل والحرية والمساواة وهذا لن يتحقق الا بالحكم النيابى ، وكانت تلك هى الخطوة القادمة ٠

---

(١) البرقيات الواردة من استانبول والصادره اليها اثناء الثورة العرابية ، دفتر ٢٨٧ عابدين ، من خديوى مصر الى الباب العالى فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ٠

(٢) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ٠

الالتحام بين كبار ملاك الأراضي والعسكريين وأصدقاؤه :

اعتبر كبار ملاك الأراضي الممثلون للأرستقراطية الزراعية فى تلك الوثبة التى قام بها العسكريون بداية لتحريكهم ضد النظام القائم ، وخصوصا بعد ان لمسوا ذلك النجاح الذى حققه هؤلاء ، قرأوا ان يمآثلوهم فى الحصول على السلطان بعد أن فقدوه وما كانوا يعانونه من التسلط الاستبدادي لسياسة رياض التى أطاحت بالمكاسب التى أحرزوها على مرور الأوقات ، ومن هنا كانت حتمية اللقاء الذى أوجدته الظروف التى تمر بها مصر ، ضعف حاكم ، ظلم حكومة ونفوذ أجانب ، فلا مفر من التعانق ولابد من السير فى اتجاه تيار واحد حتى الوصول الى الأهداف المرجوة لكل قوة اشتركت فى ذلك الاتحاد بالرغم من اختلاف تلك الأهداف لكن مادام الطريق ينتهى الى تحقيق الأغراض المشتركة بل والخاصة فكان لابد من المسيرة ٠

كانت هناك تلك الطبقة المثقفة التركية وهى من كبار الملاك والتى مثلها الباشوات أمثال شريف وراغب وعمر لطفى واسماعيل سرى ، وجميعهم أعضاء بالحزب الوطنى ، ذلك الحزب الذى ازداد سطوة ونفوذا ٠

كان لشريف مواقف يعتز بها قبل الثورة ، ونستطيع أن ندرك تمام الادراك ذلك الاختلاف الكلى والجزئى بين شريف ورياض فقد وصل الأمر الى ان رياض أصبحت تصرفاته غير قابلة للمناقشه ، وهو دائما يجاب الى كل ما يطلبه ، وكان هؤلاء الملاك يعلمون تمام العلم أن جميع الأمور الهامة ، يناقشها رياض بل ويقررها ، فلم يكن لتوفيق الحق فى البت فى أى أمر دون استشارة رياض ، المنفذ لرغبات المراقبين، وبذلك كانت سلطة الخديوى معدومة ، لذا أرادوا الاطاحة برياض لتعود لهم مكانتهم المفقودة٠ خاصة بعد أن لمسوا انه لن تكون هناك معارضة من توفيق الذى سلبه رياض كل شيء ٠

كانت الفكرة الدستورية فى عقول هؤلاء تنحصر فى تخليص السلطة من المسيطرين عليها ووضعها فى أيدى الأوليجاركية التركية الشركسية ، اذ انهم اعتبروا تلك الطبقة هى الوحيدة القادرة على حكم مصر ، وقد انضم اليهم فى التمرد على الأوضاع الموظفون الذين تربوا فى نفس المدرسة الفكرية ، فأصبحوا ثائرين يريدون تغيير النظام الموجود ورأى هذا الاتجاه ضرورة وجود قوة تسانده فى مطالبه وتساعده لتحقيق آماله ، ومن هنا كان السعى لضم العسكريين ، بالرغم من التناقض بين الطرفين ٠ فيقول بلنت عن شريف : « انه كان تركيا أوربيا على أخلاق عالية ولكنه لم يخل من الغطرسة واحتقار الفلاحين الذين كانا من مميزات طبقته فى مصر (*)» ٠

(*) Blunt : op. cit., p. 196.

لكنه أمام الرغبة فى الوصول الى ما يتمناه فى أن يصبح رئيسا للوزراء ويستحوز على السلطة راح يعطى الوعود بأنه اذا استلم أمر الحكومة فأول شيء سيقوم به على الفور تنفيذ برنامج الحزب الوطنى :

أمام ذلك كان لابد من العمل بمختلف الطرق للاستحواز على تلك القوة النابضة بالنشاط والتى فى مقدرتها أن تنهى حكم رياض وخاصة أن العسكريين أصبحوا على لسان أهل مصر وعلى رأسهم عرابى الذى التجأ اليه المضطهدون ولقبه الجميع بزعيم الأمة .

وهكذا عندما شعر هؤلاء الملاك الأرستقراطيين بتلك الحركة الوطنيه المتدفقة ، رأوا الاندماج فيها لا نعاونا من أجل مصر بل من أجل مصلحتهم فهؤلاء الباشوات لم يكونوا يهتمون بحقوق الفلاحين المصريين الذين كان عرابى منهم ، فقد أذلوهم واستعبدوهم زمنا طويلا لكنهم وجدوا فيهم المطيه التى توصلهم الى ما يريدونه .

وبدأ التنظيم من أجل تنفيذ ذلك بعد أن صرح شريف بأن الوقت قد حان للحصول على الحريات وكان لابد من الاتصال بعرابى ، وجاء سلطان ليكون الواسطة والصلة بين الطرفين .

وسلطان من كبار ملاك الأراضى ، ومن الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى ، وقد صب اهتمامه على الثروة ، وساءه مع من شاكلته من المصريين تصرفات رياض واسترضاؤه للأجانب على حساب العناصر المصرية ، وتحميله لطبقة الملاك تلك الالتزامات المالية ، فأخذ سلطان ممثلا فى اتجاه طبقته يتطلع الى التغيير بالقضاء على رياض وكانت له سمعة طيبة ترددت فى أرجاء مصر ، فهو دائما يعمل على نشر صيحة مصر للمصريين وله من السلطان والقوة والشهرة والصيت والمكانة والأصالة التى ترجعه لأصوله المصرية البدوية ما تجعله يختلف عن شريف صاحب الأصول التركية ، فمن أجل ذلك تأصل الحب بينه وبين القادة العسكريين الذين كانوا يريدون من يدعم موقفهم ويساندهم فى مطالب الأمة ، ولكن يجب أن نشير الى انه فى ذلك الوقت المبكر كان لسلطان طموح وأمل يصبو اليه ، فالمطامع الذاتية والمآرب الشخصية والتطلع للمعالى والبحث عن السلطة سيطرت عليه للاستحواز على منصب فى حكومة جديدة يزيده عظمة على عظمته فلم تكن تغنيه أمواله وثروته وأملاكه ، وكان ذلك هو الدافع الذى أخرجه من الثورة فيما بعد ليرتمى فى أحضان أعدائها .

لهذا كان السعى لضم قوة العسكريين الذين رأوا انه لا خلاص لمصر الا بمجلس نيابى « يكون الواسطة العظمى بين الأمة والحكومة ، فتحفظ

الأرواح الطاهرة والأعراض الكريمة والأموال العزيزة من العبث بها » (١).

وفى منزل سلطان دارت الاجتماعات التى كان يحضرها القادة العسكريون عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود سامى ومحمود فهمى مع كبار الملاك ، وسليمان أباظة مدير الشرقية وحسن الشريعى مدير المنيا وغيرهم من الوطنيين جميعهم متحالفين من أجل عمل موحد لمصر .

نظر عرابى الى سلطان نظرة خاصة ، فقد كانت مكانته لديه لما له من سلطة وأصالة تميزه فرأى فيه أن يمده بالمعونة قولا وعملا فى ضم عناصر الأمة لمطالب الثوار ، ومن هنا تقرب عرابى اليه هذا فى الوقت الذى تقرب فيه سلطان من العسكريين بعد أن أيقن ان مطالبهم لم تعد مطالب عسكرية بل هى خاصة بالأمة جميعها ، وانه ممكن أن تتحقق عن طريق القوة والسلاح ، لذا فكان لابد من التفاهم معهم للحصول على ما كان يرنو اليه من مكاسب ، ومد سلطان يده ليصافح ويوقع عقد الاتفاق الخاص بطلب مجلس نواب . وقد كان ذلك نفس طلبات العسكريين التى سرت وانتشرت بين الأعيان والعلماء على صعيد مصر . وبذلك أصبح التعاون وثيقا بين كبار ملاك الأراضى بفرعيهما الأتراك والمصريين وبين العسكريين واتفقوا فيما بينهم جميعا على انه متى حانت فرصة ملائمة يلقى عرابى نفوذ الجيش وثقله وتأثيره لحمل الخديو للموافقة على طلب الدستور .

وفى خطاب من عرابى الى برودلى عن ذلك الالتحام الذى تم بين البورجوازيين والعسكريين يقول : «أما سلطان باشا فهو الذى كان يجتمع عنده الضباط سرا قبل حادثة عابدين لتدبير طريقة فى عزل رياض ، وكان يتكلم فى المجالس بأفكارهم ويردد بلسان طلق أن مصر يمكنها أن تعد ثلاثمائة ألف عسكرى تحت السلاح وقت الحاجة ، ويجادل فى ذلك مع وزراء رياض ، وكان يساعد أفكار الضباط بكل قوته ، وهو الذى دعا بعض الأمراء ليتحدوا معه فى طلب تشكيل مجلس نواب من الخديو وفقا لرغبة الضباط » (٢) .

وواضح ان سلطان أصبح يهدد بقوة الجيش ، وكانت اتصالاته على أعلى المستويات لنشر أفكار الثورة وهذا هو ما يسعى اليه العسكريون ، فعمل بكل قواه وثقله فى المجتمع لخدمة هذا الميدان ، وأصبح كل شىء مجندا من أجل تحقيق الغرض الأساسى الذى قامت به الثورة .

ولم يكن سلطان وحده على أرض تلك الحركة ، فهناك سليمان أباظة

---

(١) أحمد عرابى : نفس المصدر ، ص ١٠٢ .

(٢) Broadly : op. cit.,

وله دوره فى عملية اللقاء بين الجناحين ، وشارك الأعيان بنفس الأفكار فى الثورة ، ورأوا ان ما يخلصهم من الظلم الواقع عليهم فى نظرهم الاعتماد على العسكريين ٠

وكان لكبار الملاك تلك الصلات مع أعيان البلاد وعمد ومشايخ القرى ودارت المنشورات الثورية السرية ووزعت وذلك بعد أن أيقنوا ان الأمل الطويل الذى كانوا يحلمون به قد تحقق باقامة حكومة دستورية وبالقضاء على احتكار رياض واستبداده ٠ ولم يمض الا القليل حتى أصبحت قوى محر كلها وراء برنامج موحد جندت له كل الامكانات ٠

عرابى نائبا عن الأمة :

كان التيار الذى تزعمه كل من شريف وسلطان يختلف كل الاختلاف عن التيار العسكرى وذلك فى طبيعة التكوين ، وفى الفكر ، وفى طريقة التنفيذ ، وفى الأبعاد ، وفى المصالح ، وهذا ما كان له أثره بعد أن نالت طبقة كبار الملاك مآربها ، فالعسكريون وعلى رأسهم عرابى مؤمنون بالدستور والنظام النيابى ، لهذا فقد رأوا ضرورة تشكيل مجلس نواب من الأمة لعرض جميع اللوائح والقوانين عليه لتحفظ حقوق الأمة ، وأن يعطى لأعضاء المجلس الحرية التامة فى المداولة ، وأن يكون انتخابهم حرا (*) ٠

رأى عرابى ان الثورة هى الطريق الوحيد للحصول على الدستور كما يشتهيه المصريون ، وان ذلك سيتبعه خطوة أخرى هى التخلص من الحكم التركى الذى أسند لهم وأذرى بهم واستهان بحقوقهم ووضعهم فى منزلة تشبه منزلة العبيد ٠

وبما أنه لم يكن هناك من يفرض حكم القانون ضد الاستبداد والأهواء الا قوة الجيش لذا أراد عرابى النزول به الى الميدان لتحقيق الآمال ، بعد أن تأكد من تأييد كبار الملاك وثقلهم الاقتصادى والأدبى ، ولم يكن هذا التأييد نابعا من الطبقة العليا فقط بل دونها أيضا حيث سيطر القلق والظلم والطغيان الذى كان من نتائج سياسة رياض . هنا وقد كان للصحافة دورها منذ فترة ، حيث أدخلت فى أذهان المصريين تلك المعانى للدستور ، وفصل السلطات ، وأنظمة الحكم وأنواعها ، فلم يكن غريبا فى ذلك الوقت أن تدور على الألسنة وتتداول ، وأن يلقى عرابى ذلك التأييد والتشجيع لقيادة الثورة ، واستمرت صحافة النقد والهجوم التى

(*) Broadly : op. cit.

كانت في أيدى الناس جميعهم رغم تشددات رياض تعطى دفعة القيادة للعسكريين ، وهنا وضع عرابى ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة . ولم يعد الأمر سرا بعد أن جهر به عرابى علنا فعقد الاجتماعات « وقام فيها بخطب لو وجهت الى الحديد لذاب ووعظ لو طرق أذن ابليس لتاب وجعل يده اليمنى محمود سامى الأمين ، ويده اليسرى عـلى فهمى الكرار » (١) هاجم فيها نفوذ الأجانب وسلطتهم وطالب باقامة العدل على أساس الحرية والاخاء والمساواة .

وبدأت عملية المد الثورى بتوزيع العرائض على العسكريين لاسقاط وزارة رياض ، وتأليف مجلس للأمة ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على باقى القوانين العسكرية الجديدة . وقد صرح عرابى اليهم « بأن القوة فى يدنا والعلماء والأعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا فان لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة » (٢) وبذلك يتضح ان البرلمان لم يكن بمفرده فى الصورة ولكن هناك أبعاد أخرى وفكر ثورى جرىء يعلن للعسكريين لينفذوه بقوة السلاح .

وتكثفت الاجتماعات وتتابعت المنشورات الثورية ضد النظام القائم لتحث على اسقاطه ، وخاصة ذلك المنشور الذى دار فى البلاد كلها لانابة عرابى عن الأمة والذى كتبه بنفسه ليفهم الجميع الأوضاع التى آلت اليها مصر ، وليبين ان هناك من يساند المطالب من الأعيان والعلماء والعمد والمشايخ والتجار ومشايخ العربان .

وكل الى النديم مهمة توزيع منشورات النيابة فى مصر كلها وجمع التوقيعات من المصريين المؤيدين لذلك وكان خير ما اختير ، فقد جاب البلاد طولها وعرضها واستعمل فصاحته وموهبته فى الاقناع وكان الناس على أتم استعداد لتقبل ذلك بعد أن طفح بهم الكيل ، وعاد النديم الى القاهرة يحمل العرائض الموقعة بالتأييد الكامل لمطالب عرابى التى أصبحت مطالب للأمـــة .

ومضت اجهزة الدعاية لنشر تلك المبادىء الجديدة « وأكثر الرسل في التطواف على بيوت الأعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس » (٣) . وراح عرابى يستقبل تلك الوفود من جميع أنحاء القطر من أسوان الى الاسكندرية بعرائض التفويض

---

(١) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ٥٨ .

(٢) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ١٤٤ .

(٣) ميخائيل ساروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

اليه في النيابة عنهم ، وفي التضامن لجميع الاجراءات التي ستتخذ والنتائج المترتبة عليها .

أما عن دور توفيق فى الحيز الثورى فقد كان فى بداية الأمر من المشجعين لقيام ثورة تنهى سلطة الحكومة القائمة لكنه سرعان ما تخلى عنها اذ ان الضعف والتردد كانا من سماته ، وبالرغم من انه مع بداية حكمه صرح برغبته فى تحقيق آمال الأمة « بجعل الحكومة شــورى ونظارها مسئولين » لكن لم ينفذ ذلك حيث خضع للنفوذ الأجنبى الذى بفضله تولى عرشه فأصبح أسيرا له ، ويزداد الأمر بالتسلط الكامل لرياض فحقد عليه بعد أن طغى وأصبح الرجل الأول فى مصر بفضل ما له من علاقات كانت تفوق العادة مع القناصل وخاصة القنصل الانجليزى ، وبعد أن أصبح الحكم وزاريا يعتمد على المراقبة الثنائية التى تحكمت فى رياض كما أرادت لا خديويا يمارس فيه الخديو سلطانه . لهذا نجد توفيق دائم الشــكوى من رياض ، فكان لابد من انقاذ ذلك الانهيار الذى تهاوت اليه سلطته .

قبل أن يتولى توفيق العرش كان على صلة بأعضاء الحركة الوطنية ، لذا كان من السهل عليه بعد أن أصبح حاكما أن يعيد اتصاله بهم لا لحبه للوطنية ولكن للاستعانة بهم فى القضاء على مناوئيه ، وفكر جيدا فوجد ان القوة ستكون بجواره عند اقترابه منهم ، وان العسكريين لب هــذه القوة فى الوقت الذى راح يجذب فكر المثقفين وذلك عن طريق تشــجيع الجمعيات التى كان النديم وقودها ، فقام توفيق بزيارات لها ولمدارسها محاولا استمالة تلك الطبقة لمحاربة رياض .

وبدأ يفتش على من تناولتهم يد رياض من العسكريين بالرغم من انه لم يكن مرتاحا للنفوذ الذى حصلوا عليه عقب قصر النيل وخاصة عرابى الذى كثيرا ما كان ينتابه من ناحيته ذلك الحقد العميق وتلك الغيرة الكبيرة كمصرى أصيل له من الشهرة ، والصيت ، والتاييد الشعبى ، والوطنية الجارفة ، اذن فلم يكن مطمئنا للعسكريين ، وكان يكره سلطتهم مثــل كرهه لســلطة رياض ، ولكن ذكاءه أوصــله الى انه يمــكن له أن يضرب واحدة بالأخرى ثم يتفرغ للباقية فيقضى عليها وبذلك يصبح الأمر سهلا ويمتلك السلطة ويتربع على عرش مصر فعليا .

وكان التخطيط لذلك ، فنراه عقب قصر النيل ، وفى ١٢ فبراير ١٨٨١ يجتمع بالعسكريين من رتبة بكباشى فما فوق بحضور البارودى ليقربهم منه « وخطب فيهم فعفى عنهم وأظهر لهم المحبة ووعدهم باصلاح حالهم (*) » ،

(*) الكوكب المصرى ، عدد ٩٣ فى ١٨ فبراير ١٨٨١ .

فى الوقت الذى ظهر فيه ارتيابه من سطوتهم . وراح يدعم علاقته بعلى فهمى القائد الأول لحرسه والذى كان مرتبطا بالسراى عن طريق زواجه من احدى شركسياته ، وهو ذو حماس متقد ووطنية صادقة وصلة قوية مع الثوار القادة ، ولعب دور الوسيط بين توفيق وباقى القادة .

ومضى توفيق فى الدس ضد رياض وتحذير العسكريين من وزارته وما تكنه لهم ، وذلك ليتمكن من ضم قوتهم اليه والوقوف بجانبه ضد رياض عدوه من ناحية وعدوهم من ناحية أخرى ، وقد أدرك انه بتلك العلاقة الوطيدة التى تربط بين على فهمى وعرابى وبهذه القوة يمكن له أن يصبح ، ملكا دستوريا شعبيا » (١) .

وفى احدى المرات التى كان يتوجه توفيق فيها الى الاسكندرية كان معه آلاى حرسه برئاسة على فهمى ، وهنا بدأ يفاتحه فى امكانية العمل الموحد للقضاء على العدو المشترك .

كان هذا أول تصريح مكشوف لتوفيق للمشاركة فى الحركة الوطنية بأن يكون رابع القادة الثوريين ، اذن لم يكن توفيق يعارض فى الدستور اذا كان سيؤدى بالاطاحة بحكم رياض وسلطته وأصبح طرفا فى معارضة النظام القائم ، وهنا كان لقاء المصلحة ، وقد رأى العسكريون انه لا مانع من اتمام الصفقة حيث كانت سياسة رياض فى الاعتقالات ماثلة أمام أعينهم ، فلابد من التحالف ولو مع الشيطان .

٩ سبتمبر ١٨٨١

أصدر داود يكن أوامره بتفريق آلايات الجيش وقواده لكن لم تنفذ بناء على الرفض الذى قوبلت به ، ورأى العسكريون فى ذلك الوقت انه لا يكفى اسقاط ناظر الحربية فحسب بل الوزارة كلها ، فقد أبلغ عرابى توفيق طلب الأمة عزل رياض ووضع دستور لمصر ، بعد أن أيقن ان الوقت قد حان لانقاذها من العبودية التى كانت ترزح تحت أغلالها فكان واثقا من انتصاره ، وأخبره عن ميعاد ٩ سبتمبر فى العاشرة صباحا من أجل اللقاء لعرض الطلبات وان ذلك سيكون بمظاهرة وطنية شاملة العسكريين والأهالى ، وكتب الى قناصل الدول بذلك وأعلمهم بأنه لا خوف من هذا التجمع الوطنى على أبناء تابعيهم حيث ان الأمر متصل بأحوال البلاد الداخلية ، ووقع على تلك الخطابات بأنه ممثل الجيش المصرى (٢) .

---

(١) Ninet : op. cit., p. 133.

(٢) Broadly : How we defended Arabi and his friends, London, 1884, p. 11.

وهنا ارتاب توفيق من الأمر رغم ما ذكر فقد سيطر عليه ضعفه وخاف من الضياع ، استدعى كولفن المراقب المالى الانجليزى والذى كانت له الخبرة الطويلة فى الادارة الهندية ، وأيضا رياض واستون وعرض الأمر ، وأبدى كولفن رأيه بأن يرسل الخديو قوة من البوليس للقبض على عرابى عند وصوله الى عابدين ، لكن توفيق عارض ، حيث كان يعلم تمام العلم انه لن يطاع أمره فى ذلك ٠

ومحاولة لايقاف الزحف ومنع الحشد اصطحب توفيق معه رياض الى مراكز الآلايات لكنه لم يتمكن من ذلك ، ولربما قام بهذا العمل حتى يبعد عنه أية شبهات يمكن أن تلصق به لاسقاط نظام رياض وكان كل شىء معدا الاعداد الكامل ٠ وفى ساحة عابدين رابطت القوات العسكرية وقد اختلفت المصادر فى اعدادها وكل ما يهمنا انه كانت هناك أعداد كبيرة مسلحة تسليحا كاملا حتى المدافع فقد نصبت ، ووقف معهم آلاى الحرس الخديو بعد أن قام على فهمى بحيلة فى البداية بدعوى حراسته للسراى لكن قراته كانت ثائرة للغاية حتى انه أثناء زحفهم كانوا يرددون « نحن عاصين ، نحن عاصين ، نحن عاصين » (١) ، أيضا كان هناك عساكر المستحفظين يقودهم ابراهيم فوزى ٠

امتلأ ميدان عابدين بجماهير الشعب بما لا يحصر عدده ، يصاحبهم شعورهم الذى وصل الى قمة الاشتعال ، جاءوا لأول مرة ليشهدوا هذا المشهد الذى لم يألفوه من قبل ، وليشاركوا القائد فى طلباته ويشجعوه ويشدوا من أزره فى هذا الموقف الذى لم يقفه مصرى من قبل ، ولم يكن الجمهور هو جمهور القاهرة فقط ، بل زحفت الوفود من الأقاليم على رأسها حوالى ألفين من الأعيان والعمد ، بالاضافة الى وجود أعضاء مجلس شورى النواب فى ذلك الجمع ٠

وبذلك أصبح جليا أمام الجميع ان طلبات العسكريين هى مؤيدة ومصدقة من كافة الأمة ، وكما أقر قنصل النمسا بأن « الثورة ليست عسكرية بل انها ثورة شعبية » (٢) ٠

وفى الموعد الذى حدده عرابى حضر توفيق ومعه كوكس قنصل انجلترا بالاسكندرية ، والجنرال جولد سميث مراقب ادارة الدائرة السنية ، وباقى القناصل ، وطالب عرابى باسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى وزيادة عدد الجيش الى القدر

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٨١ ٠

(٢) Politisches Archiv, Fasz XXXVIII/195, No. 106 poi., 16 Sep., 1881.

المعين في فرمان السلطان والتصديق على جميع القوانين العسكرية السابق رضعها وهنا صاح جميع الضباط وراء عرابى « نريد الوزير محمد شريف » فأبان توفيق ان هذه الطلبات ليست من شأن الجند ان يطلبها ، وأشار كوكس على توفيق بالعودة ، وبدأ هو وكولفن وممثل القنصلية النمساوية في التفاوض مع عرابى بالنيابة عن توفيق ، حتى في مواجهة الثورة بلغت السلطة الأجنبية مداها على المصريين ، وأفهم كوكس وكولفن عرابي ان هذه المسألة فيها مخاطرة كبيرة ، وأنه من الممكن من جراء ذلك وأمام اصرارهم على المشاركة في الحكم ان عليهم أن يستعدوا لملاقاة قوات مشتركة من الباب العالى وأوروبا وكلاهما له رغبة فى ذلك ، فأجاب عرابى بأن الجيش يريد الحرية للأمة وأن تؤمن تلك الحرية ، وذلك بتشكيل مجلس نواب (*) ٠

ولم تسفر المفاوضات عن نتيجة غير التحدى العنيف من العسكريين. وانقطعت فترة احتار فيها من فى داخل السراى ، فاقترح كولفن على ممثل القنصلية النمساوية أن يخبر العسكريين بأن الخديو على صلة بالباب العالى بخصوص مطالبهم ، ويطلب منهم الانصراف حتى يصل رد الآستانة وقبل الخديو الاقتراح ، لكن أجاب عرابى ومن معه بأنهم سيبقون فى حالة تأهب تحت السلاح حتى يصل الرد ، واذا كان الرد غير مرض فانهم لن يعترفوا بالخديو ٠

عرض على العسكريين اسمان لرئاسة الوزارة ، حيدر باشا يكن واسماعيل باشا أيوب فرفضوهما ، فالأول شقيق داود يكن وهم يعارضون أن يتولى الوزارة أى عضو من العائلة الخديوية ، والثانى ليست له خبرة الا فى الشئون المالية ، وطالبوا بشريف وأصروا عليه ، فما كان الا أن تمت الموافقة على ترشيحه لرئاسة الوزارة ، وصمموا على أن يكون البارودى للحربية وأحمد الدره ملى محافظا للقاهرة ٠

وقرأ عرابى كتاب تكليف شريف بالوزارة بصوت عال ، فاستقبل ذلك بهتافات عالية وداوية من جميع المحتشدين ٠

وهكذا انتصرت الثورة فى خطواتها ، وأمر رياض بمغادرة مصر فغادرها منهزما محطما بعد أن سقطت سلطته وصولجانه وبعد أن أذاق الناس الذل والظلم ، وسقط نظام حكم قوى وأوتقراطى مثله رياض أصدق تمثيل ، ليقوم نظام آخر اختاره المصريون ، وتم كل ذلك بدون اراقه نقطة دم واحدة ، اذ انسحبت الحشود فى هدوء تام ، وأصبح عرابى البطل

(*) Ibid, Fasz XXXI/24, 9 Sept, 1881.

والممثل الصادق لأمة بعناصرها يؤيده الجميع فى كل مكان ، وغدا التاسع من سبتمبر هو الشرارة الوطنية التى سرت بين الشعب عامة .

وبعد ذلك النجاح الذى كلل به جهود الأمة ، وذلك الانتصار الذى حققته الثورة ، كانت مصر تدوى فيها الفرحة فى كل مكان ، فلم يحدث من قرون عدة على شاطىء النيل أن فاض هذا الشعور ، ففى القاهرة كان الرجال فى الشوارع يوقفون بعضهم البعض بدون سابق معرفة ويتعانقون حتى الغرباء لتلك الحرية الجديدة التى بدأ عهدها ، وأصبحت الكلمات المعبرة عن الحرية والمساواة والتقدم والوحدة تتداول بين الناس بل وتسيطر على أفكارهم (١) ، وسرت الطمأنينة الى النفوس بذلك الاشراق الجديد ، وأحست مصر بأنه قد صار لها كيان ورجال وأيضا حكام تختارهم بنفسها بعد أن انتهى حكم الظلم والجهالة الذى طال عليه الزمن ، وخصوصا بعد أن تأكد المصريون ان الحكم النيابى فى الطريق اليهم ، فان لهم أن يرتاحوا بعد طول العناء ، وقد عبر بلنت عما حدث بقوله « ان نصر الحرية المدهش الذى بدا لهم فجأة وهبط عليهم بعد ليل طويـــل ومخيف ، قد حرر الصحافة من رقابة رياض الصارمة ، فكان محمد عبده ينشر الأخبار عـلى أقصى سرعة ، وأصبح الرجال يجتمعون ليتكلموا بلا خوف من البوليس أو الجواسيس ، وغمرت روح السعادة جميع الطبقات من مســلمين ومسيحيين ويهود وشاطرهم السرور الأوربيون المرتبطون بالحياة الوطنية حتى القناصل اعتبروا ان النظام الجديد أحسن من البائد » (٢) .

وعمت احتفالات النصر كل مكان ، وشارك الجميع فيهـا تعبيرا عن ذلك الشعور الفياض الذى غمرهم ، وبذلك يعتبر ذلك اليـوم من الناحية العملية بلورة لكل التطورات التى كان يجيش بها المجتمع المصرى .

لكن ماذا عن موقف توفيق من هذه الأحداث ؟ وضـحنا الدور الذى لعبه توفيق لتشجيع الانطلاقة الثـورية ، لكنه داخليا وفى قرارة نفسه ساءه ما حدث الى أقصى درجة اذ وجد ان عرشه الذى يسعى لتثبيته قد اهتز ليس بقوة العسكريين فحسب بل من الأمة جميعها التى وقفت بجانبهم وبعـــد أن أصبح عرابى وكأنه الحاكم الحقيقى لمصر لا ينقصه الا التاج ، واحتار فى الأمر بعـد أن نجح فى ابعاد رياض لكنه وجد ان النار تقرب منه ، وقد انعكست نفسيته فى تلك المراسلات التى بدأها فى نفس يوم التاسع من سبتمبر الى الباب العالى ليبين « ان الفساد وروح الثورة قد

(١) Sabry : op. cit., p. 195.

(٢) Blunt : op. cit., p. 153.

تنتشر بين العساكر الشاهانية » ونعت عرابى بأنه « رئيس المشاغبين » وسرد أحداث ذلك اليوم والطلبات التى قدمها العسكريون .

وأعقب ذلك طلبه للمعونة العسكرية لمقاومة العسكريين « وبما ان أوان اصلاح هؤلاء الثوار والمشاغبين قد مضت ولم يكن هناك مجال أو أمل في استصلاحهم ، فأرجو ارسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورا على جناح السرعة على أن تكون قيادتها العامة منوطة بى خاصة » الى هذه الدرجة اهتز توفيق وأراد أن يقف أمام العسكريين . ووفقا لسياسة التردد التى تمسح بها نجده يتراجع عن طلبه لعلمه بأنه على عكس ارادة انجلترا وفرنسا التى تحاول بكل الطرق أن تبعد أى تدخل عثمانى فى مصر ، فنراه يبلغ السلطان عن اختيار شريف وان ذلك كافيا لحل المسألة لكنه فى نفس الوقت أراد أن يعلم السلطان أبعاد العسكريين ومبادىء ثورتهم « لماذا يحكم مصر العنصر التركى وغيره من العناصر الأجنبية العديدة ؟ ولماذا لا يكون زمام الأمر بمصر فى أيدي مصر ؟ ولم تتسرب ملايين الجنيهات الى الخارج تسديدا لديون الأجانب ؟ (*) » .

من هنا أراد توفيق أن يبين ان الثورة ضد العنصر التركى ليثير السلطان التركى على الثوار ، وقد مضى على هذه الوتيرة طوال الثورة فهو يردد ان الثورة قومية وهدفها فصل مصر عن الدولة ونصرة العنصر العربى .

أما عن انعكاسات ٩ سبتمبر على انجلترا وفرنسا ، فقد كانت الأولى ترى ضرورة بقاء مصر تحت السيادة العثمانية منذ معاهد لندن ، وعقب افتتاح قناة السويس رأت أن تشرف عليها ، وباحتلال قبرص زادت اهتمامتها بها فى الوقت الذى كانت تشرف فيه على ماليتها فى اطار الوحدة مع فرنسا التى مكنتها من عزل اسماعيل ، وعقب اعلان الحماية الفرنسيه على تونس بدأت انجلترا تفكر جديا فى احتلال مصر . اذن كيف تسمح بهذه الحياة الوطنية الجديدة التى نشأت على أرض مصر ؟ لابد من الوقوف أمامها ، وفى البداية رأت على الأقل أن تشرك معها فرنسا والدولة العثمانية ، ومن أجل ذلك تردد ماليت كثيرا على الآستانة ، لكنها فى نفس الوقت ترفض بشدة أى تدخل تركى مسلح فى مصر ، فرغم انها أحاطت السلطان علما بثورة ٩ سبتمبر الا انها أبانت له رفضها فى ارسال أية قوات اليها ، واشتركت معها فرنسا فى ذلك الرأي ، وقد اعتبرت انجلترا ان سقوط الوزارة بناء على الارادة الشعبية التى جعلت الجيش لسان

(*) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، دفتر ٢٨٧ ، صادر رقم ٢ ، ٤ ، ٥ .

حالها أمرا خطيرا ، وان طلب دستور « لا تؤيده حكومة جلالة الملك » ليس من السهل اعطاؤه ، وتحركت انجلترا بسرعة فأصدرت أوامرها الى ما ليت بالعودة من الآستانة الى القاهرة ، وأصبح واضحا تمام الوضوح ان انجلترا ستقف عائقا أمام الحياة النيابية التى تريدها مصر ، حيث رأت ان ما شيدته خلال الفترة السابقة وتلك المجهودات التى بذلتها ، قد انهارت بهذه الثورة التى اهتزت لهـا هيبة الخديو والتى أسقطت سلطة المراقبين ، وخصوصا بعد أن أيقنت انها ليست عسكرية اذ كتب كولفن يقول « انها حـركة مصرية وطنية جاءت نتيجة للتطور الفكرى للعقلية المصرية » (١) .

أما فرنسا فلم ترنح أبدا لما حدث ، فكيف يحصل شعب عربى اسلامى على حريته وحقوقه فهى تخاف كل الخوف أن تنتشر عدوى ذلك الى الجزائر وتونس فالأخيرة لم تمض غير فترة قصيرة على اعلان حمايتها عليها لذا نراها تصرح بأن سلطة الخديو قد اهتزت وان الفوضى تعـم مصر وانه لابد من حتمية احتلال أوروبى ليعيد الامور الى نصابها ، فى الوقت الذى رأت فيه اقامة اتحاد حربى انجليزى فرنسى للرقابة عليها ، حتى لقد وصل الأمر أن طلب القنصل الفرنسى بمصر من وزير خارجيته تجهيز قطع من الأسطول فى ميناء بيريه (٢) .

وواضـح ان النية قد عقدت منذ أن تفتحت الثـورة للقضـاء عليها وكسرها بعد أن أزعج الدولتان أن تحصل مصر على ما فقدته منـذ زمن طويل .

---

(١) Sabry : op. cit., p. 200.

(٢) Affairs étra gètes, LXXXII, No. 27, p. 29, Egypt, No. 3 (1882), No. 6, Doc. dip. F. Tom IV, No. 119.

الفصل السادس

انتصار الثورة وممارسة العسكريين للسلطة

وزارة الثورة الأولى :

نجح شريف فى الاستيلاء على الوزارة ، وقد كانت له من المؤهلات التى ساعدته على ذلك ، فكان خير من مثل العقلية المستنيرة المثقفة ، وله قبل الثورة مواقف لا يمكن أن نغفلها ازاء حركات الرفض المتكررة تجاه التدخل الأجنبى ، وتزعمه للحركة الدستورية فى نهاية عهد اسماعيل حينما ظهر كبطل للوطنية ، كما أنه يتمتع برضا الوصاية الأوروبية وخاصة انجلترا وفرنسا ، ورأى الخديو فيه الأمين الذى سيرد اليه سلطته المسلوبه سواء التى استولى عليها رياض أو التى بدأت تؤول لعرابى •

ومنذ البداية ، وعقب أن ردد الثوار اسمه وطلبوه رئيسا للحكومة زاد ذلك من سعادته ، لكنه فى داخله كان يخشى السطوة العسكرية بعد تلك المكانة التى استحوز عليها العسكريون وخاصة عرابى وشهرته التى لم تعد تقتصر على مصر فقط بل خارجها حينما رددت اسمه الدوائر السياسية والصحافة الأجنبية ، هذا بالاضافة الى ان فكره قد انصب على ان الحكومة الشورية التى جاء من أجلها يجب أن تكون بعيدة عن القوة والتسلط العسكرى حيث ان ذلك هو من سمات الحكومات الديمقراطية •

وهنا يجب ألا ننسى ان شريف كان يريد عودة السلطة التى تسود فى ظلالها الطبقة التركية التى يمثلها أصدق تمثيل ، وبالرغم من ذلك فقد اعتبر العسكريون شريف من أطهر الشخصيات وفضلوه على من سواه ، فيرفضون تلك الخدمات التى عرضها نوبار عليهم ليقود الحركة الوطنية اذا سلموه زمام الحكم •

تمنع شريف في البداية حتى لا يقال عنه انه جاء على أسنة الرماح وانه شارك فى الأحداث الثورية ، وفى نفس الوقت ليكسر شوكة العسكريين حتى لا يتحكمون فيه ، فقد أراد أن يدعم موقفه جيدا ، فقدمت اليه التراجى فكان هناك نحو الألفين من العمد يلحون عليه فى قبول رئاسة الحكومة (١) ، كما قدمت اليه عرائض مزيلة بأكثر من أربعة آلاف ختم يرجوه أصحابها قبول الوزارة وانقاذ البلاد من رق العبودية واصلاح أحوال الحكومة (٢) ، أضف الى ذلك ضغط كل من قنصلى انجلترا وفرنسا عليه لقبول الوزارة ، اذ رأيا فيه المعتدل المرضى عنه والذى يمكن له أن ينفذ الموقف وذلك لقدرته على فهم نفسية الشعب المصرى ، ولامكاناته التى تؤهله لاستغلال الموقف جيدا « والوقوف أمام أية كوارث ممكن أن تتعرض لها مصر » (٣) ، والكوارث فى نظر انجلترا هى امتداد الثورة ٠

وكان العلماء والأعيان والعمد قد تعهدوا لشريف بأن يطيع الجيش جميع الأوامر التى تصدرها الحكومة بكل انقياد وامتثال ، وأخذ شريف من عموم المجتمعين الضمانات والوعود القوية ، وذلك بأن قدم كل من سلطان باشا ، وسليمان باشا أباظة ، وشريعى باشا ، ومنشاوى بك وأمين بك الشمس ، والشيخ على الليثى ، وعبد السلام بك المويلحى ، والشيخ الصباحى ، والشيخ أحمد محمود ، وابراهيم افندى الوكيل ما يقضى بالانقياد التام لأوامره ، وخطب سلطان فى ذلك الجمع عن نشر الحرية والعدل والمساواة فى البلاد ، كذلك رفع العسكريون عريضة الى شريف موقعة بأختامهم يتعهدون فيها بالامتثال لأوامر الحكومة ، وأشاروا فيها بثقتهم فى شريف ، وان الجيش هو القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر لخير الوطن ، وركزوا على حقوق المصريين التى يمنحها لهم القانون (٤) ٠

وقبل شريف الوزارة على هذا الأساس ، ولكن كانت نشوة الانتصار مازالت مسيطرة على العسكريين بعد أن وضعتهم الظروف فى المقدمة ، وقد انعكس ذلك على نفسياتهم فأحسوا بتلك العظمة وبضرورة ممارسة السلطة ففى ١٦ سبتمبر ذهب عرابى على رأس وفد من العسكريين ليهنئوا شريف بالمنصب الجديد كان ذلك ظاهريا لكن فى الباطن كان الهدف اشعاره بأنه فى ذلك المكان بفضلهم ، ورد شريف على التهنئة التى كان يفهم مغزاها بقوله « فى علمكم ما قال الأقدمون آفة الرياسة ضعف السياسة ، ولا حكومة الا

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ « دوسيه ٥٣/أ ٠

(٢) أحمد عرابى : تقرير ، مطبعة الجامعة بمصر ، ١٨٨٢ ، ص ص ٧ ، ٨

(٣) Affaires étrangères LXXXII, No. 57.

(٤) محمد خليل صبحى : المرجع السابق « ص ١٠١ ٠

بقوة ولا قوة الا بانقياد الجنود انقيادا تاما وامتثالهم امتثالا مطلقا (١) » وبالرغم من ذلك فقد طلب منه عرابى تشكيل الوزارة من الذين يوافقونه على سرعة تشكيل مجلس النواب وأن يكونوا من أصحاب الحريات بل وصل الامر بأن فرض عرابى من يريده اذ طلب « أن يكون محمود باشا سامى ناظرا للجهادية ومصطفى باشا فهمى ناظرا للخارجية لأنهما يميلان الى العدل والحرية ، وأن العسكرية لا تنق الا بمحمود باشا سامى » وهنا أراد شريف ان يلعب الاعيبه ويتولى هو الجهادية حتى يسيطر على العسكريين « أحلا ترضون ان أكون ناظرا للجهادية فأنى تربيت متلكم فى العسكرية » لكن عرابى قطع عليه خط الرجعة « اننا اخترناك لوثوقنا بك أن تكون رئيسا للوزارة » .

وعندما تباطأ شريف فى تشكيل الوزارة ذهب اليه عرابى وهدده بأنه ان لم تشكل الوزارة فورا « طلبنا تعيين غيرك ، فلا تظن أنه ليس فى البلاد غيرك فان فيها والحمد لله العلماء والحكماء والمهندسين » (٢) . وشكلت الوزارة واستلم القادة العسكريون زمام مواقعهم خارج القاهرة . لكن عيونهم كانت ترقب الأمور بكل دقة .

شريف والحياة النيابية :

كان على شريف أن يواجه مسئولية الموقف وأن يحقق رغبات الأمة فى تشكيل مجلس نيابى ، ذلك المجلس الذى كان أحد طلبات يوم التاسع من سبتمبر والذى أكده تقرير ألف وستمائة من وجوه البلاد وأعيانها وعلمائها قدم لشريف ، وهو يعد من أهم وثائق مصر فى حياتها الدستورية لما ضم من معان متقدمة دلت على عقلية ناضجة ومدركة .

ووقع هذا التقرير من ارض مصر كلها من القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة والمنيا وبنى سويف واسيوط ، وقدم فى ١٠ سبتمبر ومن الواضح انه أعد قبل التاسع من سبتمبر بفترة حيث أنه من غير المعقول أن يجمع توقيع ألف وستمائة فى ظرف أربع وعشرين ساعة .

وواضح منه مدى الوعى التام والفهم الكامل لابعاد النظام النيابى الحر السائد فى أوروبا والمطالبة بتطبيقه فى مصر ، وبناء على ذلك أصدر الخديوى امرا بأجراء انتخابات لمجلس نواب فى ٤ أكتوبر ١٨٨١ ومن الملاحظ أن حركة انتقال العسكريين من القاهرة لم تتم الا بعد صدور هذا الأمر بالرغم

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٢١١ فى ١٧ سبتمبر ١٨٨١ .
(٢) احمد عرابى : مذكرات ، ص ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

من أن شريف أعلن ان دورهم قد انتهى وانه لم يعد هناك سبب لتدخلهم فى الشئون السياسية التى راى انها تترك لمحترفيها ·

أراد شريف أن يحقق المسألة النيابية وذلك حتى يظهر للأمة حسن نواياه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأى احتواء العناصر التى ستمثل فى هذا المجلس والتى يمكن لها اذا لم يلب طلبها أن ترتمى فى أحضان القوة العسكرية ويشكل هذا خطرا على سلطة شريف التى يمكن انهيارها أمام هذا التعاون ، وأنه بهذا الاحتواء يسهل اسقاط أية مؤثرات من جانب العسكريين عن طريق المجلس ·

من ذلك يتضح أن خطة شريف كانت واضحة فى فصل الحزب الوطنى عن الحزب العسكرى . وقد صرح لماليت « بأنه ينوى دعوة المجلس النيابى للاجتماع . ويأمل أن يصبح تدريجيا هو الممثل الشرعى لحاجات البلاد الداخلية ، وبذلك يجرد الجيش من تلك السلطة التى انتحلها لنفسه فى الحركة الأخيرة » (١) ·

رئى تشكيل المجلس وفقا للائحة مجلس شورى النواب وذلك بأن يتم الانتخاب بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات ، ويجتمع شهرين فى السنة وأن تكون جلساته سرية ، ولم تكن هذه الطريقة تتفق ورغبات المصريين الذين كانوا يريدون تغيير قانون الانتخاب القديم واحلال آخر محله ، لكن شريف كان يرفض أى تغيير حتى ذلك الذى اقترحه عليه عرابى من أن ينفذ قانون انتخاب كان قد أعد فى أواخر عهد اسماعيل يعطى حقوقا أوسع للمجلس ، وأيده كثير من الأعيان وعارضه شريف وهدد بالاستقالة وتأزم الموقف وتمكن سلطان من تغيير اتجاه عرابى عن مشروعه هذا · وقد كان هذا دليلا آخر على معاكسة شريف للعسكريين والحد من تدخلهم فى أمور السياسة وأصدر منشورا الى جميع المديريات والمحافظين ينبه المديرين والمحافظين على ترك الانتخابات حرة ، وهذا أول منشور انتخابى فى الحياة النيابية المصرية يقضى باحترام الانتخابات العامة ونجح فى ذلك ولم يتدخل المديرون كالمعتاد فى الانتخابات · وطالبت الصحافة بانتخابات حرة ، وسرت الدعاية الانتخابية بألا ينتخبوا الا من « عهد فيه الصدق وعرف فيما بين العموم بالفطانة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع البلاد » (٢) ·

---

(١) Cromer : op. cit., Vol. I, p. 206.

(٢) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ·

ساهم الازهريون بنصيب وافر فى الانتخابات وهم ثوريون . فنجح مرشحوهم ، وقد كان هذا النجاح تأكيدا لانتصارات التاسع من سبتمبر حيث جاء الأعضـــاء يتسمون بروح التشيع لاتجاهات الثورة فى اقرار قواعد العدل ، ومما يدل على زيادة الوعى الانتخابى اننا نرى لأول مرة فى الصحافة أحد المرشحين يطعن فى صحة انتخاب آخر « انتخب محمد أفندى عوض نائبا عن مركز دمنهور بسعى أخيه وأقاربه عند عمد ومشايخ المركز وتقدم فى حقه للمديرية بأوجه تفيد عدم لياقته للنيابة ، وانه أشيع منذ بضعة أشهر قتل حسن عوض ومرجان العبد باتحاده مع أخيه الحاج خليفة » (١) ، وفعلا لم تمض أيام الا وتقرر عدم قبول هذا الشخص فى عضوية المجلس .

وجاءت الانتخابات الجديدة بالعناصر البورجوازية الثورية ، فضمت من كان متزعما لحركة المعارضة فى المجلس السابق ومن ذوى العصبيات فى المدن والأقاليم ، ومرة أخـرى يضم المجلس بين جناحيه كبار مـلاك الأراضى وزعماء الريف .

وصدر أمر توفيق بتعيين سلطان نائب المنيا رئيسا لمجلس النواب وهذا الأمر قد أعطى الراحة العامة للجميع ، وتحقق أمل سلطان الذى كان منذ البداية يسعى اليه والذى جعله يســـاهم فى تحقيق مطالب العسكريين ، وعين سليمان أباظة وكيلا للمجلس ، وعبـــد الله فكرى سكرتيرا عاما وأديب اسحاق كاتبا ثانيا لأعمال المجلس ، ويبـــدو اذه كان للعسكريين رأى فى هذا الاختيار .

كان يوم افتتـاح المجلس من الأيام الخالدة فى تاريخ الأمة . فقـد غمرت الفرحة كل قلب ولبست مصر ثوب الحياة النيابية التى جاءت على أيدى ثوارها ، وازدحمت الشـوارع بالنـــاس وغمرت الأمكنة القوات العســكرية بالقرب من مكان المجلس ووقف محمد عبيد على بابه ليثبت للجميع هذا الانتصار . ويصور لنا أحمد شفيق وكان شاهد عيان « كنت أرى النواب فى حركة ناشـــطة وعلى وجوههم آيات السرور والاستبشار وسمعت بعضهم يقول : ان الأمة قد استطاعت أن تحقق أمانيها بفضـــل ما بذله عرابى وزمـــلاؤه ، وكانوا يضطرمون حماســـة فى أقوالهم وحركاتهم (٢) .

ولم تكن الجلسات علنية لكن فى جلسة الافتتاح لم يستطع الحراس ،

(١) المفيد عدد ١٨ فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) أحمد شفيق . المرجع السابق ، ص ١٣١ .

منع الجمهور من الدخول فدخلوا ، وكان ذلك تعبيرا عن المشاركة الفعالة للشعب . وألفت لجان المجلس ، فكانت لجنة المدن برئاسة عبد السلام المويلحي ، ولجنة الشرقية برئاسة أمين الشمسى ولجنة الغربية برئاسة محمد المنشاوى ، ولجنة الأقاليم الوسطى برئاسة اسماعيل سليمان ، ولجنة قبلى برئاسة محمود سليمان ، واللجنة الدستورية برئاسة حسن الشريعي ، وقد لقى المجلس التأييد التام والتشجيع الكامل من الصحافة وجاءت خطب الجمعة فى المساجد يوم افتتاح المجلس كلها عن الشورى مبينة محاسنها والاقتداء بالرسول الكريم (ص) فى تطبيقها ، وعبرت الكنيسة الكبرى البطريركية عن فرحتها باقامة حفل كبير تكريما لذلك .

وضح ان معظم المسيطرين على المجلس هم من أعضاء الحزب الوطنى فكان لابد من تطبيق برنامجه الذى اذيع ونشر داخليا وخارجيا لدفع الحياة النيابية الى طريق العمل السليم ، وكان شريف قد أعد الدستور الجديد لعرضه على المجلس ، ووضع فيه القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية ، كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام المجلس ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية ، وحقه فى اقرار القوانين والضرائب بحيث لم يعد من سلطة الحكومة استصدار أى قانون أو فرض أية ضريبة دون تصديق المجلس ، وعلى هذا الأساس تضمن هذا الدستور روح الحرية ، لكن كان هناك فى نفس الوقت تخطيط بوضع قيود وحدود له تجعله يحول دون تحقيق السيادة الكاملة للأمة ، فقد كان ثمة شبه اتفاق بين شريف وتوفيق على تقييد سلطة المجلس نفى لقاء للأخير مع نظامى باشا أبان له انه واثق من شريف باشا المعين لرئاسة النظار وان سلطة هذا المجلس لا تتعدى النظر فى المشروعات العامة (١) ، ومما لا شك فيه انه عند الاعداد لهذا الدستور كانت سلطة المراقبين مفروضة حيث تم أخذ ورد بينهما وبين شريف ، وفى ٢ يناير ١٨٨٢ قدم المشروع الى المجلس ، ووجه شريف نظر المجلس الى تعهدات مصر الدولية وبوجوب احترامها « حتى يأتى اليوم الذى يستطيعون فيه أن يعيدوا بناء حكومتهم ويحصلوا على ثقة الدول لهذا اعترض على حق المجلس فى اقرار الميزانية وسن القوانين الخاصة بمالية البلاد أو مناقشة الخراج الذى يدفع للباب العالى » (٢) ، كما أوضح لهم الحالة المالية التى عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها وما نشأ عن ذلك من ترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات بعضها بعقود

(١) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة أثناء الثورة العرابية . دفتر ٢٨٨ . ٧ اكتوبر ١٨٨١ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ٤ يناير ١٨٨٢

خصوصية والبعض الآخر بقانون التصفية ، لكن سمح للمجلس بحقه النظر في مرتبات الموظفين الأجانب والادارة الأوروبية عند نظر الميزانية ٠

هكذا وضعت القيـود أمام العمل البرلماني ، وفي لقاء لشريف مـع بلنت ابان بأن المصريين « أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الأطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الملائم لهم ، وان لم يرضوا فعليهم أن يعملوا بدونه فأنا الذى خلقت الحزب الوطنى وانهم لن يستطيعوا العمل بدوني . فهؤلاء الفلاحون في حاجة الى التوجيه » (١) ٠ كانت هذه نظرة شريف الى الذين أعطوه الثقة وأوصلوه على أكتافهم لحكم مصر ٠

تصدع وزارة شريف :

لم تمض الا أيام قليلة ـ وأثناء اشتغال اللجنة الدستورية بالنظر في اللائحة الأساسية ـ وتوتجه الحركة الوطنية تسلطا خارجيا تدخل معه في صراع مرير وطويل لا ينتهى الا بنهايتها وتحطيمها ٠

لقد عز على انجلترا وفرنسا أن تجد نهضة نابعة من الكيان المصرى ولا تقضى عليها ، فمنذ بداية الثورة كانت النية مبيتة على ذلك ، وازداد القلق مع التاسع من سبتمبر ، فأرسلنا قطعا من أسطولهما حتى لا تعطيا الفرصة لتركيا للتدخل في المسألة المصرية عقب بعثتها الأولى وتنفردا بها وكانت المصالح بينهما تجبرانهما على اتباع سياسة التعاون المشترك في مصر ٠

وكان لوصول جمبتا للوزارة الفرنسية أثره الكبير على مصر ، عدا الاستعمارى الذى أراد « تقوية مركز فرنسا في الخارج بتدعيم سياستها الاستعمارية في شمال افريقيا ، وتوثيق صلاتها بانجلترا فيما يتعلق بالقارة الاوروبية وتسخيرها لخدمة اتجاهه الاستعمارى » (٢) ٠

ارتاب جمبتا لأحـداث مصر الأخيرة وكان يتوجس خيفة من ثورة اسلامية تهدد مصالح فرنسا في تونس والجزائر وانتشار الشعور القوى للحرية في شمال افريقيا ، وقد وصل تفكير فرنسا انه اذا ما حملت انجلترا عـلى التدخل في شئون مصر يمكنها تحويل اثارة الرأى العام الاسلامى عنها الى جهة أخرى ٠

---

(١) Blunt : op. cit., p. 196.

(٢) د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية « القاهرة ٠ دار المعارف ، ١٩٦٥ ، ص ١٧١ ٠

أضف الى ذلك ان جمبتا كان من أصل يهودى فارتبط بالمصالح المالية فى مصر عن طريق صلته ببورصة باريس وبيت روتشلد وغيره من أصحاب الاموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين المصرى، هذا وكان لوجود نوبار وولسن فى باريس خير من ينتصح بآرائهم .

ومن هنا بدأت الاتصالات المكثفة بين الدولتين وأوضح جمبتا فى مراسلاته انه من الخطر السكوت على ما يجرى فى مصر وأن المصلحة تقضى بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس النواب ، ورأى ضرورة مساندة توفيق لقص جذور الحركة الوطنية ، وقد أيدت انجلترا هذا الاتجاه ورحبت به حيث جاء متفقا مع هواها من ناحية ولاستمرارية سياسة الوفاق مع فرنسا من ناحية أخرى ، وجاءت تعليمات القنصل الانجليزى من مصر بأنه لابد من تشجيع الخديوى بأعطائه الأمل بالتأييد والمساندة ، بعد تأكد ماليت من ذلك النشاط والحماس المتقد الذى دب فى المصريين والذى سيطر على مجلس النواب وجعله واضعا نصب عينيه حقوقه الكاملة ، وهذا الشعور الفياض بالكراهية للأجانب وخاصة الموظفين منهم .

وأخيرا ، كانت النتيجة مذكرة ٨ يناير ١٨٨٢ المشتركة الى الخديو لتعلن فيها الدولتان عن عزمهما تأييد سلطته « للتغلب على الصعوبات المختلفة التى قد تعترض انتظام الشئون العامة فى مصر ، وانهما متفقتان تمام الاتفاق على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر ، وتعتقدان ان الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة اليها لادارة شئون البلاد » (*) .

وأصبح واضحا بتلك المذكرة ذلك التعاون بين القوى الخارجية والخديو والذى وصل الى مرحلة التهديد وتكوين جبهة للقضاء على المشاكل الداخلية ، والمقصود بها قوة العسكريين وقوة النواب والخارجية بالوقوف أمام الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر .

ساعدت هذه المذكرة على اشتعال المصريين ، وتأجج الموقف فى مجلس النواب وزادت حدة المعارضة وخاصة بشأن مسألة الميزانية التى كانت مثارا للخلاف بين الحكومة والمجلس ، فقد كانت ميزانية مصر تنقسم الى قسمين قسم خاص بايرادات الدين العام وقسم آخر حر ،

(*) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٢٨/٣١ ، ٢٠ اكتوبر ١٨٨٢ ، ص ١ .

وأراد المجلس حق التصويت على القسم الأخير ، وكان ذلك معقولا وليس مبالغا فيه ، فمن حق مصر أن تمنح الشعور بالحكم الذاتي دون مساس بمصالح الدائنين .

ورفض المراقبان بشدة السماح بذلك حيث أرادا أن تكون الميزانيه بكاملها تحت تصرفهم ، ولم يكن الرفض من المراقبة فقط بل جاء أيضا من الخارج ، فقد أبلغ جرانفيل وزير الخارجية الانجليزية قنصله في مصر بالرفض النهائي لتدخل النواب في هده المسأله (١) .

ووضعت لجنة مجلس النواب لائحة أساسية تعطى للمجلس حق النظر في الميزانية وفي تشريع القوانين والتوسع في مبدأ مساءلة الوزارة أمامه ، وبذلك ينتهي قانونا ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ ، ١٥ نوفمبر ١٨٧٩ اللذان خولا للمراقبين حق تولى اعداد الميزانية مع مجلس الوزراء ، وذلك بعد أن وصل الأمر الى الاصرار على أن يكون للمجلس السلطة التشريعية في الدولة ، وفي اجتماع ٢٢ يناير ١٨٨٢ صمم أعضاء المجلس على ألا يقبلوا مطلقا تعديلا في لائحتهم ، ورفضوا بالاجماع ما قدمه شريف من اقتراحات ، ورأوا أن هذا التدخل الأجنبي هو تحد بالغ لكرامة مصر وحقوقها واجتمع بعض النواب ومعهم سلطان بشريف للبحث في الخلاف لكن كان تصميم النواب مؤكدا ، وسعى شريف لدى وكيلي فرنسا وانجلترا بأن يبقى اختصاص مجلس النواب استشاريا فيما يتعلق بالقسم الخاص بالديون وقطعيا فيما عدا ذلك ، واذا قام خلاف بين مجلس الوزراء ومجلس النواب تشكل لجنة للتحكيم من سبعة نواب والوزراء السبعة ويكون لرئيس النظار الصوت المرجح عند الاختلاف ، ويكون رأى اللجنة قطعيا ، لكن جاء رد جرانفيل بالرفض ، وحاول شريف أن يرجىء ما هو متعلق بالميزانية في اجتماعات المجلس لكنه فشل ، وطلب ماليت وكولفن من بلنت اقناع النواب بأن مسألة التصويت هذه هي خارجة عن سلطاتهم ، فالتقى بهم بحضور محمد عبده وكانت المناقشة طويلة لم يصل فيها الى المرجو ، ويقول بلنت « ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بأنهم لا يرغبون ، ولم يسعنى الا الاعتراف بأنهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميزانية اذا كان الحكم النيابي سيكون حقيقة لاتمويها » (٢) .

وهنا قدم قنصلا انجلترا وفرنسا مذكرة بابحاء من الرقيبين تتضمن « ان الدولتين تريان ان المواثيق المتعلقة بالمالية لا تجيز للحكومة اعطاء

---

(١) Egypt, No. 5 (1882), No. 56, F.O. January 11, 1882

(٢) Blunt : op. cit., pp. 193, 194.

مجلس النواب حق تقـــرير الميزانية قطعيا ، وان القنصلين مستعدان للمخابرة فى الامـر على رجاء حصـــول الوفاق ، وان فتح المخابرة بطلب الحكومة لا يكون الا بعد تمام الاتفاق بينها وبين النواب على سائر بنود اللائحة » (١) .

وتأزم الموقف وأجاب المجلس بأنه لاحق للقنصلين معارضة ما هو من شئون مصر الداخلية ، وكانت تلك صيحة قوية تأصلت فى النفوس ولم تكن قاصرة على النواب فقط بل كانت الدائرة تتسع لتضم الناقمين على شريف ، وبرز سلطان على مسرح الأحداث وأعلن ان مشروع شريف الدستورى غير متكامل ، وراح يعقد الاجتماعات فى بيته لدراســـة الموقف ، وقد لمس من حدة الموقف اتجاهات الثوريين للاطاحة بشريف ، ولم تكن الا فرصة سانحة أمامه ليقتنصها ويدعو الى تنفيذها بعد أن اشتم من سياسة شريف الأخيرة رائحة العهد البائد ، ورأى فى التغيير تحقيق أمل كان يسعى اليه خصوصا انه حرم من التعيين فى تلك الوزارة ، وفى احدى هذه الاجتماعات تقرر رفض شريف والسعى لاسقاط وزارته وقد تزعم ذلك الرأى عرابى « وتكلم فى استعفاء الوزارة ولزوم توجه النواب لطلب ذلك » (٢) .

وبالرغم من ان شريف كان على علم بما يدور الا انه تصلب فى رأيه فهو يكره الثورة والثوار وكان مؤمنا بالتدرج فى منح الحريات لذا كانت ميوله تنفى وحرمان المجلس مما رغب فيه ، كما ان مصالحه أرغمته على ذلك ، وسانده فى هذا الموقف بعض من كبار الملاك الذين بدءوا فى عملية الانسحاب ، لكن الباقين لم يرق لهم هـــذا النهج من الاعتدال المشوب بالسيطرة الأجنبية اذ كان معناه الرجوع الى ما كانت عليه الحال ، اذن لابد من التمسك والتصميم ، وتألفت لجنة من النواب المشهورين بمواقفهم الراسخة للحصول على الجواب النهائى من شريف ، فأبى التصديق الا اذا وافقت الدولتان فكان لهما الرد الثورى والاستجابة الفعالة التى أسقطت شريف فى النهاية وتسجل صحيفة المفيد هذا اللقـــاء « قالوا له : ان التصديق على جميع بنود اللائحة مما تطالبك به الأمة ، ومن اللازم المبادرة الى اجابتها ، وأما الدولتان المذكورتان فلا داعى الى توقفهما فى ذلك ، لأن هذه المسألة لا تمس مصالحهما ، نحن نتأسف اذا أحوجتنا لأحد سواك يصدق عليها ، ونهضوا فى الحال وكانت اللائحة على الترابيزة أمام دولته فأخذوها ، فقال لهم دعوها لننظر فى أمرها فقالوا لا لزوم لذلك وخرجوا

---

(١) مصر ، عدد ٩ فى ٦ فبراير ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٨ .

فاصلين المعيه ، فقال لهم الخديو اذا كانت الوزارة متوقفة فما العمل .
فقالوا نستعفى ونشكل وزارة غيرها وهى تصدق على اللائحة » (١) .

كان تأثير العسكريين على النواب ملموسا ، ويتضح انه بالرغم بما فعله شريف من محاولات لابعاد قوة العسكريين الا انه لم يتمكن من ذلك واستمروا حاملين لواء الثورة شاهرين أسلحتهم أمام المعارضين . ولم تكن فكرة اسقاط شريف مرتبطة بمسألة الميزانية فقط بل سبقتها حيث كانت رغبة العسكريين أن يكون افتتاح المجلس نهاية للوزارة ، وقد أكد شريف فى شهادته عقب نهاية الثورة ان البارودى كان يستقبل كل ليلة المعارضين من النواب أمثال الشريعى وأمين الشمسى وابراهيم الوكيل وكان يشجعهم على التمسك بما طالبوا به وأضاف انه عند افتتاح مجلس النواب حضر أمين الشمسى الى سلطان برسالة من عرابى مؤداها أن يتوجه سلطان الى البارودى للاتفاق معه على الطريقة لاسقاط الوزارة حيث كانت العادة فى أوروبا أن الوزارة تسقط عند افتتاح مجلس النواب (٢) . لكن لم يتم ذلك .

وبهذا يتبين مدى سيطرة العسكريين وتوجيههم للأمور وسمو تفكيرهم لاتباع الأسلوب الأوروبى المتحرر وتطبيقه على مصر ، لكن لم تكن سيطرتهم قهرية ، اذ ان التكاتف والتعانق بينهم وبين النواب وأعضاء الحزب الوطنى كان متكاملا .

وانهارت الثقة بين الحكومة والأمة وكانت النتيجة هى اسقاط شريف ووزارته بناء على ذلك الالتحام بين العسكريين وكبار الملاك الذين أرادوا وزارة أخرى تنفذ رغبات المجلس المتمثلة فى رغبات الأمة .

لم يكن أمام توفيق الا الموافقة بل انه تنازل عن حقه فى عملية اختيار الوزارة الجديدة وتركها للجنة النواب التى طلبت منه استعفاء الوزارة واحلال أخرى « تنفذ لائحة النواب » ، واختاروا من كانت العين واقعة عليه وهو البارودى ، وقد عبر توفيق عن هذا الاختيار لمندوبه بالآستانة بأنه « من الذوات الموافقين لأمزجتهم » (٣) .

كان ضعف توفيق واضحا فى اجابة طلبات النواب رغم ما استند عليه من تأييد خارجى بناء على مذكرة يناير . فقد أحس أنه لا يستطيع أن

---

(١) المفيد ، عدد ٣١ فى ٥ فبراير ١٨٨٢
(٢) محافظ الثورة العرابية ، نفس المصدر .
(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، عابدين محفظة ١٦٣ ، ملف ثابت باشا ، ٤ فبراير ١٨٨٢ .

يوقف هذا المد الثورى ، كما انه خاف من ثورة عسكرية يمكن لها أن تطيح بعرشه . وقد رضخ وسلم بالامر بعد أن وضح موقف تركيا .

مع بداية الأزمة أرسل توفيق للسلطان يعرض عليه طلب المجلس وأبان له أن العسكريين فى جانب النواب ، وجاء رد تركيا بتأييد المجلس نظرا « لما تقتضيه الحالة والظروف ، ومنعا لايقاع النواب فى اليأس والهيجان » (١) ، وبذلك لم يكن من المعقول أن يخالف توفيق رأى تركيا ونراه يحلل موقف نوله للدول الأوروبية أصحاب المصالح فى مصر « ان معارضة المجلس فى مطلبه لابد وأن تؤدى الى مظاهرات شعبية يؤيدها الجيش ، وان المجلس قد هدد باتخاذ قرار انزاله عن العرش وانه لا يملك بين يديه وسيلة لحله » (٢) .

ويظهر ان خوف توفيق لم يكن فقط من ثورة عسكرية بل من ثورة عامة . اذن فلابد من الموافقة على اسقاط الوزارة ، وكما ارتفع شريف وعلا بفضل كبار الملاك والمثقفين على انه رمز للحكم الدستورى سقط يتهاوى على أيديهم ، وانفصل عنهم الى نهاية عهده بهم حيث بدأ من جديد يمارس سلطته بعد نهاية الثورة .

انجازات وزارة شريف :

واحقاقا للحق وانصافا للعدل يجب أن نذكر ان شريف كان معتدلا ولم يكن ثوريا ولا متطرفا ، ولا ننكر ان وزارته أعادت الحرية ، وأعطت للرأى العام كثيرا من حقوقه التى كانت مسلوبة منه ، فعقب توليه الحكم دعا كل ذى ظلامة الى التظلم مما أصابه . فأحس المصريون بانتصار ثورتهم ، فتدفقت العرائض على شريف لاسقاط ظلم رياض « فكان منهم كثير حكم عليهم بالنفى والابعاد فاقتضت العدالة توجيه النظر الى هؤلاء المتظلمين وأسباب الحكم عليهم . فطلب تحرير جدول بأسماء من أبعدوا عن أوطانهم ، فوجد ان الذين سافروا بمعرفة الجهادية بناء على أمر الداخلية ممن حبسوا فى الطوبخانة يبلغ عددهم ٩١٢ ، وبالنظر فى ذلك الجدول علم ان بعضهم اكتفى فيه بافادة ترد من الجهات تفيد انه من الأشقياء يلزم ابعاده وما شابه ذلك من الأسباب التى لا يعتبرها قانون القوانين ، فان أصول العدالة وشرائعها تقتضى بأنه لا يحكم على جان بجزاء الا بعد تحقق جنايته وثبوتها عليه بالطريقة الشرعية المثبتة فى قوانين

---

(١) نفس المصدر .

(٢) الأرشيف المساوى ، نفس المصدر ، ص ٦ .

الحكومة » (١) ولم يكن الأمر قاصرا على سجناء الجهادية بل ان الطرد والحرمان والتبعيد والسجن كان على كافة الناس ، وفي الحال شكلت لجنة للتحقيق وقامت بعملية حصر شاملة لهؤلاء فتبين ان هناك « زهاء الأربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية ، فأطلقوا من بقى منهم فعادوا الى أوطانهم على نفقة الخزينة » (٢) .

كان أول المتمتعين بالعودة للوطن حسن موسى العقاد الذى أصبح من أقطاب الثورة ، وحميد أبو ستيت وولده أحمد والأول من كبار ملاك الأراضى بسوهاج ، وسيسجلان دورا هاما أثناء الثورة ، وقد وصل الأمر انه حتى من كان عليه حكم بناء على قرار من المحكمة ، خرج من سجنه ، مثلما حدث مع مصطفى بك عنانى الذى كان قد صدر عليه حكم المحكمة المختلطة لكن سعى العسكريون للافراج عنه فوافق شريف على ذلك (٣) .

بذلك استرد المصريون حريتهم مع الناسع من سبتمبر ليبدءوا انطلاقة جديدة بعد أن قضى على مظالم ما قبل الثورة ، وليثبتوا انهم شاركوا فى الثورة بكل امكانياتهم ولكن كانت الظروف أقوى منهم .

اقترنت وزارة شريف بلائحة تنظيم الخدمة المدنية ، والتى شملت قوانين للموظفين الملكيين تنظم العلاقات وشروط التعيين والترقية والتأديب والفصل . لقد أراد شريف أن يساوى العاملين فى الدولة ، فكما تمتع العسكريون بتلك القوانين التى صدرت والتى كانت فى طريق الصدور لتحسين احوالهم رأى أن ينصف المدنيين « فترتيب الخدامة الملكية وتحديد اعمالها عادل لأنه يمنع رؤساء الخدمات من ارتكاب الرذائل الباعثة عليها الرشوة أو الحامل عليها الخاطر » (٤) .

وبدأت عملية تطهير سريعة وواسعة من العناصر الفاسدة ورواسبها وتدور الدوائر على المديرين الذين مارسوا الظلم والجبروت ، فقد أقيل مدير الشرقية ، وحقق مع مدير أسيوط بناء على الشكاوى التى قدمت فى حقه ، كذلك خضع مأمورو البوليس لعملية تصفية وأحل محلهم من اتصف بالعدل ، وعلى سبيل المثال صدر أمر الداخلية برفت مأمور ضبطية بندر سوهاج لعدم لياقته لهذه الوظيفة ، وتطلب الداخلية من المديرية « ايفاد

---

(١) المحروسة ، عدد ٣٩٤ فى ٧ اكتوبر ١٨٨١ .
(٢) ميخائيل ساروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .
(٣) حافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٢٨ .
(٤) المفيد ، عدد ١٩ فى ٣٠ يناير ١٨٨٢ .

الأسماء الذين سبق لهم الاستخدام فى الميرى والحاصلين على صفات الاستقامه واللياقة ولا يكون من أهالى المديرية ولا له أطيان بها » (١) وذلك حتى يمارس العدل ولا يعمل لمصلحته أو لمصلحة أقاربه أو يستغل أهالى المنطقة .

ووضعت مسألة الرشوة نصب أعين الوزارة ، فيصرح مأمور الضبطية بالقاهرة ــ أحمد الدره ملى ــ بأن فساد الاحكام ونقص القوانين لا يتأتى الا من « البرطيل ومتى دخل البرطيل فى حكومة أفسد قوانينها وضاعت حقوق أمتها وأصبحت كالبيت الذى لا باب له يدخله من يريد ويسرق منه ما يشاء » (٢)

ووضع شريف نظام المحاكم الأهلية ، كذلك شرع فى وضع قانون للأمن العام لحفظ النظام والحقوق وليوقف الحاكم عند حده حيث ان الأحكام أغلبها اجتهادية ، وازداد الاهتمام بالتعليم ، فخصصت لميزانية قدرا وتوسعت المدارس ، مما يدل على الادراك الكامل والوعى للتعليم .

أما عن سياسة الوزارة تجاه الأجانب المقيمين بمصر ، فقد تقوى المصريون بانتصاراتهم وبدءوا يرفعون رءوسهم أمام الأجانب الذين كانوا يعلمون جيدا أن تلك الثورة هادفة للقضاء على سطوتهم وسلطانهم ، فكتب ماليت لوزير خارجيته عقب التاسع من سبتمبر يشرح له ذلك الألم الملحوظ الذى التهب بين جوانح الأجانب فى الاسكندرية والقاهرة لاحساسهم بأنه يمكن أن يتحول الأمر ضدهم (٣) .

وكان على وزارة شريف أن تتحمل تلك الأحكام التى أصدرتها المحاكم المختلطة نتيجة لطمع الاجانب وجبروتهم ، وتكشفت حملات الأمن لتقضى على مشاغبى الأجانب ، ولم تكن الضبطية قبل ذلك تستطيع أن تفتش بيوت الأجانب ، لكن الثورية المطلقة التى تميز بها المتحكم فى أمن مصر جرأته على فعل ذلك ، واستمر النشاط فى هذا المجال ، فقبض على المحتالين من « الأفوكاتية » والمزورين للأختام ومن على شاكلتهم من أسافل الأجانب وهم متلبسون (٤) .

وكان التحفز ضد الأجانب قد بلغ مداه والتطلع الى الثأر منهم

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ١٦ سبتمبر ١٨٨١ ، محفظه ٣٨ ، ٢٣ اكتوبر ١٨٨١ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٧ فى ١٩ اكتوبر ١٨٨١ .

(٣) Egypt, No. 3 (1882), No. 44, Sept 25, 1881, p. 30.

(٤) المفيد ، عدد ١٠ فى ٢٤ نوفمبر ١٨٨١ .

وصل أقصاه ، فقد حدث ان وجد شرطي قتيلا فى الطريق باسويس ، وكان من بلغ عنه رجلا ايطاليا يعمل بالادارة الصحيه فاعتقد الجميع انه القاتل ، وما كان من رجال الشرطه الا أن حملوا بنادقهم للانتقام وتبعهم الاهالى للمشاركة وذهبوا الى المحافظ لطلب الحكم عليه الذى حاول تهدئة الموقف لكن علت الصيحات « لا يحل لك ذلك يا مسلم احضر لنا النصرانى الساعة لنبطش به والا ذهبنا بالجثة الى القاهرة » ، وتأزم الموقف وانزوى الاجانب خوفا من الأهالى وتدخل القنصل الايطالى وأرسل شريف لجنـــة تقصى الحقائق (١) ٠

وصورت الوثائق النمساوية ما حدث بأنه ثورة عسكرية ضـــد الأجانب وان الموقف أصبح فى غاية الخطورة ، ولكنى أضيف ان المسألة لم تكن خاصة بالعسكريين بل كان شعور عـــام انتاب المصريون ضـد مستغليهم وان الأمر لم يكن قتل الشرطى ، فكثيرا ما كانت عملية القتل هذه تتم ، ثم انه اتضح من الايطالى لم يكن القاتل ، لكن روح العداء كانت مسيطرة عليهم ، ولم يكن ذلك خاصا بمدينة دون أخرى ، فقد حدث فى دمياط ان راح أهلها يهددون الأجانب ، فقد أهين وسب وكيل قنصـــل فرنسا ثلاث مرات فى الطريق ، ولم يتخذ المحافظ أية اجراءات ضد هذه الاهانات ، كما لم يرد البوليس عـلى شكاوى نائب القنصل المهان (٢) ، وفى طنطا حدثت اضطرابات بين أهلها والمقيمون الأجانب فدمر الأهـالى قهوة وحانوت ليونانى «ونصح القناصل الأوربيون بعدم ترك منازلهم» (٣) ٠

ومما لاشك فيه ان ذلك يرجع الى التصرفات الشائنة والشغب الزائد اللذان تزعمهما الأجانب وخاصة اليـــونانيون الذين دائما وأبدا يثيرون الأهالى ، هذا بالاضافة الى ان هذه الفترة تختلف عن سابقتها ، ففيها نبعت الحرية ، وتوطدت فى الأعماق شعار الثورة « مصر للمصريين » ليكون ذلك صيحة ضد الامتيازات الأجنبية ، ومن هـــذا كان الانطلاق السافر لتلك الكراهية ضد الأجانب ، ووصل الأمر الى ان الحكومة نفسها بدأت فى كسر تلك الامتيازات فنرى فى احدى مناقشات مجلس الوزراء تتعرض للأوربيين ملاك الأراضى الذين لم يدفعوا البدلية على الأنفار « لتعضدهم بالقونسلات » وبعد المداولة توصلوا الى اعطاء الحكومة الحق فى تفتيش أراضيهم والعزب

---

(١) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٦١ ٠

(٢) Egypt No. 5 (1882), No. 92, January 17, 1882, p. 70.

(٣) The Times, Feb 1, 1882.

الموجودة فيها (*) • وبذلك أصبحت للحكومة سلطة تمارسها على الأجانب الذين أذاقوا مصر الأمرين •

- العسكريون والسلطة :

قدر للثورة أن تقوم على أكتاف العسكريين ، ففي أحيان كثيرة يكون للقوة ضرورة ، تلك التى كانت يمتلكونها ، فهم حاملو السلاح ، والفئـــه الأكثر تنظيما ، والأكثر تمرسا ، والأكثر جرأة ، والأكثر غبنا ، ومن هنا كانت معظم الثورات يتزعمها المسلحون . وانطبق ذلك على ثورتنا،ورأينا، كيف اجتاز العسكريون المجال منـــذ فبراير ١٨٨١ فى قصر النيـــل ، ثم المجهودات التى قاموا بها لتعبئة قوى مصر جميعها يساندهم فى ذلك ملاك الأراضي والمثقفون لتكون النتيجة التاسع من سبتمبر الذى ألهب حماسة الأمة المصرية جميعها •

كان المخطط يقضي أن يتراجع العسكريون الى مواقعهم. ليتولى أصحاب السياسة أعمال الدولة وتم ذلك فى بداية الأمر ، فبعد أن قدم العسكريون الوزارة لمن اختاروه ، وبعـد أن أيقنوا ان مطالبهم بل مطالب الأمـة قد شرع فى تنفيذها ، وبعـــد أن أصر شريف على ابعاد قوتهم المؤثرة وذلك بتفريقهم خارج القاهرة وهذا ما كانوا يرفضونه دائما ، أصبح الآن مقبولا لديهم بعد تلك المكاسب التى استحوذوا عليها وانسحبوا الى معسكراتهم •

لكن الى أى مدى كانوا صادقين فى البعد عن السلطة والسياسة ؟

اتهم العســكريون سواء كان عرابى أو البارودى بأنهما كانا يسعيان للسلطة وللحصول على المركز المرموق ، ونحن هنا لا ننفى ذلك ، لكن نعبر عن رأى ربما كان يميل للصحة وهو بعيد عن التحيز • لقد شاءت الظروف أن يكون العسكريون هم محققو أمل الأمة ، ومن هنا ارتبط فى ذهن الشعب عامة ان رمز الحرية والانتصار هو من صنع العسكريين وعلى رأسهم عرابى الذى تدفق الحب عليه هذا من ناحيـــة ، ومن ناحيـــة أخرى كان غالبية العسكريين فلاحين لم يتخرجوا من الحربية كأبناء « الذوات » ولكنهم ترقوا من تحت السلاح فهم ممثلون لتلك القوى الكادحة ومعبرون عن رأى مصر تمام التعبير ، وأخيرا فقد سعت المكانة المرموقة والشهرة لهم قبـــل أن يسعوا هم اليها ، ثم ما هـــو المانع من أن يسعى الانسان الى السلطة ، خصوصا اذا كانت مبادئه تخوله أن تكون تلك السلطة للصالح العـــام

(*) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر جلسات مجلس النظار . محفظة ٥/ر ، محضر ٢٢ ديسمبر ١٨٨١ •

رليست لمصلحته ، والتاريخ يذكر لنا انه حتى خلفاء الرسول الكريم (ص) لم يكن أحد منهم يكره الرئاسة بل الجميع كان يتمناها من أجل صـــالح المسلمين ·

رحل القادة بعيدا عن القاهرة كما أمروا ، وكان رحيلهم عن طيب خاطر وربما قصد به التمويه أمام المسئولين بأن دورهم قد انتهى بنوال أغراضهم فيقول عرابى : « واتفقنا على ذلك مبدئيا اطمئنانا للخواطر وتسكينا للقلوب ولكن على شرط صدور أمر الخديو بانتخاب النواب قبل سفرنا » (١) · ويفهم من ذلك ان هناك موعدا آخر مع العمل الثورى ، وجاء وقت الرحيل وكأن هؤلاء القادة الرؤساء الحقيقيون للأمة فى ترحالهم وحلهم وهـــذا مما عمق فى النفسيات المضادة الأثر السيىء ·

كان عبد العال حلمى أول من نفذ الاوامر بالسفر الى دمياط ولم يكن سفرا عاديا ، فقد مر بآلايه فى شوارع القاهرة حتى وصل الى محطتها التى احتشدت بالمودعين ، وارتفعت الأصوات بالخطب التى كان فحواها الاتحاد وبيان ان الجيش فداء لأرواح الوطنيين وان العسكريين هم الذين أحبوا روح العدالة والحرية والاخاء والمساواة ·

أما عن توديع عرابى عند سفره الى رأس الوادى ، فقد كان له سمة لقاء القائد الذى عاد من ميدان الحرب منتصرا ، فكانت الجموع المحتشدة غفيرة شملت قوى الأمة جميعها ، وكأنه الملك الغير متوج ·

وعلى طول طريق القطار وعند كل محطة يقابل الشعب عرابى بنفس الحماس حتى كانت الزقازيق مهد عرابى وموطنه الأصلى ، بها أهله وناسه وأحباؤه ومؤيدوه الذين لم يتخلوا عنه وعن الثورة لحظة ، وكان على رأس مستقبليه أمين بك الشمسى كبير تجار الزقازيق ومعه حوالى الألف شخص جميعهم يتقد حماسا هاتفين داعين مستبشرين ، وكأن العيد قد حـــل بالزقازيق ، وأقيمت الاحتفالات تشريفا وتعظيما ومهابة لعرابى الذى حدثهم عن الاصلاح ، وأبان سوء استخدام الأوروبيين بمصر (٢) ·

وبرز دور الأعيان بروزا واضحا فى تلك الاجتماعات التى كانت تتم تحت رعايتهم فى الشرقية فأمين الشمسى وسليمان أباظة وأحمد أباظة وكثير من العمد أمثال الشيخ أحمد محجوب عمدة العصلوجى أقاموا الولائم واللقاءات على شرف العسكريين وعلى رأسهم عرابى الذى كان فيها محفوفا بأعظم مظاهر التكريم والتمجيد وبذلك فشل شريف منذ البداية أن يسلب

---

(١) أحمد عرابى · نفس المصدر ، ص ١٦١ ·

(٢) Cromer : op. cit., pp. 208, 209.

عرابى مكانته التى فرضت نفسها والتى أصبحت موضوع الساعة لقوى مصر جميعها .

أراد العسكريون تأليف مجلس نواب يختلف عن سابقه ليس فى طريقة الانتخاب فحسب بل فى التكوين أيضا ، وقد تناولنا معارضة عرابى لشريف فى قانون الانتخاب ، أما مسألة التكوين فقد رأوا ضرورة اشراكهم فى هذا المجلس ، ومن بين أوراق الثورة العرابية خطاب يدل على أبعاد العسكريين مرسل من الزمر الى أحد الأصدقاء يبدو أنه من القادة العسكريين لاسيما عرابى الذى يعتبر الممثل لهم ، يبين فيه « ان المجلس عليه مدار العمل فى بث تمام الحريه وتنقيح القوانين الملائمه ، والنظر فى مهام الأمور وفصل معضلات المشاكل . وهذا لا يتأتى الا بحرية أعضاء المجلس وتدريجهم على سرعه السير ومناضلة الحكومه فى مستبداتها » اما من حيث التكوين « صار من الضرورى وجود من الثلاثة أعضاء الى الخمسة من رجال الجيش ومن السدس الى خمس العدد الاصلى من المتوظفين بحيث يكون هذا الخمس من علماء المهندسين والشريعة والكتاب الماهرين ليتيسر لهم ضبط وحساب وارادات مصر ومصروفات الحكومة والسير على محور الانتظام » ثم يطلب الخطاب عقد « جلسة خصوصية تتفق أراؤكم فيها على من تستحسنوهم من رجالنا أعضاء فيه وتبذلوا الجهد فى تعينهم » (١) ، وكان هذا اصرارا على مشاركة العسكريين فى السلطة لكن لم ينفذ ذلك حيث غيرت الظروف مجرى الكثير من مخططات الثورة .

ومارس عرابى ومن معه نشاطا مكثفا فى الشرقية « أخذ يتجول فى أنحاء المديرية مستصحبا معه بعض الضباط ، فكان يبث مبادئه وأفكاره فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان » (٢) .

وأصبح عرابى ملكا فى الشرقية فأثره فيها واضح للغاية ، حقيقة ان المصريين عامة تأثروا به ، ففى محاورة جرت بين بلنت وأحد المصريين البارزين قال الأخير « ان جميع الأمة المصرية أشربت أفئدتها محبة لما رأوا فيه من الذب عن حقوق الوطنى التى يعلمونها جميعا ولا يريدون السكوت عليها ولذلك أنابوه عنهم فى اظهار مقاصدهم التى يرغبونها للحكومة لما توسموا من حضرته من الخير ، ان أهل الوطن عموما متحدون على محبته » (٣) ، كان هذا شعور المصريين عامة ، لكن الشرقية أعطته المزيد لذا كان لابد للحكومة من وقف هذا التأييد المتدفق .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٥٤ .

(٢) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) المفيد . عدد ١٥ فى ١٢ ديسمبر ١٨٨١ .

وفى هذه الفترة كان عرابى كثيرا ما يتردد على القاهرة ليكون على مقربة من الأحداث وليراقب سير الأمور وليتتبع خطوات شريف وليرى ما تم ازاء مجلس النواب ، اذ كان من الصعب عليه أن يتخلص من التدخل فى السياسة خصوصا بعد أن أصبح على رأس الحزب الوطنى ، ومرات أخرى نراه فى القاهرة ، فقد راح يشتكى من ان النمل كثر فى رأس الوادى وأصبح الأمر خطرا على قواته ، فيرسل شريف البعثات الطبية لابادة النمل ورأى أن تنتقل القوات الى رشيد ، لكنه لم يذهب اليها وأبلغ ان عساكر الآلاى أصيبوا بحمى كادت أن تكون تيفوسية وان الذين يمرضون منهم فى الشهر ما بين سبعمائة الى سبعمائة وخمسين ، « فسئل هل يريد الانتقال الى فم البحر فأجاب بأنه لا يرغب ذلك لأن هذا المحل رطوبة » ، كما كان أحيانا يتناسى ميعاد القطار الذى ينقله من القاهرة الى رأس الوادى حتى يبقى بالأولى .

ويتضح ان عرابى بعد أن اطمأن بعمق أثره فى منطقة الشرقية ، وانها أصبحت تابعة لمبادئه وأفكاره رأى ضرورة أن يكون على مقربة من الأحداث لذا نراه يسوق الحجج السابقة علة يظفر بما يريد ، هذا فى الوقت الذى رأى فيه ماليت انوجود عرابى خارج القاهرة سيزيده قوة وسلطانا وسيكون لذلك نتائجه ، وانه اذا استخدم داخل القاهرة سيكون أفضل مما هو خارجها حيث من الممكن الاستفادة من نفوذه ، وشارك القنصل الفرنسى زميله فى الرأى ، كما كان ذلك موافقا للمراقبين ، كذلك كانت الحكومة تعلم ما لعرابى من مكانة فى النفوس وتريد أن تدعم مركزها تجاه المصريين ، فوجدت انه باحتوائها على شخصيه يمكن للأمور أن تسير بهدوء ، فتذكر الفسطاط « وقد جربت الدولتان وعموم المصريين ان طول مكث سعادة أحمد باشا عرابى مدة اقامته فى رأس الوادى أوجب أو كاد أن يوقع اضطرابا وخيم العاقبة فى القاهرة وغيرها ولولا ذلك لما اضطرت الحكومة على غير رضاها الى اقامته فى القاهرة وجعله وكيلا للجهادية لان استدعاءه فى ذلك الوقت كان هو بعينه الراحة العمومية والأمن والطمأنينة » (*) .

وكانت الوظيفة التى فكر فى اعطائها له بعد نقله للقاهرة هى وكيلا لنظارة الجهادية وهى وظيفة هامة واعتقد انه سيكون عند شغلها أقل خطورة على ما هو عليه ، وانه بها ممكن أن يتعرض لفقد شعبيته حيث يعمل من خلالها على الاهتمام بما تتطلبه مهامها وينظر الى مصلحة الحكومة دون أية

(*) الفسطاط ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

مصالح أخرى ، وبهذه الطريقة يبعد رويدا رويدا عن انغماسه فيما لا تحبه ولا ترضى عنه الحكومة وتفتر العلاقة التى ربطت بينه وبين الشعب •

وأخيرا فقد كانت رغبة البارودى أكيدة فى وجود عرابى بجـــواره ليستكملا معا التخطيط المتفق عليه فسعى بحجة أو بأخـــرى لدى شريف لرجوع عرابى للقاهرة ، وعاد وغدت القاهرة وكأنها بين يديه ، وصـــار بيته مقرا للاجتماعات العلنية ، وأصبحت رحابه « شبيهه بمجموع دوائر الحكومة لكثرة من كان يفـــد عليها للزيارة والتظلم ، وكان كثير من الأوروبيين ومراسلى الجرائد الافرنجية يذهبون الى بيته لاستطلاع سياسته والوقوف على مكنونات أفكاره » (١) •

ومضت الاجتماعات التى شكلها عرابى والتى لم تعد قاصرة عـــلى العسكريين بل غدت تضم العلماء والأعيان والتجار يأتون من كل فـــج عميق ، ويذكر أحمد شفيق « وكنت كلما مررت به ـ بيت عرابى ـ أرى الجموع داخلة اليه وخارجة منه ، وكان ظاهرا ان الحركة تتسع يوما بعد يوم » (٢) •

وكان وجوده بالقاهرة مع النواب من أكبر العوامل التى صعدت الموقف الى الدرجة التى لمسناها وفى تقرير للقنصل النمساوى يذكر « منذ أن عين عرابى وكيلا للجهادية وهو يطالب بقوة بحق تصويت المجلس على الميزانية وهو يعتمد على شعبيته ليعارض شريف » (٣) ، وبذلك أصـــبح عرابى قلب الحزب الوطنى وروح مجلس النواب •

وساءت حـــالة العسكريين بوصول مذكرة يناير المشتركة ، وكان شريف عندما علم بها أرسل بلنت لعرابى ليعرف مدى تأثير هذه المذكرة على العسكريين والحزب الوطنى ، وكان وقعها سيئا للغاية ، فقد اعتبر عرابى انها اعتداء على حريات الشعوب ، وأصبح بعد ذلك موقفهم يملؤه التحدى للنفوذ الأجنبى وذلك عن طريق المعارضة التى تزعمها النواب فى مجلسهم وأيضا عن طريق الصحافة ، فلم تكن تلك المقـــالات التى نشرت الا بايحاء من عرابى لهذا الغرض •

وازداد العسكريون قوة بصدور جميع القوانين العسكرية التى أصلحت من شأنهم، وكان على شريف ضرورة تنفيذها ليضمن ولاء العسكريين له وحتى

---

(١) سليم نقاش : المرجع السابق •

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١١٨ •

(٣) Polit, Arch, No. 19, Pol, 15 January, 1882.

لا يثيرهم عليه فكانت النتيجة التصديق عليها جميعها ، كما وضع نظاما للتعلم فى المدارس الحربية وشروطا للالتحاق بهـــا • كل ذلك ام يقلق الحكومة والمراقبين قدر ما أقلقهما الاصرار على زيادة عدد الجيش ، فبالرغم من أن الدولة العثمانية قد أعطت مصر الحق فى أن يكون عدد جيشها ١٨ ألف وهذا ما طالب به العسكريون حيث ان عدد الجيش كان فى ذلك الوقت ١١ ألف ، الا ان الادارة المالية رفضت توصيل الجيش الى العـــدد المطلوب •

وشجعت الصحافة على الزيادة « حيث ان ذلك من أهم الضروريات لحفظ الأمن فى داخلية الوطن الذى يطلق فيه الرومى أو غـــيره عياراته النارية على الوطنى ، وان بوغازاتنا تقضى علينا بالتحفظ عليها خصوصا طريق الهند » (١) ، وواضح ما تقصده الصحيفة من الاستعداد لأى غزو ممكن له أن يقع لحساسية المنطقة ، وقد تمسك العســكريون بضرورة الزيادة بعد الاعتداء على تونس التى لم يكن لديها القوة الكافية للدفاع عن نفسها أمام فرنسا •

وجاء الاعداد لميزانية ١٨٨٢ ، وطلب البارودى اضـــافة ٢٨٠ر٠٠٠ جنيه لميزانية الجهادية وصمم على رفع الجيش الى ١٨ ألفا لجميع الأسلحة « بيادة وسلاح فرسان واشارة ومدفعية وسلاح مهندسين » وبطبيعة الحال سيكون لذلك أثره على الميزانية ، وهنا اعترض المراقبان وخاصة كولفن الذى بين ان الميزانية لا تسمح بهذه الزيادة حيث ان الأموال الموجـــودة بالخزانة لا تكفى ، فى الوقت الذى جـــاء فيه الرفض من جرانفيل وبأن انجلترا لا توافق على ذلك (٢) ، وكان هذا أحد تحكمات انجلترا للوقوف أمام قوة العسكريين ، وبعد مفاوضات طويلة ، تم الاتفاق على زيادة عدد الجيش الى ١٥ ألف جندى •

وبنهاية تلك المسألة لم ينته نشاط العسكريين ، واستمروا فى العمل وفى الضغط والتأثير عـــلى كل قوى الأمة ، وكانت لهم وسائل دعاياتهم الناجحة حتى تمكنوا فى نهاية الأمر من اسقاط شريف بعد ما لمسوا فيه انحرافا تجاه سياستهم وميلا الى الاعتدال ورفضا للثورة ، وبعد أن فشل فى ممارسة نفوذه عليهم وفقد سلطته تجاههم •

ولم يكن شريف هو المنسحب من الميدان بل انهم هم الذين أسقطوه كما سقط من قبل نوبار ورياض اذا اعتبروا أنه كان عليه دور معين يجب

---

(١) المفيد ، عدد ١١ فى ٩ يناير ١٨٨٢ •

(٢) Malet : p. cit., p. 202.

أن يؤديه ، وحينما انتهى هذا الدور وانكشف أمامهم بأنه لا يمكنه استكمال الطريق الثورى كان هناك من أكمل هذا الطريق ، ومرة أخـــرى تعطى الظروف للعسكريين السلطة لكى يمارسوها على أوسع نطاق أثناء الوزارة التى تكونت على أيديهم •

وزارة الثورة الثانية :

جاءت وزارة الثورة الثانية أو الوزارة العسكرية الى الحكم بناء على الرغبة الأكيدة للامة عقب انتشار مبادىء الفكر الثورى للعسكريين ونزولها الأسواق ، ودخولها كل بيت اذ وافقت الهوى ، والتأمت لها الجروح وأصبح الاستعداد لتلبية نداء الثورة أمرا واقعا •

نادت هذه المبادىء ببرلمان ينتخب على أساس الحرية له الســلطة التشريعية الكاملة، ووزارة وطنية مسئولة ، وخديوى يملك ولا يحكم ـ وكان هذا مشابها لما نادت به الثورة الفرنسية فى بداية عهدها ـ ونظام ادارى عادل يجعل مشايخ القرى منتخبين بمعرفة الأهالى ومن الذين اشـــتهروا بالعفاف وحسن المعاملة ، وأن توضع قواعد عادلة لتحصـــيل الضرائب وامكانية الغاء بعضها (كالويركو) التى كان لها الأثر السىء على الفقراء أو تعديلها وجعلها مناســـبة لحالة الأراضى واستعدادها بدون فرق بين الأغنياء والفقراء ، وابطال السخرة ، والاقتصاد الدقيق فى الادارة دون مراقبة سياسية ودون موظفين أجانب على رأس الوزارة ينالون المرتبات الضخمة وألا يكون هنـــاك موظف أجنبى فى الادارة الا اذا اقتضى الأمر ويقدم كفاءته ويعطى المرتب المعقـــول والمدرسون والأطبـــاء منهم لابد وحصولهم على الشهادات لشغل مناصبهم ، وأن تكون مصر للمصريين مع الحرية والسلام لكل الأجانب الذين يجب أن يخضـــعوا للضرائب • وألا يكون للدول ووكلائها تدخل فى شئون مصر ، وانشاء بنـــك وطنى برأسمال مصرى موزعا بين الوقف والتركات وكبار الملاك لانقاذ مصر من الربويين الذين يندفعون على الفلاحين يأكلون أكبادهم ويدفعون لهم المائة ليأخذوها مائتين بعـــد ثمانية أشهر ومن الرهونات ، وأن توحد الديون الخارجية وتخفض فوائدها وديون الفلاحين تسددها الحكومة الى الدائنين على أقساط مناسبة لحالة المديونين ، وأن يبذل الأغنياء أموالهم لانشـــاء المدارس وترويج العلوم واحياء الصناعة ، وأن يصلح حال القضاء وذلك بوجود محاكم مديريات متخصصة ومحاكم أهلية بحتة ومحاكم استئناف وتلغى المحاكم المختلطة التى أضرت بالمصريين أكبر الضرر (*) •

(*) Broadly : The trial and Pardon of Arabi pasha, Vol. II.

كذلك شملت المبادىء مسألة الغاء الرقيق ، فقد صرح عرابى لبلنت بأنه « ما من أحد من المصريين يرغب أن يكون له عبيد غير أمراء الأسرة المالكة والباشوات الأغنياء ، وان المبادىء الحرة للاصلاح تجعل الناس سواسية مهما اختلفت فى الجنس أو اللون أو الدين » (١) . وبالرغم من وجـــود القانون الذى يحرم تجارة الرقيق « الا ان الباشوات قد تحايلوا على ذلك وخرج الرقيق من المراكب بدعوى انهم حريم الباشا الفلانى ، واذا خرجت الجارية من بيت مولاها والتجأت الى الضبطية اعتمادا على أمر الغـــاء الرقيق فلا يتيسر عتقها » (٢) . وقد حرصت الثـــورة على اخراج هـــذا القانون الى حيز الوجود ، وتحرير الرقيق وغرس المـــودة بينهم وبين المصريين .

ومضت المبادىء تتوسع وتنتشر وتتناول كل صغيرة وكبيرة عـــلى أرض مصر ، فتناولت الأبعاد جميعها من حرية ومن مساواة ومن عدالة ، وكما أعلن عرابى « سكان مصر كالواحد بدون فرق بين المذاهب والعقائد الكل انسان تجمعنا جامعة الانسانية (٣) ، وجهر بها فى كل كلمة تنطق وفى كل جملة تنشر ، وفى تقرير للقنصل النمساوى يبين دور عرابى فى نشر تلك المبادىء الحرة التى دعمت الروابط بين الشعب والتى لا تحيد عن الخط القانونى اذ انه يحترم المعاهدات لكنه يصرح علانيـــــة بأنه لن يسمح بتدخل لانجلترا وفرنسا خارج حدود تلك المعاهدات (٤) .

كانت مبادىء وطنية صادقة وديمقراطية نقية حرة ، ففى مقابلة جمعت عرابى وعلى فهمى وطلبة عصمت مع كولفن ابان عرابى بأن حكم المماليك وحكم العائلة العلوية متساوون فى الظلم للمصريين الذين لم يتحصلوا حتى على الحياة الآمنة والذين فقدوا كيانهم فهم ، اما مســـجونين أو منفيين أو ملقون فى النيل أو يموتون جوعا ويسلبون ، ذلك كله وفقا لرغبـــة سادتهم ، ان العبد المحرر أحر من المصرى الحر وان أجهل تركى مفضـــلا عن أشرف مصرى ، ان النـــاس جميعهم سواسية فى الحقـــوق والحـــرية والأمان (٥) .

وسيطرت صيحة مصر للمصريين على شعب مصر ، فكان الكره واضحا للأجانب ، الأتراك والشراكسة والشوام والأوروبيين ، وأصبح الجمع على

---

(١) Blunt : op. cit., p. 211.

(٢) الوطن ، عدد ٨٩ فى ٢٦ يوليو ١٨٧٩ .

(٣) احمد عرابى : تقرير ، ص ص ١٦ ، ٢٠

(٤) Archives de maison, de Cour et d'etat, Vienne Fasz 31/24, No. 41, 9 Fev. 1882.

(٥) Cromer : op. cit., p. 209.

الا تكون مصر ملكا لشخص يحكمها أو لعائلة واحدة وشعبها عبيدا لذلك الحاكم او لتلك العائلة ، وبعد أن صرح في بداية الثورة ان الخديو يملك ولا يحكم أصبحت تدريجيا الرغبة في أن يكون هذا الخديو مصريا لا تركيا فعقب اسقاط وزارة شريف أرسل القنصل النمساوى لحكومته يقول « ان الحزب الوطنى أصبح له المكانة ، وان رد الفعل أصبح موجها ضد ثلاثة سلطة الخديو وتدخل القوى الخارجية والخضوع لتركيا ، والشعب يرى انه من الطبيعي ابعاد الخديو كلية وأسرته ، وبهذا يمكن القول بأن الحرب أدى الكثير لأنه أصبح قوة لا يستهان بها » (١) .

وكان التصور للحاكم الذى يحكم مصر ، « أن ينتخب من الدين حسنت سيرتهم من المصريين ، ويكون رجلا عالما فاضلا محبا عند قومه ويكون انتخابه بمعرفة رؤساء الأمة المصرية ونبهائها الذين لم تدنس أعراضهم بالاشتراك في قبائح الولاة السابقين ، وهذا الحاكم يكون مقيدا بالقوانين ومنفذا لها » (٢) .

اعتنقت الأمة هذه المبادىء ورددتها ، تلك المبادىء التى أسماها عرابى « قواعد الأعمال » فيقول : « وكان يوافقنى عليها كثير من الناس ، وكان ينطق بموافقتها الجمهور الأعظم من أهالى البلاد ثم تحرك اليها بالفعل أعيان البلاد وتبعهم عامنها ، فكان الكل متحدين فى المقاصد ولكن يوجد بينهم بعض اختلاف فى الوسائل » (٣) ، وبذلك يتضح انها تغلغلت فى النفوس التى أصبحت فى انتظار على عجل لهذا التغيير الكامل والشامل .

ومضت جميع أجهزة الدولة تشجع هذه المبادىء وتسعى لاخراجها لحيز التنفيذ ، ولقى العسكريون التشجيع من الصحافة حتى الأجنبية منها فيكتب جريجوزى فى التيمز يؤيد ما توصل اليه العسكريون « ولا يستعجب من ان عرابى قد حصل على هذا المركز وانه أصبح من الممكن أن ينال العسكرى رتبة الأميرالاى أو الباشا بل يصير حاكم البلاد ، وان ذلك ليس خاصا بالشرق بل له نظير فى أوروبا فاننا لم ننس سلطة الجنرال بونابرت التى عمت حكومة فرنسا ، ويجب أن يعلم ان عرابى بك قام ضد ظلم اسماعيل باشا الشديد لأنه لا يوجد أحد يؤسس حكم القانون ضد القوة والأهواء سوى الجيش ، وأن من يميل للمقاصد التى بينها عرابى بك الداخلة تحت كلمة واحدة هى العدل » (٤) .

---

(١) Archives de maison : op. cit.

(٢) Broadly : op. cit.

(٣) Ibid.

(٤) المفيد ، عدد ٢٣ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

ويؤكد بلنت فى خطاب له الى جلادستون بأن الأفكار التى يعرب عنها عرابى ليست مجرد ترديد للعبارات التى تستعملها أوروبا الحديثة ولكنها آراء مؤسسة على المعرفه بالتاريخ وبالتقاليد العربيه الحرة الموروثه من أيام حرية الاسلام ، وليس لعرابى مطامع شخصية ، ولاشك ان الجيش والبلاد مخلصان له كل الاخلاص ، وهو يصرح بأنه ممثل الجيش لان الظروف أرادت أن يثق الجيش به ، والجيش ممثل الامة فهو حاميها ومرشدها ، وهو القوة الواقفة بين مصر وحكامها الأتراك الذين يسعون لتجديد شرور اسماعيل (١) ٠

وبذلك أصبح واضحا لماذا لقى العسكريون هذا التأييد الكبير وكيف انتشر فكرهم الثورى على أرض مصر وملكوا الزمام ومارسوا السلطة ٠

اختير البارودى بواسطة أعضاء مجلس النواب رئيسا للوزارة ، وكان مرضيا عنه من جميع الأطراف بالرغم من انه ليس بمصرى صميم ، ولكن أخلاقه وصفاته ومبادئه جعلته لآخر أيامه مخلصا لمصر والمصريين ٠ وهنا نتساءل لماذا لم يتول عرابى الرئاسة وقد كان له من التأييد ما يفوق الحد وعلى مستوى قوى مصر جميعها ، ولديه من الأصالة الوطنية والنشأة الريفية ما يدعم موقفه ؟

أرجع ذلك الى التبصر التام الذى كان أمام العسكريين ، وخاصة انه لم يكن هناك تخطيط فى تقديم أشخاص معينين لاحتمال فشل الثوره وبذلك يكون من يسعى للمنصب فى مأمن من عواقب الفشل فلم يدر بخلدهم مثل ذلك ، لكن كانت هناك اعتبارات أخرى على رأسها التعليم والثقافة ، فلا ننكر ان تعليم البارودى وثقافته ـ فهو خريج المدرسة الحربية متمرنا ومتمرسا على فنون الحرب والقتال وعقليته الدستوريه المستنيرة ـ رشحتاه بل وصدرتاه لأن يكون الرئيس ، هذا ولم يكن هناك رواسب من العقد فى نفسية عرابى من أجل استحواذه على الرئاسة بل كان وثوقه فى نفسه الى أقصى درجة وحب الناس له جعله على يقين من انه سيتولى ادارة دفة الأمور ، وخصوصا انه يعلم ان المناصب الحكومية لا تدوم وانه ممكن لأية حركة أن تسقط الوزارة لكن المناصب القيادية للشعب هى الباقية ، وقد أثبتت الحوادث ذلك فعندما كان لا يشغل أى منصب حكومى كان يخاطب الجهات الرسمية بأنه رئيس الحزب الوطنى الذى هو الأمة جميعها ٠

---

(١) Blunt : op. cit., p. 170.

هذا فى الوقت الذى كان الشعب ينظر فيه لعرابى على انه فرد منه ، اذن فالرئاسة لن تزيد من قيمته شيئاً .

كان البارودى صاحب صفحة نقية فى حياته مرضيا عنه من الجميع حتى من قبل الثورة ، فمنذ كان متوليا للضبطية بالقاهرة ذاعت شهرته بأنه رجل كامل وأمين ونشط ، وكان من المؤسسين للحركة الدستورية منذ عصر اسماعيل وعلى صلة بالوطنيين وخاصة العسكريين يبلغهم بالتيارات المضادة وهذا مما دعا رياض للتخلص من وزارته للحربية التى فرض عليها برغبة العسكريين .

كانت أيديولوجيته متفتحة فلم يكن يمر اجتماع الا وكان يصر على ان مصر للمصريين ، ويذكر أسماء وطنيين محررين لشعوبهم أمثال واشنطن ولافييت وغاريبالدى ويشرح ويستفيض عن معانى القومية وعن فضل مصر وحضارتها العريقة صاحبة الآلاف من السنين وانها كانت منارا للعلوم والمعرفة وقد آن لها الأوان أن تحصل على حريتها وتسترد مكانتها .

وبذلك لم يكن بعيداً عن أذهان العسكريين جعل مصر جمهورية واسقاط نظام الحكم الحالى وهو نفس الفكر الذى تأصل لدى المثقفين منذ أواخر عهد اسماعيل ، ولاشك ان للصحافة دورا كبيرا ، فكتابات المثقفين عن الحرية والاستبداد والدستور وفصل السلطات وأنظمة الحكم والقانون والحقوق رغبتهم فى اختيار النظام الجمهورى ، بل وكانت النية معقودة على أن يكون عرابى رئيسا للجمهورية ، فمن بين أوراق الثورة العرابية احدى الوثائق تؤكد ذلك (١) .

وواضح ان الأمل كان كبيرا عقب التاسع من سبتمبر مباشرة على اختيار هذا النظام بل وتحديد رئيسه ، وفى اجتماع حضره الثوار فى بيت العقاد دار الحديث عن السياسة وأنواع الحكومات وأساليبها ــ وكان ذلك متبعا فى جميع اللقاءات فى مصر آنذاك ــ وتحدث البارودى وأوضح « منذ بداية حركتنا هدفنا تحويل مصر الى جمهورية صغيرة مثل سويسرا وحينئذ تنضم اليها سوريا ثم تتبعها الحجاز ، ولكننا وجدنا بعض العلماء لم يتقبلوا ذلك فهم متأخرون عنا لكننا سنجعل مصر جمهورية قبل أن نموت ولنا كل الأمل فى ذلك » (٢) ، وبذلك نرى ان الحكم الجمهورى قد تأصل فى أعماق الثوار وسيطر على الأفكار ، وأصبح اسقاط نظام توفيق مطالبا به ، ولم يكن العسكريون فقط المطالبين ، ففى خطاب من مأمور

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣١٨/ب .

(٢) Blunt : op. cit., p. 344.

ضبطية القاهرة إلى عرابى يعبر له على أن « ذهب بعض الناس أن بعد عزل الخديو ستطلب الأهال تنصيب حكومة جمهورية يكون رئيسها سعادة أحمد باشا عرابى » (١) ، وغاب عنها ان مركز مصر الدولى الذى حددته التسويات كان يقف أمام ذلك .

ووضحت الاتجاهات الاشتراكية فى الفكر السياسى ، وظهرت فى اطاره تلك المبادىء التى اتخذتها الثورة ، كما تأكدت بتلك التصريحات ، نفى مكاتبة من عرابى الى أحد رؤساء آلاياته يقول « ان الجميع حكام فى بلادهم ماداموا متمسكين بالحق والمنهج القويم ، وان لكل فرد منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، اننا جميعا روحا واحدة مثبتة فى أجسام متعددة ، ولنضرب مثلا بحضرات الضباط بنفسى لأنى لست من بيت غنى بل من بيت متوسط الحال ، وها أنا بين أيديكم الآن ناظر على جهاديتكم » (٢) . وبذلك انصبت الأحاديث حول المساواة .

كانت هذه افكار الرجال الذين تولوا وزارة الثورة ، فالى أى حد كان التطبيق ؟ .

تم تشكيل الوزارة ، واختار البارودى الثوريين ليكونوا وزراء فى وزارته ، فعرابى للجهادية والبحرية ، ومحمود فهمى للاشغال العمومية وعبد الله فكرى للمعارف وحسن الشريعى للأوقاف ، وعلى صادق للمالية أما الخارجية والحقانية فقد أعطيت لمصطفى فهمى ، وكان الوحيد الخارج عن نطاق الثوار ، واختير نظرا لاتقانه اللغات الاجنبية ، وكان ممكنا للبارودى أن يبحث عن كفاءة أخرى ثورية ، ولم يستشر الخديو فى تعيين هؤلاء الوزراء ، وحتى لو استشار فلم يكن لرأيه قيمة ، ويقول البارودى فى محضر استجوابه « صدر لى النطق الكريم بانتخابهم بالاشتراك مع لجنة من النواب » (٣) ، وبذلك نرى وضوح عملية الالتحام والالتئام بين العسكريين وملاك الأراضى .

كان فاتحة عهد الوزارة دستور الثورة – لائحة الحزب الوطنى – وقد انصب على شكل الحكم وتحديد علاقة السلطتين التنفيذية والتشريعية على هدى المبادىء النيابية الحديثة ، فقد نقل حقوق السيادة الى الشعب ولكنها جعلت مناصفة بينه وبين الخديو ، كما انه لم يأت باخلال لحقوق الاجانب العامة فيما عدا مطامعهم غير القانونية فى البلاد ، وجعل الخديو يمارس

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٢) نفس المصدر ، دوسيه ٤٣/د/٨ .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/أ .

سلطاته بواسطة وزراء مسئولين ، كما أعطى الامة الحق في ممارسة سلطاتها هي الاخرى بنواب تسأل امامهم الوزارة .

لكن ماذا منح الدستور مجلس النواب ؟ لقد اعطاه كل ما يمكن ان يقدم له في مثل هذه الظروف التي تعيشها مصر ، لكن لم تكن الحقوق كاملة اذ حددت رقابته على الحكومة فحرم من حق التشريع الذي منح للخديوى يمارسه كحق سياسي بواسطة وزرائه . وقصر هذا الحق على المجلس في حدود الاقرار التشريعي دون غيره ، لكن انصب الاهتمام على بعض المسائل كالميزانية وحق الانسحاب والمسئولية الوزارية وحق اقرار الضرائب ، وكان الحق الاخير مهما لمصر والثورة « لا يجوز ربط اموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات او عقارات او ويركو فى الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس النواب ، وعلى ذلك لا يجوز باى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوايد جديدة » ، كذلك نص على أن ميزانية مصروفات وايرادات الحكومة السنوية تقدم للنواب ، وايضا ميزانية عموم الايرادات ، وان ترسل الميزانية الى المجلس فينظرها ويبحث فيها مع مراعاة الويركو للدولة والدين العمومي أو ما قررته التصفية والمعاهدات بشأن الدين ليس لها أمر فيه ، وان كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها لا يكون نهائيا الا بعد الاقرار عليه من المجلس ، وأن للنواب حق مراقبة اعمال الموظفين العموميين فى دور انعقاد المجلس وأن يبلغوا الناظر المختص على لسان رئيس المجلس كل عبث أو شذوذ أو اهمال يرتكبه موظف عمومي فى تأدية أعماله (*) .

وبالنسبة لرقابة المجلس فتكون بالسؤال والاستجواب والزام الوزراء بالمجاوبة ، وتقررت الحصانة البرلمانية ، ووضعت القواعد لشروط المداولة . كان ذلك هو دستور الثورة ذو الطابع الاوربى والذى اعطى المصريين كثيرا من الحقوق ليدعموا بها موقفهم ، واصبح عقيدة لشباب مصر الذين تشبعوا بأفكاره وتمسكوا به .

وفى نفس اليوم الذى قدم فيه الدستور رفعت مذكرة احتجاج على تدخل الوكلاء السياسيين الاجانب فى الادارة المصرية .

وتبع ذلك أن قدم دى بلنيير استقالته ، وعين آخر بدلا منه ، أما كولفن فقد امتنع من التعامل مع الوزارة عندما طلب البارودى أن تكون مخاطبة المراقبة مع الوزارة بالطرق الرسمية ، وقد وصل الامر الى ان كان الوزراء

(*) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٠ فى ٩ فبراير ١٨٨٢ .

عند عقد مجلسهم لا يدعون المراقبين كالعادة المتبعة ويعلنون أن الاجتماع خاص بالأحوال الادارية والامور الخارجية التى لا علاقة لهما بالمراقبين ، فأصبح المراقبان بعد هذا هملا مهملا بلا سقطا مرذلا » (١) ٠

وبذلك انهارت السلطة والصولجان للمراقبين ، وكانت الوزارة محقة حينما قررت أن اختصاصات المراقبين لم يحدث فيها اى تعديل وانهما لا يملكان الا صوتا استشاريا ، لكن كان إلامر الواقع قبل ذلك أن الوزارة لا تصدق على الميزانية ان لم يوافق عليها المراقبان ، وكان رأيهما هو المتبع بشأن احتياجات الحكومة ، وكان كلاهما السيد المطلق على مصر لصالح النفع الجزئى لحاملى السندات على حساب تلك الجروح التى تسببت بالمصريين ٠

مجلس النواب والعمل البرلمانى :

كانت الفرحة التى شملت أرجاء مصر بالدستور الجديد وبتلك الحقوق التى فاز بها النواب والتى اكتسبوها بفضل الثورة لا توصف ، فقد تبلور الرأى العام وشمل مصر كلها حتى رجل الشارع أصبحت له دراية بالأحداث فهو يتكلم عن الميزانية والتدخل الاجنبى والوزارة الجديدة . وأصبح مجلس النواب يتلقى التأييد من قوى مصر المختلفة ، فعلى سبيل المثال نجد ان دمياط تبعث اليه بمذكرة موقعه عليها بمائتين وتسعه وعشرين من العلماء والموظفين والوجهاء والأعيان والتجار ومشايخ الحرف والصناعات ليعبروا عن شعورهم « قد زاد فرح عموم أهل القطر بما دلهم على الوصول الى درجات التقدم الاولى التى أصبح ذلك المجلس كفيلا بالترقى اليها ، وذلك بسبب حسن النيات ودوام العدل والحرية التى يحبها كل وطنى . وان أهل القطر مع المجلس كلمة واحدة ، واننا اهل دمياط مع بقية أرباب القطر واثقون بأرباب المجلس اذ هم منا ونحن منهم ويدنا واحدة وقولنا واحد فى اتباع الحق (٢) ٠

اصبح مجلس النواب لا يقتصر مهامه على ما ارتبط به بل أعطى هو الآخر نفسه الحق فى التدخل لكل صغيرة وكبيرة اعتقد انها من مصلحة مصر ووصل به الأمر كما وصفه ماليت بأنه وضع أصابعه فى أمور الخديو نفسها (٣) ، ومورست الحرية على أوسع نطاق داخل المجلس ، وغدى كل فرد له الحق فى عرض الاقتراحات وكان يسمع ويشجع ، وكان

---

(١) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ص ٢٧٨ ، ٢٨٨ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٣ فى ١٤ فبراير ١٨٨٢ ٠

(٣) Malet : op. cit., p. 163.

ما يعرض يمس أدق الأمور ، ففي تقرير لأحمد عبد الغفار بطلب وضع قانون أساسى يشتمل على بيان الحدود والحقوق العموميه وصل الى أسمى معانى الفكر الحر الذى نم عن طبيعة النواب وادراكهم للمبادىء الدستورية الحديثة ، فتقول صحيفة مصر « فأذكرنا هذا التقرير بالقانون الذى عرضه النائب الفرنسى لافيت لجمعية الاشتراع فى ١١ يوليه ١٧٨٩ ، فقبلته الجمعية والأمة ، وعده العالم المتمدن من بعد ذلك أساسا للقوانين العادلة (*) .

ورأت الثورة إنه لابد من نشر محاضر جلسات المجلس ، وطالب النديم بأن يكون حق النشر لها فى الطائف ، وكان له هدف من وراء ذلك ، فالطائف هى جريدة الثورة الاولى ونواب المجلس ثوريون فأراد ان يظهر امام الجميع المناقشات وموضوعاتها واهميتها ويبين قوة النواب على الصفحات حتى تصل الى كل يد وتقرأها كل عين لتعيش مصر كلها مع الثورة .

وطلب فى أول محضر الاصول والعقود التى تقررت بموجبها المعاهدات بين مصر والحكومات الأجنبية ، وكان قد تقرر تعيين لجنتين لتحقيق الشكاوى التى رفعت على مصلحة المساحة ، تلك التى لاقت اهتماما من المجلس ، حيث ان العاملين فيها اجانب وخاصة انجليز .

وقد استدعى وزير المالية لبيان اسباب اختلال هذه المصلحة وقلة ثمراتها بالنسبة الى كثرة نفقاتها ، وأيضا مصلحة الجمارك ، وهاتان المصلحتان لم يكفل تشكيلهما اتفاق دولى ، وظهر أيضا فى الأخيرة وجوه الخلل فى اعمال الموظفين الأوروبيين وتعددت الموضوعات التى أثارها المجلس ، فبالنسبة للتجارة رأى أمين الشمسى بأنه اذا كان هناك صنف ضرورى للمصريين فيمنع تصديره ، ونوقشت مسألة احتكار التجار للغلال ورفع أسعارها « فأضر ذلك بفقراء الناس عموما وصغار التجار خصوصا » وطالبوا بايقاف ذلك .

وكان كشف فضائح وسلب وغش الشركات الاجنبية موضوع المباحثة فى المجلس وعرضت تلك التعاقدات التى أجرتها وزارة الاشغال مع الشركات الاجنبية من أجل الرى بالآلات البخارية وتم الاتفاق لكنها أخلت بالشروط والمواصفات المنفق عليها مما تسبب فى أضرار الزراعة .

وجاء دور عبد السلام المويلحى ليقدم تقريرا عن التعليم ولزوم نشر المعارف بين الأفراد على اختلاف مراتبهم وبيان ان العلم من ضروريات

(*) مصر ، عدد ١٣ فى ٢٣ مارس ١٨٨٢ .

الوجود المعنوى فى الانسان ، كما أن الغذاء والماء من ضروريات وجوده الحسي ، وطالب بتعميم التعليم وتسهيل طرق التحصيل بحيث تكون ممكنة السلوك لكل وطنى على اختلاف الدرجات فى حدود الامكانيات المالية بتعاون أغنياء البلاد ، واستدعى وزير المعارف ليقدم تقريراً عن حالة التعليم والاقتراحات لنهضته والتشجيع على اقامته .

وكان للمحاكم المختلطة نصيبها فى التناول اذ طالبوا بتطبيق المعاهدات التى تأسست بموجبها تلك المحاكم والتى تنص على أن رئاستها لا تكون الا للوطنيين التابعين للحكومة المحلية .

ومن ثم طالب الأعضاء بمحاكم أهلية حيث أن « أساس الممالك العدل وأساسه القوانين الكافية لحقوق الرعية » ورئى ضرورة تنفيذ قانون ترتيب المحاكم الأهلية الذى وافق عليه شريف .

ونظر المجلس فى ضرورة سن قانون يخص العمد ومشايخ البلد ويتناول عزلهم وتوليتهم واعطاءهم الحقوق وتنظيم معاملاتهم سواء مع مأمورى الحكومة أو لما هو تحت ادارتهم من الأهالى .

كذلك نوقشت مسألة العونة وضرورة تنظيمها والبدلية وخاصة فى الأباعد والجفالك وقومسيون الأراضى ، وما يتعرض له الفلاحون من ضرر وضنك وسوء حالة وخاصة فى أشهر الشتاء ، وكتب الأعضاء للوزارة التى طلبت من وزارة الاشغال وضع قانون خاص بذلك .

وبما أن الاعضاء ملاك للأراضى ، فبطبيعة الحال لابد من الاهتمام بها سواء بيان درجات الاستفادة من أطيان البرارى ، أو مسألة الضرائب ، فقد تشكلت لجنة وأصدرت قرارها بربط تقسيط الاموال الاميرية على صورة عادلة وذلك بأن تحصل فى أوقات المحصولات بالدقة حتى يكون الفلاح آمنا فى تسديدها متمكنا من بيع محصولاته بالثمن اللائق حتى لا يضطر الى الاقتراض بالربا الفاحش أو البيع بالثمن الغبن ، وبينوا ضرورة أن يكون الويركو موافقا للحق والعدل والمساواة .

كذلك كان لمسألة المقابلة اهمية بالنسبة اليهم حيث دفعوها ، وقد أبانوا بأن الجميع قد دفعها مكرهين وعانوا من ذلك عناء لا مزيد عليه ، وطالبوا بخصم سنوات ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ لأرباب المقابلة من أصل المطلوب منهم من مال ١٨٨٢ .

وأيضا تم البحث فى مسألة الديون التى على الحكومة للأهالى « وطلب من المالية كشف ببيان مطالب الأهالى من الديون المتفرقة بمقتضى قرار لجنة التصفية ومواعيد استحقاق الديون » .

وهوجم الأجانب من أصـــحاب الأراضى والتجار بعنف فى المجلس هؤلاء الذين يعملون لمصلحة أراضيهم عن طريق اقـــامة « الوابورات » والاستحواذ على المياه على حساب بقية أراضى الأهالى ، وان احتكارهم هذا يترتب عليه أضرار جسيمة (١) .

وقد اتهمت الدوائر القنصلية مجلس النواب بأنه أدار الدفة ضـــد الأجانب ليعلن الحرب عليهم وان اجتماعات مجلس النواب ازدادت حماسة فى المناقشات الوطنية ضد الأوروبيين ، ولم يكن ذلك مبالغا فيه ، بل كان لزاما على المجلس أن ينظر فيما أنزل بمصر من كوارث ، فقد أصبحت أجور الموظفين الأوروبيين تخضع لرقابة المجلس الذى راح يفكر جديا فى ضرورة الاستغناء عنهم .

ونادى المجلس بحتمية ارجاع النواحى الى ادارات الأقسام حيث كانت الجفالك الملحقة للدائرة السنية وقومسيون الأراضى قد ضمت النواحى اليها فأساءها الضرر حيث راعوا ترويج امر زراعاتهم باستخراج ما يلزم لها من الأنفار بدون مبالاة ولا التفات مع ان أهالى تلك البـــلاد لهم أراضى محتاجون لزراعتها واذا تركوها تلفت ، وطالب بتطهير الحياض فى مديريات قبلى حيث ان أهلها يتحملون المشاق عند زيادة المياه أو قلتها ، وباصـــلاح وسائل الرى فى الوجهين ، « وما فرط النواب من شىء فى تقديم التقارير لاصلاح الرى وتسهيله وتقسيم المياه بالعدل ودفع أذى الطغيان ورفـــع أضرار الشرق » (٢) .

وأخيرا فقد طلب المجلس وضع قانون أساسى للحكومة تعرف به حقوق القوى الحاكمة ، ووضع مشروع قانون للادارة ، هذا وقد أحست قـــوى الشعب المختلفة ان هذا المجلس هو مجلسها ، ومن هنا كان منطلق تقديم الشكاوى والتظلمات ، فهناك من يسمع ويفحص ويحل ويرد الحقـــوق الى أصحابها الذين دائما وأبدا كانوا مظلومين ، وكان المجلس يقوم بهذا الدور خير قيام . كذلك وضح ان الوزراء أصبحوا مسئولين أمام المجلس عن كل الاجراءات والمشروعات التى تقدم للحكومة ، وقد ناقشها بعمق وأدخل عليها ما رأى أنه ضرورى ، وظهر دور الأعضاء فى معارضة ورفض تعهدات والتزامات بموجب مناقصات أو مزايدات (٣) ، كانت غالبيتها تخص الرأسمالية الأوروبية . وشجعت الصحافة الأعضاء ، وتناولت فوائد

---

(١) الوقائع المصرية ، اعـداد ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٤ .

(٢) مصر ، عدد ١١ فى ٨ مارس ١٨٨٢ .

(٣) Archives de maison : op. cit., No. 13 Pol, 8 Janvier, 1882,

المعارضة ، وضربت الأمثلة بوجودها فى شتى المجالس النيابية فى انجلترا وفرنسا وألمانيا حتى اليونان « بأن لا يوافقوا الحكومة على ما فيه شطط أو خطأ ، فان الانسان لا يخلو من الهوا والنسيان وكذا لا يجب أن يخالفوها فيما يعم نفعه » (١) ٠

وبذلك ارتفع صوت برلمان مصر بهؤلاء الرجال الذين جاءوا فى وقتهم لانقاذ بلادهم ، وقد اعترف الجميع بهـذه الحيوية وتلك الرغبة الأكيده للتمثيل البرلمانى الصادق ، حتى اننا نرى جرانفيل يقر بقوله « لقد برهنت مناقشات مجلس النواب على ان هناك حركة شرعية للشعب المصرى من أجل الرغبة فى الحصول على الجزء الأكبر من ادارة بلادهم » (٢) ٠

مواصلة المسيرة الثورية وانجازات الوزارة :

جاءت الوزارة تحقيقا للرغبات الوطنية الصادقة ، ومن هنا كان عملها يتسم بطابع الثقة والثورية فقد افتتحته بالدستور الذى مارس به نواب الأمة نشاطهم ، وارتاح الجميع وعم الهدوء الأرجاء بذلك الرضا الواسع عليها ، لكنها لم تغفل ذلك التدخل الأوروبى الذى أقلقته الثورة ، لذا فقد كثرت الاجتماعات للثوار وكانت تشمل القادة والشخصيات التى لها اعتبارها من كبار ملاك ومثقفين ٠ وحاولت الوزارة التى تمتعت بالقوة والسلطة ، وكانت مؤيدة من كل جانب أن تخلق نوعا من الود بين الثورة والخديو ، لكن لم يكن لمسعاها هذا توفيق لأنها دائما وأبدا تعمل بكل طاقاتها للتقليل من سلطته ٠

وراحت قوى مصر جميعها تعبر عن شعورها الفياض ورضاها عن الوزارة فى تلك العرائض التى كانت تصل للوزارة من التجار والعلماء وشيوخ المساجد والضباط والأطباء والقضاة والتراجمة والمفتشين « وهى الوزارة الوطنية الحرة التى انتخبت من رجال لنا بهم تمام الثقة متوسلين نجاح المقاصد والمشروعات وفوز آراء وأفكار مجلس النواب » (٣) ٠

كما شمل التعبير الاحتفالات التى كانت صورة ناطقة للحياة السياسية والفكرية وكان الداعون لها دائما ملاك الأراضى حيث سمحت لهم امكاناتهم بالاكثار منها ، وفيها تتلى الخطب التى شارك فيها المثقفون ، وفى أغلب الأحيان كان البارودى وعرابى يخطبان فى تلك الحفلات ويثيران ما يشغف

---

(١) الوطن ، عدد ١٧ ديسمبر ١٨٨١ ٠

(٢) Egypt No. 10 (1882). F.O. July 11, 1882, p. 5.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ دوسيه ٣٨١ / ب ٠

القلوب ويعرضان مساوىء التدخل الأجنبي ويأصلان من تدعيم القومية ويلهبان الحماس الوطنى ، ولم يكن أمر هذا التعبير مقصورا على القاهرة ، ففى صعيد مصر نرى مدير قنا يرسل ليصف الحالة « ان التصديق على تأليف الوزارة البارودية ولائحة النواب أدخلا السرور على الوطنيين عموما فقد تواردت عمد الهوارة وأعيانهم الى ديوان المديرية ، وجاءوا منزلنا وفيهم حضرات رئيس المجلس ومأمور المالية ووكيل المديرية وقاضى المديرية ونائبه وضابطا الجهادية وجميع موظفى المجلس والمديريه وأعيان البندر ووجـوه التجار ، وخطب الجميع ونريد أن نجعل هذا اليوم تذكارا للحركة » (١) ٠

وتدفقت الوفود على القاهرة لتعبر أيضا عن احساس شعب مصر ، جاءت لمنهنئة ولاظهار الفرحة ، وامتلأت الصحافة بالمقالات والقصائد التى تزف الحرية الى مصر بفوز المصريين وحكمهم لبلدهم

وكانت الوزارة ديمقراطية حقة ، فهى تسمع لكل صوت يصل اليها ، وبالرغم من ان نفوذ عرابى كان واضحا فى ادارة دفة الامور لكن الأمـــر الملحوظ ان العمل كان ينفذ بأسلوب جماعى ٠

وبدأت الوزارة تسلك المسلك الوطنى معتدة بأحساس انها صاحبة القوة على أرضها ، وبأنها مدعمة بالرغبة الشعبية ٠

وعرضت على الوزارة موضوعات متعددة فتمكنت من اصلاح الامور على القدر المستطاع الذى تسمح بها امكانات مصر ٠ وفى حقيقة الأمر فان الوزارة ورثت تركة مثقلة بالمشاكل ، وكان عليها بالعزيمة الصادقة أن تحل جميعها ، اذ أصبحت فى مهب الطلبات ، فكل من تعرض لخســـارة مالية صار يطلبها من الوزارة ، وكان لابد من الاجابة ٠ وركزت اهتمامها تجاه الموظفين الأجانب المكتظة بهم الادارات ، وعلى رأسها مصلحة المساحة وقد أظهرت المداولات فى جلسات مجلس الوزراء ذلك الهجوم ٠

وشكلت الوزارة لجنة لعمل الاصلاحات والتعديلات التى يلزم أحداثها بشأن المحاكم الأهلية وتحسين حالة تحقيق الجنايات فى المديريات ، وانتقاء خيار موظفى المجالس ، وتعيين مندوب فى كل مديرية يكون له معـــرفة بالقوانين ليلاحظ ما يجرى بالمديريات من التحقيق فى المواد الجنائية وفحص أوراق التحقيق (٢) ٠

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٦٠ فى ١٨ مارس ١٨٨٢ ٠

(٢) محفوظات مجلس الوزراء ، محاضر مجلس النظار ، محفظة ٥/ج ، محضري ٢ ، ٦ مارس ١٨٨٢ ٠

وكانت وزارة موفقة فى العمل من أجل مصر ، فلم يعمل أحـد من أعضائها من أجل صالحه ، وعلى يدها أعلنت الحرب على الرشوة ، كما بذلت كل ما فى الوسع لامكان وضع مبدأ المساواة وتطبيقه فلم يغلق الباب أمام الفقراء الذين فحصت مشاكلهم بكل دقة وعناية ، كما نرى ان الوزارة تقف أمام نشاطات الأجانب المختلفة وتحـــاول بكل طاقاتها تطبيق برنامجها الثورى من جعل مصر للمصريين ، فهى ترفض المشروع المقدم من دليسبس بشأن انشاء ترعة حلوة بين الاسماعيلية وبور سعيد ، وترفض دفع المبالغ التى يطالب بها السماسرة المقاولون « قدم ألمانى دواليب وطاولات ومكاتب وآلات حديدية وكراسى ودواوين جلوس كعادته وطلب صرف المبلغ مغالى الارتفاع فرفضت الوزارة السامية الدفع » (١) وصدرت التعليمات للقبض على اللصوص الأجانب ومزيفى النقود وهؤلاء الذين أصبحت بيوتهم أوكارا للفساد ، بل وأصبح يكتب فى الحال الى قناصلهم لمحاكمتهم بما يقتضيه القانون (٢) ، وشددت الوزارة بيد من حديد على البضائع المهربة بالجمارك والتى أضرت بالاقتصاد المصرى ٠

وقد اعتبرت الوزارة انه للوقوف أمام التسلط الأجنبى داخليا لحماية المجتمع وخارجيا للتخلص من الوصاية الدولية وحماية مصرمن الطامعين ، لابد من التركيز على القوة التى يمثلها الجيش لدفع هذه الأخطار ، فزيدت اعتمادات الجهادية ٢٩٠ ألف جنيـــه ووزعت ما بين مرتبـات ومعاشات وميزانية ، وعممت جميع القوانين التى كان قد بدىء فى تنفيذها مـــع الثورة ، ومضت عملية ترقية الضباط ، وكان جميعهم الضباط الثوريون ولم يسع الخديو الا التصديق على ذلك ٠

وعلى الأتراك والشراكسة تدور الدوائر ، هؤلاء الذين أذاقوا العسكريين الويل والظلم ، فتبدأ عمليات اضطهادهم بعد أن تأصلت الروح القومية بين المصريين ، فلم يكن للضـــباط الشراكسة نصيب فى الترقيـــات السابقة (٣) ، وتم فرز نحـو ٦٠٠ ضابط منهم ، أبعدهم عرابى عن العسكرية التى أصبحت وطنية بحتة ، وذلك باحالتهم الى المعاش والبعض رأى أن يرسله الى السودان ، وفى حقيقة الأمر ، فقد أرادت الثورة أن تطهر الجيش من تلك العناصر التى كانت تحمل منذ القديم لواء الكراهية للمصريين ، وتفاديا لامكانية قيامها بأعمال تناوىء الثورة ٠

---

(١) المفيد ، عدد ٤٦ فى ٣٠ مارس ١٨٨٢ ٠

(٢) الاسكندرية ، عدد ١٦١ فى ٢١ فبراير ١٨٨٢ ٠

(٣) Egypt No. 7 (1882), No. 105, April 12, 1882.

كان من بين الذين وقع عليهم الاختيـــار للذهاب الى السودان مائة ضابط وواحد . منهم تسعة من الشراكسة وستة من الأتراك والبـــاقى مصريون ، فامتنع الأتراك والشراكسة عن الرحيل ، وقدموا عريضة الى عرابى يطلبون منه « معاملتهم بالعدالة والمساواة » ، وكان من سمة الوزارة تطبيق العدل والمساواة على المصريين لا على الأجانب ، ومن هنا تألفت القوى المضـــادة للثـــورة لتحاربها بكل امكاناتها وتستحوذ على المكانة التى أفقدتها اياها الثورة .

الفصل السابع

القوى المضادة ومجابهة الثورة لها

محاولات وأد الثورة ومواجهتها للموقف وانتصارها :

(أ) المؤامرة الشركسية :

بناء على النجاح الذى حققته الثورة والمكاسب التى أحرزتها للمصريين على حساب المستبدين والمستغلين الذين وجدوا فيها ضياعا لسلطانهم وفقدانا لمراكزهم ، ففكروا فى اسقاطها وذلك بالتخلص من زعمائها ، وبهذا يمكنهم أن يستعيدوا كل ما كان لهم ، ويستحوزوا مرة أخرى على مراكز القوى ، وكان المتصدرون لذلك الشراكسة برئاسة كبيرهم رفقى ، فقرروا أن يتم التنفيذ على أيديهم ، وشاء القدر أن يكتشف الأمر وتقرر الثورة محاكمتهم ، وصدر حكم المحكمة فقضى على ثلاثة وأربعين بالنفى المؤبد الى أقاصى السودان مع تجريدهم من الرتب والنياشين ، وأن يكونوا متفرقين فى الجهات التى ينفون اليها ·

كان من الضرورى أن يصادق توفيق على الحكم ، هذا الحكم الذى أقلقه إذ كان يتمنى من كل قلبه أن تنجح حركة الشراكسة وأن يأتوه برءوس القادة الثوار ليتخلص من ذلك الكابوس الذى يطبق على أنفاسه فقلبه يملؤه الحقد والغيرة بعد أن أصبح حاكما بلا حكم ، لذا نراه يرفض التصديق على الحكم كما نصحه وكيلا انجلترا وفرنسا ، هذا فى الوقت الذى استند فيه على البـاب العـالى فأرسل اليه يشكو من ان التحقيقات مغشوشة والأحكام غادرة ·

وانتهزت الدولة العثمانية الفرصة للتدخل وطلبت أن تحال الأوراق

عليها ، وأخيرا انتهت المسألة بأن عدل الحكم واستبدل النفى مدى الحياة الى النفى البسيط من البلاد ، ولم يحرموا من الرتب والنياشين .

لقد رأى الثوار التنازل عن تصميمهم فى مسألة الحكم هذه خوفا من أن تضرب الحركة الوطنية عن طريق التدخل الخارجى ، لكن ذلك أعطى توفيق فرصة ليتنفس الصعداء ، فأصر على استقالة وزارة الثورة بينما رأت الثورة صراحة أن ينزل توفيق من على عرشه عندما تمسك باسقاطها ، وجرت مساع من أجل التوفيق بين الطرفين « سعى الكثيرون لدى الحضرة الخديوية لاستمالته الى الرضى عن الوزارة ولكن جنابه لا يزال يأبى التساهل بأى شىء ، وعقد عزمه على ألا يتنازل عن شىء أبدا مهما كانت العقبى » (١) .

وبذلك قوى نفوذ توفيق بتأييد المساندين له واعتبر أمام الثوار أنه خائن وان الوقت قد حان للفصل بينه وبينهم ، ورأوا أن يعقدوا مجلس النواب لتحال عليه قضية الخيانة الخديوية ، وسيطر التفكير على ضرورة التخلص من توفيق بعزله ونفى جميع نسل محمد على ، وبناء على الحماس الوطنى المشتعل فى نفوس المصريين يعين البارودى حاكما عاما لحكومة مؤقتة ريثما ترتب الأمور ، وانقطعت نهائيا العلاقة بين توفيق والوزارة ، وأصبح الموقف خطيرا للغاية .

وانتشرت الأنباء عن تصميم الثوار على خلع الخديوى ، وان نظام الحكم الذى ستخضع له مصر هو النظام الجمهورى .

وجاء التأييد من الأمة لقواد ثورتها ووزارتهم ، ففى برقية من محمد عبده الى بلنت بلندن يقول له : « البلاد جميعها مع عرابى والوزير سامى الفلاحون البدو ، العلماء متحدون وليس بيننا غير واحد فقط ضد الحرية المصرية » (٢) .

وتصل التأييدات من جميع أرض مصر الى وزارة الثورة تطالب ببقائها ضاربة باتجاه توفيق عرض الحائط « عن عموم أهالى دمياط البالغ عددهم نحو الأربعين ألف لهيئة الوزارة السامية أيدها الله واننا على ثقة تامة من هيئة هذه الوزارة ولا نرغب الا بقاها لما شاهدناه من حسن مساعيها فى راحة الأهالى ، وخلاص رقاب أهالى القطر من رق الاستبداد

---

(١) المفيد ، عدد ٥٧ فى ١٨ مايو ١٨٨٢ .

(٢) Blunt : p. cit., p. 272.

وايصالهم حقوقهم ، والآن لنؤكد لسعادتكم شدة الوقوف التام مع هذه الوزارة » (١) ٠

(ب) خطوات التداخل الأجنبى المشترك :

رأت انجلترا وفرنسا انه يجب أن توضع نهاية لهذا «العبث الوطنى» كما رأته ، وانه آن الأوان للتدخل الفعلى لكسر شوكة الحركة الوطنية التى سلبتهما الكثير ، وارجاع الحال الى ما كان عليه قبل الثورة ، وانه لا سبيل لذلك الا بالقوة وخصوصا بعد أن تردد على أوسع نطاق مسألة اسقاط نظام الحكم الموجود واقامة آخر يتفق ومبادىء الثورة ٠

وعقب ذلك أعلنتا للدوائر الأوربية فى ١٤ مايو عن عزم حكومتيهما ـ نظرا للأحداث التى وقعت أخيرا بمصر ـ أن ترسلا أسطولا مشتركا الى مصر مظاهرة بحرية الغرض منها تقوية سلطة الخديو وسلطة القانون فى مصر ، وقد كلفتا سفيريهما فى الآستانة أن يشيرا على الباب العالى أن يتجنب كل تدخل ، واتفقتا على أن ترسل كل منهما ثلاث سفن حربية الى الاسكندرية حيث تبقى على أتم استعداد لاستلام أوامر أخرى ، وان الاتفاق تام بين انجلترا وفرنسا اذا وصل الأمر لاستعمال القوة (٢) ٠

ومما لاشك فيه ان الهدف الأساسى كان ارهاب الثوريين بوجود الأساطيل فى المياه المصرية فيكون التراجع والتسليم هذا من ناحية ، وتثبيت سلطة الخديو واعطاؤه الثقة بالتأييد والمساندة لضرب قوى الثورة من ناحية أخرى ٠

وجاءت النتيجة عكسية ، فقد أصبح الخطر كبيرا بعد هذا التهديد ، فأحس الجميع ان توءبق وراء ذلك وحنقوا عليه ، وكان للعسكريين النصيب الأوفر فى ذلك لدرجة ان محمد عبيد « أراد محاصرة سراى الاسماعيلية ولكن البارودى منعه » (٣) ، وخلق هذا الوضع الجديد عمليه التحام قوية للعمل المشترك من أجل الوقوف أمام هذا الاعتداء ، فكان القسم الذى تعاهد عليه ثوار مصر للمدافعة عن أرض الوطن الغالية ، وكان المكان غرفة خاصة بعلى فهمى فى قشلاق عابدين ، والحاضرون قادة العسكريين جميعهم ـ البارودى وعرابى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت ويعقوب سامى وعلى الروبى وعلى فهمى ومحمد عبيد وأحمد عبد الغفار والزمر وحسن جاد وعلى

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ ٠

(٢) الأرشيف النمساوى : محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، ص ١١ ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ ٠

يوسف ومحمود فهمى ـ وعن المثقفين أمامهم محمد عبده ، وكان السبب كما أعلن البارودى « حضور مراكب لمحاربتنا وان القصد من الاجتماع هو أن نحلف يمينا على انه اذا حصل حرب فنكون يدا واحدة مع بعض ، وان من يفشى السر تشق بطنه ويقطع اربا ويلقى » (١) ٠

وهكذا تم الارتباط الوثيق والعهد الصادق والعمل حتى آخر نقطة دم والتمسك بالدفاع حتى النهاية ، ومن الغريب اننا سنجد ان من بعض الذين اقسموا كانوا هم من طعنوا الثورة فى النهاية ٠

ومضت انجلترا وفرنسا لتخطوا باقى الخطوات ، فأعطتا سلطتيهما الى قنصليهما للتصرف وفق مصالحهما تجاه الحالة فى مصر ، وكانت أولى تلك المصالح اسقاط الثورة والقضاء على نفوذ القادة الثوار ، وحاول ماليت اقناعهم بالانسحاب من الميدان وذلك بترك مصر فرفضوا ، كما عهد الى سلطان بذلك فأبوا ، كذلك حاول على مبارك اذ لم يكن يسعده استمرارية الثورة ٠

الى هذه الدرجة أراد التدخل الأجنبى أن يكسر الثورة ، وهذا ما تم لانجلترا فى نهاية الامر ، لكن فى ذلك الوقت رفض الثوار وبكل شدة وأبانوا انه من المستحيل مغادرة مصر ٠

وعندما وجد ان التفاهم وديا لا يجدى مع الثوار جاءت المذكرة المشتركة فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ قدمها القنصلان موقعة منهما الى مجلس الوزراء والخديوى يطلبان فيها ابعاد عرابى مؤقتا من مصر مع بقاء رتبه ومرتباته وارسال كل من على فهمى وعبد العال حلمى خارج القاهرة مع بقاء رتبهما ومرتباتهما ، وأخيرا استقالة الوزارة ، وانهما باسم حكومتيهما وبتفويض منهما ينصحان رئيس الوزراء ووزرائه بقبولها ، وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وانهما يرميان من وراء هذا التدخل المحافظة على الوضع الراهن وليس لهما مقصد غير اعادة نفوذ خديو مصر (٢) ٠

رفضت وزارة الثورة مطالب الدولتين ، ورحب توفيق واحتضن المذكرة وقبلها وعلى أثر ذلك قدمت الوزارة استقالتها فى ٢٦ مايو احتجاجا على قبول الخديو تدخل الدول الأجنبية ، فأعطى هذا المزيد من السعادة لتوفيق وعلى الفور أرسل منشوره الى المحافظين والمديرين يبرر وجود الأسطولين فى المياه المصرية ، وكان القادة الثوار قد بدءوا فى الاستعداد

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٩ ٠

(٢) Doc. dip. F, Tom IV, No. 336, 23 Mai, 1882, p. 323.

للدفاع بجمع القوات الامدادية ، فأمر توفيق بايقاف ذلك وتقلد أعمال الوزارة •

(ج) خروج بعض كبار الملاك من الركب الثورى :

مما لاشك فيه ان مبادىء الثورة التى أعلن عن تنفيذها ، وبدأت فعلا خطوات ناجحة فى سبيل تحقيقها رسبت فى الأعماق لبعض من كبار الملاك ان سلطتهم سوف تنهار ، وان مصالحهم سوف تنتهى ، وان فلاحيهم سوف تعصى ، وان أملاكهم سوف يقتطع منها بعملية المساواة التى كانت أساسية فى نداءات الثورة ، كما كانت تلك الخطب التى تلقى فى الاجتماعات أخذت تعطى الاشارة وتلقى البذور للتحديات الصريحة لهم ولمصالحهم ، ثم ان ثورية الوزارة فى حل الكثير من المشكلات وفى محاولات القضاء على الأمراض الاجتماعية كالرشوة مثلا التى كانت فى قمة التطبيق قبل الثورة قد أقلقتهم •

مثل هذا الجانب خير تمثيل سلطان ـ بعد أن أغرى البعض وضمهم الى جانبه ـ الذى لعب دورا مهما منذ بداية الثورة فى توثيق أواصل التكاليف بين الأعيان والعسكريين ، وقد لمسنا نشاطه الملحوظ هـذا وسمعته الطيبة ، وكان ينظر الى عرابى فى بداية الأمر انه دونه ولا يملك ذلك الكيان الاجتماعى الذى يخشى منه على مركزه ، فهو كبير بين ناسه ، سلطان للفلاحين ، لـكنه يريد المزيد لذا رأى فى عـرابى أداة لتحقيق طموحه ، ولكنه لم يكن يتوقع تلك التأثيرات الفعالة لعرابى على الشعب ، الذى استحوذ على الزعامة الوطنية التى ارتبطت مع احساس المصريين بأنه مبعوث من قبل الله لانقاذ مصر •

من هنا ومن سمات النفس البشرية أن ينتاب سلطان الضيق بعد أن سلب منه عرابى قلوب الأمة جميعها ، حيث ان ذلك يفقده الزعامة والمكانة التى يرنو اليها ، هذا وقد ترسبت فى أعماقه منذ البداية انه لم يشترك فى وزارة الثورة الأولى ولكنه عوض برئاسته لمجلس النواب ومضى فى المسيرة الوطنية لدرجة أن محمد عبده يذكر « جاء كـلام عن الخـديو فى جلسة ، فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابى ، وكان سلطان يقول اقتلوا العبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب (*) •

ولكن عندما جاءت وزارة الثورة الثانية ولم يعين فيها شعر انه لم يقدر التقدير الصحيح وكان ذلك نقطة بداية تحوله تدريجيا الى معارضى الثورة

(*) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ١٧٦ •

وبذلك ضعفت نفسه بعد أن أحس انه بفضله أمكن اذكاء روح الثــورة وعندما جاء ليجنى ثمرة ما غرسه كان غيره أسبق منه ، وكان ماليت يرقب الأمر باتقان ويدرسه جيدا ، فوجد انه من الممكن جدا سحب سلطان من الثورة ووضعه في المعسكر المضاد لها ، فان انسحاب رجل له كيانه المادى والأدبى من الثورة سيؤثر في الموقف ، ونفس الشيء عبر عنه توفيق ، ومضى الطرفان لتليين قوة سلطان ، فاهتزت وطنيته ومال بعد أن أثر عليه .

ظهرت طبيعة الخلاف بين قادة الثورة وبين الخديو من خلال مسألة الحكم على أصحاب المؤمرة ، واستقر رأى القادة على دعوة مجلس النواب للانعقاد للنظر فى هذه المسألة دون صدور أمر من توفيق تطبيقا للمادة التاسعة من الدستور بالرغم من معارضة سلطان لذلك ، وجاء النواب من كل مكان الى القاهرة وكما يذكر ماليت « وتوافدوا على بيت عرابى وتقرر عقد الاجتماع وانه سيعلن فيه عزل توفيق ونفى أسرة محمد على وتعيين رئيس الوزراء حاكما على مصر » (١) .

لم يتم ذلك بعد سعى الساعين لتهدئة الموقف بالوصول الى تسوية ظاهرية بين الطرفين على أساس بقاء الوزارة وتعديل الحكم العسكرى على المتآمرين ، كان ذلك من سلبيات الثــورة اذ كان المفروض المضى فى الاجراءات واسقاط الحكم الخديوى ، حقيقة لقد سارت فى خطواتها من أجل ذلك لكنها عند وقت التنفيذ يكون التراجع ولربما كان التدخل الأجنبى ماثلا أمامها اذا أقدمت على ذلك .

بدأ سلطان فى العمل من أجل اسقاط الوزارة ، فعقب وصول قطع الأسطولين الى المياه المصرية ، قدم اليها ابداء رغبة توفيق فى استقالتها . وعندما رفضت نراه يبلغ ماليت عن امكانية طلب استدعاء مجلس النواب لسحب الثقة فيها فتسقط ، لكنه عاد مرة أخرى وأبان انه لا يمكن الاعتماد على النواب لشعورهم السيىء نحو وجود الأساطيل .

واشتد موقف النواب بمذكرة مايو اذ كان لها الأثر الجارح فى نفوس الجميع . فقرروا أن يرسلوا بصورتها للدولة صاحبة السيادة لتتدخل فى الأمر ، هذا فى الوقت الذى تكثفت فيه الاجتماعات فى بيت البارودى تلك التى ضمت « العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وانضم اليها أعضاء المجلس وتكلموا فى خلع الخديو وتنزيله وفيمن تصبح ولايته » (٢) .

---

(١) Egypt No. 7, (1882), No. 173. May 11, 1882, p. 120.

(٢) ميخائيل شدروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

وهذا ما يؤكد موقف كبار الملاك من النــواب وغيرهم فى استمرار مسيرتهم مع المد الثورى ٠

قوى الثورة والتحدى والانتصار :

انتهى الأمر باستقالة الوزارة ، وفى الوقت الذى أمضى فيه وزراء الثورة استقالتهم « وقعوا بينهم قرار خلع الخديو » (١) ، الذى أحس انه باستقالة الوزارة قد ملك الأمر ففى ٢٧ مايو جمــع النــواب والعلماء والعسكريين ـ كانوا اثنى عشر ضابطا منهم يعقوب سامى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى وعلى فهمى ـ وأعلمهم أن الوزارة فضت ، والحربية صارت تحت ملاحظته وان كلا منهم مسئول عن وظيفته ، واذا وقــع من أحدهم أو من تحت ادارتهم أدنى خلل يضر الراحة العمومية والأمن العام فيكون مسئولا عن ذلك ، فضلا عن مسئولية جميعهم بالحفظ والصيانة واستتباب الأمن ، كما أعلن قبوله لمذكرة مايو ، فما كان من يعقوب سامى وطلبه الا أن ثارت ثورتهم فتقول الفسطاط أنهم قالوا « نحن رافضــون جميع ذلك ولا نقبل النوتة المتقدمة من الدولتين ولا عزل عرابى ، فسعادة سلطان باشا نادى طلبه باشــا ليرجع فما امتثل ثم خرج سعادة عمر باشا لطفى وناداه ، فرجع الى وضعه الأصلى وتكلم مثل كلامه الأول وخرج بالحالة الأولى ، وتوجه طلبة باشا والضابطان الى قشلاق عابدين حيث محمود باشا والعــرابى وعمر بك رحمى » (٢) ، وقد صادق على هــذا القول كثير من المجتمعين ، وهنا يستلفت النظر أن أصبحت الثورة مقرونة بوجود عرابى وليس بأحــد غيره ، ونراه عقب اســتقالة الوزارة مباشرة يرســـل الى العسكريين ليخبرهم بالاستقالة وبرئاسته للحزب الوطنى ٠ وواضح ان عرابى لم يهتم بمنصب الوزارة قدر اهتمامه بانه ما زال القـــائد لتلك الثــورة ٠

لم يكن من السهل على الأمة عامة والعسكريين خاصة ان يتقبلوا ابعاد عرابى عن السلطة الرسمية ، وبدى الأمر وكان العسكريون سيدخلون معركة من أجل فرض ارادتهم بقوة السلاح والتهديد لاعادة عرابى ، وفى محضر استجواب السيد قنديل أقر بأنه « ثانى يوم استعفاء الوزارة بلغنا أنه حاصل هيجان فى البلد ، وناس كثير متوجهين الى قشلاق رأس التين فقمت وتوجهت وأخــذت وكيل المحافظة ووجدت مصطفى عبــد الرحيم وسليمان سامى وسيلمان تعليب وحملة ضباط يقولوا هيا نصرف الجبخانة

---

(١) احمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٤٢ ٠

(٢) الفسطاط ، عدد ٧ فى ٢١ مايو ١٨٨٢ ٠

ولما سألتهم عن السبب فقالوا بأنهم سيكتبون للمعية بألا يقبلوا ناظر جهادية خلاف عرابى وان لم يجابوا سيستعملون قوة السلاح » (١) ٠

وانهال سيل البرقيات على توفيق وسلطان بطلب العسكريين جميعهم من جهادية وبحرية وشرطة باسقاط الأمر الخديو بالاستعفاء وبدلك فرض التهديد اذا لم يجابوا الى ما طلبوه ، ووصل الامر من البحرية أن طالبوا ليس فقط بعرابى بل بالوزارة جيمعها « ولا يرغبون عنها بديلا » (٢) ٠

حدث ذلك أثناء محاولات مكنعة من أجل انفاذ الموقف ووضع الحلول ، وكان قد تم اتفاق بين المجتمعين لدى الخديو على اجتماع آخر بمنزل سلطان ، وفيه تجلت زعامة عرابى ، فقد كانت نعمه لا حدود لها ، فام خطيبا فبين ظلم الأسرة المالكة ، وهاجم توفيق هجوما عنيفا ، رطالب باسقاطه فوافقه العسكريون ، كما أعلن امين الشمسى ووهبى عمر ومراد المسعودى رأبو عبد الله من نواب الشرقية ومحمد أفندى جلال من نواب المنيا تمام موافقتهم لما طالب به عرابى ، كما أظهر العلماء تأييدهم للموقف ، ويقر سلطان فى شهادته انه كان معروف اتجاههم (٣) ٠ وهنا ظهر سلطان فى الاتجاه المعارض برفض الطلب وأبان انه لا ينبغى التكلم بخلع الخديو حيث أنه تولى بأمر الدولة العلية بالاتفاق مع الدول العظمى ٠ وعلى أثر اختلاف وجهات النظر هدأ الموقف وطلب المجتمعون من عرابى حفظ الأمن العام ٠

كذلك فان القناصل عندما أيقنوا ان الأمر بيد عرابى وخصوصا بعد أن أعلن الضباط تخليهم عن الأمن فى تهديدهم لتوفيق طلبوا من عرابى الأمان لرعاياهم (٤) ٠

وجد عرابى نفسه فى موقف يدعوه للمحافظة على الأمن ، وليس فقط أهل مصر الذين يطلبون منه ذلك ، ولكن أيضا القائمين على أرض مصر ، وكان من السهل أن يوافق توفيق على اعادة عرابى أمام هذا الضغط ، وخصوصا بعد أن وردت برقية من السلطان تفيد بالاعتماد على عرابى فى حفظ الأمن العمومى ، وضاعت فرصة من الثورة كان يجب ألا تتركها وتقصف بالخديو وتنزله من على عرشه ٠

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١١٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٤ ٠

(٤) Egypt, No. 8, (1882), No. 101, May 28, 1882, p. 43.

كان توفيق على دراية بكل الاتجاهات التي تعمل ضده ويشعر انه مهدد فى كل لحظة ، فراح يحيط نفسه باجراءات أمن مشددة ، هذا فى الوقت الذى توجه فيه وفد يمثل قوى الأمة كان مكونا من سلطان ، سليمان أباظة ، حسن الشريعى ، حسن موسى العقاد ، محمود العطار ، هلال ، مراد السعودى ، الشيخ حسن العدوى ، الشيخ عبد الباقى البكرى ، الشيخ عبد الخالق السادات ، بطريق الأقباط وحاخام اليهود (١) ، وكان ذلك ــ اذا استثنينا سلطان ــ مظهرا من مظاهر الارادة القوية للقوى الاجتماعية على أرض مصر والوحدة الوطنية من أجل بقاء زعيم فى منصبه استمرارا لمسيرة الثورة ، وطالبوا توفيق بضرورة ارجاعه ، وفى البداية أبدى تمنعه لكنهم أعلموه بالاخطار التى تنتج عن رفضه فوافق ، وعاد عرابى بارادة الأمة الى وزارة الحربية ورئاسة الجيش .

وحمل القرار الى عرابى على يد الشيخ البكرى فيقول « وتوجهنا لمنزل أحمد باشا عرابى فوجدناه غاصص بضباط الجهادية ، فسألنا عنه فدلونا على أوضه فدخلت بها فوجدناها ملآنة البعض طلبة علم والبعض من العلماء أعرف منهم الشيخ سليم عمر والشيخ حسين الطرابلسى ، والبعض من التجار أحمد افندى الأرناؤطى رئيس تجار خان الخليلى وأمين افندى أبو زيد ، فسلمنا الأمر الكريم للمومى اليه » (٢) .

ومع عودة عرابى نجده يكتب للقناصل ويطالب باعادة مذكرة الدولتين وانسحاب قطع الأسطولين ووضع قانون أساسى تتبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء ، وقطع المخابرات والعلاقات المباشرة مع الدول بما فيهم الدولتين الا بواسطة الباب العالى (٣) .

ومن ذلك يتبين انه لم يعد عرابى الى مركزه ليضع نفسه داخل اطار الحربية فقط بل عاد وكله سلطة وقوة ونفوذ ، وضعف توفيق أمام الجميع فى الوقت الذى ارتقى فيه عرابى درجات ودرجات على أكتاف الأمة ، وكان من الممكن أن يكون هناك مزيد من الانتصارات للثورة ، حيث أصبح واضحا تمام الوضوح انه لو عرابى أراد فيكون ، ليس بناء على جبروته وسلطانه بل لأن قوى الشعب كانت بجواره ماعدا قلة معارضة كان يمكن القضاء عليها بممارسة القوة والضغط ، ولكن اذا قيست الأمور بظروفها ووقت حدوثها يكون الاتجاه المعتدل والغير متطرف هو السائد فى كثير من الأحيان ، ولربما لو تطرف الثوريون لأصبحت النتيجة أحسن مما كانت .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٢٢ فى أول يونيو ١٨٨٢

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١١٣ .

(٣) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

ازدادت شهرة عرابى حتى خارج مصر ، وازدادت الدولتان قلقا فى نفس الوقت ، وموروست كل الطرق لامكانية ابعاده من الطريق ، فقد عرضا عليه ـ عن طريق قنصليهما ـ مغادرة مصر واغراؤه بذلك ولكنه رفض . فلم يكن الزعيم الذى يرضى أن يخون ويأخذ ثمنا يبيع به وطنه ، فقد مضى حتى آخر لحظة ـ رغم ما قيل عنه ـ مثالا للوطنية المصرية .

لكن ماذا عن انعكاسات هذه الأحداث على الشعب ؟

كان الشعب سعيدا بثورته وقادته وتنفس الصعداء بعد ليل طويل معتم بالسواد لكن الاشراق لم يستمر طويلا بعد أن بدأت توجه للمصريين الضربات على أيدى الاعداء التي وقفوا أمامها بحزم وقوة ففى خطاب من عرابى الى بلنت فى ٢١ مايو يبلغه « ان جميع شعب مصر قد آلمه مجيىء قطع الأسطولين واعتبروا ان ذلك علامات تنم عن نيات سيئة من الدولتين انجاهم وان ذلك اعتداء لا سبب له ولا ضرورة ، وانهم لن يسمحوا لأيه قوى بأن تتدخل فى شئونهم الداخلية وانهم سيحتفظون بجميع امتيازاتهم التى أقرتها التسويات الدولية ولن يسمحوا أن ينال منها أحد ماداموا على الحياة » (١) .

ولم تكن قطع الأسطولين فقط التى اشعلت النفوس ، بل أيضا المذكرة التى كان وقعها مؤلما وتأثيرها سيئا للغاية ، وبلغ الاضطراب مداه واستوفى القلق على الجميع ويسر عرابى فى محضر التحقيق معه « حضر الى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة وقدموا لنا مئات من العرائض محتجين فيها على عمل الخديو هذا ومتطلبين أحد أمرين اما رفض اللائحة واما عزل الخديو الذى قبل تدخل الأجانب فى أحوال البلاد الداخلية . والحق أن جميع المسلمين قد تأثروا بتلك اللائحة وأنكروها غاية الانكار وكانت تأتى الينا المحاضر مختومة من المديريات والمحافظات ، وكان حضور الناس بها جهرة الى مصر لا خفية وبحضور جميع الناس لمنزلى اعلانا بعدم قبولهم اللائحة المذكورة ومن يقبلها ، وكان ذلك بحضور أعضاء مجلس النواب وكلهم مصادقون على ذلك ، والمحضر المقدم من أهل مصر العاصمة عند حضوره وتلاوته قام الناس الموجودون من النواب والعلماء وغيرهم الذين لم يسبق ختمهم وختموا عليه فى منزلنا » (٢) واتحد الأعيان والعلماء والتجار وقدموا محررات بأختامهم وفتوى شرعية من العلماء بوجوب عزل الخديوى بمقتضى الشرع الاسلامى .

---

(١) Blunt : op. cit., p. 281.

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسية ٥٣/أ .

أحس المصريون بأن ذلك التدخل تهـديد لوطنهم ولكيانهم ولثورتهم ولدينهم أفقدهم كل ثقـة في حاكمهم الذى تسبب فى كل ذلك « وكانت الأسواق والشوارع والحانات والمنازل عبارة عن مجتمعات يقضى الناس فيها أوقاتهم بالتداول فى أحوال مصر وأمور سياستها وفيما عسى أن تؤول اليه تلك الحال » (١) ٠

واستمر الزحف على القاهرة حتى امتلأت بالآلاف من المعارضـين ، وكثرت الاجتماعات بشأن ايقاف هذا التدخل السافر ، واجتمع الأعيـان وأقروا أنه ليس هناك شخص واحد على أرض مصر يقبـل تلك المذكرة وتؤيد التيمز حقيقة هذا التكاتف لقوى الأمة فتقول « انطلق الازهريون ونواب المجلس وأعيان الفلاحين وبعثات المدارس والتجار والحرفيين جميعهم رافعين شعار رفض المذكرة وعودة عرابى » (٢) ٠

وجاءت عودة عرابى الى السلطة لتلطف من الاجواء وتريح من النفسيات فنرى تلك الفرحة التى عمت ارجاء مصر كلها لانتصار الامه وزعيمها المختار وانهالت التهانى لتبارك بالنجاح ولتعطى المزيد من التأييد فكانت من أعيان وعلماء وتجار وموظفين وحرفيين وعمد ورؤساء أقسام وفلاحين ٠

وأصبح يطلق على عرابى « غاريبالدى مصر » ولم لا وهو منقـذها وحاميها ومحررها من الظلم والاستبداد ، فقد كان يمثل النموذج المصرى الاصيل ، فلأول مرة يكون هناك وزيرا بلا وزارة ، اذ كانت مصر فى حاجة اليه وبقيت بجواره فى ذلك الكفاح حتى النهاية ، فقد حصل على الحب الذى لم يصل اليه أحد ، ومحى اسم توفيق فى مصر حيث ان الآلاف من الآباء سموا أطفالهم باسم عرابى حتى انه وصل الأمر الى تلقيبه فى بعض الصحف « مولانا أمير المؤمنين سـعادة أحمد باشـا عرابى » (٣) ، وأخيرا فقد كان للمبادىء التى يبثها عرابى فى أذهان المصريين سببا كافيا لأن يستحوذ على ذلك فكثيرا ما كان يؤكد لهم مساوىء الأجانب ، كما كان يبين بأنه سينقص فوائد المرابين ، وبالتالى فقد كان لذلك رد فعل على الأوروبيين وخاصة انجلترا فقد راح كولفن يوهم حملة السندات أصحاب المصالح فى مصر بأن عرابى والحزب الوطنى من الثائرين المتعصبين الذين لا يحجمون عن العمل على هبوط السندات فى البورصة اذا أتيحت لهم الفرصة ، والذين نجحوا فعلا فى تخفيض قيمة الضمانات (٤) ، ومن هنا كان لابد من العمل على ضرب مصر الثورة ٠

---

(١) سليم نقاش : المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٣ ٠

(٢) The Times, May 25, 1882.

(٣) القسطاط عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ ٠

(٤) Blunt : op cit., p. 214.

الاحتكاك وبداية الحرب والمسيرة الثورية :

التحرش بين السكندريين والأجانب :

وصلت الحالة الى أقصى درجة من الاســـتياء في تلك الظروف التي تعيشها مصر ، حقيقة ان الزعامه اصبحت فى يد عرابى الذى له من المكانة ما لا يوصف ، لكن لم يكن عرابى وحده فى الميدان والا لانتهى الاسـر وأصبحت مصر للمصريين ، كان هناك حاكم متردد وضعيف وجد له السند في الاعتماد على القوى الخارجية ، وهناك أسطولان أجنبيان فى المياه المصرية كان لهما الاثر السيىء حتى ان توفيق يعترف بقوله « ان الاهالى على أثر وصول السفن الحربية الأجنبية الى الاسكندرية قد هاجت نفوسهم ويقولون ان الخديو هو الذى أتى بهذه السفن ليسلم البلاد الى الكفار » (١) ، وهناك الوكلاء الأجانب الذين يخططون على أرض مصر لوأد حريتها التى حصلت عليها ، وهناك مندوب خائن من قبل خليفتهم وضع يده فى يد أعداء المصريين وهناك أتراك ومستتركين متربصين ومتنمرين لاجهاض الثورة ومعهم القليل من المصريين أمثال سلطان ، وأخيرا هناك الاجانب الذين رمى بهم المجتمع الأوروبى لياتوا مصر ويستمتعوا بخيراتها بل ليستبعدوا أهلها ويذلونهم ، وابتليت الاســكندرية بهذه العناصر ، فقد كانت ســيطرة الأجانب عليها واضحة للغاية وعلى حسب التقرير النمساوى بلغ عدد سكانها فى هـذه الفترة ٢٣ ألف من المصريين الى جانب ٨ آلاف من الأجانب (٢) • شملوا اليونانيين والايطاليين والمالطيين وجميعهم يعملون بالتجارة واكثرهم يعمل بالربا •

وكانت الاسكندرية بحكم موقعها وطبيعة اهلها اكثر تأثرا بتيارات الثقافة ، وأكثر وعيا وتطورا ، وكانت الحركة الفكرية تجـــد فيها التربة الصالحة والمناخ المناسب خصوصا بعد أن ظهر واضحا الرأى العام فيها فصحافتها ، وجمعياتها ، واجتماعاتها ، وحماستها ، وأصـحابها كانوا مهيئين بالقدر الكافى بأن تخرج منها الثورة على الأجانب وخصوصا عقب ازدياد حوادث شغبهم •

ومع تلك الظروف كان لابد من الاحتكاك النهائى ، ولابد من وضـــع فاصل لتلك التصرفات ، ولابد من الانفجار ويجب ألا ننسى أن شــعب مصر هو شعب مسلم تقى وكان يجد لما تم على أرض مصر الطاهرة اعتداء

---

(١) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ١٦ يونيو ١٨٨٢ •

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٧١ ، رقم ١٦٢/سياسى ، ١٤ اغسطس ١٨٨٢ ، ص ٢ •

صليبى صارخ ، ومن هنا تأجج شعور الكراهية وبطنت الأحقاد ، وأزاد الوقود تلك الحملات التى شنت على الأجانب والتى كانت تمثل الحقيقة ، هذا فى الوقت الذى وفد فيه على الاسكندرية أجانب من مختلف مدن ومديريات مصر اذ رأوا فى وجود الأسطولين حماية لهم من ذلك السخط الذى ينشر بين المصريين عليهم ، وعلى أرض الاسكندرية نراهم يظهرون التعالى فى معاملاتهم مع المصريين ويظهرون أيضا التمنيات والآمال فى الرغبة فى سحق الثورة ونجاح التهديد الانجليزى الفرنسى « وكان اليونانيون والمالطيون يرهبون زملاءهم من القواربية أولاد العرب عندما أتت الدونمة الانجليزية ، وكانوا على الدوام يشيرون للوطنيين الى المراكب الانجليزية كما يشير الانسان للصغير الشقى الى العصى المختصة بتأديبه (*) وقد ازداد حنقهم بعد أن لمسوا اتجاهات حكومة الثورة ازاءهم ، وتلك الاجراءات التى اتخذت للتقليل من جبروتهم .

وجاءت حادثة الاسكندرية لينجلى فيها ذلك الشعور ، ولا يهمنا كثيرا أن نبين هل هى مدبرة أم لا ؟ ومن الذى دبرها ؟ ولماذا ؟ ومن خطط لتنفيذها ؟ وكيف انها اتخذت ذريعة لضرب الاسكندرية ؟ حيث أظهر ذلك الكثير من المسجلين لتلك الحادثة ، لكن كل ما يمكننا قوله ان اسبابها ليست بجديدة فى شىء ، وأن حوادث الاعتداء من الاجانب على المصريين كثيرا ما حدثت ، ولكن الجديد هو أن الامة جميعها قد وصلت فى ذلك الوقت الى قمة الضيق وكان لا يمكن ان تتحمل فوق هذا بعد أن فاض الشعور بضرورة تحطيم الأجانب ورد اعتداءاتهم ، هذا فى الوقت الذى رأت فيه القوة الأجنبية استئصال هذا الشعور من أعماقه ، وكان القناصل على رأس تلك القوة اذ وجدوا من الضرورى القضاء على الحرية الجديدة التى ولدت فى مصر ولم لا وهم يمثلون دولهم الاستعمارية وعقد قناصل الدول بالاسكندرية عدة اجتماعات بدعوة قنصل انجلترا وتشاوروا فى امكانية تأليف قوة دفاع أوربية فى الاسكندرية ضد المصريين وتزويدها بالسلاح، وكان لماليت دوره الكبير فى عملية التسليح وتشجيعها .

وعندما أخذ عرابى على عاتقه مسئولية الأمن ، صدرت الأوامر المشددة للبوليس التى وصلت الى حد أنه فى حالة حدوث مشاجرة بين أى من الأوروبيين والمصريين أن يثبت الخطأ على المصرى بالرغم من براءته وذلك منعا لأية مشاكل ممكن أن تطعن مسئولية عرابى وتكون فاتحة لاحتكاكات

(*) المفيد ، عدد ٦٣ فى ٦ يوليو ١٨٨٢ .

خارجية ، فيذكر مرسل التيمز أنه بطريق الخطأ تاده (عربجي حنطور) في اتجاه معاكس « فاحتججت بهدوء ، وكان هناك عسكري يقف قريبا فأسرع بالتدخل في الأمر وأمر العربجي باطاعتي وتوصيلي (١) » .

ومضى التحفز بين الطرفين ، فشعب الاسكندرية تجري في دمائه روح الثورة . فهم ثوريون بطبيعتهم وخصوصا تلك الفئات العاملة المطحونه والتي كانت تجد في الثورة انقاذا لكيانها ، والتي أصبحت على درجة من الوعي الكامل ، هذا بالأضافة إلى الاحساس الكامل بأن تلك الامتيازات التي يتمتع بها الاجانب سوف يقضي عليها نهائيا مع انتصار الثورة واستمرارها على يد منقذ مصر الذي سيعيد الحقوق المسلوبة الى أصحابها ومن سلبها الا الأجانب .

وجاءت حادثة الانفجار في ١١ يونيو ، وسواء أكان سببها ذلك الخلاف الذي وقع بين المالطي الخادم السابق للقنصلية الانجليزية وبين الحمار الذي طاف المالطي على حماره طوال اليوم وانتهى مطافه الى حانة قريبة من قهوة القزاز بشارع السبع بنات وأعطاه أجرته قرشا واحدا فجادله فما كان من المالطي الا أنه طعنه بسكين مات على أثرها وفر الى أحد المنازل المجاورة ، أو ذلك الفران الذي خرج من فرنه ليشتري دخانا في نفس الشارع المسكون بأوباش اليونانيين والمالطيين ، وكان منهما اثنان يبيعان سمك لمصري وحصلت بينهما مشادة ضربة أحدهما ، وهنا تدخل الفران فما كان من المالطي الا أن أنزل عليه السب وضربه بسكينه وهرب فأسرع أخو المضروب لنجدته ، واشتعلت المنطقة ، وبدأت الحرب بين السكندريين والأجانب .

وراح الأجانب يمطرون من نوافذ بيوتهم الأهالي بوابل من الرصاص الذين دافعوا عن أنفسهم بالعصي حيث لم يكونوا ممتلكين للسلاح « كان الضرب بالنبابيت وأرجل الكراسي والطرابيزات الخشب ، أما الأوروبيين فكان الضرب منهم بالأسلحة النارية من الشبابيك » (٢) ، وخرجت الصيحات تدوي وكأنها حرب صليبية ، يدعون فيها المسلمين على النهوض ضد من يقتلون اخوانهم وقد انتهز السكندريون هذه الفرصة وأصبح بمجرد ما يضرب الأجنبي احدا منهم ضربة واحدة فقبل ان يكررها يكون الوطني قد هجم عليه بكامل قوته ، متقويا بكل ما يتيسر له ان كان عصا أو يداه أو أسنانه أو أظافره أو نحو ذلك ، وقد كان وكأنه بركان فاض ضد

---

(١) The Times, June 1, 1882.

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٦ .

الإجانب ، ولم يكن هناك شك فى ان المشتركين كانوا نوريين ، فالبعض منهم بالرغم من أصابته الا أن الكلمات كانت تتردد بطلب نصرة عـرابى والجهادية بل والرغبة فى الالتحاق بها ٠

تناوبت الاتهامات فى القاء مسئولية ما حدث على الثوريين وعلى المعسكر المضاد للثورة وكل ما يهمنا أن نخرج بأن هذه الحادثة كانت تعبيرا صادقا وانفجارا لكبت طال مداه (١) ٠

اتهم العقاد أنه المحرك لها وانه اشترى « النبابيت » قبلها ، لكن لم تثبت التهمة عليه حيث أقر التاجر انه جارى البيع لكل من يطلب منه (٢) ، كما اتهم النديم على أنه أثار شعور السكندريين « بعقده جملة جمعيات قبل واقعة ١١ يونيو تتلى فيها خطب مهيجة ضد الأورباويين » (٣) لكن من المعروف أن خطب النديم تشعل القلوب نارا ، فقد كانت ثوريته جارفة ، وفى نفس الوقت لم تكن الخطب وليدة هذه الفترة بل انها موجودة منذ أن تأسست الجمعيات قبيل الثورة ولربما زادت بعض الشىء فى ذلك الحماس الذى أضفى عليها الثوريه الكاملة ٠

تجمعت العوامل لتدين عمر لطفى محافظ الاسكندرية الذى كان فى البداية مع التيار الثورى ، فهو من أعضـاء الحزب الوطنى القدماء لكنـه سرعان ما انسحب واصبح عدوا لهذا الحزب ، وذلك عندما استحوز عليـه الثوار المصريون ، وارتمى فى أحضان المعارضين وعلى رأسهم توفيق الذى عرض عليه الوزارة فرفض لا لشىء سوى لعلمه بقـوة عرابى واصرار الشعب وتمسكه به ، وهذا ما تم وجـاء عرابى للوزارة على أسنة الارادة الشعبية ، فازداد حنقه عليه ، وعندما أخذ عرابى على نفسه مسئولية الأمن أمام الداخل والخارج ، فحتى يظهره أعداؤه بعـدم القـدرة على ما تحمله ارادوا زعزعة موقفه بتلك الحادثة ، ويقال ان درويش المندوب العثمانى كان من المخططين أيضا (٤) ٠

وانتهيت الحادثة على يد سليمان داوود اذ تحرك بعد أن جاءه أمـر عرابى الذى بلغه الخبر متأخرا ، واستطاع أن يهدىء الموقف واستتب

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٣ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١/١٢٤ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٦ ٠

(٤) Ninet : Arabi pacha, p. 115.

النظام . ولم يحدث تحقيق علني ولا محاكمه ولا حتى توجيه أى سؤال لكل من عمر لطفي وحسين صادق الذى كان يتولى البوليس .

وكان للحادثة أثرها على الأجانب الذين ساد بينهم القلق ، وأمتلأت قلوبهم بالرعب . وتدفقت الهجرة من مصر مباشرة وفي خطاب من صابونجي الى بلنت يبين له « لا توجد أكثر من اثنى عشر محلا أوروبيا مفتوحة وبعلق أبوابها ، ومنظر الأحياء الاوروبيه بالقاهرة بادى الكآبة ولكن الأحياء العربية مثل ما كانت عليه » (١) ، حتى السوريون وبعض اليهود أخذوا في الرحيل بعد أن أغلقوا منازلهم ومحلاتهم . وبذلك ولأول مرة انعكست الأمور في مصر وأصبح الأجانب يقاسون ويتألمون لما وصلت اليه حالتهم على أيدى المصريين بعد أن مضى الوقت الذى كانوا يقسون عليهم ، وانقلب ميزان القوى ليثبت المصريون أنهم عند ثورتهم يطيحون بكل شيء ، ومن هنا كان لابد من تهدئة الموقف حتى لا تزداد الدماء .

الوزارة الثالثة :

ذهبت الأطراف المعنية لضرورة تأليف وزارة لاستتباب الأمن ، وأجبرت الحالة الاخيرة على اعطاء عرابى المركز والسلطة حيث هو وحده القادر على أن يسوس الجماهير الثائرة ، وكان قنصلى ألمانيا والنمسا من أكبر المؤيدين لجعل عرابى مسئولا فى الوزارة الجديدة وذلك لضمان مصالح رعاياهما ، بينما رأى درويش المندوب العثمانى أن عرابى يستطيع أن يخفف من حدة الأوضاع ، وانضم الى هذا الجانب قنصل فرنسا وحاولوا ازالة الخلاف العميق بين عرابى وتوفيق لكن لم تصف نفوس الأعداء أبدا وأجبر توفيق على تألف وزارة يستمر فيها عرابى بنفس منصبه .

ولم يكن توفيق ليجرؤ على تأليف وزارة بدون عرابى ، فقد أجبر من الشعب فى وقت لم تكن فيه وزارة على أن يكون عرابى وزيرا . فكيف نشكل الآن وزارة بدون عرابى ؟ .

وجرت المفاوضات ، وكانت مصادقة عرابى على الوزارة أهم من مصادقة الخديو والدول ، وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ومعهما درويش فى الأمر واتصلوا بعرابى وتفاوضوا معه فى اختيار رئيس الوزراء الجديد ، فاستقر رأيهم بعد رأى عرابى على اختيار اسماعيل راغب لتأليف وزارة ائتلافية (٢) .

لم يكن راغب باشا بمصرى الاصل بل هو مورى ، ومن قدامى رجال

---

(١) Blunt : op. cit., p. 546.

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، رقم ١٩١/سياسى ، ٢٩ اكتوبر ١٨٨٢ .

المعية ، لكنه انضم الى الثورة ، ومنذ أواخر عصر اسماعيل ظهر اسمه وتردد في الأوساط الوطنية بعد أن فتح منزله وجعله مقرا للاجتماعات الوطنية حيث وضع فيه أول دستور لمصر في العصر الحديث ، وشارك الثوار في افكارهم بل كان اكثر تطرفا فهو صاحب الاقتراح في « قطع راس الخديو » اذ أشار على العادة « بارسال بلوك لقتل الخديو » لكـــن عرابي يرفض . وتؤكد وثائق الثورة ثورية راغب ، فيقر على الروبي انه عقب اعــلان مطالب الأمة في التاسع من سبتمبر توجه عرابي ومن معه الى طرف راغب وأخبروه بما وقع فجاوبهم قائلا « انكم لم تتموا المقصود بل كان يلزم اعدام الخديوي لنوال المرغوب (١) » .

وشكل راغب وزارته في ١٨ يونيو وفقا لارادته والتي لا يمكن أن تتم الا بالاتفاق مع عرابي وعرضت على توفيق لمجرد الاعتماد ، وجاء فيها عرابي في منصبه ، وسليمان أباظة للمعارف ، وحسن الشريعي للأوقاف وجميعهم ثوريون ، وكان هناك المعتدلون ، محمود الفلكي للأشغال العمومية وعلى ابراهيم للحقانية وعبد الرحمن رشدى للمالية ، أما الخارجية فقـــد تولاها راغب .

كان برنامج الوزارة المحافظة على الارتباطات الدوليـــة والفرمانات السلطانية وتأسيس مجلس نواب بلائحته الاساسية والانتخابية ، وعدم جواز مجازاة أى فرد الا بعد محاكمة قانونية ، وألا تجرى مخابرات الا من طرف ناظر الخارجية وذلك حتى يمنع تدخل وكلاء الدول في شئون الحكومة وتخويل مجلس النظار مسئولية الحكم ثم توسيع دائرة المعارف والصنائع وتحسين أحوال الزراعة والتجارة (٢) .

العدوان الانجليزى على الاسكندرية :

كان واضحا أن المساعي التي تبذلها انجلترا من أجل اجهاض الثورة بكل الطرق الممكنة وبجميع تلك الوسائل التي استخدمتها ، بمساعدة القـوى المعارضة وبالتهديد والوعيد وأخيرا وجدت أن أفضل الطرق الموصلة هـو استعمال القوة فلعلها توصلها الى النجاح وتحقيق ما تصبو اليه . ولم تكن تلك المسألة بجديدة فهي منذ اللحظة الأولى كانت تفكر فيها لكنها لم تنفذها، فقد أرسلت قطعا من أسطولها مع حليفتها فرنسا مرتين الأولى عقب التاسع

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٩ .

(٢) فؤاد كرم : النظارات والوزارات المصرية ، القــاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٩ جـ ١ ص ص ١١٣ ــ ١١٧ .

من سبتمبر والثانية لتنفذ تهديدها في مذكرة مايو ، وبعدها أصبح جليا أنها قد صممت على اسقاط حرية الشعب .

هنا رأت الثورة أنه من الضرورى عمل الاستعدادات اللازمة للدفاع عن الأرض المصرية وأيدت الأمة ذلك الاتجاه ، وبدىء فى الاعداد للمواجهة الحربية بعد ذلك التصميم الذى أبداه القادة ، فقد كانوا متأكدين من الحصول على النجاح ، أما الفشل فهذا أمر لم ينظر اليه اطلاقا ، ومضى العمل فى التجهيزات الحربية على قدم وساق ، واستمر تدبير وســائل الدفاع بالرغم من أن توفيق قد منع عــرابى من ذلك بناء على أمر السلطان العثمانى عقب اعلان انجلترا احتجاجها

وبدأت الخطوات التنفيذية للاعتداء الانجليزى ، ففى أول يوليو أعلن سيمور قائد الاسطول البريطانى أن عرابى معتزم سد بوغاز الاسكندرية لحصر السفن الانجليزية الراسية ، وأنه سيمنع ذلك بالتدمير ، هذا فى الوقت الذى أرسلت الوزارة الى توفيق تبلغه من أن السفن الانجليزية قد أحاطت أماكن آلاتهــا بالسلاسل الحديدية الضخمة وأقامت حولها خنادق واستحكامات « ونحن لن ندخر وسعا فى سبيل اعداد الأسباب والوسائل الكفيلة بالدفاع عن بلادنا» ، وأعاد قائد الاسطول الانجليزى تهديده ووعيده وانداراته لكن لم يسمع له أحد مما اضطره أخيرا فى ١٠ يوليو أن يرسل الانذار النهائى « لتسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون (*) » وعقب هذا الانذار عقد اجتمــاع بسراى رأس التين حضره توفيق والمندوب العثمانى والوزراء وسلطان ولواءات الجيش ودارت المناقشات حول اجابة طلب سيمور أو رفضه ، وأبان فيه مرعشلى باشا وهو من كبار مهندسى الاستحكامات بأن طوابى الاسكندرية تعجز بمدافعها القديمة عن مقاومة المدرعات الانجليزية لكنه وجد المعارضة من وكيل البحرية ومحمود فهمى ، وصمم الجانب الثورى على الدفاع عن البــلاد ورفض انذار القائد البريطانى ، وقطعت العلاقات الرسمية بين مصر وانجلترا وأصبحا فى حالة حرب .

وقبل أن تطأ أقدام الغزاة الأرض المصرية حرقت الاسكندرية ، وتعددت الأقوال فى الأسباب ، لكن مما لا شك فيه أن قنابل الاســطول الانجليزى كان لها اثرها فى ذلك ، وأشارت أصابع الاتهام الى العسكريين وعلى راسهم

(*) Egypt, No. 7 (1882), No. 176-655, pp. 103, 105, 172.

سليمان داود ، كما فعل الروس في موسكو عندما اقترب منها نابليون ، وقد أبان عرابي في حديث له مع القنصل الفرنسي « ان الروسيير أحرقوا مدينة موسكو (١) » ، وحتى الصحف الروسية وجدت في حريق الاسكندرية شبيها مماثلا لحريق مدينتها ، وأن عرابي له الحق في ذلك ، وهو ليس بدكتاتور عسكري بل هو زعيم قومي مصري يريد ان يحرر بلاده من أطماع الغاصبين الأجانب (٢) .

لقد كان قواد الثورة يميلون لهذه المسألة حتى تتم اعاقة تقدم الانجليز ليتيسر استكمال التحصين خارجها وان لم تكن النية متجهة الى ذلك لامكن وقف الحريق في الحال ، لذا كان رد الفعل بطيئا تجاه وقف الحريق حتى نوال المراد ، وقد أقر أحد الثوريين أنه سمع عرابي والبارودي يتذاكرون في حرق الاسكندرية «ان الانجليز أجروا ما أجروه فيلزم أننا نحرق البلد » وفي يوم الحريق كان القادة في « سراي نمرة ٣ » وأثناء مشاهدتهم للحريق كانوا يقولون : « انه اذا خرج الانجليز الى البلد لا يجدون شيئا ولا حتى طريقا يمرون منه » (٣) .

ومن الملاحظ ان الحريق تركز على الحي الاوربي ، فمن اقوال عرابي « ان الاسكندرية لم يكن للمسلمين فيها سوى العشش ، أما الابنية والأمتعة وغيرها فهي ملك للاوروباويين ، فدعها تحترق وتترك لهم قاعا صفصافا » (٤) .

وبذلك أصيبت أملاك الرأسماليين الأجانب الذين امتصوا دماء المصريين . والذين ربحوا وملأوا جيوبهم من عرق وجبين هؤلاء الكادحين ، فكان الحقد والرغبة في الانتقام قد تمثلت في حرق ثمرة اعمالهم الغير شريفة ، ويمكن القول ان التخطيط كان كاملا لذلك ، بأنه اذا تمكن الانجليز من ضرب الاسكندرية وعدم صمود المدينة أمام نيران أسطولهم يكون التقهقر للتحصين ، وحتى تتم الراحة النفسية للقوات ويعاق تقدم الانجليز ليتم الاستعداد للمواجهة كان لابد من ذلك وخصوصا أن الأذى وجه للأجانب دون المصريين ولو انه في اثناء ذلك كان للبدو وأصحاب المواقف المتلونة دور في ازدياد نار الحريق ، واقترن حريق الاسكندرية بسلبها ونهبها ، قام بذلك الأروام والبرابرة وكذلك البدو ، وقد بذل قادة الثورة مجهودا كبيرا في ايقاف هذه العملية ومنعها ، وبدأت هجرة السكندريين التي كانت

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، شهادة قنصل الدانمرك .

(٢) الأرشيف النمساوي ، محفظة ٤٠ ، مجموعة ٣٢/٣٢ ، ١٢ يوليو ٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/أ ، دوسيه ٣٨٤/أ

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/أ .

سلسلة متصلة من حلقات العذاب المتوجه بصيحات الجياع ، هائمون بلا مأوى ، صوروا أبشع صور المأساة الانسانيه التى تحملتها الاسكندرية فى تاريخها • وبذلك أصبحت تلك المدنية تحمل آثار العدوان من تخريب ودمار وحريق ، وانسحب منها الجميع ، وانعدمت فيها الحياة ، حتى المياه قطعت عنها ، لتعوق تقدم القوات المعتدية ، ولتكتمل صورة الخراب لأجمل مدينه مصرية •

محاولة العصف بالخديوية :

لم يقدم توفيق على القيام بأى عمل يعــارض به التدخل الأوروبى بل ارتمى فى أحضانه ليتمكن من الوقوف أمام الثورة التى افقدته كل شىء حتى انه راح يشكو القائمين عليها من قواد جيش ووزراء وأعضـاء نواب الى القناصل ، وكان الانجليز أكثر من احتضنه فدخل تحت سيطرتهم وقد أوضـح تقرير نمســاوى ما وصل اليه توفيق « انه واقع تحت نفوذ الحكومة الانجليزية المطلق فهو لا يملك تماما جهاز أبيه العقلى وتنقصه سرعة الخاطر والفهم النافذ والمبادأة ، تنقصه التجارب ومعـرفة النـاس وعادات السلوك بينهم ، فكان لهذا السبب يتردد عند اتخاذ أى قــرار حائرا مرتبكا مستسلما الى حـد الاستكانة » (*) وقد بدى ذلك واضحا منذ توليه العرش ، ومع حادثة يونيو وانتقــال توفيق الى الاسكندرية أصبح قلبا وقالبا مع الأجانب عامة والانجليز خاصة ، واطمأنت نفســه لوجوده بجوار الأساطيل الأجنبية ، بل راح يشجع استعجال نزول القوات البريطانية الى الأرض المصرية بالرغم من أنه كان عـلى قمة المجتمعين فى ١٠ يوليو للرد على انذار سيمور وكان من بين الموافقين على القــرارات الصادرة بالمقاومة والدفاع ، ولربما هداه تفكيره فى ذلك الوقت عن امكانية انتصار المصريين فلا يكون موقفه شاذا اذا عارض •

ومنذ البداية كانت الثورة ترى ضرورة اسقاطه بعد أن تأكد تزعمه للمعارضه لها بمختلف الطرق وحدثت محاولات لكنها لم تصل الى النتيجة التى ترجوها الثورة ، ومع ضرب الاســكندرية قرر القادة القضاء عليه ، وتوضح لنا الوثائق النمساوية محاولة اسقاط عرش توفيق يوم العدوان « عقب ضرب الاسكندرية أمر عرابى جنوده باحراق قصر الرمل الذى التجأ اليه الخديو ودرويش باشا وأن يقتلوا كل من يحاول الهرب منه ، فكلف ثلاثمائة جنود من حرسه الخاص لمحاصرة القصر ، ولكن للآسف ان توفيق نجح هو ودرويش فى اغرائهم بعرضه عليهم الأوسمة والنقود

(*) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، ملحق تقرير الكونت هنجلمولر ، ص ٧ •

والأحجار الكريمة . وهؤلاء الذين كلفوا بتلك المهمة هم الذين حمـــوه فى انسحابه من قصر الرمل الى رأس التين الذى كانت تحرس أبوابه الجنود الانجليزية ، فاضطر مع حرمه وجميع نساء القصر الى أن يقطعوا مسافة طويلة جدا وبمنتهى العجلة على الأقدام وكان من جراء ذلك ان معظم سيدات الحرم أصابهن المرض وان أختا لزوجته ماتت » (١) .

كان سليمان داوود من الأشخاص الذين اعتمد عليهم عرابي فى تنفيذ أغراض الثورة ، وأعطيت له الأوامر بالتخلص من توفيق ، وكان عليه أن ينفذ بنفسه لكنه لم يذهب برغم ثوريته الجارفة وأرسل عسكريين من آلايه على رأسهم البكباشى محمد منيب فوفدوا على القصر وضربوا الحصار حول القصر باقامه « كوردون جنزير » بحيث لا يستطيع أحـد أن يخرج منه أو يدخل اليه ، وأطلقت النيران على من حاول الدخول وان لم تصب الا أن الخطة كانت تسير وفق التعليمات ، وأعلن ظاهريا ان هذه القـوة المسلحة هي لحماية الخديو .

استدعى توفيق قائد الفرقة المحاصرة وأفهمه انه حاكم البـــلاد ، فأجابه انه غير مسئول الا لدى ناظر الجهـــادية ، وان مرجع أمره اليه ولا يعرف رئيسا غيره ، وبعد أن أتم القائد جوابه أخذ يتهيأ للهجوم فأعد المشاة وأمرهم بالانتظام حول القصر وجعل الفرسان وراءهم وشرع فى الحصار فتأهب من فى السراى للدفاع عنها .

وتمكن توفيق بطرقه المختلفة من استمالة محمد منيب القائد المحاصر فأنعم عليه برفع رتبته الى أميرلاى ، وأنعم على الفرسان من جنده بشهرين « فأقسم للخديو أن يفتديه بنفسه وقال انه كان مأمورا باحراق السراى وقتل من فيها » (٢) .

تم ذلك بعد أن كان الناثرون قد أضرموا النار فى جزء من القصر وعلى الفور قام الجنود الانجليز بوقف سيرها ، هذا فى الوقت الذى أرسل فيه توفيق كل من سلطان وحسن الشريعى وسليمان أباظة وياوره وياور درويش الى عرابى لمعرفة أسباب ذلك ووقفه ، وطال الحديث بين راغب وسلطان وبين عـرابى فهم ينرجونه ويلحون عليه فى العدول وهو متمنع ورافض . وفى البداية أبان ان هذا الحصار للتحفظ ثم أظهر ان الأمة غير راضـــية عن الخديوى وتخشى من نزوله للأسطول الانجليزى ، وبتكرار الترجى فيقول ياور توفيق « فصرنا ماشيين خلفه وكلما يتقدم أبو سلطان لأجل

---

(١) نفس المصدر ، محفظه ٢٠ ، المجموعة ٢٥/٣١ ، رقم ١٣٥ ، ١٨ يوليو ١٨٨٢

(٢) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٧٤ .

أن يتكلم معه ، وبالعمل يتكلم فلا كان يلتفت له ولا يصغى لما يقوله » (١) لكن انتهى الأمر بموافقه عرابى وأرسل معهم طلبه « لصرف العسكر ».

ويمى عرابى ان ذلك كان بتخطيط قادة الثورة لاسقاط نظام توفيق وأعلن انه عندما علم بالحصار أمر بفكه ، لكن كل الشواهد والدلائل لتقدم لاتباتات العكسية ، ومن المستغرب ان سليمان أباظه الذى جاء لينشفع ويترجى بفك الحصار كان يقول لعرابي «ان لم تحافظوا على الخديوى وتقتلوه والا هرب الى الاسطول الانجليزى » (١) ، فواضح ان التراجع كان عاملا قويا للهزيمة ، وذلك التباطؤ عند التنفيذ والسماح بتدخل قوى أخرى فى برنامج معد وتغيير مساره ، والتقاعد وفقدان الجراة الفوية . فبالرغم من شجاعة القادة الا انهم فى أحيان كثيرة كان التردد سمة ظاهرة على أعمالهم وقد وضح ذلك جليا فى هذه المسألة . فلقد رددوا كثيرا من الرغبة فى انجاح الثورة بدون اراقة نفطة دم واحدة ، هذا فى الوقت الذى لم يتعود فيه المصريون على مسألة الاغتيالات وحتى حينما فكروا فيها كان الفشل بصاحبها ، كما يجب أن نضع فى الاعتبار ان النفوس الضعيفة التى خضعت للاغراءات قد أثرت فى مجرى الثورة ، فحتى لو لم يتراجع قادة الثورة بما اصدروه لانتهى الأمر على غير ما يرمون اليه ، وأخيرا فقد كانت وقفة الأسطول البريطانى تمكنه من احباط الخطة .

قوى الثوره والحزب المعارض :

ضرب الأسطول البريطانى الاسكندريه ، ورغم قصر المدة التى كافحت فيها الا ان كفاحها كان شرفا لها على الصفحات باعتراف أعدائها ، وحرقت من اجل اعاقة تقدم الانجليز ريثما تتم الاستعدادات الكافية فى جنوب المدينة ، وفشلت محاولات اسقاط عرش توفيق لتجعله يرتمى أكثر وأكثر فى أحضان انجلترا ولتكون النتيجة فى نهاية الأمر انقسام مصر الى حكومتين ، احداها فى يد الثورة والأخرى فى يد أعدائها ، وكان الشعب بجميع قواه مع الثورة ، أما من لعبت بنفوسهم الضعيفة الخيانة فقد انضموا الى المعسكر المضاد .

واصدر توفيق أوامره التى وزعت على المديريات بأن الصلح قد تم بين مصر وانجلترا هذا فى الوقت الذى أرسل فيه عرابى الى أنحاء مصر كلها ليبلغ موقف توفيق الخائن وان البلاد تحت الأحكام العسكرية ويطلب

---

(١) محافظ الثوره العرابيه ، محفظة ١٨ ، دوسيه ٧١ .

(٢) محمود فهمى : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

المداومه على التجهيزات وتنجير الطلبات العسكرية وأعطى الأمان لجميع سكان مصر . وعاد توفيق وكرر انهاء حالة الحرب وتحميل عرابى مسئولية الاستمرار وضرورة وقف الأعمال العسكرية وطلب منه الحضور ، وكانت المباحثات تجرى بين رجال انجلترا المسئولين فى مصر وبين توفيق ، ولم تكن أوامره تصدر الا بناء على رغبة هؤلاء ، ومعروف ان جميع خطواته بناء على التعليمات الانجليزية ، وكان الهدف من طلب عرابى الحضور لقصر توفيق هو القبض عليه ، فيقول كارتريت الى وزير خارجيته « اذا حضر فسيقبض عليه ، واذا رفض فيعتبر عاصيا خارجا عن القانون » (١) ، وجاء رد عرابى معارضا ، ورفض الحضور للخديو بل وطلب الوزارة ورئيسها أن تحضر لمقر القيادة للمداولة .

ومما تجدر ملاحظته ان رئيس الوزراء الذى اختاره عرابى قد تحول عن الطريق الثورى بعد أن أملت عليه مصالحه الانضمام لأعداء الثورة واشترك مع توفيق فى أوامره ، بل يكتب للأدميرال الانجليزى عن مخالفة عرابى لأوامر توفيق ليبلغ حكومته ، ويعلن ضرورة عودة المهاجرين الى الاسكندرية ووقف المساعدات العسكرية بحجة ان الصلح قد تم (٢) .

المجلس الوطنى :

رأى العسكريون أمام ذلك ضرورة ايجاد طريقة للوقوف أمام القوى المضادة ، فاستقروا على عقد اجتماع بالداخلية يضم قوى الأمة المستنيرة من علماء وأعيان ورؤساء دينيين وذوات وكبار موظفى الدولة فى شكل جمعية و مجلس وطنى تكون مهمته تقييم تصرفات توفيق التى بلغت مداها ضد الثورة ، والنظر فى مدى صلاحية توليه مثل هذا الوالى على الأمة الاسلامية ، وهل ما قام به يجوز شرعا ، والذى تسبب فيما يفعله الانجليز بمصر ، كذلك ليخرج منه القرارات والتعليمات التى تسير مصر عليها أثناء فترة الحرب وتكون له السلطة الكاملة فى ذلك .

واجتمع المجلس فى ١٧ يوليو ١٨٨٢ وضم الأمراء - ابراهيم ، أحمد ، كامل أولاد عم توفيق - وشيخ الاسلام ، وقاضى قضاة مصر ، ومفتى الديار المصرية ، وكبار العلماء ، والرؤساء الروحانيين للديانات ، وبعض أعضاء مجلس النواب ، ووكلاء النظارات ، والمديرين ، والقضاة ، والتجار ، والأعيان ، والعمد جاءوا بمحض ارادتهم وبدون أى ضغط عليهم ،

---

(١) Egypt, No, 17 (1882), July 15, 1882.

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

فلم تحضرهم الأوامر ، ولم يتعرضوا لقوة مسلحة تجبرهم ، فقوى الأمة حانقة على توفيق وأعوانه وسلوكه الشاذ تجاه مصر ، وهنا برهن على ان الثورة هى الأمة بأسرها التى يتزعمها عرابى ووفقا للتقرير النمساوى « ان ذلك الاجتماع الذى عقد بالقاهرة وأيد عرابى يمثل الشعب وليس هناك أى برهان يدل على أن الخديو يمثل الشعب أكثر من تمثيل عرابى له » (١) وكان ذلك تطبيقا لديمقراطية سليمة أرادها عرابى ، وهى فى نفس الوقت تدعيما لمركزه وقوته ، فقد وضع الأمة جميعها أمـــام المسئولية المباشرة ولتكون الحاجز المنيع أمام مؤامرات القوى المضادة ٠

لقد جاءوا مصممين رافضين أوامر توفيق الخاصة بوقف التجهيزات العسكرية ، وهنا نرى تلاحم القوى من أجل نداء الوطن ، ولم يكونوا بمفردهم فى هذا الاجتماع بل وكان ديوان الداخلية « غاصــا بجماهير الناس » (٢) جاءوا ليشاركوا فى الرفض وعدم الاستسلام ، وذلك لنكتمل دائرة القوى الاجتماعية ، وأثناء المداولة تركت الأبواب مفتوحة ليشاهد الجميع وليسمع كل من يريد ، ورأس الاجتماع حسين الدره ملى وكيل الداخلية وقرأ خطاب عرابى – حيث انه لم يكن حاضرا لهذا الاجتماع – الخاص بالرأى فى ســلوك توفيق ، وعرضت الرسائل التى تبودلت بين توفيق وعرابى ، وخطب على الروبى وبين أفعال الانجليز الشائنة ، وأعقب ذلك قيام محمد عبده وتلاوته لأوراق تتضمن ضرورة استمرار التجهيزات وطلب عزل الخديو وأبان السبب بقوله « الخوف من كون الخديو يعمل مثل باى تونس ويكتب معاهدة باعطاء مصر للانجليز » (٣) ٠ فرد عليه الشيخ عليش ووقف فى وسط المجلس وصاح الله أكبر ثلاث مرات « قد خلعناه يا قوم قد خلعناه ، الله أكبر على من طغى وتكبر ، فكثر عند ذلك صياح الامامة » ، فكان ذلك معناه التأييد التام ، وتبعه الشيخ العــدوى بالموافقة ، فقد نهض وأعلن الحرب المقدســة ، وبين انه وفقا للشريعة الاسلامية من الحتمية عزله ، وتبعه بطريرك الأقباط الذى ندد بتصرفات توفيق ، ووافق المجتمعون على ان توفيق قد باع الوطن للأعداء وقرروا « توقيف أوامر الخديو الذى خالف الشرع الشريف والقانون المنيف » وان توفيق يكون خديويا لمصر اذا كان معها ومع جيشها لا أن يكون مع الانجليز وفى حماية أسطولهم ، لذا فقد أصبح مقصيا عن سلطته ، ورأوا الزام عرابى وانا طته بالمدافعة عن البلاد ، وضرورة الاستمرار فى الاستعدادات الحربية

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ٥٩ ، ١٧ اغسطس ١٨٨٢ ٠

(٢) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٣١٢ ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٨ ، دوسيه ٥٣ ٠

مادامت العساكر الانجليزية فى الاسكندرية ومراكبهم فى مياهها ، وطلبوا الوزراء من الاسكندرية للاستعلام منهم عن حقيقة ما تم قبل الحرب وبعده لدراسة الموقف ، وأن تعين لجنة من ستة مندوبين من طرف المجلس ليتوجهوا الى الاسكندرية لتبليغ قرار المجلس واحضار الوزراء ، وقد انتخب على باشا مبارك ورءوف باشا من الذوات وأحمد بك السيوفى والشيخ سعيد بك الشماخى من أعيان التجار ، والشيخ على نايل والشيخ أحمد كيوه من العلماء (١) •

ذهب الوفد المختار الى كفر الدوار وأجرى مباحثاته مع القيادة ، وكانت الرغبه فى الصلح مع الانجليز ممكنة على شرط الانسحاب ، لكن عرابى كان يرفض وبشدة أن يكون الصلح على أساس مذكرة مايو ، ولم ينته الأمر الى اتفاق بشأن ذلك ، وحتى عند سفرهم للاسكندرية رفض توفيق والوزراء الرجوع الى القاهرة وهذا شيء طبيعى •

كان من المفروض أن يجاب على ذلك الرفض بطريقة ثورية وعملية لكن لم يتخذ شيء سوى تقديم التماس للسلطان لوضع حد لتصرفات الخديو وتحرير ما تم فى الاجتماع •

أعقب ذلك ان تكون مجلس عرفى أوكل اليه اختصاص أعمال الحكومة كان على رأسه يعقوب سامى وكيل الجهادية وبطرس غالى وكيل الحقانية وحسين الدره ملى وكيل الداخلية ، وأحمد نشأت ناظر الدائرة السنية ، « وكان عبارة عن جمهورية مؤقتة لحفظ نظام البلاد الى أن تنقشع سحب المصائب المتكاثفة على مصر » (٢) ، ولقب عرابى « بحامى حمى البلاد المصرية » واستمرت مصر تحت الأحكام العرفية العسكرية ، وصدرت الأوامر بعدم ارسال أخبار تلغرافية بالشفرة أو أخبار مبهومة العبارة من مصر لممالك أوربا وبالمثل الأخبار الواردة ، ومنع دخول الأجانب لمكاتب التلغراف ، وصدر قرار بمنع الصحف كافة من نشر أخبار أو أية نشرات تتعلق بالأحوال الا بعد اقرار المجلس عليها ، وقرر عدم الترخيص لأحد بالسفر من مصر الى الخارج مادامت الحرب قائمة ، وأصدر عدة قرارات باجراء بعض التنقلات الادارية وعزل المديرين الذين اشتبهت الحكومة فى اخلاصهم ، وبذلك سقطت سلطة الحاكم الشرعى ، وأصبحت الأمة جميعها فى جانب وتوفيق ومن معه فى جانب آخر ، وأصبح المصريون مجبرين على

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ ، محفظة ٨ ، دوسيه ١/٥٣ •
Commons, Vol CCLXXIII, p. 370. The Times, July 21, 1882.

(٢) احمد عرابى : نفس المصدر ، ص ٣٤ •

الخروج عن طورهم ، فطرحوا الهدوء ومضوا فى طريق الثورة ، يدافعون عن حقهم الغالى فى الاستقلال والحرية وادارة بلادهم . وازداد استياء توفيق وخصوصا بعد اجماع الأمة لمعارضة أوامره .

اذن لابد من أن يعمل أمام تحدى الثورة وعلى رأسها كبيرها وذلك باسقاطه من قمته ، فاصدر أمره بعزل وطرد عرابى من الوزارة ، ومعروف ان ذلك الامر صدر بناء على رغبة انجلترا ، اذ عقب صدوره كلف جرانفيل دوفرين أن يطلب من الباب العالى « أن يؤيد السلطان الاقالة التى دبرها توفيق لعرابى باقالة باسم السلطان لتقوينها » (١) .

وكان عرابى مرابطا فى كفر الدوار وقت صدور قرار عزله الذى انتشر فى الأرجاء ، ولم يلق استحسانا من أحد اذ رفضه الجميع « وجاء الناس لعرابى طالبين بقاءه والاستمرار فى الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوافد عليه من كل جانب » (٢) .

واستمر عرابى فى الاستعدادات وأرسل الى يعقوب سامى يطلب منه عقد المجلس الوطنى للنظر فى أمر عزله هذا .

ويجتمع المجلس فى ٢٩ يوليو للبت فى قرار توفيق الذى أصدره مدعما بالحقد والكراهية لزعيم الأمة وفى الاجتماع الذى جاء أكثر حيويه وثورية أوضحت الأمور واستعرضت تصرفات توفيق وكان الجميع ضدها وتم اتفاق المجتمعين واتحدت كلمتهم على ان « وجود العساكر فى اسكندرية والمراكب الانجليزية فى السواحل المصرية ، ووقوف عرابى باشا فى مدافعه العدو يقتضى وجود بقاء الباشا المشار اليه فى نظارة الجهادية مداوما على قيادة العساكر ، ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظارة الموجودين معه فى اسكندرية كاينة ما كانت لأى جهة من الجهات ، وعدم تنفيذها حيث ان الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ويلزم عرض قرارنا هذا على الأعتاب العلية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات » ووقع الجميع على هذا القرار رجال الدين والأمراء والعلماء والقضاة والمفتى ووكلاء النظار وناظر الدائرة ، ومأمور الضبطيه ومديرو المديريات والأعيان وعمد البلاد بحرى وقبلى والتجار (٣) .

لكن ما وصل اليه المجلس يكاد يقترب من قرار عزل توفيق اذ رأى البعض أنه اذا أقدم على ذلك رسميا بقرار من الأمة فى مثل تلك الظروف

---

(١) الارشيف النمساوى : محفظه ٢٠ ، رقم ٣٣ ، ٢٤ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ١٩٨ .

(٣) محافظ الثوره العرابية ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٢٨ .

لربما يؤدى الى اضطرابات ومصر في حالة حرب ، ولكن في الحقيقة كانت هذه الأحداث أنسب وقت لصدور القرار خاصة وان الجميع كان يرى ضرورة ذلك ويرغب في تنفيذه ، ولم يكن وليد تلك اللحظة بل له ماضيه فالعسكريون يعلنون ضرورة عزله ، والعلماء ينادون بضرورة ابعاده ، والأعيان لم تكف لحظة عن المطالبة باقصائه ٠

لم تصدر فتوى شرعية بعزل توفيق رغم اجابة الشيخ عليش وبقيه العلماء على انه لم يعد يصلح أن يكون واليا على المسلمين المصريين ، لكن مع قرار المجلس الأخير اعتبر شبه معزول ، وأصبح التعاون وثيقا بين قادة الثورة والمجلس ٠

الصراع وانتصار الثورة :

مضت القوة المعاكسة للثورة تسير في طريقها لتحارب الامة ، ومن قصر توفيق خرجت المنشورات المضادة التي تبين ان القـــادة الانجليز مأذونون من طرفه باجراء الحركات العسكرية التي يرونها ويطلب الامتثال والطاعة لهم حيث ان أوامرهم « هي أوامرنا في الحقيقة » (١) ، ولم يكتف بذلك ، بل ذهب بنفسه الى خط الدفاع المصري بأبي قير ليثبط عزيمة المحاربين ٠

أعقب ذلك استقالة وزارة راغب وبهذا نال مكافأته عـــلى انحرافه عن الثـــورة ووقوفه بجوار سيده ، وتم ذلك وفقا للارادة التي أرادته أن تشكل وزارة جديدة تحل محل وزارة راغب ذات الميـــول الوطنية ، ومعروف انه كان من أعضائها من لهم الميول الثورية ، هذا في الوقت الذي كان فيه شريف مرضيا عنه تمام الرضا من أعداء الثورة ، فكلف بتشكيل وزارته الرابعة في ٢٨ أغسطس التي كللت أعمالها بالترحيب بالاحتلال ، وعاد رياض ليتولى الداخلية ، وحيدر أعطى المالية وعمر لطفي استحوذ على الجهادية والبحرية وعلى مبارك أنيطت له الأشغال العمومية ، وأعطى توفيق نفسه حق دعوة مجلس النظار تحت رئاسته واعتبر نفسه الرئيس الأعلى للقوات المصرية البرية والبحرية (٢) ٠

وأرسل توفيق الى السلطان يطلب جنودا من الترك والكرد والأرناؤوط ذلك لاستخدامهم في البوليس والجندرمة ، وذلك بعد أن فشل في استمالة رجل الأمن التابعين للثورة ٠ واستدعى الضباط الشراكسة وعلى رأسهم رفقي الذين كانوا قد نفوا على يد الثورة ، وبذلك استطاع توفيق أن يدعم

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ ٠

(٢) فؤاد كرم : المرجع السابق ص ص ١٢٠ ـ ١٢٤ ٠

جبهته الجديدة من جميع المعارضين للثورة الذين كان أملهم الوحيد القضاء عليها ٠

وانتشر الطابور الخامس بين الطرفين ، وازداد نشاط الثورة ، وكثر عقد الاجتماعات وخاصة في منازل القادة وكان فيها التشجيع والتحميس قد بلغ أقصاه ٠

ومضت الثورة بعد أن جندت كل امكاناتها فى طريقها ، وأرادت أن تضفى الشرعية عليها وذلك بتختيم جميع قوى مصر على محاضر لاسقاط عرش توفيق ، وقد قام بذلك العمد والمشايخ ، كما كان يرد مندوبون من المديريات « يطلبون خلع الخديو ولا يمكن أن يقال ان عرابى قد أجبرهم على ذلك » (١) ، وجرى توقيع محضر عمومى للسلطان بلغ الموقعون عليه أكثر من عشرة آلاف وشمل طلب خلع الخديو لكونه غير أهل للولاية ٠

ومع ذلك لم يسقط توفيق ومضى فى محاربته للثورة وقائدها، حقيقة فقد أصبح عرابى حاكم مصر الأوحد ليس بجبروته ولا قوته ولكن بحب الناس اليه فالثقة تزداد فيه يوما بعد يوم وبالتالى يزداد نفوذه ، وفى أثناء الحرب كان معسكره مركزا لتجمع الشعب من أرض مصر كلها ، وقد أقر تلك الحقيقة الانجليز أنفسهم ، فلم يكن له طموح شخصى يسعى اليه بل كان يعمل بكل طاقته من أجل مصر وصالحها ، ومن هنا كان ذلك الحب المتدفق الذى ربط الشعب بعرابى والذى لم يكن له نظير فى حياة الأمم ، فقد امتد الى كل مصرى حتى رجل الشارع ، وكانت الدعوات المتكررة « الله ينصرك يا عرابى » تتردد بين شفتى كل فرد ، بينما تنزل اللعنات على توفيق (٢) ٠

لقد كان الوعى تاما والتعبير صادقا ، حيث ظهر عرابى أمام الجميع انه خادم المصريين والمدافع عنهم فهو الذى يقاوم الغزو الأجنبى على الأرض المصرية ، وهو صانع الحرية ، فعلم شعبه كيف تنتزع من الغاصبين ، وعلى يديه برهنت الثورة انها أصيلة وخرجت لتعبر عن أمانى الشعب الذى اختار قائده بمحض ارادته ، حتى الأعداء فقد شهدوا بذلك ، فهذا الضابط الانجليزى الذى اشترك فى حرب المصريين قال « لننظر الى القضية من الناحية المصرية لا من الناحية الأوروبية فليس هناك شك فى ان عرابى تجسدا لشعور وانسجام الوطنيين المصريين الذين كانوا يحاربون من أجل

---

(١) Blunt : op. cit., p. 327.

(٢) Broadly : How We defended Arabi and his friends, pp. 173, 484, 502, 503.

اصلاح حالهم ، ومن أجل الضرائب الظالمه ، والقضاء الغير عادل والسيطرة الأوروبية على الأوضاع جميعها » (١) ٠

وجميع الأوراق التى عثر عليها الخاصة به تفيض بالتأييـــد له ، عرائض مقدمة وعليها مئات التوقيعات والأختام شملت قوى مصر تفوضه كل شيء ، وباختصار يمكن القول « ان مصر كلها مع عرابى ، وان عرابى هو رأس مصر كلها » ، حتى لقد بينت صحيفة الستاندرد بأن ذلك كفيل له بأن يتقلد الحكم (٢) ٠

حقيقة لقد كانت مصر هى الثورة ، فلم نجد على أرضها قوة لم تشترك فيها بكل ما تملك ماعدا عناصر خرجت منها لأنها دخلت فيها بناء على مصالح خاصة وحينما رأت ان مسار الثورة ضد مصالحها انعكست بعــــد أن استيقظ الشعب وتفتحت عيونه على حقوقه ٠

المنهج الثورى فى التطبيق :

(أ) محاولات التفاهم مع انجلترا :

لم تترك الثوره بابا الا وطرقته من أجل مصلحة مصر حتى باب فتح المفاوضات مع انجلترا ، لعلها تصل للطريق الذى تسلم منه من التدخــل السافر ، وكان ذلك قبل أن تعلن الحرب بين الدولتين ، فرأت أن تتفاهم مع الدولة التى تخطط مصائر الأمم ، وهنا نرى ان قادة الثورة لم يختلفوا كثيرا عن قادة ثورة ١٩١٩ فى امكانية الوصول الى اتفاق حول الأوضــــاع فى مصر ٠

كان تقرب قادة الثورة لبلنت من بين الأسباب للتقرب من انجلترا ، ومنذ أواخر عام ١٨٨١ راح يكتب الى جلادستون ليعطيه صورة على حقيقتها للثورة المصرية وقائدها والظروف الصعبة التى تمر بها مصر ، وتلك الرغبة الأكيدة فى ايجاد حل عادل للمسألة المصرية ٠

وقد كانت مجهودات بلنت واضحة فى نقل برنامج الحزب الوطنى وشرحه سواء لجلادستون أو بنشره على صفحات التيمز ليصل الى الرأى العام الأوروبى ويوضح أهداف وأبعاد الثورة المصرية ، كذلك حمـــل الى جلادستون خطابات عرابى الخاصة بالاصطلاحات والمشروعات الثـــورية

---

(١) Ibid, pp. 435, 436.

(٢) الطائف ، عدد ١١ شعبان ١٢٩٩ (١٨٨٢) ٠

ولكنه لم يرد عليها وأبان أن الرد علي ذلك سيتضح من مناقشات البرلمان (١) ، فواضح ان جلادسون لم يكن يشجع هذا الاتجاه على الاطلاق.

وخطى نفذير الفائمين على الثورة بتكوين وفد وارساله الى انجلترا لعرض القضية المصرية ، وأن يترأسه محمد عبده لما هو معروف عن شخصه واعتداله وهدوئه ، فيقول صابونجي الى بلنت فى ١٩ يونيو « كنت انا وعبده ونديم وسامي نتكلم امس فى الوسائل السلمية التى يمكن اتخاذها لكى تعبر بها مصر أزمتها الحاضرة ، فقال عبده انه كون رأيه على أن يجمع كل الوثائق الخاصة بالأحوال المصرية ويذهب بها ليعرضها على جلادستون والبرلمان الانجليزى ويأخذ معه أحد أثرياء التجار وأحد من الأحرار يكون نائبا عن الفلاحين ، ووافق محمود سامي على هذه الفكرة وأبدى رغبته فى السفر هو الآخر لنفس هذه المهمة ، واستعد محمد عبده الى هذه الرحلة ، ووجدت الموافقة من النديم والعقاد ذلك التاجر الذى له اعتبار فى الثروة والنفوذ والوطنية » (٢) ، وليس من المعروف لماذا لم تنفذ تلك الخطوة وما هى العوائق التى وقفت فى سبيلها ولكن من المرجح ان القائمين على الأمر من الانجليز لم يسمحوا بذلك لأن هدفهم الاستحواذ على مصر .

تلى ذلك الرغبة فى استقدام مندوب من قبل انجلترا لرؤية الموقف على حقيقته وامكانية وضع حل للمسألة فيقول صابونجي « قدمت لمحمود سامي عريضة من الحزب الوطنى تطلب من جلادستون أن يرسل الى مصر معتمدا يفهم أحوال بلادهم وقد وافق سامي على ذلك وقالوا انهم سيوقعونها عندما يحضر عرابى القاهرة ، وانها ستقدم عن طريقك الى جلادستون»(٣) .

وعندما رأى القادة ان تلك الخطوات غير مكللة بالنجاح وتقام أمامها العقبات أعد عرابى خطابا وأملاه على صابونجي بحضور القادة وطلب منه أن يترجمه ويرسله لبلنت الذى يسلمه الى جلادستون وفيه تتأصل روح الثورة ، ولو انه أنكره فى المحاكمة ، وذهبت بعض الآراء فى التشكك بأنه من صنعه على أساس عدم ذكره فى مذكراته ، لكن مما يؤيد ان صاحبه قائد الثورة ان صحيفة معاصرة للأحداث ويوثق بها قد نشرته له فى حينه وهى الوطن التى تسجل انه كتب فى ٢ يوليو ولم يصل الى جلادستون الا بعد أن ضربت الاسكندرية ، وليس لانكاره ما يدل على نفيه ..

---

(١) Blunt : op. cit., pp. 169, 236, 237.

(٢) Ibid, p. 344.

(٣) Ibid, pp. 345, 346.

يحمل الخطاب بين طياته الكرامة المصرية ، وقد كان تهديدا أكثر منه تفاوضا من زعيم أصغر دولة إلى زعيم أكبر دولة « لقد أمرنا القرآن ان لا نثير نائرة حرب ولا نكون البادئين بها ، وامرنا أيضا بأن نعتدى على من اعتدى علينا ، وأن نقاوم المعتدى بكل سلاح والا صرنا كافرين ، فلتتيقن انجلترا بأنه عندما تطلق أول قنبلة على مصر سيصير المصريون أحرارا من جميع قيود المعاهدات والعقود والاتفاقات ، وان المراقبة الثنائيه والديون العمومية ستنعيان وان أمـــلاك الأجانب ستصادر ، وان الترع ستعطل والمواصلات ستتقطع ، واننا سنستخدم رجال الدين في الحض عـلى اثارة الجهاد الى الحرب الدينية في سوريا وبلاد العرب والهند ، ومصر تقع في طريق مكة والمدينـــة ، وجميع المسلمين يحتم عليهم دينهم تأمين الطريق اليهما ، وقد ألقيت مواعظ بهذا الصدد في مسجد دمشق ، وحصل اتفاق بهذا الصدد أيضا مع جميع زعماء الدين في العالم الاسلامى ، فأكرر القول بأن أول قنبلة ترمى بها مصر ستكون سببا في سفك الدماء في آسيا وافريقيا وان تبعة ذلك كله ستقع على كاهل انجلترا ، وان هناك وسائل انسانية ، فأن مصر لا تزال قابلة بل راغبة فى أن تتفق مع انجلترا وتصادقها أشد الصداقة ، وأن تحافظ عـلى مصالحها وتؤمن طريقها للهند ، وأن تكون حليفتها ولكن على شريطة ألا تخرج عن حدودها ، والخلاصة انه يجب على انجلترا أن تتأكد اننا مصممون على القتال وأن نموت شهداء لبلادنا كما أمرنا بذلك نبينا أو نحوز النصر ونعيش مستقلين سعداء ، ونحن فى الحالين نستقبل السعادة ، والأمة التى أشرب قلبها هـذا الايمان ليس لبسالتها حد » (١) .

وضربت الاسكندرية وانتهى أى أمل فى حل القضية عن طريق السلام وقد اعتبر جلادستون عرابى « مغامرا حربيا » ، وبرغم معرفته جيدا بأن عرابى الذى يتزعم المصريين الذين هم أصحاب حق ولا يطالبون الا بدستور الحرية ، الا انه فى نفس الوقت يبين ان كرمويل ذلك القائد الكبير لم يعمل شيئا من أجل الحريات فى انجلترا ، ونابليون أعظم حاكم أسس حكمه على القوة لكنه لم يعط الحرية لفرنسا ، وبالتالى فلن يعطيها عرابى (٢) .

وقد وصل الأمر ان جلادستون رفض الاقتراح الذى قدمه له ماليت بعد حادثة الاسكندرية الذى أبان فيه « ان الأحوال متوترة بدرجة تستدعى حتما ضرورة القيام بعمل ما ، واقترحت على الخديوى أن يبادر جنابه العالى باستدعاء مجلس النواب فيسألهم أن يعبروا عن رغبات البلاد ، ويحتمل

---

(١) الوطن ، عدد ٢٦ اغسطس ١٨٨٢ .

(٢) Commons, Vol. CCXXIII, August 16, 1882, pp. 1940, 1941.

فى هذه الحالة أن يقدم المجلس للخديوى دستورا مرسوما ، واعتقد ان الأمل فى الحصول على دستور سوف يوحد بين الأعيان والحزب العسكرى ويؤدى فى نفس الوقت الى مصالحة واضحة مع الخديوى»(١) ، وحتى لو كان قبله كانت الثورة رفضته .

ووقف جلادستون عائقا أمام أى رأى يمكن أن يستشم منه التأييد للثورة اذ كان هناك بعض من المؤيدين أمثال شارل ديلك الذى صرح بأن « حركة الأفكار الحاصلة فى مصر تدل على رغبة أهلها فى اقامة ادارة لبلادهم تجعل رجوع الاستبداد اليها محالا ، فهم من هذا القبيل جديرون بالتأييد » (٢) ، لكن عندما ظهر ان الثورة ستعصف بالمصالح البريطانية كان لابد من كسرها .

وبذلك انتهت فكرة ايجاد مفاوضات مع تطور الأحداث السريعة والعدوان الانجليزى على الثورة .

(ب) مواصلة البرنامج الثورى :

أصبح شعار المقاومة حتى النهاية من سمات الثورة فى الفترة الأخيرة وكانت جادة فى ذلك فالاصرار والعزيمة كانا واضحين ، وقد ردد القائد « فليرسلوا لنا جيوشا أوروبية أو تركية أو حتى قوات هندية ، فانى مادمت على قيد الحياة فانى سأدافع عن بلادى وحينما نموت جميعا يمكن لهم أن يمتلكوا البلاد حطاما ، وحسبنا فخرا ان نموت من أجل أرضنا » (٣) . والأوراق التى عثر عليها لدى الثوار تؤكد ضرورة الدفاع حتى آخر العمر .

وفى هذه الفترة شغل بال الثورة مسألة الديون تلك التى كانت عبئا ثقيلا على مصر ولا ذنب لها فيها ، وكان التهديد واضحا اذا اعتدى على مصر ، لكن لم ينفذ ذلك التهديد ، ولربما لو نجحت الثورة حتى النهاية لأمكن ذلك .

وخرج الفكر الثورى الى اطار التنفيذ ، فالبذور الاشتراكية التى وجدت داخل الثورة والكرة الذى استولى عليها تجاه الأثرياء بدأت تظهر بوادره « فانه عندما صار الحديث عن هؤلاء الذوات الذين خرجوا من الاسكندرية عقب نذور الحرب وسافروا الى أوروبا كان عرابى يرى انه يلزم ضبط

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ » رقم ٥٩ ، ١٧ اغسطس ١٨٨٢ .

(٢) مصر ، عدد ٩ فى ٦ فبراير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt : op. cit., p. 327.

اموالهم لجانب الميرى » (١) ، اذن فمسألة مصادرة الأملاك وتأميمها لصالح الدولة اراد عرابى تنفيذها لكنه لم يقدم عليها بصورة واسعه فى هـــذه الفتره الحرجة اذ أيقن انه ربما تكون نذيرا لانفضاض ملاك الأراضى عنه ، ولكنه وجد فى خيانه سلطان فرصه لتحقيق ما يصبو اليه ، فقد صدرت الأوامر بالحجز على أملاكه ، فتقول « الوقائع المصرية » بعـــد أن شرحت موقفه من الخيانة مع أقاربه « لقد صار من الخائنين سلطان ، فصدرت أوامر الحكومه بالحجر على أملاكه وأمواله لتنفق فى سبيل الدفاع عن الوطن لأنها من ثمرات كسب أهله المساكين ، وأسكن فى بيته الكائن بالقاهرة ٤٠٠ مهاجر » (٢) ، وكانت الثـورة جادة فى التنفيذ ولم يقع ذلك عليه فقط بل على أقاربه الذين على مشربه ، ويقول أحمد شفيق « وأكد لى والدى انه يوجد كشف باسماء الذين لم يوافقوا على الحركة العرابية ولم يساعدوهم فقد تقرر عند تمام النصر لهم أن ينزعوا املاكهم على الزعماء والأنصار » (٣) وكل ما يهمنا هو مصادرة الأملاك وتوزيعها والا يكون هناك طبقة متسلطه بثرائها ، ففى احدى أوراق محمود فهمى ما يشير الى الرغبة فى قص جذور طبقة الذوات (٤) .

وشجعت الصحافة على ان المصريين أحق بتلك الأموال التى يقتنيها الأجانب عن مصر « أصحاب الأموال والباشوات الأتراك الذين يزعمون انهم فتحوا مصر ويجعلون خيرها لأنفسهم لا للفلاح » (٥) .

وعندما احتاجت السلطة العسكرية الى امدادات استولت على ما كان موجودا « بالجفالك وبأراضى القومسيون والدوائر وأراضى الأورباويين » ، وعقب الثورة طالب شريف وسلطان والهامى وفيكتور باكوس وغيرهم من الدوائر والتفاتيش رد أثمان ما أخذ منهم من تبن وخيول وجمال وفحم وغلال (٦) ، كما استاء وكيل فرنسا لما قام به الثوار ازاء ممتلكات الأجانب فأرسل يشكو الى وزير خارجيته هذه الاجراءات (٧) .

وبذلك يمكن القول ان الثورة نجحت فى ذلك التصميم الذى سارت عليه وأرادت أن تحقق ما خططته لنفسها ، ولو ان الظروف خـــدمتها

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ٢٠٣ .
(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٣ فى ٩ سبتمبر ١٨٨٢ .
(٣) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .
(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/ب .
(٥) المفيد ، عدد ٢٩ فى ٣٠ يناير ١٨٨٢ .
(٦) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ١٧ ، ٢٢ .
(٧) Doc. dip. F. Tom IV, No. 474, 25 Juillet, 1882, p. 449.

ولم تحارب من جميع الجهات لأمكنها فى النهـــاية تحقيق برنامجهـــا الثـــورى ٠

العسكريون فى الميدان الحربى وعوامل الانكسار :

المواجهة الحـــربية :

وقفت السياسة الانجليزية من الثورة موقف المعارضـــة ، وبذلت قصارى جهدها من أجل تحطيمها والقضاء عليها ســـواء بالرغبة فى نفى قادتها أو حل مجلس نوابها أو تسريح جيشها ، ولكنها فشلت أمام تصميم قوى الثورة التى تمكنت من فرض نفسها ، فرأت انجلترا السيطرة على الموقف بتدعيم سلطة الخديو ومساندته وخلق قوى مضادة للثورة ، وكان كل ما تسعى اليه التخلص من عرابى ، اذ اعتقدت ان انتصار هذا الزعيم وذيوع شهرته فى مصر بل وخارجها سيجعل اسمها أضحوكة فى الشرق وستنهار سمعتها ، وسيكون لذلك أثر على مصالحها الرأسمالية والتجارية وأيضا على حياة رعاياها فى تلك المناطق ٠

بناء على ذلك وضعت انجلترا مصالحها فى كفة وعرابى فى كفة بعد أن تأكدت ان مصر كلها تؤيده وأصبحت فى قبضته وازداد قلقها بعد أن رضى عليه أمير المؤمنين وأعطاه الوسام المجيدى ، فرأت انه لابد من التدخل الحربى واستعمال القوة لتجبر الثورة على الاستسلام ٠

منذ البداية وانجلترا تعمل للانفراد بالتدخل فى شئون مصر ، وقد ساعدتها الظروف فى نهاية الأمر على التمكن من ذلك حيث انسحبت فرنسا من العمل المشترك الذى ميز الفترة السابقة ، كما أمكن لها أن تبعد الدولة العثمانية عن طريقها ، وضربت بكل الاتفاقات عرض الحائط ، ووجدت فى الثورة فرصتها للسيطرة ووضع اليد على مفتاح طريقها الى مستعمراتها واعتدت على الاسكندرية وضربتها بأسطولها ، وكان للعســكريين دورهم البطولى ، فكفاءتهم وتضحياتهم فاقت كل وصف ، فقاموا بواجبهم خير قيام ، اذ لم تكن الحرب فى نظرهم الا تخلصا من رق العبودية التى رزحوا تحتها فترات طويلة ، ويذكر كرومر « ان جنود عرابى كانت قوة وطنية من أبناء تلك الأرض التى تعمل على التخلص من العدو الأجنبى ، وكانوا يحاربون بامتياز ومهارة تحت تلك الظروف المحلية التى يعيشونها » (*) ٠

حقيقة فقد تمثلت فيهم الوطنية الصادقة وملأتهم الشجاعة والبسالة

(*) Cromer : op. cit., Vol. II, p. 473.

في الدفاع عن أرضهم ، وكان لرجال المدفعية دور بطولي « هؤلاء الجنود الذين كانوا أمام مدافعهم وهي مكشوفة في العراء لا يخشون الموت الذى كان محاطا بهم حيث لم يكن ما يقيهم من دروع ولا متاريس ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كانوا في وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا في حومة الوغى ثم بعثوا من جديد ليكافحوا العدو ويستهدفون النيران مدافعه » (١) .

ولم تقتصر تلك البطولة على الاعترافات الداخلية ، بل لقد ترددت أصداؤها في العالم ، فعلى صفحات الصحف الخارجية كانت تسجل سطور البطوله للقوات المصرية وتثنى على روح تلك الشجاعة المتأصلة فيها (٢) . وانسحب العسكريون إلى كفر الدوار تنفيذا للخطة ، واتخذت مركزا للجيش ، ورغم الامدادات التى كانت تصل للانجليز في الاسكندرية الا أن كفاءتهم لم تعطهم الفرصة للانتصار في الميدان الغربى اذ فشلوا في اجتياز الاستحكامات التى كانت من المنعه قبل أن يمكن التغلب عليها .

كانت الانتصارات التى حصلت عليها القوات المصرية في الميدان الغربى من ناحية وتلك الدعاية التى سرت على أرض مصر من ناحيه أخرى قد جعلت هناك أصداء خارجية ، فتقول صحيفة كوسنبورج فى ٢٧ يوليو « قد تبين ان شجاعة المصريين وثباتهم أمام الانجليز فى المناوشتين الأوليتين عكسا الفكر على من يزعم من الآمة الانجليزيه ان المصريين يفرون ويتركون مراكزهم لأول نظرة يرون بها جيش الانجليز ، وان عرابى باشا يترك المملكة لهم بمجرد توجههم الى مصر ، وحقق للناس أجمع ان هذا الزعم خطأ فاحش ووهم فاسد » (٣) .

أثرت الدعاية الواسعة للثورة تأثيرا كبيرا على سير الأحداث ، ومع البداية كان لابد منها فقد كان خط الانتصار عاليا ، فأراد الجهاز الثورى اشعال حماسة المحاربين داخل أرض المعركة ، وارضاء نفسية الشعب الذى كان مع الثورة بكل امكاناته ، فلابد أن تدوى الانتصارات وتتردد فى كل شارع وفي كل بيت ، وحتى برقيات القادة وخاصة عرابى الى المديرين والرؤساء تفيض بالانتصارات وهزيمة الأعداء التى كانت دائما « تبديدا وتشتيتا » ، « وانهزم الجميع وولوا الفرار ، وتقهقروا على أعقابهم خاسرين من شر ما أصابهم » ، « وتركوا فى مواقعهم (أعداد) قتيلا

(١) Ninet : op. cit., p. 167.

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٣١/٢٦ ، رقم ٥٩ ب ، ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

وجريحا » ، واغتنمت عساكرنا منهم مهمات حربية » ، « وأصوات طوبجتنا مرتفعة بالتكبير والتهليل » .

انتقلت الحرب الى الميدان الشرقي ، ولم يكن صد التقدم الانجليزى فى الميدان الغربى هو الحافز على ذلك وحده انما كان هناك تخطيطا انجليزيا قد وضع يقضى باحتلال مصر بواسطة غزو يتم عن طريق قناة السويس .

وكان على القاده أن يفتطنوا الى ذلك منذ بداية الاستعداد لخوض الحرب . هذا وفى الوقت الذى أخذ فيه الانجليز يعدون أنفسهم للدخول فى هذا الميدان من نقل المعدات الحربية والامدادات ، أرسل سيمور الى توفيق يطلب منه اصدار التحذيرات للعسكريين « بعدم اطاعة أوامر عرابى وأن يعودوا الى أوطانهم وان الانجليز قصدهم حمايته وأهالى القطر من العصاة » (١) ، ولكن لم يطع أحد ، بل ازداد المصريون ثورة وغضبا على المعتدين .

وعندما أيقن القادة امكانية الغزو عن طريق قناة السويس ، أجريت الاتصالات بينهم ديلسبس ، وجاء الرد من باريس ليفيد « بذلك المعهد العظيم المنفق عليه العالم بتمامه وهو حياد القنال وحفظها ومراعاتها واحترامها ، وهذا الاتفاق يمنع كل أمر حربى يحصل فيه وهذا من الواجبات التى هى أساس الالتزام للقومبانية » ، ومن هنا أكد ديلسبس حيادة القناة ، ولم يطمئن عرابى لذلك فأرسل الى ديلسبس يبلغه « ان مصر مستعدة لأن تزيل القنال من الوجود لكى تدفع الأعمال الحربية » ويؤكد الرد حيادة القناة ، بل ونرى ديلسبس يحضر للقاهرة لمقابلة عرابى ويقسم على انه سيقوم بحراسة القناة وسيكفل حيادها التام (٢) . وانساق القادة وراء الوعود والعهود حيث يبين لنا نينيه ان « عرابى ومحمود فهمى رفضا عمل ذلك الا اذا أتى الجيش البريطانى بعمل عدائى من ذلك الجانب ، وكان قد أعد كل شيء من الرجال والأجهزة لتدمير القناة فى ليلة واحدة بأمر المجلس » (٣) .

وجاء العمل العدائى من جانب انجلترا ، فقد صرحت وزارة جلادستون لقائدها البحرى فى بور سعيد بأن يحتل من أجزاء القناة ما يراه ضروريا ورفضت المناقشة مع شركة قناة السويس وبينت ان القوات الانجليزية

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٤ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٨ .

(٣) Blunt : op. cit., p. 579.

تعمل في القناة بموافقة الخـــديو وباسمه لا باسم الحكومة الانجليزية ، والخديو صاحب الحق الشرعي في مصر والقناة .

وبناء على طلب انجلترا فوض توفيق القائد البريطاني سلطة احتـلال نقط القناة التي يرى فيها لزوما « وقمع كل قوة لا تخضع لسلطة الخديو واتخاذ الخطوات لحرمان الثوريين من استعمال خطوط السكك الحديدية ما بين الاسماعيلية والسويس) (١) ، وتبع ذلك الاستيلاء على السويس باسم الخديو وقطعوا الخطوط التلغرافية ، ومنعوا مرور سفن الدول ، وتبع ذلك الاستيلاء على القنطرة والاسماعيلية وأصبحت مدن القناة تحت أيديهم ورفع عليها العلم الانجليزي باسم الخديو ، وألصقت الاعـــلانات بالتزام السكون واطاعة الأوامر ، كما أبانت بأن الانجليز لن يحتلوا القناة وانهم جاءوا لاعادة سلطة الخديو والابقاء على مركز الخليفة .

هـــذا في الوقت الذي توافدت على القنـــاة الامدادات للانجليز ، فاستولوا على الترعة بين الاسماعيلية والسويس ، واحتلوا مفيشة ثم المسخوطة ووقع محمود فهمي في أسرهم ، وتلى ذلك اســـتيلاؤهم عـلى المحسمة والقصاصين . وفي تلك المناطق كان الضغط قويا من الانجليز لكن المصريين استماتوا في الدفاع ، وتشيد التقـــارير الأجنبية بتفوق المدفعية المصرية ، فيصف أحدها « ونشطت المدفعية في مبارزة حاميـــه كانت مدفعية العصاه عظيمة جدا » (٢) .

وكانت المقاومة والكفاح للجانب المصري تزداد في نفس الوقت الذي تزداد فيه المحبة الصادقة للقائد الذي انتقل من كفر الدوار الى التل الكبير وعلى طول تلك المســافة مؤيــدا من قوى الشعب التي اســتقبلته في كل محطة طالبة النصر « الله ينصرك يا عرابي ، يا مولانا يا عزيز اهلك عسكر الانجليز ، يا محني ديل العصفورة وجيوشنا هي المنصورة » ، وكانت الثقة في النصر متناهية والعمل من أجله واضحا . فيذكر نائب قنصل النمسا « ان المقاومة تشتد ضد الانجليز وتكلفهم غاليا أكثر مما يتوقعوا ، كذلك لا يمكن انكار الحقيقه ، وهي انهم حتى اليوم لم يقدموا مواقعهم التي وصلوا اليها في يوم ٢٧ أغسطس خطوة الى الأمام رغم الذهب الذي كان ينشره سلطان » (٣) .

ولعبت الخيانة دورها في اذكاء روح الضعفاء ، وعند محاولة استرداد

---

(١) Egypt No. 17 (1882), No. 587, F.O. August 7, 1882.

(٢) الأرشيف النمساوي ، محفظة ١٧ ، المجموعة ٢٧/٣١ ، ملحق بتقرير رقم ١٧٣ سياسي ، ٣٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) نفس المصدر .

القصاصين كانت معركة كبيرة جرح فيها راشد حسني وعلي فهمي ، وفقد الانجليز كثيرا من رجالهم ، وفشل التخطيط الذى وضعه قادة الثورة فى تطويق الانجليز عن طريق الصالحية بقيادة البارودى ، وبلغت الخطـــه للانجليز عن طريق أحد الاميرالايات الخونه وهو « علي خنفس » وأضل البدو الطريق للمصريين وأناروه للانجليز لتـأتى بدايه النهايه وتختم صفحات الحرب فيالتل الكبير التى لم تكن معدة الاعـــداد الكافى للحـــرب من استحكامات وغيره ، كما ان أبرز القادة اما أن أسروا أو جرحوا ، والباقى اما في كفر الدوار أو دمياط ، وفي حدود الامكانات الموجودة كان الدفاع محـدودا لكنه مستميتا نتج عنه استشهاد البعض ، وقد وصف شجاعه العسكريين في تلك المعركة تقرير نمساوى « دافع فى بدايتها المصريون دفاع الأبطال ، وكان لذلك دلائل واضحة على أن التهيج الوطنى الذى قوبل بحماس زائد وبشجاعة شخصية من القوات العربيه المحاربه » ويتـابع كلامه عن المدفعية فيقول : « المدفعية التى استعملت سلاحها بكل دقة ومهارة متقنة النظير معطية لبقية القوات القدوة الطيبة على غير ما كان ينتظر حتى ليكاد الانسان يكذب عينيه » (*) .

ونجح الانجليز فى اصدار منشور عصيان عرابى من السلطان العثمانى فوزعت منه نسخ كثيرة على ضباط الجيش بواسطة سلطان وكان ضربه قويه للثورة التى كانت مرتبطة بالاطار الدينى القوى ، وانتهى الأمر بأن خسر المصريون فى التل الكبير كل شيء وضاعت بل وسحقت كل الآمال .

ولم تستسلم بقية المواقع بسـهولة ، فحصن جميلة ـ الذي يقع من بور سعيد على بعد بضع ساعات ويفصل ساحل المتوسط عن بحيرة المنزلة ـ استمرت مقاومته ، فكان يمده « محمد أبو العطا أحد المتحمسين الموالين لعرابى » بالسلاح ومضت مقاومته حتى سقط فى آخر الأمر .

وجاء دور عبد العال حلمى فرفض الاستسلام مصرا عــلى المقاومة ، وكان تحت قادته ثلاثة آلاف من القوات فبارح دمياط وتحصن فى قرية كفر البطيخ ، وقد ضبطت تلك الخطـابات التى أرسلها الى كفر الدوار والتى تفيض بروح البطولة والاصرار على المقاومة « وانه من الحزم التحصين وعدم اللين للعدو والمدافعة لآخر رمق من الحياة » ، ووصل به الأمر انه حمل على الاعتقاد بأن عرابى لم يزل بجيشه ثابتا أمام قوة الانجليز ، وانه لابد من القتال والدفاع عن الوطن الى الفناء ، وانهالت عليه الأوامر من توفيق ومن نائبه سلطان ووجهت اليه الانذارات بضرورة التسليم وتحميله مسئولية العصيان ، وهو صامت ويرفض الرد ويقاوم ، واستمر على موقفه

(*) نفس المصدر ، رقم ٣٢ سياسى ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

حتى ٢١ سبتمبر حين « اعتزمت الحكومة القبض عليه واعدامه رمياً بالرصاص فسلم نفسه » (١) ٠

وفي المنوفية كان محمد يوسف ومعه أربعة عشر ضابط وصف ضابط ، امتنعوا عن تسليم أسلحتهم وعارضوا الأوامر وحينما ضيق عليهم الخناق صاح اليوزباشي « لا أسلم سلاحي الا على يد عرابي باشا » ٠

ورفضت حامية كفر الدوار الاستسلام للانجليز ، ورأت أن تستسلم للخديو ولكن الأخير أعلن أنه لن يوافق على ذلك « فنبذت القوة الاستسلام الرسمي وهجرت خنادقها وتشتت في كل اتجاه لدرجة ان الانجليز عندما تقدموا الى كفر الدوار وجدوا كل البنادق والماكينات ملقاة على الأرض وليس بينها متمرد واحد » (٢) ٠

راى القادة استمرار المقاومة ولو اضطر الأمر للانسحاب الى الصعيد أو حتى السودان وادارة دفة الحرب من هناك ، واغراق أراضي الشرقية والقليوبية لمنع تقدم الانجليز ، والاستيلاء على جميع المراكب وشحنها ذخيرة وتعيينات الى الصعيد ٠ وانعقد المجلس الوطني في ١٣ سبتمبر وعرض الأمر لوضع قرار ، فاختلفت الآراء « وعلت الضوضاء وكثر اللغط بين سالب النوم وموجب الى أن أسكتهم البرنس ابراهيم بأن قام في المجلس خطيبا وبرهن على وجوب الدفاع عن الوطن ، وقال ان مصر غاصة بالجند ومخازن الجهادية ملأى بالمؤن والذخائر والأسلحة ، ومعدات الدفاع متوفرة فأجابه الجميع بالاستحسان » (٣) ، واستقر الرأى على انشاء خط دفاعي في ضواحي القاهرة ، وتوجه عرابي الى العباسية ومعه المهندسين والضباط لاختيار الموقع الملائم اذ كان مصمما على استمرار المقاومة ، ولكن عادت المناقشات البيزنطية مرة أخرى ، وأخيرا رئي ان الوقت قد انتهى لاعداد الدفاع واستقر الرأى على رفع عريضة لتوفيق بالاستسلام أرسلوها مع وفد برئاسة على الروبي ويعقوب سامي ، ثم أخرى أرسلت مع النديم فسجن الوفد الأول أما الثاني فقد ولى الأدبار ٠

وبدأ الانجليز يصلون أفواجا الى العباسية ، وخرج اليها القاهريون من باب الشعرية والحسينية والدرب الأحمر بالعصي والهراوي (٤) ، ولكن

---

(١) نفس المصدر ، رقم ٢٧/٣١ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/أ ، ب ٠

(٢) نفس المصدر ، رقم ١٧٦ سابق ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٧٥/أ ، ب ٠

(٣) سليم نقاش المرجع السابق ، ص ٢٥١ ٠

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ٠

تقضي على تلك الحركة في الحال على أيدي السلطات المصرية الجـــديدة ، وكانت البدايه لخضوع مصر للاحتلال الانجليزى ٠

عوامل الانكســـار :

(أ) البدو واصحاب الخيانة :

عندما تأزمت الأمور بين توفيق والثورة عقب مسألة الشراكسة رأى أن يعتمد على قوة داخلية تسانده في موقفه المضاد من الثورة ، ووجد في البدو خير من يقوم بهذا الدور ، وعن طريق مدير البحيرة أمكنه شراء بعض القبائل القاطنة في تلك المنطقة ، وقد أنفق في هذا السبيل عشرين ألف جنيه حصلت قبائل أولاد على على أكثرها ، وأمكن استحضار ثلاثة آلاف للاسكندرية ٠

وفي أثناء الفترة التي كانت فيها مصر بغير وزارة ازداد وجودهم « حتى كان يخيل للزائرين ان سراية الاسماعيلية مجتمع العربان » (١) ، ولم يكن يخلو القصر من تردد مشايخ البدو الذين كانوا يؤكدون ولاءهم ، بل انهم أقسموا له انهم لا يعرفون سيدا للبلاد غيره ٠

تقرب منهم عمر لطفي واستطاع أن يقنعهم « للقيام بالاضطرابات » وفي يوم حادثة الاسكندرية كان يرافق البعض منهم أثناء تجوله حتى ان أحدهم سأله عن قتل أوروبى فوافقه ، وعقب ذلك مكثوا بالاسكندرية ، وأصبحوا يكونون ما عـــرف لدى الثـــوار « من ضمن حزب الخديو » وكثر عددهم وخاصة في منطقة الرمل (٢) ٠ كما كان لهم الدور في ازكاء حريق الاسكندرية ونهبها ، كذلك تعرضوا للمهاجرين السكندريين ، وعنـــدما يقن عرابى ذلك أصدر الأمر باطلاق النيران على البعض حيث كان منهم من هجم على العزب الواقعة بطريق دمنهور ، وقد ثبت ان مدير البحيرة له يد في ذلك ، فطلب عرابي من المجلس العرفي تغييره في الحال ، وأرسلت القوات الى المديرية « احفظ البلاد واردع هؤلاء العربان الأشقياء » (٣) ٠ وقد كان توفيق وراء هـــذه العملية وكان التخطيط يهـــدف الى تفريق العسكريين وتشتيت قواهم بين الحرب الخارجية والداخلية ٠

وحتى هؤلاء البدو الذين ذهبوا للاشتراك في الحرب مع الثـــــورة

---

(١) أحمد عرابى : تقرير ، ص ١٢ ٠

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ١/٤٠٨ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ٦ ٠

لم يكونوا جميعهم على درجة من الاخلاص ، ففى برقية من عرابى الى وكيل الجهاديه تفيد بان « عربان العبابدة والمعـارة الدين استسلبوا النوق من مديريتى الجيزة والقليوبية وبنى سويف فيصير مخابرة المديريات المذكورة بضبط اولئك العربان واجراء اللازم » ، كما ان « عرب الحويطات » الذين صرف لهم خمسة آلاف بندقية هربوا بها ، ويؤكد عرابى على راشد حسنى بضبطهم واخذ السلاح الميرى منهم ، هذا فى الوقت الذى كان فيه قادة الثورة على يقين بما يدبره البدو ضدهم ، فنرى عرابى ينبه « اخذ الاحتياطات من العربان وقطع خط مواصلة تلغراف رأس التين » ، وتم القبض على كثير من « عرب الهنادى والجرابى الجارين اشاعات وأراجيف ضد الحالة الراهنة وأنهما مفسدان فى الأرض » (١) .

وعرب الهنادى تأسس وجودهم على يد شيخهم محمود سلطان فى عهد محمد على ، ومن هنا كان واضحا عليهم تأثير سلطان الذى أصبح فى قبضة ماليت كيفما شاء ، ووضع نفسه فى خدمة معارضى الثورة ، وأصبح الواسطة بين البدو وتوفيق الذى مضى فى التقرب اليهم .

راح سلطان يكاتب مشايخ العرب ويمنيهم بالرتب والأوسمة على ان يبذلوا الطاعة للخديو والانجليز وينبذوا طاعة الثوار ، وسار على طريقة معينة اتصف بهـا وهى احياء العـداء والغيرة بينهم كبدو وبين الفلاحين ، وذلك متأصل لديهم ، وأفهمهم ان توفيق هو الحاكم الشرعى للبلاد وعرابى ليس له أية صفة وأكثر من الذهب الذى ملأ به جيوبهم (٢) .

وكانت مسألة الذهب هذه من ابتداع توفيق ، ووجدت الموافقـة والتأييد من الانجليز فدعوا سلطان الى الميدان الشرقى وكما ذكر تقـرير نمساوى « لممارسة الحرب على الطريقة القـديمة التى عرفت عن فيليب المقدونى من رشـوة البدو المشاكسين المستعدين دائمـا للارتشاء بالذهب عن القبائل فى صفوف عرابى » (٣) .

وتم الاتفاق ومنح سلطان حق التصرف فى كل شىء بناء على تعيينه مندوبا لتوفيق وكان من نتيجة ذلك أن أصبح هناك بدو مقيدين بقـلم الاستعلامات الانجليزى ، وقد عرف سلطان ان توزيع النقود باسم الانجليز

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسـيه ٥٣/د/٣ ، ٨ ، محفظة ١٢ ، دوسـيه ٢٠٢/ب ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

(٢) Bicvès : op. cit., p. 275.

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٣١ سياسى ، ١١ سبتمبر ١٨٨٢ .

لن يفيد ، وكان يعلم مقدار سلطتها على النفوس فأخذ فى توزيعها باسم الخديو والسلطان ٠

وحاولت الثورة ضرب قوة سلطان والقضاء على نشاطه الواسع لكنها لم تتمكن الا من حنود ، فقد هرب وكيله من المنيا ومعه أفراد لمحاربة الثورة فى هذه المنطقة ، وبذل المديرون جهودا من أجل ضبطهم وأودعوا فى السجن واحيلت جناياتهم على المجلس العسكرى ، بينما ضبط البعض الاخر من أتباعه ومعهم خطابات لمشايخ العربان « بقصد الدسيسة والقاء المفاسد » وضبطت عدة منشورات فى داخل المعسكرات للبدو تحرضهم على ترك المركة « وان عساكر الانجليز الموجودة بجهتى اسكندرية والسويس ثلاثون ألفا ، وان هذه القوة الجسيمة موجهه لمقاومه عرابى باشا » ، واخذ فى الاستعداد بعد أن تردد ان سلطان سيدخل مع الانجليز « عن طريق البحر بالوجه القبلى » (١) ٠

وفى مذكرات سلطان التى كتبها الى توفيق ما يؤكد دقة التخطيط لالحاق الهزيمة بالثوار فى التل الكبير ، واعتمد سلطان على سعود الطحاوى شيخ عرب الهنادى ومحمد صالح الحوت المقيمين بجهة الصالحية فأرسل اليهما « بحضورهم يصير استعمالهم فى استمالة العربان وخلافه « (٢) ٠

كذلك رأى توقيف الامدادات للثوار ، فأرسل البدو ، وبعض التجار الأجانب بعد الوعد بالمكافأة الى مديرى وأعيان المنيا وأسيوط وجرجا وقنا واسنا لمنع تقديم أية مساعدة للثوار فى حربهم ٠

كان للطحاوى دور كبير فى ضرب الثورة ، ولم تكن هذه المرة هى أولى اتصالاته بالمعسكر المضاد ، فقد سبق واتصل به « بالمر » الجاسوس الانجليزى ، وكانت هذه الاتصالات سرية لا يعلم بها أحد ٠ ومما يؤسف له ان هذا البدوى كان أحد ثقاة عرابى ، وللتمويه كان « يخبر عرابى ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابى كان يفضى له بجميع ما عنده » (٣) ، وهو بالتالى ينقلها للانجليز ، وبعد اعطاء الثقة له والاعتماد عليه أضل هو ورجاله البارودى فى تحركه تجاه الصالحية للهجوم على ميمنة الانجليز ، وما لبث الأمر أن دخلت القوات الانجليزية « وأمامهم

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ٠

(٣) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ٢٠٢ ٠

عربان الهنادى يرشدونهم الى الطريق » ، وأمام ذلك انسحب البدو الباقون الذين كانوا يشكلون طلائع الجيش ·

ثم يكتف سلطان بما تم على يديه بل أكمل طريق الغدر والخيانة حتى النهاية وقد ساعده على ذلك توفيق الذى كان سلطان نائبا عنه وممثلا له ، فعقب دخول الانجليز القاهرة أخبر ماليت توفيق هذا النبأ ، فأرسل على الفور لسلطان بالتوجه للقاهرة ليكون عنه نائبا ·

وبذلك أطلقت يد سلطان فى التصرف وطاقت نفسه للاستبداد ، فأمر بالقبض على الكثيرين وسجن الضباط والعلماء والتجار والأعيان ، وأمام ذلك كوفىء ، فأنعم عليه بالوسام المجيدى الأول ، وبعشرة آلاف جنيه مصرى · أما الانجليز فمنحوه وسام سان جورج وسان ميشيل « وذهب به السير ماليت وسلمه له » (١) ·

ذلك هو سلطان الذى تلونت سياسته بمرور الأيام ، وأضحت مصلحته على كل شىء حتى انه باع وطنه من أجل جنيهات ليس محتاجا لها ، وفى أواخر أيامه أيقن ان ما قام به من أجل العظمة والجاه والشهرة والمنصب لم يكن من نصيبه بعد كل ما فعل ، فندم بعد أن سجل له التاريخ أسوأ الصفحات ·

لم يكن سلطان وحده فى ميدان الخيانة ، حقيقة لقد كان له الدور الرئيسى الا انه كان بجواره من يعمل على شاكلته فى نفس الاتجاه ، كان هناك على مبارك وعمر لطفى اللذان كانا يعملان مساعدان للانجليز حتى لقد انتقلا الى بور سعيد من أجل « تغيير أفكار الأهالى ومطابقتها لأفكار العدو » (٢) ، وقبل الانتقال كان على مبارك يرسل « مكاتيبه الى عربان نواحى الشرقية بشأن ترك الحركات العسكرية » ، وفى ٣٠ أغسطس ضبط رجال الثورة خطابا منه الى شيخ المطرية يبين له بأن الانجليز سيرسلون قواتهم الى بحيرة تنيس وان عليه أن يجتهد فى منع الصيادين من معارضة الانجليز ويوعده بالمكافأة ، وعندما علم الثوار بذلك أرسلوا « باشمهندس الخط الشرقى الى البحيرة لينشىء عليها طابية من الجهة الغربية ، ولم يتأخر لحظة عن مداومة ارسال الخطابات الى الأعيان من أجل اتباع أوامر وتعليمات توفيق والخضوع للانجليز (٣) ·

---

(١) أحمد تيمور : تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر القاهرة ، ١٩٤٠ ، ص ٤٧٦ ·

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١

(٣) محمود فهمى : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ، الطائف ، عدد ٦٧ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ ·

وبالرغم من مصرية على مبارك الصميمة الا انه لم يكن ثوريا ، لذلك فقد استبعد نهائيا من أمام الثوار عند تشكيل وزارتى الثورة ، فلم ينسوا ان الوزارة التى أسقطوها كان عضــوا فيها ، ومن المحتمل ان ذلك جعله يحقد على الثورة ويتقرب من أعدائها ، حتى انه وقت الحرب كان فى جميع مجالسه لا يتحدث الا عن قوة الانجليز ، هادفا من وراء ذلك العمل عـــلى انهيار المعنويات ، ووضح موقفه عند اجتماع المجلس الوطنى اذ كان معارضا للاتجاه الثورى بعد أن شكك فى الأخبار الواردة للمجلس من الاسكندرية وحينما انضم للوفد الذى سافر للاسكندرية اتصل هناك بسيمور وأبان له ان السبب فى القوة الموجودة ان الوزارة قررت زيادة القـــوات الى ٢٥ ألف (١) ، ساعيا بهذا الى كسر تلك القوة عن طريق الانجليز ٠

وحقيقة فقد كان له منهجه فى الاصلاح وهو الرقى بالتعليم الذى اعتبره خيرا من الاهتمام بالسياسة لكن كان هناك من يؤمنون بذلك وجرفتهم وطنيتهم للعمل مع الثورة بكل طاقاتهم أمثال محمد عبده وعبد الله فكرى أما مبارك فقد كان جامدا يسير على مبدأ الطاعة التامة لولى الأمر ، ذلك الذى جعل توفيق يختاره وزيرا فى وزارة شريف الأخيرة التى ألفت فى نهاية الثورة ، وان كان البعض يسجل له انه تبرع بشىء من ماله للحرب فلعل ذلك تحت تأثير شديد عليه من الشبان المتحمسين ٠

لم يكن عمر لطفى يقل عنه بل ربما زاد ، فقد لمسنا أدواره طوال الثورة رغم انه فى البداية كان من مؤيدى الثورة ، فهو من الأعضاء القدامى للحزب الوطنى ، وكان يحضر تلك الجمعيات ذات الصبغة الوطنية وفيها الخطب المعهودة ، كل ذلك على مسمع منه دون أن يظهر أقل اشارة تدل على رغبته فى منعها ، وهو مسئول فى الحكومة ، لكنه لم يكن الا من العنصر التركى الذى أراد أن يصل على أكتاف الثوار ٠ وعندما وجد نفسه انه لن ينال ما يتمنى ٠ لم يدر وجهه بل راح يحارب بكل قواه الثورة والقائمين عليها حتى انه لم يتورع على أن يصرح لمراسل التيمز « بأن عـرابى هدد بالقبض على جميع الرعايا البريطانيين » (٢) ٠

وكان منتظرا من الباشـــوات من العنصر التركى أن يفعلوا ذلك ، بل وأن يعدوا أنفسهم لحين وصول الانجليز ، وليس فقط ليستقبلوهم ولكن ليرحبوا بهم وليبجلوهم وكم أشاد جلادستون بمثل هذه النوعيات٠

---

(١) محافظ الثورة العرابية » محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ ٠

(٢) Commons, Vol. CCLXXI, June 26, 1882, p. 406.

(ب) الخديو واتباعه :

كان توفيق هو صاحب القوة المحركة لجميع الأطراف المضادة للثورة فهو يعمل بجميع امكاناته في كل الميادين والاتجاهات داخليا وخارجيا ، بعد أن اهتز العرش من تحته وبعد أن قال الشعب كلمته وأفتى العلماء باسقاطه .

وبالرغم من نوال مراده ووجود الأسطول البريطاني الذى استند اليه واحتمى فيه لم يكفه ذلك اذ ان الحقد يملأ قلبه من قائد الثورة بعد أن وصل الى أعلى درجة من المكانة بين شعبه ، فنراه يرسل الى انجلترا في ٢٨ يوليو ليشكو من « ان عرابى باشا قطع عنى المواصلات في داخلية البلاد ، وقد اتفق مع أهل مصر على العناد والمعارضة ، والقوة الآن بيده ولا يمكنني التصرف الا اذا كنت داخل البلاد . ولا أتمكن من دخولها الا اذا كفلت لى حكومة الملكة الأمن على حياتى من عرابى باشا ، واذا تغافلت عنى الحكومة فانى أفقد السطوة بالمرة ، اذ لم يكن عندى الا بعض الذوات الذين لا يمكنهم تنفيذ أى أمر من أوامرى » (١) ، وواضح رغبته الملحة في طلب استمرار المساعدات الانجليزية له للقضاء على عدوه الأكبر ، أما على أرض مصر فقد استطاع أن يضم كثيرا من أصحاب المكانة الوظيفية ، لينتهى الأمر بخلق تعاون ونشاط مكثف بين أعوانه وبين الانجليز لمحاربة الثورة في فترتها الأخيرة .

نضجت ثمرة تلك العلاقة على أرض مصر كلها ، وخاصة في منطقة القناة ، في ذاك الميدان الذى لم يكن الثوريون قد أعدوه الاعداد التام ، وأستطاعت جذور الخيانة أن تنبت وتترعرع فيه ، « فابراهيم باشا رشدى محافظ القنال ، والوكيل على ذو الفقار ساعدوا الجنود الانجليزية في النزول بالاسماعيلية » ، ومحافظ بور سعيد اسماعيل حمدى باشا التجأ الى احدى سفن الانجليز الحربية « لاستغلال سلطته في استصدار قرارات بولبسبة باسمه » ، ووكيل محافظة الاسماعيلية جرى على نفس النحو « نزل بوابور الانجليز » ، وبذلك أصبحت القناة خالية من المحافظين الذين أصبحوا قلبا وقالبا مع الانجليز يمارسون نشاطهم ضد الثورة التى لم تستطع القيام بأى عمل مضاد سوى احالتهم على مجلس عسكرى وفصلهم وتعيين بدلا منهم (٢) ، وكثيرا ما أصدر المجلس العرفى مثل تلك الأحكام على الخائنين بالخيانة لكن كان الحكم غيابيا ولم ينل منهم شيئا .

---

(١) الطائف ، عدد ٥٦ في ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ دوسيه ٢٧ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٤/ب ، الأرشيف النمساوى ، نفس المصدر .

ومضى تدبير المؤامرات ، فقد تم العثور على خطابات مرسلة من حسين بك البغدادى أحد مأمورى الدقهلية الى بعض الأعيان « يدعوهم لاتباع توفيق باشا والخضوع للانجليز » وينتقل حسين بك حسنى مأمور مالية الدقهلية إلى بور سعيد ليحث عمد المطرية على الانقياد والطاعة لتوفيق ويطلب منهم « ارسال فلايك بطريق بور سعيد لأجل مساعدة الانجليز » وعلى نفس المنوال ضبط شكيب باشا مأمور مصلحة المطرية وعلى رضا بك بالمصلحة أيضا ، وبناء على ذلك يطلب عبد العال حلمى من وكيل الجهادية « سرعة ارسال ألف وخمسمائة أو ألفين من العربان الخيالة لترتيبهم لحفظ حافات البحيرة من المطرية » (١) ، وكان ذلك تصرف غير حكيم ٠

وشددت الأوامر من جانب قادة الثورة بالتدقيق وتفتيش المتنقلين والمسافرين ، وبالرغم من ذلك كانت الاتصالات تتم بين الأطراف المعادية ، وتم القبض بواسطة الفلاحين على عثمان بك رأفت أمير خور الخديوى ــ مدير الاسطبل ــ وهو متخفى فى جلباب رث وعمامة ، ضبط فى قارب بالبحر بالفيوم متوجها الى قبلى « للافساد » ، وساعد مأمور مالية بنى سويف فى اطلاق سراحه ، وصدرت الاوامر والبرقيات من رجال الثورة الى جميع الجهات بطلب القبض عليه (٢) ٠

أما عن مديرى المديريات المضادين ، فقد أمكن لمدير اسيوط عثمان باشا ان يكون سدا منيعا فى طريق الثورة ، وشاكر باشا مدير المنيا يعلن رفضه لاجابة طلبات الثورة من الامدادات ويحاول قطع السكة الحديد بالقرب من بنى سويف ، لكن الثورة تمكنت منه وسجنته ، ومدير جرجا يتصدى « للأشخاص التى حركتهم الغيرة الاسلامية للدفاع ، وأجرى سجنهم ووضع فيهم الخشب والحديد بمماثلة قطاع الطريق ليكونوا شهدا لغيرهم » وكان ذلك طعنة للروح الثورية المتدفقة من الشعب والتى تمثلت فى حركة تطوع واسعة اتسمت بها مصر فى تلك الفترة ، وفى البحيرة رفض رستم باشا رئيس قومسيون الأراضى الأميرية اعطاء ما طلبته الجهادية بالثمن وأبان أنها من حق الدائنين الانجليز والفرنسيين ، فرد عليه عرابى بقوله « ان الحالة الراهنة تقتضى عدم الالتفات لحقوق أحد مادامت البلاد فى حالة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، نفس المصدر ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب ، الطائف ، عدد ٦٧ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٩ ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ٢٢ ، الطائف ، عدد ٥٩ ، ١٦ أغسطس ١٨٨٢ ٠

حرب » (١) ، وأمام ذلك كانت القطارات تغادر القاهرة الى أسيوط من أجل احضار المنشقين والرافضين ، لكنها لم تتمكن من قص جذور التفسيات الضعيفة والحاقدة والخائنة حتى لقد أصابت العدوى بعض العمد كأحمد عبد الغفار عمدة تلا والسيد الفقى ـ عضوا مجلس النواب عن مديرية المنوفية ـ فجندا أنفسهما للعمل ضد الثورة واعاقة خطواتها ، واستمرت المحاربة للثورة حتى آخر اللحظات فنرى أنه عندما أرسل عرابى الى مأمور مركز منيا القمح بقطع السكة الحديد الموصلة للزقازيق وقطع الجسر واطلاق المياه لاعاقة التقدم الانجليزى « عمل ناظر المحافظة على تأخير التلغراف لذاك المأمور حتى حضرت عساكر الانجليز (٢) » وبذلك كان القدر يحيط بالثورة من كل جانب لكن لم يمنع ذلك من أن جميع القائمين على الأعمال كانوا مع الثورة بكل ما يمتلكون ، أما هذه العناصر الرافضة فقد تجمعت لتحطيم الثورة فى النهاية .

(ج) الجواسيس والدعاية المغرضة :

انتشرت جواسيس القوى المعارضة لتلقى الدسائس وتنقل الأخبار وتربك أحوال الثورة فقد كان من ترتيبات الانجليز الاستعانة « بنصارى الشام » وتم ذلك فقد تمكنت الثورة من العثور على كثير منهم فى أرض المعارك واتضح أنهم جواسيس للانجليز ، واستعملوا جميع الحيل التى تمكنهم من التقاط المعلومات ، وكثيرا ما كانوا يشيعون أنهم فروا من ظلم الانجليز بالاسكندرية والتجأوا لحمايتهم (٣) .

وكان للأتراك واستعمالهم فى هذا المجال سوق كبيرة ، ففى مذكرات سلطان لتوفيق يقول له « ورد لنا الأمر العالى بالتلغراف بخصوص استخدام الأتراك وسيجرى اللازم حسب الأمر » ، كذلك استخدمهم الانجليز من الأرمن فى خدمتهم لتلك الأغراض ، واستحضروا من عدن الافراد لذلك ، فتذكر انفسطاط « بلغنا أن عدو الله أرسل من أعوانه قوما الى مصر وأطرافها يتجسسون ، فقد تحقق عندنا أن صالح جعفر المقيم فى عدن وصل الى السويس متخفيا » (٤) .

---

(١) الأرشيف النمساوى ، نفس المصدر ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢/د/٨ .

(٢) نفس المصدر ، دوسيه ٥٣/د/٣ .

(٣) نفس المصدر ، محفظه ٢٢ ، دوسيه ٢٢ ، الطائف عدد ٤٨ فى ٣ اغسطس ١٨٨٢ ، عدد ٥٦ فى ١١ اغسطس ١٨٨٢ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ، الفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

ودهب الأمر الى أن الأوربيين كانوا يتزينون بالزى البـدوى لتقصى الحقائق ، ففى برقية من وكيل مديرية الدقهلية الى وكيل الجهادية يقول فيها « ضبطنا شخصين ببندر المنصورة من تبعية دولة اليونان لابسين ملابس عربان ومع أحدهما فرد لوفلفر بستة أرواح » وقبض عليهما كجواسيس وارسلا الى وكيل الجهادية ، وتكرر مثل ذلك ، وتم ضبط هؤلاء الأوربيين المسنحين المتخفيين دائما « تحت العباءة النعمانية والكوفية والعقال (١) » .

هذا فى الوقت الذى كان فيه من المصريين المتزيين بالزى الأوربى لنفس الغرض ، « فقد ضبط من يدعى محمود صدقى لابسا برنيطة ومتزييا بزى الأوروبيين » ، واتضح أنه يعمل مع المعسكر المضاد ، وامتلأت البرقيات المتبادلة بين قيادة الثورة بانتشار مثل هؤلاء الجواسيس وضرورة العمل على ايقاف نشاطهم بعد ان « انتشروا في كافة جهات المواقع العسكرية (٢)» .

كذلك حوربت الثورة بالدعاية الأجنبية المضادة ، فقد تمكنت المطابع التابعة للأجانب من نشر ما كانت تطلق عليه « بشرى » وفيها « يهجون أهل الحق ويمدحون الخديو الجليل وسعادة سلطان باشا » ، وسلكت الصحافة الأجنبية نفس الأسلوب « فانها دائما تستهزىء بالحزب الوطنى وتسفه رأيه وترميه بالجهل وسوء النية وقبح الطوية ، حتى ان من يطلع على أخبارها يضطره عقله وانسانيته الى كراهية هذا الحزب (٣) » . ومضت الصحافة الهجومية وخاصة « الاجبشن جازيت » فى طريقها تنفث السم فى هذا الميدان ، وضيقت الثورة الخناق على تلك الدعايات المغرضة لكن الأخيرة انتصرت حيث أنها وجدت من يساندها ، فنرى بعض الصحف تنتقل الى الاسطول لتمارس نشاطها عن طريق البحر ولتكون بعيدة عن أيدى الثورة حتى لا تبطش بها ، وتدخل اعدادها عن هذا الطريق وتنتشر على الأرض المصرية ، وتصدر الأوامر للثورة بمزيد من الرقابة وتحرق الكثير من النسخ الواردة من تلك الصحف التى لم تقتصر على الأجنبية بل ماثلتها بعض الصحف المصرية المناوئة « كالاعتدال » .

هكذا مضت الدعاية المضادة تنشر مخالبها فى جسـد الثورة لتدميه وتجعله غير قادر على المحاربة فى تلك الجهات المتعددة التى فتحت أمامه .

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٩ فى ٨ اغسطس ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، دوسيه ٥٣/ب ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب .

(٣) القسطاط ، عدد ٧ فى ٣١ مايو ١٨٨٢ ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ .

(د) انحراف بعض العسكريين :

وأخيرا وصل هذا الأمر لداخل بعض من العسكريين أصحاب النفوس الضعيفة ، الذين خانوا أنفسهم ووطنهم وقسمهم وانجرفوا مع تيار الخيانة .

وجدت الوعود والعهود التى صدرت من توفيق للعسكريين بعض الأصداء ، وكان لياور توفيق عثمان رفعت دوره الرئيسى فى ذلك « فكان يوضح للضباط الذين هم من أصل شركسى عدم فائدة انضمامهم للمقاومة الوطنية ، لأن الخديو هو الفائز فى النهاية ويكافىء من ينضم اليه الآن ويتبعه ويعاقب من يخالفه » ، هذا فى الوقت الذى أذيع فيه أن الجيش الانجليزى ليس فى نيته الاستيلاء على البلاد أو الاقامة فيها انما حضوره هو لحفظ النظام والأمن . وصدرت المنشورات من توفيق التى تفيد « بما استقر عليه مؤتمر الدول من التدخل لاخماد الثورة ، وأن العساكر الانجليزية أصبحت نائبة عن الجناب العالى » (١) وكللت المنشورات بعصيان عرابى الصادر من أمير المؤمنين ، هذا فى الوقت الذى بدأ فيه تسرب بعض الضباط الى المعسكر الانجليزى وترك أرض المعركة ، « ففر نسيم بك وانضم الى الجيش الانجليزى » ، والقائمقام أركان حرب فرقة رشيد محمد لبيب « ارتكب عار انفرار بالبحر من رشيد لحد الرملة وانحاز الى الانجليز » وايضا الرتب العادية « اسماعيل نظيم يوزباشى أركان حرب ، سعيد ناصر ملازم أركان حرب ، كانا يجريان عملية الكشف بجهة القنطرة وصحبهم نفر سوارى ، فتركوا معهم خيولهم والتجأ الى العدو جهة القنطرة (٢) » .

وكان الهروب والالتجاء الى الخديو ايضا ، فقد وصل الى الاسكندرية أربعة ضباط « عفيفى سالم ، محمد كامل ، محمد شريف ، بكير موسى » بعد أن تركوا مواقعهم فى أبى قير معلنين طاعتهم للخديو ، فأنعم عليهم بالرتب والنياشين ، بعد أن قرر « أن يعين راتب ونصف راتب للعساكر الذين نبذوا طاعة عرابى وانحازوا الى مولاهم الخديو».

وعن هذا الطريق انتقلت الخطط الحربية والتكتيكات الى الأعداء « فقد حدث أن الضابط الفى افندى يوسف الذى عاهد عرابى نكث

---

(١) محافظ الثورة العرابية . محفظة ٤١ ، دوسيه ٣ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ٨ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤٧ ، محفظة ١٦ دوسيه ٣٨٤/ب .

بعهده وأظهر ولاءه سرا للخـديو ، فكان يخبر خيرى باشـا بما يدبره العرابيون (١) » .

وفى حقيقة الأمر فان تلك الشـهرة والصيت والحب المتـدفق والشعبية الكبيرة التى تمتع بها عرابى أثارت النفسـية فى داخلية بعض العسكريين وخاصـة أصـحاب الرتب العالية الذين اعتقدوا فى قرارهم انهم احسن وأكفأ وأقدر منه ، فلماذا لم يتمتعوا بما حصـل عليـه ؟ فان لم يستطيعوا فليحطموه ، وأمام ذلك نسوا كل شيء وراحوا يعملون من أجل مطامعهم الذاتية ، وعندما أيقن الأعداء هذا الأمر اغتنموا هذه الفرصة ، فكانت النتيجة انهيار الثورة ، وتم التأثير المضاد على أحمد عبد الغفار قومندان السوارى وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى سوارى وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية (٢) ، وكان من المؤسـف أن يكون أحد غلاة الثورة وهو أحمد عبد الغفار من بين الخائنين .

وتمكن سلطان من مراسلة على يوسف المعروف « بعلى خنفس » مقدم جنود خطوط التل الكبير « واستمالته الى طاعة الخـديو فأطاع واستوثق (٣) ، وكان ذلك عن طريق الأموال التى انحنى لهـا الضعفاء ، ووضع على يوسف امكانياته وتخطيطه للانجليز ليكمل الدور الذى قام به أعداء الثورة ، وفى ليلة الهزيمة يخبر عرابى « انه قد تحقق أن العدو لا يخرج فى هذه الليلة ، كما أخبر بذلك الجواسيس ، فبناء على هـذه الافادة أصـدر عرابى أمره باسـتراحة فى تلك الليلة (٤) » ، وتقدم الانجليز فى تلك الليلة وأمامهم بعض ضباط أركان حـرب من المصريين الى التل الكبير ، واخلى لهم على يوسـف الطريق ، وكانوا على دراية بكل صغيرة وكبيرة داخل أرض المعركة اذ أعد كل شيء لانتصار الأعداء الذين تمكنوا فى نهاية الأمر من الانتصار على الثورة .

(هـ) مآخذ الثوار :

لم يكن الانكسار معتمدا على نشاطات القوى المضـادة والخيـانة فقط بل كانت هناك أخطاء ارتكبها قادة الثورة ساهمت فى تلك النهاية ، ولربما لو تفادت لأمكن الوقوف أمام هذه الجبهات .

(١) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، احمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٢) أحمد عرابى : مذكرات ، ص ٣٩٨ .

(٣) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

(٤) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

حقيقة كان إلثورة برنامجها لكنه كان محتاجا الى تنظيم ادق ، واعدادا لمتطلبات الموقف وما يطرأ عليه لامكانية مجابهة أى ظروف .

كان رجال الثورة وعلى رأسهم عرابى قد اعتمدوا على تلك الشعبية المطلقة التى ساندتهم ووقفت بجوارهم وايدتهم ، ولم يفرقوا بين جميع العناصر التى انضمت للثورة ، فقد كانت الثقة متناهية بين الطرفين ، فعرابي شديد الثقة فى الناس جميعهم ، وهم شديدو الثقة فيه ، وكان هذا الأمر سلاحا ذا حدين ، فمنذ البداية كانت الثقة قائمة على نجاحه في كل ما حصل عليه للمصريين ، لكنها فى النهاية تخللتها بعض الشوائب التى أضرت بالثورة .

وكانت عدم الدراية الكافية بفن السياسة وممارستها وعدم فهم ألاعيب المخططات الأوربية ، من أهم ما تعرضت له القيادة الثورية . فبالرغم من الاجراءات التى اتخذتها انجلترا وفرنسا متحدة ضد مصر الا انه ساد الاعتقاد بأن فرنسا لن تقدم أيةمعاونة لانجلترا اذا حاربت مصر ، وصدق عرابى هؤلاء الفرنسيين الذين أظهروا له العطف وأبانوا له بأن الأسطول الفرنسى لم يأت لمهاجمة مصر بل لمراقبة تحركات الاسطول البريطاني (*) ، حقيقة ، ان فرنسا انسحبت من الميدان الحربى لكنها لم تبخل على انجلترا ووقفت بجانبها ، ولم ينتبه الثوار لذلك بل كانوا يعقدون الآمال على نصرة فرنسا للقضية المصرية .

واعتقد الثوريون أن تهديد انجلترا لن يخرج الى حيز التنفيذ ، حيث انالدول الأوربية لن تسمح بذلك التدخل وان مؤتمر الآستانة سيحل المسألة ويحول دون أن تنفرد انجلترا بمصر ، وحتى اذا تمكنت من مخالفة الرأى الأوربى فسيكون هناك رد فعل وأثرا سيئا فى العالم الاسلامى الذى تخشى انجلترا من اثارته وخاصة فى مستعمراتها اذا دخلت حرب ضد دولة اسلامية ، ومن هنا كان التحدى للانجليز والاعلان بأن المصريين لن يستسلموا ، بل اذا اعتدى عليهم فستكون الحرب المقدسة ، وأدلى عرابى بتصريحات التحدى للصحافةالأجنبية .

وساعد على ذلك تلك العلاقة التى ربطت بين الثوار والدولة العثمانية والتى لم تكن تسير على وتيرة واحدة فسمتها التبديل والتغيير ، وبالرغم من زعزعتها الا انه فى أحيان كثيرة أعطى الثوار ثقتهم لها ، وهذا مما أضر بالقضية المصرية .

أضف الى ذلك الثقة المتناهية فى النفس التى فى كثير من الأحيان

(*) Broadly : op. cit., pp. 197, 198.

تأتى بعكس المتوقع ، فأعتقدوا وسيطرت عليهم فكرة أن « العساكر المصرية أكفأ من دولة الانجليز حيث لم يكن لهم قوة الا فى البحر (١) » ، وحمل النديم لواء نشر ذلك فراح يردد تلك الدعاية الرنانة واتسع النطاق وأصبح الجميع مؤمنين بأن الانجليز كالسمك الذى يهلك إذا خرج من البحر .

كما أن القائمين على الثورة لم يضربوا الخيانة بيد من حديد ولم يقتلعوا جذورها من أعماق الارض بل اعطوها فرصة لأن تكبر وتترعرع، حقيقة كانوا ثوريين فى اجراءاتهم فى بعض الأحيان وليست جميعها ، فنرى حكم الاعدام يصدر على عدد من « البرابرة » العاملون بمنازل الأوربيين والذين كانوا يعطون اشارات للسفن الانجليزية وقت ضرب الاسكندرية ، كما حدث نفس الشيء مع البدو المعتدين على الأهالى ، الا انهم لم يحتاطوا من البدو عندما جندوهم ، ونحن لا ننكر أنهم قدموا المساعدات للثورة لكن أساءوا اليها أكثر مما نفعوها ، وكان من الضرورى اخضاعهم لمراقبة صارمة ، والقادة يعلمون « ان الاعراب اشد كفرا ونفاقا » وبالرغم من هذا فقد حازوا الثقة الى حد كبير فكونوا فرقا بأكملها فى جيش الدفاع .

أما عن الفلاحين الذين اشتركوا فى الحرب فقد ضحوا بالكثير ولكن لم تكن فترة تدريبهم بكافية لصد عدوان جيش انجليزى مسلح وقوى ، وخاصة فى الميدان الشرقى ، ويذكر فارمان انه « لم يكن هناك سوى ثمانية آلاف جندى من الأهالى المدربين فى جيش عرابى ، وهؤلاء كان معظمهم معسكرا فى كفر الدوار وفى رشيد ودمياط ؛ أما باقى الجنود من المصريين فكانوا اما طاعنين فى السن أو فلاحين غير مدربين ، كان يمكن لألف جندى مدرب أن يجبروا عشرة آلاف منهم على الفرار (٢) » ، وفى الواقع لم يكن الوقت كافيا للاعداد الكامل ، فأحيانا كان المتطوعون يرسلون الى أرض المعركة ويلبسون الملابس العسكرية ويعطون البنادق ليحاربوا .

وهناك رأى يرمى الى أن من الأخطاء اهمال تعبئة القوى الشعبية وتسليحها وخلق قوة ضاربة فى مواجهة قوة الاحتلال ، لكن مما لا شك فيه أنه مع قيام الحرب توافد على المعسكرات المتطوعون الذين مثلوا قوى الشعب المختلفة من كل مكان على أرض مصر بروح وطنية متأصلة وساهموا فى الميدان الحربى ، كما خرجت أوامر عرابى لتسليح أهالى

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ١/٨٣ .

(٢) فارمان : المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

بعض المناطق المتوقع فيها غزو العدو وتوليهم امر الدفاع عنها ، وتم ذلك بالفعل وقد كان من التهم التى ألقيت على قادة الثورة « تحريض الناس وحضهم على حمل السلاح » . ومحافظ الثورة تشير الى ذلك فى جميع محاضر التحقيق التى أجريت مع الثوار ، فهذا كفيل بأن قوى الشعب قد قدمت نفسها لمصر حيث اعتبرت أن هذه الحرب جهاد فى سبيل الله ، هذا وعندما رأى عرابى استدعاء الخفر للحرب واقامة حرس أهلى من الشعب بديلا عنه رفض المجلس الذى كانت مصر خاضعة له ، حيث سيطرت عليه هو الآخر المصالح التى لم يكن يوافقها استلام الشعب لأمن البلاد ، ومن هنا افتقدت الثورة التوافق فى الأفكار امام هذه المسألة .

ايضا كان على الثوار عدم اعطاء اية فرصة لخروج من انشق عن الثورة ، بل كان عليهم العمل على استمرارية الاحتواء الثورى والقاء المعارضات جانبا وخصوصا بعد أن بدأت الحرب ، لكن كان ذلك صعبا للغاية حيثان تلك الاختلافات كانت بناء على تباين فى الايدولوجية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه الثوار لا يريدونها ثورة دامية ، فتهاونوا مع من أساء للثورة ومن طعنها فلم يعلقوا المشانق ولم يجتثوا العناصر المعادية .

هذا بالاضافة الى أن عرابى لم يكن فى الصفوف الأمامية أثناء معارك الميدان الشرقى كقائد حربى يدير دفة المعارك ويشترك بثقله فيها ، ولكنه اكتفى باشتراك المعنوى واضفاء المسحة الدينية على خطواته ، اذ اعتقد ان وجوده وتنقلاته بين المعسكرات يكون له تأثير أقوى على سيرها أكثر مما لو كان فى الخطوط الأمامية ، ويقول بلنت « ان مكانته الكبيرة بين شيوخ البلد والفلاحين فى الدلتا من أكبر البواعث على بث الحماسة من أجل الحرب ، ولهذا السبب كانت الامدادات تتدفق من جميع النواحى على الجيش وايضا المتطوعون ، وان عرابى بذلك كان أكثر فائدة مما لو تولى القيادة فى ميدان القتال (*) » غير انه لو حارب عرابى وكان فى المقدمة لما تغير موقف قوى الشعب الذى قدم كل شىء من أجل مصر .

وبذلك يمكن القول ان عرابى لم يعط الحرب مثلما أعطى السياسة ، تلك التى لم يدركها تمام الادراك خاصة فى مسألة قناة السويس التى أجهزت على الثورة ، وكان للثقة فى ديلسبس بداية الانهيار ، ذلك الفرنسى الذى امتلك وتحكم اذ اعتقد القادة ان ما يسمى

(*) Blunt : op. cit., p. 385.

اليه انما هــو فى صــالح مصر ، ففى خطاب من عرابى اليــه يبين فيه محافظته على أملاك الأجانب الذين هاجروا ، وفى نهايتــه يشكره على مســاعيه الخيرة ويؤكد له وثوقه في كافة مشروعاته (*) ، وكان عرابى حسن النية فى تصديقه لهذا الفرنسي فتراجع عن سد القناة ، ولو كان أكبر مكرا وأكثر حسما وأشد قسوة لمضى فى تنفيذ البرنامج الثورى ولما تردد لحظة وخصوصا انه كان ذا تأثير قوى على باقى أعضاء الثورة .

لكن من طبائع الثورات حدوث أخطاء لا حيلة لها فيهــا « فالثورة كالمطية الجموح تسوق من يركبها ولا يسوقها الى غير مجراها » ، وتلك المآخذ التى تؤخذ على الثورة لا يمكن أن تنــال من مكانتهــا وقدرتهــا أمام التاريخ .

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٢ .

الفصل الثامن

موقف الدولة العثمانية

الدولة العثمانية فى النطاق الثورى :

كانت مصر بالنسبة للدولة العثمانية من اهم ولاياتها ، فدائما تحرص كل الحرص على تبعيتها لها ، وقد تمكن محمد على من جعل مصر صاحبة وضع خاص وذلك بنشاطه الخارجى الذى انتهى بخضوعها للوصاية الدولية لتدخل فى مرحلة يتغلغل فيها النفوذ الأوربى خاصة الانجليزى والفرنسى ليقلل شيئا فشيئا من النفوذ العثمانى .

دفع اسماعيل الكثير من أجل ارضاء نفسه وميوله التى تهوى الاستقلال بحكم مصر واخراجها من السيادة العثمانية التى لم تكن ممثلة الا ظاهريا ، فتمكن من الحصول على فرمان تلو الآخر لكنه لم يحقق ما تمناه فكانت على مصر تلك الالتزامات المفروضة عليها ، فاذا دخلت الدولة فى حرب كان على القوات المصرية ومعداتها ان تكون على أرض المعركة ، هذا بالاضافة الى الجزية السنوية التى تدفع اليها وبعض القيود الأخرى التى فرضت على مصر .

وانتهت سنوات حكم اسماعيل ، ولم تكن مصر وحدها تعانى من الضعف والأزمات المالية اذ شاركتها الدولة ، وكان التسلط الأوربى قائما على قدم وساق ، فقد جاء توفيق على أيدى انجلترا وفرنسا وحتى عندما حاولت الدولة الانتقاص من بعض المميزات التى منحت لمصر فى اطار الفرمانات السابقة فشلت فى ذلك .

لم تكن العلاقة على ما يرام بين توفيق والدولة ، فقد أحس منذ البداية بأن لقاءه مع انجلترا وفرنسا اضمن من اية لقاءات اخرى . لهذا فلم يذهب الى السلطان لأداء واجبات الشكر له عقب صدور

فرمان التولية الذى حاول فيه السلطان التوفيق بين مصالح الدولة العثمانية ومصالح الدول الأوربية .

وضع السلطان عبد الحميد مصر نصب عينيه اذ راودته فكرة امكانية استغلال تلك الأمه التى هى مهد الحضارة وصاحبة المركز الاسلامى العالمى لاحتوائها على منبع الثقافة الاسلامية ووقوعها بين الأمم الشرقية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه يحتضن حركة الجامعة الاسلامية فرأى جعل مصر مركزا لذلك النشاط الذى يمكنه من الوقوف أمام المصالح الروسية والانجليزية ، فى آسيا الوسطى ويكون قوة معارضة ، ويدعم عن هذا الطريق الخلافة فى آل عثمان بعد أن تطرق الضعف اليها ، ويظهر بالمظهر الأدبى والروحى فى دفاعه عن الاسلام ومجده واستعادة مكانته الأولى وخصوصا أن المد الاستعمارى قد بلغ أقصاه ، فاستولت انجلترا على قبرص وأعلنت فرنسا حمايتها على تونس فشعر بوطأة التدخل الأوربى ومن هنا كان لابد من ممارسة الضغط على الشعوب الاسلامية من خلال مصر .

وتشاء الظروف انه عندما قرر السلطان تنفيذ ذلك كانت الحركة الوطنية قد أخذت مكانها فى مصر وبدأت الخطوات الأولى للثورة ، فرأى الاستفادة من وراء ذلك بتحقيق أمله فى الحركة الاسلامية ، هذا من ناحية واستعادة سلطانه وسيطرته على وادى النيل ، من ناحية أخرى ، ولسياسة الدولة خبرة فائقة فى أمور التردد والمراوغة والمكر والخداع والتلون فى المواقف وضرب القوى ببعضها ليكون أولا وأخيرا المكسب لها وحدها ، فماذا كان موقف الثورة المصرية من الدولة صاحبة الخلافة الإسلامية ؟ اتخذ هذا الموقف أكثر من شكل طبقا لمقتضيات الأمور ولتلك الظروف والاحداث التى مرت بها الثورة ، فأساسا نهضت من أجل اعطاء مصر حقها بعد أن سلب منها كل شىء ونادت بمصر للمصريين حيث أساءلها من هو عير مصرى طوال تاريخها لكن مصر كانت اسلامية عميقة فى تدينها مؤمنة كل الايمان بذلك المركز الروحى الذى خلفه لها الرسول الكريم (ص) وهو الخلافة تلك التى تجمع بين الزعامة الدينية والروحية والحكم الدنيوى .

ومع الوقت بدأ هذا المفهوم تهتز ناحيته السياسية لتستمر الناحية الدينية وذلك هو سمة التطور خاصة وان القرن التاسع عشر قد اختص بظهور القوميات بعد أن سرت مبادىء الثورة الفرنسية الى أوربا وخارجها ، وفى مصر تبلور الرأى العام وقوى وتأصلت النزعة الوطنية القومية وساد الكره والحقد على كل ما هو أجنبى يعيش على الأرض المصرية ، لكن لم يكن معنى ذلك اغفال مركز الخلافة الدينى بل

وجدت كل عناية وتكريم ، فكان النديم يدافع عن الدولة صاحبة تلك الخلافة « فهى الدولة الاسلامية التي بين ثمانى عشرة دولة مسيحية (١) » . ومضى محمد عبده في نفس الاتجاه ، وهما من مفكرى الثورة ومن غلاة الدعاة لمبادئها لكنهم رأوا أن للعلاقة الروحية والمعنوية ثقلها خاصة أمام التحدى الاستعمارى للغرب .

ولهذا فمنذ بداية الثورة والمصريون لا يبحثون عن انفصال عن الدولة بل كان الحزب الوطنى يؤيد فكرة الامبراطورية الإسلاميه التى يكون فيها السلطان خليفة ، هذا فى الوقت الذى تأصلت فيه القومية داخل اعضائه ، لكن اطاعة السلطان واجبة على المسلمين ، وبذلك التصقت الخلافة فى أذهان المصريين بتراث الاسلام حتى ان العامة ربطوا بين الاسلام والخليفة وقد وضح ذلك من دعواتهم طوال فترة الحرب .

من هنا كان العامل الدينى قويا فى الثورة وخاصة ان معظم تيار المثقفين كان تيارا دينيا لكنه متحرر من القيود متسما بالاصلاح ، يعطى للعامل القومى قدره واهميته ، وكان زعيم هذا الرأى محمد عبده الذى يرى أن السبب فيما أصاب المسلمين من انحلال يرجع الى خطأ ربط الدين بالسياسة ، فهو مصرى متمسك بتقاليد بلاده بحيث شكلت النزعة الوطنية جانبا هاما فى تفكيره ، كما انه كان يرى أن الأمة المصرية هى جزء من دار الاسلام ، ومع ذلك فقد كان واضحا ميل محمد عبده للعروبة ، فمطالبته بالعودة للسلف الصالح وما كان عليه الاسلام من عزة ومجد وقوة وايضا باحياء اللغة العربية وتجديد آدابها ، وبذلك فان فكر محمد عبده السياسى (٢) أسهم بدوره فى نمو حركة القومية العربية ، فهو يكره الاتراك ويمقت سياستهم وخاصة ما يتبعه السلطان عبد الحميد وقد أعلن ذلك صراحة لبلنت ، وبذلك حمل فى نفسيته عقدة العنصر التركى ومنحها لمدرسته .

ومعروف أن المصريين يبغضون الاتراك ومنذ ان وطأت أقدامهم الأرض المصرية وهم دائمو الثورات عليهم خاصة قبل محمد على ، وكان شعور عرابى الشىء نفسه فهو لا يضمر أى حب لهم ففى نظره أنهم أساءوا حكم مصر قرونا طويلة ولذلك فلن يسمح لهم بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، لكنه فرق بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية فالسلطان هو أمير المؤمنين يجب اطاعته طالما كان عادلا « كلنا أبناء السلطان يجب علينا أن نعيش كأسرة فى منزل واحد ، وكما ان اعضاء

---

(١) عبد الفتاح النديم : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٢) Blunt : op. cit., p. 251.

الأسرة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسبما يهوى ولا يحق لرب البيت ان يستبيح حرمتها فكذلك لكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها وفقا لما يريد وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وستحافظ على ذلك (١) » ٠

من هذا يتضح أن الثورة رحبت بالعلاقة على أساس انها علاقة دينية وأن وضع مصر الدولى قد جعلها فى اطار الدولة العثمانية فيجب المحافظة على ذلك الاطار بدون السماح للمزيد من الامتيازات ، كما كان لابد أن تستند الثورة على قوة ترى انه من الممكن أن تقف معها أمام الاتجاهات الاستعمارية خاصة بعد أن انسلخت تونس من الدولة العثمانية واعلنت فرنسا الحماية عليها ، ولذلك رأى الحزب الوطنى أن يركن لمساعدة الباب العالى نظرا لخوفه من التدخل الاجنبى ، لكن بعد دراسة هذا الموضوع بين أعضاء الثورة « رؤى أن يكون دور الأستانة دور اسلامى فقط حتى الاتحاد مع الدولة يجب أن يكون فى أضيق الحدود (٢) » ، هذا بالاضافة الى رغبة الثورة فى التقليل من عدد الأعداء حتى يمكن أن توحد جهودها تجاه العدو الأصلى .

عرفنا اتجاه السلطان عبد الحميد ازاء مصر ، فقد وجد فى الثورة فرصته لتحقيق ما يصبو اليه ونظرا لطغيانه واستبداده رأى ضرورة العمل والحيلولة دون ضياع هذه الفرصة خصوصا أن خوفه كان كبيرا من أن تحطم آماله بقيام خلافة اسلامية عربية تضم المناوئين لسياسته فى الحجاز والشام وانه ان لم يظهر عطفه على الثورة فلربما تنضم لهذا الجانب « لهذا كان لا ينظر الى المسألة المصرية الا من زاوية هذه الخطط على أمل أن يفيد من النزاع بين الخديو والعسكريين (٣) » ٠

اذن فلم يكن موقف الدولة العثمانية من الثورة حبا فى هذا الاتجاه ، فالسلطان هو عدو الأنظمة الدستورية كما وضح من موقفه من مدحت باشا وما تم له على يديه ، انما من أجل المصلحة ومن هنا بدا عرابى يلقى بعض التشجيع من السلطان رغم تصريحاته واعلانه جهرا معاداته للاتراك .

وبذلك نرى ان قادة الثورة كانوا يميلون للاتفاق مع الدولة صاحبة السيادة على مصر من اجل اقصاء توفيق عن حكم مصر ، وتؤكدالوثائق النمساوية « انه نظر فى أن يصبح عرابى وكيلا للسلطان ويعزل الخديو

---

(١) Ibid, p. 172.

(٢) Archives de maison, Fasç XXXI-9, No. 57 Pol, 6 Mars, 1882.

(٣) د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ ٠

الحالى ويحل محله ويحصل على الاستقلال من السلطان ويعترف به كحاكم لمصر (١) » .

وظهرت العلاقة التى ربطت الثورة بالدولة العثمانية الى حيز الوجود وأصبحت على الألسنة ، لكن اذا بحثنا فى الأعماق نجد أنها علاقة أوجدتها ظروف معينة ، فالطرفان يكره كل منهما الآخر ، فطرف الثورة الذى يمثله عرابى كان يردد استقلال مصر على أسس وطنية ويحمل بين جنباته الرفض للخضوع للسلطان .

أما طرف السلطان فكان يكره ثورة مصر كحركة قومية داخل اطار ولاياته ، هذا فى الوقت الذى بلغ فيه عرابى كزعيم قومى مداه ولم تكن مكانته داخل الحدود المصرية فحسب بل طارت سمعته لآفاق العالم واصبح بطلا للاسلام ورمزا للمناضلين للاستبداد وله المؤيدون من الأجناس المتعددة ، وبذلك صار للسلطان الحق فيما غمره من احساس .

وبناء على تأصل النزعة القومية لدى الثوريين راودتهم فكرة امكان نقل الخلافة الاسلامية الى أصحابها من العرب وبذلك يسدل الستار على العلاقة التى تربط مصر بالدولة العثمانية ، فالعرب فضلوا على بقية الأجناس ، والقرآن الكريم نزل بلغتهم « انا أنزلناه قرآنا عربيا » فيكفى فخر العرب بذلك ، ولغتهم هى لغة الضاد التى يجهله أصحاب الخلافة من العثمانيين الذين أغفلوا تطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية واخيرا فقد كانت مصر مقر الخلافة وانتزعتها تركيا منها ، ومن هناك كان لابد لارجاع الحقوق الى أصحابها ، وقد أثير ذلك وكان محمد عبده من مؤيدى أسقاط الخلافة من آل عثمان .

وبدأت فكرة القومية العربية تخرج الى حيز الوجود وتطغى على ما عداها ويذكر أحد شهود العيان انه قد وصل الأمر الى « انكار تبعية مصر لدار السلطنة العثمانية » ، وراح التفكير فى تدعيم ذلك ، وتصادف فى ذلك الوقت أن كان شريف مكة على علاقة سيئة مع الدولة العثمانية ، وحزب الاحرار فيها يطالب بالتحرر من السلطان عبد الحميد وكان لبلنت يد فى الموضوع فعرض على عرابى « مخابرة شريف مكة وغيره من كبار العرب فى استنهاضهم الى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر (٢) » .

---

(١) Archives des maison, No. 11, 13 Fevrier. 1882.

(٢) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ج ٤ ص ٢٦٨ .

مع بداية الثورة عين توفيق مندوبا له فى الآستانة ليدرس الموقف ويبلغه الاخبار ويقربه الى المسئولين هنـاك وكانت المراسـلات بينهما صورة حية لما يجرى على الصعيدين المصرى والتركى فيرسل الخديو اليه ليخطره « ان عرابى يقدم نفسه بأنه شريف وافادته الى أهل مكة من هذا القبيل، فنرجو عرض الموضوع على حضرة ولى النعم بصـفة سرية جدا للعلم بحقيقة الأمر حتى لا يشعر الحجـازيون بأى شىء عن ذلك (١) » ، ويطمئنه ثابت باشا عن جهوده من أجل اسـقاط مسـألة القومية وذلك عن طريق تحريض السلطان على الثوار .

وبذلك يتضح انه فعـلا كانت هنـاك علاقات مع الحجـاز وان السلطان أصبح يعلم بتلك الحركات فرأى أن يعمل على المزيد من أجل سحب الثورة من هذا المجال خوفا من ان يقذف به كخليفة ويعين غيره سواء كان من المصريين أو شريف مكة ذاته . ويذكر البعض أنه دارت اشاعات حول أن عرابى حصـل على موافقة عدد من علماء القاهرة بفتوى لعزل السلطان من الخلافة وتعيين شريف مكة خلفا له فى حالة معارضة السلطان (٢) ، كما أعلنت التيمز بأن « عرابى باشـا راغب فى الانضمام للثورة الدينية الشديدة المتحركة الآن فى بلاد العرب وممالك اخـرى اسلامية (٣) » .

ومضى توفيق للعمل فى هذا المجال الخصب لكى يضرب الثورة من ناحية ويتقرب للسلطان الذى كانت علاقته معه على غير مايرام من ناحية ثانيـة ثم ليعصف بكل اتحـاد يمكن أن يتم بين الناحيتين ، فنراه يرسل للآستانة بأنه خادم مولاه السلطان وانه يبذل « الدقة والعناية التامة فى عدم حصول اختلال أو ثورة بأى شكل كان فى مكة المكرمة التى هى قبلة الموحـدين وفى مصر القاهـرة » ويضيف أنه متيقظ مـن عـدم تسرب الأسلحة من جمارك مصر الى الحجاز ويرجع هذا النشاط الثورى لرجال مصر « وما ذلك الا من تحرضـات المفسـدين » ، ويؤكـد بضرورة قوة الارتباط بمركز الخلافة وان ذلك يتوقف على تأكيد العنصر التركى وكثرة عدده وان القومية والوطنية اللتان ظهرتا بمصر مخالفتان تماما لهـذا المبدأ « فغرضهم الوحدة العربية ، ويعمل رئيس هذه الطائفة (عرابى) على تقوية هذه الروح ليـلا ونهـارا ، كما انه يسعى لادماج أهالى الحجـاز والشام وطرابلس الغرب ضمن الاتحاد العربى ، وها هى لقـاءاته مع الحجازيين وبسطاء العقول مدعيا أنه من الأشراف ، وغنى عن التعـريف

---

(١) محافظ الابحاث ، محفظة ١١٦ ، ملف ثابت باشا » ١٦ ابريل ١٨٨٢ .

(٢) Malortie : Egypt, Native Rulers and Foreign Interference, Second ed London, 1899, p. 10.

(٣) المفيد ، عدد ٢٣ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

ما لهـذه المقاصـد الخبيثة من ضرر ومخاطرة بالنسـبة للحـاكم الشرعى (١) » .

وتعمقت الروح القومية وظهرت فى تلك الاجتمـاعات التى هى تنظيمات تضم الثوار ، ويذكر صـابونجى فى خطاب له لبلنت فى ٢٤ يونيـه ١٨٨٢ عن ذلك « انهم يعتبرون ان عبد الحميد فى واد آخر ، ويسعون الى كل ما يمكنهم الاستفادة منه حتى تصل قوتهم الى الدرجة التى تؤهلهم لاعلان الجمهورية المسـتقلة ، وهذا هو أسـاس برنامجهم الثورى منذ البداية ولكنهم يفضلون تنفيذ ذلك تدريجيا ، وقد أكد لى محمود باشا سامى فى حضور نديم وعبده بأنه لن توافيهم المنية قبل أن يعلنوا اسـتقلال مصر عن الباب العالى والمناداة بالجمهورية ، ونديم يوجـه جهوده نحو هـذه الغاية ببـذر بـذورها فى أذهـان الجيل الصاعد (٢) » . وقد غمرهم هذا الاحساس منذ أن بـدأت الثورة اذ رأوا « أن ارضـا عربية كمصر لا تحكم بتركى ولا غيره وانهم يفضـلون القتل على دخول عسكرى غريب أرضـهم أو رجل من رجـال الحكومة التركية فى اعمالهم (٣) » .

وبتطور الأحداث وبالاجراءات الثورية التى تمت وخاصة تلك التى وجهت للعناصر التركية والشركسية ، كان توفيق سباقا ومسرعا بتبليغها للسلطان وذلك حتى يقطع العلاقات بين الثورة والسلطان وينتصر على عرابى ويظهر امام السلطان بمظهر الغيور على مصـلحته ، وفعـلا اثير غضبه فتأكد « أن عرابى باشـا قوله لا يطابق فعله ، وانه متلون ومتقلب الأفكار دائما وغافلا وجاهلا (٤) » .

ولم يهتم الثوار بذلك بل سيطرت نشوة القومية عليهم خاصـة عندما أذيع ان قوات تركية ستحضر الى مصر ، فيعلن عرابى « ان تداخل الباب العالى اذا كان بوجه غير سلمى وعلى الخصوص اذا كانت الدولة مصممة على ارسال عساكر فانه يقاومها اشد مقاومة يفعلها مع فرنسا وانكلترا (٥) » .

وازداد الموقف صعوبة بعد أن احست الثورة ان الدولة العثمانية لم تقدم لها المساعدات المرجـوة التى تنتظرها لوقف التدخـل الانجليزى

---

(١) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، ٧ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢) Blunt : op. cit., p. 347.

(٣) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٩ فى ٢٣ اكتوبر ١٨٨١ عن جريدة القيبا .

(٤) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، ٢١ يوليو ١٨٨٢ .

(٥) الطائف ، عدد ٢٨ يوليو ١٨٨٢ .

الفرنسي فأصبح التحول عنها واضحا واشتد النفور وتعمقت الكراهية ، فيذكر صابونجي لبلنت في خطاب ١٩ يونيو ١٨٨٢ «سمعت سامي وعبده ونديم يلعنون السلاطين والجنس التركي من جنكيزخان الى هولاكو الى عبد الحميد ، وهم يعدون الامة لحكم جمهوري، وفي حالة تدخل الاتراك عسكريا سيعلنون الاستقلال عن الباب العالي ، وقد اخبرني نديم بأنه سيحطم عرش السلطان قبل أن يموت فهذا هو هدفه ويتمنى من الله تحقيقه (*) » .

وبذلك أصبح واضحا أن الثورة في صراع مع هذا العنصر منذ بدايتها وحتى نهايتها شمل جميع قوى مصر التي أرادت أن تحقق شعارها « مصر للمصريين » وأن تستقل مصر وتنال حريتها وتضع نظام الحكم الذي يحلو لها اذ فضل مثقفوها الجمهورية لتتلاءم مع الطبيعة المصرية ومن هنا تحولت الثورة ضد سيادة الدولة الحاكمة .

الخطوات العملية للدولة العثمانية تجاه الثورة :

(أ) البعثة العثمانية الأولى وأثرها :

عقب الاطاحة بحكومة رياض أحيلت المطالب الخاصة بتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش الى الآستانة ، وهنا وجد السلطان الفرصة المناسبة للتدخل خاصة بعد أن طلب منه توفيق ارسال قوة عسكرية لايقاف الثورة ، وكانت انجلترا وفرنسا تعارضان أي مجهودات قد يبذلها الباب العالي للتدخل في شئون مصر الداخلية اذ سبق ورفضتا ارسال أي قوات تركية الى مصر ، وانتهى الأمر بارسال البعثة العثمانية الأولى الى مصر « بعثة نظامي باشا » التي ضمت عددا من الشخصيات المهمة : الجنرال نظامي باشا ، وعلي فؤاد سكرتير خاص السلطان ، وقدري افندي ، وأحمد راتب السكرتير الثاني للسلطان وياوره . وكان كل منهم مزودا بشفرة تلغرافية تختلف عن الآخر ولديه الأوامر بأن تكون المراسلة مباشرة مع الآستانة .

عين شريف أحمد رفعت لمرافقة البعثة ، وأعطى له الخديو التوصيات اللازمة بشأن عدم التبحر في أحداث مصر الأخيرة ويذكر المندوب المرافق أن نوايا البعثة كانت تدور حول معرفة المعلومات عن الحركة العسكرية التي تزعمت موقف ٩ سبتمبر وشخصية الخديو وتصرفاته ومركز ومكانة السلطان في مصر ، وهل بوصول شريف

(*) Blunt : op. cit., pp. 344, 345.

للوزارة كطلب الثوار انتهت الحركة أم انها حركة عربية عامة، وقد انصب كلامهم على أن انقاذ مصر لن يتأتى الا بالاعتراف الكامل لسيادة السلطان، والتقوا بالعسكريين فى القاهرة ، وارسل احمد راتب الى عرابى بالزقازيق .

وجاءت المحادثات مع توفيق لتشمل ضرورة المحافظة على الوضع الراهن والعمل على الحد من تدخل الأجانب ، كذلك اتضح منها ان تركيا لم تكن تميل الى ايجاد مجلس نيابى بمصر ، فعبد الحميد يخشى من انتشار العدوى الدستورية الى بقية ولاياته بل الى تركيا نفسها بعد ان اطفأ جذوتها ، كما كان يخاف من ان تنتشر الثورة نفسها فى ممتلكاته .

وتعددت الأقوال بشأن أهداف البعثة فمن رأى انها للوقوف على وجهات النظر والاتصال بعرابى لكى يتخذه السلطان مخلب قط ويتخلص من توفيق والمراقبة التى شكلت تدخلا فعليا ، وكانت هناك وجهة نظر أخرى تقول انها لتلمس الأخطار وتستطلع الأمر وتسبرغور الحركة ويذكر كرومر « انه قد تم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا مع السلطان لارسال مبعوث جنرال لكى يثبت سلطة الخديو ويقدم له النصيحة (١) » ، بينما يصرح السلطان بأن الهدف هو « تهدئة الجو فى مصر (٢) » .

وفى حقيقة الأمر فقد كانت رسالة البعثة صعبة للغاية . فاذا جمعنا ما سبق وأضفنا اليه أن البعثة كان عليها قياس الظروف ودراسة الاجواء جميعها للعمل من أجل مصلحة الدولة أيا كان نوعها ، فالسلطان يهدف الى تحويل الثورة لخدمته ، وتحويل الكارهين لها لصوبه لتوسيع دائرة المكاسب التى يمكن له أن يستحوذ عليها والتى فقدها أمام السيطرة الأجنبية ، فقد كانت الأوامر التى أعطاها للبعثة الاتصال بمثقفى مصر من القواد العسكريين والعلماء كذلك الأعيان لضمهم اليه ففى برقية من نظامى الى الآستانة تقول « كنا قد وعدنا بأننا حسب التعليمات سنقوم بالاتصال بأمراء الجيش وقواده وعلماء البلد لابلاغهم الوصايا والتنبيهات اللازمة مع توزيع الهدايا السنية عليهم . فنقول اننا ذهبنا البارحة الى ثكنة قصر النيل مقر نظارة الجهادية ، وافهمناهم الطاعة ، وعندئذ قام بينهم الأمير الاى طلبة بك واقسم بالله بانهم لايضمرون لجلالة السلطان غير الاخلاص والولاء » . ويتابع « جاءنا كبار علماء مصر وبعض

---

(١) Cromer : op. cit., p. 196.

(٢) Doc. Dip. F. Tom IV. No. 154, 3 Octobre, 1882, p. 144.

من أعيانهـا وكلمناهم عن الخضـوع والطاعة للسلطان » (١) وواضح ان السلطان كان يخشى من مسار الثورة أن تتجه الى فصل مصر عن الدولة العثمانية .

ولم تستطع البعثة ان تقوم بما أوكل لها ، ففى ١٤ اكتوبر أرسل المابين السلطانى اليها « هـل أنتممتمكنون من القيام بمهمتكم بمصر حسب الرغبة السـلطانية ؟ لأن دولتى انجلترا وفرنسـا تضغطـان على الباب العالى طالبتين استرجاعكما من مصر على جناح السرعة والا فانهما ستضطران الى ارسال قطع من اسطوليهما الى الميـاه المصرية بحجـة المحافظـة على موقف رعاياهما حتى ان الحـكومة الفرنسـية أرسلت فعلا سفينة من سفنها الى مياه الاسكندرية ، اقتضت الارادة السنية ابلاغكم بان تبذلوا المساعى لتسوية الحالة بما يتفق والمصلحة» وعقب ذلك أرسل لاستعجال عود البعثة (٢) .

تأكد بذلك ان الهدف من البعثة تحقيق المصلحة للدولة ، كما أبان ضعفها أمام دولتى انجلترا وفرنسا اللتان كانتا لا تنظران بعين الارتياح الى عودة النفوذ التركى الى مصر ، وقد ايدهما فى ذلك شريف الذى كان يكره التدخل من قبل الدولة ، ولم يكن شريف وحده بل الخديو أيضا .

وكان الاتفاق قد تم بين الدولتين على ارسال قطعتين من اسـطوليهما الى الاسكندررية للوقوف أمـام أى نشـاط تركى يمكن ان يمـارس ، وصرحتا بأن قطعتى أسطوليهما لن تتحركا من المياه المصرية الا بعد سفر بعثة نظامى .

ولم يكن ذلك هدف انجلترا وفرنسا فقط بل كان بداية التخطيط لضرب الحركة الوطنية اذ أذيع فى ذلك الوقت أن ارسـال « البارجتين الحربيتين » كان بناء على أمر ماليت حيث أرسل الى حكومته بأن الاوربيين فى خطر ولا سيما القاطنين فى الاسكندرية ، وقد آكدت الوثائق الفرنسية « انها تريد حماية الأوربيين فى حالة حدوث اضطرابات فى مصر (٣) » ، بينما نشرت صحيفة الفـارد السكندرى « ان الباعث للميسيو ماليت على هذا الفعل انما هو قصد القاء الدسائس ضد الوزارة الجديدة » (٤) .

---

(١) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة أثناء الثورة العرابية ، ١٢ اكتوبر ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، ١٤ ، ١٦ اكتوبر ١٨٨١ .

(٣) Doc. Dip. F. No. 161, 8 Octobre, 1881.

(٤) المفيد ، عدد ٣ فى ١٩ اكتوبر ١٨٨١ .

وفي الواقــع فان الأمر يجمع بين تهديد الثــورة الوطنية ووضع حد للتدخل العثماني الذى تراجع بسحب البعثة فورا والاحتجاج عـلى وجود قطع الأسطولين ولم تتمكن تركيـا أن تفعل أكثر من ذلك ، ورحلت قطعتا الأسطولين في اليوم التــالى لسفر البعثة بعد أن أثبتت الوجود الانجليزى الفرنسى ٠

لكن ما هى النتائج التى توصلت اليها البعثة مع قادة الثورة ؟

عقب الشرارة الأولى للثورة أرسل قادتها مذكرة للسلطان وضــــحوا فيها تلك الأخطار المحيطة بمصر وأنه ان لم يتدخل الســـلطان فسيكون مصير مصر كتونس ، وفاضت الشكوى من الاستبداد الذى أضعف الأمل فى الأمن والارواح ، كما عاد بالقوة على نفوذ الأجانب حتى أصبحت البلاد فى أيديهـــم وتحت تصرفهم وكاد اسم الدولة العثمانية ينسى ، هذا ووقع على المذكرة عرابى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار ٠

أعجب السلطان بهذا الجو الجديــد الذى من الممكن أن يـكون خلية عمل ، وعندما رأى أنه من غير الممكن ارسال قوات تركية الى مصر أرسل البعثة ، والتقى مندوبها أحمد راتب بقائد الثورة ليعطيه الأمل فى التأييد السلطاني ، ورحبت الثورة بتلك العلاقة التى تمكنها من تحقيق الأهداف، وفى الوقت المناسب يكون التخلى عن المساعدة وفك الارتبــاط ٠ وتذكر صحيفة الستاندرد « بينما كان الرؤســاء المعينون بمأمورية نظامى باشا موجودين بمصر اذ براتب باشا الذى هو ضمن المأمورية يرحل سرا مع فئة من مصر وقد أراد التوجه الى مكة عن طريق السويس فبحث على عرابى باشاعند محطة الزقازيق لعلمه أنه كان بوقتها مع آلايه برأس الوادى ٠ ولما علم أن عرابى كان قريبا منه وقتها توجه هو ومن معه لمقــابلته وقضى ليلة عنده » (١) ٠

ولم يكن الأمر بهذه البساطة بل كان هناك تخطيطا لكل ذلك اذ رتب أن يستقل راتب باشا نفس القطار الذى سيركبه عرابى من الزقازيق الى رأس الوادى ، ويقول عرابى « وأخبرته بكل ما أجريناه من أول الأمر الى آخره ، واننا لم نشق عصا الطاعة كما يدعى الأوربيون بل طلبنا الاصلاح باسم الذات الشاهانية وبذلك علم الصغير والكبير أن لنا سلطانا شرعيا هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية » (٢) ٠ وفى هذا اللقــاء تبودلت الآراء والأفكار ووعد راتب بأن يذكر عرابى بالخير لدى السلطان ويبين له أنه مسلم مخلص يدين بالولاء للخليفة ، وبدأت العلاقات ٠

(١) نفس المصدر ، عدد ٥٩ فى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ ٠

(٢) أحمد عرابى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٦٧ ٠

ومن خطاب راتب باشا الى عرابى الممثل لقيادة الثورة نلمس سياسة السلطان التى تلعب بأطراف المسألة المصرية ، يشجع الثورة « لا أهمية فى من يكون خديوى مصر انما يجب أن تكون أفكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصه من الشوائب بحيث أن تكون جميع حركاته متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقة الوثيقة مع عرش الخلافة » ويهاجم حكام أسرة محمد على وعلى رأسهم اسماعيل « اجترءوا على ظلم المصريين وفرض الضرائب التقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة وزيادة على ذلك فانهم تداينوا ديونا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنون تحت نير العبودية » ويمضى فى التحذير من التدخل الأوربى « وعليه يهمكم قبل كل شىء منع ما عساه أن يؤدى الى التدخل الأجنبى » ثم التنبيه باتخاذ الاحتياطات حتى لا تقع المكاتبات فى أيدى غيرهم وطلب ارسال ضابط سرا « ليقدم التقارير للسلطان عن حالة البلاد » (١) .

وفى نفس الوقت يستلم عرابى رسالة من الشيخ محمد ظافر « شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية » يتضح منها أن عرابى قد أرسل رسالتين للسلطان وأنه راض عنه وعن اخلاصه وأمانيه ، وتؤكد ضرورة تثبيت الخلافة والتحذير من مطامع انجلترا وفرنسا وخاصة الأولى وتبين موقف الخديو الضعيف المتقلب وتردد أن السلطان لايعول على اسماعيل ولا حليم ولا توفيق بل على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر ويتبت الروابط التى تربطه بالخلافة (٢) .

وأصبح الأمر خطيرا فالدولة حاولت كسب الثورة الى جانبها وأكدت على مصالح مصر سواء عن طريق الحاكم نفسه أو ابعاد التدخل وهذا ما ترجوه الثورة ، وبذلك أمكن للسلطان احتواؤها فى البداية ومضى فى اعطاء الآمال والعطف على الأمانى ورحبت الثورة طالما هى المستفيدة من وراء ذلك ، بل ان هذا الأمر قد أعطى قادة الثورة الثقة فراحوا يعملون وهم يشعرون بالتأييد من صاحب الحق الشرعى للبلاد ، لكنهم عندما كانوا يرون منه حيدة عن الطريق المرسوم يعلنون معارضتهم ، ومن هنا كان قادة الثورة على فهم واع وادراك كامل لموقف الدولة وأعدوا له الاعداد الكافى .

شعر توفيق منذ البداية بهذه العلاقة ورأى أنه لابد من بترها ، فعين له مندوبا لدى السلطان كما سبق ذكره وذلك ليوقع بالثورة ويكسب السلطان بجواره ، وداخل مصر كلف البوليس السرى للسراى للوصول

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢) Broadly : op. cit., pp. 121, 122.

الى معرفة وسائل الاتصال بين الطرفين ، لكنه لم يستطع أن يوقف الاتصالات .

وكثف السلطان نشاطه ، وظهر على مسرح العلاقات « أحمد أسعد وكيل فراشة المدينة » فقد أرسله للثوار في عدة بعثات سرية كلها تدور حول افهام القادة بأن انضمام الحركة الوطنية الى الخلافة سيقويها ويدعمها ، في الوقت الذى مضت فيه رسائل عرابى للسلطان والتى تفيض بالاتهامات لتوفيق بأنه يسعى لبيع مصر للانجليز ويعمل ضد مصالح الخلافة وقد كان كاتب هذه الرسائل أحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات والذى كان على درجة عالية من الثقافة ، « وهو الذى مهد لهم سبل المخابرة مع الأستانة ، وكان يكتب كل المحررات اليها خصوصا المكاتيب التركية ، وكان كاتب سر مجلس النظار » (١) .

وبتطور الأحداث ساءت الدولة العثمانية تلك الخطوات التى تقدم عليها كل من انجلترا وفرنسا تجاه مصر للتدخل في شئونها الداخلية ، فاعترضت واحتجت على مذكره يناير المشتركة اذ ارتابت من ذلك فالظروف لا تستدعى ولا تبرر صدور تلك المذكرة « فمصر جزء متكامل من الدولة التركية ، وأن تعهد الخديو بحفظ النظام والهدوء وتحميله ادارة البلاد وكذلك توثيق سلطان الخديوى هو من صميم حقوق السيادة للباب العالى » (٢) ، كان ذلك ما أصدرته سفارة تركيا فى لندن وباريس لكن لم يغير هذا من الواقع شيئا ، فالسياسة العثمانية فى البداية يعلو صوتها لكنه فى النهاية ينخفض أمام قوة الدول .

كانت تلك المذكرة من العوامل التى قوت التقارب بين قادة الثوار والدولة اذ اعتقدوا أن الضمان الوحيد لانقاذ البلاد لا يكون الا بالتمسك بسيادة الباب العالى نفسه ، حتى اننا نجد أنهم يعلنون رفضهم للمذكرة ولمن قبلها « وان السلطان هو سيدنا حيث ان الخديو قد قبل حماية القوى الأوربية المسيحية (٣) » ، أما الدولة فبالرغم من تصريحات السلطان عبدالحميد الى ماليت بأنه لا يمكن أن يوافق على حكومة دستورية في مصر نراه يؤيد ما ارتآه المجلس فى مسألة الميزانية .

وجاءت تصرفات رجال الثورة فى مسألة الشراكسة لتكدر السلطان لكنها لم تقطع الوصل ومضى كلا الطرفين فى طريقه المرسوم ، فعندما ساءت العلاقات بين وزارة الثورة الثانية وبين توفيق ، راح السلطان يكتب

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .
(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، ٢٠ اكتوبر ١٨٨٢ .
(٣) Polit, Archiv, Fasz XXVI-24, No. 16 Pol, 11 Janvier 1882.

لمجلس الوزراء وأهمل توفيق نهائيا ، وقد ضبط توفيق احدى هذه البرقيات فيقول لمندوبه في الآســتانة « ان هذا الوضع سيكون له نتائجه السيئه ولا شك أن اتصال الباب العالى بهيئة النظار الموجودة الآن رأسا لما يشعر هذه الهيئــة بالقوة والسيطرة آكثر فأكثر وســتنجم عــن ذلك الأضرار الجسيمة » (١) ، وبطبيعة الحال كان قادة الثورة يقومون بالرد على السلطان ليعطوه المزيد من الهجوم على توفيق • وعندما ازدادت حدة الموقف بمذكرة مايو المشتركة وارسال قطع من الأســطولين الانجليزى والفــرنسى الى الاسكندرية لتهديد الثورة يرسل عرابى للسلطان ليشرح له كيف قدمت المذكرة وما حوته ولماذا رفضت ؟ ويبدأ الثوار فى نشاطاتهم المتعــددة من أجل اسقاط توفيق عن طريق الباب العالى ، فرفعت طلباتهم لتعلن صراحة « الخديو موقوف ومطلوب عزله وتعيين خلف له » (٢) ، وسلموا مذكرة الى أحمد أسعد موقع عليها بضعة آلاف من المصريين ومنهــم أكثر من ثلاثين عضوا من اعضاء مجلس النواب يطالبون فيها « بخلع توفيق الذى تسبب فى وجود الأسطولين ويتبع نفس الســياسة التى اتبعها باى تونس لكى يســلم مصر الى انجلترا ، وانهم على استعداد لقبول حليم اذا ما ســاند الســلطان الحزب الوطنى ضد انجلترا وفرنسا ، وانه باستطاعة عرابى أن يجند ٠٠٠ر١٠٠ جندى ، والسلطان سيــفقد مصر اذا وافق على التــدخل الأجنبى بأى شكل من الأشكال (٣) » •

ومن هنــا نرى أنه كان لابــد للاعتماد على الدولة التى بيــدها الحل والربط والتي تملك السلطة فى هدم عرش توفيق وبذلك يتحقق ما تصبو اليه الثورة •

وأمام هذا الموقف كان لابد لتوفيق من أن يتحرك خاصة بعد أن ماج المجتمع بصيحات الثوار فى كل مكان ، وأحس أن عرشه معرض للزوال أمام ثورة الشعب . فاتصل بالسلطان وطلب قوة عسكرية لتقف أمام هذه القوى ، لكن كعادته من ناحية ولعدم موافقة مندوبى انجلترا وفرنسا من ناحية أخرى عدل عن ذلك وتراجــع عن طلب القوة وطلب ارسال مأمور • وجاءت الموافقة من السلطان بارسال لجنة لتقصى الحقائق •

وفى ذلك الوقت وصل عرابى الى أعلى قمة للزعامة والشهرة والحب للدرجة التى جعلت جرانفيــل يصرح فى مجلس اللوردات أن عــرابى من

---

(١) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر ، ١٥ مايو ١٨٨٢ •

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨١/ب •

(٣) Broadly : op. cit.، احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ •

الناحية الفعلية قد أصبح الحاكم الأوحد لمصر (١) ، وقد أقلق ذلك انجلترا وفرنسا اللتان راحتا تضغطان على السلطان لكسر تلك القوة فقد طلبتا منه « أن يأمر عرابي وسائر زعماء الحرب العسكرى أمرا قطعيا بالذهاب الى الأستانة » (٢) ، وكان هو نفسه قد بدأ يقلق من هذا الوضع وبالرغم من أنه كان يصر في علاقاته مع الثورة بالتأكيد على المسألة الاسلامية والتمسك بها الا أنه في قرارة نفسه يعلم أنها عميقة في الوطنية ومتأصلة في القومية ، كما أن تلك القطع من الأساطيل التي تقف في المياه المصرية وتهدد وضع مصر الراهن قد ارتاب منها وأحس أن ذلك جميعه بسبب الثورة التي ممكن لها عن هذا الطريق أن تفقده مصر ٠

هذا بالاضافة الى نداءات توفيق المتكررة التي راح فيها يكيد للثوار لدى السلطان وخاصة ما كان يمس الناحية العنصرية والقومية ، كما أنه أظهر ضعفه وخضوعه التام له ، وكان لتوفيق العذر في ذلك بعد أن أيقن أنه في طريق الزوال اذ كان يخاف من قرار الثوار بعزله وتعيين حليم بدلا منه ، ففي أول يونيو دعا اليه قنصلي انجلترا وفرنسا « وأبلغهما ما سمعه من أن العرابيين سيعزلونه ويولون حليم باشا واذا لم يمتثل لارادتهم فان العاقبة هي موته ومن معه حتى ولو كانوا القناصل » (٣) ٠

وأخيرا فقد بدأت تصل الى مسامع السلطان تلك التصريحات التي كان يتفوه بها قادة الثورة والتي تعلن صراحة الوقوف أمام أي تدخل عثماني والتي لم تكن لتخفي العداء تجاه العنصر التركي ٠ كل هذه العوامل جعلت السلطان يحتاط جانبا من الثورة في الوقت الذي دأب فيه على سياسة القضاء عليها ٠

(ب) البعثة العثمانية الثانية :

أوفد السلطان بعثة برئاسة درويش باشا لتحمل أكثر من هدف ولتعمل في جميع الميادين ولتستولي على كل ما يمكن الاستيلاء عليه ، وقد أيدت الدول ــ انجلترا ، فرنسا ، النمسا والمجر ، ألمانيا ، روسيا ــ ارسال هذه البعثة واعتقد بعضها أنها ستجعل عقد مؤتمر الآستانة الخاص بتسوية المسألة المصرية من باب المستحيلات وأن الأمر سينتهي بخضوع الثوار ٠

---

(١) Lords, Vol. CCLXIX, June, 1882, p. 1772.

(٢) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ ٠

(٣) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٤٥ ٠

كان على رئيس البعثة درويش باشا أن تكون سياسته مع توفيق ، وأن يحد من نشاطات عرابى وذلك باغرائه للذهاب الى الآستانة برضاه ، وأن يعلن بطريقة عاجلة وبشكل أبوى لعرابى عدم رضاء السلطان عن مسلكهم ، وانه اذا فشل فى مسألة ابحار عرابى « أن يدعوه الى اجتماع ودى ثم يفتك به بنفسه » ، كما كانت لديه التعليمات بالغاء مجلس النواب وتدعيم وزيادة قوة الخديو التى هى امداد لقوة السلطان ، وأن يطلب القوات اذا دعت الضرورة ذلك (١) .

أما أحمد أسعد أحد أعضاء البعثة الذى اختير لتلك العلاقة التى ربطته بالثورة ، فقد سبق وأن أرسل الى مصر ثلاث مرات . وكان السلطان يستخدمه فى المهمات السرية الخاصة بالمسائل العربية ويستشيره فى كل الأحداث التى تتصل بالدعاية للجامعة الاسلامية ، أنيط اليه مهمنا تشجيع الثوار على المضى فى طريقهم ومراجعة تصرفات درويش باشا ، وأعطى لكل واحد منهم شفرة وخط تلغرافى منفصل عن الآخر (٢) .

كانت للمكانة الدينية التى يتمتع بها المندوب الثانى أثر فى تلك المحبة والعلاقة القوية التى ربطته بالثوار فتقول الفسطاط « ان وجود السيد أحمد أسعد فى الوفد السلطانى وقع عند أعضاء الحزب الوطنى أحسن موقع فانهم استبشروا باسمه ولقبه وأحبوه لجوار رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام » (٣) ، ومن هنا لقى الترحيب من الجميع ، وأعاد على الثوار أقوال السلطان انه لايهمه من يكون على الخديوية الا من يحافظ على العلاقات مع الدولة ، وكان عليه وفقا لما صدر له من أوامر تقديم المساعدة للثوار وجذب مودتهم ، كما وضح لهم امكانية ارسال قوات لكون بجوار المصريين ضد الأوربيين (٤) ، ولم تكن تلك السياسة بجديدة على الأتراك فقد اشتهروا بسياسة الغدر والخيانة منذ القدم .

كان رجال الثورة قد أعدوا للأمر عدته قبل وصول البعثة ، وألقى على النديم تهيئة الشعب للقاء ، واعداد الرأى العام ، لبيان المعارضة تجاه خطوات التدخل الانجليزى الفرنسى ، وعين عرابى يعقوب سامى وكيل الحربية ليجرى رسوم الاستقبال ، فنبه عليه عمر لطفى بعدم اجراء مراسم استقبال وفقا لأمر توفيق فأجابه « انى مرسل من طرف ناظر الجهادية بتعليمات لا تؤخرنى عن اجرائها سوى أوامره » ، وركب درويش

(١) Blunt : op. cit., p. 302, Cromer : oo. cit., p. 285

(٢) Broadly : op. cit., p. 472.

(٣) الفسطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٤) Broadly : op. cit., p. 122, Cromer : op. cit., p. 286.

مع يعقوب سامي في فلوكته واستقبل من الجنود بالدعاء بنصر السلطان ، بينما استقبله السكندريون يرددون « يعيش مولانا السلطان عبد الحميد ، يعيش الحزب الوطني الحر ويعيش رؤساؤه ، كلنا رافضون لائحة انجلترا وفرنسا ورافضون من قبلها » ، وفي طريقه الى القاهرة نزل بطنطا لزيارة المسجد الأحمدى ، وخطب وأبان أنه مكلف بالحضور « لاعضد مساعيكم الخيرية فى حفظ البلاد واعلاء كلمة الله ولأمنع عنكم كل يد غريبة تتداخل فيكم ولو أحوج الأمر الى القوة » ، ويتردد الدعاء للسلطان والقادة النوار « وكان الناس كيوم الحشر والكل ينادون بما نادى به اخوانهم أهل الاسكندرية » ، وعند وصول البعثة القاهرة كان فى استقبالها « العسكريون والعلماء والتجار والأعيان والوجهاء وبايديهم باقات الورد فنشروها عليهم وهم يصيحون الحادى نصر الله الكل دين الاسلام ، الحادى نصر الله الكل مولانا السلطان ، الحادى نصر الله الكل عساكر الاسلام » (١) ، ومن الملاحظ أنه لم يكن هناك ثمة دعاء واحد لتوفيق بل كان رفضه يتردد على الألسنة .

ومضى درويش يتظاهر لطرفى النزاع بالتأييد ، فطلب نحو مائتى وسام لضباط الجيش وأعلن أن ذلك مكافأة لهم على ولائهم واخلاصهم « للذات الشاهانية » وطلب لعرابى « النشيان المجيدى من الدرجة الأولى » ، وعند التوزيع لم يكن مخلصا فأعطى منها لخدمة المعية وبعضها سلمه الى توفيق اتباعا لسياسة الميل اليه الذى أحس بذلك وكان يعلم شهواته فأعطاه ٥٠ ألف جنيه مضافا اليها ٢٥ ألف جنيه كهبات (٢) .

تمت هذه الرشوة لعلم توفيق تمام العلم أنه بالرغم من التعليمات التى أعطيت لدرويش من أجل تثبيت سلطته الا أن السلطان لم يكن راضيا عليه ولا واثقا فيه ولم يكن هذا وليد اليوم بل انه منذ أن تولى العرش . وقد عثر على خطاب مع ضابط بحرى كان المراسلة بين النواب والسلطان « بعد اطلاع مولانا السلطان على كافة المحررات تحقق لجلالته أن الخديو ليس له القدرة على خديوية مصر ، وانه عديم الادارة كونه صغير السن فصمم على عزله ويرغب تعين البرنس حليم باشا عوضا عن الخديو الحالى » (٣) ، اذ رأى السلطان أنه ممكن عن هذا الطريق انقاص الامتيازات التى حصلت عليها مصر بموجب الفرمانات السابقة واعادتها للتبعية التامة للدولة .

---

(١) محافظ الثوره العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٦ .

(٢) Ninet : op. cit., p. 92.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤٦ .

من هنا كان درويش تحت طاعة توفيق وانضم كلية الى جانبه بعد أن أصبح واضحا أنه يعارض عرابى فى كل ما يبديه خاصة بعد أن صرح توفيق له بأنه ليس من الممكن اصلاح ذات البين بينهما وقد صادق القناصل على ذلك ٠

وجاءت مقابلات وفود المصريين له لعرض مطالب الثورة وفى البداية كانت اجاباته عامة على طلباتهم مؤكدا على سلطة السلطان ، وكانت جلسة العلماء معه فى غاية التورية وانتهت بأزمة حادة بين الطرفين ، واستلم تلك العرائض التى نفيض بالثورة وتطلب اسقاط توفيق ، لكن درويش يريد القضاء على الثورة فكيف يعمل على تحقيق رغباتها ، هذا ويجب ألا ننسى الضغط والالحاح عليه من مندوبى انجلترا وفرنسا فى هذه المسألة ٠ وأخيرا فقد كان الحاقدون والرافضون محيطين به وعلى رأسهم شريف الذى طالما اختلى معه فزاد من كراهيته للثورة ٠

وعندما أحس درويش أن الأمة بجميع قواها تقف وقفة واحدة مع قائدها وزعيمها متقدة حماسة ووطنية أراد أن يلتقى بهذا الزعيم ليطبق الخطة ، ولم يكن عرابى حتى ذلك الوقت قد التقى به وفى هذا لدلالة على سياسة الثورة تجاه الدولة ، ولكنه حضر فى نهاية الأمر بعد أن توسط أحمد أسعد وطلب منه الحضور ٠

وتمت المقابلة فى ١٠ يونيو وجمعت درويش وأحمد أسعد وعرابى والبارودى ، وفى البداية رأى درويش أن يكون ودودا مع عرابى ويأخذه باللين فقال له : « أنت أنت وحدك الآمر الناهى فى مصر ، أنت مع كونك لست الا ناظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها ، هذا ما أغضب الدولة المتحدة يلزم أن يرين المساهلة معهن ، وما بقى بعد هذا عملنا فيه بيننا وحدنا ، استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى حيث أنى مشير مرسل من قبل السلطان وكن نائبا عنى مأمورا تحت قيادتى لكى تسهل على المخابرة مع الأجانب ،عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الأستانة حيث ان مولانا الخليفة العادل يرى الخير من مفاوضته معكم » ٠ فرد عرابى : « لست حريصا على السلطة التى تريد أن تنسبها الى ، هى سلطة غير مغتصبة ، الأمة هى التى أفضت الى بها فالواجب أن ينظر الى الأمة ويفكر فى شكواها » ثم أبدى امكانية انسحابه من ميدان العمل على شريطة اعطاء تصريح لقادة الثورة ببراءة الذمة من التبعات السابقة وطلب اعفاءه من مسئولية حفظ الأمن الذى تعهد به للقناصل ثم أبان « أن مالت وكولفن وسنكويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام

وذلك في بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترمون لنا شيئا ونحن نحترم لهم كل شيء » (١) •

أعقب ذلك حادثة الاسكندرية وكان لابد لدرويش من الاستمرار فى سياسته ، فبعد أن منح عرابى « النيشان المجيدى » طلب منه أن يذهب للسلطان ليشكره لكنه رفض وأظهر أن الشعب لن يسمح له بمغادرة مصر « ان الناس متعلقة بي وازدحامهم على فى كل وقت بحيث أنهم لايمكنونى تناول لوازماتي المعاشية وأخشى أن يحيلوا بينى وبين ذلك اذا علم لهم أنى أريد السفر الى خارج القطر المصرى لما يتوقعونه مما يحيق بهم من الضرر فى المستقبل ويترتب على ذلك حدوث فتنة داخلية » (٢) •

تبع ذلك محاولة أخرى قام بها درويش سبقه اليها قنصل فرنسا وهى ارشاء عرابى ، فقد عرض عليه مرتبا مغريا شهريا ، لكنه أبى وهذا أمر طبيعى • وأخيرا جرت آخر محاولة فيذكر درويش فى تقرير له بانه أعطى أوامر سرية الى قبطان السفينة عز الدين التى كانت بالميناء لتكون على استعداد برفع المرساة بمجرد أن ينزل عرابى اليها وتبحر على الفور « واقترحت على عرابى أن نقوم بزيارة السفن المصرية فى الميناء ومن بينها عز الدين ، فكانت اجاباته بأنه جندى ولا يوجد ما يهمه على السفن ، وقال : الأفضل الالتفات لشئوننا من أن نضيع الوقت فى زيارة السفن » (٣) ، لقد فهم عرابى ألاعيب السياسة التركية •

وساءت العلاقات بين الطرفين ، ومضى فى القاء الخطب العنيفة ضد السلطان ، واعتبر القادة أن مهمة درويش قد انتهت وقطعوا الاتصالات معه • وسافر عقب ذلك بناء على طلب الخديو •

وفى تلك الأثناء كان القادة يجرون اقامة التحصينات ، وعندما اعترضت الدولتان على ذلك ابدى السلطان أمر بوقفها لكن أمره لم يطع واستمرت ، وحينما قررت الدولة تكوين لجنة دولية للبت فى مسألة تسليح الطوابى فى الاسكندرية رفضت انجلترا رفضا قطعيا الموافقة وذلك حتى تتمكن من اتمام عدوانها •

(ج) التحول النهائى ضد الثورة :

عقب حادثة الاسكندرية قررت الدول عقد مؤتمر بالآستانة فى ٢٣ يونيو ١٨٨٢ بدار السفارة الايطالية لتسوية المسألة المصرية رغم

(١) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ص ١٨٠ ، ١٨١ •

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ١/٥٣ •

(٣) Egypt, No. 7 (1882), June 16, 1882.

معارضة الدولة العثمانية على أساس أن بعثة درويش ستحل الأزمة المتحكمه لكن ضرب برأيها عرض الحائط ، واجتمع سفراء دول انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وروسيا وإيطاليا ، ورفضت تركيا الاشتراك في المؤتمر حتى لا تجعل للوضع الصفه الدولية اذا اعتبرت أن تسوية الأمور من اختصاصها ، ومضت في موقفها حتى ضرب الاسكندرية وعندما رددت الصحافة الانجليزية وطالبت بأن يكون تفاهم انجلترا مع عرابي وليس الباب العالي ، آذاع ذلك الشك والقلق في الاستانه وساد الاعتقاد بأن الثوار في مصر يسعون الى الاستقلال ، وهنا رأت الاشتراك في المؤتمر في ١٨ يوليو والتدخل المسلح من جانبها بناء على اقتراحات المؤتمر ، وكسرت رفضها الأول الذى اعتمد على تقارير درويش التى تؤكد أنه ليس في مصر من خطر يوجب التدخل ، هذا في الوقت الذى كان السلطان يخشى فيه من أنه لو تدخل يثير الشعور الاسلامي خاصة في تركيا نفسها حيث كان العلماء يؤيدون عرابي ويعتبرونه مدافعا عن الاسلام كما أن شيخ الاسلام بالأستانة أعلن عدة مرات « أن سوق عساكر من قبل الدولة ضد المسلمين أمر لا تجيزه الشريعة » (*) ، لكن أمام مصلحة الدولة كان لابد من وضع هذه الاعتبارات جانبا ٠

وتزعمت انجلترا المؤتمر وأهاب دوفرين مندوبها بالدول أن تأخذ الثورة المصرية بالشدة حتى لا يستفحل نفوذها فلا يعود بعد ذلك من السهل استئصال شأفتها ، وكانت انجلترا تعد نفسها لتتدخل بمفردها وبينما المؤتمرون يتفاوضون من أجل ارسال قوات تركية لاقرار الأمن سعت انجلترا وقامت بعدوانها على الاسكندرية اذ كانت سيئة الظن في الدولة وفي اخلاص السلطان تجاهها ، كما أنها خشيت من أن تنظم قوات الدولة في النهاية عملية موحدة مع عرابي ، أو أن يستسلم عرابي لهذه القوة وبذلك تتمكن الدولة من الاستحواذ على الدور الذى تتوق الى لعبه فتبسط سلطانها وسيادتها على مصر وهذا ينافي سياسة الدولتين منذ البداية اذ كانت الاتفاقات بينهما مضادة كلية للتداخل العثماني في مصر ٠

اعتقدت مصر أن المؤتمر سيحل المشكلة ويقر الحقوق بطريقة سلمية ولن يسمح لتدخل عسكرى منفرد لكن عندما انتشر الخبر بأن الدولة العثمانية سترسل قواتها ، رفع الثوار أصواتهم وأذيعت تهديداتهم بأنهم لن يسمحوا بأن تطأ قدم أى عسكرى أرض مصر ٠

(*) محافظ الأبحاث . نفس المصدر ، ١٠ أغسطس ١٨٨٢ ٠

وعندما استأثرت انجلترا بالعدوان وكان لابد من الحرب رأى الثوار مواصلة الاتصال بالسلطان ، فتوافدت عليه البرقيات منهم تلك التى غصت بالشكوى من تصرفات توفيق والقدح فيه وتواطؤه مع الانجليز وانضمامه الى جانبهم وتصور ضربهم الاسكندرية وسوء تصرفاتهم وخيانة درويش للقضية ، وتمضى فى محاولات لضم السلطان لصف الثورة بالتأكيد على الروابط وابلاغه بالدعوات التى يرددها الأهالى للسلطان(١) ٠

راود الأمل الثوار فى امكانية مساعدة السلطان لهم على أسس الزود عن الاسلام ، فراح عرابى يبلغه بما قررته الأمة فى مسألة الدفاع وينتهى بقوله : « ان الشعب بأجمعه واثق بأن العظمة الشاهانية تحسم مشاكله التى جلبها عليه توفيق باشا ، أما المدافعة عن البلاد وأهلها والحقوق السلطانية فهى من الوجوب علينا » (٢) وبذلك أراد عرابى أن يحول حربه فى مصر الى حرب اسلامية يحاول أن يشد أطراف الدولة لمشاركتها فيها بل ويبين أنها من أجل الدفاع عن حقوق السلطنة واعتبر أن الجيش المصرى هو جزء من الجيش العثمانى ٠

وعلى هذا الأساس انتقلت التخطيطات الحربية الى السلطان وكان من يقوم بذلك أحد الثوريين « على بك راغب قبودان » وهو من الخلية الأولى للثورة منذ حرب الحبشة ، وقد أقر أنه توجه نحو ست أو سبع مرات للاستانة لتوصيل أوراق عرابى والبارودى وسليمان داوود ، وكانت لقاءاته مع الصدر الأعظم الذى كان دائما يسأله عن « أفكار الأهالى » وقد أخبر البارودى القبودان عن أسلحة مصر ليبلغها للآستانة « انه موجود ألف وخمسمائة مدفع أرمسترون وخمسمائة مدفع كروب ومائتين وخمسين ألف بندقية ريمنتون وجبخانة تكفى لعشر سنوات » (٣) ، وقد كان ذلك من الأخطاء التى ارتكبها القواد حيث تسرب كثير من الأسرار الحربية التى عرفها الانجليز ٠

وتمت السيطرة على طريق الشام وأصبحت الاتصالات فى أيدى رجال الثورة فكانوا يضبطون المراسلات التى تصدر عن توفيق الى باشكاتب السلطان ويمنعون وصولها ، وأمام ذلك سعى الانجليز لقطع هذه الاتصالات ، وقد أوكل الى « بالمر » بهذه المهمة ، ونجحت انجلترا فى مسعاها بقطع جميع الخطوط التلغرافية الموصلة للآستانة ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت الاتصالات ، ففى برقية شفرة من محافظ وقومند ان فرقة

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، نفس المصدر ، دوسيه ٥٣/د/٦ ٠

(٢) نفس المصدر ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ٢٤٦ ٠

دمياط الى عرابى تفيد بأنه وجد « من يعول عليه توصيل البوستة والتلغرافات الى يافا ومنها للآستانة ، وانه شخص مؤتمن وأن ينزل بمراكب التجار بصفة بحرى » (١) ووافق على ذلك المجلس العرفى وداوم القادة على التحرير للآستانة ووصف اعتداءات الانجليز واختراقهم حيدة قناة السويس ومخالفتهم للعهود لكن لم يكن يصل الرد حيث قطعت الدولة اتصالاتها نهائيا ، اذ كانت تعد ردا قاضيا على الثورة ·

ومضت انجلترا فى اجراءات الضغط على السلطان حتى تحوله عن الثورة وتجعله يقف موقف المعارض فقد كانت تتوق الى قطع العلاقات بينهما اذ ساءها التأييد السلطانى بمنح عرابى الوسام المجيدى حتى ولو كان ظاهريا · هذا فى الوقت الذى سرت شهرة عرابى كبطل من أبطال المناضلين من أجل انتصار الاسلام على الصعيد العربى والاسلامى · فاتقدت الغيرة فى قلب السلطان من هذا الزعيم ، ورأى أن يؤيد هذه التأييدات من حوله ، فكتب الى العلماء فى مصر يطلب منهم أن يمنعوا المصريين من ارسال المؤن والمتطوعين الى عرابى ، ليأتيه الرد بأن المصريين لن يلقوا السلاح الا اذا انسحب الانجليز من الاسكندرية ، وأن القضية المصرية ليست متصلة بشخص عرابى بل بخلاص البلد (٢) ·

وهنا التقى الطرفان واجتمعا على ترجمة الحقد الى عمل من شأنه أن يقضى على عدوهما المشترك وذلك باعلان عصيان عرابى ، فانجلترا منذ فترة وهى تسعى لهذا العمل حيث انها تعلم جيدا عمق وتأصل الناحية الدينية لدى المصريين ، فباعلان مثل ذلك من أمير المؤمنين يكون له الأثر الكبير على الثورة فى مصر ، لكن السلطان لم يكن يظهر الموافقة التامة وتكرر الطلب ويشير السفير النمساوى بالآستانة الى مساعى دوفرين بشأن ذلك « ان الحكومة الانجليزية تعتقد أن لديها أسبابا تبرر ذلك ، فمنها أن جزءا كبيرا من الجيش المصرى سوف ينفض من حول عرابى باشا بعد صدور مثل هذا الأمر وسيؤدى ذلك حتما الى حل الجيش المصرى » ، ويشير الى أن السلطان بنفسه استقبل ترجمان السفارة الانجليزية الأول الذى كلف بتقديم هذا الطلب وتحدث معه بهذه المناسبة عن عرابى بتعبيرات مريرة جدا ناعتا اياه بالنفاق والخيانة وسوء الاسلام ، كما أعرب بأنه لا يستبعد أن يصدر مثل هذا الاعلان (٣) · وركزت انجلترا على ضرورة اصدار الاعلان بعد أن أدركت أهميته ، وكانت تهدف أيضا من

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/ب ·

(٢) د· أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٨٧ ·

(٣) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ ، المجموعة ٢٦/٣١ ، ٢٥ يوليو ١٨٨٢ ·

وراء ذلك تدعيم موقنها فى الهند وعدم اثارتها خاصة وأن نشاط عرابى واعلانه الجهاد وصلت أصداؤه اليها فعندما يصبح عاصـــيا عن الخليفة يضمن لها البقاء دون قلاقل فى مستعمراتها الاسلامية .

وأخيرا صدر المرسوم الامبراطورى باعلان عصيان عرابى ومما جاء فيه أن عرابى « ثار عــلى الترتيبات القانونيـة التى تتضمن الفـرمانات ، فأصاب اختصاصات الحكومة القائمة بالاضطراب وبلبلة الثقة فيها والنظام العام مما أثار آخر الأمر التدخل العسكرى الأجنبى » ومضى يبرر تصرفات انجلترا ازاء ضرب الاسـكندرية وأن عـرابى المتسبب فى سـفك الدماء وازهاق الأرواح ولم يسمع لنصائح درويش بالسفر الى الآستانة « وهو وأعوانه قد استمرءوا هذا المســلك الذى اتخذوه باصرارهم على الظهـور بمظهر المطالبين باعطاء البلاد دستورا شرعيا فى الوقت الذى يخفون فيـــه نواياهم الخبيثة » ويمضى الاعلان على اقامة الحجج والبراهين عـلى تعـدد الأخطاء حتى وصل الى النتيجة المرجوة « فقد أعلن عصيانه ونتج عن هذه الحالة وهذا السلوك أن يجرى بطبيعة الحال بما يتناسب مع عمله ويعامل كثائر وعاصى ويترتب على ذلك الاعتراف بشخص الخديـو العـالى الذى يتمتع بثقه الحكومة الشاهانية (*) » .

وهكذا نجح تأثير وضغط انجلترا لذ لمس أعمـاق الحقـد الداخـلى للدولة التى تلونت مواقفها وأهواؤها وأغراضها ، فهى مرة مع الرجعية متمثلة فى الخديو ومن يسانده وأخرى مع الثورة لكنها تصحو لتغير من موقفها الذى لايتمشى مع الثورات والقوميات ، تجرى وراء مصالحها حتى ولو كان الذهب لتعصف بكل القيم والمبادىء .

ونشر العصيان فى الصحيفة الرسمية للدولة ارضاء لانجلترا التى ابتاعت من هذا العدد مليون نسخة ، وأرسل الى الهند والأفغان والحجاز والعراق والمغرب الأقصى ، ووزع منه على ضباط الجيش المصرى فى جميع المراكز بواسطة سلطان باشا .

ولنا أن نتســاءل لماذا اختص عرابى بالعصيان دون غيره مع وجود العديد من الثوار ؟ لقد كان عرابى الأمة بأسرها ، ذلك الشخص الذى كان الشغل الشاغل للدوائر السياسية الدولية ، وله من التأثير على قوى مصر جميعها ، فاذا كسر تأثرت الثـورة بسقوط زعيمها ، وكان العصـــيان هو الورقة الرابحة التى كسبت بها انجلترا دورها ، ويعتبر من أهم الضربات التى وجهت لقوى الثورة .

(*) الأرشيف التصاوى ، محفظة ١٧ ، مجموعة ٢٧/٣١ ، ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ .

الباب الثالث

أدوار القوى الاجتماعية والتلاحم الثورى حتى النهاية

الفصـــل التاسـع : الفلاحون .

الفصـــل العـاشر : التجار والحرفيون .

الفصل الحادى عشر : الجناح المدنى من المثقفين .

الفصل الثانى عشر : ملاك الاراضى .

الفصل التاسع

الفلاحون

نمو الوعي :

كان اشتراك الفلاحين في الثورة العرابية ضرورة ملحة أوجدتها الظروف الصعبة التى عاشوا فيها طوال العصر الحديث ، فثورتهم كانت ثورة اجتماعية سياسية ، فبالنسبة للأولى نجد انها استهدفت تحقيق تغيير جذرى فى الحياة بهدف ايجاد عدالة اجتماعية حرموا منها، اما الثانية فقد كان الفلاحون منذ هذا الوقت المبكر على فهم وادراك ووعى بأنه من الضرورى أن تتغير الهيئة الحاكمة التى تمثلت لهم فى الظلم والطغيان والسيطرة التركية والتحكم الاجنبى ، لكن ثورتهم الاجتماعية كانت أشد قوة وأعمق أثرا ، حيث انها لم تنشب بمجرد مشيئة فرد معين أو بناء على ارادته ، لكنها استلزمت لقيامها ظروفا موضوعية ، تلك التى تحدثت عنها من ضرائب وسخرة وظلم وتعد واغتصاب وتحكم أجانب والتى كانت تزداد يوما بعد يوم حتى أن الفلاح اصبح لا يمتلك سوى قوت يومه وأحيانا لا يجده فكان بديهيا أنه عند قيام أية ثورة أن ينضم اليها بسهولة .

وبدات اليقظة الثورية لدى الفلاحين ، فكانت حقيقة واقعة عاشوها ، جعلتهم مدركين لكل التحركات السياسية التى بدات مع الثورة فى قصر النيل على أيدى العسكريين من أبنائهم فكان لها بطبيعة الحال رد فعل قوى انطبع عليهم ، هذا فى الوقت الذى تلاحمت فيه القوى المنشطة لاستعجال ثورة الفلاحين واطلاق شعورهم الجياش . فقد كان من الضرورى وجود من يفتح أذهانهم ويوضح لهم معالم طريق الثورة على الأوضاع القائمة ، وهذا كان دور المثقفين من طلبة الأزهر، وما هم الا ابناء فلاحين ، فكانوا عند زيارتهم اقراهم يقيمون ندواتهم

التى يتحدثون فيهـا الى أهلهم وذويهم ويبينون تاريخهم الطـويل الذى امتلأ بالظلم على ايدى أجانب عن ارض مصر سواء اكانوا الحاكمين من الاتراك وما يتبعهم أو المتحكمين من الأوربيين ، وانه لابد من كسر هـذا الوضع والتحرر ، ووضع النهاية التى ستكون على أيديهم ، وأن مخلصهم هو فلاح منهم .. انه عرابى (١) ، هؤلاء الأبناء الذين تشربوا تعـاليم الأفغانى فحركت مشاعرهم فقاموا بتبسيطها للفلاحين ليفتحوا اذهانهم ولينيروا عقولهم ، كما أن محاولات الافغـانى لاثارتهم منـذ البـداية « انت أيها الفـلاح المسكين تشق الأرض لتستنبت ما يسد الرمق ويقود بأود العيال .. لماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك ؟ (٢) » كان لها أثرها فى الريف لكنها لم تنفـذ اليـه بعمق .

وجاء دور المعلم الذى أمكنه التوغل فى داخل الفلاحين ومعايشتهم عن طريق صحافته الشعبية التى الهبت الحماس ، اذ انه دفع التيقظ لكل فئة بطريقتها ، وأوصل أفكار الحرية والمســاواة الى الأعماق وعلم النقد اللاذع المبنى على السخرية ، وهذا يتفق وطبيعة الشعب المصرى الذى لا يترك مجالا الا واظهر فيه الفكاهة حتى ولو كان فى احلك فتراته ليخفف عما به من مصائب ، كان ذلك المعلم يعقوب بن صنوع ، وبالرغم من انه وقت الثـورة كان خارج مصر الا أن كتـاباته وصـحفه كانت تتداول داخلها وتتواجد بين الفلاحين فيقرؤها عليهم من يعرف القراءة ، فهى مكتوبة بلهجتهم وأفكارهم ، وموضـوعاتها تتفق واياهم ، فتأثروا بها الى أقصى درجة بدليل هذا التداول الرائج ، وهـذا الترديد لحوادثهـا وقفشاتها ، فكانت محـاورات على الســنة فلاحى قرى مصر كلهـا ، وبالرغم من الحصار القاسى والرقابة الشديدة التى كانت مفروضــة عليها الا أنها كانت تصل الى أعماق الريف .

وتناولت يده تصوير الفلاح شامخ الأنف بينما الحاكم راكعا ، فقد احب شخصية الفلاح اذ اعتبرها الممثلة للمصرى الأصيل ، وأراد أن ينير له الطريق وأن يوقظه من غفلته فى تلك الفترة التى تفشـت فيها المظالم الواقعة عليه ، وهو يحاول ان يدفع « ابو الغلب وابو شادوف » كمـا كان يطلق عليه الى الثورة والانتقام ودائما يبصره بحقوقه وأمواله المسلوبة فى كتاباته .

واعطانا يعقوب بن صنوع التحركات الأولى للفلاحين عقب قصر

---

(١) Wallace : op. cit., p. 290.

(٢) السيد رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ص ٤٦ ، ٤٧ .

النيل « ده أهل مصر اليوم قامت وقعدت والواد ووزيره ومحاسبيهم انصابوا بعيد عنك بالفالج اعوذ بالله وسبب دا كله قيامة الفلاحين في بلد بالقرب من طنطا ، اصل لما بلغهم ثورة الضباط ورفت ناظر الجهادية دخلت قلوبهم الجسـارة والحمية ، وفاقوا من غفلتهم وقاموا بالنبابيت على أحمد بك والمدير الظالم ماخلوا لأوراهم ولأقدامهم ، آه ياخسـارة ان مجاش الهوا سوا لأن أبو ريضه حالا بعت لحبيبه المدير مقدار الف عسكرى وطلعوا من عيونهم العلقة وابو ريضه نهار الساعة خامسة من بعد نصف الليل جميع محـررين ومديرين الجرائد المحلية من أفرنج وأولاد عرب وقال لهم بأن من الآن وصـاعدا من تجاسر منهم وتـكلم عن الثورة الضابطان أو قيامة الفلاحين حالا ادارة المطبوعات تصـدر أمر بتعطيل جرناله ، فالتزموا المساكين يقولوا له سمعا وطاعا (*) » .

وفي حقيقة الأمر أننى لم أتحصل على مصـدر آخر يؤكد هـذه القيامة للفلاحين لكن لايستبعد ان يكون ذلك صحيحا لعدة أمور ، فهى لم تكن الحركة الانتفاضية الأولى اذ سبقتها حركة شبيهة في عام ١٨٨٠ عبرت عن السخط ، فما بال بعد قصر النيل التى أعطت الدفعة لجميع قوى مصر ، ثم من المعروف أن جميع أخبار مصر كانت تصـل للثائرين المصريين في فرنسـا سـواء كان يعقوب بن صـنوع أو أديب اسـحق فاسـتخدموها في صـحافتهم ، وأخيرا فانه لشـيوع صـحف الأول وتداولها بين الفلاحين ، كان يمكن لهـذا الخبـر ان يثيرهم ويزيد من حميتهم ويدفعهم لاتباع أسلوب العسكريين ، أذ انه كان قائد طليعتهم فبلور أفكارهم وعلمهم السياسة بطريقته ، وعبر عن سخطهم أصدق تعبير .

وجاء النديم ليحمل مشعل الثورة على المفاسـد التى عانى منها الفلاحون ، فجعل سبيله للتحدث معهم بذلك الأسلوب القريب اليهم ، اذ كانوا الدعامة الأساسية والقاعدة الشعبية التى لابد لـكل قائد أن يعتمد عليها لتحقيق اهدافه الثورية ، وظهر ذلك في كتاباته لهم والتى بدأها في التنكيت والتبكيت لايقاظهـم مما هم فيـه وتنبيههم الى الأخطـار المحيطة بهم ، وقد اعتمد كسابقه على النكته المثيرة التى تؤثر في المصريين ولكن بصورة تختلف عن الأسلوب الساخر ، فالنديم يرثى حالهم ليعبئهم على ضرورة التغيير « فالفلاح الصادق في هذا البلد هو من تراه قليل الهدوء كثير الكلام ، رث الحال ، مفتوح الصدر ، دانى القدر ، حافى الأقدام ، كثير الأوهام ، عارى الساق » ، ويمضى في الدعوة للنهوض به بعد أن

(*) الحاوى ، العدد ٣ في ١١ مارس ١٨٨١ ، «الواد هو توفيق وأبو ريضه هو رياض»

عدد المظالم التي وقعت والبؤس الذى يعيش فيه ، وهاجم الأجانب ورباهم الفاحش وبين أن الفلاح كان يقترض بالربا من أجل أن يدفع لمحام أجنبى ليترافع عنه أمام المحكمة المختلطة التى تناصر خصمه وهو أجنبى ، ونراه يوجه النداء لايقاظ الفلاح ويحث الأغنياء والمتعلمين على الأخذ بيده وفتح الأبواب أمامه وتقديم المساعدات له « فاقرأ عليه أخبار أمريكا بلسان يفهمه ، وحوادث فرنسا بعبارة يعقلها ، وصور له التقدم فى صور لا تبعد عن ادراكه وفهمه مقدار النعمة وموجبات الثروة ووسائط القوة وثمرة العمار ، وأن الجهادى عليه مدار حفظ الوطن والنفس والجنس ليكون اول ساع فى الانتظام فى الجندية الذى علم بالثمرة المترتبة عليه بعد أن كان منه نفورا ، فانك ان فعلت هذا انبعثت فى الفلاح روح جديدة فى طلب التقدم ، وجاهد فى احسان زراعته ونمو حاله ، وظهر فى الوجود انسانا يحفظ له تاريخ كباقى العقلاء » . وواضح أنه لم يكتف بالحث على النهضة بالفلاح فقط بل بالحاقه فى سلك العسكرية بعد أن أصبح لها كيانها المرموق بعد قصر النيل ، كذلك وجهه الى الاقلاع عن التعامل مع الأجانب الذين افسدوا البلاد بالحانات التى انتشرت فى الريف ، وراح يثير الفلاحين ويحمسهم ضد سادتهم الأتراك الذين الصقوا بهم تهمة أنهم فلاحون « فبعد أن يعد الفلاح أرض الباشا التركى ويستحمل العذاب والهوان لخدمتها واحيائها ، وعندما يلجأ هذا المسكين لصاحبها لا طالبا مجدا ولا مستجديا قوتا بل ليخبرهم باصلاحها ونجاح الغرس ، فأنفوا من دخوله عليهم ، وغضبوا من وجوده فى مجلسهم ، وقالوا : من أنت ؟ ومن أدخلك علينا ؟ ومن جرأك على بيوت العظماء ومجالس الأمراء ؟ امش اطلع بره فلاح ، فأصبح الفلاح كلما حول نظره وجد غريبا ، وكلما سرى صدمه أجنبى » ، كما كان يوحه الفلاحون للتمرد على السخرة (١) . ونجحت رسالة النديم فى التنكيت والتبكيت وتابع اثارة الفلاحين فى الطائف التى رفعت من الروح المعنوية لشعب مصر اذ غدت البلسم الذى أراحهم لدرجة أنه عند تأخرها على بعض المناطق البعيدة كانت ترسل الخطابات لأجل استعجالها .

وسارت « المفيد » وهى صحفية ثورية على نفس الأسلوب فحركت الفلاحين « ان الفلاح لهو السيد فى صورة العبد ورب الدار فى موقف الخادم (٢)» ، وهاجمت الربا وتذلل الفلاح للسماسرة والمرابيين وضرورة الوقوف امام هذه السلطات الدخيلة .

---

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ٦ فى ١٢ يوليو ، عدد ٨ فى ٣١ يوليو ، عدد ١٠ فى ١٥ اغسطس ، عدد ١١ فى ٢١ اغسطس ، عدد ١٣ فى ١١ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) المفيد . عدد ٢٧ فى ٢٣ يناير ١٨٨٢ .

وكانت للوقائع المصرية على يد محمد عبده جهود من أجل ذلك ، فنزلت مقالاته عن الظلم والاستبداد وتصوير بؤس الفلاحين وآلامهم فى الضرائب والسخرة والكرباج والفقر والسجن « الفلاحون أهالى بلادنا محملين من الأثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب متنوعة على الاراضى فتكثر وتتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، وجرائم تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام لا تنتهى الى غاية ولا تقف عند حد ، بلغت بهم نهاية لايستطيعون معها الاداء لشيء مما فرض عليهم (١) » ، وكان لصحافة الثورة ونظرتها للفلاحين من ناحية وتقبل الفلاحين لما تعرضه من ناحية أخرى الأثر الكبير فى تفتح أذهانهم واحساسهم بأن هناك من يهتم بهم ويسأل عنهم ويبحث أوضاعهم ويتكلم بلسانهم ، ومن هنا أرادوا تطبيق مبادئها وتوجيهاتها .

وكان لنزول الطليعة المثقفة الى العمل الميدانى الأثر الكبير على الفلاحين ، فقد طاف النديم بالبلاد وارتقى منابر المساجد وجلس مع الفلاحين فى مجتمعاتهم يشعل نار الثورة فى قلوبهم ويحرضهم للذب عن حقوقهم ، حدثهم فى دمياط والرحمانية ودسوق وزفتى والمنصورة وميت غمر عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء والحكام الذين يعيشون فى ثياب العز ويتمتعون بأسباب المدنية وينعمون بالمراقص والغانيات وينفقون الأموال ذات اليمين وذات الشمال وماهى فى الحقيقة الا اموالهم ، وانهم أساس النعمة وأسبابها يجمعونها بعرقهم ودمائهم من فلاحة الأرض وتربية الماشية ليأخذها الأغنياء ويبعثروها على ملاذهم ومتعهم (٢) ، وكان قادة الثورة قد أوكلوا هذه المهمة للنديم .

وأصبحت الخطب التى تخطب فى جميع مساجد مصر اسبوعيا تتناول الاصلاح السياسى والاجتماعى والاخطار المحدقة بالأمة ، حتى لقد طلب النديم من ديوان الاوقاف أن يسمح بالقاء هذه الخطب وان تطبع وتنشر فى انحاء البلاد ، ليصل صداها الى كل قرية وبلدة وتتضمن المحافظة على حقوق البلاد والنهى عن الظلم والبغى والدعوة الى الائتلاف لمواجهة الأخطار والاتحاد مع المواطنين من غير نظر الى اختلاف فى الدين والتذكير بمجد مصر السابق والتحذير من تمكين الاجنبى من وضع يده على سياسة البلاد (٣) .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر ١٨٨٠ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٠ فى ١٥ اغسطس ١٨٨١ .

(٣) د. على الحديدى : عبد الله النديم خطيب الوطنية ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، ص ١٢٦ .

وكان الفلاحون يتسمون بذلك الطابع القوى من الايمان العميق ، وهنا كان العامل الدينى واضحا فى الثورة ، فالاسلام دين ثورة على الأوضاع الفاسدة القديمة ، وهو يرفض الظلم والعدوان واللاأخلاقيات ، ثم هو يدعو لمحاسبة الحاكم اذا ظلم رعيته وعزله اذا استمر فى الظلم ، وهذا ما سيجعل للثورة ذلك الاطار الدينى ، وبالرغم من كراهية الفلاحين للأتراك لكنهم يقبلون حكم السلطان كخليفة للمسلمين حيث ان للاسلام قدره لديهم ، لكن ليس معنى هذا أنهم متعصبون له ويكرهون المسيحيين كما اتهمهم معظم الكتاب الأوربيون .

أساء الحاكم وحكومته الى الفلاحين اذ اعتبروهم جهلاء لا يساوون اى قدر فى الحياة ، انما هم الآلة التى تعمل من اجلهم والبنك الذى يسدد لهم ديونهم . وفى نظر الاجانب كانت عملية غريبة ان يشترك الفلاحون فى ثورة ، اذ اعتبروا أن الحركة الوطنية ما هى الا اسطورة ، وكل ما اعتقدوا فيه أن على وادى النيل فلاحين يعيشون تحت السياط ، هؤلاء الفلاحون الذين عاشوا أحلك الظروف وخضعوا للعبودية التى كللت بالسيطرة الأوربية على يد المراقبة الثنائية فأصبح « عملهم للولاة وأموالهم للأوروبيين » ، وكتبت جريدة « لانوفيل رفيو » « كان الأليق بشرف المستر جلادستون أن يعترف بأن تعدى المراقبين المالى والادارى أوصل الفلاح الى درجة من التميز ، وان التعليمات الاوروبية كونت من الجموع المصرية شعبا صار أمة (١) » ، لذا كانت صيحة مصر للمصريين لها أصداؤها الواسعة بين الفلاحين الذين دمروا تحت اسوأ الظروف .

وراح مراسل « البول ميل جازيت » يسجل ادراك الفلاحين الذى خلفته العناصر الغريبة عنه والمستغلة له اذ يقول « من المؤكد ان الفلاح لا يعرف كثيرا عن المسائل السياسية ولكن خبرته بتدخل الاتراك والاوروبيين فى شئونه تجعله ينظر الى هذا التدخل بعين الشك . فالأتراك يلجأون الى الكرباج ليبتزوا منه كل ما يمكن من القروش التى يملكها ، كذلك يلجأ المرابون اليونانيون والايطاليون الى المحاكم المختلطة ليفعلوا نفس الشيء ، فهل من العجيب اذن أن يعضد شيخ قريته وعن طريقه الحزب الوطنى (٢) » ، وكان ذلك اعترافا من صحيفة أجنبية بأن الفلاح أصبح ملما بالشئون السياسية .

وتثبت الأفكار التحررية فى أعماق الفلاحين وأصبحوا على درجة

---

(١) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ١٨١ .

(٢) د. احمد عبد الرحيم مصطفى : الثورة العرابية ، القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٦١ ، ص ٥٩ .

كبيرة من الوعى افهمتهم جميع الأحداث الجارية التى راحوا يتابعونها باهتمام وحماسة ، كما أن ما تم على أيدى العسكريين منذ البداية اعطاهم الأمل الكبير فى الجيش ورجاله وايقنوا ان هناك قوة من طينتهم يمكنهم الوقوف خلفها .

وجاء دور الزعيم ليكون القوة الصلبة الدافعة الفلاحين ، وتتجسد الثورة فى شخصه ويتحول الى بطل أسطورى بل ولى من أولياء الله الصالحين ، فهو سيقودهم الى الخير وسيكون حكمه يفيض بالعدالة ، سيقضى على الخراب والدمار ليبنى مجتمعا جديدا فى ظل المساواه التى تؤكد حقوقهم ، لا سيادة الغرباء ، سيطيح بعلاقات الانتاج القديمة ومصالح الطبقات الرجعية ليضعهم فوق كل اعتبار ، كان القائد فلاحا من هؤلاء الفلاحين ، احس بأهله وناسه ، فكان من الطبيعى أن تنصب دعوته لهم الى تخليصهم من المظالم والقسوة التى يعيشونها ، ولم يعد القائد فقط بل هو الحق بعينه وبه أمكن لهم ان يتكلموا ويجهروا بل ويثوروا من أجل حقوقهم المسلوبة بعد أن كانت السياسة محرمة عليهم .

اذن يرجع الفضل فى هذه النهضة لتلك الشخصية التى جاءت لتثأر من تلك الاحداث التى تراكمت على مصر ، ويجب ان نذكر أنه فى تاريخ مصر كله ، لم يبرز فلاح بسيط يصبح ذا مكانة سياسية يقود شعبه الى الاصلاح ، فقد اكتسب ثقة الفلاحين وراح يعمل من أجلهم ، واصبح اسم عرابى يتردد على الالسنة كرجل استطاع ان يتحدى الحكومة الأوتوقراطية وينجح ويرغمها على تغيير الوزراء وتسمع له وتنفذ ، وكتب محرر التيمز وليم جريجورى يقول : « ان هذا الانقلاب الذى يعبر عنه باسم المحبة والاعتبار فى كل بلدة بها الظلم والاعتساف هو بواسطة الكولونيل أحمد بك عرابى ، وهو أحد الرجال المشهورين الذين يظهرون فى الأزمات أنصار الحق ضد القوة والضعيف ضد الأقوى والمظلوم ضد الظالم ، وقد كان ظهوره فى وقت اشتد فيه انعقاد الظلم فى عين الفلاح المصرى اذ كانت حالته أقرب الى حضيض الفقر بسبب مطامع حضرة اسماعيل باشا الخديو السابق (*) ، وقد أخطأ جريجورى فى وصف الثورة بانها انقلاب فى بدايتها لانها منذ البداية كانت ثورة لاستجابة قوى الشعب ولها الجذور العميقة فى وعى الامة وفى احاسيس الطبقات الاجتماعية وأنه لا يمكن أن يكون هناك استجابة بين الشعب والقائمين على أمر الانقلاب حيث ان الثورة تذوب فيها المصالح الذاتية وتبرز

(*) المفيد ، عدد ٢٢ فى ٩ يناير ١٨٨٢ .

المصلحة الجماعية العامة فوق كل اعتبار ، لكن المحرر كان صـــادقا فى تقييم عرابى بالنسبة للفلاحين .

وبذلك نرى ان اصلة الدم فوه كبيرة ربطت بين الطرفين وجعلت عرابى صورة صـادقة للفـلاح أحس بكل مايموجون به ومن هنا خرج برنامجه لاصلاح حالهم ، بالغاء الكرباج وتخفيف الضرائب وانهاء الدين وهو الدودة التىتنخر فيهم وتقضى عليهم كالسم القاتل ووعدهم بالعدالة والمساواة « ولم تمض بضـعة شـهور الا وقـد ماجت البـلاد بتلك الأفكار (١) » ، وأصـــبحوا مؤمنين بضرورة أن تكون مصر للمصرين فلا سيطرة تركية ولا تدخل أجنبى وتلك العقيدة لازمتهم طوال الفترة ، ونجح عرابى فى تثبيتها بداخلهم وبذلك كانت ثورة قومية صحيحة .

وأصبح عـرابى الزعيم الأوحد بالنسبة لهم وكانوا يطلقون عليـه « الباشا بتاعنا » فهم الذين يملكونه ، هـــذا فى الوقت الذى ذاعت فيــه شهرة عرابى على ارض مصر كلها ودوت تصريحاته لتحرير الفلاحين ، وبذلك سيطر الحب على الاحساسات منذ البداية وطوال الثورة «فكانت اذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى او احمد عرابى لا ســيما أهــل القرى ، واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال (٢) » ، وصـــدق بلنت حينما أكد أن « الحركة الوطنية لعـــام ١٨٨١ هى حركة فلاحية غرضها تحرير الفلاحين (٣) » من كابوس الهيئة الحاكمة التركية ومن اخطبوط الاجانب المتشعب والمسيطر على الحياة المصرية .

الترجمة العملية للوعى :

بناء على الاحساس ببداية تلك الحياة الجديدة ، ولم يكن قد مر عشرة ايام على قصر النيل حتى بدات الأفـواه تتكلم وتشـكو وتطلب العدالة ، وجرت عملية واسعة من الجهر والمطالبة بالحقوق التى سلبت قبل الثورة بعد ان اصـبح عرابى فى نظرهم كل شىء فغمرته شــكاوى المظلومين ولم تكن تنهال عليه وحده بل اتسعت الدائرة الى المسئولين جميعهم .

فقد حضر للقـاهرة وفد من فلاحى ناحيـة « رأس الخليـج غربيـة بشـبين » للشكوى من أن زمام الأطيان ببلدهم ٢٤٠٠ فدان منها ٩٣٠ تبع القومسيون ، ١٤٧٠ مكلفة ، وان الانفار الشغالة الموجودة بالناحية

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٨٩ .

(٢) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .

(٣) Blunt : op. cit., p. 144.

سبق تقسيمها نصفين من مدة استيلاء الاطيان للعهدة » ولما طلب بدلية الأنفار من النواحى التابعة للقومسيون صار ادخالنا وأنفارنا البدلية بدون علمنا وعلى ذلك صار أخذنا بالقوة الجبرية تارة بأجرة وتارة بدون لأشغال القومسيون ، وبانتهاء ١٨٨٠ صار حصول القومسيون على البدلية منا وأنفارنا بمقتضى سنوات ، وقد ترتب على ذلك اتلاف مزروعاتنا وعدم مقدرتنا على سداد ما هو مطلوب منا للتجار ويعقب ذلك امتلاكهم الاطيان تعلقنا وانحرامنا من المعاش ، وحيث اننا صرنا فى درجةالتأخير ولم نملك سداد ماهو مطلوب منا بأوقاته لداعى ظلمنا تركنا أشغالنا وحضرنا (١) » .

وهكذا فبالرغم من انهم دفعوا البدلية الا انهم طلبوا للسخرة لأراضي القومسيون وكان لذلك أثره على اراضيهم وحالتهم ، فجهروا بأصواتهم ضد اجراءات الدولة نفسها ، وهناك شكاوى أخرى تؤكد نفس المعنى من فلاحى ناحية « فوة بمديرية الغربية » يتظلمون فيها من تسلط خدمة القومسيون بالناحية عليهم « واخذهم وتشغيلهم فى زراعة اطيان القومسيون بالقوة الجبرية » ، كذلك فلاحو « كفر نصارة وكفر يوسف سلامة بمديرية الشرقية » يتضررون من الزامهم بطلوع أنفار للعملية ويلتمسون قبول البدلية (٢) .

وكاحساس الفلاحين بأن الوضع قد تغير ازدادت شكواهم وعرض ما تعرضوا له لايقانهم أن هناك من سيسمع لهم ريحل لهم مشاكلهم ، ففلاحون من مديرية « المنيا وبنى مزار » يتظلمون بأن « يوسف افندى عبد الشهيد » استولى على زمام بلدهم البالغ مقداره ٥٠٠ فدان بالقوة الجبرية « وصرنا قاطنين بالبلد حيط من غير غيط ، وتكررت شكوانا فما وجدنا انصافا(٣) » ، معنى هذا أن وقت الانصاف قد حان .

وتبع ذلك مسألة العمل فى الجفالك وسخط الفلاحين عليها والرغبة فى تركها ، فتقدم فلاحو ناحية « الشرابية » وناحية « العلوانية » بقسم قلوصنا بمديرية المنيا وبنى مزار يشكون من « أنه فى العام الماضى كنا مشاركين الجفالك السنية بتفتيش معصرة سمالوط فى القصب والآن صار كسره وتوريده بفاوريقة المنيا واحالة أشغالنا ومطالبنا على التفتيش ، وما هو حاصل للاهالى من التعب الذى لا يطاق من خدمة التفتيش ومن زراعة القصب ، وصار تشتيت اغلب أهالى نواحينا ، وما هو باق من الأنفار ليس لهم اقتدار على خدمة التفتيش مما أصابهم

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ١٠ فبراير ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، ١٩ مارس ١٨٨١ ، ١٣ يونيو ١٨٨١

(٣) نفس المصدر .

منه وصار اضمحلال حالهم (١) » ، ويطلبون الانسحاب من التفتيش، ولم يكونوا ليجرؤوا قبل ذلك على هذا الطلب .

وتتوافد على الداخلية الصفحات والصفحات التى تنطق بسخط الفلاحين على العمد واتهامهم بأنهم موجود لديهم انفار حمايات ويعفون من السخرة من يرون بحجة انهم أرباب صنائع وغفرة وطاعنين فى السن، وبيان أن هناك اتفاق بينهم وبين مأمورى المالية ، ويطلبون الخروج من حصتهم (٢) ، وتمضى التماسات طلب العدل من الفلاحين ممن أخذت اراضيهم وسلبت أموالهم وخربت بيوتهم على ايدى الحكومة واجهزتها .

والمسجونون بسبب ما عليهم من أموال الميرى وغبنهم فى ذلك رفعوا اصواتهم ، فأحدهم يتظلم بأنه كان قد ورد ١٤٠ أقة باذنجان قوطه ، ١٧٠ عدد بيت فجل بلدى وروى ، ١٥ عدد بيت ملوخية الى مطبخ « السراى ولم يخصم حقهم مما يستحق عليه من ايجار أطيان ، وعندما طالب بذلك سجن ويطلب انصافه (٣) » .

وقد اتضح انه امام هذه الأصوات تحركت الحكومة وارسلت محققين من الداخلية للتحقيق فى أمور تلك الشكاوى ، ولم يكن ذلك ليتم قبل قصر النيل .

وقد اهتم البارودى بأمر عساكره الفلاحين ، فنراه يرسل على الفور للداخلية بأن أو نباشى بآلاى ناحية « مسطية » بمديرية الغربية اثناء وجوده ببلده باجازته اراد عمدة الناحية تشغيله بأطيانه سخرة ، وحينما رفض « فالعمدة واخوانه أجروا رميه بالأرض وصاروا يضربونه بالكرابيج والمداس الى أن أشرف على الموت ، وحضر مخدومه واراد تخليصه فما كانوا الا وصاروا يضربونه ووضعوهما بالخشب والحديد وسجنوهما بمنزل العمدة أربعة ايام » ويطلب البارودى التحقيق الفورى (٤) ، وكان هذا من الدلائل على نصرة الفلاح فى عهد الثورة .

وكان للكراهية والحقد الذى صبه الفلاحون على الأجانب دوره فى هذا المجال اذ سلبوهم كل شىء ، فمن « ميت الشيوخ » دقهلية يلتمس ١٤ فلاحا عدم خرابهم من الخواجه وسيلى وكيل قنصلية فرنسا

---

(١) نفس المصدر ، ٢٤ مارس ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٣٨ ، أول اغسطس ١٨٨١ .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٣٧ ، ١٨ يونيو ١٨٨١ .

(٤) نفس لمصدر ، ٢٣ يونيو ١٨٨١ .

بدمياط ، « حيث أنهم يمتلكون ٤٩ فدانا سابق تسويتها عليهم بموجب تنازل من اصحابها الاصليين وذلك نظير سداد الديون التى كانت مطلوبه منهم للحكومة ، ومضى على ذلك ١٤ سنة انفقوا فيها من اجل اصلاح الأرض وتداينوا عليها من التجار ودفعوا عنها المقابلة وكافة المطالب الميريه ، فاتفق أصحابها الاصليين مع الخواجه المذكور وباعوا منها ٢٥ فدانا باسم والدته الست كاترين ، الذى قدم دعوى بمجلس المنصورة المختلط فحكم بأحقيتهم فى تلك الاطيان ، فحضر الخواجة مع مأمور المركز وأراد نزع الأطيان بالقوة الجبرية ولما توقفوا عن التسليم ارسلوا للمديريه وصار وضع البعض منهم بالسجن والحديد (١) » . ومن ذلك نلاحظ أنه حتى لو تصادف وحكمت المختلطة فى صالح الأهالى لم يكن حكمها ينفذ بعد أن سيطر الأجانب على مصر .

واشتكى فلاحو « نزلة العدوة » بتعدى الخواجة حنا سوريال واخراجهم من الأراضى واذيتهم على يديه بالضرب والسجن « وذلك عندما اشترى ٤٠ فدانا بما فيها النزلة السكن المتداخلة ضمن زمام الأطيان بمشتملاتها من بناء ونخيل » وأظهر الفلاحون الطعن فى البيع وبأنه نوع من انواع الغش وراحوا يطالبون بحقهم ، ونرى شكوى لأحد الفلاحين من « سنحيد » بالدقهلية بأنه « أخذ مبلغ من الخواجه جريس اسطفانوس ورهن له أرضه بميعاد ست سنوات ، وقبل مضى الميعاد بسنتين احضر المبلغ بقصد تسليمه الى الخواجه الذى رفض ، وباتحاده مع وكيل المديرية صار سجنه ، واستطاع الخواجه أن يستخرج حجة من محكمة المنصورة بتملكه تلك الأطيان (٢) » .

وقد اثبتت تلك المعروضات الحالة التى وصلت اليها مصر من جبروت الأجانب الذى أزداد وطغى ، فقد طالب أهالى ناحية « شبرا بلوله » بمركز سبك منوفية بنشلهم من براثن الخواجات الذين تحايلوا عليهم بالاتفاق مع مشايخ البلد للاستيلاء على اراضيهم المزروعة قطنا ، فأقام الخواجات — دمترىبدريكو ودمترى كريازو وهم تجار بالقاهرة — وابورا على ترعة الباجورية لاجل سقيه القطن على أساس اسقاء كل سنة ٢٥٠ فدانا فى نظير مبلغ معين وعقد الشروط لمدة ثلاث سنوات ، لكنها لم تنفذ ، وكان السقى أقل ، ففى السنة الأولى كان ١٨٠ فدانا ، وتلاها ١٦٠ فدانا ، فازداد أمر الأراضى سوءا وقل انتاج المحصول ، ثم عطلوا الوابور كلية وطالبوا الفلاحين بـ ٣٠٠٠ جنيه ، وادخلوا الرعب

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٣٦ ، ٣١ مارس ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، أول ابريل ١٨٨١ ، ١٠ يونيو ١٨٨١ .

عليهم بأن الحكومة ستأخذ الأطيـــان جميعها « واننا بواســـطة تبعيتنا لحكومة مصر فلا لنـــا قدرة عـــلى رد تبعيات الدول الأوروبيـــة » ، وأعقب ذلك ان خفضـــوا المبلغ الى ٥٤٠ جنيها وكتبوا ســـندين بالمبلغ وجعلوه لخواجه آخـــر فاراد اغتصاب الأرض ، وحكمت المحكمة المختلطـــة بالمبلغ المحرر به السندين ، وسجن أصحابها لمدة تزيد على ثلاثة أشـــهر للجبر على اسقاط الأطيان بسعر ١٢ جنيها للفدان وهو يساوى زيادة عن ١٠٠ جنيه (١) ، ومضوا يطالبون بالانصـــاف وضرورة عودة أراضيهم وابعـــاد الأفاقين والسارقين والنصابين .

وكانت الخطوة التى تلت الجهر بالآلام ، هى التمرد التدريجى ، فرفض فلاحو كوم حمادة الخروج للعونة ، بل واعتدوا على مأمور المركز ورجاله الذين توجهوا اليهم ليجبروهم على الخروج فلم يطيعوا الا عندما استعان هؤلاء بقوة عسكرية (٢) .

وترك الفلاحون أشغال الجفالك رافضين هذا العمـــل القاسى ، فنرى وكيل دوائر الأمير محمود يشـــكو لوزير الداخلية « ان الأهـــالى يتركون أشغال الجفلك ، وهذا أمر موجب لعطل لم (جمع) المحصـــول الشتوى واتلاف زراعة الصيفى (٣) » .

وبذلك انتفض الفلاحون وملأهم الاحساس والرغبة فى المزيد من الانتصارات ، فقد كتب مونج قنصل فرنسا الى وزير خارجيته يقول « حتى الفلاح فقد تأثر بالفوضى التى عمت البـــلاد كلهـــا بتلك السرعة الفائقة ، فمنذ بضع سنوات كانت سلطة المدير فى القرى محترمة ، ولم يكن أحد يقوى على الوقوف أمامه ، أما اليوم فقد تغير الوضع اذ ان المدير لم تعد له أية صفة ولا سلطان على الفلاح (٤) » .

التاسع من سبتمبر وانطلاق الفلاحين :

كان التاســـع من سبتمبر بداية لمرحلة تبلور فيها الموقف بعد أن وضعت النقط على الحروف بانتصـــار الأمة وتحقيق المطـــالب الوطنية سواء باسقاط حكم رياض المعادى أو بوجود حكومة دستورية ومجلس نواب لتكون النتيجة وصول عرابى لقمة المجد ، ومما لاشك فيه أن ذلك قد اسعد الفلاحين للغاية ، اذ كان العداء يربط بينهم وبين رياض ،

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٣٨ ، ٢٧ اغسطس ١٨٨١ .
(٢) المحروسة ، عدد ٢٤٧ فى ١٩ مايو ١٨٨١ .
(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ٢٢ ابريل ١٨٨١ .
(٤) Affaires Etrangères, No. 18, 3 Juillet, 1881, p. 23.

أما مسألة مجلس النواب فيذكر شاهد عيان على أثره بقوله « كان للأحداث الجارية فى القاهرة والتى كانت خطوات الثورة تدفعها للأمام صداها فى القرى ، فهى تصل بسرعة ويتناقلها الفلاحون الذين أصبحوا يفهمون ويعون كل شيء ، حتى اجتماع مجلس النواب بناء على رغبة عرابى كان من الأحداث السياسية التى تناولت فى الكفور (١) » .

وكان على الثورة ان تبدأ برفع الغبن عن الفلاحين ، وبدات على الفور في العمل رغم قلة امكاناتها فيذكر النديم انه اثناء زيارة له لمأمور الضبطية علم منه أنه تم رفع الرمانات الخاصة بوزن القطن حيث كان اذا أراد القبانى سرقة الفلاح حل القلاوظ الخاص بها ووضع قطع من الرصاص فى الداخل حتى يغش الفلاح فى الوزن (٢) .

وبدأت قضايا الفلاحين تعرض على المسئولين فى قالب جديد بعد أن استندوا على نصرهم وأحسوا بوقوفه بجوارهم ، وتظهر فى شكاياتهم النقمة على تلك الفئات التى تمتلك الأراضي وليسوا أحق بها منهم ، فكان ذلك بعدا اجتماعيا وفكرا ثوريا يطالب بالمساواة ، ففى خطاب لأحد الأهالى من فلاحى الوجه القبلى يقول من بين سطوره « بخصوص سعادة الباشا زعلان منا ، ولكن هو ليس مخلدا ولا اشترى هذه المديرية لا هو ولا خلافه (٣) » .

وأصبح فى مفهوم الفلاحين ان القائمين على الثورة هم « الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، وضح ذلك فيما قدمه بعض من فلاحى ناحية « ايستو » مركز طلخا بمديرية الغربية بالتضرر من بدراوى عاشور عمدة « بهوت » والوكيل عن أطيان دائرة أنجى هانم حرم سعيد باشا ، حيث نزع منهم الأطيان المؤجرة من الدائرة ومقدارها ٢٣٠ فدانا وحجز محصولاتها لرغبته فى رفع الايجار (٤) .

وكان يمضى التحقيق فى الحال على يد الحكومة الجديدة ، فعندما جاءت شكوى من فلاحى « كفر سعيفان » بالشرقية من المصرف الذى فتحه عمر لطفى وأتلف مزروعاتهم « كونت لجنة تحقيق لانقاذ الأهالى (٥) » .

---

(١) Wallace : op. cit., p. 291.

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٧ فى ١٩ اكتوبر ١٨٨١ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٨ .

(٤) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٨ ، ١٩ سبتمبر ١٨٨١ .

(٥) نفس المصدر ، محفظة ٣٩ ، ٢٤ سبتمبر ١٨٨١ .

وباحساس أن الحقوق ستعود لأصحابها ، سيطرت رغبة الفلاحين في استعادة أراضيهم السابق فقدها بسبب الديون التى تراكمت عليها والتى بيعت بالمزاد لكي تحصل الحكومة على ما فرضته من أموال ، ففى مديرية الشرقية أخذ من أهالى « الفار » أطيانهم وكان أحدهم له ٣٥ فدانا مع طاحونة وبقرة ورسي مزادهم على آخر ، « فالآن يريد استردادها (١) » ، ويطالب ورثة أحد الفلاحين ناحية « الكوم الأحمر » لمديرية القليوبية بحقهم ورد أرضهم اليهم ومقدارها أربعة أفدنة حيث أن أحد الخواجات قد ضمها الى أطيانه عن طريق الحيلة واتفق مع المدير وتسلم الأرض ، وسجن أصحابها (٢) ، وحتى أولئك الذين كانت أخذت منهم أراضيهم الخصبة واعطوا بدلا منها أراضي قاحلة يريدون الآن استعادة أراضيهم الأولى (٣) .

واستمر التمرد على العمد وفضح تصرفاتهم « ارتشاهم ووضع أيديهم على أراضى العباد وتسخير الأهالى (٤) » ، ورفض الفلاحون اطاعة أوامر نظار الزراعة باستخدام مواشيهم بأشغال التفاتيش (٥) .

لقد ارتاح الفلاحون لبداية ذلك العهد الجديد ، فكل من عصفت به يد رياض عاد الى أرضه وأهله وناسه بقرارات شريف لعودة المعتقلين الى بيوتهم ، فعلى لسان هؤلاء الفلاحين كانت تصل طلباتهم بشأن ذلك ودائما ما كانت تحمل الأمل « التباشير بانقضاء عهد الظلم نطلب الافراج عن الأرقاء الذين تركوا ديارهم وتيتمت أطفالهم وأرملت حلائلهم وذهبوا الى الأقطار السودانية اجحافا وظلما دون تحقيق بل لمجرد محاضر اصطنعها مدير الشرقية السابق لمن يريد سلب نعمته » واهتمت الوزارة ، وبالسؤال والتحقيق تبين ان التختيم على هذه المحاضر ضد المبعدين كان جبرا ، وصدرت الأوامر بعودتهم « وتحرر تلغراف لمحافظة سواكن بارسال المذكورين (٦) » ، ان هذا لدليل واضح ولترجمة فورية ولسمة جديدة للحكومة الوطنية التى اختارها المصريون .

وحينما اثبتت التهم على المديرين الذين يعملون ضد الفلاحين وقاموا بأدوار دنيئة من أجل القضاء عليهم ، امتدت اليهم يد الثورة لتعصف بهم ، وخصوصا أولئك الذين كانت لهم صلات مع الأجانب

---

(١) نفس المصدر ، ١٠ اكتوبر ١٨٨١ .
(٢) نفس المصدر ، محفظة ٣٨ ، ١٢ نوفمبر ١٨٨١ .
(٣) نفس المصدر ، محفظة ٣٩ ، ٢٣ ديسمبر ١٨٨١ .
(٤) نفس المصدر ، محفظة ٣٨ ، ٢٤ اكتوبر ١٨٨١ .
(٥) نفس المصدر ، محفظة ٤٠ ، ١٥ نوفمبر ١٨٨١ .
(٦) نفس المصدر ، محفظة ٣٩ ، ٣ ديسمبر ١٨٨١ .

فقد تقدم فلاحو ناحية « اصطباری » بمركز سبك بمديرية المنوفيـة بما يفيد أن هنـاك اتحاد بين الأجانب وبين تلك الهيئة الادارية التركيـة والذى كان من نتيجته استحواز الاجانب على الأراضي وسجن الفلاحين اصحابها على أيدى المديرين ، فقد حصل الخواجة اسكندر أرقش وهو من تجار شبين الكوم ــ أعتقد أن تجارته كانت بالأقطان نظرا لتخصص تلك المنطقة فيها ــ على أراضيهم وأجبرهم على دفع ضرائبهـا ظلمـا وعدوانا ، ويطلبون من الحكومة اعادتها لهم (١) .

وعنـدما عين مديرون ثوريون جـدد وأقصى السـابقون ، وجـد الأجانب فيهم عجينة تختلف عن سـابقتها ، فهم يرفضون التعاون معهم على ظلم الفلاحين لدرجة أن بعضهم يرفض تنفيذ أحكام المختلطة ، فقد رفع الى الحقانية طلب مقـدم من محام موكل عن الخـواجة السـابق بالتشكى من مدير هذه الجهة فى « عدم اجابة القاضى المعين لبيع أطيان مديونية ابراهيم عمار ومحمد ابراهيم الشـيخ (٢) » ، ويعد ذلك أول تصرف من هـــذا النوع لانصاف مدير للفلاحين ورفض انصاف ما تقرره محاكم الأجانب .

واصبح هناك رای للفـلاحين يؤخـذ به ، ففى أحـد الـكفور « كفر براش » رفعوا أصواتهم يطالبون بالبرقيات وباجماع عام عن عدم رغبتهم فى عودة مشايخ الناحية التى تخصهم ويوضحون أسباب رفضهم « ارتكابهم الجنايات وسيرهم الغير حميده » ، وفى حينه يكتب مدير الشرقية للداخلية برغبـة أهالى الكفر فى تعيين أربعة مشايخ برضائهم وباختيارهم « حيث لهم الصفات الطيبة وضرورة ابعاد الأشقياء (٣) » .

كذلك استقبل مجلس نواب الثورة آلام الفلاحين ليعرضها على بساط البحث ، فانهالت الشـكاوى عليه عندما احسـوا بأن هنـاك سلطة تمثلهم ووكلاء لهم ، وأن بيدهم الحل والربط ففى تقرير قدم من « روســــــل » مدير الدومين الى المراقبين يطلب فيه « مراقبـــة مجلس النـواب الذى أعطى الفـلاحين آمالا فى أن يصلوا بالطفرة الى ما يقال عن حريتهم ، واشـــتكى من أن المـدير لا يحبس فى الحـال من يطلب حبسه لتوقفهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى يرسل بالتلغراف الى نائبه وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس (٤) » ، وكان ذلك هو البناء الجـديد لحرية الفـلاحين فى

---

(١) نفس المصدر ، ١٦ ديسمبر ١٨٨١ .
(٢) نفس المصدر ، محفظة ٤٠ ، ٢١ يناير ١٨٨٢ .
(٣) نفس المصدر ، محفظة ٣٩ ، ٣ يناير ١٨٨٢ .
(٤) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ١٧٣ .

حياتهم الجديدة ، وكانت مناقشات المجلس تنصب على ما يتعرض له هؤلاء الكادحين حتى تلك العروض التى كانت تقدم له ولم تكن لها تلك الأهميـــة كانت تناقش ويبحث عن الحـــل ليضعه أو ليحـــول لجهـة الاختصاص التى تمضى فى الحال لتعطى كل ذى حق حقه .

وبالرغم من أن معظم الأعضاء كانوا من العمد ومعظم الشـكاوى كانت تصل ضد العمد « ففلاحى الفيـوم يشـتكون بما هو واقع من « مقاوى باسل » عمدة عربان الرماح من تعدية على بعض أطيانهم (١) » ، الا انه لم يكن هناك تحيزا أو لقـاء بين الشريحة الواحـدة مادام هنـاك ظلم واقع على الفلاحين .

وعندما عرض ٢٣ فلاحـا بالنيابة عن ٤٠٠ فلاح مـن « فولنجيل » دقهلية بشأن ما فعله معهم حسـين مصطفى أغـا قوره جللى مـن رفع ربط الفدان عليهم من ٢٠٠ الى ٧٥٠ قرشـا وأخذ مائة فدان وأدخـل فيما بقى آخـــرين معهم واستولى على المحصـــول ثم منعهم من الأرض كليـــة ، حقق فى تلك القضـــية وظهـر التعدى الفعـــلى من هذا التركى بعـد أن أرسـلت الحكمدارية للاستكشاف فى أوراق محفوظات الدفتر خـانة بشأن اعطائهـم ١٥٠ فدانا من أطيـان معاش بالضريبـــة ، وكان وكيل الداخليـة السـابق للثورة قد أصـدر أمره بعـدم أحقيتهم فى تلك الأطيان وطردهم بالقهر منها وحجز على ماشيتهم رغم ان تملك هـذا التركى هو انعام لا بطريق أيلولة ؛ ورفع الأمر لمجلس النواب الذى رأى بعد التحقق من صدق الفلاحين احالتها الى الداخلية لارجاع حقوقهم (٢) .

وكان شـعور الفلاحين بالحرية شـيئا مقدسـا ، ذاقوا طعمه وتحسسـوا نوره ، وآمنوا أنه نعمة لا تعوض ، وأرادوا أن يتحرروا من الجفالك التى استعبدتهم سنوات وسنوات ، ففى رسالة من فلاحى « تلا » تضم عمدهم ومشايخهم تقول « ان اضمحلال الأهالى هو اشغال الجفالك فى زمن الاستبداد ولما ان أراد الله ومنحت الحرية والعـدل ورفعت السخرة والمظـالم ، فاننا ما خلصنا من العبودية الا فى هذا الزمن العادل » ويرسل مدير بنى مزار الى الداخلية ليبين أن تلك الناحيـة قد صار درجها من ضمن نواحى الجفالك للمشاركة فى التفتيش بنـاء على ما قرره نعمانى باشا مفتش جفالك المنيا والروضة لسخرة الفلاحين بالاجبار ، ويأتى قرار الثورة لصالح الفلاحين « فيصـير ابتعاد بلادهم من بلاد الجفلك (٣) » .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ ابريل ١٨٨٢ . جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .
(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٩ . ٦ يناير ١٨٨٢ .
(٣) نفس المصدر ، محفظة ٤٠ ، ٣٠ يناير ١٨٨٢ .

وكانت الجفالك التى تخصصت فى القصب واضافوا اليها نواحى للفلاحين تعرضهم للغبن ، فاعلنوا للحكومة بعدم رغبتهم فيها حيث أنهم غير مشاركين فى الزراعة وأرادوا الخروج من هده التفاتيش - كما سبق ذكره - فصدرت الأوامر بعدم اكراه الأهالى والنظر فيما يبتغونه ، وذهب وكيل المديريه ووكيل عموم الجفالك لاخذ رأى الاهالى فردا فردا . فكانت النتيجة رفضهم للبقاء تبع الجفلك حيث أقروا أنهم « أربعة عشر عاما فى الجفالك ونحن جارين طلوع أنفارنا وعيالنا وزيادة على ذلك تأجير انفار للخارج ، وحصل لنا الاضمحلال الكلى ، أولا تشتت البعض منا بالجهات وثانيا من فضلوا النسحب أجروا مبيع اطيانهم الى مشايخ الناحية ، والبعض قد أجروا تأجير اطيانهم سنتين وكسور والبعض قدصار مبيع مواشيه وعقاراته وكلما يمتلكه ، ولم تزل الديون متراكمة على عبيدكم لحد الآن » (١) .

ونرى فلاحين من نواحى نفتيش « منية سندوب » دقهلية التابع لدائرة « فاطمة خانم أفندى » يعرضون لعرابى لكى يخلصهم مما يعانونه لأنهم تملية شغالة بذاك الجفلك ومعدمين فليس لديهم أملاك . وان الجفلك المذكور أعطى كل منهم اطيانا بالايجار من فدان الى اثنين بواقع الفدان أربع جنيهات لغاية سنة ونصف ، ولعجزهم عن السداد . فالدائرة والتفتيش استحضروا نقدية بالأرباح عليهم لتكملة الإيجار واخذوا عليهم سندات بذلك لحين طلوع المحصول الشتوى مع كونهم اخرجوا الأنفار والجهادية والغفرة الذين تخصصت عليهم، وان المفتش والمعاون والباشكاتب متواطئين معا ضدهم ، وهنا أمر عرابى باحالة الأمر على الداخلية وتعيين مندوب للتحقيق ورد الحقوق (٢) ، ويتابع وكيل الداخلية أمر التحرى لنصرة الفلاحين ، وبذلك وضح أن الربا الذى خضع له الفلاحون لم يكن من ساقطى الأجانب فقط بل واشترك معهم دوائر الباشوات الذين ماوسوا على عبيد الأرض وسائل القهر والاذلال .

وكانت المعاملة السيئة للفلاحين فى الجفالك وما قاسوه على أيدى مفتشيها من مبيع أراض ومواش واستعمال العدة والكرباج وعزل المشايخ الطيبى السمعة واحلال من يتفق على هواهم ، مادة خصبة فى مناقشات مجلس النواب الذين فطنوا ان تلك المعاملة قد انتهى زمانها . بل وطالبوه برد الأطيان التى انتزعت منهم والمؤجرة لهم من الدوائر «مثل دائرة الهامى باشا» ، كما لجأوا اليه لتخفيض ضريبة الأموال (٣) .

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٤٣ ، ٦ يونيو ١٨٨٢ .
(٢) نفس المصدر ، ١٠ ستمبر ١٨٨٢ .
(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ ابريل ١٨٨٢ ، جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

ونصرت حكومة الثورة الفلاحين الذين كانت أراضيهم مرهونة للميرى ، حيث أنه عندما طلب أصحابها ردها اليهم ، وجاءت افادة المالية بأن « هذه الأطيان مدفوع عنها المقابلة ، وانه من المعلوم أن المقابلة هى من حقوق الطين » ، فتمت الموافقة على خصم صافى مقابلة تلك الأطيان فى الدين المطلوب عليها (١) ، معنى هذا أنه بالرغم من الغاء العمل بالمقابلة مضى فى تنفيذها نصرة للعدل ولرد الحقوق الى أصحابها والضرب بقانون التصفية عرض الحائط .

ووصل الأمر الى ان الفلاحين الذين كان اسماعيل قد استولى على أراضيهم يطالبون بها « فقد تظلم مشايخ وأهالى ناحية معصرة دودة بالفيوم من أخذ أطيانهم للدائرة السنية جفلك الواددين والبالغ مساحتها ١٥٠٠ فدان والتى كانت مكلفة عليهم ، وحررت بها تقاسيط الى الخديو السابق وأنجاله (٢) » ، وطعن الفلاحون فى أتباع داوود باشا « ففلسطين سداروس » ناظر قلم قضايا مديرية قنا استولى على أراضيهم البالغة ٥٤ فدانا بالتحايل معتمدا على علاقته بسيده أحيانا ، وبالقواسة أحيانا أخرى ، فأمر البارودى اجراء تحقيق شامل لذلك (٣) .

وصدر قرار من الثورة برد الأطيان التى استحوذ عليها داوود باشا نفسه من الفلاحين قصرا وجبرا وذلك باجراء مبايعة ظاهرية وتمكنه من اغتصاب ١٧٧٠ فدانا ، فردت الى أصحابها ، لكن الباشا سافر الى انجلترا « واجرى بيع الأطيان المذكورة فى لوندرة لشخص يدعى كولون بمبلغ ٢٢٣٨١٥ جنيها انكليزيا ، فقدم الخواجا تداعيا على الحكومة المصرية أمام المحكمة المختلطة فحكمت له بالأطيان فاستأنفت الحكومة وحولت القضية على مجلس الاستئناف » وثار عرابى فى اجتماع مجلس الوزراء « ان الحكومة لما طلبت رد الأطيان لأربابها رأت أن بيع الأطيان الذى حصل من الأهالى لسعادة داوود باشا هو فاسد ولهذا أمرت بردها الى أربابها » وأعطت القضية لأحد محامى الحكومة (٤) .

كذلك ردت الثورة الأطيان الخاصة بفلاحى ناحية «كفر درويش» التابعة لمديرية المنيا وبنى مزار والتى كانت أدخلت فى أبعادية حليم باشا

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ، فبراير ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٤٣ ، ٩ يونيو ١٨٨٢ .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٤٢ ، ٢٩ ابريل ١٨٨٢ .

(٤) محفوظات مجلس الوزراء ، محفظة ٥/ج ، دوسيه ١٠ ، محضر ٦ مارس ١٨٨٢

الذى باعها للدائرة السنية ، فالزيادة ٧٢ فدانا وهى العجز فى اراضى الفلاحين ، واتضح ذلك من دفاتر المساحة ، وصدرت المضابط بأحقية الأهالى لأراضيهم ، ويعترف أصحاب الحق بأنهم سعوا لنواله مدة اثنى عشر عاما بدون فائدة حتى أعطته لهم الثورة (١) .

واعتمد الفلاحون على عرابى ، فكانت شكاياتهم فى كثير من الأحيان تصل راسا له اذ اعتبروه قمة العدالة ويقول كرومر « كان الفلاحون ينظرون اليه على انه مخلصهم وان على يديه سيستردون اراضيهم وستلغى ديونهم (٢) » ، وفى كثير من الشكاوى التى تنصب على غبنهم كانوا يوكلونه كممثل لهم من أجل انقاذهم وخلاصهم مما يئنون تحته . ويذكر بلنت « ان شعبيته وصلت الى اقصى درجاتها واطلقوا عليه اسم الوحيد وكانت غرفته الخارجية بل الشارع الموصل الى المنزل ممتلىء كل يوم بجماعة الشاكين (٣) » .

وكان لتعاون وزارة الثورة من أجل رفع الضر عن الفلاحين أمر ملحوظ حتى لقد سرى على حمايتهم من بعض من اشترك فى الثورة . فعندما تظلم بعض الفلاحين من شريف باشا لاغتصابه أطيان بناحية « دهمشا » بمعرفة وكيل دائرته ، تأمر حكومة الثورة بالتحرى ، ومن مديرية المنيا ترسل الى عرابى الشكوى من الظلم ونهب الأموال العلنى « بواسطة ابراهيم الشريعى » ، وكذلك من أمين الشمسى فقد اشتكاه أحد الفلاحين لأخذه بعض الأفدنة منه (٤) ، وكانت الشكوى موجهة أيضا الى عرابى ذلك الذى سيرد الحقوق الى أصحابها .

ومع تلك الحرية وهذا الانصاف كان من المفروض أن يخجل الأجانب امام ردع المستغلين على ايدى الثورة ويعلمون أن زمن الصمت قد مضى ، وان كل خلل أصبح يحقق فيه ، لكنهم لم يضعوا ذلك فى الاعتبار فمضت اجراءاتهم التعسفية ، فقد حدث أن بعضا من الفلاحين مؤجرون أطيانا من أحدهم وهو صاحب أبعادية ويزرعون معه بالشرك فما كان منه الا أن يحجز على محصولاتهم وبضربهم بما فيهم النساء . وبالكشف تبين أن من ضربت سقط جنينها البالغ ستة أشهر ، وأجرى التحقيق معه ، ومضى البعض منهم فى ممارسة طريقة عمل السندات

---

(١) محفوظات الداخلية ، نفس المصدر ، ٨ مايو ١٨٨٢ .

(٢) Cromer : op. cit., u. 281.

(٣) Blunt : op. cit., p. 169.

(٤) محفوظات الداخلية ، نفس المصدر ، ٨ ، ١٨ مايو ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٠١

المفتعلة على الفلاحين « فاســتريا بصطورى الرومى المقيم بناحية مليج منوفية يتحايل على سلب الأموال بعد اصطناع اختام باسماء الفلاحين على سندات ويقدمها للمحــكمه المختلطه » (١) ، ومن هنــا سيشارك الفلاحون بكل قوتهم مع الخطوات القادمة ضد الأجانب .

ويطعن الفلاحون فى الأحـكام المختلطة ويطالبون بمـا لهـم عنـد الأجانب « انه لواســطة ما كان حاصـلا لنا من المضـايقة فى الأموال والمطاليب بالزمن الســابق . قد استجرينا نقدية من الخواجه بناس كبريادیس تاجر بالناحية بلدنا من تبعة دولة اليونان لغاية ما صـار تقسيط المبلغ علينا بأرباحه على أربع سنوات مبلغ ٢٤٠ جنيها لكل سنة ٦٠ جنيها ، ولما استحقق أول قسـط دفعناه ٦٠ جنيها ثمن قطن ، وفى ثانى ســنة لم نقتدر على دفـع قسـطها فالخواجه المذكور قدم دعـوته بالحقانية بالاسكندرية ، فأصـدرت أمرها الى مديرية الغربية بمبيع مواشينا ومحصول زراعنــا ، وكل ذلك بدون حضـورنا مع كون هذا الخواجة أخذ منا ساقيتين على البحـر الأعظم ومركب عليه وابور لسقيه الأراضى » وتســتمر الشـكوى لتؤكد ضرورة ارجــاع ما أخـذه هذا الأجنبى (٢) .

وتحاول الثـورة بكل امكاناتها وطاقتها أن تسترد الأموال وتعيـد الاراضى سواء التى اغتصبها الباشوات أو الحـكومة أو الأجانب ، بل وتعمل من أجل الفلاحين ، فنرى قرار محمود فهمى وزير الاشـغال بضرورة ايصــال المياه لأراضيهم وعدم هدم أى مساقى وذلك كان بنـاء على ما قدمه بعض فلاحى ناحية « محول » غربية مما أجراه عبدالقادر باشا من هدم المســاقى المرتبة لرى أطيانهم من مدة خمسين سنة مع هدم المساقى التى أعدها مهندس المركز لرى تلك الأطيان (٣) .

وهكذا كانت الثورة تضــع أمام أعينها حالة الفـلاحين ، وتأتى مسألة السخرة التى ذاقوا منها الأمرين طوال تاريخهم لتكون موضــع اهتمام كبير . فمجلس النواب يساهم باقتراحاته لحلها سواء بتنظيمها أو باعطائها بالمقــاولة بمعرفة وزارة الأشــغال (٤) ، والحـكومة تخفف عنهـم فلا تلقى عليهـم عبئها ، حتى ان نائب القنصـل البريطــانى فى

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٢٦ فبراير ١٨٨٢ ، محفظة ٤٣ ، ٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٤٢ ، ٢٠ ابريل ، ١٨ مايو ١٨٨٢ .

(٣) نفس المصدر ، ٢ مايو ١٨٨٢ .

(٤) الوقائع المصرية عدد ١٣٥٤ فى ١١ مارس ١٨٨٢ ، جلسة ١٥ فبراير ١٨٨٢ .

الزقازيق يقول « لقد أصبح من الصعب جمع الرجال للسخرة فى رفع المياه المنخفضة من النيل للرى هذا العام او حفر اية ترع او القيام بزراعة الأرض فى مواعيدها مما سيؤثر على محصول القطن ، ولا يستطيع الموظفون جمع رجال السخرة » ؛ ويكتب ماليت الى جرانفيل « هناك عقبات فى اصلاح القناة بسبب ضعف الحكام فى جمع السخرة (١) » .

لقد كره الفلاحون السخرة حيث مثلت لهم العبودية ، وعندما جاءت الثورة لتضع برنامجها وتخفف عنهم أعباءهم شعروا بأن حكومة الثورة تعمل لصالحهم ، ومن هنا خرجت أعمالهم من اجلها بروح قوية وبمعنوية عالية . كما ان الاطمئنان الذى غمر قلوبهم دفعهم بصدق وبطيب خاطر للتفانى . فعندما كان من الضرورى تطهير ترعة الشرقاوية حضر ثلاثة عشر ألفا بمحض ارادتهم بعد ان كان بالكرباج وبالطرق القاسية من سجن وتعذيب يحضر ستة آلاف . ونرى أن ما كان يعمل فى ثلاثين يوما ينجز فى ثمانية أيام (٢) .

وكان من هدايا الثورة التى قدمتها لفلاحيها القضاء على المعاملة الوحشية التى كثيرا ما قاسوا منها تحت انعدة والكرباج ، وقد أسعد الفلاحين فى الوقت الذى غضب فيه الأجانب أشد الغضب لنوال الفلاحين حقوقهم ورفع الضيم عنهم ، فيكتب « روسل » مدير الدومين الى ماليت « ان الحاكم الشرقى اذا حرم كرباجه وحظر عليه أن يسجن من يشاء وعجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية ، ان الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام جعل الفلاح يعتقد بأنه يستطيع الوصول مرة واحدة الى ما يسمونه الحرية (٣) » ، كانت هذه نظرتهم فاعتقدوا أن الثورة قد سلبت السلطة الشرعية ما كانت تتمتع به من قوة وبطش وجبروت ؛ وقد كان لذلك رد فعله على الفلاحين وخاصة الذين يعملون فى الضياع التركية والذين تمردوا ورفضوا العقاب بالجلد ، هذا فى الوقت الذى راقبت فيه حكومة الثورة معاملة الفلاحين فى تلك الاقطاعات ، وعملت على أن تكون لهم حقوق ثابتة لدى أصحابها .

وكانت مسألة الضرائب موضع اهتمامات الثورة ، فوافقت على أن تقبل الضرائب عينية ، بعد أن كان قد أبطل ذلك مع وزارة رياض .

---

(١) Egypt, No. 7 (1882), No. 122, April 15, 25, 1882, p. 97.

(٢) الوقائع المصريه ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٣) Egypt : op. cit., Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, p. 42.

ونلاحظ الرحمة والشفقة . فقد تظلم بعض فلاحي الوجه القبلي بتأييد من مديريهم بعدم مقدرتهم تحصيل تفسيط « شهر يونية بتمامه » وذلك بسبب كساد التجارة ، فالتمسوا الاكتفاء بتحصيل نصف التقسيط ، وبابقاء النصف الثاني لتحصيله في وقت آخر ، وتمت الموافقة وأجيبوا الى طلبهم مع التشدد في « حفظ محصولات الأهالي وعدم التصريف فيها للخارج بالبخس (١) » .

كذلك كان لابد من انقاذ قيمة الأراضي التي انهارت أسعارها بسبب قيام الفلاحين بالبيع دون الثمن . ففي منطقة « سيميلا » بمديرية الغربية باع فلاح ٤٢ قيراطا بمبلغ ٥٠ جنيها اى بسعر الفدان ٢٨ جنيها في حين أن ثمنه ٦٠ جنيها (٢) ، هذا في الوقت الذى كان على الثورة ان تنقذ هذا الفلاح بعد أن أصبح تفتت الملكيات هو السمة الظاهرة نتيجة لأعباء الالتزامات التي فرضت عليه في عهد ما قبل الثورة ، واستمرت في تنفيذ برنامجها . فوضعت مشروعا لاصلاح المحاكم المختلطة التي أضرت بالفلاحين وكادت تقضي عليهم ، وآخر لانشاء بنك زراعي يقدم المساعدات اليهم ، لكن لم يكن هناك الوقت الكافي لتنفيذ تلك المشروعات حيث ألقت الثورة بكل قواها لتقف امام انجلترا .

لقد كانت حقا وزارة فلاحين ، فلأول مره يصبح لهم حقوقا يطالبون بها فيلبى طلبهم بل ويعدهم زعيمهم للمشاركة فهم أصحاب مصر ، كما ان بذور المساواة التي غرسها بينهم آتت أكلها ، ففي خطاب مرسل اليه من أحد الفلاحين بناحية « ساقلة » يشكو فيه العمدة لارتشائه فيقول « واذا أعطيت العمدة عشرة جنيهات يسيب ابني ويمسك واحد فقير بدلا عنه ، فيه ناس عندهم اطيان وخيل وجمال وغنم ومواشي ولا ساير عليهم ما يسير علينا . أن الناس زى بعضها (٣) » ، وتلك هي المساواة التي كانت على قمه مبادىء الثورة وكثيرا ماردد عرابي بأنه فلاح ويعمل من أجل الفلاحين وانه ليس بتركي لكونه وصل الى منصبه هذا ، بل انه وصل لأن الحق معه ، وكانت فلسفته بالنسبة للفلاحين حقيقة مؤكدة هي الثورة الشاملة للقضاء على الطبقية فيقول « وليعلموا ان فقراء أهالينا صار عندهم أمل في أن أولادهم يتقدمون ويصيرون حكاما على بلادهم بعد أن كانوا يتوهمون أن ذلك من المستحيل عليهم ولا كان يخطر ذلك على أفكارهم (٤) » .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٢٧ في ٧ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) Egypt : op. cit., Inclosure 1 in No. 157, April 23, 1882, p. 112.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٨ . دوسيه ٥٣/د .

من أجل مصر للمصريين كان الحب لعرابى الذى أعطى الأمل وحرك المشاعر فى أعماق الريف ، وأثناء محاكمته يسرد خطاب من دليسبس الى المحكمة ليبرهن على انه لم يكن عرابى هو الثائر فقط بل الفلاحين الذين وجدوا فيه المنقذ والمخلص فيقول « لقد زرت عرابى فى وزارته وكنت أرى فناء قصر النيل حيث مقر الوزارة مزدحما بالفلاحين الذين امتلأت بهم الغرف المقابلة (*) » ، جاءوا اليه ليعلنوا ثورتهم .

التنفيذ الثورى :

(أ) الفلاحون وكبار ملاك الأراضى :

اتفقت الآراء على أن خضوع الفلاح واستسلامه يعد أحد الظواهر الاجتماعية الأساسية فى الريف المصرى . وهى سمة سيكلوجية تظهر فى رضائه بالقضاء والقدر وبالمصير المحتوم الذى فرض عليه لقد أعطت الطبيعة فلاح مصر البساطة والوداعة وحب الخير والبعد عن الشر . كما سرى الايمان فى دمه وروحه وآمن بكل مكتوب على جبينه . لكن مع أسرة محمد على تراكمت الرواسب على نفسيته وعلت حتى وصلت الى درجة كان لابد وأن تتغير الطبيعة والأسس والمميزات ليخرج ما بداخله ويتحرر ويثور ويرفع لواء المطالبة بالتغيير الجذرى الشامل .

ومما لا شك فيه أن الأموال تلعب الدور الرئيسى فى حياة الحكومات والشعوب ، ففرض الأموال من الأولى على الثانية يرهقها ويولد الحقد والضغينة فى النفوس تجاهها وخصوصا اذا صاحبتها الآلام . كذلك فان امتناع الشعوب عن دفع الأموال للحكومات يشلها ويقضى عليها . وفى مصر اتبع الفلاحون أسلوب الامتناع عن الدفع وخصوصا بعد أن أعطتهم الثورة الاطمئنان ، وبعد أن الفت وسائل التعذيب التى كانت تحصل بها تلك الأموال ، فكان ايقاف الأموال المطلوبة منهم أحد الضربات القوية التى وجهها الفلاحون للانتقام ، فهم يعلمون تمام العلم أن كدهم وعرقهم انما يذهب الى جيوب الرأسماليين الأجانب والمستغلين .

كان الوجه القبلى أكثر حيوية اذ ازدادت فيه الحركات الثورية للفلاحين ، حيث انه يضم تلك الاقطاعات الواسعة من الأراضى التى يتحكم فيها قلائل من العائلة المالكة والباشوات ، وقد بلغت الأموال التى أوقفت حوالى ألفين من الجنيهات ، وامتنعوا عن دفع ايجارات الجفالك وعدم تسديد ما عليهم لها ، ورفض طلبات مديرية أسيوط ، وعدم الاطاعة فى المثول امام مفتش الروضة بمديرية اسيوط بل تهديده

(*) Broodly : op. cit., p. 302.

حيث تسلح الفلاحون بالأسلحه النارية راحوا يهددون ودخلوا فى لقاءات مع أعدائهم أسفرت عن ضرب جملة أنفار بما فيهم مشايخ الناحية « وأخذوا صراف الناحية بالقوة الجبرية بعد أن أبطلوا تحصيل الأموال تم بعد ذلك التجأوا لعرابى (١) » .

ويتضح أن ما تم كان يلقى تأييدا من رجال الثورة ، بدليل انه بعد قيامهم بأعمالهم ذهبوا للقاء بالقائد ، وان المعتدى عليهم من الرافضين . ومما يؤكد أن السلطات المحلية وكبار الموظفين كانت لديهم التعليمات وغير مسموح لهم بانزال العقاب بأحد ، ما ذكره « فيليبس الي نائب القنصل الانجليزى بالزقازيق « ان مفتش دائرة خلوصى بك يقص له انه رأى بنفسه مجموعة من أربعين شخصا بعضهم مرتجلا والآخر ممتطيا متوجهون مباشرة الى أملاك الدائرة(٢) » ، وكان هذا على مسمع ومرأى من الجميع . وقد وجد كشفا بأوراق الثورة يحتوى على من يريد تخريب عزبهم (٣) .

وكانت الهزة العميقة التى هزت الريف هى المناداة باللا طبقية وتطبيقها على أيدى الفلاحين . وفى بعض الأحيان كان هناك من العمد والموظفين من يبثون تلك الأفكار التى اتفقت وميول الفلاحين وخاصة المعدمين منهم وعمال الجفالك الذين لا تختلف أحوالهم عن اقنان الأرض فى العصر الاقطاعى .

كان الأمل كبيرا فى انتصار الثورة بزعامة القائد . وبالتالى فكان الاعتقاد السائد هو سقوط نظام الحكم القائم بما تبعه من مفاسد اقتصادية وعيوب اجتماعية ، وكان التركيز على اقطاعيات الأسرة المالكة وأراضى كبار الملاك من الباشوات الذوات حتى ولو كان من بينهم العنصر المصرى ، فقد ساد التفكير بأن هذه الممتلكات الكبيرة ستصبح مشاعة لجميع الفلاحين العاملين فيها ، الذين هم أصحاب فضل فى وجودها ، فمصنع السكر (فاوريقة مطاى) سيكون للاهالى ، وأطيان الجفالك ستوزع على بلادها الأصلية ، وأطيان الباشوات امثال طلعت باشا وسلطان باشا ستكون ملكا لهم . بل وصل الأمر الى تشفى الفلاحين من هذه الطبقة فبعد انتزاع أملاكها « فيضيع ثمنها على أربابها » ، واستتبع ذلك حركة الفلاحين فى هذه المنطقة (٤) .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٩ .

(٢) Egypt : op. cit., Inclsoure 3 in No. 70 Feb. 23, 1882, p. 55.

(٣) مجموعة مجلس الوزراء ، محفظة ٧ ، ١٠ حربية .

(٤) محافظ الثورة العرابية . محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٢٤ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٧ .

وبدات عملية التقسيم لتلك الأراضي بين الفلاحين ، قسمه تولوا هم أمرها ، وأعلنوا انها أصبحت ملكا لهم « اى ان اهالى كل بلد يتسلمون زمام أطيانهم » ، ورواحوا يخضرون أطيان الجفالك لحسابهم ، وكانوا يزرعونها بعزيمة قوية وباحساس المالكين لها ، وفى البحيرة حدث أن هاجم الفلاحين بمساعدة مشايخهم اراضي الوسية التابعة لدائرة حيدر باشا ، وقسموها وزرعوها ذرة شامية (١) .

كان ذلك ثورة اجتماعية خطيرة حملت بين طياتها نصرة الأيدى العاملة وحقها فى الحياة ، قضت على الاستغلال والاستعباد ، وأصبح الفلاحون متساوين فى الملكية ، لم يعد هناك الباشا الذى يرتعد منه الفلاح ويركع له ويقبل يده . ولم يعد هناك من يقيم المشانق ليتخلص ممن يناوئه ، ولم يعد هناك من يستحوز على الأرض والماشية ويسوق للسخرة ويضرب بالكرباج ويتمتع بخيرات الأرض وحده ويكسب ويرابى ويمتص الدماء ويمنع المياه .. لقد اصبح الفلاح حرا له ملكيته وله حقوقه دون رقيب عليه ودون محاسب ينتزع منه لقمة العيش .

ومضت الحركات الثورية القوية لتعصف بكل من سلبها ، ففي اربع بلاد للجفالك بالغربية – ضماى وطوشي – اضرب الفلاحون عن العمل وتركوا الماشية والآلات الزراعية فى الحقول وأعلنوا ثورتهم بعد أن وجدوا أن غيرهم قد استحوز على الأرض ومازالت أيادى الباشوات تسيطر على الأرض التى يعملون فيها ، وفى جفالك الدومين لم يستول الفلاحون على الأراضي ولم يعلنوا الاضراب العام لكنهم أعلنوا صراحة وبصوت مسموع ضرورة حقهم فى الأرض وتطبيق المساواة مع الملاك ، ورفضوا الاقتراح بأن تعطى لهم بايجار يماثل الأراضي المجاورة – وكان معنى ذلك أنهم فعلا مغبونون فى الايجار وكان الدومين بين الحين والآخر يرفع الايجار عليهم – وأن يطلق سراحهم من السخرة ، ويرفض الفلاحون ويصرون على أحقيتهم فى أراضيهم وأعلنوا أنهم سيقابلون القوة بالقوة (٢) . فأى تحد هذا الذى قام به فلاحو الثورة ، أصبحوا يرفضون عروض الملاك .

وأعلنت حقوق الفلاحين على أرض مصر كلها فى الحرية والحياة والمساواة والعدالة وسقوط عهد الظلم والاستبداد ، ففى « كفر لطيف » بالدقهلية تعلو أصوات الفلاحين بالمطالبة بحقوقهم ويكتب لهم مأذون ناحية « كفر الشراقوه » باسمهم ويسجل طلباتهم التى انصبت على

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، دوسيه ٢٩ .

(٢) Egypt : op. cit., Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, p. 42.

مبادىء الثورة والتى وصفها المحققون فى محاكمات الثورة بأنها « جملة افسادات » (١) .

وفى « الزنكلون » بالشرقية ثار الفلاحون المآجرين فى أربع قرى. وكان مشجعهم على الثورة والاستمرار فيها يوزباشى بالجيش ، ومن هنا ظهرت عمليه الالتحام القويه بين العسكريين والفلاحين ، فقد ابان لهم أن الأطيان المملوكه لأصحاب الأراضى هى ملك حلال لهم وهى من حقهم ، ويقول كرومر « وبذلك وفى كلمة مختصرة كانت جميع العلامات العادية للثورات قد تكاملت فى مصر (٢) » ، ولم يقتصر أمر العسكريين على ذلك بل كانوا « يجوبون البلاد يحرضون الأهالى على عدم دفع الضرائب (٣) » ، واستمرت الاجراءات الثورية لفلاحى الزنكلون ، أضربوا عن العمل ، وأرادوا تقسيم أراضى الملاك وخاصة تفتيش الامير ابراهيم الذى كان يمتلك الجزء الأكبر من تلك الأراضى ، ففزع من تلك الأعمال الثورية التى لم تتوقف رغم ارسال حامية من ألف جندى ، فما كان من الامير الا أنه أجر تفتيشه الى أحد الأجانب لمدة طويلة حتى يتخلص من مخاوف استيلاء الفلاحين على أرضه بالاضافة الى استغلالها عن هذا الطريق ، وحدثت أيضا أحداث مماثلة فى دمنهور فأرسلت اليها قوة كالتى أرسلت للزقازيق (٤) ، لكن الفلاحين استمروا فى اجراءاتهم . وقد حاولت حكومة الثورة أن تهدىء من روع الفلاحين عن طريق تنظيم المسألة حتى لا تتحول الى ما يسىء لها لكن كان الفلاحون كمسجونين واطلق سراحهم ، وكثرت الاجتماعات من اجل الحد من كبح جماح هذا الغضب الثائر الذى يتفق والمبادىء الثورية ، ويذكر « روسل » أنه فى اجتماع عقد بطنطا طلب من مديرها « التصرف قبل تضخم الاضطرابات ــ كما كان الأجانب يطلقون على الثورة ــ وقبل أن تصبح عامة وتسبب له المتاعب ، لكن اتضح أن سلطته تجاه مشايخ البلد قد انعدمت ، فطلبت منه استدعاء اثنين منهم الأكثر مشاغبة وسجنهم ، لكنه قال الأفضل ان تتم التسوية بالتفاهم ، سنرسل اليهما ولكن ليس لهم مكان فى السجن » ويمضى روسل ليبين أن قوة المدير قد ضعفت « فاذا وضع شخص بالسجن ظلما فعلى الفور تصل البرقية الى مجلس النواب الذى يستدعى المدير برقيا ليحقق معه ، كما أخبرنى المدير بأنه كحاكم وطنى لحكومة وطنية فان كل ما يهمه هو أن يحمى الفلاحين ويراعى

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٨٦ .

(٢) Cromer : op. cit., p. 258.

(٣) مخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

(٤) Egypt : op. cit., Inclosure 2 in No. 122, April 18, 25, 1882, pp. 97,98.

مصالحهم » ، وفى لقائه مع مدير المنصورة « أخطرنى المدير بأنه أصبح يخشى العودة الى استعمال القوة والظلم والبطش الذى كان موجودا سابقا . وأن المساجين أصحاب القضايا العادية اتصلوا بأعضاء النواب وبعرابى بك الذى أمر المديرين برقيا باطلاق سراحهم » (١) .

ومن ذلك تظهر تلك الثورية المطلقة لا للفلاحين فقط ولكن كل من على أرض مصر وكان راضيا عن مبادىء الثورة بما فيهم مديرو المديريات الذين كان دورهم السابق مضادا للفلاحين أصبحوا الآن يعملون على مصلحتهم . كما أن المعتقلات والسجون انتهت وأصبح الجميع أحرارا.

أضف الى ذلك حيوية المجلس النيابى واحساسه بأنه نائب عن مصالح الأمة ، وأخيرا عرابى الذى كان قوة لا تنضب ولا تنهار من أجل فلاحيه .

وأصبح كل شىء يمضى فى مصلحة الفلاحين ، فتمتعوا بجميع حقوقهم ، تدفع لهم أجورهم كاملة شهريا بعد أن كانوا بدون أجور ، لدرجة انه فى بعض الجفالك بعد الايجار الجديد ورفعه أصبح الفرق حوالى ١٢٠٠ جنيه لصاحب الأرض ، ولم تعد الزراعة لحساب المالك وانما ذهبت بالايجار غير المغبون فيه ، ونجح الفلاحون فى اثارة رعب المالك الذى آمن بأن الفلاح أصبح حرا فيقول مدير الدومين لماليت « منذ عام مضى كانت الحرية يوعد بها وكانت كلمات تتردد لكنها الآن أصبحت قوة عملية » (٢) .

ولأول مرة ينقلب ميزان القوة ويخيف الفلاحون الباشوات « فانقطع كثيرون منهم عن التردد الى أراضيهم ولزموا منازلهم ، واستمرت هذه الحالة جارية من ابتداء شهر رمضان الى انتهائه ، وهى مدة قضاها بعض أصحاب الأراضى فى معاناة وتحمل الذل والهوان » (٣) .

(ب) الفلاحون والأجانب :

لم تقتصر ثورة الفلاحين على ما سبق ، ولكنها وجهت أيضا ضد الأجانب الذين أذاقوهم الأمرين سواء فى مسألة الديون والربا الفاحش والسندات المزوره التى اختلقها مرابو القرى « الأفاعى » ، أو فى بيع أراضيهم وقوانين محاكمهم التى جردتهم من كل شىء أو من بذور الفساد

---

(١) Ibid, Inclosure 4 in No. 51, Feb. 15, 1882, pp. 42, 43

(٢) Ibid, Inclosure 3 in No. 51, Feb. 18, 1882, p. 42.

(٣) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

واللاأخلاقية اللذان انتشرا في الريف أو في تلك المعاملة التي دائما وأبدا تتسم بالقسوة والاحتكار والجبروت ، وصحافة ما قبل الثورة تكتظ بتلك الدلائل وحتى أثناء الثورة وبالرغم من معرفة الأجانب أنها أولا موجهة ضدهم الا أن استعلاءهم وأخلاقهم مضت دون تغيير مما جعل المصريون في نهاية الأمر ينفجرون ضدهم ، فتذكرلنا صحيفة الاسكندرية في ٢٠ مايو ١٨٨٢ ما يدل على تلك الاستمرارية فيقول مراسلها : «وقف بنا قطار السكة الحديد عند كفر الزيات ، وكان ضمن المسافرين فيه فلاحة فقيرة ومعها ولدان يشكيان الجوع ، فطلت من العربة فوجدت عن بعد ولدا من المعيشين الفقراء واقفا ومعه زاد للبيع . فنادته لنشترى منه ما يلزمها ، فتجرأ الولد ودخل ظانا أنه لا يدع أحدا من المانعين أن يراه ، فأخذت المرأة منه رغيفا من العيش وناولته الى أولادها . وما نشعر في هذه الاثناء الا وواحد من الأفرنج لا نعرف ان كان روميا أو طليانيا هجم عليهم هجوم الديب على الغنم وصرخ في الولد البائع : كم نهاكم ياعرب يافلاحون وأخذ يشتم بكل أنواع الشتائم ، وخطف ما كان حامله من العيش ، وخطف أيضا ما كان بأيدى الولدين وفتت سائر العيش وطرحه تحت عجلات البابور فذعر البائع منزعجا . والمرأة تندب مصابها وتذرف دموعها ضنينا وشفقة على أولادها ، والأولاد عاب صوابهم وغشى عليهم عندما اختطف ذلك الرغيف الذى كان يعضان عليه ، فعجبت لهذا الأمر واندهشت » (١) .

وبذلك وصلت الكراهية الى أقصى مداها أمام هؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم أصحاب البلاد الشرعيين وكان لابد من توجيه الضربات والانتقام ، وبدأ ذلك بابقاء محاصيل ملاك الأراضى منهم فى الأرض وعدم جنيها وخاصة القطن الذى جرى اعدامه ، حدث ذلك عندما « أراد الخواجه مانولى اغتصاب المحصول من الفلاحين بدون محاسبة وأحضر ستة أشخاص من الأروام المسلحين لأخذ ما يجنى بالقوة الجبرية لوضعه في محلات الخواجة ، فما كان من الفلاحين الا وأبطلوا الجنى وأعدموا المحصول . فتقدم الخواجة الى قنصل اليونان بطنطا يشكو مشايخ البلد والفلاحين في التعدى والهجوم على غيطانه ، واطلاق سراح الأهالى والمواشى » وثبت من التحقيق تعدى الفلاحين وكسر الأشجار وسير المواشى على الأقطان (٢) ، ومن المعلوم من هو مانولى بالنسبة الى الفلاحين انه ذلك المرابى اليونانى .

وبما أن الأجانب كان معظمهم أصحاب بيوت تجارية ، فقد تم هجوم

---

(١) الاسكندرية ، عدد ١٧٠ فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٣ مارس ١٨٨٢ .

الفلاحين عليها مطالبين بالأرباح التى استحوز عليها هؤلاء فى السنوات السابقة ، وكان ناظر منفلوط هــو المتزعم لتلك العملية مع العمــد . وخرجت التهديدات لمن يتأخر عن تســديدها لفلاحين يحــال الى المجلس العسكرى (١) .

كما طالب الفلاحون برد الاراضى اليهم ، تلك التى استولى عليهـــا الأجانب بناء على أموال كانوا أقرضوها للفــلاحين بالربا ومضى الوقت دون أن يتمكنوا من الســداد ، طالبوا بها وأبانوا انه ليس للأجانب حق الاستيلاء عليها ومن المعروف أن المرابى كان يحصل على الفدان الذى يساوى خمسين جنيها بعشرة مقابل الدين . وكثيرا ما كانت الأراضى تباع جبرا قبل أن يكون صاحبها قد علم بأن مزاد بيعها قد أشــهر . وهكذا كسروا أحكام المختلطة التى كانت دائما فى صالح الأجانب ، كذلك استولى الفلاحون على بعض أراضى المــلاك وسرى عليهـــا ما طبق على الجفالك فى التقسيم (٢) .

آمن الفلاحون بأن عرابى سيلغى جميع الديون ســواء كانت على الحكومة أو على الأهالى ، وقد فكر القائمون على الثورة فى هذا الأمر . وبناء على ذلك أذيع أن ديون المرابين ســـوف تهــدم على يد عرابى وان توفيق يمانعه فى ذلك ، فكان هذا حافزا للمزيد من الكراهية لتوفيق والمزيد من الحب لعرابى ، فى الوقت الذى ايقن فيه الجميع أن السلطة والقوة والسلطان فى يد عرابى .

واحتلت مسألة الديون مكانه بالنسبة للفلاح ، فهو دائما مثقــلا بها لحاجته الضرورية لدفع الضرائب ، وكان البنك العقــارى دائمــا ما يرد الفلاح خائبا ميئوسا فهو لا يقرض أحدا الا بعد أن يأخذ تحت يده ضمانات كافية من حجج التمليك ونحوها مما يعز وجــوده لدى الفلاحين . وبالرغــم من أن الحقانيـــة صرحت للمحاكم باخراج حجة (أيلولة) لمــن يطلب اخراجها من الذين كانوا قد دفعوا المقابلة « على شرط أن يؤخذ منه ١٠٠ قرش قيمــة الحجة وكتابتها ، فاندفــع الفلاحون اليهــا وبيدهم بيانات أطيــانهم ولكنهم كانوا يلقون فى ســـبيل ذلك عناء شـــديدا فوق ما هم فيــه من شــدة الحاجة حيث ان المحــاكم لا تسعفهم بل تقابل الطلب بالتسويف » (٣) .

لذلك كان لابــد من الالتجاء للمرابين فأقرضــوهم بفوائد عالية كان

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٢٩٣ فى ٢٨ ديسمبر ١٨٨١ .

من الصعب على الفلاح أن يوفى حتى بتلك الفوائد ، اذن فلم يعد من المستبعد أن تحدث عملية رد فعل واسعة النطاق . ويقول بلنت : « ان ثورة ١٨٨١ اكتسبت مغزى ذو قوة عند الرأى العام فى وقت كان فيه اليونانيون بائعو المشروبات الروحية الذين مزجوا ذلك باقراضهم النقود فى القرى وخاصة فى الوجه البحرى ، والحى الذى كنت أقيم فيه كان مثالا حيا بهذه الشرور ، وفى أثناء عودتى هذه السنة الى القاهرة وجدت على شريط السكك الحديدية الضيقة على كل محطة دكانا لبيع المشروبات الروحية تدار بواسطة يونانى مرابى يجذب الفلاحين لتذوق الخمور المحرقة بغرض اسكارهم واقراضهم النقود بالربا المرتفع (١) » ، ويؤكد شاهد عيان آخر أن « كل فلاحى الدلتا ومصر الوسطى كانوا مدينين بغزارة للمرابين اليونانيين وتبعا لذلك أصبح من السهل أن تتعمق بحرارة تلك الكراهية ضد الأجانب عموما (٢) » .

وبدأت حوادث تصفية الحساب بين الفلاحين وهؤلاء المرابين . وكانت هناك السندات ــ الكمبيالات ــ التى تثبت ادانة الفلاحين . فرأوا الاستيلاء عنيها عنوة حتى تسقط ديونهم ، « كان الخواجة فنجيلى أسكندر التاجر بناحية طوخ له مبلغ طرف منصور أبو رباشة وخليل الخضراوى وبتوجيهه للناحية لمطالبتهم ، تقابل مع منصور وخليل وطلبا منه الحساب على المطلوب منهم له ، فأخرج محفظة من جيبه لأعمال حسابهما ، فخطف منصور المحفظة لعلمه أن بها السندات ، ونزلا الاثنان عليه بالعصا » ، كذلك « عندما أرسل الخواجة طناش سماكوبلو تابعه الخواجة أندريه ليحصل مطلوبه من أهالى العزبة الكائنه بأراضى ناحية الباجور، فبوجوده بمنزل ابراهيم الأقطش فى مكان العزبة واخباره بالمطلوب منه ومن أهاليها ، أخذوا منه بالقوة كامل السندات الموجودة معه (٣) » ، وتكررت هذه الحوادث ووصل الأمر الى التهديد بالقتل ، وكانت النتيجة استرداد السندات وتمزيقها وهكذا سيطر الغضب على جموع الفلاحين .

هـــذا بينما نرى أن منهم من ماطل فى الدفع بل وانكر الدين «وهدد صاحبه وتوعده ، فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت معاملتهم لأهل البلاد . ونزح الكثير منهم الى المدن الكبيرة وقد تبدل رزقهم ورقا

---

(١) Blunt : My Diaries, London, 1920, Vol. I, p. 34.

(٢) Wallace : op. cit., p. 86.

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٢ ، ٨ مايو ١٨٨٢ ، معية سنية عربى ، فادات ، سجل ٩ ، مجموعة ٦٤ ، ٤ يونيو ١٨٨٢ .

حتى تعطل البيع والشراء (١) » ، وساءت حالة الأجانب الملاك والتجار ، وأصبح الفلاحون أحرارا يفعلون ما يشاءون « من غير حساب ولا عقاب ، فكثر التعدى على المسيحيين بأن أخذ الأهالى يسومونهم خسفا وهوانا ويوسعونهم شتما وسبابا ؛ بحيث أصبح التاجر منهم غير قادر على تحصيل حقوقه واستيفاء ديونه من الفلاحين (٢) » ٠

وجاء هجوم الفلاحين عليهم ، فقد كان مجرد مرور أى أجنبى بالقرية – وكثيرا ما كان المارون هم المرابون – يتم التعدى عليهم « تعدى المدعو سليمان الصعيدى على الخواجة جورجى نقولا بالضرب حالة كونه مارا بالبندر بشبين منوفية ومعه نبوت » (٣) ، وقد شمل الانتقام الاعتداء على أراضيهم « هجم الفلاحون على ابعادية الخواجة يعقوب وضربوا حراسها البرابرة (٤) » ، ولم يكن الأوربيون فقط الذين وجه لهم هذا ، بل السوريون واليهود على أساس امتهانهم نفس الوظيفة ٠

كان ذلك يتفق وميول الثورة ورجالها الذين لم يقعدوا لحظة فى اى اجتماع وفى اية خطبة وفى اية مقالة الا وهاجموا فيها الأجانب وارادوا تطهير مصر من براثن مصاصى الدماء المصرية الذين استحوزوا على خيرات مصر ٠

وتبع ذلك تهديد الأجانب بالقتل ، هؤلاء الذين كانت لهم قضايا مع الفلاحين وكسبوها وارتاحوا لتلك الأحكام غير العادلة التى صدرت لصالحهم ، بدأت الدوائر تدور عليهم ليسقط حكم محاكمهم ، فقد حدث أنه فى عام ١٨٨٠ أقام ثلاثة من الفلاحين دعوى فى المختلطة على « مستر كوتريللى » وهو مهندس رى مدعين عليه بدين ، وكانت نتيجة الحكم لصالحه بل وازداد الأمر سوءا بأن حكم على الفلاحين بالتعويض، وفى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ قابلوه وطالبوه بحقهم المسلوب فلم ينصت فهددوه بالقتل فى الحال اذا رفض اعطاءهم مالهم ، فأسرع الى القنصل البريطانى الذى نصحه بمغادرة البلاد فورا (٥) ٠

وجاء دور التنفيذ فى القتل « ففى ٢٦ يونيه ورد الى الاسكندرية نبأ برقى من بنها العسل يخبر بقتل أحد اليونانيين فيها قيل ان أحد مديونية الفلاحين قتله ، وأن الباعث على قتله تمنعه من اعطاء الفلاحين سنداتهم

---

(١) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ ٠

(٢) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٦ دوسيه ٣٧٤٠ ٠

(٤) الوقائع المصرية عدد ٢٠٧ فى ٩ مايو ١٨٨١ ٠

(٥) Commons, Vol. CCIXXI, June 26, 1882, p. 406.

التى له بمقتضاها دين واجب الأداء (١) » ، وقد أخبر نائب القنصل الانجليزى حكومته بأن المقتولين عشرة من اليونانيين وثلاثة من الاسرائيليين وأيدته بعض من المصادر (٢) ، وبصرف النظر عن الاختلاف في العدد ، فالحقيقة أمر واحد هى الرغبة فى الانتقام •

وعقب العدوان الانجليزى وقيام الحرب ، أصبح الشعور معبأ بالحقد ، وكان الهجوم على الأجانب أوسع انتشارا وأكثر جرأة وأعمق تأثيرا • ففى «طنطا» أمسك الفلاحون « بالنصارى واليهود والأروام وهجموا عليهم وكسروا دكاكينهم » وازداد عدد القتلى للدرجة التى امتلأ بها ست « عربات كارو » ، ولم يكن الفلاحون بمفردهم بل كان معهم مهاجرو الاسكندرية ، وأزاد الموقف وجود يوسف أبو ديه أحد الضباط الثوريين ومعاون عبد العال حلمى اذ مر على طنطا أثناء توجهه من دمياط الى عرابى فى كفر الدوار وكانت ثورته جارفة . فكان يشجع الاستمرار (٣) الى أن حسم الأمر المنشاوى وهدأ الموقف .

وفى « المحلة وسمنود » اعتدى الفلاحون على الأجانب ، وقتلوا بعضا منهم (٤) ، ويقول شاهد عيان لأحداث المحلة « وصلنا الى بيت المفتش — وهو مفتش التأريع والمساحة وكان نصرانيا — فوجدناه مغلقا وعلى بابه جماهير ثائرة يريدون كسره واقتحام البيت لنهبه وقتل من فيه ، والأهالى ثاروا رجالا ونساء وأطفالا يصيحون الله أكبر ويهجمون على الحانات والدكاكين ، وكان القتلى ستة من الأروام وثلاثة من مهندسى التأريع الأوروبيين (٥) » •

وواضح أن عملية الانتقام كانت من مهندسى المساحة الذين لعبوا بأراضى الفلاحين وكم اقتطعوا منها لحساب مصلحتهم وذويهم باعتراف المسئولين الأجانب أنفسهم ، ثم الهجوم على الحانات وكان ذلك ضروريا وجاء متأخرا ، فالدين يحرم التعامل مع هؤلاء •

ومضى ذلك النشاط ، فتكرر ما حدث فى كفر الزيات (٦) ، وفى دمنهور يقول نائب قنصل اليونان « ان الفلاحين مثلوا بالجثث وسكبوا

---

(١) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ٤٩ •

(٢) Egypt, No. 17 (1882), June 26, 1882, p. 37.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤١٠ •

(٤) The Times, July 25, 1882.

(٥) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ١٤٢ •

(٦) The Times : op. cit.

عليها وأحرقوهـا ، وقدرت بحوالى خمس أو سـت (١) » ، وراح يرمى الفلاحين بالتعصب وان الأجانب لا ذنب لهم وأظهرهم بأنهم اصبحوا بلا حول ولا قوة كما فعل مراسـل التيمز الذى أشفق على ما حـدث لهم على أيدى الفلاحين فى طوخ (٢) .

كان هذا العنف تعبيرا عن السـخط لما ذاقوه على أيدى الأجانب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فمصر فى حالة حـرب مع الانجليز فقدموا كل ما يملكونه من قوة انتقامية يحاربون بها الأعداء فى صورة الأجانب جميعهم ، ومن الملاحظ أن القائمين على الثـورة وعـلى رأسـهم عرابى لم يقدموا على مجازاة أى فلاح شهر سلاحه أمام أجنبى فكان دليلا على ارتياح التى انتابت الثورة من جراء ما حدث وكل ما فعله عرابى للرد على ذلك انه استبدل بعض المديرين للقليوبيـة والمنوفيـة والغربيـة لتهدئة الموقف واحـالهم للمحاكمـة بسبب « عـدم حفظ الأمن » ، بالاضافة الى ارساله فرقة عسكرية بقيادة محمد عبيـد الى دمنهور لاعادة الأمن والراحة . وبما انه كان متعهدا للقناصل بالمحافظة على امر الأجانب أرسـل للمديرين بصيانة حيـاة وأموال الأوربيين ، وأحيانا يطلب حماية ممتلكات الأجانب المهاجرين من السطو والتعدى (٣) . وبلغ نتيجة انه لم يأت ٢٣ يوليو ١٨٨٢ حتى كان عـدد الهـاربين من الأجـانب ٢٨ ألفا (٤) ، وواضـح أن ذلك كان عقب الضربات التى وجهت اليهم .

واستمرت المناوأة ، ولم يعـد الأمر قاصرا على تحقيق مصـالح خاصة للفلاحين بل تعداه الى نطاق أوسع من أجل مصر والدفاع عنها « فقد قام فلاح من السـلامية دقهليـة بالهجوم عـلى الخواجـة طنـاش اندر ساكى وكيل مخالى اندرساكى التاجر بناحية السلامية بمركز ميت سمنود وهو تاجر أسلحة وسـيوف واسـتولى على تلك الأسـلحة ، وارسـلت للجيش » ، وفى بلبيس هجم الفـلاحون على ثلاث محـلات للأجانب وأخذوا ما بها من سـلاح احتوى على بنادق وسـيوف وطبنجات ورصاص وبارود وأوصلوها الى مقر القيادة (٥) .

---

(١) Scotides, No : L'Egypt Contemporaine et Arabi pacha, Paris, 1888, p. 215.

(٢) The Times, July 21, 1882.

(٣) Ibid ، أحمد عرابى : تقرير ، ص ٣٧ ، سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ١٤١ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٥ .

(٤) الأرشيف النمساوى ، محفظة ٢٠ مجموعة ٣٦/٣١ ، ٢٣ يوليو ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٨ ، ٣١ .

البعد السياسي لثورة الفلاحين :

سيطرت فكرة سقوط النظام القائم على يد عرابى ، وسرى اتجاه قوى بين الفلاحين أنه بنهـاية الحرب وانتصـــار مصر لن يعود الخديو الى عرش مصر ولا من معه من الأكابر والذوات الباشوات حيث أنه هو المنسبب «فى هتك اعراض المسلمين فى الاسكندرية وفى قتلهم» ومضى السب فيه والدعاء لعرابى بالنصر ليس فقط على العدو الانجليزى ولكن أيضـــا على الخديو (١) ، وآمنوا بأنه سيكون الوالى عليهم ، فهو من السلالة النبوية الشريفة وولى من أولياء الله المكشوف عنهم الحجاب ، وأذاع العلمـــاء فى القرى « أنه توجـد نصوص قاضية عـلى أن عرابى سينتصر ويتسلم ولاية مصر بدلا من الخديو ، ويجرى رفع المظالم ويعيد قطع دابر الافرنج والأتراك وتبقى الحكومة لزمام المصريين فى الوظائف وتنحصر فى الفلاحين الذين هم عمد البلاد ، وأن عرابى سيصير ملكا للعـــرب عموما بما فيها الشـــام والحجاز (٢) » .

كان ذلك هو الشكل السياسى الذى أراده الفلاحـــون ، لا حاكم من أسرة أجنبية ، ولا أتراك مستوردون ، ولا أجانب مسيطرون ، انما حاكم فلاح عربى وحكومة مشكلة من فلاحين ، وتأصلت النزعة القومية ، وراود الأمل فى عودة مجد مصر عندما كانت مسيطرة على الشام والحجاز وحملها للواء العروبة قبل دخولها تحت الحكم العثمانى .

وكانت المشاركة فى اختيار عرابى للدفاع عنهـــم وعن مصر مسألة ديمقراطية للغاية ، فقد أراد عرابى أن يستند على الشعب بفئاته فى الوقت الذى رأى فيه الفلاحون المشاركة فى تنصيب هذا الزعيم الفلاح ، ومن هنا كانت تلك الأختام التى أوكلته والتى كانت سندا قويا له دعم به موقفه أمام القوى المضادة الداخلية والخارجية ، كذلك شملت التعبير عن الرأى العام برفض التدخل الأجنبى الذى تمثل فى مذكرة مايو المشتركة ، ورفض من قبلهـا متمثلا فى الخديو ، فيذكر ماليت لوزير خارجيتــه أن التوقيعات أخذت من الطبقات الفقيرة ضد المذكرة الانجليزية الفرنسية وضد الخديو (٣) » ، لقد أدلى الفلاحون برأيهم بأنهم لا يريدون الخديو ولا يريدون اللائحة على أرض مصر كلها ، ومما لا شك فيه أنه كان للأعيان والعلماء دور فى هذه العملية .

وكان للنديم مشاركته اذ وزع الخطباء على المديريات تخطب وتطلب الى

---

(١) نفس المصدر ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٨٩ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤١ .

(٣) Egypt, No. 8 (1882), No. 111, May 20, 1882.

للناس كتابة العرائض وارسالها الى بعثة السلطان ليحتجوا على المذكرة وليطلبوا عزل الخديوى ، وللعسكريين أيضاً مهمة في عمليات التحام قوى الشعب ، فقد قام بعضهم بعمليات التختيم داخل القرى (١) .

ويجب أن نذكر أن الفلاحين لم يكونوا منساقين في ذلك حيث أن وعيهم قد وصل الى درجه عاليه سهلت هده المهمة ، فقد كان كل مصرى قلبه يحقق مع عرابى، وكم اساءتهم استقالته مع وزارة الثورة . وكم اسعدتهم عودته ، وعندما بدأت الحرب كانت دعوات النصر تتردد على كل لسان ، وبلغت المشاركة والحماسة أشدها ، ويقول Wallace « وفى كل صباح كان الفلاحون يحكى كل واحد منهم للآخر الأخبار التى تصل فى المساء عن تلك الانتصارات الرائعة على الغزو الأجنبى وعن تلك الضربات القاصمة لمغتصبى أرضهم (٢) » وكانت أجهزة الدعاية للثورة تمضى داخل الريف لتعطى الاطمئنان عن استعدادات الجيش وعلى الأمل الكبير فى النصر .

وبالرغم من تعرض بعض الفلاحين لنفوذ القوى المضادة والتنكيل بهم لكى يحيدوا عن تأييد الثورة وذلك بالضغط عليهم بجميع الوسائل الممكنة ، الا أنهم لم يلينوا ابدا وظلوا متمسكين بمبادئهم حتى النهايه ، فقد قام مدير ومفتش جفلك فى « ميت خلف » بالمنوفية بالتحايل وسجن أحد الفلاحين لأنه دعا بنصرة عرابى ، وكان هذا المدير من الرافضين ووقف أمام طلبات الجيش ، كما قبض محمد أفندى فؤاد الشركسى على من كان يطوف ويقول : « الله ينصرك يا عرابى بجيش المؤمنين » وأجرى ضربه ضربا فاحشا وحبسه أسبوعا ، وتعرض فلاحو تفتيش « كفور نجم » بالدقهلية للطرد من أراضى التفتيش اذ كان المفتش هو شاهين بك الشركسى ينبه على الفلاحين بعدم اطاعة طلبات الجيش من جمع الأنفار ، لكن وطنيتهم فرضت عليهم رفض الأوامر واستمروا فى طريقهم ، ولما تأكد من استحالة ردعهم وقع عليهم الجزاء القاسى فيقولون « أبرق للدائرة الالهامية لاخراجنا من أوطاننا بالتفتيش وأحرمنا من التعيش ، ووزع أطياننا بمعرفته مع أنها كانت مؤجرة لنا من مدة جدودنا لحد تاريخه » ، ولم يكتف بذلك بل سجن احد شيوخهم ، فامر عرابى بالتحقيق ومعاقبة المسئول (٣) .

ووصل بالفلاحين أنهم شنوا حربا شعواء على أعداء الثورة ، فكانوا على وعى ويقظة واستطاعوا أن يقضوا على حركات الخيانة للمعسكر المضاد،

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ دوسيه ١٠ .

(٢) Wallace : op. cit., p. 291.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ . دوسيه ٢٨ ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٧ .

فقد كتب يعقوب صبري مدير الفيوم الى عرابي يبلغه « بلغنا ممن يوثق بأخباره انه بينما كان بمحطة الواسطي ينتظر وابور الفيوم اذ أقبل عليه شخص عليه جلابية رثة وعمامة خلقة واقع عليه القبض من جملة من الفلاحين يلتجيء اليه لتخليصه منهم، واذا هو عثمان بك رأفت أمير خور الخديوي .. وذهبوا به الى مأمور مالية بني سويف وقالوا له ان هذا الشخص متحف وكان في قارب في البحر تحت الواسطي ، وأنهم لهذه المناسبة أرادوا القبض عليه فخرج الى البحر لقصد الفرار فضبطوه وأحضروه الى مأمور ماليه بني سويف فسأله عن الهيئة التي هو متزي بها فأورى أن هذه ملابس نومه وانه قاصد أبعاديته ببني سويف، وأبرز له جوابا من وكيله، فما كان من مأمور المالية الا أنه اكتفى بذلك وأطلق سراحه»، ومن هذا يتبين أن الفلاحين أدركوا أنه جاسوس وعدو يعمل ضد الثورة فأمسكوا به على الفور ، وللأسف أطلق سراحه هذا المأمور ، فوجه عرابي أمره للبحث عنه والقبض عليه في جميع الجهات بالبنادر والمراكز (١) .

كذلك عمل بعض الفلاحين كطابور خامس للجيش ، فعندما أعلن سيمور أن من يحضر له أسيرا من المصريين يعطيه خمسمائة جنيه ، فحضر له أهالي وفلاحون من ادكو وأخذوا منه مائة جنيه مقدما وطلبوا بعض العساكر الانجليز ليكونوا معهم لاقتناص العساكر المصرية ، فأعطى لهم خمسة عشر رجلا ، فما أن وصلوا الى كفر الدوار حتى سلموا العساكر الانجليز للمعسكر المصري . (٢)

وعندما لعبت الخيانة دورها بزعامة سلطان ، وأذيع في المنيا أنه سيدخل مصر من الجبل ومعه مائتا عسكري انجليزي ، على الفور جمع أحد الفلاحين أنفارا كثيرة وخيالة بالأسلحة لسد الدروب والمنافذ بالجبل ومنعه من الدخول .

كذلك وجهوا نشاطهم تجاه الذوات ، فأعلن أن من يقاوم عرابي منهم لابد من هلاكه وسلب ما يمتلكه (٣) ، وراحوا يهددون من يتأخر منهم في سداد الاعانة الحربية بالتجريد من أطيانهم التي تؤخذ وتوزع على من يؤدي طلبات الجهادية ، وفي البحيرة هاجموا أراضي الوسية الخاصة بحيدر باشا « واستولوا على مواشيها من أجل الجهادية » (٤) .

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٧ ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٢) الطائف ، عدد ٤٩ في ٥ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٤١ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٩ .

الفلاحون والمجهود الحربي :

أ ـ التبرعات :

مع قيام الحرب أحس كل مصري بما أنيط به من واجب عليه أن يقوم به . وكفاح عليه أن ينزل اليه ، وكانت التبرعات العينية احدى سمات المشاركة الفعالة لقوى مصر جميعها ـ وقد قدم الفلاحون الكثير بالرغم من تلك الظروف الصعبة التي طحنتهم وأتت على كل ما لهم ـ فكانت عمادا للقوات المصرية في وقت فيه الخزانة المصرية خاوية كما تسلمها عرابي بعد أن أخذت الأموال الى الاسطول البريطاني على يد كولفن . وحتى أموال صندوق الدين حملها أعضاؤه الى السفن الحربية (١) .

اعتمد عرابي على الوطنية الصادقة لقوى مصر وخاصة الفلاحين وعلى الحب المتبادل بينهما فأصبح على ثقة بأنه اذا طلب سيجاب لذا نراه يخبر العمد والمشايخ بمتطلبات قواته ، وعلى الفور كانت الامدادات تصل للجيش بغاية السهولة مصحوبة بالحماس الوطنى الملتهب مرسلة رأسا الى عرابي .

ومن الصعب عمل حصر شامل لتلك التبرعات ، فالوقائع المصريه ، والمحفظة الأولى والرابعة من محافظ الثورة تذخر بالأعداد الهائلة والكميات الوفيرة من القمح والأذرة والشعير والفول والعدس والنخيل والجمال والماشية والأغنام والفاكهة والمسلى التى وفدت على معسكرات الجيش فى كفر الدوار ورشيد والتل الكبير ، ويذكر نينيه وكان مصاحبا لعرابي فى كفر الدوار تلك التبرعات التى كانت ترد كل يوم ولم تنقطع أبدا (٢) ، حتى لقد ملئت مخازن الجيش عن آخرها بالأغذية ، وحتى من لا يمتلك فقد جمع الحطب وأرسله وقودا للمعسكرات ، والبعض تبرع بكل ما تمتلكه يداه ، والبعض قدموا طلبات الجيش نصف ثمنها تبرعا منهم والنصف الآخر بثمنه الأصلى ، وشارك جميع الفلاحين فى هذا المجهود ، حتى من كانت عنده بقرة أو جاموسة أو بعض من أرادب القمح أو الشعير لم يبخل وقدمها وعلى سبيل المثال ، ففى أحد الكفور بالمنوفية تمكن الفلاحون ذوو الامكانيات المحدودة من تجميع ٨٧ رأس خيول وبغال وفحول وجاموس لاهدائها للجيش (٣) .

---

(١) محمود الخفيف : احمد عرابى الزعيم المفترى عليه ، القاهرة الهلال ، ١٩٧١ ، ص ١٣٢ .

(٢) Ninet : op. cit., p. 216.

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٤ فى ٢٥ يوليو ١٨٨٢ .

ومما يستلفت النظر أن برقيات أنباء التبرع بها نوع من الرجاء لقبول تلك الهبات « نؤمل التصريح باستلامهم » ، والبعض يضيف «وجميعنا باسطين الدعوات لعزة مولانا عز وجل أن يؤيدكم بالنصر المبين » ، وعلى الفور كان عرابى يقوم بعملية الرد فكان اللقاء بين القائد وشعبه ، فيقول في أحد ردوده « وهذا دلالة على ما لحضرتكم من الغيرة الدينية والحمية الوطنية فأهديكم مزيد سروري وممنونيتي وأتشكر لكم على حسن صنيعكم أنتم وأمثالكم (١) » .

وقد ساعد توقف الحركة التجارية بسبب الحرب على توفر كل السلع وامكانية تدبيرها ، وتقديمها للجيش المحارب ، وبجوار السلع كانت هناك الأموال التى قدمت كتبرعات من فلاحى النواحى كل على حسب امكاناته فعلى سبيل المثال لا الحصر « تبرع أهالى ناحية قهرة بـ ٢٣١٤ قرشا ، وناحيه أهناسيه ٢٣٩٤ قرشا ، ناحية بشنا ٢٣١٥ قرشا ، ومثلهم أهالى ناحيه الحمام وبنى هرون والشناوية وناحية غيط البحارى وناحية الرمل القبلى بلغت تبرعاتهم ١٧٦٦٤٢١٣ قرشا وأهالى بحرى ١٠٣٥٤٥٢٦ قرشا (٢) » وليس المقصود هو تجميع المبالغ ومعرفة قدرها ولكن الهدف أنها كانت على المستوى الكلى لمديريات مصر لتعبر وتثبت المشاركة الفعالة ، وأصدق تعبير ما أقره عرابى وهو فى سجن الدائرة عقب نهاية الثورة « ان الأموال الغزيرة زحفت على خزينة الجيش (٣) » .

وقد كان لأقباط مصر مساهمة حقيقية سواء فى تقديم المساعدات العينية أو المالية (٤) اذ انعدمت أى ثغرة كان يمكن لها أن تقيم فرصة لفصم عرى الوحدة ، فحرص الاقباط على تجنب اية اضطرابات ممكن أن تسيىء للحركة الوطنية ، واجتمع الفلاحون على وحدة وطنية ومفاهيم جديدة وفقا لمبادىء الثورة ، ففى تقرير محمد عبده لبرودلى يسجل « كان كفاحنا وطنيا موحدا بين كل أجناس مصر الكرد والمسلمين والأقباط واليهود ارتبطوا برابطة الحماسة، وقدموا جميع المساعدات فالحرب هى بين المصريين جميعا وانجلترا (٥) » .

وقد كتب عرابى لصابونجى يقول : « ان النفقات التى تكلفها

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ١٤ ، ١٧ ، ٢٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ أغسطس ، عدد ١٩٧٦ فى ٢٨ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) Broadly : op. cit., p. 133.

(٤) محافظ الثورة العرابيه ، محفظة ١ ، دوسيه ٢٢ الوقائع المصرية ، نفس العدد

(٥) Broadly : op. cit., p. 231.

١٠٠٫٠٠٠ جندى مصرى أثناء الحرب هبات من الأمة المصرية ، ففى بداية الحرب لم يكن هنــاك أكثر من ١٠٫٠٠٠ جنــدى تحت السلاح ، ولا أكثر من ١٫٢٠٠ من الزى العسكرى فى المخازن ولم تكن جاهزة ، ١٫٥٠٠ بشل ــ مكيال انجليزى للحبوب ٣٦٫٣٥ كيلو ــ من القمح ، ولكن عنــد نهاية الحرب كان بخزائن الجيش والمديريات والمخازن ما يزيد عن ١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى من الأموال ، والمنتجات والماشــية ، والجاموس والغنم ، والأقمشة ، كل ذلك قدمته الأمة لجيشها المدافع عن بلدها ، ولم ينفق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة (*) » ، وحينما انتهت الثورة كانت التهم التى وجهت للكثيرين أنهم قدموا التبرعات للقوات المصرية ، تلك التى ساهم فيها الفلاحون بالنصيب الوافر ٠

ب ــ التطوع والعمل فى الميدان الحربى :

لم تكن مساهمة الفلاحين عن طريق التبرعات فقط بل ازداد الأمر بما ضحوا به من أجل مصر عن طريق تقديم أنفسهم للدفاع عن شرف الوطن الذى دنسته أقدام الغزو الأجنبى ، واشتركوا اما كمتطوعين أو كعمــال فى بناء الاستحكامات والتجهيزات العسكرية ٠

وهذا يدعو للتساؤل ، كيف أمكن للفلاح الذى تعود ألا يفارق أرضه وألا يذهب الى الجهادية التى كانت سخرة مفروضة عليه وكثيرا ما كان يجمع النقود من أجل دفع البدلية أو يدفع الرشوة للقائمين على جمع أنفارها أو يقطع أصبعه أو يخرق عينه من أجل أن يبقى فى أرضه ولا يذهب اليها ، أن يذهب الآن ويقــدم نفسه متطوعا بارادته لا بارادة أحد غيره ؟ لقد دفعه الحماس وقاده الواجب ، فقد اعتبرت الحــرب بين مصر والانجليز حربــا دينية مقدســة ٠ اذن فالجهــاد فى سبيل الله هو أرقى درجات الايمان حيث النصيب الجنة ، والفلاح المصرى متدينا بطبيعته ويتفانى فى هذا السبيل، كما كان ذلك الرباط الذى توثق بين عرابى والفلاحين قوة دافعة لهم يلبون نداءه ويطيعون أوامره ، وهؤلاء الدعاة الذين جابــوا القرى يحثون على التطوع بالخيول والأسلحة لحرب المسيحيين الأجانب أعداء الدين والوطن وانه من الواجب على كل مسلم الذب عن نفسه وعن أهله ووطنه ٠

وأوراق الثورة العرابية مليئة بنداءات الفلاحين لأهالى بلادهم ، تلك التى كان لها الأثر الكبير والانفعال العميق على الفلاحين « كان عبد ربــه يوسف عبده من كفر عبد الخالق مديرية المنيا يمر على النواحى وينادى : هيا بنا نتوجه لطرف عرابى الذى هو من نسل المبرور : بعثة الله لحماية

(*) Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt, p. 541.

الوطن والدين ، وسيجعله واليا على القطر المصرى ، وان أسيادنا المشايخ متوجهين للخرابة وان أحدهم نظر رؤيا تدل على نصرته » وكان ممتطيــا لجواده وبيده البيرق ويقول بأعلى صــوته « نصره نصره نصره عـرابى منصـور يا قوم اجعلوا الموت أمام أعينكم ولا تخشوا من شيء ومن لم يمت بالسيف مات بغيره » . وعلى الفور قام الفلاحون بالتجهيــزات العســكرية من مشترى أسلحة وخيول وخيام وما يلزم من الذخـائر وتوجهوا صــحبة المشايخ بزيادة ألفين وخمسمائة نفر (١) .

واستمرت النداءات التى أثارت الحمية الدينيــة والوطنية ، وكان للنديم مساهمته ســواء عن طريق الطائف التى التهبت مقالاتها عن الجهاد واستخدم الآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية ، ويصف المعارك والانتصارات التى يتبعها خلق الحماس والثقة والقوة ، وكان أيضــا له الدور مع أتباعه فى حث الفلاحين وحشدهم للاشتراك فى الدفاع عن أرض الوطن ، وطبيعى أن يلبى الفلاحون هذا النداء ، وتلك الصــيحات التى خرجت لتنادى أهل مصر لانقاذ البلاد وسرت هذه الروح بعــد أن أحس الجميع أن الاسلام فى خطر وأن الواجب يحتم عليهم القيام للوقوف مع ذلك البطل لانقاذ مصر « وبهذه الطريقة أثيرت حماسة الفلاحين وازداد الحزب الوطنى أعدادا من المؤيدين (٢) » ، وداع صــيت الفلاحين المصريين الذين يدافعون عن بلادهم فتقر احدى الصــحف التركية « بأنه بعد أن كانوا ينفرون من العسكرية ولا يجلبون اليها الا فى الحديد أصبحت الآن رغبتهم فى الدخول تحت السلاح قد حيرت العقول وما ذلك فى الحقيقة الا لكونهم يريدون الوقوف أمام التعرضات الأجنبية (٣) » .

وماجت البلاد بطوفان التطوع ، ويذكر محمد عبده لبرودلى « رأيت الأهالى يذهبون الى الحرب بمحض ارادتهم سواء كانوا فلاحين أو بدو مبدين شوقهم الكبير لمحاربة الانجليز حتى الأقباط أبدوا نفس الشعور (٤) » .

وتتابعت الوفود التى تصل أرض المعركة من أدنى مصر الى أقصاها وتدفقت البرقيات الى عرابى برغبة الفــلاحين للتطوع وكان يرد عليهــم ويشــكرهم ومن كثرة الأعداد الملحة فى الاشتراك نرى عرابى يبلغ بعض

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٨ محفظة ١٢ ، دوسيه ١٨٧ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٧ .

(٢) Wallace : op. cit., p. 87.

(٣) المفيد ، عدد ٥١ فى ٢٧ ابريل ١٨٨٢ عن صحيفة ترجمان الحقيقة (الأستانة) ، عدد ٢٣ جماد أول ١٢٩٩ .

(٤) Broadly : op. cit., p. 233.

مديرى المديريات « نحن شاكرين المتطوعين غيرتهم على أوطانهم ، فبلغوهم عنا ذلك وأخبروهم أن يكونوا مستعدين لحين الطلب أما الآن فيطمئنوا فى اماكنهم آمنين (١) » .

لقد ايمن الفلاحون انهم يحاربون من اجل حريتهم وبلدهم، ويحلل بلنت ان سبب اشتراكهم « ان الفلاحين قد استغرقتهم ديونهم للدائنين اليونانيين ، فكان هذا من أسباب حماستهم لأنهم توهموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون ، فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال (٢) » ، لكن لم يكن الأمر كما تصوره ، فان الفلاحين كان من السهل عليهم التخلص من ديونهم مع المرابين ، فقد تمكنوا من ايجاد الطرق لذلك واستخدموها ، وانما الذى جعلهم يشتركون فى الحرب بتلك الحماسة هو الايمان الصادق، والوعى العميق ، والواجب المقدس ، وحب القائد جعلهم يتقبلون قرار الحرب بالرضا الكامل ، ويقسم نينيه أن فلاحى مصر كانت الوطنية والحرية لديهم يفضلونها على كل شيء (٣) .

وأوراق الثورة تشير الى أن الكثير منهم كانوا معدمين ، فنرى مأمور تشهيل العساكر بفنا يرسل الى عرابى ليخبره « وجـود أشـخاص من الأهالى راغبين التوجه للمجاهدة ، والبعض منهم محتاجين لصرف جروى من النقود لزوم القوت الضرورى فقط لغـاية وصولهـم لمركز الجيش وصار الاستئذان عن ذلك من المديريـة فلم أمكن الصرف ، فنؤمل صدور أمـر سعادتكم اذا رئى موافق اما بصرف نقود أو بصرف بقسماط لهم من الجارى تشغيله بالمديرية (٤) » .

ومما أشعل الحماس تلك الأخبار التى كانت تغطى أرض مصر كلهـا بانتصارات الجيش على أعداء الله ، وذلك عن طريق الصحافة والخطب فى المساجد والدعـاة المتنقلين أو الدائمين وأصبح أفراد كل قـرية يتكلمون ويتناقشون ويبدون الرأى فى المسـائل السياسية والشئون الحربية التى تناولت نقط الجيش ولقاء المعارك والهجوم المصرى (٥) .

وكان لذلك رد فعله القوى ، فلم تخل قطارات السكة الحديد فى أى يوم من أعداد المتطوعين بأسلحتهم سـواء كانت بنـادق أو حتى نبابيت ،

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسيه ١٨ .

(٢) Blunt : op. cit., p. 394.

(٣) Ninet : op. cit., p. 268.

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١ ، دوسـيه ١٩ .

(٥) نفس المصدر ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٧ .

ومعهم خيولهم « مجاهدين على المحاربة ضد الخديو (١) » ، اذن لم تكن الحرب ضد الانجليز فحسب بل أيضا ضد من كان السبب في احضارهم ، واختلفت الآراء في عدد المتطوعين ، الا أنها كانت أعدادا كبيرة ، ولم يكن يمضي عليهم الا نحو خمسة عشر يوما من التدريبات ويدخلون ميدان المعركة ، فتذكر الوقائع « تعلموا فيها ما لو رآه منهم انسان لم يفرق بينهم وبين العساكر القدامى ، فاذن يحق لسعاده أحمد عرابي أن يفخر بما كان له من الثقة في الأمة المصرية ، فقد جذب اليه قلوب الأمة جميعها حتى أخلص الضباط في التعليم والعساكر في العلم (٢) » .

والكثير يلقي على هؤلاء سبب الهزيمة ، حقيقة أن الفترة الزمنية كانت غير كافية على تدريب تلك الأعداد الكبيرة وليس كما ذكرت الوقائع أنه في فترة قصيرة تساووا مع أصحاب المهنة ، هذا بالاضافة الى أن التدريب كان نظريا ولم يكن عمليا وأثر ذلك في اللقاء الميداني ، ففي تقرير نمساوي يذكر « لم يصمد الفلاحون الذين حولهم عرابي بين يوم وليلة الى جنود أمام القوات البريطانية التي هاجمتهم بالسلاح الأبيض في خنادقهم برغم تفوقهم العددي الذي بلغ ضعف القوة البريطانية (٣) » ، لكن لم يكن الأمر كله هزيمة — تلك التي تضافرت عليها عدة عوامل — اذ حارب هؤلاء بشجاعة « وكانت قلوبهم تملؤها الكراهية للغازين » (٤) ، واستشهد كثير منهم ، وكان نينيه شاهد عيان على أولئك الفلاحين حيث قال « لم يكونوا يحاربون من أجل نياشين أو مكافآت بل ان الروح الوطنية والثورة المتأججة في صدورهم أثارت حماستهم (٥) » .

وأمام هذه الروح المعنوية العالية وذلك القبول التام للرغبة الأكيدة في الاشتراك لصد هجمات الغزو كان من الممكن أن تكون النتيجة غير ما وصلت اليه ، ويلقى البعض اللوم على عرابي لعدم استغلال هذا الشعور الفياض في تعبئة القوى الشعبية ، لكن لم يقصر عرابي في ذلك اذ بدأ في التنفيذ ، فحتى قبل اعلان الحرب جرت عملية استعدادات لتدريب الفلاحين وتسليحهم ، وقد ساهم « حميد أبو ستيت » في تجميع قوى الفلاحين وتوزيع الأسلحة عليهم ، ومع الحرب نرى مدير قنا يطلب ارسال ألف بندقية لتسليح أهالي مديرية

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ في ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٣) الأرشيف النمساوي « محفظة ٨٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٤) Scotides : op. cit., p. 187.

(٥) Ninet : op. cit., pp. 175, 177.

قنا للاستعداد (١) . وفي منطقة بحيرة المنزلة دعي الأهالي لحمل السلاح والتدريب بالطوابي القريبة ، فقد صدرت أوامر عرابي لمدير الدقهلية « لأجل حفظ بحيرة المنزلة ، نبهوا على مأمور مركز المنزلة بأن يستحضر العمدوالمشايخ ويأخذ عليهم التعهدالقوى باستخراججميع الانفارمنالاهالي الذينلهم المام باستعمال الأسلحة النارية يجعلوافي النقط المهمة في بحيرة المنزلة لأجل حفظهامما عسى يطرأمن العدو بالدخول منها بواسطة مراكب واذا لم يكن عندهم أسلحة لبعضهم فيصير طلبها من ديوان الجهادية » ، كما أرسل نفس المعنى لمدير الشرقية « باستحضار العمد والمشايخ وأخذ التعهد عليهم بحفظ بحيرة المطرية والزامهم باستخراج أنفار من بلادهم (٢) » ، وأخذ مدير الشرقية في الحال باعداد الأسلحة اللازمة للتنفيذ .

وبذلك أصبح هناك مناطق للدفاع الأهلي ، وقسمت الدقهلية شواطيء البحيرة على خمسة آلاف فلاح تحت رئاسة العمد والمشايخ واشـــراف مدير الدقهلية ومأمور دكرنس ، وارسلت ٢٠٠٠ بندقية الى عبد العال حلمي قائد دمياط ، ووزعت على الفلاحين لحراسة الشواطيء ومقاومة كل غزو يتوقع من هذه المناطق ، وعقب نهاية الثـــورة وجدت هذه الأسلحة مع الفلاحين واعترف كثير منهم بالمهام التي كانت ملقاة على عاتقهم (٣) .

حقيقة أن تلك التعبئة لم تكن على المستوى الواسع ، لكنها وجدت وأقبل عليها الفلاحون وما كان على عرابي الا أن يتوسع فيها .

كذلك رأى عرابي تعبئة الخفراء للعمل في الميدان الحربي ، فأرسل للمديريات بطلب تعيين حرس أهلي من المقتدرين عـلى حمل السلاح لحفظ الأمن ، ويقوم بتعليمهم « ضباط المستحفظين وأصحاب المعاشات منهـم » ووزعت أعداد الخفراء على البحيرة ١١٧٢ ، والقليوبيـة ١٠٣٨ ، والشرقية ٢٠٧٧ ، والغربية ٣٤٣٥ ، والدقهلية ٢٦٦٥ ، والجيزة ١٣٥٠ ، وبني سويف ٦٩٥ ، والفيوم ٨٦٣ ، ومنية أبي خصيب ١٧٣٨ ، وأسيوط ٢٣٤٥ ، وجرجا ٢١٦٠ ، وقنا ١٦١٠ ، واسنا ١٤٦٢ ، فكان جميعهم ٢٥٫٠٠٠ خفير (٤) . وازدادت رغبة الخفراء في التطوع والانتظام في السلك العسكري ، ولم يقتصر الأمر على الشباب بل كان كل من في قدرته حمل السلاح قدم نفسه

---

(١) معية سنية ، دفتر صادر التلغرافات (١٨٨١ ــ ١٨٨٣) ، سجل ٢ ، مجموعة ٣٩ ، ١٧ يونيو ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ ، محفظة ١٥ ،دوسيه ٣٣٠ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٧٦ .

(٤) نفس المصدر محفظة ١ دوسيه ٨ ، الوقائع المصرية ، نفس العدد .

فبينما كان على فهمي يفرز الخفراء الواردين من المديريات « فورد عليه رجل من أهالى أسيوط الذين كانوا يتقدمون للفرز وهم باسمون مستبشرون فرأى من ضمنهم رجلا قد أبيض الشيب رأسه ولحيته فأمر بارجاعه فاحتد الرجل وقال لاتنتظر ياسعادة الباشا الى هذا الشيب، فقربه الباشا وقبل لحيته البيضاء (١) » .

وبينما نجح عرابى فى ذلك نجده لم يوفق فى مسألة الحرس الأهلى ، فقد رفضه المجلس العرفى وعلل « بكثرة أشغال الأهالى وأن الذين لهم مقدرة على حمل السلاح يكون أجرى تعليمهم بالآيات ويسافروا مع الجيش عند الاقتضاء» ويمضى فى تعليل رفضه» أن من يدخل تحت السلاح هم الفقراء المحتاجون للقوت ويخشى على البلاد اذا سلمت اليهم حراستها (٢) » وكان المجلس يهدف الى ابعاد السلطة عن الشعب وهم من أصحاب المصالح التى يخشون عليها .

أما عن الفلاحين الذين اشتركوا فى بناء الاستحكامات ، فقد أدوا دورهم على أحسن وجه ، فانه بعد ضرب الاسكندرية واتخاذ قرار التحصين بكفر الدوار جعل خط الدفاع فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية الى الملاحة ، وجعل ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة بمدافع الكروب وكذلك التلال الموجودة بين المحمودية وأبى قير « وقد تم أجراء هذه الأعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة الحربية ومساعدة ٥٠٠٠ رجل من الأهالى من مديريتى الغربية والمنوفية ومديرية البحيرة » (٣) . وبذلك اشترك الفلاحون فى بناء هذه المواقع وحفر الخنادق أمام الخطوط الدفاعية، ويذكر محمد شكرى باشا وكيل عموم الاستحكامات « حضر الفلاحون فوزعهم محمود باشا فهمى للشغل على طول الخط وعلى بعد نحو ١٠٠٠ متر من كنج عثمان ورأيته وهو يقسم مزاغل البيادة بيده ، ويعلمها للمهندسين والفلاحين والضباط حتى صاروا يجرونها من أنفسهم (٤) » .

وكانت تتم عملية تغيير وتبديل للفلاحين العاملين نظرا لهذا المجهود الشاق الذى يتحملونه من ناحية وحتى يراعوا زراعتهم من ناحية أخرى ، فيكتب عرابى الى مديرية الغربية يقول « حيث مقتضى تغيير الأنفار

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢١ ، دوسيه ٦ .

(٣) أحمد عرابى : مذكرات ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

الموجودين بأشغال الاستحكامات من المديرية بأنفار خلافهم ، فينبه بارسال انفار بقدر المخصص على المديرية بالمقاطف والفئوس الى كفر الدوار (١)» .
ولم يكن عملهم مقصورا على الميدان الغربى فقط انما ساهموا أيضا بعملهم هذا فى الميدان الشرقى ، وازدادوا فى اعدادهم عن المطلوب وعملوا بروح عالية اذ «كانوا يتنافسون فى بناء تلك الحصون والمتاريس والاستحكامات» (٢) ويصفهم فارمان « كانوا ينامون فى مثل تلك الأحوال فى مكان عملهم بالليل على الأرض يلتحفون ببطانية واحدة على الأكثر لوقاية أنفسهم (٣)» . وقد تعرضوا للابادة التى شنتها القوات الهندية على المصريين فى الميدان الشرقى ، لكن بعد أن قاموا بدورهم خير قيام وبقيت أسماؤهم مجهولة .

هكذا أيد الفلاحون الثورة واشتركوا فيها ، وساهموا فى المعركة مساهمة فعلية بكل قواهم المادية والمعنوية ، وكانوا على استعداد للمضى فى الحرب والمزيد من التضحيات ، ولكن الظروف كانت أقوى ، فلم تحقق لهم ما أرادوا ، ولم تعط مصر النصر المأمول .

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٢/د/٣ .
(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .
(٣) فارمان : المرجع السابق ص ٣١٦ .

الفصل العاشر

التجار والحرفيون

نمو الوعي :

ساء وضع التجاريين والحرفيين وتعرضوا لظروف غاية في القسوة من زيادة ضرائب بدون قاعدة وبغير حدود ومن سيطرة أجانب ومن ذل فرضته الحالة المالية التى هزت الكيان المصرى ، وانقلبت تلك الوداعة التى اتصف بها المصريون وتلك الطبيعه الهادئة التى كانت من سمتهم الى احساس عميق بالنير خلق شعور الثورة لتفجر الكراهية التى ملأت القلوب، والتى شملت قوى مصر ، فحتى أرفع درجة من التجار كانت تعانى من الحصول على العدالة (*) ، أما فقراء الطبقة الدنيا من الحمالين والنوتية والحوذية والخدم فقد طفح بهم الكيل وأصبحوا يطرقون الأبواب ، باديا عليهم اليأس ، منتشرين فى الشوارع ، خاضعين لظلم القوى المغاشمة لكنهم بدءوا يعبرون عما يجيش فى صدورهم بل وضجوا لتسمع أصواتهم وهم ثائرون، وأصبحت معنوياتهم مهيأة وعلى استعداد للمشاركة فى أى عمل يمكن له أن يقضى على تلك المعاناة التى يعيشها المجتمع المصرى منذ فترة طويلة .

وجاء تصدى العسكريين للقيادة الثورية فى قصر النيل لتسانده قوى مصر ، وليأتى دور الصحافة لكى تزيد الوعى نضوجا ولتوضح ما غفل ، ولتصور دقائق ما تعانيه الأمة ، ولتفتح الأذهان بضرورة التغيير ، ولتذكى روح التمرد على الأوضاع والانضمام للثورة ، ولتهاجم متناقضات المجتمع ومساوئه وما يتحمله الاقتصاد المصرى وما يعانيه التجار

(*) Milner : op. cit., p. 45.

والحرفيون ، فخرجت منهما الصيحات لتعطى تلك القوة للتقدم والاندماج الكلى فى الثورة .

ويعيش النديم فى داخل التجار ليعرض على الصفحات كساد التجارة الوطنية وسوء حاله التجار « انى كنت من التجار المعتبرين ومكثت مدة من الزمان معززا بين الأخوان مشهورا بالصداقة والأمانة والعفة والصيانة . وغير خاف عليك ما آل أمر تجارتنا اليه من الكساد لعدم اقدام الأهالى على بضاعتنا وميلهم الى تمويهات الغير ، حتى اصبحت تجارتنا اسما بلا جسم ولم يبق لها عين ولا رسم ، فبعد أن كان رأس مالى نحو عشرة آلاف جنيه لم يبق الا نحو خمسمائة جنيه (١) » . ودائما وأبدا يكون السبب سيطرة التجار الأجانب « فنرى فى البلد ثلاثين دكانا من الوطنيين يقضون النهار يسبحون ويهللون وبعضهم يفتح المصحف صباحا فلا يشغله عنه شاغل حتى يناديه مؤذن الظهر ثم ينام فلا يوقظه الا مؤذن العصر ، ثم يجلس يصلى على النبى (ص) حتى يوافيه الغروب ، وترى دكانا واحدا لبقال فيه جميع أصناف البقالة والعطارة حتى بهرجان العروسة وصاحبه طول النهار على قدمه يزن ويربط ويلف ويقبض ، والناس فى ازدحام على بابه والكل ينادبه شهلنى يا خواجا » .

ويثير التجار ويدفعهم للقضاء على ذلك الوضع الذى أوجدتهم فيه ظروف مصر ، ويندد بمنفعة الأجنبى « لكم أن تفيقوا من هذه السكرة التى حولت ثروتكم الى الغريب .. من منكم يمكنه فتح دكان فى بلاد الانجليز وهى لا تمكن الغريب من ذلك ، من منكم يرى فئة مصرية فى جمرك باريس تتلقى البضاعة المصرية كما نجد الألوف من الأجانب تتلقى الملايين من الطرود الواردة من بلادهم .. ما الذى بقى فى أيدينا من التجارة ؟ » (٢) .

اذن لابد من كسر الرأسمالية الأجنبية الخاصة بالمشروعات التجارية والتى سيطرت على اقتصاد مصر وأضرت بالتجار الذين ثاروا عليها ، ولم تكن صحيفة النديم وحدها فى ذلك الميدان ، فنرى الفسطاط تسير على وتيرتها فتحرك التجار المصريين بهجومها على الأجانب الذين سلبوهم « انهم يأكلون خيرنا ولا يدفعون على تجارتهم ولا على أملاكهم ولا على أنفسهم ولا على منازلهم ولا على طرقهم المستقيمة ذات الغاز ولا على دوابهم (٣) ومن هنا يعبأ الشعور القومى للتجار ويبدأون فى التنفيذ الثورى .

وتتم عملية الاعداد الثورى للصناع والحرفيين على يد الصحافة ،

---

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ٧ فى ٢٤ يوليو ١٨٨١ .
(٢) نفس المصدر ، عدد ١١ فى ٢١ اغسطس ١٨٨١ .
(٣) الفسطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

فيوضح النديم وضع طائفة المعمار « تعطى المقاولة بالمناقصة ويطلب من العامل تأمينا وضامنا غارما ولا يصرف له شيء مقدما فيبتدىء المسكين يبيع مصاغ زوجته وحليها وأمتعة بيته ، واذا انتهى العمل يقال له هذا العمل مغاير لما في الشروط ، فان الحجر أحرش والبلاط معصرانى والقصر ملء كله تراب والهيصم مرمل والجير قليل وقلب البناية فارغ والبياض قشرة واحدة والجبس بارد والسلم قائم والسقف واط والجدارناقص وسمك الحائط ناقص عشرة سنتيمتر .. ويخرج من العمل بخراب بيته وكثرة ديونه » ويمضى ليوضح « بينما لو تقاضى أجنبى عمل بمائة جنيه يأخذ مائتين وخمسين » (١) .

ويعطى الصناعة أهميتها فى بناء الدولة « لا دولة الا بالرجال ولا رجال الا بالمال ولا مال الا بتقدم الصناعة والفلاحة » . وينبه الصناع الى خلق نظام أشبه بالنقابات « أو تسعى فى عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسة عقلائها ، فاذا طرأ عليهم عمل من الأعمال كان أمره مفوضا لمجلس الرؤساء من الطائفة يساوم من يشاء ويأخذ ما يشاء ثم يوزع فيه من العمال بقــدر ما يحتمله وعندما يطرأ غيره يوزع فيه من لم يكن فى الأول» بل ورأى تكوين صندوق دعم ، تكون أمواله موزعة بأسهم على الصناع ولهم نصيبهم فى الأرباح ، وأزاد ذلك بضرورة تقديم المساعدات لهم عن طريق الرأسماليين سواء كانت ماليه أو فكرية بواسطة « تفهيمهم ما يقرأونه فى الجرائد من تقدم صناع أوربا واجتهادهم فى زيادة الثروة ومقدار ما وصلوا اليه بحسن التدبير والاتفاق لنبعث فيهم الغيرة والحمية (٢) » .

وعن اعادة مجدالصناعة المصرية وانتشال الصناع مما حاق بهم خرجت المناداة باقامة المصانع بتلك الاموال التى تنفق على « الشراب وتعــاطى المخدرات والقمار والمنغزلين بهاتكات الحجاب وأصحاب الشغف بالغلمــان وغيرها من آفات المجتمع ، والاستفادة باستخدام الأيدى العاملة المعطلة أو الأجيرة للأجانب » . كما هاجم الأجانب الذين يستحضرون أبناء جنسهــم «ولا يستعمل الوطنى الا فى نزح الكنيف أو حمل الزبالة» ، وبذلك انهارت الحرف الوطنية بناء على اشتغال الأجانب بها ، فيقول النديم على لســـان أحد الخياطين « انى كنت خياطا أيام كانت هذه الصــناعة رابحة فى بلادنا وكنت فى نعمة بالنسبة لأشغالى ، ولا يخافك ما آل اليه أمر هذه الصناعة من الكساد بعدم استعمال الملابس الوطنية حتى عدمت بالكلية ، وعدم معها كار العقادين والقصبية والكوا والفرا وغير ذلك مما كانت تدعو اليه الخياطة

---

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ٢ فى ١٩ يوليو ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر .

فلحق بالخياطين الفقر والفاقة مالا يحتاج لدليل حتى اشتغل بعضهم في التراب وبعضهم في الحدادة ، وبعضهم لا يجد القوت ، فلما رأيت الأمر كذلك وصرت لا أقدر على دفع أجرة الدكان تركته وصرت حائرا لا ادرى ماذا أصنع لعدم معرفتي غير صنعتي » والسبب ان حرفة الخياطة تحولت الى أيدى « الأسطى الأفرنكية » (١) ، لذا سيساهم الخياطون بنشاط كبير أثناء الثورة .

وتتولد نزعة الكراهية للأغنياء ونثار طبقة الحرفيين « أين البناؤون والنجارون والحدادون والبرادون والخراطون والمبلطون والمبيضون والحجارون والرمالون والمندجون والحياطيون والعقادون والقصابون والفزازون والغزالون والنحاتون والطحانون والسبكية والخرازون والصباغون والصائغون والحريريون والفوطية والنحاسون والقفاصون والفخارية وغيرهم ممن لم يدخلوا تحت حصر ، أين أهل الطوائف والمهن ؟ تالله انهم في أماكنهم بين أغنياء لم تنزل عليهم صاعقة ولا خسفت بهم أرض ولا جهلوا الصنعة ولا قصروا فى الخدمة وانما سلط عليهم الأغنياء فحاربوهم بسهام مسمومة حتى ماتوا فقد تركوهم يتكففون الأبواب ويلتمسون الاحسان (٢) » ، وبذلك أصبح الحرفيون مهيئين ومعدين لرفع لواء الثورة .

وتبدأ المطالبة بتطبيق « مصر للمصريين » بايجاد الالتحام بين قوى المجتمع من أجل سعادته وحريته واستقلاله « لا تلبس الا من صنعة بلادك او ما كان من غرسها أو أصواف وأوبار حيوانها مشغولا بمعرفة الوطنى محيكا بيده مبيعا فى دكانه لتحفظ ثروة البلاد وتزيد من عمرانها (٣) » .

وتابعت الدعاية الثورية موقف النديم ، فسارت على نفس الطريق ، فكان ذلك بلا شك الوقود الذي أشعلت به الثورة ، وقد ظهرت أصداء الروح الصناعية بتأسيس « الجمعية الصناعية المصرية » بهدف انماء الصناعات المصرية كالطرابيش والأثاث ، وقد ساهمت الطائف فى توزيع أسهمها وأوردت أسماء المشتركين ، وكانت قيمة السهم خمسة جنيهات ، ووصل عدد المشتركين فيها الى ٦٤ اسما ، اشترك فيها النديم بأربعة أسهم والباقى أفندية وبهوات (٤) .

واعطت الصحافة الراحة النفسية للصناع وشجعتهم وأثبتت قدرتهم

---

(١) نفس المصدر ، عدد ٣ فى ٢٦ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١١ فى ٢١ اغسطس ١٨٨١ ، عدد ٨ فى ٣١ يوليو ١٨٨١ ، عدد ٧ فى ٢٤ يوليو ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، عدد ١١ في ٢١ اغسطس ١٨٨١ .

(٣) نفس المصدر ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ .

(٤) المحروسة ، عدد ١٠٦٩ فى فبراير ١٨٨٢ .

الفائقة على التقدم والرقى » فعلى جلط وعمله لمنبر سيدى العارف السيد أحمد البدوى حيث جعله بوضع متقن واختراع محكم لم يسبق له مثيل اذ أتى على صورة تذهل العقول وترتبك فيها الأفكار اذ أنه خـال من للمسامير بالكليه مع كونه قطعا دقيقة من خشب وبه رسومات ونقوشات ، ومع ذلك فاننا نرى هذا الصانع العجيب لا يمتلك قوته الضرورى لمعاشه »وتمضى المفيد فى ذكر نماذج المخترعين من الصناع المصريين المهرة والتى طحنتهم الظروف ، هذا فى الوقت الذى نبهت فيه أصحاب المهن بأنه حان الوقت لاسترداد مكانتهم والحصول على حقوقهم ، كذلك كان لدور الجمعيات وعلى رأسها الجمعية الخيرية الاسلامية فى توعية الصناع بدراسة الحساب والهندسة (١) دوره فى اليقظة ، وبذلك يتضح أن الثورة قامت من أجل النهوض بركائز المجتمع وقد نجحت صحافتها فى انماء الوعى وتنوير النفس للتجار والحرفيين.

بداية التطبيق الثورى :

بدأ الكفاح بالتمرد على الأوضاع وطلب استرداد الحقوق والمستحقات، فتنصب الشكوى على اهمال الثغور التجارية كدمياط ورشيدوالسويس وان ذلك ساعد على كساد التجارة فنرى التجار يتضررون ويرفعون صوتهم « للمطالبة باصلاح حال البوغاز الخاص بدمياط ويقترحون فتح ترعة من بور سعيد تتصل بالنيل بالقرب من جهة بوغاز دمياط لمرور المراكب وذلك لتفادى خسائرهم وانضباط حركة التجارة (٢) » .

وعرف الحرفيون حقوقهم وطالبوا بها بجرأة متناهية ، فعندما زار ولى عهد النمسا الفيوم طلب من ملتزمى أسماك البحيرة احضار ١٣ مركبا من المراكب المعدة لصيد الأسماك لخدمة الأمير بما عليها من عاملين ، فيطلبون التعويض عن تلك الفترة التى تعطلت فيها أشغالهم وسخروا لهذا العمل . وفى الاسكندرية يعترض الصيادون على قرار رئيس الميناء الغربية بالاسكندرية - وهو أجنبى - بمنع الصيد فى هذا الميناء ويصرون على حقهم فى الصيد فيه (٣) .

وتقوم المعارضة ضد الضرائب التى تجبى من الحرفيين ، فيرسل أفراد طائفة الحلاقين الى المسئولين « انه قبل الآن كان قد تقرر من الصحة أن كل من أراد الدخول فى هذه الطائفة يصير امتحانه ويؤخذ شهادة بيده ، ويدفع عوايد على ذلك أول مرة فقط ، ومن وقتها للآن وهو جارى تكلفنا بدفع عوائد

(١) المفيد ، عدد ٤٤ فى ٣ مارس ١٨٨٢ ، عدد ٥٥ فى ١١ مايو ١٨٨٢ .
(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٦ ، ٣ ابريل ١٨٨١ .
(٣) نفس المصدر ، ١٣ مارس ١٨٨١ ، محفظة ٣٧ ، ١٣ يوليو ١٨٨١ .

سنوى خلاف الويركو المرتب علينا ، ونحن فقراء الحـــال ، وتكليفنا بدفع عوايد مرتين فى السنة للدايرة البلدية ومرة للصحة لا يرضى عدل دولتكم » كذلك نرى طائفة الماعونجية بالسكة الحديد بالاسكندرية تتضرر من « العوايد الجارى دفعها سنويا » وكانت البرقيات تصل تباعا من « أرباب الكارات » للشكاية من أحوالهم وخاصـــة « مسألة المصلح » اذ يطالبهم المعاونون « بدفع اتمانه وضربهم بالكرباج » (١) .

اذن الاحساس بأن العدالة فى الطريق الى مصر جعلهم يلجأون لشرح احوالهم وما هو منغصا لحياتهم ، فهم الفئة العاملة الكادحة المظلومة ، لكن كان الاحســاس ببداية الطريق الثورى نقطة انطلاق لهم .

ومع وزارة الثورة الأولى وبداية قوة اليد المصرية على الأجانب ، وجد التجار تنفســا لذلك ، فقد وقفت أمام التجــار الأجانب الذين اعتمدوا على تهريب البضائع والتهرب من الضرائب « تم ضبط أرز تعلق الخواجـــة يوسف فرمون ببندر طنطا من غير دفع عوايد دخولية عليه » ، ورفعت عليه قضية أحيلت على مجلس طنطا . وبذلك وضح بداية البرنامج الثورى فى الحد من سرقات الاجانب ، وفتحت الوزارة صدرها للشاكين ممن أصابهم الضرر على أيدى هؤلاء المهربين الذين كانوا يمارسون التعدى على من يقف فى سبيلهم بالضرب الذى سبب انعاهات ، فشكى أصحابها لحـكومة الثورة لانصافهم «تشكيت مرارا فلم يسمع أحد منى» وحيث ان العدالة لا تجيز ذلك والحكومة لا يوافق برأيها اطعام حقى للفرنساوية وعدم سماع شكواى غير جائز ، فالآن تقدمت راجيا اجراء ما يلزم بمعرفة الحكومة » (٢)، وحقق فى الأمر .

وكان لوجود مجلس النواب عاملا قويا على الشـــعور بأن هنالك من يتكلم باسمهم ويرفع عنهم الجور الذى خضعوا اليه ، فارتاحت نفسياتهم ورفعوا اليه أحوالهم وما يقاسونه أملا فى الانصاف ، ففى تقرير عرض على المجلس من « ابراهيم أحمــد الحصرى » رئيس طائفة التمغجية بالقاهرة فى شأن الويركو الراغب تعديله مع ربطه على الأجانب أرباب الصناعات ، وقد أحال المجلس هذا الأمر للمالية للبت فيه ، وطلب منه ١٧ حرفى من طائفة الحبالة تعديل ويركو طائفتهـــم بمعرفة شيخ طائفة القفاصين ، كما قدم القبانية والعتالين المشتغلين بمصـــلحة أوزان الفحومات بالاســــكندرية يتظلمون من أوضاعهم ويطالبون بضرورة تحسينها (٣) .

---

(١) نفس المصدر ، ٦ يونيو ١٨٨١ ، محفظة ٣٨ ، ١٥ يوليو ١٨٨١ ، محفظة ٣٩ ، ٢١ نوفمبر ١٨٨١ ـ المصلح هو الملح .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٣٨ ، ١٦ اكتوبر ١٨٨١ ، محفظة ٣٩ ، ٥ يناير ١٨٨٢ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ ابريل ١٨٨٢ ، جلسة ٢٥ مارس ١٨٨٢ .

وفتح المجلس صدره لكل ملتجيء اليه ، وكان التأكد من العدل على يد الثورة قد أعطى المزيد من الحرية تلك التى يتوق اليها كل مصرى ذلك بالحق فى الحياة دون منافسة ودون أن تسرق من فمه لقمة عيشه ، ففى مذكرة قدمت للمجلس من « ٦٢ نفر من طائفة سائقى عربات الركوب فى شأن شركات العربات المؤسسة بمعرفة الأوربيين بالاسكندرية ، فقد أسسوا قومبانية عربات للركوب فى شوارع اسكندرية تحمل العربة ٢٠ شخصا أو أكثر وبهذه الحالة توقف حال هذه الطائفة وتأخرت عن سداد عوايد الميرى المربوطة عليهم وعلى العربات والمواشي ولفقرهم واقتراضهم أثمان المواشي والعربات ، وعدم وجود حرفة لهم خلاف ذلك يلتمسون النظر بارجاع هؤلاء التجار عن مقاصدهم الموجبة لاضمحلال الوطنيين والتزامهم مشترى عربات العربجية المذكورين وخيولهم ليسعوا على معاشهم فى مهنة أخرى » وتمضى المذكرة فى سب الأجانب وبيان أهدافهم من أضعاف المصريين « انه لم يحصل منهم الاكتفاء بما تكسبوه من تجاراتهم وغيرها من البنوك ولا يصح حرماننا من تعيشنا وتمتع الأجانب غير المحتاجين لادارة تلك القومبانية » ثم تبين « أنه لو توجه أحد المصريين الى بلاد أوروبا ، وأراد الاقامة هناك والتعيش بأى شكل كان ، فانه لا يمكنه ذلك مطلقا » (١)

اذن فهذه ثورة على الأوضاع ، وتبلور لوعى كامل يرى ضرورة الاطاحة بالمستغلين غير المصريين وتطبيق مصر للمصريين ، وقد رأى المجلس تحويل تلك المذكرة على المالية التى حولتها للداخلية لانصاف هؤلاء المظلومين.

لم يكن الانصاف يتم الا بالحد من نشاطات المفسدين ، فنرى حكومة الثورة تصدر تعليماتها الى الضبطيات بمنع الخمر ، وبالرغم من ذلك فيفيد شيخ البقالين انها توجد فى « الأزبكية والفجالة وحارات الروم (٢) » ، ومن هنا وقفت الصحافة تدعو من يسيىء للقانون من الأجانب يعاقب، فتقول المفيد « أن جماعة من اليونانيين وقفوا فى طريق الوابور بالزقازيق ونبه عليهم أو سطة الوابور ثلاث مرات باخلاء الطريق ولم يمتثلوا ولو ساق الوابور وداسهم لا لوم عليه » (٣) .

وبالرغم من أن الأجانب لم يمتثلوا لاجراءات الثورة كلية الا أنه تم ردعهم بعض الشيء ، فقد حدث أن تشاجر « أحد التليانيين مع بعض الحمارين فى شارع كلوت بك ، فأطلق الأول على الثاني وجها ناريا من

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، فى ٢٦ ابريل ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٤٣ فى ١٦ مايو ١٨٨٢ .

(٣) المفيد ، عدد ٤٤ فى ٢٣ مارس ١٨٨٢ .

طبنجة سدسه (١) » ، وعلى الفور أرسل هذا الأجنبى الى قنصليته لتحاكمه ولم يترك وشأنه . كذلك أوقفت الحكومة التجار الأجانب الذين يقومون بادخال الشحومات الخاصة بالخنزير ويخلطونها بالسمن على أوسع نطاق من الغش (٢) ، وأعطت اجراءات الحكومة الأمل للتجـار والحرفيين فى امكانية اصلاح حالهم وانقاذهم على يد الثورة فلما لا يؤيدونها ويعملون بكل طاقاتهم من أجلها .

أضف الى ذلك ما ربط بينهم كبقية قوى مصر وبين زعيم الثـورة ، فقد ارتفع نصيبه من حب الشعب له الى درجة لم يصل اليها زعيم فى تاريخ مصر وخاصة القوى العاملة المضطهدة المطحونة والتى كانت تتوق لقيـادة تسير خلفها من أجل الحرية والاخاء والمساواة .

اعتبر عرابى المنقذ لتلك القوى « فكانوا اذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق قالوا انهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى ، أو شـاهدوا ازدحاما على حانوت قالوا أنه باشارة منه لسر لا يعلمه الا هو والمقربون اليه. أو سمعوا مؤذنا ينادى حى على الفلاح قالوا انما هو يدعو الناس الى التعاون والتعاضد أو سمعوا امرأة تولول على صبى ضل اسمه أحمد قالوا انما هى تستغيث بأحمد عرابى بك لدفع مظلمتها وكشف غمتها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد (٣) ، وكان ذلك شيئا طبيعيا بعد الضيق والكرب الذى سيطر على المصريين ، فعندما تكون هناك بادرة أمل وبداية عمل ثورى على يد مصرية ، فيصير التأييد تاما وشاملا ، فقد اعتبر عرابى ذلك المصرى العربى هو المحور والمنقذ والمخلص ، ولم يكن المصريون الا باحثون عن الحرية بالطرق العادلة.

دور التجار .

شكل التجار وخاصـة البورجوازيين منهـم ثقلا فى الميدان الثورى ومنذ البداية أحس عرابى بما لهم من أهمية فى عملية الكفاح التى تزعمهـا حتى أننا نجده يختار تاجرا من تجار اسـكندرية ليكون الوكيل لجريدة الثورة الثانية « المفيد » هو « حسن أفنـدى القماش » (٤) ، وبدأ التجار الذين لهم كيانهم فى المجتمع ينضمون الى موكب الثورة وهؤلاء قد عانوا من ضربات الحكومة المصرية السابقة ، فقد أصدرت قرارها بمعاقبة أمين بك

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٦٧ فى ٢٦ مارس ١٨٨٢ .

(٢) الاسكندرية ، عدد ٦١ فى ٥ سبتمبر ١٨٨١ .

(٣) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .

(٤) المفيد ، عدد ٣٥ فى ٢٠ فبراير ١٨٨٢ .

الشمسي سر تجار الزقازيق وذلك بناء على حكم مجلس المنصـورة المحلى بالسجن ثلاث سنوات مع بعض العمد والمشايخ وكان السبب هو الشكوى من مدير الشرقية الذى كان ملكا غير متوج فى منطقته ، ومع بداية الثورة نجدهم يطلبون العفو فيجابون الى طلبهم (١) ليبدءوا المسيرة الثورية .

لم يكن هؤلاء وحدهم الذين تعرضوا للسجن والظلم ، فنرى أن تجار بندر سمنود يعرضون مذكرة بأن مأمور الضبطية التابع لهم قد قبض عـلى أحد زملائهم التجار « المعتبرين المستقيمين المحافظين على الهدوء والراحة » وكذلك ســـجن ابنه ، ومعروف أن ســـيرة هـذا المأمور غير حميدة ولا مستقيمة (٢) .

هكذا وبدون أسباب تعرض التجار للظلم وعانوا منه فالتمسوا النجاة على يد المبعوث الجديد ، وأحسوا بذلك النصر الذى حصلت عليه الأمة عقب التاسع من سبتمبر ، فكانوا يهنئون بعضـهم بعضـا ، ويقيمون الحفـلات والولائم ابتهاجا بزوال دولة الظلم ، وعلى سبيل المثال فقد ساهم مصـطفى عنانى ذلك التاجر الثرى فى هذه الاحتفالات وكرم العسكريين أصحـاب الانتصار فى حفلة الأزبكية ، واستمر نشاطه مع غيره من التجار فى تلك الحفاوة التى ظهرت فى توديع قواد النصر الى معسكراتهم عقب تأليف وزارة الثورة الأولى .

واتسع نشاط التجار من خلال ممارستهم للنيابة فى مجلس النواب فكان لهم الصوت المسموع والاقتراح المقبول وساهموا بحركة نشاط واسعة من أجـل خدمة الاقتصاد المصرى فى ميدان التجارة ، لكن لم تلق المحاولات التى بذلت من أجل توجيه الرأســمالية المصرية لهذا الميدان التعضـيد الكامل .

وبتطور الأحداث السياسية كان للتجار دورهم فى رفض مضـادات الثورة ، فنرى وفدا منهم يذهب للخديو طالبا رفض المذكرة المشـتركة وعودة عرابى (٣) ، وعنـدما أجبر توفيق بنـاء على رغبة قوى الأمة اعادة عرابى ، نرى التجار يطيرون فرحـا ، وتصله تلك البرقيات الفياضـة بالشعور الجارف للتهنئة من الأعماق للمسيرة الثورية (٤) .

ومن المعروف أنه بمجرد تولى شريف الوزارة أعيد من كان منفيا

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٣٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، عدد ١١٥٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ .

(٣) The Times, May 5, 1882.

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، عمومية ٥٣/د/٤ .

وأخرج من كان مسجونا ، ومن بين من استصدر اليهم قرار العفو التاجر الرأسمالى الثرى حسن موسى العقاد ليعود وليرفع صوته لنصرة عرابى ونصرة الحرية .

وفى حقيقة الأمر ، فان موقف هذا التاجر لم يكن واضحا تمـام الوضوح ، فقد عرفناه مناضلا قبل الثورة ومعارضا لأفكار الحكومةوتصرفات القائمين عليها ، لكنه ثبت أنه على علاقة بالأمير حليم الذى كان يسعى لعرش مصر ، ومن هنا كانت له الرغبة فى احلال حليم مكان توفيق ، وقد اتهم بوجود مبالغ لديه سواء من عثمان فوزى أو الأميرة زينب وكلاهما ذو صلة وثيقة بالأمير حليـم ، وتبين من البنك العثمانى أنه مودع له بواسـطتهما مبلغ عشرة آلاف ليرة ، ١٢٥٤٣ فرنك تحت تصرفه من أجل استخدامهما فى الاعداد لذلك ، وبسؤاله أبان أن الغرض مشترى أوراق بونات من لندن ، وانه اشترى من عثمان فوزى كمبيالات بمبلغ عشرة آلاف جنيه على لندن ، واعترض على تداخل لجنة التحقيق فى أشغاله الخصوصية « فان غنى عائلتنا معلوم من قديم الزمن ولا سيما أنى وضعت يدى منذ ست عشرة سـنة على تركة المرحوم موسى بك العقاد التى يبلغ مقدارها ما ينوف عن مائة ألف جنيه خلاف الأملاك والأطيان وايراداتها (١) » .

وحقيقة لم يكن العقاد بحاجة الى الأموال ، فهو من البورجوازية المدعمة بالثراء والنفوذ ، وله معاملاته التجارية الضخمة داخل مصر وخارجها، ولم يكن فى حاجة الى المزيد من هذا الثراء فعلى سبيل المثال فقد صدر له مضبطة من مجلس التجار على من يدعى « مصطفى أفندى الحكيم » بمبلغ له اعتباره ولكنه مات وضاعت حقوق العقاد ولم ينفذ قرار مضبطة المجلس(٢)، اذن لم يكن المال هو الذى يدفعه للانخراط فى الثورة ، ولم يكن سـعيه لاسقاط توفيق واحلال حليم ليقلل من وطنيته الجـارفة ولا من مكانته ، فأعطى الثورة الأموال التى احتاجت اليها ، وقد كان ككل مصرى يريد أن يتخلص من الحاكم وحكومته المتسلطة على رقاب المصريين ومن الأجانب المتحكمين حتى ولو كان بتغيير الحاكم بآخر كان يوعد بتخليص مصر مما حاق بها وقد تعذب وشرد ونفى من أجـل مبادئه حتى لقد طلب الحماية الفرنسية من أجل التحرر والمزيد من الانطلاق .

كان للعقاد تأثير قوى على التجار عامة ، وفى نفس الوقت له وزنه لدى قيادة الثورة وخاصة عرابى الذى كان يعول عليه كثيرا حيث كانت اجتماعات

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١/١٢٣ .

(٢) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ٣٠ يونيو ١٨٨٢ .

عرابى جميعها لا تخلو من وجوده ، وقد أظهرت الأوراق التى عثر عليها فى منزله على مبادىء وطنية حقة ، فمنها ما هو منشورات تتضمن الطعن فى سياسة اسماعيل وأثرها السيىء الذى تركته فى مصر ، كما وجد خمس كتيبات معنونة « قال صلى الله عليه وسلم الجنة تحت ظلال السيوف » وفيها من الاتجاهات المتعددة فهى تعرض غفلة المصريين عن حقوقهم واستبداد الحاكم ، والأجانب التى امتدت أيديهم فى أحشاء مصر « حتى صار حكمدار عموم السودان انجليزيا والتوسل والاستشفاع للحاكم المسلم برعاع اليهود وأسافل النصارى ، الذين استولوا على أحسن المراكز برواتب باهظة تجمع من قوت الرعية وأباحوا لنساء الأمة ما تبيحه العادات الأفرنجية وقوانينهم من الحضور فى مجامع الرجال ومواكبهم » وان مصر أمكنها تأليف حزب وطنى « رغم أنف الخواجة جمبتا والخواجة جلادستون العدوين الالدين لملة الاسلام ورغما عن أنف الذين ينبحون فى جريدة الايتالى التى تطبع فى روما » وأخيرا المدح فى عرابى « الشهم الهمام مشرع الحزب يجاهد بالقول والفعل على واجباته الوطنية » وحث المصريين على مواصلة الطريق الثورى(١)ومن خلال ذلك نجد الهجوم على الأجانب ومن استحضروهم، وكذلك عثر بالأوراق التى ضبطت لدى طلبه عصمت على ما يخص العقاد منها وكلها حث ثورى لقوى الشعب على الأوضاع القائمة (٢) ، لكن تبيز موقفه تجاه حليم من بعض أوراق له « بعد توقيف أوامر توفيق ونظاره لمخالفة الشرع والقانون من عموم الأمة من برنسات وذوات وعلماء وعمد وأعيان ورؤساء ملتى النصارى واليهود فقد سقط بطبيعته ، ومن المعلوم أن المسألة صارت غير مختصة بذات عرابى باشا بل هى مسألة عمومية بحيث لا يكون موجودا بالقطر من هو راض عن توفيق بمناسبة انضمامه للانجليز وجلب حربهم على المصريين ، فخديويته الهبلية صارت فى علم كان ، وانه مشاع أنه سيأتى عساكر عثمانية الى مصر ومعها البرنس حليم باشا على أن الظاهر بأنه اذا كان المقصود حضورهم لأجل رحيل الانجليز من مياه الاسكندرية وتوصيل البرنس الى مستقره فلا بأس، وان كان المقصود نفى عرابى باشا واخوانه من مصر حسب رغبة الانجليز فلا يمكن التسليم فى ذلك بالتساهل » (٣) ولم يكن العقاد وحده المنادى بذلك فقد انتشرت على الأرض المصرية هذه الفكرة لما كان فيها من بعض الحقيقة خارج مصر.

اذن عملية الخلاص من توفيق كانت وشيكة الحصول ، وكان العقاد

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ج – صحيفة الايتالى هى الناطقة باسم اسماعيل .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١/١٢٣ .

على رأس الساعين فى تختيم المحاضر الخاصة بعزل الخديوى ، وعندما عقد عرابى اجتماعا جمع فيه العلماء والأعيان وكبار التجار لكى يرفعوا طلبهم للسلطان بشأن استبدال الخديو بدون تعيين اسم البدل ، كان العقاد على رأس من ختموا ، وعند حضور المبعوث العثمانى درويش باشا دعا العقاد التجار جميعهم وذهبوا لمقابلته ، وألقى الزهر تحت أقدامه فلم يكن أحد يعرف نياته الحقيقية سوى أنه مندوب للسلطان خليفة المسلمين ٠

وكانت علاقة العقاد مع بقية العناصر البورجوازية على درجة من القوة والتعاون ، فهناك صلة قوية بينه وبين حميد أبو ستيت ولعل السبب التعرض لنفس المظالم والتوافق فى الأفكار ، ففى خطاب من الاول للثانى يشكره فيه على التبرعات التى قدمها للقوات المحاربة وتقديمه لألفى متطوع (١) ، وقد اعتمد عرابى على تلك القوة ، فكان كلما يحس باحتياجات الجيش يطلب من العقاد ، ففى ٥ اغسطس يكتب عرابى الى وكيل الجهادية يخبره بأنه كتب الى العقاد بتوريد ألف توب بفته ٠ (٢)

هذا بالاضافة الى ما كان يقوم به العقاد من رفع المعنويات ، والاشادة بالوطنية عن طريق اقامة الولائم والاحتفالات التى يدعو فيها قادة الثورة من عسكريين ومدنيين وفيها تمارس كل أنواع النشاطات الثورية وظهرت فيها الرغبة الاكيدة لتحرير مصر « كل أمة محكومة بجنسها الا مصر فيلزم أهلها الاتحاد والتعاون حتى يحكمها أهلها وتصير فى درجة الأمم المتمدنة(٣) » وبذلك كان العقاد عنصرا فعالا ومشتعلا للثورة المصرية ٠

وشارك العقاد فى وطنيته أمين الشمسى ، الذى ساهم بثوريته الجارفة فى أعمال مجلس النواب وأيد قادة الثورة فى كل قراراتهم ضد الخديو وعمل من أجل التأييد المعنوى فى تلك الاستقبالات التى كان يقوم بها لرجال الثورة « وللمحاربين عند وصولهم للتل الكبير وينثرهم بالورود » ، وتلك الاجتماعات المتعددة التى كان يعقدها والاحتفالات التى يقيمها والخطب التى كانت أصداؤها تنشر الحماسة والتشجيع والتى دائما تنتهى بالهتافات ضد الخديو والدعاء « يعيش عرابى ورجال الجهادية » ، وأثناء وجود عرابى بكفر الدوار كان دائم التردد عليه ويعود ومعه الأخبار ليبلغها لأبناء بلده بقوة الاستحكامات واستعداد القوات المحاربة وشجاعتها ،

---

(١) نفس المصدر ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ ، الطائف ، عدد ٢٩ يونيو ١٨٨٢ ٠

ويمضي ليساهم في عملية التختيم لاسقاط توفيق ، وعندما انتقلت القيادة الى الميدان الشرقى ظل مترددا على جميع المواقع ، وبحكم أنه وكيل مشيخة نقابه الاشراف بالشرقية كان له النفوذ والسلطان فيجمع رؤساء ومشايخ الطرق للتأييد الروحي واعطاء الحرب طابعا دينيا وبيان أنها حرب مقدسة مفروضة على كل مسلم ، ويشجع أهالى الزقازيق على الاشتراك فى الدفاع عن أرض الوطن ، والمداومة على الحرب ويبين أن السلطان غير راض عن توفيق ولهذا خلعه ، وأن الأمير حليم سيكون خليفة له ، اذن فقد كان من اتجاه الثوريين فى بعض الأحيان الرضا بحليم ، كذلك كان له دور فعال فى الحض على التبرع وبدأ بنفسه فقد أعطى المزيد من المساعدات سواء من الفواكه الخاصة بانتاج أراضيه أو بالأموال (١) ومن هنا تتضح تلك الثورية التى تميز بها أمين الشمسى ٠

وكان أيضا ممن تذكر لهم الثورة مواقفهم ابراهيم المويلحى وعبد السلام المويلحى تجار الحرير ، والاول كان على صلة وثيقة بعرابى ، وكان يبلغه دائما ما يحيكه أعداؤه وخاصة صحافتهم حيث كان خارج مصر ، ففى ٧ مايو ١٨٨٢ أرسل اليه يقول « الذين يكتبون فى سعادتكم كل يوم بغاية التهور قد أرسلت لسعادتكم نموذجا ليكون فى علمكم ، وأسأل الله العظيم أن يعينكم على أعداء الله وينصركم نصرا عزيزا » ويستشهد بالآيات القرآنية التى تدل على انتقام الله من أعداء الدين ، ويبلغه فى ٢٥ مايو أنه تقابل مع أحد العارفين بالسياسة فقال له : « ان هذه الأيام هى الفيصل لقومك المصريين ، فان التزم أولو الأمر بالثبات واستمسكوا بحقوقهم السياسية لا يزيدون عنها ولا ينقصونها ولا يبالون بالتهديدات تركية كانت أو أوربية فقد فازوا فوزا عظيما ، أسأل الله أن يتمم بالنجاح المطلق (٢) » كما كان لعبد السلام المويلحى دوره منذ بداية الثورة ، فهو من بين الذين قدموا التعهد لشريف باطاعة الجيش لأوامر الحكومة ، وعند تكوين لجان مجلس النواب تولى رئاسة لجنة المدن ، ساهم فى تلك الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة افتتاح المجلس ، ووجه نشاطه فى داخله للعناية بشئون التجارة والقائمين عليها وقد وضع مشروعا بتأسيس بنك وطنى ، وأمره عرابى بتشكيل لجنة برئاسته لدراسة ذلك المشروع حيث انصب الاهتمام على انقاذ الاقتصاد المصرى ٠

وقد كانت الاجتماعات التى شكلت لقاءات سياسية وفيها كانت

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٦ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٢ فى ٢٠ اغسطس ١٨٨٢ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ ٠

تطرح القضايا الوطنية وتناقش وتستعرض الآراء ، ولم يكن يخلو منها وجود التجار ، وخاصة أصحاب المكانة ، « فأحمد أفندى الأرناؤطى رئيس تجار خان الخليلى لا ينقض عن تلك الاجتماعات (١) » كذلك فقد كان للتجار المشتركين فى الجمعيات الخيرية دور فى المساهمة بأموالهم فى المجال الاجتماعى من انشاء مدارس تحقيقا للمبادىء الثورية ومن اعانة للمهاجرين (٢)

كذلك أنيط رجال الثورة التجار بمهمات فى مناطقهم على أرض مصر كلها ، فقد وزعت مسألة التختيم بأن يقول الشعب رأيه فى أكثر من موضوع سواء طلب رفض مذكرة الدولتين أو عودة عرابى وتوكيله الدفاع عن الأمة أو عزل توفيق ، وكانت الاسكندرية ـ حيث كون فيها التجار طبقة متميزة ـ تعقد فيها الاجتماعات « فى منازل بعض الأفندية والبهوات وتجمع العطارين والتجار والفقهاء وأفندية من الأهالى ليسوا بمستخدمين يتناولون سياسة البلد » ، وقسمت مناطقها ووزعت على التجار ، فهناك تاجر جارى التختيم على المحاضر بكوم الشقافة وثانى من تجار سوق الترك يختم فى منطقته وثالث فى العطارين ورابع بحى الجمرك « وكان ذلك جهارا بالشوارع (٣)» ولم تكن الاسكندرية فقط ، ففى المنيا كان تجار البندر يعقدون الاجتماعات ويضمون اليها بعدة الشرائح ليتناقشوا الأحداث (٤) .

هذا بالاضافة الى دورهم كجهاز اعلامى للدعاية الثورية فأبو العلا مبروك أحد تجار بندر اخميم التابع لجرجا كانت « وكالته باتجاه دكاكين أولاد الشاذلى وكان عند ورود جريدة الطائف يتجمعون معه على قارعة الطريق ويتولى تلاوتها وتفهيم الموجودين بما فيها ، وانه عندما أرسل اليه قرار عزل عرابى لباقى التجار استقبل الصورة المذكورة مسرورا قبل أن يطلع عليها ظنا منه أنها بشرى من رئيس العصاة ولما أجرى تلاوتها أجرى حدفها على الأرض من يده بشدة وتخلق وتكلم بما لا يليق ضد الحضرة الخديوية » ، وكان له نشاطه المتعدد ، فهو يكشف عن المناوئين للثورة ويبلغ الجهات المسئولة ويحض على التطوع لأهل بلده فى قوات الدفاع ، ويتبرع بالغلال ، وقد اشترك مع أحمد عبد الغنى ومحمد عبد الغنى وهما مدرسين بالأزهر من الاشراف فى التختيم على محضر توكيل عرابى

---

(١) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين الوطنيين والأجانب الى لجنة التحقيق ، جـ ١ ، تقرير ٧ ، ص ٢٨ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٢ فى ٧ مايو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٥٩ فى ١٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٠ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ .

وعزل الخديو ، واخيرا فلم يكن منزله يخلو من المجالس الليلية والنهارية التي يجتمع فيها الكثير يتناولون سياسة الثورة وأغراضها (١) .

وكانت تبرعات التجار تشكل جزءا مهما في أساسيات الجيش ، اذ كان الاحساس والرغبة في النصر قوى ، فعندما تصل البرقيات والأخبار التي تفيد بالانتصار كانت الفرحة تعم الجميع ، وكان التجار يرددون « الله ينصرك يا عرابي باشا بجيش المؤمنين » (٢) ، وامتلأت الصحافة ومحافظة الثورة الخاصة بالتلغرافات بتبرعاتهم ، فالقماشون يقدمون طاقات الأقمشة والمقاطع ، وأصحاب المحلات يتبرعون بالبدل ، وتجار الغورية بالبفتة الخام ، وتجار الأزهر يهدون الأقمشه والخيول حتى نساء التجار اشتركن في التبرع وخارج القاهرة ترى سر تجار بندر شبين يتبرع لكميات وافرة من الغلال ، وسر تجار دمياط يقدم الحبل والأموال ، وميت غمر يساهم تجارها في تقديم تلك الكميات الوافرة من البفتة ، وتجار رشيد تتعدد نوعيات ما أهدوه « للجيش الحامي » والزقازيق التي أسرع تجارها وساروا في نفس الركاب وتبعها باقي تجار مدن مصر (٣) .

وكان للبورجوازيين منهم المساهمة الفعالة في تلك المساعدات التي قدموها لمهاجري الاسكندرية فقد « أخلى عناني بك منزلا وسرايتين وأعد ذلك لاقامة ٥٠٠ من المهاجرين وتكفل بحاجتهم وضروريات معاشهم ،ومحمود بك العطار أنزل منهم بمنزله » وكان « ابراهيم وفا من تجار الجمالية يزورهم في سراي قصر الشوك ويوزع عليهم ثلاثمائة ريال (٤) » ، وبذلك يكون التجار قد قدموا جميع امكانياتهم من أجل الثورة .

دور الحرفيين :

كان الحرفيون على درجة من الوعي والتيقظ لأحداث مصر ، وقد أحبوا عرابي وشغفوا بذلك المصري الذي سيخلصهم من ذلهم بعد أن ساءت أحوالهم ، وقد سرى هذا على عامة الشعب من الطبقة الدنيا ويذكر لنا شاهد عيان أنه عقب التاسع من سبتمبر « تزايد تساؤلهم عما في

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٤١ ، دوسيه ١ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ في ١٥ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٥ في ٢٧ اغسطس ، عدد ١٤٧٣ في ٢٣ اغسطس ، عدد ١٤٧٢ في ٢٠ اغسطس ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٣ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٧٦ .

(٤) الوقائع المصرية عدد ١٤٥٨ في ١٥ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٦٣ في ٢٣ يوليو ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٣٦ يوليو ١٨٨٢ .

صحف الأخبار وأكثروا من شرائها ، واضطر من لا يعرف القراءة من العامه الى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم في شوارع القاهـــرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل او الصبى من صبيان المكاتب وهـو يقرأ عليهم ترجمـة لصاحب جريدة التيمس الانجليزية أو لصاحب الديبـا الفرنسيه او لغيرهما من صحف الاخبار الاجنبيه وهم فى ضجه وحوقله وعم هذا حال السوقه وأصحاب الحرف الدنيئه كالصباعين والزياتين والحلاقين وقد رأيت يوما صبيا فى حانوت لرجل يبيع البقل وبيده صحيفة من صحف الأخبار العربيه وأمام الحانوت خلق من السوقه وهم محدقون بالصـــبى وهو يقرأ عليهم ما نصه : (قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والانجليز أن يعلماه مفصـــلا بالسبب الحامل للدولتين على ارسال المركبتين الحربيتين الى مدينـــة الاســكندرية ، فأجـابـاه بأنه ليس المقصـــود من ارسالهما ارغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كمـا أشاعه المرجعون ، وانما المقصـــود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فاذا سافر المبعونان سافر المركبان أيضا) فقهقه الجمع عند سماع هذا الكلام ، وهمز كل فى أذن الآخـــر وصاح أحدهم قائلا : وهلا ترى فى هذه الورقة أيضا أن الانجليز والفرنسيس يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهـــرة بعد قيام الذين جاءوا معه من دار السلطنة ، وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيس على قومهم بالحذر والالتفات الى ما عساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور ، فقلب الصبى الصفحة يمنـــة ويسرة وتأمل فيهـــا ، وقال صدقت يا عماه ومن الذى أعلمك بهذا الخبر ، فقال سمعت فلانا الحلاق الساعة يقول انه سمعه من أحد موظفى الدولة » (١) وبذلك يظهر جليـــا الوعى الكامل والادراك السياسى التام . وبأن الثورة أصبحت سيدة مصر .

وســـــاهم الحرفيون كبقية قوى مصر فى المسيرة ، فتجد أنه من بين الوفود التى تكونت ومثلت مصر من أجل رفض المذكرة وطلب عودة عرابى كان هناك من ينوب عن الحرفيين (٢) ، وعندما حضر درويش باشا ، حملوا لواء المعارضة على اللائحة وعلى الأجانب ، فقد أحاطوا بعربته وأغلقوا عليـــه الطريق فى شعبية قوية ومظاهرة عنيفة ، وكان منهم الحمارون وماسحو الاحذية صائحين « نصر الله دين الاسلام ، أهلك الله دين الكفار ، أتاكم الموت يا كفار ، أتاكم الموت بحرق النار » ملوحين بأيديهم هاتفين بســقوط الأجانب ، وتبعهم باقى الحرفيين كل شريحة على رأس متعهدها ، فالعاملون فى وابورات الطحين يتقدمهـــم منعهدهم ، وقد صحب ذلك الدعـــاء بالنصر

---

(١) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٢) The Times, May 29, 1882.

لعرابى والحزب الوطنى (١) ، وتذكر صحيفة الفسطاط عن هذا التجمع الشعبى « أن الناس جميعهم فى اسكندرية عند مقابلة وفد السلطان كانوا يهتفون : اللهم انصر سلطاننا ، اللهم أيد الحزب الوطنى الحر ، اللهم أيد بسلطاننا فارسنا المقدام أحمد باشا عرابى ، لا نقبل لائحة الدولتين ،والدعاء على المحطات برفض اللائحة (٢) » ٠ فكان مظهرا : ثوريا نابعا من الأعماق ٠

ومما لا شك فيه انه كان لمثقفى الثورة دورهم فى جذب الطبقة العاملة الى الفلك الثورى ، ولا ننكر فضل النديم فى اذكائه لروح الثورة بينهم، فقد كانت لخطبه التى يلقيها فى الساحات الشعبية الأثر الكبير فى عملية الاحتواء الثورى، وخصوصا انه كان يحس بهم ويعبر عما فى صدورهم، ومن هنا ازدادوا اشتعالا . وقد وضح ذلك فى حادثة الاسكندرية وما تلاها من أحداث ٠

كانت تلك الطبقة العاملة تريد المتنفس لها لتعبر عن سخطها ، فتقول التيمز « عقب حادثة يونيو وسفر الخديوى ودرويش باشا ، تظاهر حوالى مائتين من العمال رافضين مهددين سابين مشيرين بأيديهم ، وبذلك ازدادت سلوك وتصرفات الأهالى سفاهة»(٣) لقد كرهوا الخيانة فى صورة هذا الحاكم ، فى الوقت الذى انصبت فيه المساندة والتأييد والدعاء بالنصر لعرابى . وبالرغم من أن المعسكر المضاد كان يحاول بكل طرقه القضاء على شعبية عرابى لكنه لم يستطع بل أنها كانت تزداد يوما بعد يوم فى نفس الوقت الذى تتأجج فيه الثورة . « فقد حدث أن ثلاثة شيالين بمحطة بركة السبع كانوا يدعون بالنصر للسلطان وعساكر الاسلام وسعادة عرابى باشا حيث كانوا جارين الشغل فوكيل المحطة المدعو رزق الله افندى ووكيل البوسطة المدعو الخواجة يوسف الشامى ضربوهم وأهانوهم ثم أحضروا جملة خواجات آخرين وحرروا عرض فى حقهم للمديرية بأنهم يتطاولون بالسفه وسب الديانة وبناء عليه صار طلبهم بالمديرية فى الحديد وسجنهم ، وعين ابراهيم أفندى اللقانى من مأمورى قلم تفتيش الداخلية وأجرى التحقيق ، وتبين بالاضافة للدعاء أن هناك عددا من الأجانب كان على رصيف المحطة ، فوقف أمامهم ابراهيم القريش وابراهيم الصعيدى شيالين برانى وقالوا ان كل عشرة نصارى بقرش والبقال بعشرة فضة وانهم يذبحون

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٩ ٠

(٢) الفسطاط ، عدد ٩ فى ١٤ يونيو ١٨٨٢ ٠

(٣) The Times, June 14, 1882.

احدهم ويبيعونه بالرطل»، وبالرغم من ذلك فقد أفرج عنهم بالضمان(١) وقد أثبت ذلك تعانق كل من الطبقة العاملة والقائمين على الثورة ٠

وفى أوراق عرابى الخاصة مراسلات التأييد الكامل للقائد ، « اننا من وقت ظهور حزب الحق ونحن فى كل وقت نتكلم بمحاسن الحزب ومشروعاته المؤيدة للوطن ونكابر كل منافق ونقيم عليه الحجة ونثبت لاخواننا الفقراء اسعاد الأمة فى المستقبل ، ويوم استعفى الوزارة كاد يخشى علينا » ثم يطلبون منه حمايتهم بعد أن أصبحوا معروفين أنهم من أتباع عرابى (٢) وواضح أن عرابى قد أصبح ملجأ الجميع وحامى حمى الديار المصرية ، ومطعم الفقراء فى المستقبل ، اذن اشتراك تلك الطبقة الكادحة كان من أجل تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية . فلم يكن فقراء المدن بأحسن حالا من فلاحى الريف ٠

وبدىء فى تطبيق اختصاص العمل الثورى ، فشيخ الخياطين بالاسكندرية يتولى المساهمة فى مهام عملية تختيم ورفض المذكرة المشتركة وعودة عرابى وعزل الخديو ، « وكان يدور بشوارع الجمرك وشهد أن الأسطى حسن المصرى كان قائدا لهذه العملية » (٣) ، وأصبح كل داعيا للثورة فى منطقة عمله بتكوين تلك الخلايا الثورية « فمحمد سليمان سائق الوابور كان مهيجا للأفكار فى السكة الحديد » (٤) ٠

هذا التعاون الكلى والمؤيد للثورة رغم ما فرض عليهم من بعض الأعباء كاعانة حربية « كل صنايعى يدفع عشرة قروش » (٥) ، فالجميع دفعها بنفس راضية ، بل نرى أيضا أنهم يساهمون فى المجهود الحربى بتقديم مبالغ وفقا لحالتهم ، حتى لقد وصل الأمر الى أن أحدا منهم لايمتلك الا بغلة تعينه على الحياة تبرع بها للجيش (٦) ٠

واستنادا الى الثورة يتمرد العمال على مرءوسيهم من الأجانب . فقد أحسوا أنهم أفضل منهم وأن مصر أصبحت للمصريين ، وما هى الا فترة قصيرة ويخرج الأجانب جميعهم من مصر . فنرى بمصلحة خفر السواحل ببور سعيد يضرب العمال عن العمل ويرفضون نقل البالات

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ١٣ يونيو ١٨٨٢ ٠

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٠ ٠

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١٤ . دوسيه ٣٢٣ ٠

(٥) نفس المصدر ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ٠

(٦) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٢ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ أغسطس ١٨٨٢ ٠

« ولا يبالون بأوامر رئيسهم الخواجة فكارى ويجاوبونه افعل ما تريده » (١)

أما عن الاشتراك في الحرب ، فقد سجلت هذه الطبقة صفحة طيبة من صور الكفاح الوطني ، فواصل « عمال الورش والفابريقات العسكرية أشغالهم مع مزيد من الهمه والنشاط ليلا ونهارا » (٢) . من أجل الاعداد للمعركة ، هذا وعندما شرع في اقامة الاستحكامات والتجهيزات الحربيه من خنادق وتحصينات وأوكل الأمر الى محمود فهمي « استحضر لها مهمات البناء والحجر العجالى ، والبنايين والنجارين والمرخماتية والسباكين وباقي الصنايعيه والورشجية » (٣) . وقد استطاعوا بكفاءة فنيـة أن يقيموا ذلك العمل على أحسن وجه ، ولم يقتصر هذا العمل على ميادين القتال بل حصنت المدن كذلك « فقام الحدادون والنجارون ببناء استحكامات القلعة الكائنة على جبل المقطم » (٤) .

هذا وفي ميدان العمل المعنوى ساهم الحرفيون بكافة نشاطاتهم « فالاسكافيه والتهوجية والخياطين كانوا يطوفون بالشوارع ويصيحون : يا لطيف يا جبار أهلك عسكر الكفار » (٥) .

وعمل الخبازون من أجل نصرة الثورة ، فمنعوا الخبز عن الجنود الانجليز وأصبحوا لا يخبزون الا ما يكفى القوات المصرية وينقلونه الى كفر الدوار ، وبالرغم من التهديد الا أنهم أصروا على موقفهم فيرسلون للقيادة ليبلغوها « منذ خمسة أيام حصل التهديد لنا من ناظر مصلحة وابورات المخابز بالقبارى بالقول أن الخديو طلبه وسأله عن صرف خبز للانجليز ، وحضر للمخبز نفرين انجليز أحدهما ضابط والآخر نفر سوارى فصار تعريفهم أنه لا يصنع الخبز الا لدواير الخديو وعساكره فقط » (٦) .

وقد رأى عرابى امكانية الاستفادة من تعبئة قوى الصيادين وخاصة في المناطق التى كان من المتوقع هجوم الانجليز عليها ، فقد أرسل الى قومندان فرقة دمياط يبلغه « أنه موجود ببحيرة المنزلة عدد وافر من المراكب المعدة لنقل البضائع وصيد السمك والطير وبهم عدد وافر من

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٣ .

(٢) الوقائع المصرية عدد ١٤٥٨ في ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ . دوسيه ١٧٩ .

(٤) القسطاط ، نفس العدد .

(٥) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

(٦) محافظ الثورة العرابية . محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ .

الرجال المعدين لهذه الأشغال من أهالى المطرية والمنزلة واذا صار أعطاهم اسلحه يمكنهم المدافعة عن سواحل المنزلة وصيد من يتجاسر من الأعداء على المرور بالبحيرة بالصنادل أو الصالات فبهمة سعادتكم يصير عمل التدابير اللازمة فى جمع هؤلاء الأشخاص وتسليحهم وترتيبهم فى جهات اللزوم لمنع المرور من بوغاز جميل ومن التمكن من سواحل البحيرة » (١) اذن فكرة التعبئة العامة للدفاع عن أرض مصر موجودة لكنها لم تنفذ على المستوى العريض .

كذلك كان للصيادين دورهم فى تقديم مجهوداتهم ، فبعد تحصين طابيى الجميل والديبة فى دميط « وصل فى الحال خمسمائة رجل من الصيادين لمساعدة العاملين فى الطوابى » (٢) ولم يبخل اهالى دمياط ومعظمهم حرفيون عن المضى حتى آخر وقت من أجل نصرة الثورة . ففى برقية من عبد العال حلمى الى وكيل الجهادية يبلغه « أن كافة الناس يساعدوننا »(٣) . وقد وقفوا من الأجانب موقف العداء والتبرم وانعكس ذلك على تصرفاتهم التى أشبعت بمبادىء الثورة وبتطبيق مصر للمصريين وبايقاف الاستغلال الذى امتص دماءهم ، فقد حدث أنه بينما كان قنصل فرنسا فى دمياط يمر فى أحد الشوارع تعرض « بما لا يليق بشأنه من الألفاظ » واشتكى لكن لم يسمع أحد شكواه « فذهب الى القره قول وهدد العساكر الموجودة ومزق كبود أحدهما بحضور جملة من الناس ، فأجرى معه التحقيق » (٤) ، ومع الحرب وزيادة الحنق على الانجليز نراهم يهجمون على القنصلية الانجليزية فى دمياط ويكسرون شبابيكها وصارى البونديرة ويمزقون الراية « ثم أخذوا يطوفون الأزقة شاتمين متوعدين بالقتل من كان قد بقى فيها من المسيحيين » (٥) .

واخيرا يأتى دور الاسكندرية الذى توطد فيها هذا الشعور ، وقد شكل التجار والحرفيون عنصرا قويا فى تركيبها الاجتماعى وقاست طبقتها العاملة من تلك الظروف التى خضعوا لها فكرهوا الأجانب الذين أوصلوهم الى حالة من التدهور والفقر والفتك لدرجة أن صحيفة «ترومتبا» نشرت مقالا بينت فيه حالة الفقراء فى الاسكندرية ووفرة عددهم وترددهم فى الشوارع والأزقة طالبين احسانا لاسيما حالة الأولاد الذين لا ملجأ لهم

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤٥ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٢ .

(٤) المفيد عدد ٢٨ فى ٢٦ يناير ١٨٨٢ .

(٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٥ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/أ .

ولا ملاذ » (١) ومن هنا كان الانضمام التام للثورة ، وكان السكندريون على وعي وقد لمسنا دورهم واتحادهم أمام جميع الأحداث ، فلم تتعرض مدينة مثلما تعرضت له الاسكندرية اذ وقع عبء الغزو عليها ويقول محمود فهمي « رأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصل من غيرة الاهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمفرقعات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضرب بها على الأسطول » (٢) .

ولم يكن ذلك بجديد فالاسكندرية لها فى تاريخ الوطنية صفحات مشرفة ، ويذكر عرابى « وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية واعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات . وقد استشهد فى ذلك اليوم من جميع الطوابى مائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللاتى كن يضمدن جروح الجرحى » (٣) وواضح اشتراك العنصر النسائى فى هذه الملحمة البطولية .

ويذكر لنا أحد شهود العيان الذى أطلق على الحرفيين تارة أصحاب المهن الحقيرة وأخرى الغوغاء « خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الاطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح ، وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند ، فكان اذا هم الجندى بتصويب مدفعه نحو سفن الانجليز هللوا وصاحوا ونادوا يا أهل بيت رسول الله ، يا شيخنا يا أبا صيرى ، يا سيدى ياقوت وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمام أرباب الأشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطىء البحر ناحية السيالة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم يا لطيف ، الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم احدى تلك السفن شيئا من القنابل الصغيرة تباعا فمزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم ودمرت القلعة (آطة) وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والتصقت لحومهم وما بقى من مشاشهم بجدران القلعة ، فكان لها منظر من رؤيته القلوب تتفتت من هوله الأكباد » (٤) .

وفى أثناء ذلك العمل كانوا يتغنون بسب سيمور والانجليز ، ولعن

---

(١) التجارة ، عدد ١٨٢ فى ٥ فبراير ١٨٧٩ .

(٢) محمود فهمى : المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٣) أحمد عرابى : نفس المصدر ، ص ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٤) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

توفيق الذى تمثلت فيه صـــورة الخيانة ، بينما كانت الأصوات ترتفع وتدوى بطلب النصر لعرابى (١) وفى تقرير أحد المساعدين الانجليز عن ١١ يوليو يذكر أنه بعد ان بدأت الهجرة للسكندريين أوقفت وعادوا مرة أخرى «فرحين يتبادلون التهانى بالتعانق وعقد الأيدى ثم سمعنا النساء ينشدن الأغانى المعروفة بالزراغيط ويبدين كل ما هو مألوف عندهن من علامات الجـزل والمسرة (٢) » ، وهـــذا دليـــل على الأمل الكبير فى النصر والاعتقاد الراسخ بحتميته .

وكان الواقع شيئا آخر فاضطروا للخروج من مدينتهم ليسجلوا أروع صورة للوطنية فى أصـــدق معانيها ، ويعطينا حسن الشمسى فى صحيفته ما يؤكد ذلك « هدمت كلل العدو بيوتهم وأفنت بعضـــهم فما خرجوا من مساكنهم الا على عجل وقد تفرق الولد من أبيه والبنت من أمها والزوج من زوجتــه ولعمر الحق انى كنت مع بعضـــهم فى قطر السكك الحديدية وهو فى ازدحام ولا ازدحام المحشر وكل منا يشـــكر الله لو تمكن من وضع قدمه فى الوابور ، فكـان معنا فى عربة واحدة أمرأة تحمل ولدين على الكتفين ومعها بنت ترضع من ثديها ، وكان معنا أيضا امرأة اسكندرانية ومن غرائب الدهر وذلك ان هول الحال انساها طفلا رضيعا تركته فى المنزل ولا تعرف أين توجه زوجها ، فكانت تبكى على ولدها الرضيع ثم تقول : الله ينصرك ياعرابى (٣) » ، فقد خرج نحو مائة وخمسين الفا مجردين من كل شىء ، أخذوا فى الحركة بغير قصد أو مأوى ؛ فالموت والفزع ملأ نفوسهم على الطريق من المحمودية الى دمنهور وعلى جسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة ، وبالرغم من تعليمات عرابى للمحافظة عليهم عندما حرر لمدير البحيرة بالتشديد على مشايخ العربان بحفظ الأموال والأرواح الا أنهم تعرضـــوا لأقصى الوان العذاب « تبهدل بعضهم وجرح وقتل البعض (٤) » ، فكانت تلك الظروف من بين التضحيات التى قدمتها قوى الشعب العاملة من أجل الثورة .

---

(١) Broadly : op., cit, pp. 502, 503.

(٢) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) المفيد ، عدد ٦٢ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ١٩٤ ، أحمد عرابى : تقرير ، ص ٢٧ ، Ninet : op. cit., p. 182. محافظ الثوره العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٨ .

الفصل الحادى عشر

الجناح المدنى من المثقفين

التيار الدينى للمثقفين :

فى ظل دولة الظلم والاستبداد ، بدأ انشغال الأزهريين بالسياسة، حتى انه عند بدء الخطوات العملية للثورة كانوا من المشاركين والمؤيدين والساندين لها ، ولهذا ثقله وتأثيره ، فالعامل الدينى له السيطرة الكبيرة على الفكر المصرى ، اذ لم يكن هناك تعارض بين الدين والسياسة . ومن هنا كانت الدفعة القوية لمشاركة المصريين وانضمامهم للثورة حيث اعطى الموقف الدينى تلك الصفة الشرعية للموقف القومى .

كان القائمون على الدين مصريين ويكرهون السيطرة الصليبية ومن يرتمى فى احضانها من ولاة الأمور ، وقد بدأ ذلك الجمود الذى كان له طابعه للازهريين يلين بعد أن فتحت النوافذ للاصلاح حتى نصل فى النهاية لنراهم ثائرين .

وقد ثبت أنه منذ بداية الثورة كانت العلاقة متوطدة بين قادة الثورة والأزهريين اذ يجمعهما أكثر من لقاء وأكثر من مصلحة ، وأدرك قادة الثورة ما لأهمية الأزهر وتأثيره الفعال على قوى الشعب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد خرجت حركة الكفاح والنضال الوطنى من الأزهر طوال تاريخ مصر . وفى أوراق الثورة العرابية عثرت لجنة التحقيق على بواكير تلك العلاقة والصلات المتبادلة ، وكان الشيخ محمد الهجرسى له نشاط اذ تأكد «انه كان متحدا مع عرابى من قديم»، وهو مثقف وصاحب افكار متقدمة ، وكان على ود مع بلنت كبقية

مثقفى الثوره (١) ، هذا وقد أصبح واضحا أن كثيرا من أعضاء الحزب الوطنى كانوا من الجامعة الأزهرية .

خرجت أولى الحركات الثورية من الأزهر عقب التاسع من سبتمبر وانتصار الثوريين وكانت موجهه ضد الشيخ محمد العباسى الذى كان يتولى الافتاء ومشيخة الأزهر ، فطلب عشرة آلاف من الأزهريين عزله ولكن بدون أن يوضحوا الأسباب ، لكنها كانت واضحة فمعروف ان الغالبية العظمى من طلبة الأزهر فلاحون على المذهب الشافعى والمالكى أما العباسى فهو حنفى — وهو المذهب التركى والرسمى لمصر — ولذا كان النفور ، كما أن هؤلاء الطلبة بدأ يسرى فيهم تيار الثورة ، والعباسى ذو سلطة قوية مارسها وسيطر بها طوال اثنين وثلاثين سنة (٢) ، وكان قد وضع نظاما لامتحان أجازة العلماء بالتدريس لم يوافق هواهم . واشتد الخلاف بينهما كذلك بسبب الجراية وتوزيعها ، وهناك راى ينصب على أن السبب الرئيسى فى العداء هو موقف العباسى من الثورة والخوف من عدم تأييده النظام الدستورى(٣)، وفى حقيقة الأمر فان هذه العوامل مجتمعة ساهمت فى اسقاطه ، فأصحاب الثورة ومؤيدوها على بينة من أن العباسى معين من قبل الأسرة الحاكمة وحافظا لنعمتها وأنه يمكن أن يفتى بابطال شىء يرى فيه توفيق خطرا عليه ، لذا فقد خافوا على وليدهم الجديد من أن يكون للعباسى رأى مخالف فى شرعية هذا المولود . واخيرا فمن طبيعة الثورات التخلص بقدر المستطاع من كل ما يمت ويكون له صلة بالنظام السابق .

لهذا سعى رجال الثورة فى عزله ، ومن محاضر التحقيق الخاصة يتبين صدق هذا القول . ووضحت عملية الاتحاد القوية بينهم وبين الأزهريين الذين املوا ارادتهم فى اتباع نظام الانتخاب للرئيس الدينى ، فاختيار الأصلح هو سمة من سمات الثورة ، وتم لهم ما أرادوا وألفت لجنة تحت رئاسة احمد رشيد باشا وهو مشهور بالعدل ، وعضوية احمد صادق باشا وحافظ باشا وعبد الله فكرى باشا « لاحقاق الحق » ، وجاء تقرير اللجنة بطلب « انفصال حضرة شيخ الجامع عن المشيخة لأجل اعادتها للسادة الشافعية كما كانت عليه من قبل وتقرر

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ١٩ .
Blunt : op. cit., p. 165.

(٢) Pelit, Arch Fasz XXXVIII/195, No. 2863, 5 Dec. 1881, pp. 3, 4.
محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ٦ ديسمبر ١٨٨١ .

(٣) Blunt : op. cit.

تعيين شيخ آخر بدلا عنه من السادة الشافعية بانتخاب كبار العلماء (١) » .

وكان ذلك انتصارا للثورة . فلم يعارض شريف بعد ان وجد ان الأزهر يسوده القلق والاستياء وعبر عن ذلك « بأنه ثورة من العلماء » . كما أن توفيق رضخ على الفور ولم يعارض اذ كتب الى مندوبه بالآستانة « نظرا للكراهية والنفور راينا عزله من المشيخة تسكينا للفساد ودفعا للقيل والقال أمرنا بترتيب هيئة من العلماء قوامها ثلاثة ينتخبون من المذاهب الثلاثة لانتخاب شيخ للجامع بدلا عنه يكون من المذهب الشافعي وقد نفذ ذلك بالفعل (٢) » .

ومن الملاحظ أن الحكم جاء على أيدي ثوريين واثبت ذلك الالتحام بين قادة الأمة وحملة الشريعة ، وكان البديل شافعيا كرغبة الأزهريين وتأييد الثوريين ، وصدر الامر بتعيين الشافعي الشيخ محمد الامبابي شيخا للجامع الأزهر ، وانتخب الشيخ الدرستاوى للحنفية والشيخ عليش للمالكية والشيخ يوسف للحنابلة .

وفى البداية كانت الرغبة تميل الى تعيين الشيخ عليش وهو وطني متقد حماسة — لعب دورا بارزا فى الثورة ومات فى السجن مسموما كما اتضح من الشهادات التى ألقيت فى محاكمة عرابى — لكن وجد تعيينه معارضة من الخديو ، وانتهى الأمر بتعيين الامبابى وهو متدين متحرر من القيود وتجمعت العوامل لتمكنه من العمل بثقله الدينى والروحى والأدبى فى المجتمع من اجل الثورة . وسيعلن هذا الشيخ عزل توفيق فى الوقت الذى يمتنع الشيخ العباسى على الموافقة .

كان اسقاط القائم على أمر الاسلام على يد الثورة حدثا اهتزت له حتى الدوائر السياسية التى اتهمت شريف بالضعف لتركه الثوار يفرضون أنفسهم على الأحداث ويسيرونها كيفما أرادوا ، فيقول تقرير نمساوى « ان عزل الشيخ العباسي وتعيين خلفا له هو الشيخ محمد الامبابى لا مفسر له سوى ضعف حكومة شريف (٣) » .

وبدأ فى الأزهر العمل التحررى ، فكانت ثورة على القديم ووضعت الأسس الجديدة التى تتفق ومبادىء العهد الجديد ، وقدم شيخ الأزهر ووكلاء المذاهب الثلاثة الى الداخلية تقريرا أوضحوا فيه برنامجهم الاصلاحى .

---

(١) محفوظات مجلس الوزراء ، محفظة ٥/ز ، دوسيه ٢٩ ، محضر ٣ ديسمبر ١٨٨١

(٢) محافظ الأبحاث ، نفس المصدر .

(٣) Polit, Arch, op. cit., No. 144/13, 9 Dec, 1881.

وجاءت الأحداث السياسية التى تعرضت لها مصر والتدخل الانجليزى ليعطى الدفعة قوة بعد ذلك الخطر الذى أصبح يهدد مصر سواء من الخارج أو الداخل ليكون فى النهاية انضمام كلى للأزهريين ونزولهم للميدان الثورى ، وبدأ دورهم فى اثارة الحمية الدينية والوطنية لقوى الشعب ؛ ويعزى البعض الى انه كان لذلك اثره فى الثورة . حقيقة لا ننسى ان الشعب كان معدا الاعداد الكامل لها لكن مما لاشك فيه أن دورهم فى الحث والحماسة أضفى الشرعية الكاملة عليها ، ولم يكن دورهم ليقتصر على ذلك بل انهم غذوا الأفكار الثورية ونموها . وما كان اختيار الامبابى « الا من أجل خدمة أهداف الثورة » (١) ؛ هذا فى وقت بعدت فيه أفكارهم عن الجمود الذى اتصف به الأزهريون ودخلت فى درجات الرقى والتقدم والتطور للدرجة التى جعلتهم تأثروا بالمؤثرات الثقافية الأوربية ، وبذلك لم تقتصر زعامة الثورة على القادة العسكريين فقط .

وعاش رجال الدين خطوة بخطوة مع الثورة ، فكانت لهم مواقفهم من الأحداث . فيرفضون مذكرة مايو المشتركة ويسعون لاعادة عرابى. وكانوا يمثلون الزعامة الدينية لدى مناطقهم ويعبرون عما يكنه الشعب، هذا فى الوقت الذى أعطتهم فيه الثورة المزيد من الشخصية والمزيد من السلطان ، فأصبحوا لا يتكلمون باسمهم فقط بل باسم المجموع ، فنرى برقية واردة الى الداخلية من الشيخ محمد القصبى شيخ الجامع الأحمدى تؤيد وترفض وتعترض اذ تقول : « انى بصفة كونى شيخ الجامع الأحمدى بطنطا أقول ان جميع الناس متمتعون بنعمة عدالة حكومتنا الحالية معضدونها كل التعضيد رافضون كل تدخل أجنبى ولا يكدرهم الا ما علموه من اتيان المراكب الحربية الى الاسكندرية . فلما رأينا منهم غاية التحمس ونهاية التحمس فى هذا الأمر سعينا فى تسكين جأشهم وتهدئة خواطرهم وقلنا لهم لاضير فستنجلى هذه المراكب عنا بسلام حافظين امتيازاتنا واستقلال ادارتنا (٢) » .

وواضح انه كما كان رجال الدين القوة المعنوية الدافعة لثورة الشعب كانوا القوة المهدئة ازاء الأحداث وقد انصب موقفهم فى هذه الفترة على ضرورة خروج الأسطول المشترك من المياه المصرية ، وكان لهم دورهم فى تثبيت عرابى بمنصبه فى الوقت الذى كانوا فيه غير راضين على حكم توفيق .

---

(١) Ibid, No. 151/Pol, 18 Dec. 1881.

(٢) الوقائع المصرية . عدد ١٤١٣ فى ٢٠ مايو ١٨٨٢ .

وقد ظهرت، ثورتهم الفعالة أثناء اللقاء الذى تم بين أربعين عالما ومعهم شيخ الاسلام • وبين درويش باشا اذ ثاروا امامه واظهروا استياءهم من الحالة وقدموا مطالبهم لترفع للسلطان « اثبات وزاره سعادة محمود سامى باشا ، ورفع الخديو عنا ورفض اللائحة ، لأن أصل الارتباك الحاصل الآن بمصر هو ناشىء من الخديو بسبب قبوله تلك اللائحة ، والدليل الوحيد الذى يؤكد لنا ذلك انه استعان على جماعة المسلمين بأعدائهم الكفار وخالف قول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون الله) ، فضلا على أنه طلب من الدولتين المدرعات الحربية ، وانه قبل لائحتهما المخلة بالفرمانات الشاهانية الصريحة مع أننا لا نقبل دخولنا تحت سطوة أى دولة كانت غير دولتنا العلية ، ومن يعارضنا نحن مستعدون لمقابلته بالقوة ومعضدون للحزب الوطنى بأموالنا وانفسنا واولادنا» ، وتحدث الشيخ عليش وقال « اننا نخشى أن تنقلب مسألة مصر وتصبح مثل مسألة تونس ، فأجابه درويش باشا قائلا : حاشا أن تكون مصر مثل تونس أو الجناب الخديو مثل باى تونس » ، واضاف أن الجيش قد خلص البلاد من الوقوع فى أيدى الكفار وأثنى على رؤسائه وعلى وطنيتهم . أما الشيخ العدوى فقد رفع صوته ومعه اثنان على ضرورة طرد الأساطيل . مما جعل درويش يتوقف ويمنعهم من الاستمرار فى الحديث معلنا «انه جاء لعطى الأوامر لا ليتلقى نصائح، وان القصر ليس قهوة السياسيين المشاغبين وأمرهم أن ينصرفوا فى الحال (*) » .

وفى حقيقة الأمر انه منذ البداية لم يكن العلماء راضين عن سلوك توفيق وكانوا مؤيدين للعسكريين وعلى رأسهم عرابى الذى حاول بكل الطرق استصدار فتوى شرعية منهم بعزل توفيق ، فقد أرسل اليهم « ما القول فى حاكم مولى من طرف سلطان المسلمين على أن يعدل فى الناس ويقضى بأحكام الله فنقض العهد وأحدث الفتن بين المسلمين وشق عصاهم ثم انتهى به الأمر الى أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين وطلب من الأمم الخارجة عن الدين القويم أن ينفذوا قوتهم فى بلاد حكومته الإسلامية وحمل رعاياه على ان يدينوا ويخضعوا لتلك القوة الأجنبية . وبدل عنايته فى الدفاع عنها ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن ذلك ابى وامتنع وأصر على الخروج على طاعة السلطان والمروق من الشريعة . فهل يجوز شرعا أن يبقى هذا الحاكم حاكما حتى يمكن قوة

(★) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ دوسيه ٤٤ ، محفظه ١٤ دوسيه ٣١٨٠/ب محفظه د ، دوسيه ٣٤٦ ، The Times, June 12, 1882.

الأجانب من السلطة فى البلاد الاسلامية ، فبهذه الحالة عزله واقامة بدل له يحافظ على الشرع ويدافع عنه ، أفيدوا الجواب » (١) .

وكان الجـواب معروفا . فمنذ بداية الفجـوة بين توفيق ورجال الثورة أعلن الشيخ الامبابى عزله ، واستمر موقفهم هذا وظهر جليا فى الاجتماع الذى عقده توفيق عقب استقالة الوزارة الثانية وايضـا فى الاجتماع لدى سلطان ، ومعروف موقف الشيخ عليش وثوريته واصراره على خلع توفيق الذى لم يعد يصلح لأن يكون واليـا على المسـلمين ، وازداد الموقف تعقيدا عندما تمت المقـابلة مع درويش اذ كانوا يعتقدون أن مندوب أمير المؤمنين سوف يكون بجانبهم لكن عندما اتضح العكس عادوا وهم فى أشد الحنق عليه هو الآخر ، ويذكر صابونجى فى خطاب له لبلنت فى ١١ يونيو ١٨٨٢ وكان شاهدا لتلك الأحداث « حـدث فى الأزهر حركة شبيهة بالثورة وقد حضرت عدة اجتماعات للعلماء وغيرهم وكان الغضب فى جميعها شـديدا ، وكان المتـكلمون يكثرون من ذكر القرآن والحديث ، ويثبتون منهما أن توفيق غير مناسب لأن يكون واليا على أمة اسلامية ، ولم يكتفوا بعقدالاجتماعات الخاصة بل قرروا أمامى أن يعقدوا اجتمـاعا عاما فى الأزهر احتجاجا على الاهانة التى لحقت بهم ، وعقد الاجتماع بالفعل فى الأزهر حيث تقام الصلاة ، وطلب من نديم أن يخطب الحاضرين ، وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس وليس عندى من الوقت ما يسـمح لى بوصـف التأثير الذى أحدثتـه خطبة النديم (٢) » .

وتعـددت اللقاءات الثورية فى الأزهر لنشر الأفكار ضد الأجانب والحاكم « وأخذوا يسيرون فى الشوارع والطرقات فى شـكل مظاهرة يحتجون فيها على الأوضاع وعلى معاملة الخديو لبعض الأحرار من علماء الأزهر (٣) » ، حيث بدأ توفيق يضيق ذرعا بهم فكان دائمـا يحـاول توجيه الضربات لهم ، والتحمت القـوى والتصقت الكيـانات وتلاقت الأرواح وكثرت الاجتماعات لدى القائد الذى أصبح معبود الشـعب وامتلأت الصحافة بوصفها وبدقة تلك الوفود اليومية من شباب الأزهر الذين يجتمع بهم « مجدد أمر الأمة سعادة أحمد باشا عرابى (٤) » ، فلم يكن هناك اجتماع يخلو من علمـاء الأزهر الذين اعتمـد عليهم اعتمادا

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ١/٥٣ .

(٢) Blunt : op. cit., p .330.

(٣) د. عبد اللطيف حمزة : العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده ص ص ١٣ ، ١٤ .

(٤) القسطاط ، عدد ١٠ فى ٢١ يونيو ١٨٨٢ .

كبيرا . وقد اعطت التقريرات والشهادات المقدمة الى لجنة التحقيق بأن « طلبة العلم وشيوخ الأزهر كان منزل عرابى يغص بهم (١) » . وهذه الاجتماعات كان رجال الدين الحجر الأساسى فيها وخرجت منها أصوات اتهامات توفيق وضرورة المقاطعة ، فى الوقت الذى كانت أصداء التأييد والتشجيع للقادة تدوى وكثيرا ما كانت القصائد الخاصة بمديح عرابى تلقى فتزيد المجتمعين حماسة وقوة ، وقد لعب الشيخ عليش دورا مهما فيها، ففى محضر انهامه « انه من الساعين للهيجان والافساد المساعد للعصاة فى الاتحاد بهم والتهور فى المحافل والمجامع العمومية والخصوصية بالانتصار لهم والقدح والتنديد فى حق الحضرة الخديوية حتى حصل افساد الأذهان والأفكار العمومية للدرجة التى أوصلت اليها من الاختلال والتعصب الدينى والسياسى (٢) » .

وتجسدت ارادة الشعب على يد العلماء ، وأعلن الشيخ العدوى صراحة ان توفيق مرق من دين الاسلام ويجب خلعه وكان ذلك أثناء انعقاد المجلس الوطنى الأول للمداولة فى استمرار التجهيزات الحربية أو ابطالها . وللعدوى تاريخ يسجل فى الثورة اذ أيدها بكل قواه وبالرغم من أنه كان مسنا وضعيفا جسمانيا الا أنه روحانى عميق وباحث قديم عن العدالة التى فقدتها مصر وقد ايد شرعية مطالب الثوار ومضى فى موقفه البطولى حتى مات ، وبناء على قراره صدرت الفتوى التى مضى علبها ثمانية من رؤساء العلماء الأزهريين على رأسهم الشيخ عليش .

وهكذا صدر حكم الرؤساء الدينيين على الحاكم وأبانوا انه على الحكام ان يكونوا اصحاب ايمان وأن يحكموا بالعدل وفقا لما أمرت به الشريعة لكن توفيق حاد عن ذلك « حيث أتوا بقصة ابرهة وأصحابه كمثل جيد لطغيانه وعدم اخلاصه وصلاحيته (٣) » وبالرغم من ذلك الا ان توفيق لم يسقط .

وكان للعلماء موقفهم ازاء الوجود الأجنبى ، فقد احتجوا وختموا على رفضهم ببقاء السفن البريطانية فى الاسكندرية ، وأيضا فى اجتماع المجلس الوطنى الأول والثانى أصدروا قراراتهم باستمرار التجهيزات للمدافعة عن مصر ضد المعتدين وعدم تنفيذ ارادة الخديو فى عزل عرابى .

---

(١) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين ، حـ ١ ، تقرير ٧ ، ص ٢٨ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١٩٣ .

(٣) Broadly : op. cit., pp. 175-177, 365.

وفى أثناء الحرب كان لهم موقفهم المشرف اذ اعتبروها حربا صليبية ، وكان ذهابهم أفواجا الى ميادين القتال برئاسة الشيخ العدوى وذلك للتأييد الروحى والمعنوى واعتبار ذلك من دواعى المدافعه عن الوطن وان ذلك واجب شرعا وسياسة .

وراح طلبة الأزهر بعد أن وحدوا جهودهم يجوبون الشوارع ويوزعون المنشورات التى تحث على الجهاد فى سبيل الله ، ومضى التوسل والتضرع لله لينصر المسلمين وذلك بقراءة البخارى، وقد انشغل العلماء بهذا الأمر . فكانت الجوامع تغص بالمقرئين وخاصة الأزهر والحسين ، وفى قاعة الأزهر الشريف داخل المسجد الأحمدى . وأيضا فى أرض المعارك . وكانت تقام الصلوات ليلا ونهارا فى جميع المساجد من أجل نصرة عرابى وجيشه ، يقوم فيها المؤذنون على المنائر يبتهلون الى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدو (*) ، هكذا فعلوا مثلما حدث وقت غزو التتار والحروب الصليبية .

كما كانت للخطابة الدينية الأثر الكبير فى تعبئة الرأى العام وتجميعه وتحميسه وخصوصا انها خرجت من المساجد وهى بيوت الله التى أذن فيها بذكر اسمه ، وكان علماء الأزهر على قمة الخطباء فى اعلان الجهاد الدينى . وسرى الأمر الى جميع مشايخ المساجد منذ أن بدأت الحرب وحتى نهايتها ، ففى أسيوط كانت خطب « الشيخ زين الدين نقيب الاشراف بجامع الدفتردار » تتضمن بيان أحوال البلاد وشرح ما يجب على المسلمين عمله الذين دهم العدو بلادهم ظلما وعدوانا من غير أن يقترفوا ذنبا أو يجترموا جريمة سوى المحافظة على حقوقهم الدينية والوطنية وحض على بذل الأرواح فى سبيل الله والتبرع بالأموال مستشهدا بالآيات القرآنية .

وفى المنصورة يخطب « الشيخ ابراهيم السمنودى على جمع الكلمة وائتلاف القلوب والتعاون ، والدعاء للجيش بالنصر والظفر فيضج الحاضرون بالتأمين » ، وفى المحلة لم تقتصر الأمر على خطب الجمعة بل استمرت طوال الأوقات لتنبيه فضل الجهاد وما أعد للمقاتلين فى سبيل الله ، وكانت تطبع وتوزع فى جميع الجهات المجاورة ، وفى دمنهور كان لصوت الشيخ « حميده الدمنهورى » صدى واسع بجامع أحمد الزواوى ، وخطبه امتازت باشعال الحماس من أجل الجهاد

(*) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ دوسيه ٥٠ . محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .
الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٩ فى ١٦ يوليو ١٨٨٢ Broadly : op. cit., p. 131
مخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

الدينى والمالى . كما كان لخطب « الشيخ المليجى » النتائج المرجوه . ففد لبى اهالى أسيوط النداء الذى وجهه اليهم (١) . كذلك كان للنشاط المزايد الذى قام به الشيخ « أحمد عبد الجواد » واخوه من علماء الازهر فى الدعوه للطوع وقتال الانجليز وتركهما لبلدهما ووجودهما فى معر وجود الجيش . « لاجل الدعاء وحث العساكر على المحاربة » اثر على الحالة المعنوية . وظهر أيضا فى هذا المجال الشيخ العدوى كداعية للجهاد حتى لاقرب المقربين اليه « اوعز الى نجل احيه وهو على جانب عظيم من شدة البأس وقوة المراس وعارف ببعض اللغات بأن يتطوع بنفسه للانضمام فى سلك المجاهدين (٢) » .

وكان هناك بجوار الجهاد والتطوع والاقتداء بالرسول (ص) وبيان دور الخيانه للمنشقين عن الشريعة ، واظهار العائلة الخديوية « الذين كانوا كالليل المظلم اذ كانوا منهمكين فى ميدان حظهم الدينوى وعن طريق الدين غافلين » ، ان أصبح الدعاء فى صلاة الجمعة لا يدعى للسلطان أو للحاكم انما لعرابى « اللهم انصر عرابى بجيش المؤمنين » . وبذلك اصبح حاكم مصر الشرعى بدون منازع .

أيضا كان لهم دورهم فى مسألة الاموال ، فقد حثوا على التبرع بها ، وقدموا تلك الصناديق المملوءة بنذور المساجد الى المجهود الحربى . وساهموا فى التبرعات كل على حسب مقدرته . وقام الشيخ العدوى باخلاء سرايته بعابدين لينزل بها مائة من مهاجرى الاسكندرية ورتب لهم خمسمائه رغيف كل يوم ، ولم يكن هو وحده انما أيضا باقى العلماء الذين تبرعوا بمنازلهم لسكنى المهاجرين وأجروا عليهم المأكل والمشرب (٣) .

كما كانت هناك القصائد التى نظمها العلماء ، فيقول الشيخ المرصفى :

يا صاح قم واشكر الهك واحمد
فالدين منصور على يد أحمد

ويقول أحمد عبد الغنى المدرس بالأزهر :

وقت فيه الاستعداد فرض لتنفيذ الأوامر من عرابى

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٤ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٤ فى ١٠سبتمبر ، عدد ١٤٦٢ فى ٢٠ يوليو ، عدد ١٤٦٩ فى ٨ أغسطس ، عدد ١٤٧٤ فى ٢٤ أغسطس ، عدد ١٤٨٠ فى ٤ سبتمبر ، عدد ١٤٧٦ فى ٢٨ اغسطس ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) نفس المصدر ، عدد ١٤٨٠ فى ٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٠ فى ١٠ اغسطس ١٨٨٢ .

قوموا بالثبات على الأعادى وقولوا فيهم فصل الخطاب
وقولوا يا عرابى مر بأمر تراه فأنت ذو الأمر المجاب
وقولوا يا عرابى دم رئيس لحفظ النصر محفوظ الجناب (*)

هذا بالاضافة الى تلك الرؤيا التى اذاعها العلماء بانتصار عرابى والمصريين ، فتارة السيدة نفيسة تلبس له السيف ، وتارة أبو العباس المرسى يؤيد خطواته وهذا الدليل على التطلع الى النصر وخصوصا أن ذلك الوقت كان لمثل هذه الأقوال القوة فى رفع المعنويات سواء للمحاربين أو للشعب .

وبذلك وضح الدور الذى قام به العلماء مع الثورة ، فقد أيدوها بكل قواهم المعنوية والمادية ولم يدخروا وسعا فى ذلك أملا بأخذ يد مصر وانقاذها مما كانت تعانى منه .

الامام الأزهرى والفكر الليبرالى :

حمل لواء التيار الدينى المثقف فيلسوف الثورة ومفكرها الامام محمد عبده ، فاعتمدت عليه فى تنفيذ مسارها وبرز دوره السياسى كأعلى درجة لفكر المثقفين الذين ساهموا بعقليتهم وجهدهم فيها . ولم يكن اشتراك محمد عبده فى الثورة بجديد على اتجاهه الثورى ، فقد عرفناه منذ أن كان تلميذا ثوريا للافغانى أليس هو الذى اوكل اليه الرصد لاسماعيل وقتله عند قصر النيل ؟ وهو الذى ساهم بالرأى مع أعضاء الحزب الوطنى فى عزله ، ولكنه كان بجوار الاطار الثورى يرى من الضرورى اصلاح المجتمع الذى كان يميل اليه مع بداية الثورة والذى جعله معتدلا فى البداية « فقد زار مرة طلبة باشا فاذا مجلسه الذى كان به عرابى يتكلمون فى الاستبداد والحرية والحكومة المطلقة والحكومة النيابية والدستورية . واتفقوا على أن الامن على الأرواح والأموال وصعود الأمة فى مراقى الكمال من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال ، وان هذا التحويل قد آن فى مصر وادركها ابانة فعارض محمد عبده وقال ان أول ما يجب ان يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية . وطالت المناقشة بين القادة العسكريين وبينه وكل منهما مصمم على رأيه ؛ واخيرا قال ان الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة فى ادارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لأنه ليس تصويرا

(*) محافظ الثورة العرابية محفظة ٨ ، دوسيه ٥٠ ، سليم نقاش : المرجع السابق ص ١٩٨ .

الاستعداد الأمة ومطلبها ويخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا أجنبيا » (١) .

لكن سرعان ما تغيرت هذه المفاهيم لدى محمد عبده عندما وجد أن الثورة هي ثورة شعب وليست قاصرة على العسكريين ، فدخل بسلاحه وشارك كل المشاركة حتى غدا أحد الرءوس المدبرة لشئون الحركة الوطنية ، وقد اعطاه مركزه في الوقائع المصرية القيادة منذ البداية ، ففيها راح يكتب عن ضرورة الاتحاد بين عناصر الأمة على اختلاف أديانها ومذاهبها حتى تستطيع مواجهة اعدائها ، وحث الأغنياء عى المساهمة في المشروعات لافادة الشعب ، وفي الفترة من قصر النيل الى التاسع من سبتمبر تلك التي كانت مفعمة بالنشاط السياسي الذي شمل جميع قوى مصر جعلته ينقل ثقله الى المعسكر الثوري ، وقد وضح ذلك في مقالاته عقب التاسع من سبتمبر التي عظم فيها المصريين وأشاد بروح الاتحاد وشرح للقراء أهمية الحكم الدستوري وتطبيق العدالة والصحوة من الغفلة .

ويرى محمد عبده ان الحرية تنقسم الى حرية رأى وحرية قول وحرية انتخاب ؛ وهذه الحريات لها حد ، فحد حرية الرأى أن يكون مبنيا على القياس موافقا للحكمة مطابقا للصواب ، وحد حرية القول أن يراد به الخير ولا يجاوز فيه حد المنفعة ولا يمس شرفا مصونا ولا يضر بريئا أمينا ولا ينتشر من غير علم اليقين، وحرية الانتخاب أن يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس الا ، كما عرف الحرية السياسية بأنها عبارة عن حق الانسان في المساهمة والاضطلاع بشئون الدولة ، وقد تعرض لتلك الحرية من ثلاث زوايا ، الأولى الاقرار بهذه الحرية والثانية توفير مقوماتها والثالثة ايجاد وسائل التعبير عنها (٢) .

أما القانون فقد كان له المكانة في فكره من حيث حتمية تطبيقه ؛ فهو الحق الذي ترجع اليه الأمة في معاملاتها وأحوالها الخصوصية وهيئاتها ، وان الحكم على أساس القانون والحكم على أساس القوة أن الأخير يتم دون مراعاة طرق عادلة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء وذلت الشعوب وانهكت حرمات الأمم وسحنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد ، وفي ذلك يتبين انه كان متفقا مع فكر مونتسكيو ، وعندما تم انتخاب مجلس النواب طالبهم بأن « لا يجاروا

---

(١) السيد رشيد رضا . المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) الوقائع المصرية » عدد ١٠ نوفمبر ١٨٨١ .

عير بلادهم فى سن القوانين وعليهم ان يجعلوا أوضاع بلادهم واحوال الأهالى الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيأ لهم حينئذ أن يرسموا ما لابد منه من الأحكام الملائمة»، فالقانون هو الواسطة بين الحاكم والمحكومين، وهو الذى يحدد واجبات كل منهم ، وأن الديمقراطية ليس لها القوة الا باحترام القانون ويتحقق القانون بتوافر الحرية السياسية وبالاستناد الى الرأى العمومى الذى هو ثمرة أهل الحل والعقد (١) .

كذلك تغلبت الحكومة الشورية على أفكاره ، وكانت الركيزة التى غذى بها الثورة . وطرحها أمام الجميع بصور مبسطة وربطها بالاسلام وبالأفكار الغربية المتطورة وبين حاجة مصر لها ، وأفهم المصريين ما هى واجبات الحكام وحقوق المحكومين فيقول « كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وانه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول والفعل جهرا بهذا القول والاستبدادية فى عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له أى عبيد ، نعم اننى فى ذلك لم أكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير انى كنت روح الدعوة (٢) » .

ويبين المعانى الحقة للوطن والوطنية « فالوطن عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقك عليه ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك ، ومن أقوالهم فيه ولا وطن الا مع الحرية » ، وان الوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداف الشرف الذاتى فهو يغار عليه ويزود عنه .

وتطرق الى القومية « التى لا تفرق بين دين أو آخر وهى سمة العصر الحديث منذ الثورة الفرنسية ، نزعة فكرية وعاطفية توجه ولاء الفرد للامة ، وقد سميت القومية نسبة الى القوم الذين يعيش الفرد بين ظهرانيهم ويشعر بأن كيانه جزء لا يتجزأ من كيانهم ولها مقوماتها الخاصة كاللغة والأرض والكيان السياسى والعادات والتقاليد أو الدين، وبالرغم من أن هذه المقومات لها أهمية كبرى فى تكوين القومية فان العامل الأساسى فى حفز الشعور بالقومية هو الارادة الحية النشطة التى

---

(١) نفس المصدر ، عدد ٧ فبراير ١٨٨١ عدد ١٢٩٠ فى ٢٥ ديسمبر ١٨٨١ ، عبد العاطى محمد أحمد : الفكر السياسى للامام محمد عبده ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٨ ، ص ص ١٨٦ ، ١٩٥ .

(٢) محمد عبده : نفس المصدر ، ص ٢٨ .

هى نزعة فكرية توجه نشاط الغالبية العظمى من الشعب (١) » ، وان الشورى وحرية الارادة تبنى على حق المحكومين فى اختيار نظام الحكم الذى يحقق مصالحهم .

لقد عرض محمد عبده للمصريين المعانى السياسية والقومية فى صور مبسطة حتى يدخلها فى الأذهان اذ إنه أراد أن يعتمد على جميع عناصر الأمة بلا استثناء ، ولم تكن تلك المعانى تصل عن طريق الصحافة فقط بل عن طريق الكلمة المسموعة من على منابر الخطابة سواء فى الجمعيات أو فى تلك الليالى والاحتفالات التى كانت تجمعات سياسية .

تمكن محمد عبده من السيطرة على الصحافة احدى وسائل أجهزة الاعلام ، وصدر امره بتعيين أحمد بك رفعت ناظرا لقلم المطبوعات التركية والعربية والمسيو فوكلين رئيسا لقلم المطبوعات الافرنجية ، وعمل هذا الثالوث بكل قواه من أجل الثورة ، كما جند العاملين معه لنفس الغرض فكان منهم سعد زغلول وعبد الكريم سلمان والشيخ محمد خليل والشيخ عامر اسماعيل وهم من محررى الوقائع ، وقد اتبع الأول أسلوب أستاذه فى كتاباته (٢) .

كان محمد عبده يكره الأتراك ويمقت سياستهم وبالتالى فهو شديد النفر لسياسة السلطان عبد الحميد الاستبدادية ، وفى خطاب له الى بلنت فى ٢٥ ابريل ١٨٨٢ يتكلم بلسان « كل مصرى سواء أكان من العلماء أو من الفلاحين أو الصناع أو التجار أو الجنود أو الموظفين أو السياسيين او غير السياسيين ، فلا يستطيع مصرى ان يفكر فى نزول الأتراك فى بلادنا بدون أن يشعر بعاطفة قوية تدفعه الى امتشاق سيفه والهجوم به على هذا المعتدى ان الأتراك ظلمة قد تركوا فى بلادنا من آثار السوء مالا تزال قلوبنا تضرب منه ضربان الجرح فلسنا نريد رجعهم ولسنا نريد أن نعود الى معرفتهم ، وكفى الأتراك مالهم من حقوق الفرمانات فعليهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه » (٣) .

وكان يرى أن الوحدة الوطنية لايجب أن تكون فوق الخلافات الدينية فحسب وانما هى أيضا فوق الخلافات السياسية « فان كان الفرنسوى جمهوريا أو ملكيا أو امبراطوريا فهو فرنسى على كل حال » . وبلور محمد عبده فكرة السياسى فى الشكل الجمهورى الحر فكان نصيرا

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ ، عبد العاطى محمد احمد : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٢) نفس المصدر ، عدد ١٣١٩ فى ٢٨ يناير ١٨٨٢ .

(٣) Blunt : op. cit., p. 251.

للديمقراطية البرلمانية المدرجة التى جعلت عرابى يقول عنه « انه يصلح للبس القبعة عن العمامة » (١) ، وكان ذلك دليلا على تحرره اذ أنه صب فى العقول الأفكار الغربية التحررية ، حتى أن الكثير قد اتهموه بالطعن فى الشريعة الاسلامية وبأنه دس تلك الأفكار فى كثير من طلبة العلم الذين تتلمذوا على يديه ، وكان كرومر على حق حين وصفه بأنه مؤسس مدرسة الفكر المصرى الحديث (٢) .

عرف محمد عبده بذكائه ووسع ثقافته واجادته للكتابة ، فهو الرجل الموهوب للحركة الوطنية فى الوقت الذى كان فيه متحدثا لبقا له النفوذ القوى على المتقفين وهو متحرر بعيد عن التزمت قدم الكثير من أجل مصر ويقول برودلى « وأحيانا كان يصعب علينا الوقوف على شخصية محمد عبده ، فقد كان سليط اللسان يشرح ويصور أهداف وبواعث الوطنية المصرية » (٣) ، وبذلك أصبح القائد الفكرى للثورة فالتصق بالتوار وساهم فى صنع الأحداث .

ويعد برنامج الحزب الوطنى من المبادىء التحررية للثورة هذا البرنامج المتكامل الذى ساهم فيه محمد عبده بنصيب وافر مع بلنت والبارودى وعرابى وقد نشر فى التيمز فى أول يناير ١٨٨٢ بناء على الاتفاق بين الامام وبلنت لكسب الرأى العام الخارجى الى الحركة الوطنية وشمل المحافظة على العلاقة التى تربط مصر بالباب العالى وفقا للتسويات الدولية ، وخضوع مصر للحاكم الشرعى مادامت أحكامه جارية وفقا للعدل والقانون وعدم العودة للاستبداد والأحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل واطلاق عنان الحرية للمصريين ، والاعتراف بفضل فرنسا وانجلترا مع استمرار المراقبة الأوروبية ، وأن مصر ملزمة بالديون التى لم تفرض لمصلحتها بل أنفقت فى مصلحة حاكم ظالم كان لا يسأل عما يفعل ، والأمل فى استخلاص المالية من أيدى أرباب الديون حتى يأتى اليوم الذى تكون مصر فيه بيد المصريين، واظهار خلل المراقبة والهجوم على الموظفين الأجانب مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن أسلوب براتب لا يوازى خمس راتب الأجنبى ، وضرورة فرض ضرائب على الأجانب وخضوعهم لقانون البلاد ، وان طريق الحرية هو اتباع المؤسسات الدستورية كمجلس النواب واطلاق حرية المطبوعات بطريقة ملائمة وتعميم التعليم ، وبيان أن المصريين فوضوا أمرهم للعسكريين الذين

---

(١) Broadly : op. cit., p. 227.

(٢) Cromer : op. cit., vol. II p. 180.

(٣) Broadly : op. cit., p. 228.

يكونون القوة الوحيدة في البلاد ومتى وصلوا لغرضهم فهم تاركون التدخل في السياسة لأهلها ، وزيادة الجيش الى ١٨ ألف عسكرى ، وتوضيح أن الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية وأظهر أن آمال الحزب معقودة على اصلاح البلاد ماديا وادبيا وذلك بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للامة ، واشار ان للمصريين اعتقادا في دول أوروبا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال أن تمتعهم بهذه الحركة (١) .

وبذلك تمكن منقفو الثورة من عرض قضيتهم بطريقة لاتجعلهم يتعرضون للهجوم من أية ناحية وقد لقى أصداوه فنجد صحيفه لستاندرد تؤيد الحزب الوطنى بقولها « ان هذا الحزب ليس الا حركة وطنية تريد أن تصل الى حكومة وطنية ، فهى تود أن المصريين يأخذون على أنفسهم عهدة ادارة الأعمال المالية بدون مساعدة الأجانب التى لاتنتهى مع مرتباتهم الباهظة ، فمن نظر ذلك بعين الازدراء وظن انه ليس خروجا عسكريا عن حدود القوانين أو ثورة صاحب غاية لا مقصد له غير غايته فقد زاغ عن محجة الصواب » (٢) .

كذلك كان لمحمد عبده تأثيره في مجلس النواب ، فهو على صله قوية ووطيدة بأعضائه أمثال أحمد محمود عمدة الرحمانية وابراهيم الوكيل عمدة سمقراط ، فله الدور الفعال فى تحريكهم واشعال نشاطهم وقد وضح ذلك من خلال عمل المجلس ، ومع البارودى كان تأثيره واضحا اذ جعله قادة الثورة « واسطة عقدهم وفهرست كتبهم يرجعون اليه في جميع أمورهم ، لا يتحركون الا بارادته ، فكان أرسطوهم فلسفة وبسماركهم سياسة » (٣) .

ومن خلال الوقائع المصرية كجريدة رسمية سيطرت على مجريات الأمور في مصر سيطر محمد عبده على الموقف ونشر فيها خيانات توفيق وامتلأت الصفحات بالقدح فيه والمدح فى عرابى والدعاء له ، والحث على المحاربة والجهاد في سبيل الله بالتطوع فى دخول الخدمة العسكرية وتشجيع الاعانات المالية ومدح المديرين على مجهودهم فى سبيل ذلك . وشرح كيف ان العدو هاجم مصر ظلما وعدوانا ابتغاء توسيع ممالكه ويستشهد بالقرآن الكريم وبأقوال الرسول (ص) ، ويذكر لنا أنه

---

(١) Blunt : op. cit., pp. 556-559.

(٢) الطائف ، عدد ٢٨ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

بفضـــل هذه الكتابات « فتحت عقـول الأمة ووجهتها نحو طلب الحرية والاصلاح بعد أن عاشت زمنا فريسـة للطغيان والاسـتبداد وضـحية للجهل والفساد » (١) ٠

كذلك اوعز الى «ابراهيم افندى سراج من المدينة المنورة» لاصدار جريدتى الحجاز والفسطاط للتحـدث فيهمـا بشجاعه العـرب ، وتمكن بمساعدة بلنت وجريجورى من اصدار جريدة فى لندن باللغة العربية « الاتحاد العربى » تحت اشراف صابونجى فصولها محررة بقلم محمد عبده ومطبوعا فى صفحاتها صور عرابى وعبد العـال وعلى فهمى وفيها كانت تنشر المشاكل والصعوبات التى تلقـاها مصر من حاكمها ومن السياسه الأوروبيـة ، وقد ذكرت فى عددها الأول أن من يريـد الاشـتراك فيهـا فليطلبها من ادارة الوقائع المصرية (٢) ٠

واستمر محمد عبده مخلصا للثورة ومبادئها مداوما على الاجتماعات مؤثرا فيها لدرجة أنه كان يلقن الخطب لكل من على الروبى ويعقوب سامى ، وكانت كلمته هى النافذة وارادته هى المسيطرة ولا تنسى له الثورة موقفه عندما جمع القادة ليتم حول المصحف الشريف أول قسـم على حب الوطن والتضحية والتعاون والاتحاد من أجل انقاذ مصر والدفاع عنها ، وأثنـاء انعقاد المجلس الوطنى بالداخليـة كانت مكانتـه بارزة وصـوته مسموعا ليعلن أن عـرابى هو الذى يعمل لاصـلاح مصر أما الخديـو فيجب عزله ، وتولى بنفسه تحرير المحاضر الخاصة بذلك (٣) .

كان يكره من أعماق قلبـه جميع أفراد الأسرة الحاكمـة ويعتقد فى قرارة نفسه أنهـا قد أسـاءت الى مصر اساءة بالغـة ولايستثنى من ذلك محمد على نفسه وينكر عليه كل شىء ، ويرى أن من الخير لمصر أن تتخلص من هذه الأسرة فى أقرب وقت ، من هنا كان اللقـاء تاما مع العسكريين ، وقد جند تلاميذه أمثال سعد زغلول والشيخ محمد خليل والشـيخ عامر اسماعيل وهم من محررى الوقائع وفتح الله زغلول التلميذ بمدرسـة الادارة وأبو يوسف الدمياطى للعمل فى خدمة الثورة ، فكانوا المراسلة بينه وبين قادة الثـورة وخاصـة عرابى ، وكانوا يسعون بالمحاضر لعزل توفيق وفى تحرير المقالات ضده ، وداروا بتلك المحاضر عـلى المصـالح ، وكان محمد عبده اذا خرج فى وقت ما من بيت عرابى ليعمل عملا فى غيره

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٤ ، الوقائع المصرية ، عـدد ١٤٥٥ فى ١١ يوليو ، عدد ١٤٥٧ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ ، محمد عبده : نفس المصدر ، ص ٠١٧ ٠

(٢) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين ، تقرير ١١ ص ٤٦ ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، نفس المصدر ٠

ينوب عنه أولئك الأشخاص أو بعضهم في تختيم من يجدونه ويذكر أحد شهود العيان عنهم عقب الثورة « تدنست ألسنتهم فى محافل كثيرة بالوقيعة فى حق الذات العلية ، وكان احدهم سعد أفندى زغلول من زمرة العصاة الذين ذهبوا الى منزل سعادة سلطان باشا واشترك معهم فى المناداة بخلع الحضرة الخديوية»(١)، وبذلك يمكن القول انه أسفى مدرسته المبادىء التى آمن بها فاعتنقوها وراحوا يعملون بها .

كان محمد عبده ثوريا فلم يكن ليكفيه عزل توفيق الذى سعى اليه بل أراد التخلص منه اذ أنه « لما ورد الخبر من الاسكندرية بانتقال الركاب العالى من سراى الرمل الى سراى رأس التين كاد يتمزق من الغيظ وأخذ يرميهم بالضعف والجبن وسفه الراى لعدم نجاحهم فيما أغراهم من أمر الفتك » ، وفى حديث له مع سعيد البستانى مترجم أفرنجى بقلم المطبوعات قال له : « لابد أن تعلم أن سلطان باشا هو الذى يستحق القتل ، فانه هو الذى ثبت قدم الخديو وهو الذى أحدث فيه الجرأة على مقاومة العسكرية، فوالله لو سمع الحزب العسكرى نصيحتى لفتك بالخديو وكان الأمر مقضيا » (٢) .

ويتضح أن محمد عبده لم يعد ذلك المصلح المعتدل الذى يطالب التدرج فى الوصول للغايات المنشودة والذى كان يصف العسكريين بالتهور أصبح الآن يلومهم عندما فشلت مسألة اغتيال توفيق وأراد أن ينجح فيما فشل فيه القادة ، أراد أن يبتر الخيانة التى تمثلت فى سلطان عندما اكتشف تحريره لبعض العمد والمشايخ خطابات لمنعهم من تقديم المساعدات للثورة .

هذا ويجب أن نضع فى الاعتبار فكر الامام فى مسألة جعل مصر جمهورية وقد اتحد فى ذلك مع باقى مثقفى الثورة وتم السعى لتحقيق هذا الهدف ، لكن الظروف تكاتفت ووقفت أمام النجاح .

وواصل نشاطه الدائم حتى النهاية ، فهو متنقل ما بين تحرير الوقائع والاجتماعات وسفره الى كفر الدوار واللقاء مع القادة على الأقل مرتين أسبوعيا ليشارك فى الرأى ، وليؤيد ويشجع ويبارك جميع خطوات الثورة .

وعقب الانكسار أعلن محمد عبده بالقاهرة « اننا وان كنا انهزمنا فلابد أن نصنع بمصر كما صنعنا بالاسكندرية ولن يدخلها توفيق باشا

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٩ ، تقريرات وشهادات ، ص ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ، دوسيه ٨٩ .

الا رمادا ، وان خط الرجعة محفوظة للجهادية الى آخر أقاليم السودان »(١) انه لم يرض بالتسليم أراد الاستمرار فى الكفاح من أجل انتصار الثورة .

الصحافة الثورية وعبد الله النديم :

مع قيام الثورة تبلور الرأى العام وسيطر الوعى على قوى الامة . ومما لا شك فيه أن الصحافة واصلت دورها فى العمل على المزيد من الاعداد التام للثورة ، وذلك بمواصلة الحملة على نقد المجتمع سواء تحكم الأجانب أو السياسة المالية أو تلك العيوب الاجتماعية التى انتشرت ، ثم التأييد الكامل للثورة والقائمين عليها وعرض النظريات السياسية التى تموج بالحرية والديمقراطية .

أصبح للصحافة الكيان المرموق ومضى الشغف يسرى على القراء لذا فقد كان لدور أصحابها أهمية كبرى ، اذ تمكنوا من التطرق الى الموضوعات التى كانت تدخل قلوب المصريين وتشبع روحهم . ولم تكف الصحافة عن المطالبة بالاصلاح وراحت تنشر علاج النكبات والمصائب التى حلت بالوطن وأهله ، وكانت الصحيفة التى حملت لواء الاصلاح الاجتماعى ونقدت المجتمع وفجرت الاحساس الثورى هى التنكيت والتبكيت التى نزل بها النديم لميدان الصحافة ، ولم يكن هذا أول عمله فى الصحافة اذ أنه كتب فى الصحف المعارضة قبيل الثورة ، ولكنه أراد أن يستقل بنفسه بتأسيس صحيفة خاصه به بعد أن تأكد أنها خير وسيلة للعمل الثورى ، فيقول « واجتمعت برياض باشا فى مصر وقد اضمر لى الأمر فنافقته ونافقنى وجاذبته الحديث فوافقنى حتى أخذت منه اذنا بجريدة التنكيت وما أردت الا التبكيت ، وقصدت أن تكون لسانى اذا تركت الجمعيات ليكون لى فى كل بلد محافل خطابية » (٢) .

لقد اراد النديم أن ينفذ الى داخل المصريين ويخاطبهم بما يهوى ، اذ أرادها صحافة للجميع ، وكان من أوائل من أدركوا فى مصر أن لغة الصحافة البحتة ينبغى أن تكون غير لغة الأدب البحتة ، وصدرت الصحيفة فقالت عنها الكوكب المصرى « التنكيت والتبكيت وما أدراك ما هما علم فى جرنال جديد نسيج على منوال النصيحة بعبارات مألوفة واشارات معروفه صدر عن صفاء عقل ونقاء قلب وجودة تفكير وخلوص نية ومحبة وطن ومحمود سيرة وممدوح سريرة ، فأرانا كيف يداوى الداء بالدواء ، وكيف يتفجر من الحجارة الماء ، فشكرا لك يا نديم الملوك ويا مربى النفوس ومهذب

---

(١) نفس المصدر .

(٢) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ٥٥ .

الأخلاق على قريحتك التي هي أصفى من ماء السماء وأحلى من الوفاء » (١).

ويطبع النديم من العــدد الأول ثلاثة آلاف نسخة فلا يرتد منهــا الا خمس نســخ فقط ، وبعد ذلك كانت الأعداد تنفذ ســاعة صدورها وينخطفها الناس في المدن والقرى وخاصة رجل الشارع الذى وجد من يهتم به ويحل له مشكلاته ، ويقول النديم انه « لم يبق بمكتب الادارة ولا نسخة من العــدد الأول والثاني وكثر علينا طلبهما ، فنعد حضرات النبهــاء ومشتركى الصــحيفة بأننا سنطبع العــددين ونوزعهما لكــل من لم يصله » (٢) ، فكانت دائرة معارف مصغرة وجهها للناطق بالضاد وعرفها «هى صحيفة ادبية تهذيبية تتلو عليك حكما ومواعظ وفوائد ومضحكات بعبارة سهلة لا يحتقرها العالم ولايحتاج معها الجاهل الى تفسير، ويخبرك ظاهــرها المستهجن بأن باطنها له معــان مألوفة ، لا تلجئك الى قاموس الفيروزبادى ، ولا تنزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهي مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ونديم يسامرك بما تحب وتهوى » (٣) .

وبناء على ذلك انتشرت فى طول البلد وعرضها ، وصار قراوها من جميع الأوساط ينلهمون عليها ويتلقفونها بشغف شديد ويقبلون على قراتها اقبالا شديدا ، ويجلس الأميون ليقرأها لهم من يعرف القراءة ، وقد أدرك النديم ميل المصريين الى الأسلوب القصصى وتفضيله على كل الأساليب لذا وجه عنايته به ، وكثرت مقالاته التى لها فى العمق معنى ، فهو يخاطب كل مصرى ويحثه على مراقبة الحكومة ويهاجم النفــوذ الأجنبى الذى طغى على الوطن « لا تتركون الغرباء يتولون خدمته ولا تمكنون الأجانب من الوصول اليه » ، وينقد طبقة الافندية العائدة من أوربا والتى تخلت عن المبادىء الفلاحين الأصيلة وحتى عن لغتهم ، وبين أهمية الصحافة « انها ألسنة الأمم وترجمان الملوك وسير التجارة وأعمال العقلاء وصنائع العلمــاء وخطب النبهاء وتاريخ الأذكياء وما قامت به هذه الأمة من عمار وطنها وحمايتها له وحفظها من امتداد أيدى الغير اليه وما أهملت فيه تلك الأمة حتى خاتلهــا الغريب وتداخل فى شئونها وحجز على أهلها عوائدهم ومذاهبهم » ، وكان تركيزه قويا على مسألة الصحافة لدرجة انه طالب بتعليم القراءة «ليتسنى لكل فرد صحيفة يقرأها » .

---

(١) الكوكب المصرى ، عدد ١١٠ فى ١٧ يوليو ١٨٨١ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ٣ فى ٢٦ يوليو ١٨٨١ ، ص ٤٥ .

(٣) نفس المصدر ، عدد ١ فى ٦ يوليو ١٨٨١ .

كذلك تناول مسألة النهضة التعليمية التى رأى أن تبدأ بفتح مكاتب ابتدائيةفى المدن والقرى على نفقة أهلها، ويلزم كل والد بارسال ولده الى المكتب يقيم فيه نصف النهار والنصف الثانى يعمل بصنعة أبيه ، وضرورة تعميم التعليم (١) ٠

وعمل النديم على الرقى بالتفكير المصرى وحث المصريين وتفتيح أعينهم على تلك المفاسد والازمات التى تعيشها مصر وذلك بالقاء بدور الثورة على على الأوضاع وتوبيخهم على السكوت على ما هـــم فيه ، فيروى عن ازدحام لوداع شيخة من الاولياء « لم ار فى تلك الأيام ما يماثل هذا الازدحام العظيم ، فقلت فى نفس أسددت ديون الافرنج وهذا يوم فرح أهل بلادنا ، أم خلصت الأموال المرهونة وهؤلاء متوجهون لاستلامها ، أم استردت الأطيان والأملاك لأهلها بالتبايع الشرعى بعد ذهابها بالدعاوى الباطلة والقضـــايا الملفقة وهـؤلاء أصحابها متوجهون لتهنئة مليكهم برد منبع ثروتهم ، أم الجيوش عائدة من الانتصار على عدو أراد اذلالها والناس مزدحمة لمقابلة أبنائها وتهنئتهم » ٠

ويسعى النديم لتقويم المجتمع من ذلك الانهيار الذى حاق به والذى صاحب الشباب وأضر بالبلاد « أسواق التجارة فى كساد وأسواق الفسوق فى ازدحام عظيم وصرف جسيم حتى كأن المولد أقيم لغنيمة قهاوى الأروام، وما اكتسبه شبابنا طول العام ، يدخل القهوة بوقد الشموع ويطلب الخمور ويشرب الحشيش (٢) » ٠

وشن حملاته الهجومية على الأجانب الذين كونوا الثروات بامتصاص دم الشعب وأفاض عن ادوارهمفى الربا وعدد حوادثهم فى عين المصريين وأثار الحمية الوطنية وطالب المصريين بعدم السكوت على ذل الأجانب وشطب كلمة «معلهش يا خواجا» وشجعهم على استرداد حقهم والقضاء على مفاسدهم من فتح الخمارات وبيوت الفاجرات وأبان أنه يجب أن يستبدل الشبان مجالس السكر بمجالس المطالعات والآداب وحانات الفجور بأندية المطارحة والمسامرة بالسياسات لترتب لهم ملكة يجولون بها فى فنون السياسة ، فان البـــلاد محتاجة لحدة الأفكار وتنور الأذهان وبعد غورها فى السياسة ليحفظوها من أيدى الطامعين فيها ويملأوها عدلا واحسانا واصـــلاحا عندما يندبون للشورى ٠

---

(١) نفس المصدر ، عدد ٢ فى ١٩ يونيو ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ ٠

(٢) نفس المصدر ، عدد ١٠ فى ١٥ اغسطس ١٨٨١ ، عدد ١٥ فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ ٠

وتراه يبث فى الشعب الجرأة من أجل المشاركة السياسية وينزع منه الخوف الذى سيطر على الناس مع رياض فيقول « وجود شبان أو شيوخ فى مكان يتحدثون بأمر سياسى وعيونهم ترمق المارين وقلوبهم ترجف خوفا من الجاسوس المسمى البصاص ، وربما تكلمت مع أحدهم فى أمر فيبدأ بقوله مالنا ومال الكلام ده ظنا منه انك بصاص ، وهذا الذى أمات الأفكار وأورث الذل والرعب وصيرنا لعبة فى أيدى الأجانب » (١) .

ويهاجم النديم الأتراك والشراكسة الذين ابتليت بهم مصر التى تتكلم وتقول «قوم وفدوا على أبنائى شعثا غبرا مدرجين فى أطمار بالية فمكنتهم يد الاقدار من خدمة امرائى فنحوا باللآلىء ولبسوا مطارف الخز وركبوا جياد الخيل ، وأصبحوا بين أهلى فى كبرياء وعظمة ورغد عيش ونعمة كأنهم من العائلات الحاكمة ، ففلوا الكثير من الأبواب وأعدموا الألوف من الأرواح ، ومتى تنبهت أفكارهم نزل عليهم بسوط العذاب وحبسهم فى بئر الاستبداد وأوقفهم تحت سحب مظلمة يمطرهم حجارة من نهب وسلب وقتل وتشريد » وندور الدفة على الأوربيين « فما رأيت من قصر لطيف فذاك للمسيو ، وما نظرت من جفالك وأباعد فهذا للمستر ، وما بلغك من بنك ومتجر فهذا للخواجا وما سمعت من رفعة وانعام فهذا للسنيور ، وقد صار الاسكاف عندنا مهندسا والمزين طبيبا وخادم الخيل رئيسا وذليل بلاده عزيزا وطريدها محبوبا ، وأهلى يجاهدون فى خدمتى فتدركهم جهالة أمرائى بالهزيمة، ويرفعون رءوسهم جهة العلو فتظلم عليهم سحب الغفلة وتحجب عنهم شمس الحرية المنيرة » ليأتى قصر النيل ويبدأ الحال فى التغيير « وبات أبنائى يتشاورون ويتراءون وقد تفتحت العيون وتنبهت الأذهان وتحركت الدماء واشتعلت الأفكار وابتدأ بأخذ العهود والمواثيق على أنفسهم بحماية البلاد ووقاية أهلها ، وكان هذا سببا فى ربط القلوب وعقد المحبة وتوحيد الكلمة واتفاق المشرب » ويأتى التاسع من سبتمبر « انتصروا بالحق وفازوا بابعاد العدو وفتح باب الشورى » (٢) .

ويحمل مجلس النواب المسئولية للوقوف أمام الأجانب واستغلالهم ، وبعد أن يعدد ما استحوذوا عليه من وظائف رئيسية يذكر دورهم فى انشاء البنوك والاستحواذ على الأراضى « ولا شك فى أن مجلس نوابنا لا يسلم بشىء من هذا ولا يبيح لأحد حق التملك بعد الذى فقدناه » وراح ينادى بالاصلاح لانقاذ البلاد مما طرأ عليها بعد أن أدرك بثاقب فكره بموهبته

---

(١) نفس المصدر ، عدد ١٦ فى ١٢ اكتوبر ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، عدد ١٧ فى ٩ اكتوبر ١٨٨١ .

كيف طغى سيل الغرب على الشرق وكيف أوشكت الحضارة الأوروبية أن تجرف الحضارة الشرقية (١) ٠

وبجوار تناوله نقد المجتمع واصـــلاحه مضى يعرض فكره ، فتكلم عن سيادة انفانون « مات زمن تحرير التداكر السرية لابعاد زيد ونفى عمـــرو وجاء زمن القوانين والأحكام الحقة » ، ويعرف الحربة « الحر من ملك أمره ولم تتقيد افكاره بغـــرض ما ، وان كان لا مدلول له فانه محجور عليـــه لا يلتفظ به الا فى سرداب ولا يكتب الا فى أوراق ، ولا يكون اللفظ حـرا الا اذا جاز تناوله فى كل مكان وتلى على أعواد المنابر » ، وينفرد النديم بأنه أول مفكر مصرى يكشف فى ذلك الوقت الجانب الاجتماعى لمفهوم الحـرية لكى يعطيها بعدا اشتراكيا « لو نظرنا الى انسان الوجود الحالى فى سائر البقـاع المسكونه لرايناه بعيدا عن الحرية سـواء فى هذا تابع الحـكومه الجمهورية أو الشورية أو الاستبدادية ، فان الوجود مضبوط بممالك مقيدة بقوانين وضعت بأغراض ذاتية وأفكار مقصورة على فرد أو بعض أفراد ، وان قيل أن الممالك تعرض القانون على مجالسها قبل تقريره قلنا ان الممالك مقصورة على أرباب الثروة أو أهل الكلام وليست الأمة كذلك(٢) » ، فالنديم يطالب باشتراك الشعب اشتراكا فعليا فى حكم بلده وألا يكون ذلك قاصرا على الأغنياء ، وحدهم ، وقد نبع ذلك من حبه للفقراء والمناداة بمصالحهم ٠

وعرف النديم الوطنية بأنها غذاء ينتفع به جميع الجسم بحيث لا يترك عرقا من عروقه الا وقد أجرى فيه ماء الوطنية التى هى حفظ البلاد ولغتها وعاداتها الجميلة وتوسيع العمران بالصنائع والمعارف والأمن والثروة وموته فى ترابها كما نشأ فيها ٠

ويبين وجوب مصرية الحاكم وأهمية ذلك للوطن « أما حقه عليك من جهة الحاكم فهو حفظ سطوته وتخليد ملكه والدفاع عما يشين مجـــده أو يضعف قوته ، والموت فى احياء كلمة الوطنية باسمه فانك تعلم أن الحاكم اذا كان من أهل البلاد عاملهم بمقتضى عوائدهم وطباعهم وأخلاقهم وحفظ لهم ناموس الشريعة للتمسك بها معهم وخاف عليهم خوفه على ولده وأهله فانه يعلم أنه بهيئاتهم الاجتماعية ملك عظيم وبدونهم فرد من الأفـــراد ، ولو كان الحاكم من غير جنسك لعز عليك الوصول اليه ، وان وصلت لغته وان عرفتها كنت حقيرا فى عينه ذليلا بين يديه ، واعلم ان الحاكم الروح والوطنيون الجسد » ٠

---

(١) نفس المصدر عدد ١٨ فى ١٦ اكتـــوبر ١٨٨١ ، د٠ عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٣ ، ص ٥ ٠

(٢) نفس المصدر ، عدد ٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ ٠

والعروبة عند النديم فكرة تتردد كثيرا فى كتاباته ، وهى لا تتناقض ولا تتعارض مع مصريته ، فكما كان يفخر ويشيد بالتاريخ المصرى القديم نراه نفس الشىء مع التاريخ العربى فيبين فضـــل العرب على الحضــارة الأوروبية ، وهو يدمج المصرية مع العربية كثيرا على أســـاس اعتبار اللغة أساس الرابطة الوطنيه (١) .

وعمق فى النفوس الفكر الاشتراكى بتلك الحملات التى شـــنها على الأثرياء ، وما وصل اليه حال الفقراء وصوره تصويرا دقيقا فهو منهم ، وكانت للتجارب القاسية التى عاشها بنفسه مادة خصبة لصحافته فنقب على كل شىء وكشف عن الكثير من الصعوبات التى يعيشها الفقراء « نرضى بالخبز والملح ولا تقنعون بالألوف من الجنيهات ونقنع بالقرش الواحد ، أخلقتم من الذهب وخلقنا من التراب ، أم ولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيدا لكم ، أم نزلتم من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع فى بلادنا والفقراء هم الأمة » .

وكان يقدم هذه الأفكار ويقربها للعامة عن طريق الزجل حتى يكون لها التأثير الفعال .

أهـــل البنوكـــا والأطيان صـــاروا على الأعيـــان أعيـــان

وابـــن البـــلد ماشى عـــريان ممعـــاه ولا حـــق الدخـــان

شرم برم حالى غلبان (٢)

اذن فاتجاه النديم اتجاه ثورى جارف ، فهـــو يؤمن بالشعب وقواه وطبقته الكادحة وقدراتها وتضحياتها من أجل الأثرياء ، وهنا كان الاختلاف بين النديم ومحمد عبده الذى كان خدم الطبقة الوســـطى أكثر من الطبقة الشعبية تلك التى التصق بها النديم وهذا مما جعله « صحفى الشعب كله لا يستغنى عن قراءته رجل ولا امرأة بل ان النساء رجونه أن يحرر لهن مجلة خاصة بهن من دون الرجال وقلن له انك وحدك القادر على ذلك » (٣) .

وأمتع ما قدمه لنا النديم من فكره كان عن الشورى فى مقالته التى كتبها ابان الأزمة الدستورية التى قامت بين الوزراء ومجلس النواب بشأن

---

(١) نفس المصدر ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ ، عدد ١ فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، عدد ١٧ فى ١٩ اكتوبر ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، عدد ٦ فى ١٧ يوليو ١٨٨١ ، عدد ٩ فى ٧ اغسطس ١٨٨١ .

(٣) د. عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ .

الميزانية ، شرح فيها معنى الشورى بمفهومه المبسط « انها غرس الأفكار فى أرض التبادل وسقيها بماء الحرية ، وخدمتها بيد الاعتدال لتنبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران ، فان كان الانتخاب قاصرا على الأغنياء دون الفقراء كان المحفل وبالا » وتابع كلامه عن المجلس « يجب أن يشكل المحفل من نبهاء وأذكياء وأمراء وأغنياء وعلماء وصناع وأعيان » ويطالب بحرية الانتخاب « وتترك ما كانت عليه من الميل للأغنياء والخوف من العمد والرهبة من الأمراء وتنتخب من تريد من أهل المعرفة والدهاء (١) » .

وتولى النديم نشر الدعوة للثورة وكان اللقاء تاما بينه وبين القادة ، فوقع عليه دور تنوير الشعب للقضاء على المظالم والمفاسد القائمة « فكان أول كاتب مصرى يعالج مشكلة القومية المصرية بذلك الأسلوب الشعبى ، وهو أول من سهل على الشعب استيعاب المفاهيم القومية التى كان ادراكها قاصرا على المثقفين والأرستقراطيين » (٢) وقد وجدت الثورة فى نفسه حبا عميقا لأن مطالبها هى مطالب الشعب ، كما وجدت هى فيه مصربا بمعنى الكلمة من الأصالة والوطنية والجرأة والخبرة ، حتى انه قبل سقوط رياض نجده يكتب لمجلس الوزراء لنفيه خارج مصر لكن عندما عرض القرار على توفيق تصدى له على فهمى وقال له « ان نديما منا معشر العسكريين وان لم يحمل سلاح العسكريين ولئن أخذتموه بغتة من البلاد حافظنا عليه بالأرواح والأجناد (٣) » وألغى القرار .

وكان النديم من المعتنقين للنظام الجمهورى ، وأراده لمصر ودعى اليه وله نشاطه فى ذلك مع رجال الثورة ، بل وكان عليه أن يصب فى الأذهان أسسه وخاصة بين الشباب .

وأصبح النديم رسميا الجهـــاز الاعلامى للثورة منذ بدايتها وقويت الحركة الوطنية بانضمامه اليها وأحس عرابى بدور النديم ومن هنا طلب من مأمور ادارة المطبوعات تغيير اسم التنكيت والتبكيت « لدخولنا فى عصر جديد وفوات أزمات التنكيت » ، ووافق النديم « بحمد الله تعالى خلصنا من زمن التنكيت والتبكيت وأصبحنا فى زمن الحرية ومعرفة الحقوق (٤) » .

وصدر العـــدد الأول من الطائف فى ٣٠ نوفمبر ١٨٨١ وبلغت من

---

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٧ فى ٩ اكتوبر ١٨٨١ .

(٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السـياسى فى مصر الحديثة ، ص ٣٣ .

(٣) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ٥٦ .

(٤) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٩ فى ٢٣ اكتوبر ١٨٨١ .

الشهرة ما لم تبلغه صحيفة قبلها ، وأصبحت أكبر الصحف وأخطرها حتى ان سلطان رئيس مجلس النواب طلب أن تنشر وقائع جلسات المجلس فيها وأفكار النواب ، ويعاون المجلس الصحيفة ماديا ، فيشترك فيها أعضاؤه بمبالغ كبيرة من المال بعد أن أصبحت لسان حالهم ·

واصل النديم في الطائف سياسته النقدية لكنها هنا كانت سافرة وموجهة راسا الى المعنيين فيهاجم اسماعيل ثم توفيق ووضع الأجانب واستيلائهم على ثروة البلاد ، ويعرض بؤس العامة سواء من الفلاحين أو سكان المدن الفقراء ، ويشرح حال الموظفين وتحكم الأجانب من أتراك وشراكسة وأوروبيين فيهم ، فأثر على كل قوى الشعب ليشركهم في الثورة ، وشرح النظام البرلماني وكذلك تناول فيها الاصلاح الاجتماعي وشن الحملات على التراخيص بادارة المواخير والحانات والمراقص والمغاني تحت اسم الامتيازات ، وشجع الصناعة واستمر في الهجوم على الأغنياء ونادى باصلاح حال الموظفين ، وأعلن الحرب على الرق ودعا الرقيق المحررين أن يكونوا جمعية ، وسجل كل أحداث مصر فيها وعرض سياسة الدول وخاصة في مؤتمر الآستانة ، كما عالج أزمة الثقة بين الصحفيين المصريين والسوريين ونادى بوحدة الصف العربي ونفي التعصب الديني الذى أدان به الأوروبيين مصر وخرجت جميع مقالاتها باللغة العربية الفصحى وبهذا يكون النديم قد أضاف الى الطائف مأثرة من مآثره دل على فهمه لطبيعة الموضوعات التى تتطلب الكتابة بالفصحى وطبيعة الظروف التي توجب الكتابة بها (١) ·

واحتلت الطائف المكانة الأولى بين الصحف ولم يقتصر انتشارها داخل مصر فقط بل وفي خارجها ، فيذكر لنا يعقوب بن صنوع أنها تصل فرنسا فهو يرسل للنديم « أحلف بحب الوطن يا عم ان كلما أتى جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك ومقالاتك الادبية نورت مصرنا ونبذاتك السياسة حددت عصرنا وحياة دقنك ياعزيزى من عشقي في فصولك الفريدة باترجمها بالفرنساوى والانجليزى (٢) » ، كذلك عثر عليها مع الطلاب المصريين النوريين العائدين من فرنسا من أجل الانضمام للثورة ·

وشهدت لها الصحافة الأجنبية ، فتقول الستاندرد « الوطنيون ـ المصريون ـ عن طريقها اهتموا باستطلاع خفايا السياسة الأوروبية حتى علموا خباياها ، فالطائف وهى جريدة ذات أهمية عظمى صاحبها نديم من أرباب النفوذ عند عرابى ، قد أخذ في ترجمة أهم المقالات المدرجة في

---

(١) الطائف عدد ٢١ ، ٢٩ يونيو ١٨٨٢ Blunt : op. cit., p. 164. د· عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ١٦٢ ·

(٢) د· ابراهيم عبده : أبو نظاره ، ص ١٤٣ ·

الجرائد الفرنساوية والانكليزية حال وصولها الى مصر، وبهذه الكيفية صارت الأخبـار معروفة فى جميع أنحاء المدينة بلا استثناء (١) » ، وبذلك نجد النديم فيما يصبو اليه .

وعند قيام الحرب انتقل النديم مع صحيفته الى ميدان القتال ، ليسجل الأحداث وليحمس الشعب ، ويرفع من المعنويات ويزيد التأجج فى النفوس، وأصبحت الطائف فى متناول الجميع منتشرة على أرض مصر كلها فى القرى والكفور والشوارع والبيوت والقهاوى والدكاكين تتلى فيها تلك الانتصارات التى سجلها النـديم ، وكذلك فى جميع المعسكرات ، فنرى طلبه عصمت يستعجل ببرقية ارسال نسخ من الطائف « حيث ان النسخ لم تعد تكفى بعد أن تم توزيعها على قبائل العـربان الموجودين بالطـرق ونقطة أبو قير ومريوط » (٢) .

كان يصف المعارك بصورة تجعل النفوس مليئة بالحماس والقوة ، وكأنه يوم الملحمة « هجوم ليوث الوغى على أرانب الانسانية وصيحاتهـم تتعالى يا ثأر اسكندرية ، يا مجد عرابى ، يا شرف الوطن » ويتابع « نقاتل لنحيا حيـاة طيبة لا ذل فيها أو نموت عن شهادة فنحيا حيـاة أخروية نرزق فيها عند الله » ، ويستشهد بالآيات القرآنية والحديث الشريف .

وراح النديم يبالغ فى وصف المعارك الحربية ويشيد بالعتاد الحربى وبتلك الهزائم التى أوقعها المصريون بالانجليز ، أراد بذلك أن يقـوى من نفسيات المحاربين فى الوقت الذى أراد أن يزود عن الشعب كـل شـعور بالقلق أو الخوف .

وهاجم النديم توفيق بكل جرأة وشجاعة « بعد أن يئس كل مصرى من عـودته لحظيرة الوطنية ، بعد أن اعتز بالانجليز وخلع طاعة السلطان وباع الأمة لأعدائها (٣) » ، فقـد كان يكرهه كل الكراهيـة ومضى يعلن أنه غير صالح للحكم .

وعندما سئل أحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات عقب الثورة عن موافقته على طبع الذم فى الذات الخديوية أجاب : « ان كل ما حرره الطائف وخلافه من الجرائد كان نتيجة هيجان الأفكار ضد الحضرة الخديوية ، وهذه الأفكار كانت حاصلة عند جميع الأهالى حتى الأطفـال فى الطرق وليست خاصة

---

(١) الطائف ، عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ » دوسيه ١٧٦/ب .

(٣) الطائف . نفس العدد .

بجريدة » (١) ، اذن لم تكن الطائف خالقة الثورة لكنها ذكت فى روحها واعطتها الدفعة القوية .

وشن حملاته على أعوان الخديوى وعلى صحافة المعسكر المضاد ، فاخرج ملحقا خاصا عن «سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا» هجم فيه عليهم ووصفهم بأنهم مأجورون ، وحارب ضد الانجليز بقلمه ولسانه فجعلها حربا صليبية ، واتجه للعالم الاسلامى والعربى لينيرهم على السياسة الانجليزية ، وعبأ شعور الكراهية بعد أن نشر أفعالهم ســواء التى ارتكبوها من قتل وهتك عرض وسرقة ، أو هجومهم على المنازل والمساجد وانتهاك حرمتها (٢) .

وقد كان لكتابات النديم الأثر العملى فى ذلك التطوع الجــارف وفى تلك الأموال التى زحفت على الخزينة الحربية ، فراح يمجد القائمين بها على صفحات صحيفته ، وهذا مما زاد من الحماس والتشجيع ويقال ان ما اتبعته الصحافة المصرية أثناء الحرب وخاصة صحيفة النديم « تماثل فى طرائقها أحدث ما يتبع فى الحروب الحديثة (٣) » وبذلك يمكن القول ان النديم قدم نفسه للصحافة وعمل بكل جهده من أجل انجاح مهمته التى تمكنه فى النهاية من أن يفوز بما خطط له .

مواصلة الصحافة للطريق الثورى :

جاءت صحيفة المفيد لتمثل نفسها على مسرح الصحافة عقب التاسع من سبتمبر ولتلقب بجــريدة الثورة الثانية ــ بعد الطائف ــ لصاحبها مصطفى ثاقب ومحــررها حسن الشمسى وهو من خيرة مثقفى الثورة عمل بالتدريس ثم بالنظارة لمدرسة ليلية ، وأدى رسالته على أكمل وجه فى مجال التعليم ، ومن هنا وضع ثقله فى هذه الصحيفة لتخرج صــفحاتها وتصبح بين الايادى .

خرج العدد الأول فى ٥ أكتوبر ١٨٨١ ، وتعددت موضوعاتها وتناولتها أقلام كثيرة من مثقفى الفترة فكتب فيها الهلباوى ، وكذلك سعد زغلول ، اذ كان من بين اتهامات أحمد رفعت « ان ما ذكر بجريدة المفيد كان باملاء الى سعد أفندى زغلول المعاون بالداخلية اذ ذاك والذى كان له الباع الطويل لتهييج الأفكار والفتن (٤) » ، وكانت المهام الملقاه على المفيد عديدة ، فعليها

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .
(٢) الطائف ، اعداد ، ٣ ، ٤ ، ٧ اغسطس ١٨٨٢ .
(٣) د. ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، ص ١٣ .
(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

أن تجرح الأسرة الحاكمة وأن تهاجم الاجانب وأن تقرب الأفكار السياسية للأذهان ، وبذلك نزلت الى جميع الميادين لتقف بجوار الثورة وتحارب أعداء مصر .

كان اسماعيل الموضوع الخصب الذى راحت تطرقه ، فأعطته المزيد من الحقد والكراهية وفضحت جميع أعماله « هو منبع الفساد ومحط الضلال ، نهب الفلاح ، وابتلع المال وأعطاه للأجانب » ، كذلك اشتدت فى الهجوم على توفيق الذى وصفته « الجبان المستخزى (١) » . وفي محضر تحقيق صاحبها كان من بين اتهاماته « انه يستعمل الهيجان وتشويش أذهان التلامذة بالمقالات التى تغرس فى قلوبهم البغضاء والنفور من الذات الخديوية (٢) » ، وقد اضطرب توفيق أمام تلك الحملات القاسية التى وجهت ضده لدرجة أنه يكتب الى مندوبه بالآستانة بعد أن جرح ذلك التجريح على يد الصحافة « ان جميع الجرائد المطبوعة هنا فى أيدى النظار وعرابى وهم يأمرونهم بالكتابة بما يشتهون ، وعليكم أن تفهموا صاحب الجوائب ألا ينشر شيئا نقلا عن الجرائد المصرية حتى الوقائع المصرية (٣) » .

ومارست المفيد هجوما على الاجانب ، وسلكت طريق اثارة العداوة والبغضاء فى قلوب المصريين ، متطالب بوقف التدخل الاجنبى « فكفانا ما قد قاسيناه من لعب اليد الاجنبية بنا ، دراهمنا التى نؤسس بها المعامل التى تغنينا عن الأجنبى ونتحرر منه ، فقد أوسعنا له المجال وضيقنا على أنفسنا » وتتابع بقولها « متى يستقيم لنا الراحة وقد علا فوق رءوسنا عود التسلط الأورباوى وهو أعوج فكأننا فريسة وقعت بين أسدين هصورين ، يريد هذا أن ينهشنا بنياب طمعه ، ويرعب ذلك أن يمد الينا مخالب شره ، فبأى وجه قانونى تتداخل الدولتان ؟ أبوجه كون وطننا بابا لطريق هند الأولى وجزائر الثانية ، أم بسبب أن لها دينا جلبته علينا السياسة الاسماعيلية ، أما الدين فانا لا نتأخر فى سداده لأوقاته طبقا للمعاهدات سواء بقيت اليد الانجليزية والفرنسية فى الادارة أو نزعت منها » ، وتراها تخص انجلترا فى حملاتها ففى مقالة لها « الانجليز » تبين « أنهم أتوا حفاة عراة فأصبحوا أقرن من قارون وقد ساعدهم الوقت بوجود اسماعيل باشا » وآخر تحت عنوان « حارة الانجليز » وصفتهم « بعدم مراقبة الانسانية وعدم الذمة وعدم مراعاة التمدن وان ما ينطبق عليهم هو التوحش والظلم » وراحت تجسم الخطر

---

(١) المفيد ، عدد ٢٧ ابريل ١٨٨٢ ، ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ دوسيه ١١٤ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٠ .

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، ١٨ مايو ١٨٨٢ .

الذى يهدد المصريين من سيطرتهم وتتخذ من الخطوات السياسية التى اتبعت ضد مصر للقضاء على الثورة فرصة للمزيد من الهجوم (١) ٠

وبذلك كانت تلك المقالات لسان حال الثورة اذ أنها عبرت عن كثير من معانيها وعن ما يحسه الثوار ضد الاجانب وخاصة الانجليز ، وكتب ماليت الى وزير خارجيته يستصرخ من الصحافة الوطنية كالحجاز والبرهان وعلى رأسها المفيد ويبين هجومها على الحكومات الأوروبية المسيحية وخاصة انجلترا وفرنسا ، وتلك المعارضه التى تشنها على التيمز فى أن الرقابه الأوروبية كانت خيرا وبركة وانقاذا لمصر ووصفها بأنها متمسكة بالاسلام والقرآن ودائما تظهر أمجاد العرب وأن صوتها يعلو بأن المسلمين أصبحت بلادهم فى خطر بعد أن ملكوا الأعداء بيوتهم وأرضهم (٢) ٠

واهتمت المفيد ببيان أهمية الشورى « ان مبانى العمار لا تشاد الا على قواعد الشورى مع أرباب الحكومة ، فبنواب الأمة يستنير الوطن بطابع سعده » ، وردت على من يصف المصريين بالتعصب « ان الأديان جاءت مبنيه للعقائد والمعاملات ، فليس فيها ما يدعو المرء الى اظهار موجبات الكراهية لمن خالفه فى العقيدة ، بل أظهرت لنا أننا لا نرفع سلاح الكراهية الا فى وجه من حاربنا منهم ، ونهتنا عن توجيه الايذاء لمن كان بيننا وبينه مودة »٠

واتبعت المفيد أسلوب النديم فكتبت على لسان الوطن « شاهدت قوما يسكنون القصور ويلبسون الديباج والخز ويجنون ثمار قسم متسع من أرضى المباركة ، فهم على جانب عظيم من الثروة والرفاهية ، واستدللت من رطانتهم وقبعاتهم أنهم قوم أجنبيون عن أبنائى ، ثم قوما غيرهم يسكنون الخيام والأكواخ أو المنازل الضيقة التى لا يرتضيها أولئك مبيتا لخيول عرباتهم ، وقسما ثالثا يشابه الأولين فى الصورة الظاهرية ولكنه يعد أسوأ حالا من ساكنى الأكواخ والخيم ، هم الذين يقلدون الأجانب ويشربون الخمر ويتعاملون بالربا ويلبسون البضائع الأجنبية وهم الذين مكنوا الأجانب من التسلط علينا (٣) » ٠

وبذلك نرى أن المفيد كانت من خيرة الصحف ، فلها أسلوبها الممتاز الذى استخدمته فى كتاباتها عن الحرية والاستقلال وشغلت الأفكار بالقومية المصرية التى تغلغلت فى النفوس ، وقد أعلن حسن الشمسى أنه سينتهى دور

---

(١) المفيد ، عدد ٣ فى ٩ اكتوبر ١٨٨١ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، مفدى ٦٥ ، ٦٦ ٠

(٢) Egypt, No. 5 (1882), No. 2, October 31, 1881.

(٣) المفيد ، عدد ١٠ فى ٥ اكتوبر ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٢٤ اكتوبر ١٨٨١ ، عدد ٧ فى ٤ نوفمبر ١٨٨١ ٠

صحيفته « حينما بأى يوم يقال فيه تنبه الغافل وتعلم الجاهل وغلت يـد العادى وردت الحقوق لذويها والأرض لبنيها » .

ولم يكن حسن الشمسى يحرر المفيد فقط بل صرحت له قيادة الثورة باصدار صحيفتى السفير والنجاح وأعفى من تأمين المطبوعات ، وذلك من أجل توسيع الركيزة التى اعتمدت عليها الثورة فى التوجيه المعنوى والتعبئة الروحية لقوى مصر الاجتماعية .

واتسع نشر الأفكار الثورية ، وتكذيب ما يصرح به توفيق والهجوم عليه ففى العدد الرابع من السفير يذكر « أن توفيق باشا الآن فى قفص انجليزى وقد انفصـل عن حزب الأمة وانضم الى عدوها ولذلك صـار مبغوضا عند جميع الأهـالى والعساكر بما فيهم المستحفظين والبوليس ، ولم يبق عند أحد منهم أدنى احترام له » .

ومن أجل اثارة الشعب عليه نشرت فى عددها الأول انه « أصـدر أمرا باطلاق الرصاص على خطيب دعا فى المسجد للمسلمين فى صلاة الجمعة بالنصر وانه أمر بسجن الشيخ عفيفى بسبب دعائه للمسلمين » ، كما كانت هناك المقالات التى تحرض على الحرب وتشجيع التطوع والتبرع (١).

وتمضى صحيفة الفسطاط على نفس اتجاه سابقيها ، فتثير الخواطر ضـد توفيق وتعطى المكانة لعرابى ، وتنادى بضرورة الحـرب والدفاع « أما من يلوم الحزب الوطنى على الاستعجال بالحرب فانا نقول له لو كنا أحرارا فى بلادنا لما حاربنا ولما حوربنا ولكننا كنا تحت نظر المراقبين وتحت نظر القناصل وتحت نظر المحاكم المختلطة وتحت نظر مكاتبى الجرائد الأوروباوية ، وكنـا لا نقـدر على صرف قنطار ولا دينـار فى صيانة الوطن (٢) » .

وكان لأحمد رفعت رئيس قلم المطبوعات دور فى تلك المسيرة ، وهو على أعلى مستوى من العـلم والثقافة ، تناولها فى باريس وكان على صلة بحزب تركيا الفتاة ، وبالرغم من أنه ابن لباشا تركى الا أنه على درجة من التفتح وله من المبادىء ما جعل قادة الثورة يسلمونه زمام الاعلام فقد كان قلبا وقالبا مع المصريين وحتى بعد الانكسار يعلن صراحة بأن الحركة الوطنية حية ولم تمت ، وقد ساهم بنصيب وافر فى انجاح رسالة الصحافة أثناء الثـورة وعمل كاتب سر مجلس النظار ـ وزارة البارودى ـ ومن

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٨ .
(٢) الفسطاط ، عدد ١٢ فى ١٣ يوليو ١٨٨٢ .

اتهاماته « كاتب وكاتم أسرارها مراسلا وآمرا ومكاتبا جميع الجرائد بنشر الخطب والقصائد والأراجيف والمقالات والطرهات التى أوجبت تهيج الأوباش وتجاريهم على ارتكاب أمور شنيعة ومنكرات فظيعة (١) » ·

وتعد مبادئه من الدعامات الفكرية التى ارتكزت عليها الثورة ، فايمانه راسخ بالحياة النيابية وعقب تكوين مجلس النواب صرح بأنه تقوية وتحقيق لآمال مصر كلها ومزيدا ودعما للوطنية المصرية ، وكان يثبت دائما أن الثورة ليست قاصرة على أفراد أو هيئة بل هى ثورة شعب من أجل حريته فيكتب لاحدى الصحف « ان المدافع عن حقوق الأمة لم يكن أحمد عرابى بل معشر المصريين أعنى خمسة ملايين وهم تحت السلاح (٢) ، ونراه ينتقى من الصحافة الأوروبية ما يتفق والمصلحة الثورية « فيؤشر عليها بالقلم الرصاص الأحمر ويعطيها لحسن الشمسى لكى ينقلها فى الجرائد المصرية» ، فحدث أن أمر مترجميه بترجمة ثلاث تحريرات « أحدهما يتعلق بأفكار أهل السياسة فى انجلترا وخصوصا أفكار الحزب الحر فيها ، والثانى بأفكار بسمارك ، والثالث من هذا القبيل (٣) » ، من هنا كانت أفكاره تتفق والمفاهيم السياسية الحرة الحديثة ·

وفى التقرير الذى قدمه لمحامى الثوار برودلى مايعطى المزيد من نوعية تلك العقلية حتى بعد أن وضع فى قفص الاتهام وشمل ما كانت تسعى اليه الثورة ففيه يبين أنه سيأتى اليوم الذى يحلم به والذى تنتصر فيه مصر على انجلترا وتهزمها ، وأظهر عظمة الشرق وأن الغرب مخطىء حينما فكر أن الشرق فى حاجة الى تعليم ، لأن المبادىء الفكرية الحرة موجودة فى مصر ؛ فالحرية والراديكالية والايمان بأن الجميع سواسية أمام العدالة مسيطرة على الفكر المصرى ، كما بين وسرد جميع الظروف التى أدت بالمصريين الى الثورة وانها كانت ضرورية وحتمية (٤) ·

كانت صحافة يعقوب بن صنوع التى يحررها فى باريس وتصل مصر بمختلف الطرق نشاطها الواسع فى ازدياد الشعور انفعالا والثورة ازديادا ،فقد تحقق ما تمناه لمصر وهو خارجها ، فراح يغذيها ويزكيها ، وعقب قصر النيل هاجم حكومة رياض دافعا الشعب لضرورة الثورة على

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ ·

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٩ ــ نشرت ذلك الصحيفة الفرنسية Le Temps.

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١١٤ ، تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين ، تقرير ١٧ ، ص ٨٦ ·

(٤) Broadly : op. cit., pp. 203, 204, 206.

حكمه « ما هذه الأفعال وعلام هذا الاستبداد والتحكم فى عباد الله بالظلم والعدوان ، أكان أبناء مصر عبيد أبيك الوزان واستودعهم في يدك »ويحذره « فانته عن هذه الأفعال قبل أن ينتهى بك الندم » ، وينادى الشعب « قوموا مثل ما قاموا الضباط عليه واطلبوا أولا رفت محاسيبه المجرمين وتعيين نظار معتبرين من بين أعضاء ميدان الحرية وبعدها ابعثوا قواس يجرجروه الى ديوان الحقانية وفى وقتها اطلبوا منه جميع الحسابات وخلصوا تار الفلاحين والأهالى والذوات » ، ويمضى فى التحميس « اتركوا التأنى والاهمال وفرجونى همة الرجال وارفعوا رق العبودية من على أعناق اخوانكم واعملوا لكم مجلس نواب من أبناء الوطن المثقفين بالفضائل الجليلة واجعلوا لكم وزارة عادلة منصفة حليمة تكون على كيفكم وعوضا عن دوامكم فى القهاوى والبيراريات اتجمعوا فى محافل أدبية وطالعوا فيها تواريخ جدودكم العرب » (*) .

وبذلك يتضح أن يعقوب بن صنوع كان على دراية بالخطوات الكاملة للاعداد الثورى ، ونراه ينهج نهج النديم فى مسألة القومية من ناحية وخلق وعى للشباب من ناحية أخرى ، ويمضى ليبين حقوق الامة « للأمة حرية البحث بملاحظة ميزانية ايرادات ومصروفات فروع الحكومة ، ولها أن تصلح من شأن الرسوم الميرية وجهات الادارة والشحونات بالمرتبات الخارجة عن حد التناسب الجارى صرفها الى أجانب جاهلين عوايد البلاد وشئونها ، ومن حق الأهالى تغيير الجمارك وما يماثلها ، ومن حق الأهالى التأمل الى مادة مجالس الحقانية المختلطة ، ومن حق الأهالى مراقبة أعمال الزراعة ، ثم حقوق جمهور الأمة الذى ينوب عنه نواب ذوى النباهة والتعقل فى الرأى غير مأسورين فينتخبهم الجمهور من كافة درجات الأهالى » ، وكانت هذه هى مطالب الثورة .

وعقب التاسع من سبتمبر وسقوط رياض يملؤه الفرح بذلك الانتصار « أقدم الليث العرابى نائب الجيش ومن خلفه أسود الوغى وأشبال القتال ، يريدون قهر دولة الاستبداد ورد صولة الفساد واحياء الوطن بالحرية وهيئة شورية فراغ لهم المستبد الأكبر (توفيق) المفسد الأول روغان الثعلب وانخفض لديهم انخفاض رأس الأرنب » ، وينادى باسقاط توفيق بل ويضع نظام الحكم الذى يمكن لمصر أن تسير وفقه «تبين لى أن افكار جمهور من الوطنيين خلع الأمة للحاكم اعنى الخديوى وقومه وجعل مصر حكومة جمهورية تجرى بمقتضى قانون الجمهوريات الحرة ، وتنترع عموم الأجانب من دوائر حكومتها وتستمر فى اصلاح

(*) الحاوى عدد ١ فى ٥ فبراير ١٨٨١ ، عدد ٤ فى ٢٥ مارس ١٨٨١
ابو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ٢ فى ١٣ مايو ١٨٨١ .

شئونها ، اننا نرى المصريين اليوم يجمعهم قول واحد وهو خلع الخديوى الحالى (١) » ٠

ومن هنا نرى أنه لم يعول على حليم مسألة الحكم بل يريدها جمهورية وكان ذلك مبدأ الثورة فهى كما يرى الصالحة لحكم الناس ، وقد كتبت عنه صحيفة « لوجلوا » انه المعبر عن رأى الحـــزب الوطنى وانه أول من قال عبارة «مصر للمصريين» التى أخذت طريقها للأمام،كما شملت أفكاره المبادىء الاشتراكية اذ كان صديقا للنائب الاشتراكى « كلومش سليج » منذ عام ١٨٨٠ (٢) ٠

ولم يكن راضيا عن شريف منذ البــداية الذى كان يسميه « الديك الرومى » فنراه يهاجم قانون المطبوعات الذى أصــدره ، ويرسم شريف مكمم أفواه الكتاب وموثق أياديهم أمام ممثلى الأجانب الذين هـم سـعداء بذلك ويعلق « اكسروا أقلامنا وسدوا أفمامنا برضنا ننتصر على أخصامنا ونكسر أنف أظلم حكامنا والرب كريم يسعد أيامنا » (٣) ٠

وقد أقلق هذا النشاط المفعم توفيق ومعسكره حتى لقد شكاه الى نظامى باشا المبعوث العثمانى الأول واتهمه بأنه يعمل لتأصل القومية فى مصر « ان هذه لا يروج لها أحد ســوى أنصار ســعادة حليم باشا فى الصحيفة المعهودة التى تصدر بباريس فتدخل مصر خلسة وتوزع مجانا على أفراد وضباط الجيش » فأجابه نظـامى « ان ضرر مثل هذه الجرائد التى تتمتع بقسط كبير من الحرية بالحكومة المصرية لا يخفى على أحد ، فكان الواجب عليها اذن عدم اطلاق الحرية لهاته الجــرائد والصحف من دخول مصر (٤) » ٠

وبالرغم من المحاولات المضادة للوقوف أمام تلك الصـــحافة الا أنها كانت فى متناول الجميع يتلقونهـا بشغف وينتظرون وصـولها بفـارغ الصبر ليلتقوا بهذا الثائر لتزداد ثورتهم ، وقد سجل نينيه عنه وكان قوله الحق « انه الدهشة الشعبية المحققة ، وأشهد أنه جعــل الناس يهتمون بالسياسة ويتعلمونها منه ، فأصبح معبودهم ، فهو الرســول الحقيقى

---

(١) ابو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ٤ فى ١٠ يوليو ١٨٨١ ، عدد ١٧ فبراير ١٨٨٢ ، عدد ٣ فبراير ١٨٨٢ ٠

(٢) د٠ ابراهيم عبده : أبو نظارة ، ص ص ٦٨ ، ٦٩ ٠

(٣) ابو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١١ فى ١٨ نوفمبر ١٨٨١ ، عدد ١٣ فى ١٨ ديسمبر ١٨٨١ ٠

(٤) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة أثناء الثورة العرابية ، ترجمة الدفتر رقم ٢٨٨ ، ص ١٠ ٠

لعهده ، وهو العنصر الفعال فى الحركة الوطنية ، وكانت صحيفته تصلنا من باريس الى مركز القيادة الحربية هنا (١) » ، وبذلك يتضح دور هذا المثقف الذى توغل فى أعماق المصريين وأعطاهم المزيد من الدفعات الثورية حتى على أرض المعركة •

كان للصحافة الأوروبية الأثر الكبير فى المساعدة على اليقظة العامة ، والتحفز فكثيرا ماكانت تتناول كتاباتها الحط من قدرة المصريين ومحاولاتها المتكررة لتحطيم كيانهم ، وقد أعطى ذلك المزيد من الحماسة فأتى بنتيجة عكسية على غير ما ترجوه ، كما تناولت الصحافة المصرية الرد الفورى فى تلك المقالات التى هاجمت فيها الأوروبيين ومؤسساتهم ، فترد الوطن على التيمز بقولها « ان قول جريدة التيمس بأن المصريين منغمسون فى الجهل انما هو تعصب ذميم ، والدليل على تقدمهم أنها ذكرت وجود عشر جرائد عربية واستكثرتها على خمسة ملايين نفس ، ولو كانت الأهالى كما قالت لما كثرت الجرائد اذ وجودها وكثرتها يدلان على تقدم الأهالى » (٢) ، وقد تشبع المصريون بأفكار واتجاهات صحافتهم وتحركت فيهم الرغبة فى الوصول الى أعلى الدرجات •

كذلك فقد كان من بين ما تناولته الصحافة الأوروبية تلك الأفكار التحررية التى وجد فيها المثقفون الفرصة للمزيد من التطلع ، فنقلوا عنها وترجموا ما يوافق هواهم وما يعمل على توسيع المدارك والمفاهيم • كما كانت اتجاهاتها المصحوبة بالتيار الاستعمارى مادة خصبة لتنقيح الأذهان على نوايا الدول أصحاب المطامع ، ففى انجلترا كان عليها أن تهيىء الرأى العام وتطالب باحتلال مصر خاصة بعد أن أعلنت الحماية الفرنسية على تونس ، فنتج عن ذلك الاثارة الكاملة للمصريين ، واشتد النفور عندما علموا « استباحة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء (٣) » ، ومن هنا ارتفعت الروح الاسلامية وتجسدت فى كره الأوروبيين عامة وانجلترا خاصة خوفا من تحقيق ما تكتبه صحافتها بشأن نية الاستيلاء على مصر وتلك الاجراءات التى تتخذها منذ استيلائها على قبرص ، وكان ذلك موقفا تنبه له المصريون وخاصة المثقفين ، ووجد العناية الكبيرة من الصحافة التى تناولته مرارا وتكرارا ، كما مضت فى الهجوم على الدولتين وليس انجلترا فقط وخاصة ماتم فى مؤتمر برلين من ازدياد لمكاسبها (٤) ، وكان للشباب

---

(١) Ninet : op. cit., p. 225.

(٢) الوطن ، عدد ١٩ نوفمبر ١٨٨١ •

(٣) Blunt : op. cit., p. 164.

(٤) الاسكندرية ، عدد ١٥٩ فى ٤ فبراير ١٨٨٢ •

المثقف نشاط مجد فى « جلب كثير من الجرائد وتدقيق النظر فيما فيها من الأفكار المتعلقة بمصر ويظهرون للعامة الواقع» (١) وبذلك أصبحت هناك وحدة بين مثقفى مصر وخاصة صحفيوها للوقوف على أرض المعركة ورفع السلاح والهجوم على السياسة الأوروبية ، حتى ان الصحافة أصبحت فى ذلك الوقت دستورا لشعب مصر .

الصحافة الشامية :

تعرضت الصحافة الشامية لاضطهاد رياض ، ونالت يده من زعيمها أديب اسحق الذى نفاه خارج مصر ، ومن باريس خرجت صيحاته وشن هجومه على هذا العدو ، ويقول النديم « انعطف أديب الى شريف ومـــال وجعل وجهته نسفيه رياض بالنقد والاعتراض (٢) » ، حقيقـة فقد قدم شريف المساعدات له وأعانه على اتباع تلك السياسة ، فأسس صحيفة مصر القاهرة التى عبرت عن أفكار الحزب الوطنى .

وبانتصار الثورة وتقلد شريف وزارتها أرســـل لاستدعاء أديب اسحق من باريس ، وجاء ليعينه رئيس مكتب الترجمة ، وكان ميالا لقادة الثـــورة العسكريين فى البداية ودائما ما كان يصـــف عرابى بالاخلاص والأمانه ، وبناء على مواقفه وميوله عين سكرتيرا لمجلس النواب بناء على طلب سلطان باشا وموافقةالجميع ، هذا فى الوقتالذىواصل فيه على اصدار صحيفة مصر .

كانت لكتاباته دورها الفعال القوى الشعب ، تناولت الديمقراطية والتنديد بالاوتوقراطية ودعت بضرورة مشاركة الأمة لحكم نفسها وأن يكون لها الصوت المسموع والرأى المتبع ، ووصف حالة المصريين ودعاهم لليقظة « ان لله خلقا يشتغلون بياض نهارهم معرضين أبدا لحر الشمس وأذى المطر والرياح وسائر تغيرات الفصول يفلحون الأرض ويودعونها قسما من قوتهم وجزءا من حياتهم مع البذور التى تثمر للناس ، هؤلاء القوم هـــم رجال من الشعب ، ولله خلقا يشكون السلاح لحماية الوطن ويهبون له نضر شبابهم وزهرة قوتهم ويبذلون فى سبيله دمهم غير آسفين عليه ويتهالكون على الموت ليحيى اخوانهم فرحين ، وآخرين يذللون المصاعب ويحيون الليالى الطوال فى سبيل نشر المعرف وتعميم الصناعات ، وآخرين يقومون على عمـــل الأخشاب للبناء وينسجون الصوف والكتان والقز ، واعلموا أنه لا سعادة فى الأرض ولا نمو ولا حياة الا بالشعب ، فالحياة ممتنعة بلا عمل ، والعمل

---

(١) المفيد ، عدد ٥١ فى ٢٧ ابريل ١٨٨٢ .

(٢) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ٥٤ .

شأن الشعب في كل حال » (١) ، وواضح أنه بعد عن الأثرياء من كبار ملاك الأراضي وأصحاب الممتلكات ولم يدرجهم في الشعب العامل الذى له الحق في الحيـــاة ، وبذلك تبلورت أفكـــاره لتأثره بالفكر الفرنسي خاصـــة والأوروبي عامة ٠

لـــم تقتصر مقالاته على الناحيه السياسية بل تطـــرق الى الميـــدان الاقتصادي والاجتماعي ، فنجده يعرض مسألة الادخار وذلك عن طريق انشاء صندوق له وأن يتم خصم جزء معين من المرتب ويكون هناك قومسيون يوزع كوبونات على المشتركين وتبعا للأرباح تكون درجة الاستفادة (٢) ، وكان ذلك هو النظام التعاوني بعينه ٠

لم يكملْ أديب اسحق طريقه حتى النهاية مع الثورة وبالرغم من ذلك فلا يمكن أن نغفل دوره في اذكاء الروح الوطنية ، لقد اختلف معها ، فهو من أتباع شريف والمتحيزين له ، فسقوطه على أيدى الثورة كان له رد الفعل على مؤيديه ، وكان ذلك هو المظهر الشكلي للأمر ، لكن اذا تعمقنا لننقب عن الأسباب الداخلية ، نجد أن الثورة مضت في تطبيق شـعارها المقدس « مصر للمصريين » وكما يذكر كرومر أنه استبعد أمام ذلك « الأوروبيون بذكائهم وغناهم وســـلطانهم والخـــديو والســـوريين والأرمن والأتراك المستوطنين الأرستقراطيين كبار ملاك الأراضي والذين تحكموا في مصر فترة طويلة (٣) » ، فمن هذه العناصر خافت الثورة على نفسها ٠

وحملت الصحافة المصرية لواء ذلك اذ كانت لها نظرة معينة تجاه كل من هو غير مصرى ، فهي تشك في نواياه ولا تطمئن له ، وأدارت الدفة على السوريين ، حتى ابن النديم نفسه كان يعتبرهم دخلاء مرابين ، وتطلب المفيد من الحكومة فصل الشاميين من مصر لأنهم غير خليقين أن ينتسبوا اليها ، وتمضي في الذم والقدح على الصحفيين السوريين وصحافتهم « أتانا أصحابها وجيوبهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية التى أدعوها ترويجا لمقاصدهم » ، ولم يقف هجومها لدرجة أن الطائف أرادت معالجة الموقف فخففت من تلك الحدة في مقال لها تحت عنوان « المصريون والشاميون (٤) » ، لكن ذلك لم يقلل من حقد الصحفيين السوريين ، وبالرغم من أنه في بداية الأمر كانوا في مقدمة العناصر الحرة يلتهبون حماسة لاستقلال مصر وحياتها الدستورية

---

(١) مصر ، عدد ٩ في ٦ فبراير ١٨٨٢ ، عدد ١٠ في ١٤ فبراير ١٨٨٢ ٠

(٢) نفس المصدر ٠

(٣) Cromer : op. cit., Vol. I, p. 324.

(٤) المفيد ، عدد ١٣ ابريل ١٨٨٢ عدد ٢٢ يونيو ١٨٨٢ ، الطائف ، عدد ٢١ يونيو ١٨٨٢ ٠

الا أن هـذه الأفلام الملتهبـة خبت ثم انزوت ثم وقفت الى جانب الخـديو علانية (١) ، فانسحب أديب اسحق من الميدان الثوّرى ليعود مرة أخرى ليعمل ضد الثوار ، فيساهم بمقالاته ومنشوراته فى صحيفة المعسكر المضاد « الاعتدال » ليرد ذلك الهجوم الذى شنته الثورة على غير المصريين .

اما عن الأهرام ، فقد تعرض القائمون عليها للنقـد اللاذع بالرغم من أنهـا كانت دائما تنصر عرابى فهى تنشر خطبـه وتلخصها ، وتؤيد وزارة شريف وتعرض خطب النديم (٢) ، لكن الثورة لم تكن لترتاح لها فكثيرا ما وجهت اليها الانذارات ، وقد كان لتلك العلاقة التى ربطت آل تقلا بتوفيق وتأييده لصحيفتهما أثر فى تلك الكراهية التى ربطت بين رجال الثورة وبينهما ، وينتهى الأمر بأن يهاجر تقلا لسوريا .

وسعدت مصر بالذين تركوها من غير ابنائها واعتقدت ان الخلاص قد حان ، فتقول الفسطاط « اما الآن فقد بقيت مصر للمصريين وسافر منهـا كل خائن (٣) » ، ويذكر أحـد المترجمين الشوام فى شهادة له يستدل منها على ما بلغته العلاقات من سـوء بين المصريين والشـوام اذ يقول : « اننى فى اثر سقوط وزارة محمود باشا رايت على محمـد عبده لوايح الغم والكدر وقال لى ان الشاميين فرحوا بسقوط محمـود باشا حتى أنت أيضا فانك قد فرحت بسقوطه ، فقلت له ان الشـاميين لا يؤاخذون على سرورهم بسقوطه فانهم لم يشتموا ويلعنوا فى الجـرائد المصرية الا على عهد وزارته (٤) » ، الى هذا الحـد كانت النفسيات لكلا الطرفين حاقدة .

حكومة الثورة والصحافة :

مع بداية الثورة اراد شريف تنظيم تلك المؤسـسة الاعلامية وترتيب شئونها واعلان حقوقها وبيان واجباتها ، فبعد أن تقلد الحكم أراد أن يحد من النشاطات وأن يهدىء من الأجواء الثورية ويقلل من سـطوة الصحافة وخصوصا أنه كان يخشى العسكريين الذين سارت الصحافة فى ركابهم فأصـدر قانون المطبـوعات ليلقى أمامهم بعض القيـود فى الممارسة الصحفية فلا يسوغ لأحد أن يكون صاحب مطبعة الا بعد أن تعطى اليه رخصة من نظارة الداخلية ، وبعد أن يودع عشرة آلاف قرش

---

(١) د. عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٥ .
(٢) الأهرام أعداد ٢٨ ابريل ، ١٩ سبتمبر ، ٣ اكتوبر ١٨٨١ .
(٣) الفسطاط ، نفس العدد .
(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٩ .

بصفة تامين ، وللحكومة أن تنزع منه الرخصة عند الاقتضاء ، وأن تقفل المطابع السرية وتصبط أدواتها وتجازى مالكها ، وأن لا يجوز لأحد من ارباب المطابع ان يطبع صحفا قبل أن يقدم لادارة المطبوعات كتابة معلنة ، وانه يسوغ محافظة على النظام العمومى أو الدين أو الآداب تعطيل أو قفل اى جرنال ، ومنع دخول وتداول وبيع الجرائد والرسائل المنشورة فى خارج القطر المصرى ، ومنع أى منشورات ملصوقة على الحوائط أو المجلات تحوى أخبارا سياسية (١) .

ولم يلتفت الصحفيون الى هذا القانون واستمروا فى حملاتهم ضد الأجانب ، فطالبوا بابعادهم عن مصر ، وتزعمت صحيفة الحجاز ذلك التيار ودعت الى الجهاد والدفاع عن حقوق المسلمين ضد الأوروبيين ، وتمادت فى ذلك، فاشتكى ماليت الى شريف الذى أحضر مدير الصحيفة ونبه عليه بعدم الطعن فى الدول الاوروبية فى الوقت الذى أرسل فيه الانذارات الرسمية لكافة الصحف ، لكن « صاحب الحجاز لم يرجع عن السير الذى صار تحذيره منه وكتب فى نمرته الأخيرة كلاما غير لائق فى حق الدول » ، فما كان من شريف الا ان لغاها الغاءا مؤبدا وذلك بموجب قانون المطبوعات (٢) .

وبالرغم من تصرفات شريف المتشددة الا انه لم يستطع ان يقف أمام تيار ثورة الصحافة ، فشحنت الطائف بالمقالات التى تهاجم ليس الأجانب ودولهم وتصرفاتهم فقط بل أيضا حكومة شريف التى وجهت لها الطعنات فى مقالة «مصر يجب أن تكون لها السلطة المطلقة» فتتابعت انذارات شريف لها ولكن دون جدوى (٣) .

وذهب شريف وجاء البارودى لتشرع وزارته فى تحسين قانون المطبوعات بما يجعله أولى الى حرية الكلمة وابعد من قيود العقاب ، وجندت الصحافة من أجل الثورة ، ولم يجد المعارضون لهم مكانا . فانسحب أديب اسحق وغيره ، وأعلنت صحيفة البرهان وهى «صحيفة السراى » ، انها عزلت الشيخ حمزة فتح الله من تحريرها لموقفه العدائى من الثورة ، وذلك لتتفادى أن تنولها حكومة الثورة بشىء ، والتى مضت تغلق الصحف المعارضة ، وفى أثناء الحرب أصبح لا يطبع شىء فى الصحف الا بعد اقرار ديوان الجهادية عليه ، ثم ضرورة موافقة

(١) محفوظات مجلس الوزراء « محفظة ٥/ز • دوسيه ١٦ • محضر ٢٧ اكتوبر ١٨٨١ .

(٢) نفس المصدر ، دوسيه ٢٠ • محضر ٧ نوفمبر ١٨٨١ .

(٣) Egypt, No. 5 (1882), op cit.,
Polit, Arch, Fasz XXXI/24, No. 13/Pol., 8 Janvier, 1882, pp. 4,5.

المجلس العرفى على جميع المطبـوعات (١) وذلك للوقوف أمام مجهودات الحاقدين الرافضين الذين راحوا يستعملون كل الأسـلحة من أجـل اجهاض الثورة .

واخيرا فقد نجحت صحافة الثورة فى كل المهام التى ألقت عليها وادت واجبها على أكمل وجه ، فخاطبت جميع الطبقـات فى الأمة دون تفريق بين طبقة واخرى ، بل لقد كانت عنايتها بالطبقة الدنيا أكبر من عنايتها بالطبقة العليا لأنها تريد أن تغريها على قراءتها وتحببها فيهـا ، فبلغت من التبسيط اقصى الغايات حتى تجذب الشعب اليها وتستحوذ على القلوب وتؤدى رسالتها فى تنوير وتثوير الرأى العام بتلك الدراسات والتحليلات الكاملة لجميع المجالات سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية حتى أمكنها أن تسجل لنفسها فى هذه الفترة صورة مشرفة فى تاريخ الصحافة المصرية .

ممارسة العمل الثورى من خلال الجمعيات والخطابة :

لم تقم الجمعيات بقيام الثورة اذ أنها سبقتها ومهدت لقيامهـا ، وبناء على ذلك أصبح عليها مواصلة الكفاح لتحقيق الأهداف التى قامت من أجلهـا ، فمن على منابرها خرجت صيحات الثـورة وكأنها المقـام المقدس الذى جذب اليه الناس للانخراط فى سلكه .

اسست الجمعيـات وجاء فى قوانينهـا أنهـا لا تمس النـواحى السياسية ولا تخاض من بين موضـــوعاتها ، لكن رويدا رويدا فرضت السياسة نفسها على الجمعيـات وامتـلأت بالمثقفين وخطبهم التى تكلمت عن مصر والاستبداد والتدخل الأجنبى ، ودائما فى نهاية اللقاءات كانت الصيحات تعلو « يعيش الخديو » ، وذلك لاعطاء الطلاء الخارجى البراق وابعاد الشـبهات ، نفس الشىء بالنسـبة لرئاستها ، فقد أسندت الى اعضاء الأسرة المالكة وكبار الشخصيات لـكن لم يكن هـذا الا ظاهريا ففيها تكون وتبلور الرأى العام ضد تلك الأسرة وضد أصحاب النفوذ .

وكالعادة كانت الاسكندرية الرائدة فى هـذا المجـال ، ففيهـا أسست الجمعية الاسلامية بفضل مجهـود النديم فيقـول « لم أجـد طريقا لتنبيه الوجهاء والأمراء الا بعصبة أكونها من الفقراء ، فأخـذت فى تأسيس الجمعية الاسلامية بوطنى العزيز اسكندرية » (٢) ، وكانت جمعية المقاصد الخيرية بالقاهرة عبارة عن هيئة شعبية يتولاها مفـكر

---

(١) مصر ، عدد ١١ فى ٨ مارس ١٨٨٢ ، البرهان عدد ٢٦ مايو ١٨٨١ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٨ .

(٢) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ٤٩ .

مصر محمد عبده ، وانتشرت الجمعيات على أرض مصر كلها ، فى دمنهور وميت غمر والمنصورة حتى قنا ، ودائما بتبع الجمعيات انشاء المدارس ليتعلم الفقراء بأموال الأغنياء ، وتلك المدارس غدت مسارح للخطباء « تم افتتاح المدرسة الخيرية ببندر دمنهور يوم الخميس غرة يونيو ١٨٨١ وكان المحفل ساحة خطابة (١) » ، ودائما النديم على رأس الخطباء يحث على التعليم والاتحاد وينقد المجتمع ويهاجم العادات السيئة ويتعرض للتغلغل الأجنبى .

وشجعت الصحافة تلك المجهودات وحثت على المزيد من انشاء الجمعيات مثلما هو الحال فى أوروبا ، وعرضت ما تقوم به من مساعدات لخدمة المجتمع ، وبينت ان الاغراض ليست قاصرة على المدارس بل مهمتها وضع اقتصاد الدولة فى اعتبارها والاهتمام بالصناعة (٢) ، ومن هنا أصبح مفهوم الجمعيات لم يعد يقتصر على أهداف محددة بل توسعت دائرته لتضم وتشمل كل ما يخص مصر ، كما توسعت تلك الاجتماعات التى كانت تضم أعضاء الجمعيات وروادها ، لتكون تنظيمات مضت فى طريق العمل الثورى، وتعددت الحفلات التى أقيمت بمناسبات وبدون مناسبات من أجل اللقاء والكلمة المسموعة التى تنفذ الى القلب وتغذى الروح لينطلق الفكر للمساهمة فى الثورة .

ويذكر شاهد عيان « وانقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غير غيره الا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنيين بعد اقصائهم عنها حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغنى الشهير كان اذا سئل فى أى فرح تغنى أجاب فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم (٣) » .

كان للنديم قدرة فائقة على الخطابة ، فبجوار قلمه كانت روحه ولسانه عاملان اعطيا الثورة الكثير ، فميله للخطابة واستعداده لها لم يتيسر لأحد غيره فى مصر ، فهو يظهر فى كل مجتمع ويقف فى كل حفل ويعلو صوته فى كل ناد « ويرتجل الكلام ارتجالا ويتدفق فيه تدفقا تسعفه فيه بديهة لم نسمع بمثلها فى تاريخ الأدب المصرى الحديث » ، ويرى البعض انه اعظم خطيب مصرى لا فى الثورة العرابية وحدها بل

(١) التنكيت والتبكيت ، عدد ٤ فى ٣ يوليو ١٨٨١ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٧ فى ١٣ مايو ١٨٨٢ .

(٣) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

فى القرن التاسع عشر ، ويكفى انه قد أجمع كتاب الجرائد العربية والأجنبية على تلقيبه بخطيب الشرق (١) ٠

كان النديم الجهاز المتنقل للدعاية الثوريه ، وقد وجد فيه قادة الثورة تلك المؤهلات التى تمكنهم من بذر بذور الثورة ونشر مبادئها وأفكارها فهو يتمتع بلسان زلق فصيح ، جرأة فائقة فى مواجهة الجماهير ، امتلاك الموقف ، حجج قوية مقنعة ، ظل خفيف يشجع على التجاوب معه والانصات اليه مهما طالت الخطبة (٢) ، وتجاوب على الفور وبدأ فى ممارسة نشاطه اذ يقول « تم أخذت أتقلب فى البلاد ، وجاهرت بالتضاد ، ولبست ثوب الجلد ، وتابعت الخطب فى كل بلد ، وحركت الأفكار حركة لا سكون لها ، ونشرت مظالم الحكام وأعمالها ، وناديت بهدم دعامة الاستبداد ، وكسرت قيد الاستعباد (٣) » ، وكان ما يميزه خفة الحركة التى كان يتنقل بها عبر ارجاء مصر ولم يكن ذلك بجديد عليه ، فحياته قبل الثورة تنقلات واختلاطات بجميع فئات المجتمع من أعلاها الى أدناها ٠

راح يخطب فى الناس ويتص عليهم أمجاد أجدادهم « ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال اليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وضرب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاة الأمور ومن بيدهم زمام الأحكام الى تشكيل مجلس تكون اعضاؤه من اهل البلادالبحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعا » (٤) ، وبذلك كان للنديم الفضل الأول فى اعلاء عرابى للقمة وجعله نائبا عن الأمة وفى خلق مجلس نيابى بناء على ارادة المصريين ٠

ساعدت الظروف التى أحيطت بمصر النديم فى نجاح مسعاه ، تلك التى كان موتورا منها فصب كفاحه واتى لكل فئة بجرحها ، ونشر على أرض مصر فن الخطابة وعلم أهلها معانى الثورة ، فهو ثائر بطبيعته ، شعلة ملتهبة وجمرة متقدة يمثل فى حقيقته المثقف الثورى ، يحلم بالثورة ويدعو اليها فى كل كلمة يكتبها وفى كل قصيدة شعر ينظمها وفى كل

---

(١) د٠ عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢١ ، عبد الفتاح نديم : المرجع السابق ، ص ١٩ ٠

(٢) د٠ لوسة زكريا : عبد الله النديم بين الفصحى والعامية « الاسكندرية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٨٠ ٠

(٣) عبد الله النديم : نفس المصدر ، ص ٥٥ ٠

(٤) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ٠

نكته يطلقها وفى كل زجل ينشده وفى كل خطبة يلقيها ، ومن هنا اصبح أسطورة يتداولها الجميع .

كان ما ألقته الثورة من مهام على الخطباء هو الوصول الى اعماق النفوس وجذبها وتنوير الأذهان وتبسيط المعانى والمفاهيم السياسية للشعب والعمل على الاثارة على الأوضاع التى تخضع لها مصر وكيفية تغييرها ، وقد ابلى النديم فى ذلك أحسن البلاء حتى انه اذا خطب فى اجتماع عدة خطباء كان يقوم ليعلق وراء كل خطيب ويشرح ويزيد ، والناس منصتة باهتمام دون أن يشعر احدهم بشىء من السأم والملل فهم بحاجة الى تفهم تلك المعانى التى تطرح .

ومما يلاحظ على خطب النديم انها دائما مقرونة بالاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبويه وصور كفاح وبطولات من التاريخ الاسلامى ، وهذا يتفق مع طبيعة المصريين وخاصة فى ذلك الوقت الذى كانت فيه السياسة فى نظرهم مرتبطة تمام الارتباط بالدين . كما انه استوعب جيدا رسالة الخطابة فى التوعية السياسية والاجتماعية والدينية ورأى ضرورة توصيلها الى الشعب فيبين أهمية الخطابة « فما فرضت الخطبة الا لتجتمع الأمة فى ساعة واحدة فى سائر الأقطار وتقف على الحوادث والأخبار لتأخذ حذرها من أعدائها وتحفظ مظهر حياتها وناموس دينها وشرف مذهبها الحقيقى » ثم يبين فضلها واهميتها « لما كان نظام الاجتماع موقوفا على وحدة الائتلاف ووقوف الأمة على حقوقها وحدودها ولا يتمكن الفرد بنفسه فى فهم البعيد عليه او الخفى عليه الا بمرشد متضلع عالم متقلب فى حوادث الزمان ووقائع الرجال ، والأمة ليست جميعها من صنف العلماء ولا كلها من رجال الكلام ولا اغلبها من أهل السياسة ولا جلها من أرباب الأقلام لتشكيلها من عالم مختلف الأغراض متباين الطباع ، فرضت الخطابة ليقف الخطيب بين قومه وقفة الخليفة الآمر الناهى فيقص على الرعية ما فعله من الجميل وما قام به من الأعمال وما ورد عليه من الأخبار وما يحرزه من الطوارق وما يرجوه من الاصلاح لتكون الأمة على علم بأحوالها فى سائر بلادها ، أن الخطابة فى الأمة بمنزلة جرائد الأفكار ، فالأمية كثيرة فى بلادنا متغلبة على السواد الأعظم منا ولو كانت الأمة قارئة كلها لاستغنت عن تغيير هيئة الخطابة » (*) .

وكان تحليله صادقا حيث أن للخطابة الأثر الأقوى من الصحافة ،

(*) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر ١٨٨١ ، عدد ١٥ فى ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ .

وفى ذلك الوقت لم تكن هناك وسائل اخرى للاعلام ، كما أن الكلمة المسموعة تعطى الاحساس الفعلى بالموقف ، وقد تهافت الشعب على تلك الخطب لتعطشهم لسماعها ، هذا فى الوقت الذى كانت تنشر فى الصحف حتى اذا تغيب أحد أمكنه الاطلاع على ما فاته ٠

وتعددت الاجتماعات من اجل هذا الغرض « ان مصرنا فى هذه الأيام صارت عبارة عن أحزاب يسعون اناء الليل واطراف النهار ، فربما كان فى الحارة الواحدة محفلان او ثلاث محافل كل بما لديهم مشتغلون (١) » ، كما كانت هناك تلك الاحتفالات التى وصلت فيها الخطابة الى ذروة الحماس ، ففى وداع عرابى عقب التاسع من سبتمبر « غمر النديم أعماق شعور المجتمعين ، فكان نقيا فى حديثه سلسا فى أسلوبه ، عباراته كلها فاعلية اذ تكلم عن الوحدة التى تصنع القوة (٢) » ، وعندما صدق على قانون مجلس النواب غمرت الفرحة الجميع ؛ فأقامت جمعية المقاصد الخيرية احتفالا « اجتمع فيه النظار والأمراء والعلماء وضباط الجهادية واعيان مصر وشبابها حتى ضاقت قاعة الحفلة بالحضور ، فقام السيد عبد الله أفندى نديم وافتتح الخطابة واقتدى به كل من أديب اسحق اللبنانى وابراهيم أفندى اللقانى ومصطفى أفندى ماهر والشيخ محمد عبده والسيد حسن أفندى الشمسى وفتح الله أفندى صبرى ، واستمرت الخطب تعلو فى تلك الحفلة الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل (٣) » ٠

وتحدث النديم عن أهمية التربية والتعليم ، وتكلم مصطفى ماهر عن الاجتهاد فى تحصيل المعارف واستحث ذوى الغيرة من الأغنياء على انشاء بنك أهلى يستغنى به الفلاحون عن الاقتراض من المرابين بالفوائد الفاحشة ، أما محمد عبده فقد انصبت خطبه على السياسة فشرح مزايا الحكومة الدستورية بعد أن عرف أنواع الحكومات ، وبين المقيدة والمطلقة وأظهر فضل الأولى وضرر الثانية ، ونقد سياسة اسماعيل واظهر مميزات الشورى ورأى الأمة فى مصالحها ، وطالب بنشر العلم حتى يكون الجميع مستعدا للمشاركة وحتمية اطلاق حريات الأفكار والأقوال والأعمال وانه يجب أن يكون هناك قانون عدل يبيح حرية المجامع والمطابع ، وان الحكومة المثلى هى الحكومة القانونية التى تضبط الأعمال وتبين الحقوق والواجبات ثم اثنى على وزارة الثورة لاخلاصها ووطنيتها وعزيمتها .

---

(١) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١٥ فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨١ ٠

(٢) Archives de maison, de Cour et d'état, Inclosure 2 in No. 105, October 9, 1881.

(٣) أحمد عرابى : نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ٠

وجاء دور أديب اسحق ليبين ما يجب أن يكون عليه أعضاء مجلس النواب « أن يعلموا بكليات الأمور وما تحتاج اليه البلاد ، واذا كانت المصائب المشتركة هي التي أنالتنا هذه النعمة فلابد من تذكر آلام هذه المصائب حتى نحافظ على النعمة التي وصلنا اليها » .

وعقب ذلك خطب أحد المدرسين ليبين حسن التعلم والتعليم ثم احد طلبة الألسن « فتح الله صبرى » نصح بالاتحــاد حتى بلوغ المراد « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم فتقهقروا الى حالكم القـديم من الظلم والاستبداد والشكر على الرجال الذين ركبوا الصعاب واخترقوا العقاب وبدد عنكم هاتيك المصائب فخرجتم من الظلمات الى النور » (١)٠

وقد تبين من ذلك فكر المثقفين وفلسفتهم التي لا تقل في الأصالة عن مفكرى الثورة الفرنسية ، ومما يستلفت النظر اشتراك الطلبة فى هذا المجال فكان دليلا على وعى كامل وصادق انتــاب شــباب مصر ؛ وللنــديم أثره فى ذلك منذ أن أسس جمعيته بالاسكندرية ، وهو دائما يصطحبهم معه ويقدمهم فى تلك الاجتماعات ، فغرس فيهم الشــجاعة والجرأة والاقبال على تذوق الخطابة ، ويقول أحمد شفيق « شاهدت عبد الله النديم مرة يقدم فتحى أفندى زغلول ليخطب فى حفلة عظيمة ، وبعد أن جال بخطبته فى السياسة فى كل مجال أمسك عبد الله النديم بذراعه وقال للحاضرين : ألا تعجبون لما أبداه هذا التلميذ فى خطبته من العــلم والبيــان والتفنن فى المواضيع مع أن جلادستون خطيب انجلترا لا يتناول الا موضوعا واحدا فى خطبته ، وقدم مرة أخرى فى احدى حفلاته الطالب مصطفى أفندى ماهر فخطب القوم وراقتهم خطبته فقال عبد الله النديم : أشهد أيها الناس ان أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها » (٢) ٠

اعتبرت التيمز جمعية المقاصد ناديا سياســيا للحــزب الوطنى ووصفت تلك الخطب الحماسية التى تلقى فيها بأنهــا موجهــة ضــد الأوربين لاثارة الحمية الدينية للمصريين (٣) ، لكن كان واضحا أنهــا طرقت كل ما يمس الأمة ، وفيها تجلى النشاط الثورى للمثقفين ٠

وكثرت اللقاءات الخاصة لتحديد سياسة الثوار وشــملت جميع العناصر المثقفة ، وكانت تعقد فى منزل عرابى والبــارودى ومقبــل بك

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٤ فى ١٥ فبراير ١٨٨٢ ٠

(٢) احمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٤٧ ٠

(٣) The Times, April, 22, 1882.

وطاهر بك ، وتمارس فيها الخطب التى تناولت ما بلغه النفوذ الاوروبى فى السيطرة على مصر ، وكان المسيطر على الدفة فيها النديم بشخصيته واقناعه ، وبرز فيها الأفندية ، فهاجم مصطفى ماهر الأوروبيين حتى لقد وصل به الأمر أنه رأى « قتل المسيحيين الأجانب والأتراك والقاء عظامهم بالبحور حتى لا تتلوث أرض مصر (١) » .

كانت هذه الاجتماعات عبارة عن صالونات سياسية امتلأت بالعقليات المثقفة ، وجاء الدور على أعضاء مجلس النواب فى اقامة الحفلات ، فيدعو الشيخ أحمد على محمود وابراهيم أفندى الوكيل نواب جمعية المقاصد الخيرية وباقى النواب ، ويمارس النديم نشاط المحبب اليه « فتلى عدة آيات من القرآن الشريف وشرح كل واحدة منها بشرح لطيف العبارة بديع الأسلوب ، وكان عند كل آية يأخذ فى الحث على التمسك بها وبيان موضع الأخذ بما دلت عليه من الحكم وحث على رعاية الواجب والذمة وحفظ العهود وحسن المعاشرة » ، وعلا صوت محمد عبده وتكلم بصفته فلاحا مصريا من خدمة العلم الشريف فى الجامع الأزهر وبين سوء حالة الفلاح بالرغم من تمتعه بالصفات المحمودة وبالوضع الفطرى الالهى وبالفضيلة ، وتبعه فتح الله زكى أحد تلامذة مدرسة التجهيزية فتكلم عن التربية والتهذيب وفتح المدارس وعقد الجمعيات والاهتمام باللغة العربية وحفظ الحكومة الشورية ، أما ابراهيم اللقانى فقد حذر ونادى بالاحتياط وطلب استجماع القوة وأن ما تم ما هو الا بداية لانطلاق جديد وليس هو بآخر المطاف ، وعندما جاء دور فتح الله صبرى دعى بعقد الجمعيات وفتح المدارس الليلية ليتعلم فيها من لا تسمح له أشغاله الضرورية بتلقى العلوم فى النهار (٢) .

أما فى ليلة الاحتفال التى أقامها أحمد أباظة فقد حضرها الوزراء والنواب ، تكلم محمد عبده عن الحكومة الشورية وسلطة القانون ، وكذا النديم فقد طرق باب الاهتمام بالاقتصاد المصرى وخاصة الصناعة كما طلب مساعدة الفلاحين واستخلاصهم من الديون وكان يوجه حديثه للأغنياء ، كما تكلم ابراهيم اللقانى عن أهمية الخطابة وتأثيرها فى تنشيط الأذهان وبعث الهمم « أسوة حسنة بنبينا (ص) وأصحابه ، فان الخطابة لم تكن فى زمانهم الشريف قاصرة على خطب الأسابيع بل كانوا يعقدون مجامعها عند كل داعية من تنبيه اجتلاب مرغوب أو اجتذاب مرهوب أو تسكين خاطر أو رفع وهم أو ارجاف أو ازالة التباس (٣) » .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٨ .
(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٣٩ فى ٢١ فبراير ١٨٨٢ .
(٣) نفس المصدر ، عدد ١٣٤٩ فى ٥ مارس ١٨٨٢ .

أما عن دور مثقفي الاسكندرية فيشهد له تاريخ المدينة ، فمنذ قصر النيل والقلق يسود أهلها وبوادر الثورة تتضح اذ تبلور فيها الرأى العام بصورة واضحة ، وقد حذر ماليت رياض من تلك الاجواء (١) ، وعقب التاسع من سبتمبر أسست جمعية شبان « للنظر في منافع الوطن العمومية » ، وللنديم يد في تأسيسها وضمت « أولاد ناس من كبار الاسكندرية (٢) » الذين كونوا وفدا منهم للمشاركة في الأحداث التي تمر بها مصر ، فتذكر الوقائع « كلف شبان الاسكندرية النبهاء ١٢ نبيها منهم بأن ينوبوا عنهم في تقدم التهاني والشكر الى المقام السامى الخديو على تأييده أمر النواب وبقية الوزارة الجديدة تحت رئاسة محمود سامى ، وقابلوا الخديو وسامى والعرابى الذى خطب فيهم بالحث على التآزر والاتحاد وأثنى على هممهم وهمم اخوانهم الذين انبعثت فيهم روح الألفة والوداد ثم توجهوا لمجلس النواب وهنأوا الأعضاء ، وفى المساء اجتمعوا برئيس النظار فشكر لهم اهتمامهم بشأن الوطن وأمر البلاد ثم رغبهم في زيادة ربط القلوب والاكثار من الاجتماع ، ثم توجهوا لسلطان باشا بصحبة النديم ثم قابلوا محمد عبده » وتواصل قولها « فعنمنا من ما شاهدنا فيهم من حسن الأفكار أن أهل الاسكندرية وخصوصا شبابهم قد انبعثت فيهم روح المحبة وانتشرت فيهم مبادىء الأفكار الحرة(٣)» .

وعمل القائمون على الثورة من أجل استمرار المسيرة ، وذلك بالتشجيع على الاجتماعات والتحدث بالسياسة ، وتعددت اللقاءات داخل أسوار الاسكندرية فتقول المحروسة « ان في الاسكندرية شبانا طمحت نفوسهم الى طلب المعالى وطمعت أفكارهم فى نيل الغوالى وجنحت خواطرهم الى جعل مصر للمصريين فهنيئا لمصر ان كانت في يد أبنائها » وتعاود في وصف السرور بالتصديق على قانون المجلس الجديد « كانت سراى يوسف باشا محطا لرجال الوطنيين والأجانب ، وسمع المدعوون من خطابات النديم ما راق فى أعينهم ، وقد حضر الحفل المحافظ وضباط الجهادية وأعيان الثغر وتجاره وفتيانه وشبابه (٤) » .

ومنذ فبراير ١٨٨٢ أصبح من المألوف رؤية النشاط والحماس المتقد لشبان الاسكندرية فكانوا على علاقة قوية ومتينة بالعسكريين يؤيدونهم

---

(١) Malet : op. cit., p. 120.

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٦ ، سليم نقاش : المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٣٢ ، Bioves : op. cit., p. 119.

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٢٨ في ٧ فبراير ١٨٨٢ .

(٤) المحروسة ، عدد ١٠٦٩ في ١٦ فبراير ١٨٨٢ .

فى جميع الخطوات التى يتخذونها ، ولم يكن هناك اى اجتماع يخلو من العسكريين ، وقد اقترنت هـذه الاجتماعات بالخطب التى كانت تشعلها ضد الوضع القائم .

وتابعت دمياط الاسكندرية فى هذا النشاط ، فأنشأت « جمعية مساعى الخير » ، وبعد أن كانت رئاسة الجمعيات اما من اعضاء الأسرة الحاكمة أو من كبار الشخصيات تغيرت الأوضاع وأصبح رئيس هـذه الجمعية عرابى ونائبها عبد العال حلمى ، وراحت تعد الليالى فى منزل مؤسسها « حسن بك المرقبى » والتى كثر روادها « اذ بلغـوا حـوالى ٣٠٠ ، وكانت تغص بأهل الثغر من العلمـاء والذوات (١) » ، وفيهـا كانت خطب الحماسة للتحريك الثورى .

كان قادة الثورة يداومون على حضور تلك الاجتماعات وخاصـة عرابى وفيها كانت تلقى القصائد « فى مدحهم وتقديسهم وتعداد مناقبهم ولا يتصرفون عنها الا بالتهليل والتكبير ، فاذا انتهت خرج النـاس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسـة ، وأصبح النـاس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم ، اذ كان يمثل فى شكل البطل المنقذ ، وقد وزعت صـورته فى انحـاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة وعلى رأسـه عبد العال قابضـا على سيفه والى جانبه على فهمى وهو يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها الدستور وهكذا سارت الروح العرابية فى الأمة بأسرها وجعلت الطبقات فى صعيد واحد ممتزج بعضها ببعض » (٢) .

وعندما حدث التآمر الشركسى لاسقاط الثورة كانت نتائجه الزيادة فى الالتحام والتعاون وأصبح العداء سافرا وبدون تحفظ لتلك الطبقة ، فزاد الهجوم عليهم ، فقد أقام محمود شـكرى باشا وكيـل عمـوم الاستحكامات الليالى من أجل سلامة الثورة وقوادها والقت فيها الخطب التى انزلت اللعنات على الشراكسـة ووصفتهم بأنهم المفسـدون فى الأرض وتمسكت بالاتحاد وكان الدعاء فيها لعرابى ثم السلطان واسقاط اسم توفيق ، وأقام خورشيد بك طه وليمة بميـدان قشـلاق باب شرقى بالاسـكندرية خطب فيها لبنيه خطبـة سياسية بالفرنسية ذكر فيها « ما كانت عليه مصر سابقا من الثروة والرفاهية وما صـار بهـا مدة اسماعيل من الظلم والدين الثقيل الذى اقترضـه لصـالحه الخـاص لا لصالح اهل مصر ، وتكلم عن مساعدة الأوروبيين له فى نواله اقتراض الدين لمنافعهم الشخصية وعن كيفية جبر الأهالى والرامهم بالرغم عنهم

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ .

(٢) أحمد شفيق : المرجع السابق .

لقبول سداد الدين غير المعلوم لهم أسبابه ولا أبوابه ، وتطرق الى ظلم أوروبا للمصريين فى عدم تركهم يدبرون سداد الديون بأنفسهم ، وابان هضم حقوقهم وعدم مساواتهم بالأوروبيين فى الحقوق والرواتب وسلطة المراقبين ، والموظفين الأوروبيين ومعاملتهم للمصريين ، ثم أورى ان عرابى الذى هو فلاح بسيط منهم ساقه الله لخلاص أهل وطنه من ظلم الغير » (١) وقد ترجمت هذه الخطبة فى الحال وألقت على مسامع الحاضرين .

من هنا نستنتج انه كان الفكر الأوروبى الأثر فى الثورة ، وكان نينيه ـ وهو عميد الجالية السويسرية بمصر ـ من أصحاب الآراء الأوروبية الحرة وينسب اليه البعض قيامه بالمساعدة فى تنظيم الدستور وفى نشر تلك الأفكار التى ما جت مصر كلها .

ومما هو جدير بالذكر انه حتى الأطفال كانت فى تلك المناسبات « وصارت تخطب بالنثر والنظم المتضمن فى مدح العرابى والحث على الاتحاد وقيل أن هؤلاء الأطفال من جمعية الشبان (٢) » .

واتسعت الخطب التى أنزلت اللعنات على الحاكم « وكان النديم يدعي للخطبة فيلبى الدعوة ويسب توفيقا ويدعو جهارا الى خلعه (٣) » ، وبرز حد العوام كأحد الخطباء المثقفين فسار فى نفس الاتجاه .

كذلك أسست جمعيات اصلاحية على ايدى المثقفين كان لها اللقاءات الدورية ، فتذكر المفيد « جميع المنتظمين فى هذه الجمعية من الشبان ذوى الاستقامة والصلاح والجد مشتغلون باكتساب العلوم ، البعض بمحلاتهم والبعض بالجامع الأزهر والبعض بالمدارس الليلية ، وقد استحسنوا وجودهم مع بعض ليلتى الأحد والأربعاء من كل اسبوع وقد ارتضى كل منهم بدفع خمسة قروش صاغ شهريا لمشترى الكتب اللازمة مع ما يلزم لاحياء الليلة (٤) » وبذلك انتشرت الجمعيات بأنواعها على أرض مصر وذاع صيتها حتى خارج مصر ، فنرى صحيفة ترجمان الحقيقة الصادرة فى الآستانة تقول « يوجد الآن فى مصر جمعيات سياسية من الشبان وكلها مجتهدة فى اكمال الأسباب التى ينبنى عليها سلامة الوطن والاعانة العمومة (٥) » .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٠ ، دوسيه ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) د. عبد اللطيف حمزة : العقدة الشركسية عند مدرسة الشيخ محمد عبده ، ص ١٤ .

(٤) المفيد ، عدد ٤٨ فى ١٧ ابريل ١٨٨٢ .

(٥) نفس المصدر ، عدد ٥١ فى ٢٧ ابريل ١٨٨٢ .

وبالاضافة الى ذلك فهناك « الصالونات الديمقراطية » التى كانت تعقد فى الشوارع والحارات والأسواق والقهاوى وامام أبواب الحوانيت وتضم قوى الشعب « وفى تلك الحلقات كنت ترى الشيخ الأزهرى الى جانب الفتى العصرى الى جانب الشاعر أو الكاتب المغمور الى جانب الأديب المشهور أو العالم الكبير وجميعهم يتحدثون فى شتى الأمور السياسية (١) » ، فكانت اجتماعات شعبية تتم يوميا تجرى فيها المناقشات بكل حرية ، وتخرج منها التأييدات للثورة وقائدها ، كما كان الشباب المثقف أثناء تجوالهم يعبرون عن داخليتهم بتلك الأغانى التى تنصب على مدح زعيمهم . ولأول مرة فى مصر نرى تلك الوحدة بين مسلمين وأقباط ويهود وتلك الفرحة التى سيطرت على الجميع لقيام ثورتهم « وكانوا يتعانقون ويقولون لبعضهم اشرقت شمس الأمل واذابت الثلوج وتعاسة ثلاثة قرون اختفت وفاضت دموع الفرح وحفرت لها قناة الابتسامة والسعادة (٢) » .

وبتطور الأحداث ازدادت حدة الثورة والقائمين عليها ، فعقب مذكرة مايو المشتركة وورود اخبار مقدم درويش باشا لاقناع عرابى بقبولها سافر النديم الى الاسكندرية « وخطب مدة ساعتين فى عشرة آلاف شخص ضد المذكرة واوعز الى المجتمعين أن يحتجوا عليها فحاز ذلك قبولهم لدرجة انه عند عودتهم الى منازلهم بثوا تلك الروح بين زوجاتهم وأولادهم وعند وصول درويش صاح الأولاد فى الشوارع اللايحة وترد عليهم النساء من النوافذ مرفوضة مرفوضة (٣) » . وبذلك تغلغل تأثير المثقفين ودخل كل بيت ليعلن التأييد التام للثورة .

استمر النديم فى حملاته التى وجهها ضد تصرفات الانجليز وكان لها الأثر السيىء على المجتمع « ايرون ان الانجليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون أم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا واعطاء شهادات بأنهن صالحات للزنا ، فهتكوا حرمة القرآن والأنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى (٤) » ، ويتابع فيها الهجوم على رأسمالييهم فى مصر وتحكمهم فى الاقتصاد المصرى وفى الوظائف والتعليم ، ويعرج على دول أوروبا الاستعمارية واهدافها فى القضاء على الاسلام .

---

(١) د. عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٢) Broadly : op. cit., pp. 88-233.
Duse, M. : In the Land of the Pharaohs, London, 1911, p. 45.

(٣) Blunt : op. cit., p. 329.

(٤) عبد الفتاح نديم : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧ .

وامتلأت النفوس بالغضب على الأجانب ، وكثرت لقاءات الشباب السكندرى في جمعياته المتعددة وكانت للخطب الصدى المسموع التى انصبت على الذم فى الأوروبيين ، وتطرقت الى ضرورة عزل الخديو الذى اعتبر السبب فيما حل بمصر وقد حاول المعسكر المضاد للثورة ضرب حركة الشباب السكندرى ولكن لم يتمكن ، ففى خطاب من عمر لطفى الى رئيس النظار يظهر له « ان شبان الاسكندرية متحدين مع العساكر فى الهيجان ويطلب منه اعمال طريقة لمنع ذلك » ، وعندما اصدروا مذكرة هاجموا فيها الخديو والأجانب « استدعاهم المحافظ ووقف حائلا دون قصدهم وهددهم فيقول : نهيناهم مع التخويف عما شرعوا فيه » ، وفى خطاب له الى رئيس القومسيون يوضح انه على يديه تم ترهيب الشباب للحد من ثورتهم (١) .

وبالرغم من ذلك فقد ظل الشباب المثقف على ثوريته بل ازداد ، وجاءت خطبة النديم فى « السيالة بالأنفوشى » لتفصح عن الغضب الثائر والذى امتلأت به الصدور ، ومرة أخرى يرى المحافظ حد الثورية التى انتشرت لمستمعى ومؤيدى النديم ، فأمر مأمور الضبطية باخراجه من الاسكندرية لكنه لم يفعل ورفض النديم أن يبرح مكان نضاله وكانت له السلطة والنفوذ ، وجاءت حادثة الاسكندرية لتعطى المزيد من العمل من أجل الثورة .

وتعلن الحرب ، وكان المثقفون قد بنوا آراءهم على استبعادها ، فنرى محمد عبده يجزم بعدم وقوعها حيث ان « لانجلترا ما يفيد بمنعانها فى مهاجمتها للقطر المصرى احدهما ذاتى وهو قصورها عن المحاربة برا والثانى خارجى وهو تحتم مخالفة أوروبا لها » لكن بمجرد وصول خبر ضرب الاسكندرية الى القاهرة « نهض وسافر واجتمع هناك باخوانه مدة نهار الحرب وعاد ليلا الى مصر بسياسة أخرى غير سياسته الأولى وهى اصراره على امكان مقابلة العساكر المصرية لعساكر انجلترا زمنا مديدا تمل الدول طوله فتتداخل فى الأمر وترد انجلترا عن مقاصدها وتقرر عزل الخديو (٢) » . وكان ذلك هو نفس رأى النديم فيذكر احمد فتحى زغلول « كنت فى عهد الثورة تلميذا فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية فبلغنا ان السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور فى مكان كذا ، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان ما قاله ما خلاصته : ان طوابى الاسكندرية اذا اطلقت مدافعها على البحر يبلغ

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١١٤

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٥ .

مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ومدافع الآستانة اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر فكيفما حاولت الأساطيل الانكليزية فهى تحت رحمة مدافعنا فعلا هناف النــاس وتصفيقهم له (١) » وربما كان ذلك لتقوية الروح المعنوية للشعب وكنوع من الدعاية التى لها ضروريتها فى الحروب لكنها حملت فى نفس الوقت بين طياتهــا ســـوءا لتقديــر الموقف .

وعقب ضرب الاسكندرية كان لشبابها المثقف من أعضاء الجمعيات وغيرهم ومع نسائهم واولادهم الهمة الملحوظة « هرعوا وقت أن سمعوا اطلاق المدافع على الطوابى وصاروا يخدمون الطوبجية فى مناولة الكلل وخــلافها ومن نعلهم الذى يبهر القــول أن امراة منهم كانت حين تقع الكلة على الأرض تكون أسرع من البرق فى وضع التراب فوقها فتبطل مفعولهــا ، وكان الشـــبان حين يرون الــكلة مارة من فوقهم يميلون رءوســهم ويصفرون أستهزاء بهــا (٢) » ، فكانت هذه المعنويات المرتفعة مشاركة فعالة فى الثورة .

وانتقلت عناصر من المثقفين الى ميدان القتال ليس فقط كمراسلين حربيين لتسجيل وقائع المعارك ولكن أيضا للتنقل بين الجنود وتشجيعهم على الصمود والاستبسال واقامة صلوات الجماعة والدعاء بالانتصــار للجيش المحــارب ، ولم يكن محمــد عبده والنــديم وحدهما أصحاب النشاطات المتزايدة فهناك العديد ، فابراهيم اللقانى يحارب بكلمته فى جهــة الصالحية (٣) ، ليلهب الحمــاس ويثير الحمية الوطنيــة ويعلن أن الحرب مقدسة وانها جهاد فى سبيل الله .

المبعوثون ونشاطهم الثورى :

لم يقتصر امر المثقفين المشتركين فى الثورة على داخل مصر ، بل ان من المصريين من كان فى بعثات تعليمية بأوروبا واشترك فيها ، فمحمد توفيق طالب الطب بأكاديمية « مونبيليه » بفرنسا يرسل لعرابى اكثر من مرة مؤيدا موضحا أن « المصريين على اختلاف أجناســهم وأديانهم وطبقاتهم قد شعروا بنتائج الاصلاح الذى تأسس تحت عناية سعادتكم بارادة وتوفيق الحضرة الالهية وذاق حلاوة الحرية بعــد أن فســدت أعضاؤه من مرارة الظلم السابق » ويظهر استياؤه لخيانة سلطان وأتباعه

---

(١) السيد رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

(٢) المفيد ، عدد ٦٥ فى ١٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٢ .
Broadly : op. cit., p. 233.

ويستنكر ذلك ثم يتبع « ونحن جميعا تحت امرتك نفدى سعادتكم بدمائنا ومنى لسعادتكم ولحضرات الأمر عموما أرقى التحية (١) » .

وقد كان مدير البعثة المصرية بفرنسا « ميسمير » قد ارسل الى وزير المعارف فى ١٨ يوليو ١٨٨٢ بشأن هذا المبتعث وزميل آخر له يدعى « محمد فتحى » ويوضح أن الأول اشتغل بالسياسة والمناقشة فيها ، ويمارس نشاطه هذا فى المقاهى والمحلات العامة ، ويكتب العرائض ويقوم بجمع توقيعات زملائه عليها يؤيد فيها عرابى وتبعه كثير من الشباب « ورغم تحذيرى له فقد استمر وأصبح أداة اضطراب لدرجة انى لا أحتمل أن أستبقيه بعد الآن » هذا فى الوقت الذى طلب فيه هذان المبتعثان العودة لمصر لكى يشاركا فى الثورة ويحاربا الانجليز ، ويتابع مدير البعثة قوله « وانى الفت نظر سعادتكم الى هذين الشابين باعتبار أنهما متطرفان وخطيران وانه فى استطاعتهما ان يستمرا على أعمال التحريض والاضطراب فى مصر أيضا (٢) » .

اذن فصوت الثورة المصرية وصل الى ارض الثورة الفرنسية ، وجعل الوطنية تزداد حماسة لدرجة التضحية بعدم اتمام التعليم من أجل المساهمة فى الحركة الوطنية ، وقد وضح انه كان للقائمين على الثورة رسلا خارج مصر ، فمن خطاب « مالوس » نائب مدير البعثة المصرية الى مديره يقول « حضرت الى الأكاديمية قالوا لى فورا انه يوجد هنا مبعوث من قبل عرابى وهو يحرض بقية الطلبة » (٣) ، لكن لو لم يكن هناك الاستعداد الكافى لهؤلاء الوطنيين الصادقين لما نجح جهاز الدعاية ، فهؤلاء تعرضوا للضغط بل والتهديد من أجل ابعادهم عن المعسكر الثورى لكن بدون فائدة ، فيذكر الخطاب السابق « انه لم يفلح معهما التهديد ، وبدلا من أن يحملوا التهديدات على محمل الجد فانهم يمزحون مع زملائهم ويهددون الفرنسيين بالانتقام منهم بسبب حوادث الاسكندرية » .

ويتبين من ذلك أنه كان للأحداث التى تعرضت لها مصر أصداؤها فى الخارج ، فقد كره المصريون الأجانب ، ولم يخشوهم حتى وهم على أرضهم واستمروا فى سياستهم الثورية « أذاعوا الاضطراب بين الطلبة جميعهم بالمجادلات السياسية وكافة أنواع التحريض » حتى ان البوليس الفرنسى لفت نظر مدير البعثة لتلك المناقشات الحادة التى يثيرها محمد توفيق ،

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، دوسيه ٢/٥/٥٣ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٢٩٧ .

(٣) نفس المصدر .

ويطالب مدير البعثة بفصلهما من جدول البعثة وترحيلهما بالرغم من أن محمد توفيق قد قدم الى فرنسا على نفقته لكنهما اعتبرا ثوارا واجب التخلص منهما بعد ان تركز نشاطهما على حد قول المدير « بذر بذور الفوضى بين أعضاء البعثة » وصدر الأمر باستدعائهما ومعهما طالب ثالث يدعى زاهد .

وعثر لديهم على صحيفة لطائف وتسويد فصول محررة بها ، وجملة أوراق وخطابات تفيد بأن مخلص مصر من الاستبداد هو عرابى والدعاء له بالنصر والاشادة بمواقف الثورة التى وقفتها منذ أن قامت وقوة الجيش ومسودات لخطابات مرسلة للقائد الزعيم (١) .

وعند عودتهم كان الوقت قد قارب الانتهاء وكانت بدايات النهاية ، وما لبث الأمر أن كانوا من بين أولئك الذين امتلأت سجون مصر بهم ، وقد عمد محمد توفيق أن يكون عقب ذلك من المشتركين فى جمعية الانتقام التى تألفت بعد النهاية للانتقام ممن كانوا السبب فى الهزيمة (٢) . وبذلك نرى انه حتى من كان خارج مصر لم ينسها بل شارك بكل امكاناته متضامنا ومؤيدا ومدافعا عن الثورة .

الموظفون فى الميدان الثورى :

ساهم الموظفون بنصيب وافر فى الثورة ، وشاركوا بكل قواهم نظرا لحالة المعاناة التى مروا بها ، وبقيامها عرفوا أن الوقت قد حان للاخذ بيدهم وهم الطبقة المتعلمة والمتمتعة بالنضج الفكرى ، فقد كان منهم العائدون من البعثات والمتشبعون بالمبادىء الحرة .

لم يكن اشتراك الموظفين نتاج لوطنية صادقة ولوعى ثقافى فحسب بل كان أيضا ناشئا من أوضاع مادية لمسوها وقاسوا منها ، فان السيطرة الأجنبية على أجهزة الحكومة قد أنهت من كيانهم لتحل محلهم الموظفين الأجانب ، ففي مارس ١٨٨٢ وصل عددهم بما لا يقل عن ١٣٥٥ موظفا بلغت مرتباتهم ٣٧٩ر٠٥٦ جنيه ، وتراوحت من ٣٠٠٠ جنيه فى السنة الى ٢١٠٠ جنيه وأقل وظيفة كان صاحبها يتقاضى ١٢٠٠ جنيه (٣) .

كانت المراقبة الأوروبية مكروهة من جميع القوى على أرض مصر ، وللموظفين النصيب الأكبر فى ذلك ، وتذكر المفيد سبب ذلك بقولها « تعام

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ٤٠ .

(٣) المفيد ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

المراقبة شيئين الأول انهم عازمون بأنهم أكفاء ذوو مقدرة على ادرة أعمالهم بأنفسهم مىل المرسلين لمساعدنهم ، تانيا كون المصريين عوملوا بالظلم » ، بينما ذكرت « النوفيل رفيو » بأن « الأمة المصرية قد استيقظت من نومها وما أيقظها الا بغضها للمراقبين وتذمرها من تسلط الأجانب » . وترجـــع الستاندرد سبب الثورة اليهما « أن سبب الحركة هما المراقبان لانهمـــا خرجا عن حدودهما وتخطيا واجباتهما التى تقضى عليهم بالنصح وأن يكونا فى الأعمال المالية كواسطة ليس الا (١) » .

أما آراء الساســـة الأجانب فلا تختلف عن الصحف ، فقـــد بين « كليمنصو » ما كن يصرف من الخـــزانة المصرية على الموظفين الأجانب ، كما أوضح « أن تاسيس قلم المراقبة لم يترتب عليه سوى تكثير الأوراق وزيادة أعدادها وجـــر المشاكل للحكومة المصرية وبذلك أوجدنا ســـخط المصريين علينا » ، وحينما دارت المناقشـــات فى مجلس العموم البريطانى عقب بداية الغزو أرجعت الثورة الى ما تحمله هذا الشعب الذى كان تعيسا بفضـــل هذا العدد الكبير من الموظفين الأوروبيين الدين كانوا يتقاضـــون أعلى المرتبات (٢) .

وكان عداء المصريين للأجانب نتيجة لرد فعل الاساءات التى وجهوها لهم وتعاليهم عليهم خاصة أنهم كانوا دائما أصحاب الأعمال والرؤساء ومن أصبح الهدف الذى يصبون اليه ليس فقط ابعاد التأثير الأجنبى عن الحكومة انما طرد الأجانب من الادارة .

مع بداية الثورة راح جهازها الاعلامى يزيد من الاثارة حول وضـــع الموظفين المصريين ، وتعددت النداءات للحد من سلطة هؤلاء الأجانب ، فتناشد « المحروسة » شريف لاستخدام الموظفين الوطنيين الذين هم أحق من الأجانب للبلد « اننا نعلم أن كثيرا من الأجانب يتمتعون برواتب لا ينالون عشرها فى بلادهم بل فى أى بلاد الدنيا ، ان الواجب الذى لابد منه أن نوجه عنايتنا الى استخدام الوطنيين فى المصالح أولا فهم أحق بها وأولى من سواهم ، فاذا رأينا اضطرارا الى غيرهم استقدمناهم بشروط معلومة ورواتب غير فادحة ، وغاية ما نرجوه أن تعتنى وزارتنا الجديدة فى سن قانون للخدمة والموظفين يستوى به الأجنبى والوطنى ، فالأجنبى عندما يعزل يشكو ويقيم دعـوى

---

(١) المفيد ، عدد ٢٩ فى ٣٠ يناير ١٨٨٢ ، سليم نقاش : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٧٨ ، الطائف عدد ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

(٢) Commons, Vol. LXXII, July 25, 1882, p. 1764.

ويطلب تعويضا ويساعده على ذلك فنصله أو المحاكم المختلطة والقونتراتو الذى بيده ، أما الوطنى فان عزل بحق أو غير حق فكل ما يقدر عليه أن يصبر (١) » ، وينابع النديم « كم من شبابنا من اذكياء ونبهاء قائمين بأعمال لا يقوم لها عدد من الاجانب ولو كانوا عددا قليلا لعددتهم ، ولكنهم كثيرون فى زوايا الاهمال ، ولنا فى عناية أمرائنا الحاضرين ما يفتح للوطنى بابا يدخل منه الى الرواتب الكافيه ليضارع من جاء من بلاده لا يملك نقيرا ولا فتيلا وأصبح يوسع له الطريق ليجرى بعربته ، وكنا فى غنى عنه لو استعملنا أبناء بلادنا ووسعنا ثروتهم وحفظنا نعمه البلاد لأهلها ، وليست السيادة بفتح باب البلاد للغرباء ويأكلون خيرها ويهنكون سرها ويميلون بأهلها لجانب الأجانب بالغرور والنحسين بل السيادة بفتح بيوت الأهلين وتكثير المعتبرين وحفظ الثروة » (٢) .

وتستمر حملات الهجوم على الأجانب فى عهد الثورة « ولا يخافك باهظ رواتبهم لغاية المائتين والخمسين جنيها شهريا مع أن البعض منهم كان رئيس كناسين فى بلاده بستة جنيهات وأقل والبعض كان يسن أمواس وأسلحة ، والبعض كان يصيد الأسماك ، وتلك الرواتب أضرت بالايرادات وأبناء الوطن كونهم حرموا الاستخدام بتلك المصالح الا من يعرف اللغات الأجنبية منهم وتجده موظف فى أتعس الوظائف بماهية جزئية على أنه وطنى ولا يأكل بالشوكة والسكينة ولا يشرب النبيذ البوردو العال(٣) » وتعرضت المفيد لزيادة رواتبهم وعدم كفاءاتهم « هؤلاء أناس قد لحظتهم عين العناية فساقهم البحار وحملتهم أكف السفن حتى أتوا مصر منبع الثروة ومنبت الخيرات ففتحت لهم الوظائف أبوابها فدخلوها ، وجرت سيول المرتبات فما حمد الكثير منهم نعمتها بل ارتفعت أنوفهم عن أن يمتثلوا قوانين حكومتنا حتى فى أمر التعليم ، ان مسيو فالوا معلم اللغة الفرنساوية والمسيو فنك معلم اللغة الانكليزية غير أهل لأن يكونا أساتذة لتلامذة ، والأول تعليمه لم يكن مطابقا لترتيب المدارس فضلا عن ضعف حال التلاميذ الجارى تعليمهم بمعرفته وأنه مستعمل معهم الضرب » (٤) ، هذا بالرغم من الكفاءة المتزايدة للموظفين المصريين ، فيبين لنا النديم انه زار أحد معارفه فى قسم الحساب بديوان عموم المرور « فرأيت أمام الفتى البارع أحمد أفندى زكى دفاتر جسيمة وقد تذكرت هذا العمل وقسته بعمل بنك فوجدته يوازى عمل خمسة من البنوكات وفيه هذا الوطنى يتكبد مشقة العمل

---

(١) المحروسة ، عدد ٣٨٦ فى ٢٦ سبتمبر ١٨٨١ .

(٢) التنكيت والتبكيت ، عدد ١٦ فى ٢ اكتوبر ١٨٨١ .

(٣) أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية ، عدد ١٠ فى ٢١ اكتوبر ١٨٨١ .

(٤) المفيد ، عدد ٥٢ فى أول مايو ١٨٨٢ .

الجسيم براتب قدرة ألف قرش فعجبت من سوء حظ الشرقيين كما عجبت من نسبة ما ينسبهم للجهل وعدم حسن الاعمال » ، وأورد الأمثلة الكثيرة وأظهر قلة الرواتب وأشار الى المحسوبية وظلم الفقراء والنفاق (١) .

ونادت الصحافة علانية بضرورة فصل الموظفين الاجانب ورؤسائهم بعد أن أعلنت الحرب عليهم وارتفعت صيحاتها بالشكوى منهم ، وتزعمت الطائف والوطن ذلك ، ولم يكن الهجوم على الأوروبيين وحدهم بل والسوريين العاملين فى مصالح الدولة ودواوينها الذين مارسوا الرشوة ، كذلك أنصب الحقد على الموظفين الأتراك والشراكسة الذين شغلوا أحسن مناصب الدولة.

وامام الثورة لم يتخذ الأجانب موقفا معتدلا استجابة للأوضاع الجديدة التى تمر بها مصر بل انهم زادوا من سوء تصرفاتهم وتسلط ألسنتهم وبذلك تصعد سخط المصريين عليهم ، فنرى مستر « روسل » البريطاني والذى يشغل وظيفة عليا فى الادارة يصرح علنا عقب التاسع من سبتمبر بضرورة احتلال انجلترا لمصر (٢) .

وبدأت الثورة تعمل من أجل الموظفين ، ففى وزارتها الأولى وبجوار قوانين الجهادية أصدرت قوانين تتعلق « بالمستخدمين الملكيين » وتشكلت لجنة كلفت بتحضير القوانين المتعلقة بشروط قبول موظفى الحكومة ومستخدميها وترقيهم ورفتهم « وأما ما يتعلق بالخواجات فلا يكون داخلا فى أعمال القومسيون » (٣) ، وكان شريف معتدلا ففى البداية لم يرد أن يمس امتيازات الأجانب لكنه لم يستطع أن يوقف تلك الحملات التى شنت ضدهم والتى بدأت بالتقريع بمدير الجمارك .

كانت الخطوة التالية « التمصير » مع وزارة الثورة الثانية ، حقيقة لم يكن فوريا لكن اتخذت اجراءات من أجل المضى فيه ففى تقرير من القنصل النمساوى يذكر « ان عرابى أصبح له النفوذ القوى والتأثير الكبير فى شغل جميع الوظائف الحالية فى الوزارات بمؤيديه ، وأصبحت القوة العسكرية تنبت جذورها أكثر وأكثر فى البلاد ، لكن مع استمرار هذا الوضع واتساعه ستزداد الحالة خطورة والأضرار الناتجة ستسبب كارثة سيكون لها تأثيرها على المصالح الأجنبية » (٤) ، لقد هدفت الثورة الى أن تعمم الموظفين المصريين ــ الذين كانوا موضع ثقتها ــ وتحل محل

---

(١) التنكيت والتبكيت ، نفس العدد ، عدد ٢ فى ١٩ يونيو ١٨٨١ .

(٢) Polit, Archiv, Fasz XXXVIII/195, No. 144/5, Dec. 1881, p. 3.

(٣) المحروسة ، عدد ٤٠٦ فى ٢٤ اكتوبر ١٨٨١ .

(٤) Arch. de Cour, de maison et d'etat, Fasz XXXI/9, No, 60, 13 Mars 1882.

الأوروبيين ، وكان هذا ما سعى اليه قادة الثورة اذ وافق اتجاههم ، فنجد لعرابى خطابا يهاجم فيه الأجانب وتحكمهم فى الوظائف وحرمان مصر منها « الربَاويون الذين امتصوا ثروة المزارعين بالربا الفاحش واغترفوا خيرات البلاد غرفا مع سوء المعاملة لأهلها وهم الأجانب المتوظفون فى اعلى المناصب وغيرها بمرتبات باهظة الشاغلون لمعظم المصالح الأميرية حتى انجبرت الحكومة على رفت أبناء الوطن منها وهم الذين بأيديهم زمام الحكومة من المسلمين غير المصريين المتغلبين على ما ليس لهم بحق فهؤلاء الآخذين بمقاليد الأمور لا يرون فى أعينهم الا أن يروا المصريين دائما فى أسفل درجة من التأخير والقهر حتى يستفيم لهم أمر التغلب والاستعباد لأهل البلاد » (١) ٠

وعندما أنيط لمجلس النواب مسألة الموظفين الأجانب ورواتبهم ، لمسنا الدور الذى قام به أعضاؤه تجاههم وخاصة فى مصلحه التأريع والجمارك ، كذلك خضعت ترقياتهم وفقا لاستحقاقهم أثناء وزارة الثورة الثانية ، ومضت عملية التصفية ، فتذكر التيمز « فصل أمس أربعة موظفين أوروبيين من وزارة المالية بدون انذار ولا سبب موقع عليه ، كما وزع منشور فى الوزارة ينص على أن تكون جميع المراسلات باللغة العربية » (٢) ، وعندما ثبت عجز بعض المدرسين الأجانب وعدم خبرتهم قام عبد الله فكرى وزير المعارف بفصلهم من الخدمة (٣) ٠

ومن بين الأوراق المضبوطة لدى منازل الثوريين ما يدل على الشعور الذى انتاب مصر تجاه الأجانب الدين بسطوا نفوذهم حتى على الوظائف الاسلامية « الخواجة أنطون كرابيجو الأرمنى نسيب الخواجة كركور بمصر وهو لمعرفته برياض باشا قد صار ترتيبه ناظرا لقلم قضايا محافظة بور سعيد بماهية شهرى ٢٠٠٠ قرشا أى عشرون جنيها مع ان المحافظة لم يسبق لها ترتيب ناظر قلم القضايا ، وتحكمه فى قضايا المسلمين الذى لا يعرف فيها أصول ، وان قضايا المسلمين لا يعرف حكمها شرعا وسياسة الا من يكون منهم ، من أجل هذا ابطال معاش هذا الأجنبى » (٤) ، معنى هذا ان أخضعت الثورة الأجانب لثورة الفصل بعد أن كانوا هم المتحكمين فى المصريين ويتم فصلهم على أيديهم ، وتمضى هذه المسألة ودائما تقرن باحلال المصريين فى وظائفهم « رفت الخواجة ماكولوج وكيل التلغراف

(١) Broadly : The Trial and Pardon of Arabi Pasha, Vol. II.

(٢) The Times, April. 15, 1882.

(٣) المفيد ، نفس العدد ٠

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظه ١٤ ، دوسيه ٣١٨/ب ٠

ببور سعيد لحجزه ايراد التلغراف بطرفه وتعصبه للانجليز وتعيين بدله من الوطنيين بمعرفة سلامة بك باشمهندس عموم التلغرافات » (١) ٠

وأعلن الموظفون المصريون الثورة على رؤسائهم من الأجانب وخرجوا عن طاعتهم وعصوا أوامرهم فيشكو « الخواجة صيون وهو انجليزى » الى « الخواجة فكارى وهو ايطالى ومفتش لخفر السواحل أحد الموظفين بأنه عندما قال له : « لا تكلم أحدا أثناء الشغل رد بقوله انه يكلم مسلمين لا نصارى ، وفزع على بعصا وعندما قلت له يروح الكوبرى امتنع عن التوجه وقال انه يمشى على كيفه » (٢) ، هكذا وصل الأمر للتطاول بالضرب على الرؤساء الذين طالما أذاقوهم الأمرين ، وقد كان عدد موظفى مصلحة خفر السواحل حوالى ٤٢ موظفا مصريا وبالرغم من معرفة الأجانب بأن مصر تمر بعهد ثورة ويجب أن يتخلوا عن جبروتهم الا أنهم فصلوا هؤلاء الموظفين فعارضوا وارتفعت أصواتهم وأرسلوا الى عرابى فعلى الفور اهتم بذلك وأجرى ما فى صالحهم وتتابعت القرارات لتدور الدائرة على الأجانب ، ففصل العاملون منهم بالهندسة سواء بأجر يومى أو دائمون وأوضح التقرير إن هؤلاء الأشخاص « غالبهم غير لازمين » (٣) ٠

وقد كان أمل الموظفين كبيرا فى اخراج أندادهم الأجانب ومع الثورة كان التصريح بأنه قد حان الوقت لطردهم من الخدمة واستبدالهم بالمصريين بعد أن أيقنوا موقفهم العدائى ، وبعد أن تنفسوا الصعداء وأرادوا أن يستردوا كرامتهم ٠

وتمت الوحدة بين الوظائف المدنية والعسكرية وتعاون الجناحان من أجل الوقوف أمام التسلط الأجنبى والتيار المعارض ، فاشترك العسكريون مع الداخلية فى الحراسات العامة ، وشغلوا وظائف مدنية وادارية مختلفة ووضح التآلف والود بينهم وبين المدنيين فانتظمت الأعمال وقل الفساد الذى تميزت به الادارات فى فترة ما قبل الثورة ، وأعطت الثورة للموظفين الأهمية الكبرى والصفة البارزة بعد العسكريين وذلك بعد أن استبعدت أصحاب الوظائف وخاصة العليا كالمديرين المعروفين بولائهم للحكم المضاد ، ففى خطاب مرسل الى حميد أبو ستيت ينبئها « بلغنا أنه جارى عزل المديرين الذين هم من حزب الخديو » (٤) ٠

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٩ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٠٣ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٦ ، محفظة ٢١ ، دوسيه ١٦ ٠

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ب ٠

وكان لسياسة الثورة في عملية التنقل المستمر في الوظائف أثر في اصلاح الحال ، ففي مديرية البحيرة تغير ثلاثة مديرين واثنان من المفتشين من وزارة المالية وثلاثة وكلاء للمديرية وثلاثة باشكتبة في سنة واحدة (١) ، وأعطت معظم الوظائف للمصريين تطبيقا لمبدأ الثورة وخاصة الوظائف العليا ، فكان لأصحابها النشاط المثمر في خلق ائتلاف حي جمع الأعيان والعمد والمشايخ والتجار والأهالي في اطار موحد لكل مديرية ، وكثيرا ما كانوا يقيمون الاحتفالات والاجتماعات من أجل اذكاء الروح الثورية لقوى مصر الاجتماعية .

وافرجت الثورة عن الموظفين الذين كانت يد رياض قد اعتقلتهم وسجنتهم فأنصفتهم وكرمتهم أمثال « محمد افندي فني » الذي كان ناظر قلم ترجمة المالية ، فعينته الثورة مترجما بمجلس النظار ، وصدرت الأوامر الى المحافظات « بعدم نقل ولا رفت ولا ترقية ولا قيد أحد ما مطلقا من عموم المستخدمين بالحكومة الا بعد المخابرة مع ديوان الجهادية والتصريح بما يراه » (٢) ، وهكذا أصبح الموظفون في حماية العسكريين ، كما كان ذلك درعا للأخطار التي كثيرا ما تعرضوا لها .

ونرى الجراة والشجاعة تنتاب الموظفين فيعرفون أن لهم حقوقا وان هناك من يقف بجوارها لكي يردها لأصحابها ، فأوراق وزارة الداخلية تمتلىء بطلبات موظفين لصرف استحقاقاتهم حتى عن وظائف كانوا يشغلونها فيما مضى ولم يتحصلوا منها على حقوقهم ، وقد كان لمجلس النواب نشاطه الملحوظ تجاه نصرة الموظفين ، فيستقبل الشكاوى ويناقشها منها موظفون مفصولون ويريدون العودة ، ومنها من يريدون رفع مرتباتهم وقد احيلت هذه الشكاوى على الداخلية للبت فيها واعطاء كل ذي حق حقه ، كما احتوى بعضها على الثورة ضد الأجانب والجهر بظلمهم والمطالبة بايقافهم عند حدهم وردعهم « فمحمود افندي عدلى أحد المعاونين بمركز أبو حمص يجهر بالشكوى من التطاول الذي وقع عليه من الخواجة اسكندر دوسكوويج حماية النمسا والمجر » وفي الحال تجري وزارة الثورة التحريات والتحقيق في الأمر (٣) .

---

(١) Egypt, No. 7 (1882), Inclosure 2 in No. 157, April 22, 1882, pp. 112, 113.

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٤٠ ، دوسيه ١٩٢ ، محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٣ ، ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٨ « ٩ يوليو ١٨٨٢ ، محفظة ٤٣ في ١٢ يونيو ١٨٨٢ .

ونجحت الثورة فى نصرة الموظفين المصريين وفى ابعاد التسلط الأجنبي الى حد كبير ، فيرسل ماليت الى وزير خارجيته لينقل اليه الحسرة والألم الذى غمر الأوربيين ، ويصف وفود الموظفين منهم الذين زحفوا أفواجا الى الاسكندرية من أجل الرحيل (١) .

ولم يكن الأوربيون وحدهم التاركين لمصر بل وأيضا كان هناك بعض من الأتراك والشراكسة الذين احتلوا مكانا للكراهية فى قلوب المصريين ، وعندما وجهت اليهم الثورة انتباهها رأى البعض انه من الصعب الاستمرار على الأرض المصرية وكان أغلبهم الشباب المثقف الذين «يتحصلون العلوم الرياضية والحربية » ، فطلبوا السفر ، وكان الترحيب والموافقة ، ومما لاشك فيه ان تصرفات رجال الثورة قد أثارت العنصر التركى وزادت من حنقه عليهم ، فيقول ثابت باشا مندوب الخديو بالآستانة الى الخديو « وقد دلت التجارب على انه فيما بعد سيكون من اللازم الالتفات الى عدم رفع الوطنيين المصريين الى رئاسة الوظائف الملكية أو الى درجات الضباط العظام ، وقد كان رأى المرحوم محمد على باشا » (٢) ، وبذلك انتقمت الثورة من أعدائها وقدمت لأصحابها حقوقهم ونصفتهم على من اذلوهم زمنا طويلا .

كان لابد من رد ذلك العطاء ، ولم يتوان الموظفون عن تقديم كل شيء من أجل ثورتهم ، وقد حفلت أوراق الثورة بفئاتهم وشرائحهم المختلفة — محافظين ومديرين ووكلاء مديرين ومهندسين وقضاة وأطباء وصيادلة ومعاونين ومدرسين ونظار أقسام وكتبه وعاملين بالمصالح المختلفة — واشتراكهم الفعال فى الثورة .

أما عن المحافظين ، فالمصريون منهم خدموا وطنهم ابان الثورة وكانوا معها بينما غير المصريين تخلوا عنها وطعنوها بعد أن كانوا فى البداية لهم موقفهم المؤيد منها ،ووضع الثوريون امكانيات محافظاتهم تحت تصرف الثورة ، ففى محافظة العريش كانت عملية المجابهة الحربية والدفاع تتطلب مجهودا وافرا من المحافظ فقام به خير قيام حتى اذا هاجم الانجليز هذا الشاطيء أمكن للمنطقة صد الهجوم ، وكان عليه اعداد الأهالى والبدو منهم اعدادا كاملا للتأييد الثورى ، فتذاع يوميا أخبار الطائف « ويصير تلاوتها بين الأهالى والمستخدمين بقصد الهيجان» وكانت برقياته تنهال

---

(١) Lords, Vol. CCLXXI, June 23, 1882, p. 186.

(٢) محافظ الأبحاث ، محفظة ١١٦ ، عابدين محفظة ٩٦٤ ، ملف ثابت باشا ، وثيقة ٣٧ ، وثيقة ٧٣ .

على مركز القيادة بالتأييد والتشجيع «الدنيا امتلأت بالسرور والأفراح وان الدعاء مستمر على المنابر » (١) ·

وكان المديرون ثوريين فألهبوا نشاط مديرياتهم ، وبفضلهم تم جمع الأنفار المطلوبة من المديريات وقاموا بتنظيم المتطوعين وفورا كانوا يلبون نداءات الطلبات العسكرية التى تشحن مع التبرعات الى مراكز القيادة(٢) كما شنوا حملات الجهاد المكثفة في مناطقهم ، وساهموا بكل مجهوداتهم من أجل الثورة ومعروف انهم أحباب الثورة ، فقد كان عرابى المعين لهم منذ البداية لذا فمنتظر منهم القيام بهذا الدور · وكان اسماعيل بك رافت مدير المنيا قد أعطى خير مثال لمدير ثورى ، جاهد بكل قواه من أجل انجاح الثورة ، فعندما تصل البرقيات الى المديرية التى كان يطلق عليها « بشرى » ولو كان ليلا يصير اطلاق المناداة بسوق البندر وشوارعها بطلب الاجتماع ، فيحضر الأعيان والتجار والحرفيون «وجميعهم يتوجهون لطرفه ويتلو عليهم : ان عرابى منصور وانه سيكون ولى الحكومة المصرية ، ويأمر بالطواف بالبوارق والطبول بشوارع وحارات بندر المنيا العمومية والخصوصية ليلا ونهارا والصياح بكلام نظمه قاضى المديرية الشيخ بخيت :

يا مولانا يا عزيز اهلك دولة الانجليز
يا مولانا يا بارئ أنصر باشنا عرابى

وكان يأمر باحضار بعض من الكلاب والخنازير وربط أعناقهم بالحبال ودورانهم مع الأولاد فى الشوارع ، أحدهم أسود على رأسه برنيطة باسم سيمور الانجليزى والثانى باسم توفيق والثالث باسم سلطان ، وبالفعل يصير اعدامهم شنقا بعد تعذيبهم واحضار بدلهم حتى يصير اعدام جملة من الكلاب والخنازير ، وعندما أشيع فى ذلك الوقت ان سلطان سيحضر الى المنيا مع أتباعه الخونة ، أمكن لاسماعيل رافت أن يكون جبهة دفاعية بل ومهاجمة تخرج للقاء الأعداء واعطى الشمع للانارة فى حالة مرورهم ليلا وقيادة المشاعل أمامهم «وحتى بعد النهاية كان يردد ان عرابى باشا لايمكن انهزامه » (٣) ·

كذلك كان موقف وكلاء المديرين ، يعقدون الاجتماعات ويجتمعون

---

(١) محافظ الثورة العرابية « محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ ·

(٢) نفس المصدر محفظة ٣ ، دوسيه ٤٦ ·

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨١ ·

بالشعب ليلا ونهارا وينشرون الأخبار البرقية بنصرة عرابي ، ويحمسون الأهـالي ويفهمونهم أن عرابى سيكون الحاكم المصرى لمصر ، وحتى عند صدور أمر عصيان عرابى « لم يكن لينشر في وقته » (١) ٠

ومارس بقية الموظفين نشاطاتهم ، فتعددت الخطب التى كانت تلقى فى المساجد والاجتماعات وكان لذلك أثره فى يقظـه وتحميس الحميـــه والغيرة الوطنية ، ففيها يعرض ما أصاب مصر وما نكبت به من ضرر على يد غير المصريين من الأتراك والأوربيين « الذين يرغدون فى المعيشة الطيبه ومسيطرين على البلاد » ، وكان منها منصبا على الدعاء لنصرة عرابى وهزيمة الأعداء « لأنه هو المخلص والمنقذ مما أحاق بمصر » وأيضا الدعاء للحزب الوطنى بالفوز الذى هو الأمة كلها « ففى أثناء خطبة الجمعة بالحســين قام أحد الموظفين وقال ثلاث مرات : اللهم انصر الحزب الوطنى الحر » (٢) ٠

وساهم الكثير فى المشاركة بكتابة المقالات ونشر القصائد فى الصحافة هوجم فيها الحزب المعارض وعلى راســه توفيق وأيدت خطوات الثـورة وقادتها ، وفى اجتماعاتهم ولقاءاتهم كانت أحاديثهم تنصب على بيان الظلم الذى تعرضت له مصر على يد أسرة محمد على وتمنوا زوال هذا الملك من أيديها وقد تمتع اسماعيل بهجوم عنيف اذ أعدوا ان سياسته هى التى جلبت الاجانب والمصائب لمصر ، وفى مكاتبهم الحكومية نزعت صـــور توفيق وكسرت ، وعلقت مكانها صور عرابى ٠ كذلك تولوا عملية التختيم فى مناطقهم على محاضر ضد توفيق وخيانته وعدم الرغبة فيه كحاكم لمصر لم تكن تلك المحاضر ضـد توفيق فقط بل أيضا ضـد الأجانب والمطالبة بانهاء تحكمهم فى مصر (٣) ٠

ولم تخل مراكز القيادة من وجودهم وترددوا على ميادين القتال يعلنون التمنيات بالنصر ، ويرفعون من معنويات المحـاربين ، ويظهرون التأييد الكامل لخطوات الثورة ، كما تولوا توزيع صحيفة الطائف عــلى أحيائهم ومنهم من يقوم بدور المعلم فيسهرون الليـــالى لقراءتها وشرح ومناقشة ما فيها والتعليق على أحداثها ، وكان « مصطفى افندى نور » حكيم بيطرى مديرية المنيا يتوجه ومعه الطائف الى سوق البندر ويتنقل

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٧ دوسيه ٢٥ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٩ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٦ ، محفظة ١٥ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣١٠ ٠

(٣) نفس المصـــدر ، محفظة ٩ ، نفس المصـــدر ، محفظة ١٨ ، دوســـيه ٤٧ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ ، محفظة ٨ ، دوســيه ٤٥ ، محفظة ١٠ ، دوســيه ١٠٧ ، دوسيه ١١٠ ٠

بين الدكاكين ويقرأ بأعلى صوته « أيها التجار والأعيان اسمعوا هــدد البشرى ، ان جيش عرابى منصور وان كافة الممالك العربيه منل تونس وطرابلس الغرب وبلاد الحجاز ومسلمى الهند وبر الشــام أخذتهم الحمية الدينية وخابروا عرابى باستعدادهم للحضور معه لمساعدته ، وان مصر هى للعرب لا للترك ، وان المملكة المصرية ليس بها سوى عرابى الجارى منه المقاومة والمدافعة لحفظ الوطن والدين » وقد اشتهر هــذا الحكيم فى منطقته بأنه « قاموس الاخبــار » (١) ، وبذلك وضح الشعور القومى المتأصل فى الثوريين ٠

وكان عليهم دور التعبئة النفسية لقوى الشعب ونشر أخبـــار الانتصارات من اجل الوقوف أمام المعسكر المضاد حتى لاتعطى له الفرصة للعمل على الهزيمه وعدم بلبله الافكار ، فكانوا يعــدون جميع ما يورده عرابى انتصارات ويشجعوا أهالى مناطقهم «بالطواف بالطبول والبيارق فى شوارع البندر ينادون بنصرة عرابى وانه امتلك الظفر » ، ويذيعون ان الجيش فى غاية القوة وان قوانه متدربون على فنون العســكرية وامور المحاربة مثل « محمود باشا سامى وعبد العال أبو حشيش وعــلى الديب وعلى الروبى ومحمود فهمى الذى رسم خطوط الاستحكامات المتينة وان العدو لا يمكنه امتلاك الفرصة فيها ، وان دولة فرنسا عارضت دخــول المراكب الانجليزية ترعة السويس وان المسيو دليسبس أقام الحجة لدولته على ذلك وانه صار سد الترعة الاسماعيلية وترعة المحمودية لعدم وصول مياه النيل الى الاسماعيلية والاسكندرية وذلك يضعف قوة المحاربين ضد عرابى » (٢) ٠

هذا بالرغم من ان بعضا منهم قد نال الأذى من الرافضين أمــام ثوريتهم ، فبينما كان أحدهم يشتعل حماسة ويدور بالشوارع ويدعو بالنصر للثورة وقائدها « فما كان من مأمور محطة بنــدر منــوف ــ وهو شركسى ــ الا أن أخذه وأجرى ضربه ثم سجنه » (٣) ، لكن لم تنجح اليد المعارضة من وقف ذلك الحماس الثورى الذى استمر حتى النهاية بل كان من يرى منهم اشعاعا للخيانة يمضى فى القضاء عليه ، فمعاون هندســة المنيا « عندما يرى المروء من أحــد وميله للخديو أو لأعوانه كان يتهدده ويتوعده بالاضرار بل ويكتب فبه المحاضر » (٤) ٠

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧٢ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ ، ٣٢١ ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٩ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٩ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٥ ، دوسيه ٢٧ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٦٤ ٠

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ٠

أما عن البعد السياسي والاجتماعي لتلك الفئة ، فقد كثرت الاجتماعات في المنازل التي أصبحت مقرا لمنتديات سياسية ، وشارك فيها العسكريون حيث أثيرت المسائل السياسية ، وكان لرجال القانون وخاصة القضاة الدراية الوافية في ادارة المناقشات (١) ، وظهرت الارادة في اسقاط النظام القائم ونوال مصر حريتها التي حرمت منها ، فيصرح أحد الموظفين لأهل منطقته « ان زمن الاستبداد قد انتهى وان الحرب دينية ، وانه يجب على كل مسلم المساعدة للانتصار على النصارى وقطع دابرهم من القطر ، وانه بانتصار عرابي يصير رفض حكم الترك ويتولى عرابي على القطر وذلك حتى يكون الوالي من أهاليه ، وينقطع أمل الأورباويين في العودة الى مصر وانه فضلا عن اضاعة ديونهم يصير أخذ أملاكهم ويصير القطر حرا » (٢) ٠

وعرج على بعض من كبار الملاك بعد أن ظهر موقفهم العدائي للثورة وخيانتهم وانضمامهم للمعسكر المضاد ، فترفع أصوات « التنديد بسلطان باشا وعلى مبارك وغيرهم من الذوات المخلصين للخديو على انحيازهم واقامتهم باسكندرية وانه صار ضبط مبلغ من النقود في منزل على باشا مبارك تنفع للحرب ، وسلطان باشا عنده غلال تؤخذ لمؤونة العساكر » (٣) فكان ذلك تعبيرا عن داخلية الموظفين وكرههم للخيانة والطبقية ، وتجنيد كل شيء لميدان الحرب ووضع ذلك فوق كل الاعتبارات وبهذا لم يختلف موقفهم عن بقية قوى مصر ، بل نلمس الالتحام التام ؛ فالموظفون يكونون وحدة ورباط جمعت الثوار من أجل انجاح الأهداف وتأييد الخطوات المدعمة ، فدائما ما كانت الاجتماعات تضم « الحكيم البيطري والعمدة والتاجر » ٠

وقام الأطباء بتسهيل المهمات العسكرية من اعطاء شهادات وخلافه وأدى البيطريون مهمتهم وأرسلوا الاعانات من المواد الغذائية والأخبار الى المعسكرات ، وفرز الخيول والبغال المطلوبة للجهادية ، وكان للصيادلة دورهم الثوري ، فالصيدلي السكندري « محمد ماجد » ساهم بخطبه وحماسته مع جمعية الشبان للدرجة التي أقلقت عمر لطفي لانصبابها في الهجوم على الأجانب وطلب رسميا منع تلك اللقاءات ، والصيدلي « أحمد راتب » بدمياط كان من بين التهم التي وجهت له انه « مهيجا للأفكار »

---

(١) معية سنية عربي ، مجموعة رقم ٥١ ، الافادات الواردة للمعية رقم ٨٦ ص ٧٥ ٠

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٥٩ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ٠

اذ كان يعد أهالى دمياط ويشجعهم ويحثهم على المضى فى الثورة (١) .

أما المدرسون ، فقد كان لهم موقفهم وخاصة مع تلاميذهم ، فغرسوا فى قلوبهم وملأوا أذهانهم وأشبعوا أرواحهم بالثورية « مما جعل هؤلاء التلاميذ فى حالة هيجان » (٢) .

وكان الموظفون المسيطرون على المواصلات وخاصة البريد يقومون بمجهوداتهم فى هذا المجال ، فتم التعاون بينهم وبين المطبوعات ، «فكان مأمور ادارة عموم البوستة يقوم بفتح الخطابات والاطلاع عليها خاصة ما كان يأتى من الآستانة والشام وأوروبا مع كافة الجرائد ويضعهم داخل آكياس ويحجز عليهم ويختمهم ويوصلهم الى قلم المطبوعات » (٣) .

وعندما قررت قيادة الثورةفى آخر الأمر قطع المواصلات فى الميدان الشرقى لاعاقة تقدم الانجليز ، وصدرت برقية عرابى «حالا يصير رفع قدر أربعة وأربعين جوز قضيب من سكة الحديد الموصلة للزقازيق وقطع الجسر قطعا مهولا واطلاق المياه ويكون ذلك من جهة القنطرة » فيسرع المهندس علی أفندى حسن ويأخذ قطارا مخصوصا ويحرق كوبرى الشرقاوية ويهدم كوبرى طلخا (٤) ، لكن لم يتم المخطط حيث كان الوقت متأخرا .

كذلك قاموا بدور فعال فى مسألة المناداة بالتطوع للدفاع عن أرض الوطن التى دنسها الأجانب ، واعلن القضاة الجهاد واظهروا أنها حرب دينية وان «من مات بالمحاربة يموت شهيدا ، وان أفضل الأعمال بعد الايمان الجهاد فى سبيل الله » (٥) ، كذلك كان من بين المنادين بالجهاد ذلك الموظف معاون الداخلية المدعو سعد افندى زغلول « ففى اليوم الذى وقع فيه ضرب الاسكندرية كان الشيخ سعد زغلول وهو أحد أحباب محمد عبده ينادى بالجهاد الدينى » (٦) ، هذا ولم يقف دورهم على التحميس بل كان منهم من يحضر المجاهدين الى أرض المعركة (٧) .

---

(١) نفس المصدر ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٩ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٤ محفظة ١٩ ، دوسيه ١٤٤ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠١ .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٢٠ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١٣ ، دوسيه ٢٣٩/ب .

(٥) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٤١ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٣٠٥ .

(٦) نفس المصدر ، محفظة ١٩ ، دوسيه ٨٩ .

(٧) نفس المصدر ، محفظة ٧ دوسيه ٤١ .

وشمل البحث والتشجيع مسألة التبرعات . فدعوا بجمعها من أجل الجيش المدافع عن أرض الوطن (١) ، وساهموا بالاموال حيث لم يكن الموظفون يملكون الحبوب والبعال ، وامتلأت الوقائع المصرية بأسماء الأفندية المتبرعين ومنهم عدد كبير من الأقباط (٢) ، ولم تكن تقدم الأموال للجيش فحسب ولكن أيضا لمهاجري الاسكندرية ، وكان عن اشتراكهم في الجمعيات الخيرية تتم التبرعات باسمها للقوات المحاربة ولاعانة المهاجرين . وعندما قرر «خصم ٥٪ من مرتبات الموظفين وأصحاب المعاشات من جميع موظفي الحكومة لتكون بمثابة اعانة للمهاجرين النازحين الى القاهرة من الثغور وتوزيع الموظفين المهاجرين من الاسكندرية على منيلات أعمالهم بمصر » (٣) رحبوا بذلك وقدموا كل مساعداتهم لتنفيذ قرارات الثورة .

اما عن تقديم النفس للحرب والتضحية بها من أجل مصر ، فقد اشترك المصريون في هذه الرغبة ، وشملت الأعداد الكثيرة من الموظفين ، منهم الشباب مثل هؤلاء « الذين توجهوا الى حضرة قائمقام ٧ جى بيادة بالشلاق الأبيض برشيد وأظهروا لحضرته حميتهم الوطنية وغيرتهم الدينية والتمسوا من حضرته أن يؤذن لهم بتعليمهم أصول العسكرية وكيفية حمل السلاح والبعض من الفنون العسكرية فأذن لهم حضرته وعين من يكفى ليعلمهم من الصف ضباط في كل يوم ساعتين ونصف » (٤) .

وكثرت الطلبات للجهادية للرغبة فى الانخراط فى سلكها ، وقد فاضت بالحماس اذ يسجلون « ان الاسلام ومحبة الأوطان والحرص عن شرف البلاد مما يوجب علينا أن نكون عضد اخواننا بالجهادية أعز الله نصرهم نساعدهم على ما يوجب حماية حوزتنا ووقاية بلادنا من شرور الأعداء ، ولهذا فاننا جميع الموقعين على هذه العريضة مستعدون لما هو فى استطاعتنا من المساعدة ، ونحن رهناء اشارة نظارة الجهادية المنصورة نجيب دعوتها وقت ما تأمرنا معتقدين أن فى ذلك شرف لنا وان كان أقل خدمة يجب أن يتقرب بها أمثالنا الى الله جل جلاله فى هذه الأوقات جعلها

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ ، دوسيه ٣٦ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٨

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ، عدد ١٤٧١ فى ١٣ اغسطس ، عدد ١٤٧٥ فى ٢٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابية « محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٨٨ . محفظة ٢١ ، دوسيه ٢٥ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٩ فى ١٦ يوليو ، عدد ١٤٦٠ فى ١٧ يوليو ، عدد ١٤٦٣ فى ٢٣ يوليو ، عدد ١٤٦٨ فى ٥ اغسطس ١٨٨٢ .

(٤) الفسطاط ، عدد ١١ فى ٢٨ يونيو ١٨٨٢ .

الله أوقات ظفر وانتصـار آمين » (١) . وتوافدت البرقيات على عرابى بكفر الدوار من تلك الفئة فى هذا الشأن .

وكان هناك من تركوا وظائفهم من أجل الالتحاق بالعسكرية ، فقد أرسل على فهمى بأن « شاب يدعي محمد أفندى سعيد ومعه كتاب افادة من ديوان الجهادية يتضمن الأمر بادخاله فى عداد عساكر الآلاى الذين تحت أمرتنا ، وقد كان هذا الشاب مستخدما بضبطية الاسماعيلية بماهية شهرية خمسمائة قرش ولكن حبه فى خـدمة بلاده حبب اليه ترك ذلك والدخول فى عداد العسكريين وان كانت وظيفة العسكرى ثلاثين قرشا» (٢) ومن بين البرقيات التى كانت تصل الى مركز القيادة من يريد ترك خدمته الوظيفية والعمل فى ميدان الحرب ، بل وصل الأمر الى التوسل من أجل ذلك «أرجو اجابتى وعدم حرمانى من وجودى ضمن الجيش المنصور». بينما فضل البعض الآخر التوجه رأسا بنفسـه الى كفر الدوار «ليقدم نفسـه ضمن المتطوعين» (٣) .

ولم يكن الموظفون الشباب وحدهم المتمتعين بتلك الروح المعنوية العالية والساعين بمختلف الطرق للمساهمة فى الدفاع عن مصر ، فنرى الشاغلين لمناصب القضـاة يتلقون تعليمات السلاح داخـل المعسكرات ويواصلون التدريبات من أجل الاشتراك فى الحرب ، كذلك أصـحاب المعاشات من الموظفين قدموا أنفسهم وتطوعوا ، فتعددت برقياتهم لعرابى لاعلان رغبتهم ثم جمعوا أنفسهم ــ بلغوا ٤٠٠ من الفيـوم ــ وذهبـوا للمشاركة وتلقوا التدريبات « وصار طلبهم الى ديوان الجهادية لترتيبهم بالآلايات » (٤) .

وبالاضافة الى ذلك هناك المشاركة الروحية عن طريق قراءة عـدية يس والبخارى والدعاء ، فقد أرسل قاضى القليوبية الى ما يتبعه بذلك وطالب بأن «تتم القراءة بدون لحن فى المساجد والأضرحة والأماكن الطاهرة صباحا ومساء بقصد نصرة الاسلام وفك الكرب عن المسلمين » (٥) .

وحتى بعد النهاية استمر الموظفون على ثوريتهم وولائهم لها ، فعندما أسر محمود فهمى كانوا يشيدون بقوة عرابى وانه هدد (اذا مس محمود

---

(١) المفيد ، عدد ٦٦ فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤١٧ فى ٤ مايو ١٨٨٢ .

(٣) محافظ الثورة العرابيه ، محفظة ٩ ، دوسيه ٢١ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣١ ، محفظة ٧ دوسيه ٤٢ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسـيه ١٦ ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٤ .

(٥) نفس المصدر ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٥ .

فهمي ضر ، ففي نظير ذلك يصير معاقبة العائلة الخديوية الموجـــودة بمصر » وبعد دخول الانجليز القاهرة كانت المناداة باسم عرابى فمأمور بندر كفر الزيات لم يكف عن ذلك ، في الوقت الذى راح فيه موظف آخر « هداية افندى » في دمنهور « يشيع أخبـــار تنجمية مضـــادة للذات الخديوية » (*) ·

وبذلك يتبين ان المثقفين كانوا مع الثورة بكل بما يمتلكون من نفس وروح وفكر ومادة ولم يتركوا بابا الا وطرقوه من أجل انتصار الثورة ·

(*) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٧ « محفظة ٥ ، دوسيه ٦٩ ، دوسيه ٧٣ ·

الفصل الثانى عشر

ملاك الأراضى

ملاك الأراضى واستمرارية التأييد الثورى :

يميل الكثيرون فى الرأى الى انسحاب كبار الملاك من الثورة نظرا لدخولهم فيها لاهواء معينة ومصالح خاصة ، وعندما انتهت مآربهم ووجدوا أن التيار الثورى جارف خرجوا جميعا من الميدان الثورى • لكن هذا الرأى خطير للغاية لأنه لو كان ذلك حقيقة ينطبق على البعض فليس معناه أن يعمم على الكل ، فمعروف أن الأتراك الدستوريين قد تراجعوا بل وانضموا الى الجبهة المعارضة للثورة ، وقد كان من المتوقع ذلك اذ كيف يستمرون فى ثورة شعارها مصر للمصريين ، كما كان هناك بعض من كبار الملاك أمثال سلطان ومن تبعه وقفوا سدا أمام تحقيق الانتصار الثورى •

أما باقى الملاك جميعهم فقد واصلوا مسيرتهم مع الثورة وقدموا لها المعاونة والتأييد ، وكانت مصر جميعها بما فيها قوة هؤلاء الملاك تكون وحدة متكاملة لدرجة أن نينيه يذكر لنا أن « الحزب الوطنى أصبح مصر كلها » (*) • وكان ذلك طبيعيا ما عدا بؤرة المعارضين •

وأوراق الثورة الكثير منها قضايا تخص كبار الملاك المتهمين باشتراكهم الفعال مع الثورة ، كما نرى أن السجون عقب النهاية مملوءة بأصحاب الرتب العالية الذين يمتلكون آلاف الأفدنة والذين راحوا يلتمسون العفو « حتى يوالوا زروعاتهم » ، حتى ان بعض الباشوات الذين كانوا ضد الثورة منذ البداية وأحبابا لتوفيق بعد الأحداث الأخيرة والغزو الانجليزى انضموا للثورة بناء على احساسهم بخيانة حاكمهم ، فيقول يعقوب باشا

(*) Ninet : op. cit., p. 165.

صبرى « حتى ضرب الاسكندرية كنت دائما فى صف الخديو ضد عرابى ولكن الآن وبعد أن انضم الى الانجليز تغيرت الاوضاع » ، وقد اقر تفرير نمساوى بأن « الطبقات العليا فى مصر تكن كل الود لعرابى » ، بينما صرح أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى « انه من الحق والعدالة فان المتاعب السارية الآن فى مصر تحركها الطبقات العليا أكثر منها الدنيا » (١) ٠

كان من الضرورى أن يستمر التأييد للثورة ، فكبار الملاك منذ البداية يشعرون أنهم الطبقة المؤهلة لحكم مصر ، تلك التى قاست من « ظلم الأتراك ألوانا شتى وكظمت من الغيظ ألوانا شتى واستقر فى منطقة شعورها ومنطقة اللاشعور منها ، كذلك رواسب كثيرة من هذا الظلم والطغيان ، وكان لابد لهذه الرواسب النفسية من أن تؤثر فى سلوكهم وعقولهم وميولهم وطباعهم (٢) ، لذلك كان لابد من المضى من أجل تحقيق الأغراض والتخلص من العناصر التركية ، ويجب أن نضع فى الاعتبار أن للوطنية المكانة بينهم اذ كانت روحهم تفيض بالثورة ، لكن ليس معنى ذلك أن جميعهم كانوا معتنقين لمبادىء الثوره اعتناقا كاملا حيث انه فى بعض الأحيان تتعارض وتلك النظرة الطبقية لذا نجدهم فى بعض المواقف معتدلين ولا ينجرفون مع التيار الثورى القوى ٠

مضى النشاط الثورى عن طريق اشتراكهم فى تلك الجمعيات التى كانت بمثابة تنظيمات سياسية فدعموها بمادياتهم ، ومنها خرجت صيحات التحرر ، وتذكر لنا الوقائع المصرية أن جمعية مساعى الخير الدمياطية التى أسسها حسن بك المرقبى وأعضاؤها نحو من ٣٠٠ كانت تغص بالذوات (٣) وكانت بيوتهم مفتوحة لدعاة الثورة وتابعيها ففيها تعقد الاجتماعات وقد كان النديم الشعلة المتقدة لها ، وقد اعتبر كل واحد منهم نفسه رئيس الحزب الوطنى فى منطقته ، ومما لا شك فيه أن تفكيرهم قد تأثر بالمثقفين ، هذا بالاضافة الى أنه كان يبدو على الكثير منهم المؤثرات الثقافية الأوربية (٤) ، ومن هنا امتزجوا بالتيار الليبرالى المتشرب بالفكر الاقطاعى ، فهم كثيرو الحقد على الأجانب وتسلطهم وخضوع مصر لهم مما سلبهم الكثير ، فيهاجمون فى اجتماعاتهم الصحف الأجنبية وخاصة تلك التى كانت تنطق بلسان ماليت The Egyptian Gazette ودائما ما أساءت

---

(١) Broadly : How we defended Arabi and his friends p. 165. الأرشيف النمساوى محفظة ١٧ رقم ٥٩ ، ٢٦ اغسطس ١٨٨٢
Commons, Vol. CCIXII, March 13, 1882, p. 764.

(٢) د٠ عبد اللطيف حمزة : المراجع السابق ، ص ٢١ ٠

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٠٩ فى ١٥ مايو ١٨٨٢ ٠

(٤) Ninet : The Origin of the National Party in Egypt, p. 126.

للثورة والثوار ، وخرجت منهم التصريحات بأن كل أملهم ابعاد السرقة والربا « هؤلاء الخواجات هم اغنياء البلاد وأصحاب البنوك والاموال الذين جاءوا مصر حفاة لكى يسرقونا ويستغلوا فقراءنا ، وذلك الخديو الذى يقف بجوارهم ضدنا » ونادوا بالاتحاد والعروة الوثقى » (١) .

ومن المحتمل أن هذا الهجوم هو لرغبتهم فى التمتع بمزيد من الثروة والسلطان ولكن كان واضحا أن كثيرا منهم كان يحمل بين جوانبه القلب الطيب والعطف على الفقراء ، ففى اجتماع عقده أحمد بك أباظة « سرورا بأيام الشورى وزمان الحكومة القانونية » تكلم فيه النديم عن وجوب مساعدة الفلاح ومعاونته لشدة حاجته ودعا الأثرياء للأخذ بيده وبذل المجهود من أجل استخلاصه من ديونه التي أثقلت كاهله ، وذكر أن عباس الزمر أدى عن أهل بلده خمسة آلاف جنيه لمداينيهم فلم يبق واحد منهم مديونا لأجنبى(٢) وهذا يدعونا للتساؤل الى أى حد ساهمت الرأسمالية المصرية أثناء هذه الفترة لخدمة الاقتصاد المصرى ؟

كان من أهداف الثورة انتشال الاقتصاد من أيدى الأجانب ، وبدأت الخطوات لتحقيق ذلك مع بداية الثورة ، ففى أثناء انعقاد مجلس الوزراء نوقش انشاء بنك مصرى يتولى المهام الاقتصادية (٣) .

حقيقة أن كبار الملاك لم يقدموا بشجاعة على مثل ذلك المشروع ، لكن كان التفكير جديا فى انشاء ذلك البنك وجعل مقره الاسكندرية وأعلن أن من مهامه الأولى « مساعدة الفلاح ورفع فاحش الربا عنه » (٤) .

وتذكر صحيفة مصر أن مشروع بنك وطنى مصرى واستغلال الرأسمالية المصرية فيه قد عرض على عدد كثير من أمراء البلاد وأعيانها ووجهائها ، فصادف لديهم تمام القبول ، وعرضت أوجه الفائدة والنفع الذى يعود على مصر والمصريين من المشروعات المالية وذلك حتى تحرك الهمم وتشجع الاقبال عليه « أن يجمع رأس ماله من سكانه المقيمين فيه وتسلم ادارته الى تجار مشهود لهم بالخبرة والأمانة وعلو الهمة ويكون له مجلس ادارة منتخب من المساهمين مع ابقاء الغالبية فيه للموظفين وتكون محاسباته ومكاتباته باللغة العربية وتنشر موازينه لاطلاع المساهمين والجمهور عليها ويجعل مركزه فى الاسكندرية لأنها محط تجارة القطر ويكون له فروع

---

(١) Ninet : Arabi Pacha, pp. 111-113.

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٤٩ فى ٥ مارس ١٨٨٢ .

(٣) Archives d'Etat, Vienne, No. 20, 15 Janvier, 1882.

(٤) المفيد ، عدد ٢٧ فى ٢٣ يناير ١٨٨٢ ، الاسكندرية ، عدد ١٦١ فى ٢٦ فبراير ١٨٨٢ .

فى مصر والمديريات والأرياف لتسهيل المعاملة وتقريب المناولة للتجار وأهالى القطر ويكون كل فرع تحت مراقبة واحد من أعضاء مجلس ادارة البنك وفرعان فى لوندره وباريز ، وتكون أشغاله التسليف للفلاح على حاصلاته بأرباح معتدلة ، والتسليف للأعمال الصناعية أى يكون فى الجمله بنكا جامعا لفوائد البنوكة الزراعية والعقارية والتجارية والصناعية معا » وتمضى فى عرض رأسماله وأسهمه وأرباحه وما سيعود على التجارة والصناعة من فوائد ، ولم تقصره على أثرياء مصر « يكون أمن مستودع على على اموال الوطنيين سواء كانوا من الملاك أو التجار أو أصحاب الرسمايل العظيم أو من أوساط الناس وصغارهم لأن ثمن أسهمه الزهيد يجعل شراؤها مستطاعا للجميع (١) » .

وكان الهجوم على الرأسمالية الأجنبية واضحا ، تلك التى أنشأت البنوك والشركات المالية والتى أثرت على حساب مصر والتى تمتعت بالفوائد الباهظة ويمضى الحث للرأسمالية المصرية على النهوض لمجازاة الأجانب وانتشال الفلاح وذلك « بتأليف جمعيات زراعية وصناعية وشركات مالية وتجارية تعيد قوى البلاد (٢) » .

وبناء على ذلك بدأ التحرك من جانب كبار الملاك للمشاركة فى البنك المصرى الجديد لكن الاقبال كان فاترا ، واهتم عرابى بهذه المسألة ، فهو دائما يطالب بالوحدة بين كبار الملاك والعمد ومديرى المديريات من أجل انجاح مشروع البنك ، وقد رأينا أنه كلف عبد السلام المويلحى بهذا الموضوع ، وقد استبعد فكرة اشراك الشوام فيه ، ففى حديث له مع نينية يبين « ان اتجاهنا لتأسيس مؤسسة قرض زراعية مصرية بحتة بموافقة المجلس النيابى لانقاذ البلاد والفلاحين من المرابين حيث ان كل الاستثمارات مع منشة وقطاوى والكونتات ذى زغيب واخوان عايدة هؤلاء الذين التهموا مصر مع اسماعيل (٣) » ، ومن هنا كان حتى المشروعات الخاصة باستثمار الرأسمالية المصرية والتى كان يريد المشاركة فيها غير المصريين — الشوام — كانت مرفوضة ورأت الثورة تطبيق شعارها على كل برامج عملها ، وأخيرا فلم تساعد طبيعة الرأسمالية المصرية الزراعية على المضى فى هذا الاتجاه الجديد ، وكانت الفترة القصيرة التى عاشتها الثورة لم تتح لها العمل الاقتصادى الأكثر تنظيما حيث أن الأحداث لاحقتها من كل جانب .

وان لم يكن الملاك قد صبوا امكانياتهم فى المجال السابق الا أنهم

---

(١) مصر ، عدد ١٢ فى ١٥ مارس ١٨٨٢ ، الأهرام ، عدد ١٧ مارس ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) Ninet : op. cit., pp. 209, 210.

قدموها من أجل الثورة ولربما انه لو نجحت الثورة لكان كل ما اعلنت عنه في برنامجها خرج الى حيز التنفيذ بمساعدة الرأسمالية المصرية .

ومع الأحداث السياسية للثورة نرى الوقفة الموحدة من الملاك ، فعندما تقع الأزمة الوزارية وتقدم مذكرة مايو وتصل قطع الأسطولين الى المياه المصرية نرى دورهم واضحا ، فهم يرفضون هده الأوضاع ويؤيدون حكومة الثورة وقد وضح موقفهم من تلك الخطابات المؤيدة التي أرسلت لقادة الثورة من أثرياء مصر « ان الوزارة تكونت بموافقة مجلس النواب وتحت رئاسة محمود سامي حقا وزارة عادلة أخضعت الحكام للنظام ولا نريد حكم الطغاة الذين لا هم لهم الا تحطيم مصر وتحقيق الهزيمة لذا فالرغبة في العدالة تدعونا لطلب بقاء الوزارة فنحن نؤيدها بكل ما نملك » وتتابع « ان وجود الأسطول البريطاني في مياهنا معروف انه لتأييد المذكرة التي تعتبر خرقا لفرمانات السلطان وكسرا لحقوق شعب مصر وانها لتعني أننا لا نمتلك شيئا في بلادنا وقد علمنا أن الخديو قد قبلها لكننا رافضون لها فان الموت افضل لنا على أن نحيا في ظل الموافقة » كان هذا التأييد والمساندة قد توافد من على أرض مصر كلها من الاسكندرية ورشيد والفيوم والغربية والمنصورة والداخلة ورغم اختلاف التعبيرات الا أن الهدف واحد (١) .

وقد تمت مشاركتهم في صورة واضحة لرجوع عرابي الى منصبه عقب استقالة الوزارة ، وعند عودته « كان مكتبه محاطا بتلك العناصر الأساسية لسكان القاهرة » ، والتي غالبا ما تكون من الذوات ، اذ تمكن عرابي بمقدرته من جمع قوى الشعب حوله .

وكانت الاجتماعات التي يقيمونها واللقاءات التي تتم على أيديهم ظاهرة من ظواهر التعاون الكامل مع الثورة ، فعلى مستوى مديريات مصر جميعها كانت تجرى وبروح حماسية « كلما كان يحضر عرابي لجهة الزقازيق ، فكان أحمد بك أباظة يتحد معه وكان يحضر معه في العزايم بطرف أمين بك الشمسي وخلافه وعبد الله النديم يقرأ لهم الخطب المهيجة لأفكار الأهالي ويدعو لعرابي : يعيش عرابي بطول البقاء والدوام وأن يكون والى البر » (٢) ، وكانت تضم العسكريين والعلماء والتجار ، ولم يكن الأمر قاصرا على اقامة أفراد لتلك الولائم والحفلات بل كانت العائلة جميعا لا يشذ أحد منها عن التأييد « فعائلة أحمد مصطفى بك من أعيان مليج منوفية قد أكثروا منها » وامتلأت بخطب التأييد الثوري (٣) وكثيرا ما أعد

---

(١) Broadly : op. cit., pp. 173-175.

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٩ .

أعيان دمياط منازلهم لاجتماعات العسكريين » ويخطبون في الاهالي ويحثونهم على الاتحاد » (١) .

وقام الملاك عن هذا الطريق بعمل خلايا ثورية ، وكانوا دائمي النشاط والحركة ووسعوا الدوائر الثوريه وجذبوا اليهم العمد والتجار « وكان ابراهيم بك الشريعى كل كام يوم قلايل يحضر المنيا ويفضل خمسة أيام أو ستة ويحضر معه زميله محمد جلال ويتحدوا مع اسماعيل بك رأفت ونجاتي بك ويعملوا التدبيرات اللازمة سرا بينهم على ما يقصدون فعله فضلا عن أعمال جمعيات خصوصية ليلا تارة بمنزل ابراهيم بك الكائن بالمنيا وتارة بمنزل محمد عطية من تجار البندر وتارة بمنزل موسى على عمدة القفاعي وكانوا يدا واحدة ضد الحضرة الخديوية » (٢) .

كانت أولى سمات هذه النشاطات اسقاط النظام القائم والتخلص منه ، فلم يخل اجتماع لهم الا وسب فيه توفيق ، بل وكانت الصيحات تردد فيها « الخديو مخلوع » ، وأظهروه بصورة الخائن الذى باع مصر للانجليز ، وازداد هجومهم على الأسرة المالكة وكان ذلك طبيعيا بعد أن تأصل فيهم مبدأ « مصر للمصريين » فيعدون مساوئهم من أولهم لآخرهم ، ولم ينج أحد من ألسنتهم حتى محمد على وتبع ذلك ظهور حقدهم على العناصر التركية « أما أولاد الترك جميعهم نصارى ، والاسلام ظهر الآن فى أولاد العرب بوجود عرابى » ، هذا بعد أن أكدوا أن ٨٠٪ من أعيان القطر راغبين فى خلع الخديو « والباقى الذين لا يرغبون ذلك هم رعاع الناس والجهلة » .
هكذا كانت نظرتهم لمن امتنع عن تأييدهم وشعورهم تجاه المعارضين ، وترجموا قراراتهم بتوليهم مسألة تختيم الأهالى وجمع توقعاتهم ضد توفيق لانزاله من على عرشه ، وقد برز فى هذا الميدان أحمد بك أباظة وهو من أعيان الشرقية وكان عرابى يميل اليه حتى لقد عينه فيما بعد مأمور عربان الشرقية والقليوبية ، ففى محضر اتهامه « أنه متحد مع العصاة قولا وفعلا وبحضوره مع أحمد بك ناشد وأمين بك الشمسى بأى محل يجتمعون فيه يتفاوهون بذم الخديوى ومدح عرابى وهم متحدون سويا فى تختيم الناس على محاضر بخلع الخديوى » (٣) .

ومع بداية نذر الحرب كانت وقفتهم جريئة ، فمضوا فى الحث على استصلاح الطوابى والاستعداد للدفاع عن مصر ، وكانوا من بين المجتمعين

---

(١) نفس المصدر ، دوسيه ٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ .

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٤ ، دوسيه ، ١٢٥ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ ، محفظة ١٥ دوسيه ٣٢٦ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٦ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٢ .

الذين قرروا حاله الحرب ومنهم صدر قرار مقاومة المعتدين ، ففي خطاب من عرابي الى الخديو ردا على طلب الأخير بوقف الحرب يبين له « ان اعيان البلاد قرروا الدفاع عن الوطن » ، وفي كفر الدوار مقر القيادة العسكرية كانت وفود الأعيان لا تنقطع ، فيذكر أحمد شهود العيان « يجتمعون منذ الصباح وحتى المساء ويحضرون بالقطارات من جميع مديريات مصر حتى البعيدة جدا وكلهم فرح وسعادة » ، جاءوا مع بقية الوفود التي تمثل قوى الشعب المختلفة ليرفعوا من معنوية الجيش المحارب ، وليعوضوا لعرابي أمر الدفاع عن مصر ، وكانوا يأخذون حفنا من التراب في أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم في العمل ، وقد عبر مفتي القاهرة لعرابي « نحن ممثلي أكثر من خمسين ألف من الأعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الأملاك نشكرك جميعا لأنك توليت بيدك أمر الاسلام والأمة وانك في الحقيقة أكبر وطني في وادي النيل » (١) ٠

اذن كان التردد على القواد مسالة مارستها الطبقة العليا ، وأوراق الثورة تحتوي على تلك اللقاءات التي تمت على أرض المعركة ، فأحمد بك أباظة وأمين بك الشمسي كانا مرابطين يحمسان ويشجعان حركة الجهاد ، كما أن أعضاء مجلس النواب شاركوا في الأمر وعلى رأسهم « مهني أبو عمر » (٢) ، وكثرت المناقشات في الأوضاع التي تتعرض لها مصر في هذه اللقاءات التي دلت على الاتحاد التام والانتماء الكلي للثورة ٠

وقد قاموا بدورهم في محاولات المحافظة على الثورة وابعاد كل ما يسيء اليها ، فقد قدم للمحكمة شهادة من أجانب « خواجات وتجار بندر دمنهور » تتضمن المساعدات التي قدمها لهم ابراهيم الوكيل وقت الأزمة التي وقعت بين المصريين والأجانب ، كما كان للمنشاوي دور في طنطا ، فقد أنقذ ٥٠٠ من الأوربيين اليهود والمسيحيين في نفس الفترة ، ومضت محافظتهم للوقوف أمام الحركات المضادة التي هدفت ضرب الثورة ، فكانوا ينبئون المسئولين عما يقوم به البعض من التصرفات كالامتناع عن تقديم الامدادات للجيش (٣) ٠

أما عن التبرعات ودورهم فيها ، فقد وصل الى القمة ولم يبخلوا بمادياتهم على مصر ، فقدموها بنفس راضية حتى ان ما تكلفته الحرب كان

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٠ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٥ ٠
Blunt : op. cit., pp. 579, 580., Ninet : op. cit., p. 241.

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٧ دوسيه ٢٢ ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٤٠٣ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٤ ٠
Blunt : op. cit., p. 577., Ninet : op. cit., p. 216., Wallace : op. cit., p. 19.

محصلا من التبرعــــات الاختيارية ، وامتلأت المعسكرات في كفر الدوار ورشيد والتل الكبير بالغلال والخيول والفواكه والحبوب والارز والبصــل والمواشي والخيــام ، وتفيض الوقائع المصريه باســـماء المتبرعين الذوات والمتبرعين من اصحاب الرتب العاليه وأعضاء مجلس النواب ، حتى النسائه والاربطه تم التبرع بها ، والاقمشه وخاصه اليفته التى قدم منها كميات وافرة ، وقد عرضت تلك التبرعات في أوراق الثورة وخاصة البرقيات التى تشير الى تبرعات الذوات والكرام والاعيان على طول أرض مصر وكانت بكميات كبيرة ونسب عالية اذا قيست بتبرعات افراد الشعب .

وكان لكبار الملاك من المديرين ـ عثمان باشا غالب ، وأنيس باشا ، وخليل بك عفت وأحمد بك ناشد وابراهيم بك زكي ـ دور فعال في ارسال التبرعات لقيادة الجيش ، ودائما ما كانت هذه التبرعات مصحوبة بالرجاء « يلتمسون الاذن بقبولها بشئون الجهادية » (١) ، ومن هذا يتبين أنه لم تكن هناك أية ضغوط من جانب قواد الثورة بل عن طيب خاطر كانت تقدم ، وكالعادة فيقوم عرابى بالرد على هؤلاء ليقدم تشكراته على ذلك العمل الذي برهنت فيه الأمة على أنها يد واحدة . وهنا يجب أن نذكر أنه كان لأثرياء أقباط مصر مساهمتهم فى هذه العملية ، لدرجة أن أحدهم قدم « ثلاثة آلاف قنطار من حطب السنط » (٢) ، فقد عملت الثورة على جعل الارتباط متينا بين المسلمين والأقباط ، اذ كثرت تصريحـــات رجالها بأن الدين للديان والوطن للجميع والدم واحد فالأب آدم والأم حواء ، وحملت الصحافة لواء التدعيم « يعلم أهل الوطن جميعا لا فرق بين مسلمين وأقباط » ، وأشادت المفيد بوطنية أقباط مصر وأظهرت اتحادهم مع مسلميها (٣) ، وقد صرح أحد الرؤساء الروحانيين أثناء الحرب « كلنا أبناء الوطن » (٤) وبذلك تم التعاون المشترك .

أما عن الأموال فقد كثر التبرع بها ، ووضع حسن باشا الشربعي كل همته من أجـل تســليح الجيش وامداده بمتطلبــاته « ففتح رصـيدا

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٥ محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، ١٨ ، ٢٣ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢٤ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٤١ .

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ٧ ، دوسيه ٢٣ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٣٩ .

(٣) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨٣ فى ٩ سبتمبر ١٨٨٢ ، المفيد ، عدد ٦٣ فى ٦ يوليو ١٨٨٢ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١٩ ، دوسيه ١٤٠ .

كبيرا من أموال الوقف لذلك » (١) ، وفي نفس الوقت استطاع هؤلاء بحكم تقلهم المـــادى والأدبى فى المجتمع ان يولوا حث الاهالى على التبرعات ، فابراهيم الشريعى « كان يتبرع بالخيول ويحرض الناس مع بعض أشخاص اتخذوا على مساعدة الجيش واحدث توريد تعود للجيش مع الاهـــالى بدل الخيول » ، وشارك أحمد أباظة والشريعى فى تنظيم هده المسأله « وكل من تقابل معهم يخبروه بأن يتبرع بما يملكه للدفاع عن وطنه » ، وكانت أغلب أوقات الأخير مقيما فى الزقازيق مكونا قوة مع أمين الشيمى ومديرى المنطقة من أجل «تنجيز طلبات العسكرية» ، هذا وقد وجدت المعاونة والمآزرة الكاملة من الأمة « فالجميع يتسابقون بالتبرعات » ، وحتى عندما فرضت ضريبة عشرة قروش على كل فدان « على أن تحسب الأموال لمن يدفعها من ضرائب الأطيان التى تستحق عليهم فى المستقبل » (٢) لبى الجميع ذلك النداء عن طيب خاطر .

وكان للنساء الأرستقراطيات زوجات الباشوات نشاط كبير فى الميدان الحربى ، فشكلوا الجمعيات لعمل النسالات للجرحى ، وكان دورهن كبير فى التمريض فشاركن فى اسعاف جرحى المعارك ورعايتهم وقدمن من لدنهن القطن والاربطة والغيارات على طول خطوط القتال كما تبرعن بحليهن لتكون ثمنا للعتاد الحربى ، هذا بالاضافة الى تلك الأموال التى قدمنها(٣) ، اذ استحوز الغضب على الجميع وراح كل يساهم وفقا لمقدرته وهو سعيد بتلك المشاركة « وتباهت الأمة المصرية وتفاخر سكان المـــدن والأقاليم فى جميع أنحاء القطر المصرى فى جمع الاعانات اللازمة للعساكر ، وكذا الستات والهوانم والبرنسات » (٤) .

وبذلك لم يحدث فى تاريخ أمة أن غطت تكاليف حربها من أفرادها ، وحتى ايرادات الدولة التى تعتبر من حق الحالة الحربية كان يذهب بعضها للخديو ، ففى خطاب مرسل الى عرابى من لواء ٣ ، ٤ بيادة يخبره « تأكد لنا أنه صار ارسال نحو الأربعة آلاف جنيه من ايراد فنار بور ســـعيد الى توفيق باشا باسكندرية وذلك بواسطة ليمان ريس البور بما انه انكليزى ،

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، مجموعة ٢٧/٣١ ، ٢٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، ص ٢ .

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ ، دوسيه ٢٢ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ ، أحمد عرابى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .

(٣) الوطن ، عدد ٢٤٦ فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ ، Broodly : op. cit., pp. 232, 373, 502. ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٣ .

(٤) محمود فهمى : المراجع السابق ، ص ٢٢٧ .

وحيث أن الوطن أحق بهذا فنومل صدور الامر بما يوافق نحو دلت ورفع ليمان ريس الانكليزى (١) » ٠

ولم يبخل الملاك على المهاجرين السكندريين ، فقد فتحوا لهم بيوتهم واستأجروا اخرى وقدموا لهم جميع المساعدات « فنجل المرحوم راتب باشا فتح ابواب فصله لمائة وستين من المهاجرين واسكنهم مداربه وتكفل بالمأكل والمشرب » ٠ ومحمد بك السيوفي ومذكور النمرسى كل واحد اخذ ١٢٠ من المهاجرين وأنزلوهم فى محلات استاجروها لهم » ، « وعلى بك العريعى أخذ ٥٠ من المهاجرين الى المنصورة وانزلهم منازل السعه وعلى ابو سلامه بك هو وجملة وجوه البندر بانزال ما يزيد عن المائة » (٢) ٠

أما عن مسألة تطوع الملاك فى جيش مصر المحارب فلم يكن ذلك التيار قويا كبقية قوى مصر لكنه وجد ، فكانت ترد على عرابى وحتى قبل أن تعلن الحرب طلبات من « الأفاضل والأعيان للرغبة فى التطوع والدخول فى تعليمات الاسلحة » ، واشتراك أبناء الأعيان فى الحرب كمتطوعين فتعلق الوقائع عن أحد المتقدمين « قد دلنا صنيع هذا الشاب خصوصا وأنه ليس من الفقراء ولا من المحتاجين بل من الأغنياء الموثرين ، على ان نفوس الوطنيين قد زال منها ما كان مرتكزا فيها من خوف الدخول فى العسكرية والتباعد عنها ، والآن أصبح المرهوب مرغوبا والمبغوض محبوب وأقبلت أبنـاء الديار على الانتظام فى سلك العسكرية طوعا واختيارا » وتنشر خبر جاءها من القيادة العسكرية « حضر الينا حضرة أحمد بك نجل سعادة حسين باشا يكن نجل المرحوم ابراهيم باشا يكن طائعا مختارا بالديوان وكتب عريضة يلتمس بها انتظامه فى سلك المتطوعين ، فالحق بآلاى برنجى بيادة برنجى فرقـة لتمرينه على التعليمات الحربية أسوة الأنفار » (٣) ٠

واتسع نطاق هذه المسألة ، فأعيان مديرية جرجا يحضر منهم ٧٠٠ متطوع من أجل الجهاد فى سبيل الله « هـؤلاء المتطوعين من ذوى البيوت الرفيعة والأنساب الفخمية والثروة العظيمة » ، كذلك فقد وفد على مقـر القيادة أعيان من مديرية المنيا وبنى سويف وأسيوط « يصحبهم ألفـان وستمائة بطل ومعهم الشيخ محمد عبد الجـواد وأحمد عبد الجواد أتوا متطوعين ومعهم عدد الحـرب من أسلحة وذخيرة وخيام وجمال وزاد » ،

---

(١) محافظ الثورة العرابية « محفظة ٢ ، ٩ اغسطس ١٨٨٢ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٥٨ فى ١٥ يوليو ، عـدد ١٤٦٠ فى ١٧ يوليـو ، عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ ٠

(٣) محافظ الثـورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسـيه ٥٣/د/٨ ، الوقائع المصرية ، عدد ١٣٤٢ فى ٢٥ فبراير ، عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ ٠

وبذلك أصبح التطوع مقرونا بالتجهيز الحربي ، وتذكر أوراق الثورة أن أحد الأعيان « اشترك في الحرب وأحضر مدفعا تبرعا » (١) ٠

وطرق الملاك ميدان آخر للوقوف بجوار الثورة ، فقد خرجت منهم صيحات التحميس والحث على التطوع في مناطقهم ، وقد بذل البعض الجهد الكبير في جمع وتجنيد العربان ، فعندما أراد عرابي جمع خمسة عشر ألف أعرابي خيالة أوكل هده المهمة الى أحمد بك اباظه ، ومن بين الاتهامات التي وجهت للبعض منهم « كان يحث الناس على الجهاد وبالفعل أغرى كثيرا من الاهالى حتى انهم ذهبوا الى الحرب متسلحين ومعهم خيولهم » (٢) ، وبذلك أمكنهم اتمام ربط القوى الاجتماعية للمشاركة الفعلية في الثورة ٠

كما انهم ساهموا فى المحافظة على الأمن ، فقد حدث في المنصورة أن « رتب على بك القريعي والأعيان والتجار أربعة رؤساء من الضباط وجعلوا مع كل واحد منهم أربعة من العمد وجملة من العساكر وأهالى البلاد على هيئة عساكر الداورية وملاحظة الضبط ودوام المرور ليلا ونهارا » (٣) ، ولم يكن ذلك يختلف عما رآه عرابى من تكوين حرس أهلي للمحافظة على أمن البلاد ٠

ونصب البعض منهم دعاة للثورة ، فكانوا جهازها الاعلامى الناجح فمن يكتب المقالات ويرسلها للصحافة وتنشرها ومن ينظم قصائد تشجيعا للثوار وتأييدا للثورة ، ومن يردد الأقوال والأخبار عن انتصارات القوات المصرية في المعارك ، وتلك الاستعدادات الحربية الهائلة للجانب المصرى والهزائم المتكررة للقوات الانجليزية ، فقد كان أحد أعيان المنوفية يجمع الأهالى حوله ويفهمهم بأن « عساكر الانجليز هم فى أعين العساكر المصرية كالناموس » ، وكان ابراهيم الشريعى يقول « ان دولة ايتاليا ستبعث مقاتلين مجانا ، وانها ستتوسط الدول لدى السلطان بتنصيب عرابى خديويا على مصر » ، كما لم يتركوا مناسبة تمضى الا وتفيض برقيات التهانى التى يرسلونها الى القادة العسكريين بالتأييد والتشجيع (٤) ٠

---

(١) نفس المصدر ، عدد ١٤٧٥ فى ٢٧ أغسطس ، عدد ١٤٨٠ فى ٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٤٧ ، محفظة ٩ دوسيه ٦٥، ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٤ ، ١٥ ، ٢٢ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٤ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٦٦ ٠

(٣) الوقائع المصرية . عدد ١٤٦٥ فى ٢٩ يوليو ١٨٨٢ ٠

(٤) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٥ ، دوسيه ٦٩ ، ٨٥ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٧ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٣٨ ٠

وكان لهذا الالتحام أثره على مجريات الحوادث ، فقد كان من بين الهاجمين على منزل قنصل الانجليز بدمياط أحد اعيانها وبدرايه عبد العال حلمى ، اذ طغت الرغبه فى الاسقام على من اعتدى عليهم وحتى بعد الانكسار كان الرفض بالتسليم فاحتفظ البعض بالسلاح رغم طلبه منهم ، وضغطوا على الاهالى المتطوعين فى التمسك بسلاحهم ، ويضبط منهم عقب الهزيمة من ينقل الأخبار بفواد ويوصل المحاضر الموقع عليها من الأهالى ضـــد توفيق ، وقد علمنا أن منطقه عبد العال حلمى فى دمياط كانت آخر من استسلم ومن هنا كان النشاط فيها مستمرا • وبفضل مجهودهم مضت بعض القرى ترفض الاستسلام ، كما حدث فى قرية مليج التى انقسمت الى قسمين احداها رفعت الرايات البيضــــاء على الجوامع ومنزل شيخهم والقسم الآخر لم يرفع ، مطيعا لأعيانها (١) •

ومن هنا أصبح واضحا أن دورهم كان ايجابيا للغـــــاية ، وبذلك أصبحت بجميع الامة المصريه « ذوات وأعيان وتجار وعلماء روحانيين مسلمين وأقباط وغير مستخدمين ومتوظفين أصحاب رتب سامية ومديرين ووكلاء مديرين ونظار الأقلام والأقسام وساير الحكام منكبين أناء الليل وأطراف النهار يساعدون الجيش » (٢) ، ولم تكن المسألة مساعدة الجيش فقط بل تلك الثورة الجارفة والمتأججة فى الصدور والتى فرضت نفسها على كل شىء حتى النهاية •

وفى الختـــام واحقاقا للحقق يجب أن نذكر تلك الوقفة التى وقفها امراء الأسرة الحاكمـــة كشريحة لكبار ملاك الأراضى مع الثورة رغم انهـــا كانت ضدهم الا انهم أيدوها ، فمنذ بداية وقوع الأزمة بين وزارة الثورة الثانية والخديو كان موقف الأمراء ــ ابراهيم ، أحمد ، كامل ــ متعاطفا مع عرابى وطالبوا بما أقره الثوار من مواصلة الحرب وبقاء عـــرابى فى منصبه دون أى اعتبار لأوامر الخديو (٣) ، ويجب أن نسجل لهم الدور الذى قاموا به أثناء اجتماعى المجلس الوطنى واعلانهم خيانة توفيق الذى انضم لأعداء الأمة وانكارهم عليه أية سلطة يمكن له أن يمارسها •

كان الأمير ابراهيم وطنيا حقا ولم يكن يعيب على توفيق تصرفاته فقط بل كان مرارا ينتقد تصرفات اسماعيل ، فتذكر بعض شهود العيان « انه فى أحد ايام رمضان ١٢٩٩ بينما كان الأمير ابراهيم باشا وسعادة

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٩ ، ٨٥ « محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٠٢/أ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٤ ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٩ •

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٨ ، نفس المصدر •

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٣/ب

محمد عاصم باشا جالسين بدكان حسن أغا الجزمجى بخان الخليلى قـــد حضرنا نحن وجلسنا وفى هذه الأثناء تفوه الأمير المشـــار اليه بعبارة أن اسماعيل باشا الخديو السابق وكذلك أفندينا الخديو قد كانا سببا لخراب مصر بسوء ادارتهما (١)» ٠

وأثناء الحرب كانت خطاباته تصل الى عرابى فى كفر الدوار معتزا فيها بهؤلاء القادة الرجال الذين يقدمون انفسهم دفاعا عن مصر ضد الاعداء وتفيض بالتمنيات بالنصر ، وتاييدا منه للثورة كان يقوم بتلك الزيارات للقوات العسكرية « زار ديوان الجهادية ، وأعلن تأييده بما حصـــل من الضباط والعساكر وزار اسبتالية العباسية لمواساة فرساننا المجروحين ومعه الهدايا وكان يحمسهم ويشجعهم » ، حتى لقد وصل الأمر انه عقب نهاية الثورة اختبأ خادم عـــرابى « عثمان السودانى والذى له معلومات واطـــلاع على أشـــغاله السريه داخـــل سراية دولتلو البرنس ابراهيم باشا (٢)» ٠

وساهموا أيضا فى مسألة التبرعات ، فقد كانت خيولهم التى قدموها للقوات المحاربة هى من اجود أنواع السلالات ، وقدموا تلك الهبات التى لم تكن تنتهى أبدا ، وعقب التل الكبير كانوا مصممين على استمرار الدفاع عن مصر، وكان للأميرات دورهن في تأييد الثورة وقائدها فكن يطلقن عليه المدافع عن مصر بينما يذكرن ان توفيق سيخلد اسمه فى التاريخ بأنه هو الذى جلب الانجليز لمصر ، حتى والدة توفيق وزوجته لم يخفين شعورهن القوى بالانسجام تجاه عرابى ، فازدادت الهبات منهن للجيش وقدمت الخيول حتى من أم اسماعيل وساهمت الأميرة جميلة والأميرة نازلى ، ويؤكد بلنت أن طريقة اعجابهن بعرابى ظهرت فى تلك الهدايا التى قدمت له ، وفى حديث له مع الأميرة الأخيرة أبانت « انه لو كان عرابى رجلا عنيفا مثل محمد على لأخذ توفيقا مع جميع الأمراء الى القلعة وقطع رءوسهم وصـــار أميرا على البلاد (٣)» ٠

وأثناء محاكمة الثوار ، كان يصل برودلى ونابيير المحامين عن القادة الخطابات التي هى فى مصلحة عرابى من الأميرات ومعها الهدايا ، واعترفت الأميرة انجى أرملة سعيد لبرودلى « ان كل فرد منا كان مؤيدا لعرابى منذ

---

(١) تقريرات وشهادات مقدمة من كبار الموظفين ، تقرير ١ ، ص ١ ٠

(٢) Broodly. op. cit., pp. 183, 184. ، الوقائع المصرية ، عـدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ج

(٣) Ibid, pp. 373, 379, 502. ، احمد عرابى : نفس المصدر ، ص ٣٣٥ ، Blunt : op. cit., p. 394.

البداية سرا لأننا نعلم أنه ينظر الى مصلحة المصريين فقط ، وعندما رأينا توفيق يغدر بمصر بل ويخونها ويذهب للاسكندريه ليكون بجوار الانجليز كرهناه من كل قلبنا ، وكنا نرسل لعرابى الخطابات والبرقيات لنهنئه ونشجعه ونبين له أنه منقذ مصر ، وكل منا ساهمت فى النفقات بما تملك ، ونحن الأميرات كنا نحتل الخط الخلفي للقوات وكنا نخاف على عرابى من أن يقتله الانجليز ، وعندما عاد عرابى الى القاهرة سمعنا أنه أحضر معه رأس ولسلى وسيمور ولكن لم تكن هذه حقيقة وكم تأسفنا لما حدث » (١) ٠

وكان ذلك الدور الايجابى الذى قدم للثورة بعد أن حركته النوازع الوطنية ، فأصبحت مصر جبهة موحدة من أعلى طبقاتها الى عامتها باستثناء قلة خانت القضية الوطنية ٠

العمد والمشايخ :

قبل أن يعطى العمد والمشايخ للثورة كانت قد أغدقت عليهم وهيأت لهم الظروف التى مكنتهم من الافصاح عما فى داخلهم حتى مكنتهم من الانضمام لها ، وقد استطاعوا بحكم مركزهم المرموق فى الريف سواء من الناحية الادارية أو القضائية أو الدينية أن يشكلوا درعا واقيا للثورة ويؤثروا على الفلاحين لاتباع الطريق الثورى ، وبالتالى فالفلاحون كانوا يرون فيهم الممثلين الشرعيين لهم « والناس على دين آبائهم » ، هذا ويجب أن تذكر أنهم كانوا من ملاك الأراضى وكان لذلك أهمية فى النفوذ ٠

ومع بداية الثورة بدأ الاحساس يتبلور وينذر بأن عهد الاستبداد والفساد فى طريقه الى الزوال اذ كانت السجون ممتلئة بمن كان قد تجرأ وتفوه بكلمة أو صدر منه أى تصرف لم يعجب المسئولين ، فنرى أن بعض من عمد ومشايخ بالشرقية كانوا قد أودعوا فى السجن بأمر مديرها لا لشىء سوى أنهم رفعوا أصواتهم بالشكوى من تصرفاته تلك التى كانت ترمى بكل القيم عرض الحائط ، وعقب قصر النيل تقدم هؤلاء العمد — محمد أبو عبد الله عمدة الصنافين وبركات ديب عمدة القرين ، واثنا عشر شخصا من مشايخ وعمد نواحى مديرية الشرقية — بمذكرة الى الحقانية يلتمسون فيها العفو ومنع الضرر الذى لحقهم من حكم مجلس المنصورة المحلى القاضى بسجن الأول ثلاث سنوات والثانى سنتين والباقين سنة (٢) ، ويتم العفو ليكونوا من الصفوف الأولى التى شاركت بكل قواها فى الثورة ٠

---

(١) Broadly : op. cit., pp. 374-377.

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٠٣٩ فى ١٦ فبراير ١٨٨٢ ٠

وكان للشهرة التى حصل عليها عرابى أثرها فى الريف ، فلم يكن الا أبناء لأحد المشايخ ، وهو من دمهم ولحمهم ، ثم ذلك التدين العميق ، الذى كان من سمانه وسواء صح نسبه الى الامام الحسين أو لم يصح ، قد جعل له المركز الروحى الكبير وأوجد تلك العلاقة الوثيقة التى ربطت بينه وبين فلاحى مصر بما فيهم العمد والمشايخ ، كما ان احساسهم بأصالته ووطنيته زادتهم حبا وتقديرا له ، وكان للمبادىء التى أذاعتها الثورة وانتشرت على أرض مصر صداها فى القرى المصرية ، ومن هنا اعتبر عرابى بالنسبة لهم منقذهم المنتظر من مستغليهم ، فكان معنى الانضمام للثورة هو الخلاص بعينه ، وبذلك ارتفع لواء العصيان على الأوضاع الموجودة والتى قاسى منها العمد والمشايخ فى فترة ما قبل الثورة .

كان للوعى الذى انتشر على الأرض المصرية الأثر فى الموقف الثورى، فقد نزلت الصحافة الى القرى عارضة المظالم والأمراض الاجتماعية المصاب بها المصريون طارحة الحلول لها وبينت أحوال الأمم الأخرى وعقدت المقارنة وكان على رأسها صحف يعقوب بن صنوع الذى حثهم على الثورة ورفض ما يخضعون له من استبداد وظلم وقسوة ثم كتابات النديم الذى أنار لهم طرق العدالة ونقد الظروف التى يعيشونها وخاصة تحكم الأجانب فيهم وغطرسة الأتراك عليهم .

كذلك فقد كانت للجمعيات التى تعقد فى المديريات أثرها على الريف المصرى وخاصة تلك الفئة التى نحن بصددها ، فأعضاء تلك الجمعيات انتشروا فى داخل البلاد واستمالوا كبار العمد وأثرياءهم « وحتى لا يكاد بندر من بنادر القطر يخلو من عقد جمعية على نسق العهود والمواثيق » (*) وعلى أثر ذلك استوعبوا المبادىء الثورية وراحوا بدورهم يلقونها للفلاحين يساعدهم مثقفو القرى من أنصاف المتعلمين .

وبعد أن اتجهت النية فى أن يتصدر العسكريون المطالبة بحقوق الأمة عقب قصر النيل كان للعمد والمشايخ الدور الفعال من أجل ذلك ، وحتى التاسع من سبتمبر كان نشاطهم قد تزايد فاشتركوا فى تلك الاجتماعات التى كان يقيمها كبار ملاك الأراضى وعلى رأسهم سلطان ، وساهموا فى توقيع المحاضر التى دار بها النديم لتوكيل عرابى نائبا عن الأمة فى مطلبها للحياة النيابية وقد مثلت توقيعاتهم نيابتهم عن مناطقهم ، وعندما تمنع شريف من قبول الوزارة كان حوالى الألفين من العمد يقدمون له الترجيات من أجل القبول ، كما كانوا من بين من تعهد وضمن بأن يطيع الجيش أوامر الحكومة .

(*) الحاوى ، العدد الأول فى ٥ فبراير ١٨٨٢ .

وكانت ممارسة السلطة من خلال مجلس النواب الذى أوجدته الثورة قد أعطاهم الأهمية وخاصة بعد أن حصل على تلك الحقوق الأكثر حرية من سابقة ، حتى لقد قال شريف للخديو « ان رأى عمد الأهالى بالنيابة عن عمومهم » (١) ، ومن هنا برزت القوة التى ساهمت مع الثورة ٠

وتمشيا مع السياسة الثورية ، تسرد لنا الوقائع أسماء العمد والمشايخ الذين أصدرت لهم وزارة الثورة أوامر العفو وعادوا من منفاهم وخرجوا من سجونهم (٢) ، هذا بالاضافة الى احساس الأهالى بانقضاء عهد الظلم ومع العهد الجديد طلبوا الافراج عن ذويهم من هده الطبعه ، كما طلب العمد والمشايخ العفو عما أصاب ناسهم « فقد طلب شيوخ الكوم الأحمر بالمنوفية الافراج عن ابن شيخ زميل لهم مسجون فى سجن المديرية » (٣) ٠

وأنصفتهم الثورة ، فكثرت شكاياتهم لها ، حقيقة أن تلك الشكايات كانت تعرض قبيل الثورة لكنها كانت أصوات ترتفع فى الهواء ، فلايسمعها أحد ولا حتى ينظر فيها ، أما مع الثورة فكل شىء يخضع للتحقيق وتجرى العدالة بصرف النظر عن الأطراف المتنازعة ونوعيتها ، ومن هنا كان التجاؤهم الى مجلس النواب الذى هو منهم من ناحية وممثلا لهم من ناحية أخرى ، يتظلمون بشأن الاراضى التى استولت عليها الجفالك منهم ومن تكليف نواحيهم بتطهير بعض الترع بالرغم من أن اختصاص انتفاعها للجفالك التابعة للسنية ، ومن بعض المديرين بشأن اكراههم على اخراج أنفار نواحيهم للعمليات (٤) ٠

ومما هو معروف أنه بتولى الثورة الأمر أبعدت المديرين والمأمورين الذين كانوا يفسدون فى الأرض قبل الثورة وولت العناصر الجديدة التى أعطت المزيد من القوة للعمد والمشايخ ، فيذكر « روسل » مدير الدومين أن سلطة المديرين تجاه مشايخ البلد قد انعدمت ، وعندما طلب من مدير طنطا استدعاء اثنين منهم وسجنهم لتحريضهم الفلاحين على الثورة رفض (٥) ٠

ومضى العمد والمشايخ يعلنون ثورتهم ويطالبون بحقوقهم التى كان قد سلبها رجال ما قبل الثورة فعلى سبيل المثال « حنفى شنب عمدة ناحية الخانكة يشكو من معاون أول المديرية سابقا » وفى الحال يجرى التحقيق ، ويرفع أربعة مشايخ من ناحية جزيرة الحجر على ما جرى لهم على أيدى

---

(١) المحروسة ، عدد ٣٩٣ فى ٦ اكتوبر ١٨٨١ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٥٢ فى ٨ مارس ، عدد ١٣٦١ فى ١٩ مارس ١٨٨٢ ٠

(٣) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، ٢٩ ديسمبر ١٨٨١ ٠

(٤) الوقائع المصرية ، عدد ١٣٨٨ فى ٢٠ أبريل ١٨٨٢ ٠

(٥) Egypt, No. 7 (1882), Inclosure 4 in No, 51, Feb. 15, 1882, pp. 42, 43

مامور مركز منوف ، وكان حسم الأمر يتم فى الحال وخاصة مشكلات الأرض « فقد حدث لعائلة الفقى المتوظفين مشايخ بتلا منوفية وكانت قد نزعت منهم أطيانهم وأعطيت لآخرين وضعوا اليد عليها وسددوا عليها من مقابلة وسهام وكافة أقلام التحصيلات وعاد المشايخ يطالبون بها » وبالتحقيق أمكن التوصل الى « مناصفة ما كان متكلف على عائلة الفقى من الأطيان قبل نزعها » هذا فى الوقت الذى ضربت فيه حكومة الثورة اليد الظالمة انصافا للحق « اشتكى مشايخ تاجة سمانوته أنهم مسددون كامل الأموال الأميرية، وأن مأمور المالية يجبرهم على تسديد الأموال على أطيان الذوات وأنه عندما احضروا له وكلاء هذه الأطيان لم يقبل منهم » فاهتمت الداخلية بالأمر وفتح المحضر عند مدير المنوفية لانزال العقاب بالمستحق (١) .

وبذلك اعطتهم الثورة العدالة التى كانوا يفتقدونها وأصبح لهم المركز والقوة ، ولم تقف الثورة أمام ذلك بل منحتهم المزيد من السلطات وألقت عليهم مسألة التنظيم الثورى فى الريف ، فحملتهم مسئولية ضمان الأمن فى مناطقهم وخصوصا فى تلك التى انتشرت فيها وسرت روح الثورة (٢) .

وشارك العمد فى الأحداث السياسية وشكلوا عنصرا أساسيا فيها ، فعقب استقالة وزارة الثورة التالية يظهر عرابى قوتهم التى اعتمد عليها منذ البدايه واعتبرهم النواب الحقيقين عن الفلاحين فيرى أنه كان لهم دور فى اعادته لمنصبه « ان العمد تراموا بأجمعهم على أعتاب الحضرة الخديوية لتقائى ذى نظارة الداخلية حين انحلت نظارة محمود باشا سامى » وعندما أعيد الى منصب وزارته كانت الفرحة الكبرى وانهالت برقيات التهنئة اليه من عمد ومشايخ مصر كلها (٣) ، لاحساسهم بأنه فرد منهم متولى شئون بلادهم فيجب أن يبقى ويستمر ليس فقط للعسكريين بل لقوى الأمة جميعها .

واستمر نشاطهم فى المشاركة الفعلية مع الثورة وقائدها ، ومثلما أوكلوه فى المطالبة بحقوق الأمة فى التاسع من سبتمبر أعطوه النيابة عنهم فى الدفاع عن مصر وأضفوا عليه الصفة الشرعية ليتصرف وفق ما يراه صالحا لمصر خاصة بعد مذكرة مايو التى أجمعوا على رفضها ورفض من قبلها ، ووردت على القاهرة المحاضر المختومة من جميع مديريات مصر

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٣٩ ، ١١ يناير ، ١٥ يناير ١٨٨٢ ، محفظة ٤١ فى ٢١ مارس ١٨٨٢ .

(٢) Arch de maison, de Cour et d'etat, Vienne, Fasc XXXI/9, No. 37, 6 Mars, 1882, p. 2.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/أ ، دوسيه ٥٣/د/٤ .

لتؤكد تلك الحقيقة ، نحن عمد ومشايخ وأهالى مركز اشمون نقول بالأصالة عن أنفسنا وعن أهالى بلادنا أنه لما سمعنا باللائحة المتقدمة فى حق الوطن حصل لنا قلق واضطراب وضنك شديد ، فهى مجحفة بحقوق دولتنا العلية وحقوقنا الوطنية وموكلين فى ذلك أحمد عرابى للمدافعة عنا » (١)

وتلى ذلك التختيم على محاضر ضد توفيق ، فقد قاموا بذلك فى طول البلاد وعرضها « اذ أنه انضم الى أعداء الدين وسيسلم البلد للانجليز » (٢) فلابد من عزله لأنه خائن ومستبد وجاءت اختام الفلاحين بجوار أختامهم لتعبر عن تلك الرغبة القوية ، ولما كان من العمد أعضاء فى مجلس النواب ولهم كلمتهم المسموعة فكانوا يصرخون عند عودتهم الى قراهم بأن « الخديو خلع بأمر السلطان » وقد وضح موقفهم فى الاجتماع الذى أعلن فيه عرابى ضرورة عزل توفيق فكان ذلك يتفق مع هواهم ، ورأوا أن عرابى خير من يحكم عقب اسقاط عرش توفيق « فيكون خديويا على مصر لانه محام عن العرض والدين والشرف » ، بل وقد ذهب البعض منهم بالاتحاد مع بعض العلماء الأزهريين لاعلان أن عرابى من سلالة الرسول (ص) وأنه بناء على نصوص واردة سينتصر ويتولى زمام الأمور فى مصر ، هذا فى الوقت الذى كانوا يداومون فيه التردد على قادة الثورة وخاصة الزعيم (٣) ، ليثبتوا تأييدهم الثورى وليستمدوا المعلومات التى شكلت دعاية منظمة عند عودتهم الى بلادهم ٠

وبهذه الطريقة اصبح كل طريق وشارع وحارة وعطفة يزدحم بالمهللين والداعين بالنصر لعرابى والاسلام ، بينما مثل توفيق وأتباعه بالكلاب والخنازير التى كانوا يشنقونها رمزا لخيانتهم ، وكان عرابى عند تنقلاته وفى حله وترحاله محاطا بهذه الفئة وخاصة فى الزقازيق المقر الدائم للاجتماعات التى يعقدها أمين الشمسى مع عمد المنطقة وتلقى فيها الخطب الحماسية ودائما بعد القاء كل خطبة كانوا يعقبون عليها بالدعاء لعرابى ، وتبع ذلك فى قلوبهم ، وقد بلغت ثقة عرابى بهم أنه ولاهم الاشراف على شون الغلال الخاصة بالجيش أثناء الحرب ٠ (٤)

وكان المثقفون من تلك الفئة يعملون على خلق وحدة متكاملة متعاونة

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٠ ٠

(٢) نفس المصدر ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٦٧ ، ٨٤ ، محفظة ١٤ ، دوسيه ٣٠٠ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، ٣٣ ٠

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٣ ، ١٢٧ ٠

فى المنطقة تلك التى تشمل حاكم القرية وهو العمدة والمهندس وناظر المحطة والتاجر والحكيم البيطرى من أجل اشعال نار الحماس داخـل النفوس اذ تجرى فيها المناقشات والآراء المؤيدة للثورة ، بينمـا كان البعض منهم يجلس فى الديوان وتتكون حـوله الحلقـة المعتـادة ليقرأ عليهم الطائف والوقائع وما شملتهما من أخبار وانتصارات للثورة (١) ٠

أما عن فكرهم فى مجال التطبيق الثورى فقد وضح بين المشتركين منهم فى مجلس النواب أثناء ممارستهم للحياة النيابية ، كذلك فقد كانت هناك ابعاد سياسية ظهرت فى عدم رغبتهم فى الحاكم وضرورة تغييره بمن هو من دمهم « وتغيير الحكومة بقطع دابر الاتراك وغيرهم وجعلها من الفلاحين الذين هم رؤساؤها كما ان يكون منهم البعض مديرين والبعض وكلاء والبعض نظار اقسام » (٢) ، وبذلك تصبح « مصر للمصريين » حقيقة واقعة بعد أن يجلو الأجانب عنها ٠

أما الأبعاد الاجتماعية فقد ظهرت كترجمة عملية على أرض مصر كلها لكنها أخذت طابعا أكثر عنفا فى صعيد مصر حيث انهـا بؤرة الافطاعيات الكبيرة بما فيها أراضى الأسرة المالكة ، ومن هنا غمرتهم الرغبة الداخلية فى أن يصبحوا أصحاب أراض واسعة ليس فقط وانما اصحاب سلطان ، فهم مصريون وأقرب الى الفلاحين الذين سيكون من السهل رضاؤهم عنهم فطيلة ما مضى وهم يعتبرون أنفسهم ملوكهم ، فلو تم لهم ما أرادوا لعادت الأرض الى أصحابها وانتزعت من غير المصريين ، وان هذا لن يتأتى الا اذا انتصرت الثورة على يد قائدها ، ومن هنا راح بعضهم يؤكد للفلاحين ــ وهم أدوات عملهم ــ بأن النصر قريب والراحة آتية وذلك بارتداد أطيان الجفالك الى بلادها الأصلية ، وان أطيان الذوات والباشوات ستصبح للفلاحين ، رمضى هذا الترديد طوال فترة الحرب واذا تصادف ووجد من عارض تلك المبادىء كان جزاؤه « التهديد والترذيل » ٠ وكانت النتيجة « حصـــول الهيجان فى المنيا » (٣) ٠

ولم يكن الأمر اعلان مبادىء فقط بل كان هناك التطبيق ، فقد أوقف المشايخ الفلاحين الذين يعملون فى أراضى الباشـــوات وقاموا بتقسيمها وبزراعتها لحسابهم ، وحدث هذا فى أراضى حيدر باشا بالبحيرة فقد أعلنوا « أن الباشـا حـــكم بفك زمـام الجفالك وتقسيم الأطيـــان على الأهالى

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٠ ، دوسيه ١٢٧ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ ٠

والمشايخ (١) » ، كذلك كانوا وراء ما أقدم عليه الفلاحون من الأعمال الثورية في الشرقية والغربية والتي سبق ذكرها كما عمد البعض منهم الى تقسيم الأراضي التي تخص الملاك من العنصر الذكي بالقول « فيقول بعضهم للآخر : هذه القطعه لك وهذه لى ثم يلتفتون الى صاحب الأرض ويقولون له اخرج من البلاد كما جئتها : فكان أصحاب الأراضي يزدادون خوفا وحسبانا لبلاء أعظم فانقطع كثيرون منهم عن التردد الى أراضيهم ولزموا منازلهم » ، وهناك من العمد من أراد تطبيق العدالة الاجتماعية حتي على الفلاحين وذلك بأن توزع عليهم الأراضى بدون ثمن وأن ترفع الضرائب عنهم (٢) ، وكان هذا تعاطفا منهم على من غبنوهم قبل ذلك ٠

وتدور الدوائر ويطلب المشايخ محاسبة من ظلموهم وأثروا على حساب شعب مصر من أصحاب الحمايات الأوربية الذين استولوا على اراضيهم وقاموا بعمليات الاستغلال الواسعة النطاق ، فاليوم أصبحوا يطالبون بحقوقهم المسلوبة ورد أطيانهم اليهم ، وطلب العمد رد الأرباح التى استولى عليها التجار الأوربيين منهم وضرورة تسديدها والتهديد لمن يتأخر في دفعها (٣) ، ثم كانت اعتداءات المشايخ على أرض الأجانب وخاصة اليونانيين زبانية الربا « مثلما حدث مع الخواجة مانولى وقيامهم بالهجوم على غيطانه وطرد الأنفار الأجرية واطلاق سراح الأهالى والمواشى » (٤) ، وذلك بعد أن انتشر فى الريف أن الثورة ستضع حدا لجبروت الأجانب وأن الديون ستكون لها نهاية ، ومما لا شك فيه أن عرابى كان من الذكاء لتجميعه لتلك القوى حول الثورة عن هذا الطريق ٠

وعندما أراد عرابى أن يفرض ضريبة دفاع على معدل قيمة الفدان ، عهد بذلك الى المشايخ ، فقد كانوا خير من يقوم بهذا الدور ، اذ ملكهم السلطة على من اذاقوهم العذاب فمضوا « يظلمون أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ، ويأخذون في بعض البلاد اثنى عشر قرشا عن كل فدان وفى بعض آخر ١١ وفى غيرها ١٠ ، وكانوا يأتون صاحب الأرض ويطلبون منه ما يريدون بقحة وسماجة لا مزيد عليهما ، فاذا طلب اليهم أن يمهلوه ساعة أوسعوه شتما وسبا ، ثم أتوه بعد حين بواحد أو اثنين من الجند فيساقون جميعا الى المدير أو الضابط أو وكيل المدرية فينهاه عن التماهل

---

(١) بفس المصدر ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٥ ٠

(٢) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، سليم نقاش : المرجع السابق، جـ ٤ ، ص ٤٩ ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٥ ٠

(٤) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٠ ، أول مارس ١٨٨٢ ٠

في أداء المطلوب فاذا إعتذر أودع في السجن فلا يخرج منه ما لم يؤد مبالغ الضريبة امام برهن ما لديه واما باستدانه القيمة ممن تأخذه الشفقه عليه والا أخرجه الحاكم من السجن واصحبه باثنين من الجند ميرافقانه الى حيث يتحصل على القيمة فيدفعها اليهم وينصرف نافضا عنه غبار الموت وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر أو طالب المهلة : هل أتيت من بلادك بأطيان فما هذه الا أطيان القطر ونحن أبناء الوطن لا يحق لغيرنا أن ينتفع بها أتيتمونا فقراء لا تملكون ارضا ولا فلسا فصرتم الآن أصحاب أراضي وأملاك تحرموننا من خيرها مايجب أن يستخدم في رفع الأذى عن البلاد»(١) وبذلك يتضح لماذا أصبحت هذه الفئة ثورية ٠

أما عن دورهم المادى فقد كان ضروريا للثورة وللمعركة ، خاصة وقد تسلم عرابى خزينة الدولة خاوية ، فلابد من ملئها بالمشاركة بين قوى مصر ، وغيرت طبيعة الثورة من نفسيات العمد والمشايخ لدرجة أننا نجد أحد شيوخ « مصطهاى غربية » قد قام بتسديد ديون لكثير من الأهالى كانت عليهم للأوربيين (٢) ، وذلك لم نسمع عنه قبل الثورة ، وبهذه الروح ساهموا فى مسألة التبرعات فحثوا فلاحيهم على التبرع وأفهموهم واجب الوطنية والتضحية من أجل مصر « لمنع الاستبداد الحاصل » ، وبذلك أثاروا الحمية الدينية والوطنية ، وأقاموا بالاسراع فى تشهيل طلبات العسكرية، فكانت تصل على الفور للشون والمخازن (٣) ، وقدموا الكثير من التبرعات وقد كانت امكانياتهم تسمح بذلك ، وصحافة الفترة تسجل صفحاتها وتزدحم بأسماء العمد والمشايخ التى لا تحصى الذين أعطوا على أرض مصر كلها ، وجاء النشر بناء على أوامر عرابى ، وذلك حتى يعطى الاحساس للجميع بأن الحرب يساهم فيها المصريون جميعا وليعطى للمسألة نوعا من التشجيع والتحميس للمزيد ٠

وشملت التبرعات آلاف الأرادب من الحبوب والخيول والماشية والخراف والجمال والدواجن والمسلى والتبن والخضر والفواكه وازداد عليها البنادق والرصاص ، حتى الأسماك فقد تبرع بها عمدة المطرية للقوات بطابيتى الحميل والديبة بدمياط ، وامتلأت الخزائن بالأموال ويعلق نينيه على ذلك « تلك التبرعات التى كانت تأتى للمعسكرات من قمح وشعير

(١) سليم نقاش : المرجع السابق ، ص ص ١٤٨ ، ١٤٩ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٣١٠ فى ١٧ يناير ١٨٨٢ ٠

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٠ ، دوسيه ٩٣ ، ١٢٧ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٢٤ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٤٢ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٣٤ ، محفظة ٧ ، دوسيه ١٩ محفظة ١ ، دوسيه ١٧ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ ٠

وحبوب وخضر وزبدة وخيول وفاكهة وأموال من جميع عمد مصر فقد أظهروا كرما للغاية » (١) ٠

وكانت البرقيات التى تصاحب التبرعات ملؤها الابتسامة وطيب الخاطر والنفس الراضية ، وتحمل بين طياتها معانى حب الوطن واعلاء كلمة الدين وتأكيد النصر بعون الله ويرد القائد الذى أحبه شعبه بكلمات الامتنان للعمد والمشايخ « متشكرين لحضرتكم حيث أخذتكم الغيرة الاسلامية والحمية الدينية لمساعدة المجاهدين فى حفظ وصيانة الوطن (٢) » ٠

وحينما صدرت الأوامر لمديرى المديريات لجمع العمد بشأن التشهيلات من مؤن وخلافه للقوات المحاربة والاتفاق على الأثمان والكميات يجيب العمد بأنهم « رأوا موافقة توريد كافة الأصناف المطلوبة للجيش تبرعا من طرفهم هم وأهالى بلادهم » وبذلك وصلت معرفة الواجب الى أقصاها وتبلورات داخل شخصيات العمد والمشايخ ، وقد أبان عرابى فى محضر التحقيق معه « أن المساعدات والتبرعات التى كانت ترد للجيش المدافع عن البلاد مدافعة شرعية لم تكن بتهديدات بل من الناس من تبرع بنصف ماله ومنهم من تبرع بماله ابتغاء مرضاة الله (٣) » ٠

وجاء بعد ذلك التضحية بالنفس وتقديمها فى الميدان الحربى بالتطوع مع القوات المقاتلة ، فتلاحقت الطلبات من العمد والمشايخ للانخراط فى السلك العسكرى ، منها على سبيل المثال « بحسب ما تبالغ لنا من حصول الجهاد مع الانجليز والجيش المصرى واشتياقنا لاكتساب الثواب وهبنا أنفسنا نحن والخمسمائة نفر من الناحية بلدنا فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله متطوعين محامين عن الديانة الاسلامية وحفظا لأنفسنا وأموالنا نسأل الله أن ينصر الاسلام بمشيئة الله » ، وقد انتفع بنفوذ العمد والمشايخ فى اصطحاب الفلاحين لميدان المعركة ، وفى حثهم على الجهاد والحض على التطوع وذلك بالاستعداد والتدريب على حمل السلاح فى الطوابى القريبة ، فكانت النتيجة تلك الوفود المحاربة التى كانت تصل الى القيادة بخيولها وأسلحتها ، وبذات الوقت فقد وصل الأمر الى أن هددوا بأن من لم يلب نداء الوطن « يسلب موجوداته ويخرب محله » (٤) ٠

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، ٢٣ ، محفظة ٢ دوسيه ٢٥ ، ٣٤ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٥٩ ، ٨٤ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٣٩
Ninet : op. cit., p. 216.

(٢) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، ١٩ ، ٢٣ ٠

(٣) نفس المصدر ، دوسيه ١٩ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ب ٠

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ١٩ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ١٨٦ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ٠

تم ذلك امام اعلانهم لقادة الثورة وتعهدهم بمسئولية « تأدية كافة طلبات ما يلزم الجهادية » ، وكانت تقارير المديرين التى تصل مركز القيادة تؤكد ذلك النشاط المتزايد لتلك الفئة « أن العساكر واردة أفواجا وأن عمد ومشايخ المديرية باذلين الهمة بتأدية طلبات العسكرية بكل سرعة وجميعهم يهنئوا سعادتكم بالنصر (١) »٠

وشارك منهم فى التجهيزات الحربية ، فقدم عمدة المطريه أربعين سفينة لتحمل بدون أجرة ما يلزم العمال والعساكر لطابيتى الجميل والعربية ، وبعث بخمسمائة رجل من رجاله لمساعدة الشغالين بالطوابى . ويذكر محرر الوقائع عن أحمد الوكيل عمدة النخيلة بالبحيرة « أنى شاهدته غير مرة يحث عمد البلاد ويبعث فيهم الحمية على القيام بالتجهيزات الحربيه وقد لباه عدد كثير ونجا نحوه حسنين حمزة عمدة كوم حمادة » ٠ كذلك كان لهم دورهم فى اقامة استحكامات وطوابى منطقة بحيرة المنزلة (٢) ٠

واعتمد عليهم رجال الثورة فى مسألة الخفر والأمن والدفاع ، وسلمت اليهم الأسلحة من أجل ذلك ، فعندما أراد عرابى تعبئة قوى الفلاحين أعطى تنظيمهم لقيادة العمد والمشايخ للدفاع عن شواطىء بحيرة المنزلة وحمايتها اذا اعتدى عليها من جانب الانجليز فأرسل لمديرى الدقهلية والشرقية يطلب منهم استحضار العمد والمشايخ « ويأخذ عليهم التعهد القوى باستخراج أنفار بلادهم من الذين لهم المام باستعمال الأسلحة النارية ويجعلهم فى النقط المهمة من بحيرة المنزلة » ٠

وقسمت شواطىء البحيرة الى ثلاث مناطق ، وكل منطقة أنيطت بمسئولية عمدة أو شيخ يكون رئيسا على الفلاحين وخضع جميعهم لعمدة البصراط الذى كان تحت اشراف عبد العال حلمى قائد فرقة دمياط ، وأرسل اليهم ٢٠٠٠ بندقية وزعت عليهم ٠ وبذلك تولى العمد والمشايخ فى هذه المنطقة خفر السواحل والدفاع عنها ، ولوحظ نشاطهم المتزايد وترددت أسماؤهم فكان منهم محمد بن شداد عمدة ناحية الكردى دقهلية ورضوان ابراهيم عمدة ميت خضير ومحمود جلبى طوبار عمدة المنزلة وأبو المعاطى سعد عمدة العصافرة ، وعقب الحرب وجدت لديهم الأسلحة ، فقد عثر فى منزل محمود طوبار على ستين بندقية وثلاثة صناديق جبة خانة ، ووجدت طرف عمدة الكردى ومشايخ برمبال القديمة ومشايخ منية سليل بنادق

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ٥ ، ٨ ٠

(٢) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٨١ فى ٦ سبتمبر ١٨٨٢ ، عدد ١٤٧٠ فى ١٠ اغسطس ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٣٠ ٠

فشنك وكبسول وصناديق جبة خانة ، وآخرين من المشايخ والعمد وجدت لديهم الأسلحه (١) ، وبذلك وضح ان عرابى قد طرق باب تسليح الشعب، كما استخدموا في معاينة الطرق بالقنطرة ، فيخطر محافظ العريش عرابى باستخدامهم من بين المرابطين على سواحل البحر الأحمر لنهاية الحـــدود المصرية من ناحية خان يونس لحفظ الحدود والدركات (٢) ٠

أما عن الدور الروحي الذى شـارك به العمـــد والمشايخ فقد كان ملموسا ، فكثر ترددهم على المراكز الحربية للاطمئنان على الجيش وتشجيعه ورفع معنوياته ، كما كانت التنبؤات بالانتصار واظهار قوة الجيش وتفوقه تتردد على ألسنتهم ، فكانوا خير جهاز دعاية للثورة ، وكثرت الرؤيا التى ظهرت لهم والتى تشير الى « أن عرابى يحارب الخـــديو وينتصر عليه وأن أولياء الله متداركون اياه بنصرته وبأنه سيكون الحاكم على مصر » ٠ وأقاموا الصـــلوات وقرأوا القـــرآن ورددوا الأدعية من أجـــل انتصـــار القائد وقواته (٣) ٠

وعندما ظهرت خيانة سلطان وصدر أمر عرابى بأنه « حاضر ومعه مائتان عسكرى انجليزى من طريق البحر الأحمر لقصد الدخول من أحـد الدروب بالوجه القبلى » على الفور تصدى للأمر سعداوى عبد الرحيم عمدة المطاهرة بمديرية المنيا وجمع بقية العمد والمشايخ لعمل الاحتياطات اللازمة، وتوجه للجبل ومعـــه الخيالة والهجـــانة مسلحين للبحث عن ســلطان وأتبـــاعه (٤) وتمت الاستعدادات لملاقاة الأعـداء لكنهم لم يأتوا من هذا الجانب ٠

ونظرا لهذا التأييد الثورى ، فقد تعرض بعض العمد والمشايخ لضربات المعسكر المضاد الذى نجح فى جذب البعض القليل لكنه لم يستطع أن يحول المسار الثورى لتلك الفئة رغم ما وجه اليهم ، فحاربهم بعض مفتشى الجفالك وطردوهم من الأراضى ، مثلما حدث مع عمد ومشايخ « كفور نجم » حينما أمرهم جاهين بك الشركسى بقطع ما يرســـلونه للجهادية لكنهم لم يطيعوا أوامره واستمروا فى العطاء « ولما علم بذلك حرر تلغراف فى حقنا للدايرة الالهامية باخراجنا من أوطاننا بالتفتيش وأحرمنا من التعيش ووزع أطياننا

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ١٧ ، دوسيه ٣٩٥ ، محفظة ٩ ، دوسيه ٧١ ، محفظة٧ ، دوسيه ٢٠ ، ٤٠ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٣٠ ، محفظة ١٦ ، دوسيه ٣٧٦ ٠

(٢) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨٤ ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١ دوسيه ٨ ، محفظة ١٢ ، دوسيه ٢٤٤ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٢٤ ، ٣٥ ٠

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٩ ، دوسيه ٨١ ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٤٨ ٠

بمعرفته مع أنها مؤجرة لنا من مدة جدودنا لحد تاريخه » هذا ما أبلغوه الى منقذهم كما أبانوا له أن هذا المتسلط سجن أحد شيوخهم بطرفه ، وعلى الفور يحيل عرابى المسئول على مجلس عسكرى · واستمر الطريق الثورى حتى النهاية ·

وفى البحيرة تمكنوا من الاستيلاء على المنتجات من أراضى حيدر باشا وورودها للجيش رغما عن أنف مفتش الزراعة(١) ، ومضت المقاومة السلبية الحافدين والرافضين حتى بعد دخول الانجليز كانت الأصوات تردد بأنه لا يمكن ان يكون عرابى قد هزم ·

البـــدو :

عندما رأى مجلس النواب أن البدو أصبحوا يكونون طبقة من الملاك الزراعيين شأنهم فى ذلك شأن الفلاحين الملاك لذا يجب أن يعاملوا بالمثل فكان معنى ذلك سحب تلك الامتيازات التى تمتعوا بها طوال الفترة السابقة، وهنا ظهر تمردهم ورفضهم لذلك ، وفى ١٨ أبريل ١٨٨٢ عقد مشايخ البدو للشرقية والغربية والبحيرة والفيوم والوجه القبلى اجتماعا كبيرا فى طنطا وقرروا فيه أنهم لن يسمحوا بتدخل مجلس النواب فى شئونهم وأنهم متمسكون بتلك الامتيازات التى منحهم اياها محمد على ، وقدموا مذكرة لممثلى انجلترا وفرنسا فى مصر وللباب العالى بنفس المعنى (٢) ·

وأحست الثورة بما فى الموقف من خطورة عليها ، فأرسلت حكومتها ألفين من الجنود نصفهم الى الزقازيق والآخر الى البحيرة للقضاء على تلك الحركة المناوئة ، ولحماية مصر من تجمع مثل هؤلاء الذين تصفهم التيمز بقولها « المفترسين الرحل الذين يعيشون على السلب والنهب ويصل عددهم الى عشرة آلاف مقاتل مسلحين ويكمدون العداء الشديد لما يسمونها حكومة الفلاحين » (٣) ·

رأت حكومة الثورة أنه من الأفضل لها ــ خصوصا وهى تمر بظروف صعبة فى هذه الفترة ــ أن تصفى الموضوع وأن تهادن البدو ودعت مشايخهم أصحاب النفوذ الى القاهرة ، وتمت المصالحة وأقرت الحكومة امتيازاتهم

---

(١) نفس المصدر ، محفظة ٥ ، دوسيه ٦٧ ، محفظة ٧ ، دوسيه ٣٥ ·

(٢) Egypt, No. 7 (1882), No. 122, April 15, 25, 1882, p. 98.

(٣) The Times April, 22, 1882.

« أن يعاقوا من القرعة العسكرية ومن أشغال العونة وأن سكان العزب والكفور والبلاد من العربان يدفعون بدلية للعونة » (١) ·

ومن هنا بدأ طريق التعاون والصداقة مع الثورة والنقمة على التدخل الأجنبى ، فيسارع شيوخ البدو بتأييد عرابى ويطالبون بعودته عقب استقالة الوزارة ورفض مذكرة مايو المشتركة ، وعندما حضر درويش ورأى استمالتهم لم يوافقه الكثير منهم « وعقد جلسة مع المجلس الأكبر للعربان وحين وجد ان عددا كبيرا من أعضاء المجلس يقفون ضده أخبرهم بأنه قد يسولى وزارة الحربية » (٢) معنى هذا أنهم كانوا مصرين على التمسك بعرابى ·

رأى قادة الثورة وعلى رأسهم عرابى امكانية الاستفادة والاستعانة بهم عقب قيام الحرب حيث كان من الضرورى تعبئة أكبر قوة حربية ممكنة للوقوف أمام الانجليز ـ رغم معرفة طبيعتهم ـ فصدرت الأوامر للمديريات وخاصة عندما ارتبكت الأمور واحتل الانجليز القناة بالتنبيه على كافة العربان الذين فى امكانهم استعمال السلاح بأن يتوجهوا للخط الشرقى ، كما عين لهم مأمور لنفس الغرض · وكان من الضرورى تحصين شواطىء البحر الأحمر وحراستها ، فيرسل مدير قنا الى عرابى ليبلغه « بحضورنا القصير حسب أمر الجهادية صار ترتيب الغفر اللازم من عربان العبابدة والعزايزة على ثمان وأربعين نقطة مهمة منها ثلاثين نقطة على ساحل البحر الأحمر من سفاجة لحد برنس والباقى فى دروب الطوف من نقط البحر لحد اللقيطة ، ومقدار الغفر الذى جرى ترتيبه ألف وخمسمائة نفر من الهجن وأخذت التعهدات اللازمة على مشايخهم حسب اللزوم » ·

وقد أيد المجلس العرفى هذا الموقف وساعد عليه وقدم التسهيلات اذ خصص قطارا لنقل عرب السعداوى والحبالى وعبد القوى والحرابى بالفيوم لانتظامهم فى سلك الجنود المحاربين وصرف السلاح لهم ، ويقدم عمد عربان فوايد قبلى ومشايخ عربان الرماح بالمنيا التعهدات لاحضار « الأنفار للمقاومة ضد العدو والمدافعة عن الوطن » (٣) ·

وجاءت الطلبات للرغبة فى الالتحاق بالقوات العسكرية من جميع

---

(١) محفوظات الداخلية ، محفظة ٤٢ ، جماد الثانى ١٢٩٩ (١٨٨٢) ·
Egypt, op. cit., May 18, 1882, p. 140.

(٢) Br adly : cp .cit., p. 175. د· أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ، ص ٢٢٣

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/د/٣ ، محفظة ٢ » دوسيه ٣٣ ، محفظة ٢١ ، دوسيه ٥ ، محفظة ١ ، دوسيه ٦ ، ١٤ ·

مناطق البدو وتذخر بها بعض محافظ الثورة من بينهم شيخ عربان الكريمات وطحاوى بالواسطه وقبائل اولاد على والنجمه والبراعصه والفرجان والمعارة ، وكانوا متحمسين وهم فى طريقهم الى المعسكرات فيذكر مراسل الوقائع فى كوم حمادة « شاهدت كثيرا من العربان يمرون بقطار الوابور الى مركز الجيش وهم فى غاية الفرح والسرور ويدقون الطبول ويغنون » (١) .

حقيقة لقد كان منهم الصادقون ، فيذكر نينيه انه اجتمع بشيوخهم المترددين على المعسكرات كبقية وفود قوى مصر التى كانت تتلاقى فيها ودار بينهم الحديث « فقالوا له : نحن نؤيد عرابى لا لأنه فلاح فاننا لانحب هذا الجنس ، لكن بسبب أن الخديو الصغير العاقد لعقله قد اتحد مع الانجليز كما فعل باى تونس مع الفرنسيين » (٢) .

أما عن لقاءاتهم الحربية مع الانجليز على أرض المعركة فقد كانت لهم الكفاءة ، فيظهرون كمجموعات « ليوفوا الضربات » ، وكانت البلاغات تصل مقر القيادة لنعطى لهم النصر « فقد قاموا وتلاقوا مع العدو وأطلقت النيران حتى أبعدوه عن نقطة المقدمة بعد أن قتلوا منهم نحو المائة واغتنموا خمسة وأربعين تور وخمسمائة متر من سلك التروبيدو » (٣) .

وقد نشر ذلك وزيد عليه فى الطائف التى كان قادة الثورة يوزعونها عليهم حتى يرفعوا من روحهم المعنوية ويشجعوهم على المزيد من العمل ، ففى برقية من طلبة عصمت يستعجل ارسال أعداد منها « حيث أن النسخ لم تعد تكفى بعد أن تم توزيعها على قبائل العربان الموجودين بالطرق ونقط أبو قير ومريوط » (٤) .

وفى الميدان الشرقى نرى البعض منهم يقف أمام تقدم الانجليز لدرجة أنهم لم يستطيعوا التفرقة بين الانجليزى وغيره من الأجانب ، ففى أثناء مرور بحار أحد رعايا النمسا والمجر بقاربه فى منطقة طوسون جنوب بحيرة التمساح « أطلق عليه النيران من البدو المتحصنين وراء الشاطىء فأصابوه » (٥) .

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ١٤٧٠ فى ١٠ اغسطس ١٨٨٢ .

(٢) Ninet : op. cit., p. 218.

(٣) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ٢٢ ، دوسيه ٢٢ .

(٤) نفس المصدر ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٧٦/ب .

(٥) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٥ ، مجموعة ٢٨/٣١ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ اكتوبر ١٨٨٢ .

وكان لبدو سيناء دور فعال أثناء الحرب ، وقفوا فيه مع الثورة ،ففي المنطقة بين القنطرة والعريش وعندما ذهب أحد تجار الاسماعيليه لمشرى جمال « فبوصوله لجهة العربان ناحية قطية أشيع هناك أن المذكور يشترى جمالا للانجليز ، فلذلك قصد العربان الفتك به فاحتمى باسطى التلغراف بالجهة المذكورة » ، وبذات الوقت راحوا يهجمون على امــدادات الجيش الانجليزى ، فقد وردت افادة من مأمور القنطرة « أن عربان السماعنـــة والعقايله هجمت على جمال كانت محضرة للقنطرة على ذمة الجيش الانجليزى» هذا بالاضافة الى أنه لم يكن يخرج من تحت أيديهم من يشعرون أنه يحيك الدسائس « فأثناء مرور ثلاثة شوام ما بين القنطرة وبور سعيد حضرت بعض العربان وضربت عليهم الرصـــاص » . ومما لا شك فيه ان ثورية محافظ العريش كان لها الأثر فى المنطقة ، فيذكر سلطان « أن محافظ العريش هو الذى يحث ويسلط هذه العربان على هذه الأفعال » (١) .

أدرك الانجليز عقب استيلائهم على بعض مدن القناة أنه لابد من استغلال مبدئهم « قسم تحكم » وذلك لوضع نهاية للثورة ، فيقول تقرير نمساوى « انه لم يكن هناك بادرة أمل أمام الانجليز فى حـــروبهم البرية مع الوسائل العسكرية التى تضغط عليهم وما يبديه العرب (المصريين) من نشاط ومهارة فى ميادينهم وهجماتهم العديدة وتنظيمها بما لا يمكن معه أن يتنبأ الانسان بانهيارهم أو تخاذلهم » . ويمضى التقرير ليبين ما بذله الانجلبز من محاولات الرشوة وخاصة مع بدو سيناء لتأمين جانب المفاجأة التى ممكن أن تأتيهم من الشاطىء الآسيوى لقناة السويس عن طرق الأوربيين المتوطنين وذلك بحجة شراء الجمال منهم ، وكانت النتيجة فشلا ذريعـــا وهجم البدو على الضياع والبيــوت التى أشيع عن أصحابها بصــداقتهم للانجليز ، فنهبوها ودمروها من أساسها ، وكذلك فعلوا بالمبانى وبالنخيل الذى امتد حولها (٢) .

وعاد الانجليز مرة أخرى لاجراء محاولات عقد الصداقة مع البدو ، ووضعت الخطة فى لندن لمحالفتهم ، واختير «بالمر» ــ مستشرق وله معرفة باللغة العربية ــ ليجىء بخطة مرسومة ومعه أربعين ألفا من الجنيهـــات الاسترلينية لشراء خمسين ألف بدوى ، كما أنيطت له مهمة أخرى يذكرها « أن أقلع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تنقطع المواصــلات بين عرابى وتركيا » (٣) .

---

(١) محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ ، محفظة ٤١ ، دوسيه ٢ .

(٢) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ .

(٣) Ninet : op. cit., p. 144, Blunt : op. cit., p. 405.

صاحب « بالمر » فى تلك المهمة « قبطان جيل والملازم شارنجتون » وكان توفيق على دراية بذلك اذ أصدر أوامره الى محافظ الاسماعيلية ومشايخ البدو بتسهيل مهمة البعثة ومساعدتها وتقديم الاحترام لهـا « وان القصد هو التفرج » (١) ٠

وخرج الجواسيس الثلاثة مع خادم ومترجم وأعلنوا أن الرغبة « شراء الجمال » وأوغلوا داخل سيناء حتى وصلوا الى قلعة « نخل » وهناك أمرنا ناظرها ـ وهو عربى ملثات ـ بالقبض عليهم وخيرهم الموت ذبحـا أو القفز من أعلى قمة جبل التيه الى السفح ، فاختار « بالمر وجيل » الحل الأخير بينما ترك الباقون أنفسهم يذبحون ، وعثر على جثث الأولين مهشمة عند سفح الجبل ٠

وأرسل الانجليز بعثه مؤلفة من خمسين بحارا التحق بها ياوران الخديو والقنصل الانجليزى واليونانى للبحث عن المفقودين والمذنبين ،وتم القبض على سنة عشر شخصا من البدو ، وعين كولونيل « ورن » الانجليزى للتحقيق معهم ، وتم سجنهم « ووجد مع ناظر القلعة زوج طبنجات وسيف من متعلقات الميرى » وثبت أن له علاقة بمحافظ العريش (٢) ٠

وفشلت الخطة الانجليزية فى تلك المنطقة اذ كان موقف البدو فيها مؤيدا للثورة ولم تكن تلك الاجراءات التى قاموا بها مع البعثة الانجليزية للاستحواذ على الأموال لأنهم كانوا من الممكن الحصول عليها بخيانة الثورة كما حدث مع بعض البدو داخل ميدان المعركة ٠

هذا وقد سجل بعض منهم المواقف الطيبة ، فانه حتى بعد الانكسار كان منهم من رفض الاستسلام مع بقية العسكريين الذين امتنعوا عن التسليم بالمنوفية مثل « حسن مطاريد البدوى من عربان البراعمة » (٣)

أضف الى ذلك تلك التبرعات والهدايا التى قدموها للجيش المحارب فكان على قائمة المتبرعين «مشايخ قبائل البراعمة والجهمة والحرابى والعمايم

(١) محافظ الثورة العرابية ، نفس المصدر ، دوسيه ٣ ٠

(٢) الأرشيف التمساوى ، محفظة ١٥ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، رقم ١٩١ ، ٢٩ اكتوبر ١٨٨٢ ٠ محفظة ١٧ ، رقم ١٧٦ ، ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ ، محافظ الثورة العرابية ، محفظة ١١ ، دوسيه ١٦٧ ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ١٦ ، دوسيه ١/٣٧٥ ٠

وترحونة والفوائد » فأعطوا الخيل والأغنام والفاكهة والأسلحة ، تلك التى كانت تنقل تباعا الى كفر الدوار (*) ٠

وفى النهاية ، كان هناك الكثير من البدو الذين قدموا للمحاكمة وحوكموا ، فكان لهذا الدليل على مشاركتهم الفعالة فى الثورة ، ويشاء القدر أن يكون أيضا من البدو من أسهم فى اجهاض الثورة ٠

(*) نفس المصدر ، محفظة ١ ، دوسيه ١٥ ، محفظة ٢ ، دوسيه ٢١ ، محفظة ١٥ ، دوسيه ٣٦٨ ٠

الخاتمة

تحطمت الثورة على يد أعداء مصر ، وامتــلأت ســجون القاهرة والاسكندرية ومراكز الأقاليم ، بقوى مصر جميعهــا من أصحاب الرتب الرفيعة والوزراء والأعيان والعلماء والقضاة والعمد والمشايخ ومشايخ البدو والصحفيين والمديرين والتجار والضباط وغيرهم ·

هـذا بينما تمكن من اللجوء للخارج حسن موسى العقاد وسليمان داوود لكن أمكن استرجاعهمـا من كريت ، واختفى النديم مع خادمه ولم يعثر عليه رغم أن البحث عنه كان بكل دقة وعناية ، وقد كان على الأرض المصرية يتنقل بين بنها وميت غمر والمنصورة وميت الغرقى والعنــوة القبلية البحيرة والكوم الطويل والمحلة الكبرى وأخيرا استقر فى الجميزة حتى قبض عليه ، وقد تستر عليه أهل مصر طيلة فترة اختفائه وتمكنت اليد القوية من القبض على باقى المشتركين فى الثورة ، وحتى من كان يفقد الأمل فى العثور عليه كان بسجن أقاربه بدلا منه ·

كانت السجون قبورا لهم ، واتسعت دائرة الانتقام ، فنرى توفيق يرسل « أعوانه وحواشيه ومماليكه الجراكسـة بهددون المحبوســين ويزعجونهم ويسلبون ما عندهم من المصاحف والنقود ، ويدخلون عــلى عرابى وعبد العال فى أود الحبس ويضربونهم » ، ويؤكد بلنت : « أن أغوات الخديو كانوا يزورون المتهمين فى السجن ويضربونهم ضربــا مبرحا » ، ويذكر عرابى فى محضر التحقيق الاهانة التى لحقته « ودخـل على الأودة أغوات من القواصة الترك ثم تقدم أحدهم بصورة هائلة مزعجة ، وقال لى قم فقمت فقلت له ماذا تريد فقال أريد أفتشك » ويمضى فى وصف السب واللعنات التى نزلت عليهم « وسمروا النوافذ ومنعوا عنا السراج

ليلا » ، هذا في الوقت الذى فاست فيه عائلاتهم فلم تصرف لهم مرتبـات مما اضطرهم « لبيع أدوات منازلهم » (١) ٠

كان لرياض اليد الطولى في هذا العذاب ، فالحقد يملأ قلبه ويسيطر عليه اذ كان يقول « ان المصريين ثعابين والطريقة الوحيدة لمنع تفشي الثعابين هو سحقها بالأقدام ، وسأسحق أنا المصريين » (٢) . وهـذا ما فعله فانه لم ينس أبدا ان الثورة أطاحت به من فوق عرشه ٠

وتشكلت لجـان التحقيق بالقاهرة والاسـكندرية وطنطا « للتحقيق واقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان أو التعدى على السلطة الخديوية او الاهانة لذات الخديوية » ، كذلك كونت محكمة عســكرية بالقاهرة وأخرى بالاسكندرية ٠

كان هناك اتجاهان الأول مثله انجلترا والثاني الخديو وأعوانه ، أما عن الأول فبعد أن حققت انجلترا هدفها ـ الذى سعت اليه منذ سنوات وسنوات ـ واستقرت على الأرض المصريه ادارت الأمور وفقا للسياســه الانجليزية ، فنراها توافق على تسليم أسرى الحرب المصريين الى الخديو وهى تعلم نيانه لذا فتشترط « ألا يعدم أحد الا بموافقة السلطـــات البريطانية » (٣) ، وجاءت التعليمات من لندن باعطـاء قادة الثورة الحرية لاختيار محامين عنهم وبأن تكون المحاكمة علنية ، وأقـــام بلنت محامين للثوار وحضر من لندن للدفع ، وذلك بعد أن أوضح الجلادستون ان هذا الدفاع سيكون على حسابه الخاص ، هذا وقد اكتتب بعض الانجليز بمبالغ من أجل الدفاع ٠

أما الاتجاه الثاني ، فقد أراد الخديو تقديم الثوار لمحاكمة عسكرية انجليزية لكن انجلترا رفضت ، وعارض شريف في وجود محامين عنهـم فقال « ان الشريعة المعمول بها في بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيـــار من يدافع عنهم ولا اجراء التحقيق معهم علانية » ، أما رياض فكاد يـــردد « ما جدوى محاكمتهم اذا كنا نعرف جميعا أنهم مذنبون » (٤) ٠

وبطبيعة الحال لابد من انتصار الاتجاه الأول ، وتولى الدفاع عن الثوار محامون انجليز « برودلى ، نابيير ، ايدى » ، وأراد رياض أن يضع

---

(١) Blunt : op. cit., p. 447. محافظ الثورة العرابية ، محفظه ٨ ، دوسيه ١/٥٣ دوسيه ٤٨ ، أحمد عرابي : نفس المصدر ، ص ٤١٠ ٠

(٢) Blunt : op. cit., p. 459.

(٣) Egypt No. 18 (1882), No. 73, F.O., August 28, 1882.

(٤) فارمان : المرجع السابق ، ص ٢١٧ ٠

العراقيل أمامهم فرفض ان يســمح لهم بالأقراب واللقاء مع الثوار برغم ان هذا مناف للقانون المصرى وكان يعارض وبشــدة اتصال أى أحــد بالمسجونين ، لكن كان من السهل الوقوف أمام تصرفاته ولما كانت المحاكمة علنية ، فقد ظهر فيها لقاء الشعب مع قادته حتى بعد الهــزيمة ، فيذكر تقرير نمساوى « أقبل الكثيرون فى الاندفاع على طلب بطاقات الحضــور بين الجمهور » (١) ، وامتلأت قاعة المحكمة بالحاضرين حتى النساء المحجبات لن من بين الصفوف ، وكان الشارع الذى يقع فيه المحكمة مكتظا بالناس ، كذلك احتشد الطريق المؤدى الى السجن بالذين يبكون ويصيحون « من أجل عرابى » (٢) .

وضعت المحكمة العسكرية أمامها القانون العسكرى العثمانى وحكمت على سليمان داوود بالاعدام بناء على تهمته فى حرق ونهب الاســكندرية وذلك فى ميدان القنصليات بها بعد أن رفض توفيق طلب العفو عنه الذى التمسه الدفاع ، كذلك نفذ الاعدام فى يوسف أبو ديه بتهمته أنه المسبب فى حادثة طنطا ، هذا بخلاف أشخاص غير عسكريين تعرضوا لنفس المصير بسبب اشتراكهم فى حوادث الاسكندرية .

وجاء الحــكم على باقى الثوريين ، واشتدت المعارضة فى البرلمان الانجليزى وكثف حزب الاحرار نشاطه فى انقاذ عرابى من الاعدام الذى حكم به عليه وخفف بقرار من توفيق الى النفى المؤبد ، وطبق ذلك عـــلى غير ارادة توفيق اذ كان يصر بقوة مع شريف ورياض بضرورة تطبيـــق العقوبة القصوى على « زعماء المجرمين » ، ويرفض أى بديل لحكم الاعــدام لكن وجه انذار انجليزى الى الحكومة المصرية فتغير الموقف ورضخ المعارضون ما عدا رياض الذى قدم استقالته ، احتجاجا على تخفيف الحكم، حيث اعتبر أنه طالما بقى القادة على الحياة فستعيش معهم القصة القومية وقد تؤاتيها لحظة تظهر فيها من جديد بشكل مضاعف .

وفى الواقع ان الحكومة الانجليزية كانت تضع أمامها عدة اعتبارات فى هذه المسألة ، فمنذ البداية كان جلادستون يرى مع جرانفيل الســعى لاعدام عرابى بمعرفة الخديوى (٣) ، لكن مصير عرابى قرره الرأى العام فى انجلترا الذى كان يميل الى اعطائه محاكمة عادلة اذ أقر أن ما فعله لم يكن الا أول نهضة للحرية فى الشرق ، كما كانت صحافة الاحرار تصف

---

(١) الأرشيف النمساوى ، محفظة ١٦ ، المجموعة ٢٨/٣١ ، رقم ٧٠ ، ٤ نوفمبر ١٨٨٢ ، محفظة ١٥ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ اكتوبر ١٨٨٢ ، رقم ١٨٩ فى ٢٣ اكتوبر ١٨٨٢ .

(٢) Broadly : op. cit., pp .122, 133, 340.

(٣) Blunt · op. cit., u. 450.

عرابي بصورة أنه مكافح ومن أبطال الحرية » وهذا ما جعل الحكومة الانجليزيه تعمل له حسابا على غير ارادتها » ، هذا بالاضافة الى أن التقارير الواردة من الهند كانت تشير بذلك التفاعل الاسلامى العام تجاه المحاكمة مما يوجب وضعه في الاعتبار وعدم اغفاله (١) ، وامام ذلك كله كان لابد من تخفيف المحاكمة والحد من الانتقام الكلي ٠

وصدر حكم النفى المؤبد الى سيلان ورحل قواد الثورة السبعة ، وأوصلهم للسويس « ضابطان وثلاثين من عساكر الانجليز » (٢) ٠

ووقع النفي والتشريد والفصل من الوظائف ورقابة البوليس وتحديد الاقامة على النوريين جميعهم وفق مشاركتهم فى الثورة دون تفرقة بين قوى وأخرى ، وجرد العسكريون من الرتب والشرف والاوسمة وحجج الأملاك والأطيان الخاصة بهم ، وبيعت الاراضى التى تمتلكها زوجات الثوار وحتى أملاك الارث حجزت وصودرت ، ولم تراع نصوص الحرمان، فصار نزع حتى « أملاك الوقف الموقوفة » ، وحتى الكتب التى وجدت عندهم صودرت وأعلن عن بيعها (٣) ٠

وأعتقد أنه بتلك الاجراءات التى اتخذت قد تم استئصال جميع الاتجاهات الثوريه لكن مضى الكفاح من أجل الانتقام ممن تسببوا فيما حاق بمصر وقادتها وتكونت جمعية لأجل هذا الغرض « جمعية الانتقام » وكان شعارها « تحرير الوطن ، المدنية ، التقدم » وشهر كل عضو فيها سلاحه ومضت في اصدار التهديدات سواء لتوفيق أو للباشوات أتباعه وعلى رأسهم شريف ونذكر من أعضائها محمد فني، وله تاريخه فى العمل الثورى وحسين صقر الكاتب بالداخلية وسعد زغلول ومحمد توفيق ـ طالب الطب ـ ووكيل دائرة البارودى ومحمد بك طاهر وعبد الرحمن بك فوزى وعبد الرازق بك ومصطفى بك صدقى والشيخ أحمد نور وكان رئيسها « محمد سعيد وهو مغربى الاصل » لكن تم القبض عليهم ونفي بعض منهم وعثر فى منازلهم على أسلحة وأوراق تدين النظام القائم (٤) ، وأجهز على تلك الحركة ، واعتقد أعداء مصر أنهم قضوا على الثورة لكنها

---

(١) الأرسف السمساوى ، محفظة ١٤ ، رقم ١٢ ج ، لندن ٢٣ فبراير ١٨٨٣ ، محفظة ١٥ ، رقم ١٨٥ ، ١٥ اكتوبر ١٨٨٢ ٠

(٢) محافظ الثوره العرابية ، محفظة ٨ ، دوسيه ٥٣/ج ٠

(٣) نفس المصدر ، محفظة ٢٤ ، دوسيه ١ ، محفظة ٢٦ ، دوسيه ٣٥ ، محفظة ٢٧ ، دوسيه ٤٦ ، محفظة ٢٨ ، دوسيه ٥٨ ، محفظة ٣ ، دوسيه ٨٣ ، محفظة ٣٣ ، دوسيه ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ٠

(٤) نفس المصدر ، محفظة ٢٣ ، دوسيه ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، محفظة ٤٠ ؛ دوسيه ١٩٢ ٠

بقيت كامنة في النفوس حتى تفجرت مرة أخرى على يد سعد زغلول أحد المشتركين فى الثورة العرابية .

ولم تكن ثورة « مشئومة » كما يصفها الزعيم محمد فريد ، ومن تبعه بل هى ثورة اعترف بها من قامت ضدهم من غلاة المستعمرين ، فيسجل اورد جرانفيل فى خطاب له مؤرخ فى ٣ يناير ١٨٨٣ الى الدول الأوربية الكبرى بشأن قناة السويس « ان الثورة المصرية قد ظفرت بنجاح » ، ولو أنه يصفه بأنه قصير المدى لكنه اعتراف بنجاح الثورة ، ثم يأتى اللورد كرومر ليقر ويعترف فى تقريره لعام ١٩٠٤ أى بعد مرور اثنين وعشرين عاما على تحطيم الثورة وحين هدأت الأوضاع ووضحت الحقائق فيقول : « حدثت ثورة عظيمة فى القطر المصرى عام ١٨٨٢ وانما قلت ثورة عن عمد وقصد ، فقد كان الظن الغالب على كثير من الأذهان فى ذلك الزمان أن الحركة العرابية كانت فتنة عسكرية لا غير وذلك خطأ مبين لأنها كانت فى جوهرها ثورة صحيحة على العسف وسوء الحكم كالثورات التى حدثت فى البلدان الأخرى ، وهى تستنكر وتذم أو تجوز وتمدح حسب أدلة الذم والمدح التى تقام عادة على الذين يحاولون تغيير نظام الأحكام فى بلادهم تغييرا جوهريا بوسائط العنف والاكراه » .

والواقع أنه كان من الأمور المستغربة أن تسمى فتنة عسكرية أو تمرد عسكرى وهى الثورة التى اشتركت فيها قوى شعب مصر جميعها من أعلى الطبقات الى عامتها قدمت من أجلها كل شيء للتخلص من كابوس التدخل الأجنبى والشفاء من حمى السياسة الأوربية والنجاة من شرك المطامع الاستعمارية بل وأيضا من سيطرة الأتراك الاستبدادية والخديوية الأوتقراطية ، اذن فهى ثورة وطنية أصيلة ، وفى خطاب لعرابى وهى بسجن الدائرة السنية الى مستر شينرى مدير التيمز بلندن يذكر له ما جاء فى العدد ١١٠٥ من صحيفة الجوائب التركية تحت عنوان « القبض على المفسدين فى مصر » والذى تناول من اشترك فى الثورة ليثبت بذلك انه لم يعد على أرض مصر أحد لم يشترك فيها ، ويمضى عرابى فى خطابه ليبين أن الأمة كلها كانت معه « على رأى واحد فى أمر واحد هو تحرير البلاد والمدافعة عنها » ، وبذلك توحدت جهود المصريين من أجل تحقيق

آمالهم فالتقوا جميعا في الميدان الثوري للعمل المشترك وأصبحت ثورتهم ثورة شعبية صادقة تشهد لها ثورات شـبيهة فى أوربا قامت مطالبـــة بالاستقلال نازعة للحرية ساعية الى الدستور ، وهى بذلك تعد أولى الثورات الدستورية في المنطقة ٠

وأخيرا فان لكل ثورة أنصارها وخصومها ، لكن بيان الحقائق ووضعها فى مكانها وعدم التحيز لاتجاه أو لآخـر ، وقياس الاحداث بالفترة الزمنية التى عاشتها يجعل الحكم أقرب الى الصواب وهذا ما سعيت اليه من خلال تلك الصفحات ٠

المحـــتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦٠٧/١٩٨١

ISBN ٩٧٧ ٧٣٤٥ ٢١ ٣

مطابع الهيئة المص

١٧٠ قرشاً